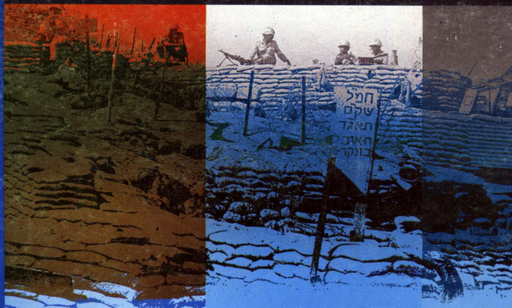
د. جمـــال حمـــدان

٦ أكتوبر

فى الاستراتيجية العالمية



دار الهلال

٦ أكتوبر
فى الاستراتيجية العالمية

دكتور جمال حمدان



دار الهلال

الغلاف للفنـان
محمد أبو طالب

مقدمة

مخطىء جدا من ينظر إلى معركة سيناء والجولان المظفرة ، التى عاشها ومازال يعيشها اليوم كل عربى بكل خلجة وخلية من أعصابه ووجدانه ، وبكل نبضة وومضة فى قلبه وكيانه ، نقول مخطىء هو جدا حين ينظر إليها فى إطارها الضيق وفى أبعادها المحلية كمجرد النقيض الموضوعى المباشر لمعركة يونيو ١٩٦٧ .

مخطىء جدا من يظن عبورنا المقدس إلى قدس الأقداس سيناء أمرا ستقتصر دلالته فى النهاية على «إزالة آثار العدوان» ، أو أن العودة إلى سيناء والجولان تعنى مجرد العودة إلى ما قبل ٥ يونيو ، أى إلى حدود وأوضاع وتوازنات ٤ يونيو.

كلا ، ليست حرب أكتوبر التحريرية العظمى والماجدة مجرد المكافىء الموضوعى أو الرد الاستراتيجى على نكسة يونيو ، وليس ٦ أكتوبر الخالد مجرد نسخ أو ناسخ ليوم ٥ يونيو الحزين . ففى يقين هذا الكاتب أن التاريخ سوف يسجل ٦ أكتوبر كأخطر وأفعل ، مثلما هو أعظم وأروع ، تحول مؤثر فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى المفعم ، وبالتالى فى تاريخ العرب جميعا ، ومن ثم - وبدون إفراط فى المبالغة - فى تاريخ العالم المرئى كله .

ان هذه اللحظة التاريخية وهذه الأيام الفاصلة المشحونة بالانفعالات المتوقدة والتوتر المضطرم والترقب الملتهف ، قد لا تترك مجالا للرؤية المستأنية ولا للفكر المتروى ، وقد تغلب فيها شحنة العاطفة الدافقة والحماس المتأجج على طاقة العقل والروية وعلى بعد النظر ووضوح الرؤية . ولكننا مع ذلك نزعم أن هذا ليس وقتا للحماس فقط بل هو وقت للفكر أيضا ، بل ليس وقتا للانفعال بقدر ما هو وقت للفعل . كما نرى أن صورة المستقبل، على الأقل فى بروفيله العريض ، قد فرضت منذ العبور نفسها ، وأصبح علينا أن نمد بصرنا وبصيرتنا عبر سيناء والجولان إلى ما وراء الجـــولان وسيناء ، وعبر المعركة إلى ما بعد النصر .

فى مثل هذا الاطار التاريخى والاستراتيجى الشامل وحده ، نحن نجادل ، ينبغى أن ننظر إلى المعركة الوطنية العظمى التى دارت رحاها أخيرا على أرض سيناء والجولان ،

بوابة مصر وعتبة سوريا اللتين تحولتا اليوم إلى قبلة مصر وسوريا ، واليهما تحول قلب البلدين ، واللتين ستتحولان يوما إلى كماشة العرب حول عنق العدو فى عقر داره - دارنا السليبة فلسطين .

ليس من الســابق لأوانه اذن أن نحاول تقييما شاملا محيطا للمعركة بكل أبعادها وفى أوسع أطرها ، ابتداء من تطوراتها الموضعية الميـدانية إلى موقعها من الاستراتيجية العــالميــة برمتها ، مرورا بكل أصدائها وإشعاعاتها وانعكاساتها العسكرية والسـياسية وكذلك نتائجــها ومحمولاتها واحتمــالاتها الجيوســتراتيجـية والجيوبوليتيكية .

حقا قد يكون الوقت مبكرا نوعا للوصول إلى أحكام نهائية وانتهـاءات قاطعة يقينية ، ولكن هذا لا يمنع من المحــــاولة الاجتهــادية . ولقد نشرت الصحافة العالمية بالفعل فيضا غزيرا من الكتابات السريعة أو الدقيقة والمخففة أو المعمقة ، كما توفرت فورا مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية واكاديميات الأبحاث العسكرية فى كل أركان الدنيا على تحليل المعركة وتشريحها بطريقة علمية منهجية ، ولن يمضى وقت طويل حتى تتكون لدينا مكتبة كاملة وحافلة فى هذا المجال .

وما نود أن نقدمه اليوم فى هذه الدراسة هو عرض منهجى علمى (لا إعلامى) بقدر الامكان ومسح عام ولكنه شامل فى حدود الممكن والمتاح ، لتلك المعركة المجيدة ، لا يضعها هى وحدها فقط فى البؤرة وتحت المجهر ، وانما كذلك يضع الصراع المصيرى كله فى اطارها . نريد ، بعبارة أخرى ، أن نرصد القضية نفسها وبأسرها من خلال منظور المعركة ومنظارها ، كأنها المنشور الذى تمر منه كل أشعتها وخيوطها لتنصب فى حزمة ضوئية واحدة نهائية أو تتحلل إلى عواملها وطيوفها الأولية . المطلوب هو ألا نحلل خيوط هذه المعركة وكفى ، وانما كذلك أن ننسجها فى شبكة الصراع كله .

وليس أقل أهمية وضرورة بعد هذا أن نضع المعركة كلها فى المنظـور العالمى الواسع، بحيث نحدد مكانها من الاستراتيجية الكوكبية ، وقعا وموقعـا ، ودورا ووظيفة . هدف طموح وشاق لا شك ، وربما شائك أيضا ، ولكنه وحده المنهج الصحيح فى دراسة معارك المصير ، وهو بدوره الجدير بمثلها وحدها .

على هذا الأساس تتحدد خطة الكتاب . فنبدأ أولا بفصل مطول عن سيناء ، قــدس أقداس مصر ، يرسم الخطوط العريضة فى جغرافيتها الطبيعية والبشرية والعسكرية ، الموارد والسكان، الاستراتيجية والتاريخ .. الخ .

ويضغط الفصل بصفة خاصة على شبكة سيناء الاستراتيجية : محاورها وخطوط دفاعها التى تحدد معالمها كمسرح قتال وترسم الهيكل القاعدى فى جغرافيتها العسكرية. وفى النهاية تخرج بمعنى سيناء فى الوجود المصرى ومستقبل الوجود المصرى فى سيناء.

الفصل الثانى وما بعده يدور حول المعركة : مقدماتها وخططها ، ثم مراحلها العسكرية البارزة ابتداء من العبور التاريخى إلى اقتحام الخط العدو فتحرير القاعدة الأرضية العريضة فى غرب سيناء وأخيرا عملية التسلل أو الثغرة . وتاكيدا لوحدة المعركة على الجبهتين المصرية والسورية ، نستكمل العرض مباشرة وبدون انقطاع بتحليل مركز للمعركة السورية ، يصور المسرح الطبيعى ثم يحدد تطوراتها ومراحلها هى الأخرى .

وفى تحديد وتصنيف هذه المراحل ، تحاول الدراسة أن تعيد تركيب «سيناريو» المعركة، ان صح التعبير ، فى تسلسله المنطقى وتداعى أحداثه الطبيعى ، بحيث تخرج الصورة النهائية واضحة فى الذهن كما هى خفيفة الحمل فى الذاكرة . فإذا ما فرغنا من هذا الاستعراض الشريطى ، جاز لنا أن ننظر إلى المعركة ، على جبهتيها وبشتى مراحلها، ككل وكوحدة واحدة نظرة تحليلية وتركيبية معا ، جامعة وشاملة . فنحاول أولا التعرف على خصائصها الأساسية العامة ، ثم نضعها بعد ذلك فى الميزان : ما نتيجتها الصافية ، ولمن كان النصر فيها .

ثم يلى بعد ذلك الفصل السادس ، وهو عن السادس من أكتوبر فى الاستراتيجية العسكرية . فليست معركة أكتوبر من الناحية العسكرية بالمعركة البسيطة أو المحدودة ، ولا هى بالمعركة التقليدية الرتيبة أو الروتينية كذلك . ومن ثم يحاول الفصل أن يحدد أصالتها وأوجه تفردها وريادتها ثم يشخص مقوماتها وملامحها الأساسية : فى السلاح وأنواعه ونوعيته واستخدامه ، فى القوة البشرية ودورها ، فى طبيعتها ومدتها وتوقيتها ، وفى كل ما أحدثته من انقلابات فى الفكر الاستراتيجى وفى النظريات العسكرية .. الخ .

واستكمالا للموضوع ، ننتقل إلى دراسة مقارنة للسادس من أكتوبر فى الاستراتيجية الاقليمية . فنعقد أولا مقارنة بين معركة اكتوبر وحرب الهند - الباكستان ، آخر حرب محلية سبقتها وأقربها شبها بها فى كثير من النواحى العسكرية والسياسية بل والصراعية العامة . ثم نمضى إلى مقارنة أكثر تفصيلا بين معركة أكتوبر ونقيضتها

غير الأثيرة على الاطلاق والبغيضة جدا معركة يونيو ، لنجدهما على طرفى نقيض بالفعل كالشـــيء وصورته مقلوبة معكوسة فى مرآة . وأخيرا نضع المعركة موضع المقارنة مع المعارك الكبرى فى الحرب العالمية الـثانية ، باعتبار أن الصراع العربى - الصهيونى هو إلى حد أو آخر تصغير أو تقريب للصراع الأوربى - النازى من حيث ان العنصرية والتوسعية والعسكرية قاسم مشترك بين الطرفين العدوانيين فى كل منهما .

بعد هذا يبدأ باب جديد مداره اكتوبر فى استراتيجية السياسة العالمية . لقد انتقلنا من الضـيق إلى الواسع ، ومن الاطار المحلى والاقليمى إلى الاطار الدولى العريض . النظرة هنا كوكبية والأبعاد عالمية ، فأصداء ٦ اكتوبر وأضواؤه ، اشعاعاته وانعكاساته ، تملأ الدنيا وتلف حول الكرة الأرضية وتتردد فى كل أرجائها لا أقل . إنها ليست مجرد حدث عسكرى مدو أو فرقعة محلية مبهرة . وعلينا اذن أن «نركب» المعركة فى منحنيات الاستراتيجية العالمية وفى معادلة القوة الدولية .

فنبدأ أولا بفصل عن العرب والمعركة : أين كانوا قبلها وكيف ، تأثيرات يونيو السياسية وطنيا وقوميا ودوليا ، ثم الانقلاب الذى أحدثه ٦ اكتوبر فى دنيا العرب على المستويات الثلاثة نفسها ، مغزاه ومداه ، مستقبله ومستقبلهم .. الخ . ولما كانت معركة البترول هى الوجه الآخر لمعركة الميدان وصنوا لها ، وكانت معركة البترول معركة عالمية الأبعاد بالدرجة الأولى ، فقد أفردنا فى نهاية الفصل جزءا خاصا عن حرب البترول وتطوراتها ومدى فاعليتها ووقعها على العالم ، واضعين الضغط دائما على الجوانب السياسية الواسعة جنبا إلى جنب مع الجوانب الاقتصادية المباشرة .

وما دمنا قد عقدنا فصلا مستقلا عن العرب والمعركة ، فلا بد من فصل مناظر عن العدو والمعركة . انه طلبتها وضحيتها ، وهو أولى بدروسها وعبرها . وهكذا عرضنا أولا لموقف العدو المتغطرس والمفتون قبل اكتوبر ، خططه ومشـــاريعه ونـواياه وتصريحاته ، عربدته واعتــداءاته ... الخ . حتى إذا انقلبت الصورة وانعكست المرآة فى اكتوبر ، أصبح علينا أن نحدد نتائجـــها ونحلل آثارها الانقلابية عليه : الانهيار النفسى ، اختـــلال التوازن الاستراتيجى ، سقوط استراتيجيته الاقليمية ، وأخيرا وليس آخرا تصــــدع نظـــرية الأمن الاسرائيلى . وعند كل واحدة من هـــذه النقاط نتوقف قليلا أو كثيرا بالدراسة والتشريح .

العالم والمعركة هو موضوع الفصل التالى . فلقد كان العالم دائما الطرف الثالث فى الصراع العربى - الاسرائيلى ، ضابطا وضاغطا ، شريكا أو متطفلا ، عدوا أو صديقا ... الخ . وكان الصراع بدوره عالمى الأبعاد منذ البداية بقدر ما هو صـــراع محلى فى النهاية . من هنا نتتبع دور العالم فى القضية وموقفـــه منها ، قبل وأثناء وبعد يونيو ، حالة اللاحرب واللاسلم ، دور الأمم المتحدة ، دور القوتين الأعظم والوفاق ، دور المتغيرات الدوليـــة ... الخ . ثم أخيرا نـــرى كيف انقلـب المفعول به فاعلا ، فأصبح اكتوبر آخر وأخطر المتغيرات الدولية ، فرض نفسـه على الجميع وترك بصمته على كل تلك الأطراف . وهنا نحلل تباعـا وعلى الترتيب أثر المعركة على الوفـــاق ، على أوربا الغربية ، على افريقيا ، ثم أخيرا على الولايات ، المتحدة مع العدو الاسرائيلى .

لا يبقىَ لنا بعد هذا سوى باب أخير يحاول أن يغادر الحاضر قليلا ليسقطه على المستقبل . ماهى احتمالات المستقبل ، وما مستقبل الصراع بعد أكتوبر ؟

متى وهل ينسحب العدو من الأراضى المحتلة سلماً وطواعية ، أم هى الحرب من جديد؟ أهو الحل السياسى المقبول أم الحل العسكرى مستقبلا ؟ ما معامل الأمل واليأس فى عودة فلسطين ؟ إلى آخره ، إلى آخره .

حول هذه الأسئلة وغيرها يدور فصلا هذا الباب ، الأول منهما عن المدى القريب، والثانى عن المدى البعيد . وفى الاثنين يبرز أكتوبر كحجر الزاوية أو كحجر الأساس ، ولا نقول كحجر الفلاسفة .

وإذا كانت الدراسة قد انتهت إلى أن الرحلة أمام التحرير العربى والاسترداد المقدس ما تزال طويلة ومريرة وشاقة ، وإذا كان اكتوبر هو مجرد الخطوة الأولى فى رحلة الألف ميل ، فإن روح السادس قد قضت مرة واحدة وإلى الأبد بعودة الروح وفتحت إلى النهاية باب الأمل وطريق العودة . ومن هنا نبدأ .

الباب الأول

الأرض والمعركة

الفصل الأول

قدس أقداس مصر

سيناء - ٦١ ألف كيلو متر مربع ، حوالى ٦٪ أو $\frac{١}{١٦}$ من مساحة مصر ، أو نحو ٣ أمثال مساحة الدلتا - تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون (البردويل) حتى رأس محمد نحو ٣٨٠ - ٣٩٠ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم . أى أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلا ، قل بالأرقام المستديرة ٤٠٠ ، ٢٠٠ كم على الترتيب . ولعل الأدق لهذا أن نقول مثلثا مائلا قليلا فى الجنوب ، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبا فى الشمال . المستطيل الشمالى ، أو «شمال سيناء» ، أضلاعه قناة السويس غربا ، والحدود السياسية مع فلسطين شرقا ، ثم ساحل البحر المتوسط شمالا ، وأخيرا الخط المائل بين رأسى خليجى السويس والعقبة جنوبا ، أو قل تجاوزا خط عرض ٣٠ درجة . ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠ - ٢١٠ كم ، وعرضه ثلثا ذلك تقريبا أى نحو ١٥٠ كم . أما المثلث الجنوبى ، أو «جنوب سيناء» ، فرأسه عند رأس محمد جنوب خط عرض ٢٨ درجة بقليل ، وارتفاعه نحو ٢٣٠ كم . أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة ، الأول طوله ٢٧٥ كم ، والثانى ١٨٠ كم .

هذا عن الشكل الخارجى . أما من الداخل فسيناء على الخريطة وفى الحقيقة ثلاثية فى مثلث . فهى تنقسم إلى ثلاثة أقاليم طبيعية أو فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب : سهول واسعة تعرف اصطلاحا بسهول العريش وأحيانا بالصحراء ، هضبة وسطى يطلق عليها تعميما هضبة التيه ، ثم أخيرا كتلة جبلية تسمى عموما جبل الطور .

هذا وبكل المقاييس المناخية ، تعد سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية . فالأمطار الشتوية قليلة نادرة ، تتخلف أحيانا وأحيانا تتحول إلى سيول فجائية عنيفة جارفة . والأمطار بعامة تقل نحو الجنوب ، تصرف الأودية أكثرها إلى البحر ، ولكن

الرمال خاصة فى الشمال تحتفظ بجزء منها فى باطن التربة . ومن هنا تصبح الأودية أولا ، والآبار الجوفية ثانيا ، أهم موارد المياه . وهذه بدورها تكتسب قيمة حيوية كبرى فى هذه البيئة الفقيرة ، وتصبح هى أهم ضوابط الانتاج الاقتصادى وبالتالى توزيع العمران .

وبحكم مورفولوجية سيناء العامة ، فإن نمط التصريف الذى يسود سيناء برمتها هو النمط الدائرى المشع radial ، فكل أوديتها تنبع من قلب المرتفعات أو من ضلوعها متجهة إلى سواحلها الثلاثة ، ولذلك ترسم شبكة الصرف الهيدرولوجى ، ومعها شبكة الطرق والمسالك الطبيعية ، وفى النهاية الامكانيات الاقتصادية ونمط العمران ، ترسم حلقة هامشية تحف بأطراف شبه الجزيرة .

السهول الشمالية

متوسط اتساعها يتراوح حول ٥٠ كم ، ولكنها تزيد على ذلك فى الغرب كثيرا وفى الشرق نوعاً . وهى تتدرج بطبيعة الحال فى الارتفاع ، فتعلو باطراد من الشمال إلى الجنوب . ولذا يختلف شمالها عن جنوبها فى المستوى وفى التضرس . ويمكن بالتقريب أن نحددها بين مستوى سطح البحر وخط كنتور ٢٠٠ متر . فهى منخفضة وفسيحة بعامة ، تحف سواحلها المستنقعات والسبخات والأراضى الملحية وأهمها سبخة البردويل الطولية وامتدادها بحيرة الزرانيق وسبخة سهل الطينة فى مواجهة بحيرة المنزلة . ولكن أبرز ما يميز هذه السهول الشمالية هى الكثبان الرملية البليستوسينية الحديثة التى تغطى الجزء الأكبر منها ، والتى قد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ متر ، والتى أعطتها اسمها العربى القديم ، اقليم الجفار ، كما تعطى اللاندسكيب أخص ملامحه وتلعب دورا خاصا فى الحياة الاقتصادية وتعين حدود الحركة والمواصلات .

والمطر على الشريط الساحلى أغزر ما فى سيناء ، ولكنه يقل بسرعة نحو الجنوب . وهو على الساحل يزداد كلما اتجهنا شرقا ، حيث امكانيات الحياة والزراعة وموارد المياه أغنى والعمران أكثف ، خاصة فى قطاع العريش – رفح . وإذ تسقط هذه الأمطار على نطاق الكثبان ، تتحول هذه الأخيرة إلى خزانات طبيعية ثمينة جدا للمياه ، فتصبح المياه الجوفية والآبار عماد الاستقرار والحركة ، أى الزراعة والعمران من ناحية وحركة المواصلات والجيوش من الناحية الأخرى على الترتيب .

وللفتحات التى تفصل بينها قيمة كبرى كطرق الحركة والمواصلات الطبيعية ، ومن هنا تستمد أهميتها الاستراتيجية الخاصة .

ورغم أن هذه الجبال تنتشر على صفحة السهول الجنوبية عموما بلا تحـديد أو نظام صارم ، وأحيانا تتجاوزها إلى أطراف السهول الشمالية ، فانها تؤلف فى مجموعها خطا واضحا إلى حد بعيد أشبه بالقاطع الذى يختط المستطيل القاعدى الشمالى بعامة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، أى من قرب منطقة السويس إلى قرب منطقة أبو عجيلة (أبو عويقلة) . والأنوية والفتحات والممرات التى تفصل بين حلقات هذا الخط تقدم مفاتيح الحركة الحرجة .

فإذا بدأنا من الجنوب الغربى وجدنا أولا كتلة جبلية طولية تنقسم بعدد من الأنوية والممرات العرضية إلى عدة جبال منفصلة . فهناك جبل الراحة الذى يحده جنوبا وادى سدر فاصلا إياه عن كتلة الهضبة الوسطى ، بينما يحده شمالا ممر متلا الذى يقع إلى الشمال منه جبل حيطان . ويمتد ممر متلا بضع عشرات من الكيلو مترات ، ولكنه يضيق حتى يصل أحيانا إلى عدة عشرات من الأمتار فقط . ثم يلى إلى الشمال جبل أم خشيب، ويفصله عن جبل حيطان وادى وممر الجدى . وأخيرا فى أقصى الشمال نجد جبل الختمية الذى يفصله عن جبل أم خشيب ممر آخر هو ممر الختمية .

فإذا ما عدنا مع القاطع الاساسى وجدنا إلى الشمال الشرقى فى قلب الوسط جبل يلق (يلج) ، ثم بعيدا أكثر وفى الاتجاه نفسه جبل حلال الذى تتمه تلال أقل ارتفاعا تصل بنا فى النهاية إلى منطقة أبو عجيلة وثمة إلى الشمال كثيرا من جبل يلق وبعيدا عنه جبل صغير هو جبل المغارة ، يناظره إلى الشمال من جبل حلال جبل صغير آخر هو جبل لبنى. وكلا الجبلين الصغيرين يمثلان بعض مقدمات أو طلائع القاطع الجبلى .

بعد مقـدم الهضبة هذا تبدأ كتلتها الحقيقية بنواتها الصلبة وصلبها المتماسك . ومعظم مناجم سيناء المعدنية ، خاصة مناجم المنجنيز والفوسفـات ، تقع على الضـلوع والمنحدرات الغربية لهذه الكتلة الهضبية ، أى التى تطل منها على خليج السويس . وإذا كانت التسمية الشائعة لها هى هضـبة التيه ، فإنهـا فى الحقـيقة تتألف من هضبتين تكـاد أيضا تتنصف بينهما عمقا : هضبة التيه فى الشمال ، والعجمة فى الجنوب . وكلتا الهضبتين مائدية السطح ، تتكون من الصخور الجيرية ، وتنحدر فى الشمال بحافة حادة تحددها بوضوح .

فهضبة التيه ، التى تغلب عليها الصخور الطباشيرية ، ترتفع عن السهول الشمالية بجرف كبير ، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ متر . وهى بطبيعة الحال الأكثر عرضا واتساعا وبالتالى مساحة (نحو الضعف) ، كما أنها مقطعة بروافد وادى العريش العليا ، الذى يصرفها وتقع هى فى حوضه .

أما هضبة العجمة فأقل عرضا ومساحتها نحو نصف مساحة هضبة التيه . غير أنها أشد ارتفاعا ، بين ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر . يفصلها عن هضبة التيه فى الشمال جرف منحدر آخر ، وهذه الحافة تكاد تحدد خط تقسيم روافد وادى العريش ، بحيث لا تدخل هضبة العجمة نفسها فيه ، بل يصرفها عدد محدود من الأودية الصغيرة التى تنصب فى خليجى العقبة والسويس .

هذه بصورة عامة مورفولوجية الهضبة الوسطى من سيناء بأقسامها المختلفة ، ولا تكتمل إلا باضافة ذلك الوادى الكبير الذى يمنحها وحدتها العامة – وادى العريش . فوادى العريش ليس فقط أكبر الأودية الصحراوية طولا وتشعبا ومساحة حوض فى سيناء وحدها ، ولكنه من أكبر ما فى مصر كلها ، فلعله يتفوق على كل أودية جنوب الصحراء الشرقية فى هذه الأبعاد ربما باستثناء العلاقى وحده . وهو على أية حال أكثر أودية مصر الصحراوية شمالية واعتدالا وأقلها مدارية . ولا غرابة بعد هذا أنه كان يسمى منذ أقدم العصور «بنهر مصر» .

طوله نحو ٢٥٠ كم ، وحوض صرفه يكاد يضم نصف مساحة سيناء ، ويجمع ثلثى مياهها جميعا . أما تركيبه المورفولوجى فشجرى مثالى dendritic ، يتألف من عدد كبير جدا من الروافد التى تنتظم كالمروحة أو العنقود أو الحزمة . تنبع روافد الوادى العليا من جنوب هضبة التيه على ارتفاع ١٠٠٠ متر ويكاد خط تقسيم مياهه أن يحدد جبهة التقسيم بين هذه الهضبة فى الشمال وهضبة العجمة إلى الجنوب منها . وبعد أن تقطع روافده العديدة هضبة التيه وتقطعها ، تتجمع فى مجمعين أساسيين هما وادى العقبة من الجنوب الشرقى ووادى البروك من الجنوب الغربى .

والمهم هنا أن نلاحظ أن كثيراً جدا من مواقع وسط وشمال سيناء المعروفة ، على الحدود السياسية كما فى القلب الداخلى ، تقع على واحد أو أكثر من هذه الروافد . مثال ذلك : نخل ، بير جبل الحصن ، بير التمادة ، الثمد ، فى الداخل ، ثم الكونتيلا ،

القصيمة، العوجة على الحدود ، بينما تقع أبو عجيلة عليه قرب مصبه ، ثم بعدها بير لحفن قبل أن ينتهى أخيرا عند مدينة العريش .

الكتلة الجبلية

أو كتلة جبل الطور ، تحتل الثلث الجنوبى الأقصى والأضيق من مثلث شبه الجزيرة المحد بالخليجين . لذا فمساحتها رقعة محدودة نسبياً ، ولكنها متميزة إلى أقصى حد . يفصلها عن نهاية الهضبة الوسطى (قطاع العجمة) مجموعة من الأودية الجبلية المعقدة العميقة التى تنتهى إلى الخليجين شرقا وغربا ، والتى تحدد طريق المواصلات الأساسى عبر شبه الجزيرة فى هذا الجزء الوعر منها . ويمكن تحديد هذا الفاصل أساسا بواديى نصب شرقا وفيران غربا .

فيما عدا هذا ، فالكتلة نفسها نواة معقدة إلى أقصى حد من الصخور النارية والمتحولة القديمة ، يسودها الجرانيت بألوانه المختلفة ، فإن الأمطار هنا وبفضل هذا الارتفاع أغزر مما هى عليه فى الهضبة الوسطى ، وموارد المياه فى الأودية أعذب ، لكن اللاندسكيب فقير عار والجبال جرداء كما هى وعرة وقاسية .

وعلى امتداد مثلث شبه الجزيرة فى مجموعه ، هناك فارق مهم بين السهول الساحلية، كما بين الخليجين ، شرقا وغربا . فعلى الغرب تترك الهضبة والجبال سهلا ساحليا متسعا نسبيا يصل إلى أقصى مداه فى نصفه الجنوبى حيث يعرف بسهل القاع الذى تتوسطه مدينة الطور . كذلك تكثر الأودية الجبلية الطويلة مثل سدر وسدرى ، ولكن بالأخص وادى فيران أطولها وأغناها بالنبات والواحات . أما على خليج العقبة فلا تكاد المرتفعات تترك سهلا ساحليا بمعنى الكلمة ، وقد يختنق تماما ، مما ينعكس على المواصلات . كذلك فإن الأودية الجبلية قصيرة منحدرة قليلة العدد والأهمية وأهمها هو وادى نصب التى تقع على مصبه ميناء دهب .

كذلك يختلف الخليجان اختلافا جذريا . فخليج السويس أعرض كما هو أطول ، ولكنه أساساً رصيفى متوسط العمق ، أقل كثيرا من ١٠٠ متر . أما خليج العقبة فأضيق كثيرا كما هو أقصر . ولكن الفارق الأكبر أنه أعمق بكثير جدا من خليج السويس ، أخدودى جدا ، نحو ١٠٠٠ متر عمقا ، أى أكثر من عشرة أمثال خليج السويس . أما سبب هذا الاختلاف فهو العمر الجيولوجى . فخليج السويس أقدم جدا ، ومن ثم رفعت قاعة

الارسابات المتراكمة ، أما العقبة فخليج حديث النشأة للغاية . وأخيرا فإن السويس خليج مدخله أكثر انفتاحا واتساعا ، إلا من جزر الشعاب المرجانية التى من أهمها شدوان (شاكر) . أما خليج العقبة فبحر شبه مغلق يختنق مدخله بعنق ضيق هو مضيق تيران الذى تتوسطه جزيرتا تيران وصنافير .

فعلى الساحل الشمالى شريط من الأراضى الصالحة للزراعة التى لا تنقصها موارد المياه المعقولة . وتتركز الزراعة خاصة فى القطاع الشرقى منه ، حيث تقوم زراعات الفواكه والأشجار المثمرة والخضروات إلى جانب أجام النخيل الكثيفة . وفى القطاع الغربى ، خاصة سهل الطينة ، رقع من التربة من أصل إرسابات فروع دلتا النيل القديمة، تمثل امكانيات جيدة للاستصلاح والاستزراع .

ولكن رغم أهمية الزراعة والاستقرار فى الساحل الشمالى ، فإن الرعى والبداوة تسود الرقعة الكبرى من سيناء وتمثل الحرفة الأساسية للجزء الأكبر من سكانها ، نحو الثلثين ربما . كذلك فرغم أهمية التعدين منذ القدم ، وخاصة فى العصر الحديث ، والأخص منذ البترول ، فإنه يقتصر أساسا على نطاق ساحل خليج السويس وما وراءه من منحدرات ، فهنا كانت تتركز مناجم المعادن والأحجار الكريمة خاصة الذهب والفيروز ومحاجر الفراعنة القديمة ، وهنا تتركز مناجم الفوسفات والمنجنيز والحديد الحديثة ، وأهم منها حقول البترول التى كانت فى وقت ما تقدم نحو ثلثى انتاج مصر . وفيما عدا هذا ، فإن الصيد يتوزع على السواحل ، وخاصة فى بحيرات الشمال .

على هذه القاعدة الاقتصادية المخلخلة يقوم الهيكل العمرانى وبها يتحدد . فمجموع السكان محدود جدا بالنسبة إلى المساحة الشاسعة . وتتفاوت تقديرات السكان بشدة ، ما بين ١٠٠ ألف ، ٢٠٠ ألف قبل الاحتلال الاسرائيلى (الذى فرغ المنطقة من نحو نصف سكانها فيما يقدر بالتهجير الاجبارى والطرد والارهاب) . وهذا يعادل بالكاد سكان مدينة متوسطة الحجم فى وادى النيل . ولهذا فإن متوسط الكثافة العام منخفض جدا ، ١ -٣ نسمة فى الكيلو متر المربع .

ولكن التوزيع الفعلى للسكان مركز أساسا فى مواطن الانتاج والمياه التى ترتبط بأطراف المنطقة وهوامشها ، بينما تخلو رقع كثيرة وشاسعة فى الداخل الهضبى والجبلى من السكان تقريبا وتكاد تعد من اللامعمور . ولهذا يأخذ العمران بصورة

تقـــريبية نمطـــا حلقيا حـــول «القلب الميت» . وهذه صـــورة مألوفة فى الجغرافيا البشرية ، ولكنها هنا تبدو أشـــد غرابـة لأن المنطقة جميعا ضعيفة السكان للغاية .

وتأخذ حلقة العمران شكل الشريط المتصل نوعا على الساحل الشمالى الشرقى من رفح حتى البردويل ، تتوجه مدينة العريش ، كبرى مدن سيناء ، نحو ٥٠ ألفا ، تمثل وحدها نحو ربع إلى ثلث سكان شبه الجزيرة . وينقطع هذا الشريط فى امتداده غربا ، ثم يتحول إلى عقد من النقط المأهولة على الضفة الشرقية لقناة السويس حيث مدن القناة الصغيرة ، وكبراها القنطرة شرق التى تعد ثانى أكبر مدينة فى سيناء ، وعلى ساحل خليج السويس ينتثر عقد مدن التعدين مثل أبو زنيمة ، ومستعمرات البترول الحديثة التى أبرزها أبو رديس . وعلى ساحل خليج العقبة تزداد نقط العمران تباعدا وتضاؤلا ، وأغلبها موانى الصيد أو الموانى الحربية . وتكمل الحلقة على طول الحدود الشرقية مجموعة من نقط المخافر والمراكز العسكرية ابتداء من رأس النقب وطابا والكونتيلا إلى القصيمة والعوجة وأبو عجيلة . وفيما عدا هذا ، فهناك شتيت منثور من الواحات ومراكز الاستقرار الصغيرة فى قلب الداخل أشبه بالجزر المنعزلة وأغلبها مرتبط بالأودية الرئيسية وخاصة على نقط تقاطعها .

الفصل الثانى

معركة التحرير الكبرى

معركة العودة

لقد عدنا يا دايان ! نعم ، عدنا إلى سيناء لا بشروط صهيون المهينة والحلول الاستسلامية ، كما ظل سنوات يتبجح بكل غرور الحقود وصلف المتحكم القمىء ، ولكن على اشلائه وفوق جثته عدنا . عدنا بقوة الحديد والنار بعد أن أنفق العدو ست سنوات يصور وجوده فى سيناء المحتلة قلعة صماء غير منفذة للغزو مستحيل اقتحامها . والواقع أن العدو – وهو خبيث اكثر مما هو ذكى ، وحاقد أكثر منه قادرا كما كان يظنه البعض – انما أنفق تلك السنوات فى محاولة عظمى لكى يكسب المعركة المنتظرة بغير رصاصة على الاطلاق أو قبل اطلاق الرصاصة الأولى .

والاشارة هى بالطبع إلى الحرب النفسية الضارية المخططة التى شنها . فكل ما كان العدو يقوله ويفعله طوال السنوات الأخيرة كان موجها إلى المعركة الرابعة ، أو بالأحرى إلى ألا تكون معركة رابعة على الاطلاق . فبكل طريقة موجبة وسالبة كان يحاول أن يستغل انتصاره السابق وأن يستثمر هزيمتنا ليهزمنا ثانيا . بحملات التشكيك العاتية فى قدراتنا وامكانياتنا ومعنوياتنا ، بل حتى فى طبيعتنا وشخصيتنا ، ثم فى تسليحنا وأصدقائنا ، حاول أن يتسرب حتى يترسب فى أعماقنا ألا فائدة ولا جدوى . وبالأسطورة الخرافية التى بناها عن «جيش الدفاع الذى لا يقهر» وقادته «آلهة الحرب الجدد» (كذا) ، والتفوق التكنولوجى والجوى الطاغى ، والحرب الالكترونية ، وباستعراض عضلاته وأسلحته المتطورة والسرية ، بميراجه والفانتوم .. الخ .. بكل هذا حاول بانتظام ارهابنا نفسيا لنرتعد فنرتدع فنتقاعس عن المواجهة .

والجدير بالذكر أن العدو تابع حملته النفسية بانتظام وعن عمد وتخطيط لتحطيم أعصابنا ومعنوياتنا حتى آخر لحظة قبل أن يتلقى صدمة عمره ، بل وحتى بعدها . فكلنا لا شك مازال يذكر صرخة اليعازر الارهابية «سندق لحمهم فى عظامهم» ، وصيحة المعلق

العسكرى للاذاعة الاسرائيلية «سنجعلهم يرون النجوم فى وضح النهار» .. وقبل الحرب بيومين فقط ، قال اليعازر فى حديث للتليفزيون البريطانى ما مؤداه أن الجيش المصرى إذا حاول عبور القناة فسيجد أمامه أقوى خط دفاعى فى العالم ، مما سيسبب له خسارة أكبر مما يظن القادة المصريون . وعلى الرغم من هذه الخسارة ، فلن يتمكن مصرى واحد من العبور إلى سيناء ، كما لن تتمكن دبابة مصرية واحدة من الوصول إليها . ثم أضاف رئيس الأركان الاسرائيلى أن سلاح الطيران سيكون أداة البطش والردع الاسرائيلى ، فلسوف يسود جو المعركة على الفور ، وسوف يتم القضاء على سلاح الطيران المصرى وعلى سلاح الدفاع الجوى أيضا فى الدقائق الأولى من بدء القتال . وختم اليعازر تهديداته بقمة الصلف والغرور : «إن هذه المرة ستكون حرب الساعات الست ، لا حرب الأيام الستة» ! أما مايير فقد عبرت عن العجرفة بالدهشة بدل التهديد ، قالت ببساطة فى حديثها إلى الاسرائيليين فى أول أيام القتال «ان الهجوم العربى يرقى إلى الجنون» ! أما دايان فكان لا يزال يعيش فى ١٩٦٧ ويحلم بتكراره ، قال يوم ٧ أكتوبر «يومان لصد الهجوم المصرى السورى ، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطى الاسرائيلى ، ثم يومان لإنهاء القتال» !

لقد خلقت اسرائيل الأسطورة بالفعل ، ضخمتها ، نشرتها واشاعتها ، ثم عاشت فيها حتى صدقتها ، وصدقتها حتى ارتدت إلى صدرها فى حركة عكسية «كالبوميرانج» فهزمتها ! - كلا ، بل نحن الذين هزمناها . فثمة الآن فى الغرب نظرية - تبريرية محض - تقول ان اسرائيل انما هزمت لأنها صدقت اسطورة تفوقها وعاشت فى أوهام استعلائها . وقد عبرت الأوبزيرفر عن هذه النظرية أثناء المعركة حين قالت «ان القادة الاسرائيليين لم يعتدوا إلا أقل القليل بمدى شجاعة خصومهم وقدرتهم التكنيكية ، ولربما وقعوا أيضا ، هؤلاء القادة ، ضحايا لأسطورة أنهم قوم لا يقهرون» .

على أننا نرى فى هذه النظرية من الانحراف أكثر مما فيها من الاعتراف. صحيح لقد كان الغرور الاسرائيلى الوقح وجنون العظمة مقتلا من مقاتلها ولكن الضربة الموجبة القاضية انما أتت من القدرة العربية الذاتية ، المفترى عليها طويلا ، ومن التخطيط والتصميم والارادة العربية . ونحن لم نسرق نصرا سهلا هشا من وراء ظهر العدو ، وانما انتزعناه من بين أسنانه بجدارة واقتدار .

لقد أراد العدو أن تكون المعركة الرابعة نسخة مكررة من معركة يونيو ، فجعلتها اليد العربية الجديدة ، العليا والطولى ، نسخة مقلوبة معكوسة منها . لقد استوعبنا نحن درس يونيو وتجربته المريرة ، وتركنا للعدو أن يمارس بهلوانياته الدعائية فى المباهاة والتفاخر وعبادة الذات وأن يجتر نرجسيته علنا . فكان حتما وحقا أن يدفع ثمن النصر الرخيص الذى سرقه فى غفلة من زمن .

وكما يلخص الهيثم الأيوبى بحذق المختص «يمكن القول هنا ان انتصار اسرائيل السهل فى عام ١٩٦٧ كان أكبر أعدائها ، وأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، وأن هزيمة ١٩٦٧ علمت العرب دروسا كثيرة وكانت أفضل حلفائهم فى الحرب الرابعة . وهكذا انطبقت على الصراع العربى - الاسرائيلى قاعدة أثبتها التاريخ العسكرى أكثر من مرة ، وهى أنه يندر أن يتعلم المنتصر الكثير من انتصاره ، أما المهزوم فهو أكبر المتعلمين من الهزيمة» . وفى المعنى نفسه قالت الديلى تلجراف «ان العرب قد استفادوا من هزيمتهم ١٩٦٧ ، بأفضل مما تعلم الاسرائيليون من انتصارهم» .

أركان الخطة

فما هى الآن نقط القوة فى الخطة العربية التى حققت بها القفزة الكبرى على سيناء فحققت لها النصر الميدانى الاستراتيجى والتكتيكى من البداية حتى النهاية تقريبا ؟ فيما عدا العوامل النفسية وحوافز التحرير والوطنية ونوعية المقاتل المصرى الجديد والسلاح والتدريب ... الخ ، أى فيما عدا العوامل المعنوية والمادية ، هى أبعاد استراتيجية أربعة تؤلف أركان الخطة وأعمدة القوة : المبادأة ، المفاجأة ، الحرب الشاملة ، وأخيرا الحرب الطويلة.

المبادأة

فأولا ، بالمبادأة نعنى الهجوم ، وبالدقة والتحديد المبادأة بالهجوم . ولقد كانت استراتيجية العدو دائما هجومية من البداية إلى النهاية ، وكان أبدا حريصا على ألا يترك لنا زمام المبادأة أو المبادرة . ولقد كان دايان دائما يردد متفاخرا «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» . وتلك فى الواقع كانت سياسة «الحرب الوقائية» المكنوية ملفقة المنطق ، سياسة شل الأعصاب وتدمير قوة الخصم غدرا على الأرض قبل أن يتحرك ، فيها كان العدو يرى صمام أمنه بل صميم وجوده ذاته ، وحولها خطط كل استراتيجيته العظمى ، ونكاد نضيف : وبها كانت تتجسم كل أخلاقياته ..

ومن الضرورى أن ندرك أن هذه الاستراتيجية الهجومية - بل هذه الاستراتيجية العظمى الهجومية ، لأنها المركز المحورى والمنبعى فى كل فلسفة العسكرية الصهيونية - هى جزء لا يتجزأ من الطبيعة الاستفزازية والعدوانية المتأصلة فى الوجود الاسرائيلى من أساسه . انها امتداد طبيعى ومنطقى جدا للاغتصاب الأصلى . ولهذا لم تكن قط خطة مرحلية ، بل سياسة ثابتة ودائمة بدأت مع قيام الدولة ، بل الييشوف ، وسوف تستمر إلى نهايتها .

خذ مثلا ما قاله الجنرال ايجال يادين ، من أوائل رؤساء أركان العدو « لا شىء - يقول هو فى كتاب له - أخطر على وجود اسرائيل من وجود الروح الهجومية عند العرب . لذلك يجب علينا أن نواجه هذه الروح الهجومية بضربات هجومية أشد وأقوى . ولا يجوز رد الهجوم الا بسبق العرب إليه . أما إذا سبقتنا القوات العربية إلى الهجوم ، فإن الهجوم المضاد يصبح الرد الوحيد والفعال» .

ولقد كان من الواضح تماما منذ يونيو أن ليس هناك قط ما يدعو العدو إلى تغيير استراتيجيته . ومن المؤكد أن هذا ما كان يبيته ويخطط له . وبالفعل ، فلقد اعترفت اسرائيل أخيرا وعلى لسان رئيسة وزارتها ولأول مرة منذ ٦ أكتوبر بأنها كانت تفكر فى الهجوم على مصر هجوما جويا شاملا فى «حرب وقائية» فى ذلك التاريخ نفسه وبعينه، لكنها كما زعمت عدلت فى آخر لحظة ، خشية أن تفقد المزيد من الرأى العام العالمى .

غير أننا ، مهما يكن ، كنا أسبق وأسرع ، فكانت الضربة الجوابية الأولى لنا فور بداية عدوانه على خليج السويس ، بحيث اختل توازن العدو فى اللحظة السيكولوجية ووضع على جانب الدفاع منذ اللحظة الأولى . وقد كان الاضطراب الشديد والفوضى الارتجالية البادية وردود الفعل العصبية الطائشة هى أبرز ملامح سلوك العدو فى الأيام الأولى وبالأخص الساعات الأولى من المعركة . وكان هذا كله دليلا ساطعا على أن «جيش الدفاع الاسرائيلى» ، كما يسمونه ، لم يكن جيشا للدفاع ولا صالحا للدفاع .

كانت كل عقيدته القتالية تدور حول محور الهجوم الخاطف والحرب القصيرة السريعة، غير معد نفسيا ولا عسكريا للدفاع الجدى . ومن الثابت أن هذا وحده كان عاملا من عوامل اهتزازه واضطرابه حين تعرض لأول حرب هجومية حقيقية فى تاريخه . وما من شك ، فى النتيجة ، أن مبادرتنا بالهجوم كانت مفتاح النصر ، فى حين أن فرض موقف

الدفاع على العدو كان بداية هزيمته إن لم يثبت فى النهاية أنه كان نصف الهزيمة بالنسبة له .

ومما يرجح هذا ، بل ويكاد يؤكده ، ردود فعل العدو لضياع المبادرة والمبادأة منه واختطاف العرب لها . فلقد ادعى لحين ما «الفضيلة» ، فلما وجد أنها «فضيلة العجز» كشف عن مكنون حقده بلا خباء . فمثلا قال ياريف «لقد جازفت حكومة اسرائيل عندما منحت العدو فرصة المبادرة دون أن تتخذ مبادرة وقائية ، لأنها أرادت أن تثبت للعالم أنها تريد السلام» .هذا بينما قال بارليف وهو يطفح بروح الانتقام «ان اسرائيل فوجئت مرة ، وأن هذا لن يتكرر ثانية ... ان الجيش الاسرائيلى لن يؤخذ على حين غرة كما حدث هذه المرة» . أما اليعازر فقد أعلن بمزيج من الندم والحذر أن «أمن اسرائيل لا يتوقف على تحذير أو انذار مسبق فقط ، وانما على جيش نظامى دائم وسلاح جوى قادر على منع وقوع كارثة فى حالة حدوث هجوم دون سابق إنذار كاف» .

وإذا نحن نظرنا إلى الحروب الثلاثة الأولى بين العرب واسرائيل نجدها جميعا «حروبا اسرائيلية» تماما أو تقريبا ، بمعنى أن زمام المبـــادأة والمبادرة والحركة والهجوم استراتيجيا وتكتيكيا فى يد اسرائيل ، هى التى تحدد الزمان والمكان ، وهى التى تفرض أسلوب القتال بما يلائمها ، وهى التى - فى النتيجة - تجنى ثمار النصر . أما العرب فعلى الدفاع الثابت السلبى ، مجرد رد فعل يحدد العدو ايقاعه ويرقصون هم على أنغامه.

أما فى أكتوبر فإن الاستراتيجية العظمى والروح السائدة والعقيدة القتالية هجومية أساسا ، سواء ذلك على المستوى الاستراتيجى أو التكتيكى ، وابتداء من تحديد الزمان والمكان إلى أساليب القتال الملائمة من حرب خاطفة صاعقة أو مواجهة تصادمية طويلة إلى الاقتراب غير المباشر والاختراق والتطويق ... الخ . ولقد اعترف العدو فعلا بأنه فى وقت ما من المعركة كان «يرقص على أنغام المصريين» (شارون) . حتى الدفاع هو الآخـــر كـــان لأول مرة أيضا ، دفاعا هجوميا ، بمعنى الدفاع الدينامى المتحرك لا الثابت ، بما فى ذلك الهجوم المضاد ، وبمعنى الحجم الهجومى والاستحكامات الحصينة وتكتيك الجذب والضرب ... الخ .

ولما كانت الحرب فى الحقيقة هى الهجوم ، فإن الدفاع مجرد جملة اعتراضية مهما طالت ووسيلة مرحلية لا غاية نهائية لكسب الوقت ريثما يتمكن الجانب الأضعف أو المفاجأ

من تطوير قواه إلى الهجوم . وكل دفاع يقف عند حد الدفاع البحت ولا يتعداه إلى الهجوم فى النهاية ، فهو فى أحسن الأحوال دفاع عن الوضع الراهن فقط ولا يمكن أن يخلق وضعا جديدا . الدفاع سلبى بالضرورة ، كما أن الايجابية الفعالة هى الهجوم وحده ولهذا يمكن القول بحق ، مع كاتب «الشرارة» الثاقب، ان معركة اكتوبر هى «حرب عربية صرفة ، بل وأول حرب عربية منذ بدء الصراع العربى - الاسرائيلى» .

ولا ينبغى أن يكون لدينا شك أن جزءا من انتصارنا يرجع إلى مبادرتنا بالهجوم . فالمهاجم والبادىء بالهجوم ، كقاعدة عامة وأساسية فى كتاب الحرب ، هو الأقدر والأقوى على فرض ارادته ، وهو الأقرب إلى احتمالات النصر ، والأكثر تدميرا للعدو حتى إن لم ينتصر . ولعل هذا فعلا هو المقصود بالشعار القديم «لا يكسب المعارك إلا من يخوضونها» . وعلى أية حال ، فلقد كان من دروس اكتوبر كما استخلصها جاليه وزير الدفاع الفرنسى أن حرب الشرق الأوسط أثبتت أن فرص الانتصار أكبر للمهاجم ، وأن الدفاع أدعى فى الحرب الحديثة القصيرة إلى الهزيمة ، أو هو على الأصح يرفع فرصها ويقلل فرص النصر . وإذا كان هذا هو درس المعركة ، كما هو درس التاريخ كله من قبل ، فالأهم أنه يبقى درس المستقبل وأمل العرب : لا ينبغى للعرب أن يكونوا بعد اليوم على الدفاع ، الهجوم أولا ، الهجوم أولى ، الهجوم وإلا فلا .

إلى هذا المدى فعلا وبلا مغالاة تصل أهمية المبادأة من حيث المبدأ وعلى المستوى العام . ولكنها تصل إلى أبعد منه وبلا حدود تقريبا فى حالة الصراع العربى - الاسرائيلى بالتحديد . ويرجع ذلك إلى أسباب خاصة تتعلق بملابسات الصراع وظروفه وطبيعة العدو وتقاليده العسكرية ، بحيث تضاعف من خطر المبادأة بالهجوم ودوره الحاسم . ونستطيع أن نرصد فى هذا ثلاثة اعتبارات خاصة أو محلية ، ينبغى دائما أن تكون نصب أعين المخطط الاستراتيجى العربى كدروس من اكتوبر وكبوصلة للمستقبل ، وتلك هى : قصر المعارك مع اسرائيل ، نظام التعبئة الاسرائيلى ، تعدد جبهات القتال .

فعن الأولى ، تمتاز معاركنا مع اسرائيل بالقصر مهما طالت ، فالتمييز دائما باليوم أو على الأكثر بالأسبوع . ليس لأن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها كما سنرى إلى القصر المطرد فحسب ، ولكن كذلك لأن العدو يضع الحرب الخاطفة القصيرة على رأس

استراتيجيته العسكرية. والمهم أنه نتيجة لهذا القصر الشديد ، يصبح لعامل المبادأة بالهجوم دور حاسم وأخطر مما يتناسب مع طوله الزمنى ، بحيث يكاد اليوم الواحد فيه يعادل فى انجازاته وتقدماته بضعة أيام من الناحية العملية . وهو بهذا يختزل فجأة وباقتدار جزءا كبيرا من المعركة فى ضربة أولى وعاجلة ، فلا يكاد المدافع يفيق منها حتى تكون أيام المعركة الباقية أمامه قد أصبحت معدودة تقل فيها فرص قلب المائدة على المهاجم . وقد كان هذا واضحـــا بجلاء فى افتتاحية معركة اكتوبر ، حيث قطع الهجوم العربى فى الساعات الأولى شوطا يعادل ما قطعه بعد ذلك فى أيام .

. أما مسألة نظام التعبئة الاسرائيلية فقد أوضحت تجربة اكتوبر بما لا يقبل الجدل أو النقض أنه ما وضع ولا جعل الا للهجوم ، ولكنه يمثل نقطة ضعف خطيرة حين يوضع على الدفاع . فنظام التعبئة الاســرائيلى لا يقضى بالاحتفاظ بالجيش كاملا تحت السلاح باستمرار ، فهذه النواة العاملة المحترفة انما هى الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد الطافى ، كما وضعها بن جوريون ، أما جسم الجبل فيعتمد على وضع كل القادرين على حمل السلاح فى الاحتياطى تحت التدريب الدورى المنتظم وتحت الطلب الفورى فى أية لحظة بحيث تتم تعبئة نصف الاحتياطى فى ٢٤ ساعة وكل الاحتياطى فى ٤٨ إلى ٧٢ ساعة . وفيما عدا هذا فإن العدو يعتمد اساسا على جهاز مخابراته كإنذار مبكر وكخط دفاعه الأول .

وهذا النظام - الاقتصادى ماديا والفعال اجتماعيا - يلائم جدا أغراض الهجوم واستراتيجية العدو العدوانية . فحين يبيت المبادأة بالهجوم والمباغتة الفجائية يستدعى احتياطيه سرا حسب خطته الموضوعة ، فلا تطلق الرصاصة الأولى إلا وكل جيشه جاهز تماما فى قلب المعركة . على العكس إذا هوجم فجأة : يكاد يجد نفسه عاريا إلا من بعض قوات امامية موزعة ومنتشرة لا يمكن أن تصد هجوما شاملا ضخما . وهذا بالدقة ما حدث فى اكتوبر . فحين فوجىء العدو بهجومنا، ضغط فترة استدعاء احتياطيه من ٢٤ ساعة ، وفترة ارساله إلى الجبهة من ٤٨ ساعة ، إلى ٦ ساعات فقط . من هنا كان الارتباك والاضطراب العظيم ابتداء من الجنرالات حتى أصغر الرتب . وكما كتب تشرشل الأصغر «لقد ثارت اتهامات قاسية ضد الجيش الاسرائيلى على أساس أن تقديرات المخابرات والسلطات العسكرية لم تكن خاطئة فحسب ، بل أن أجهزة الدفاع الاسرائيلى

نفسها كانت مختلة . فلقد كان النظام يقضى بأن تتم التعبئة خلال ٢٤ ساعة ، وأن يرسل المقاتلون إلى جبهات القتال خلال ٤٨ ساعة . ولكن التعبئة تقرر تخفيض أمدها إلى ٦ ساعات فحسب ، نتيجة لنجاح العرب فى تحقيق المفاجأة الكاملة . فلا عجب اذن أن عمت الفوضى قوات الدفاع الاسرائيلى» . وهذا أيضا ما يفسر لنا قول اليعازر بعد الصدمة ان أمن اسرائيل لا ينبغى أن يعتمد بعد الآن على الانذار المبكر فقط ، وأنما اساسا على وُجود جيش كاف قائم ودائم . وهو الذى يفسر كذلك احتفاظ اسرائيل حتى الآن بنسبة عالية من التعبئة العامة حتى بعد أن توقف القتال . وأخيرا فإنه يفسر ما يتوقعه البعض من أن يعدل العدو نظام تعبئته تعديلا جوهريا ليتحاشى تلك الثغرة المهلكة .

أما عن تعدد جبهات القتال ، فإن على العدو الاسرائيلى دائما أن يحارب فى جبهتين على الأقل ، وثلاث على الأغلب . وعلى هذا الاساس خطط استراتيجيته ، استراتيجية الهجوم المتتالى السريع : ينقض بكل قوته وبأسرع ما يستطيع على إحدى الجبهات حتى ينتهى منها ، ثم ينثنى فورا إلى أخرى فثالثة ، هكذا على التوالى ، مرة مع عقارب الساعة أى بادئا بسوريا ثم مثنيا بالأردن فمنتهيا بمصر ، أو مرة عكس عقارب الساعة ، مصر أولا ثم الأردن فسوريا (كما فى ١٩٦٧) . وفى هذا كان العدو يعتمد على ضآلة رقعته الجغرافية وقرب الجبهات الخارجية ثم على شبكة ممتازة من الطرق الداخلية . غير أن حساباته هذه فشلت تماما فى اكتوبر ، ولسببين أساسيين :

أولا ، اتساع جبهات القتال بعد توسع العدو الكبير فى ١٩٦٧ ، ذلك التوسع الذى أطال خطوطه الداخلية جدا بدرجة أرهقت حركته المفردة إلى كل جبهة ذهابا ، فضلا عن حركته بين الجبهات المتعددة جيئة وذهابا ثم ذهابا وايابا . وفى هذا اعترف الاسرائيليون أخيرا فى إحدى ندواتهم العسكرية بأن أحدا من المسئولين فى اسرائيل لم يدر بخلده أن الاستيلاء على الأراضى كعنصر أمن اضافى يمكن أن يضيف عبئا ثقيلا على الدفاع ، كما أن استبعادهم لحدوث تحركات سريعة للقوات العربية على الجبهتين السورية والمصرية فى وقت واحد ساعدها على الهجوم بنجاح .

ثانيا ، التنسيق الدقيق والبارع بين الجبهتين السورية والمصرية ، توقيتا وهجوما وتفاعلا . أو كما علقت بعض الدوائر العسكرية الغربية «لقد نسقت مصر وسوريا

جهدهمـــا العسكرى بصــــورة رائعة لم يسبق لها مثيل من قبل ، كما أنهما استوعبتا كل دروس الجولات السابقة» .

ومحصلة هاتين الحقيقتين أنه كلما توســع العدو توسعت جبهته ، وكلما توسعت جبهته فقد امكانية الهجوم المتتالى السريع ، وكلما انتزع العــرب زمام المبادأة والهجوم فقدت استراتيجية الهجوم المتتـــالى بقية فاعليتها إلى درجة التلاشى . إن انتقال العرب الواعى والدائم إلى الهجوم لا يربك فقط كل استراتيجية العدو ، بل هو ينسفها فى الصميم ، لأنها قائمة أساسا على افتراض وقوف العرب على الدفاع أو فرضه عليهم أساسا وباستمرار .

عنصر المفاجأة

عنصر المفاجأة مكمل وامتداد جوهرى لعنصر المبادأة ، إن لم يكونا جانبين لشىء واحد فى الحقيقة . ولقد كانت فرص المفاجأة الاستراتيجية ، بحكم طبيعة المواجهة عبر القناة ، محدودة بدرجة أو بأخرى ، فأراضينا فى سيناء محتلة ، وأهدافنا فى تحريرها معلنة غير خافية ، والاتجـاهات الجغرافية الرئيسية المكنة للهجوم شبه محددة بالضرورة. فالمفاجأة بمعناها الاستراتيجى الجذرى والجوهرى غير سهلة إن لم تكن شــبه مستحيلة . ومع ذلك فقد انتزعت القيادة المصرية المفاجأة النسبية أو التكتيكية بدرجة حققت كل أهدافها المباشرة وغير المباشرة وتركت العدو فى حالة تامة من العمى ثم التخبط فالذهول فاللوعة . ومازال الجميع يتساءلون فى كل الدنيا عن ذلك السر الغامض والمحير الذى أعمى الاسرائيليين عن كل علامات المعركة ومؤشـــراتها ونذرها وهى التى كـــانت «تحملق فى عيونهم بشدة» كما وضعهـــا أحدهم ، أو كما عبر آخر : أهو عمى الألوان أم عمى الصحراء ؟

فقبل انفجار الموقف بأيام كان يمكن مشاهدة القوات المصرية وهى منهمكة فى اعداد زوارق المطاط والجسور المجزأة على الضفة الغربية ، بينما على جبهة الجولان كان تقدير دايان أن هناك مئات من فوهات المدافع مرئية للعيان ، كما أشار بقدر من الانزعاج إلى أن السوريين قد نشروا الآن شبكة من الصواريخ المضادة للطائرات تقارب فى كثافتها تلك القائمة على قناة السويس (الصنداى تايمز) .

والحق أن المرء كلما ازداد امعانا فى التفكير فى قضية المفاجأة ، لم يملك إلا أن يزداد تعجبا واعجابا : تعجبا من غفلة العدو المتذاكى ، واعجابا ببراعة الخطة العربية

الكتوم : جيش بأسره ، بل جيشان عارمان ، بكل المعدات الهائلة وبكل التجهيزات المعقدة الضخمة الكثيفة ، حتى تحت ستار المناورات كان لابد أن تتخذ فى وقت ما أوضاعا هجومية ، كل أولئك على مسرح صحراوى مكشوف تماما ، وتحت سمع العدو وبصره بل تحت أنفه (فاصل ٢٠٠ متر فقط) ، كيف يمكن اخفاء كل هذا ، وكيف يخفى كل هذا ؟

على أية حال ، ليكن سؤالنا نحن عن أركان هذه المفاجأة البارعة : ما العوامل الأولية التى تتحلل إليها ؟ من ناحية أولى كان عامل السرية المطلقة مكفولا بدرجة فذة ، كما سارت عملية الخداع الاستراتيجى للعدو حسب تخطيط كفء طويل المدى . فمثلا استغرق تجميع قواتنا للهجوم فترة ٣ - ٤ شهور ، أى بالتدريج الوئيد والقطاعى ، بينما لم يدفع بالقوات الرئيسية منها من العمق إلى الجبهة إلا قبل ٣ أسابيع فقط من ساعة الصفر وتحت ستار المناورات . وبينما أعدت مكامن السلاح والعتاد ومعدات العبور - التى تم تصنيع جزء كبير منها محليا - مسبقا فى خفاء تام ، لم تنقل الأسلحة والمعدات نفسها إليها بالفعل إلا ليلا فى آخر لحظة ممكنة قبل ساعة الصفر . ومن قبل أيضا كان قد أقيم ساتر رملى على الضفة الغربية يحصن تلك الاستعدادات عن أنظار العدو وعن نيرانه . كذلك فلم تفتح ثغرات المرور لقواتنا عبره إلا فى آخر لحظة ساعة العبور .

وفى تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكى عن الشرق الأوسط نشر بعد المعركة واعتمد على زيارة ميدانية واسعة أنه «بالإضافة إلى أن عملية العبور تعد فى ذاتها مظهراً مؤكدا لتحسن القدرة القتالية ، فإن عملية التمويه والخداع التى صاحبت الاستعداد المصرى للقتال والقدرة على كتمان هذه الاستعدادات لفترة طويلة واخفائها عن أعين الاسرائيليين أمر يجب أن يلقى اهتماما كبيرا» . وهذا تعليق غنى عن التعليق .

هذا عن السرية والتمويه . أما عن التوقيت فقد اختارت الخطة لساعة الصفر توقيتا مرنا ذكيا وبارعا شل الجهاز العصبى لقيادة العدو برغم كل مخابراته وادعاءاته . وهناك عدة أبعاد ومستويات لهذا التوقيت .

أولا ، أنسب طقس سياسى دولى ، كان التأييد العالمى قد وصل فيه إلى الذروة واكتملت عزلة العدو ومعسكره دوليا بدرجة لم يسبق لها مثيل . وفى هذا الصدد بالذات

جاء حدث عرضى بحت وهامشى نوعا ليشغل الرأى العام الاسرائيلى ويبتلع نشاط مخابراتهم ، ونعنى به أزمة معسكر شوناو واليهود العابرين بالنمسا . فهى بالإضافة إلى مشكلة غارات الفلسطينيين الدورية على طائرات العدو وأصدقائه فى الجو مع غارات العدو الانتقامية على الدول العربية وانشغاله بمطاردة قيادات المقاومة الفلسطينية داخلها وفى عقر دارها ، كل ذلك ساعد إلى حد معين على صرف انتباه مخابرات العدو بعيدا نوعا عن قضية الحرب الأساسية وتركيزه على قضايا جانبية أو ثانوية نسبيا . هذا عن الطقس السياسى.

ولكن لا ننسى كذلك أنسب طقس مناخى للنشاط البشرى والعمل العسكرى . فخريف اكتوبر المصرى ربيع تقريبا ، وهو أبعد ما يكون عن حرارة الصيف الواقد وبرودة الشتاء القارسة التى تجعل حرب الشتاء حربا قاسية وصعبة قد لا تطيقها بسهولة إلا الدول الغنية . هذا فضلا عن أن هيدروغرافية القناة تختل وتضطرب بالأمواج والأنواء شتاء . كذلك يعد الشتاء موسم ثلوج على الجبهة السورية حيث يبدأ تساقطها فى نوفمبر وديسمبر . وهكذا وجد أن أنسب توقيت هو سبتمبر أو اكتوبر ، مع جنوح الأفضلية للأخير .

ثانيا ، انسب يوم تعطل وبطالة فى دورة حياة العدو اليومية حيث كان منشغلا بنشاطاته ومعاركه الانتخابية ، وكذلك بمناسبات أعياده الطائفية التى تصاب فيها حياته بشلل تام تقريبا . وإذا كان عيد «يوم كيبور» (يوم الغفران أو التكفير) هو قمة هذه الأعياد ، فقد كان الموسم كله تنقطه مناسبات دينية متلاحقة . ومن جانبنا نحن أيضا ، فلقد كان الموعد آخر وقت يتوقع فيه العدو الهجوم ، ونعنى بذلك شهر الصوم الذى يتصوره العدو المتعالى شهر كسل وتواكل . هذا فضلا بالطبع عما فى حرب رمضان من وجهة نظرنا من معنى دينى كبير وحافز للجهاد والفداء ، يرفع الروح المعنوية إلى ذروتها ويقدم سلاحا مضافا للنصر .

ولقد أثار اختيار يوم عيد الغفران حقد العدو ، الذى أصبح يسمى حرب أكتوبر بذلك الاسم . ومع ذلك فقد اختلف العدو نفسه فى تحديد مدى خطورة ونتائج هذا التوقيت . فرغم أن هذا العيد يقضيه الاسرائيليون فى المعابد بعيدا عن العمل وعن بيوتهم وبذلك يشل حركتهم واتصالاتهم بما يكفى ليعرقل التعبئة العاجلة ، إلا أنه فى رأى بعضهم

أخف وطأة من سائر الأعياد الدينية الأخرى التى يخرجون فيها إلى الريف والصحراء خارج المدن كلية للتنزه والرحلات طوال اليوم مما يجعل التعبئة العاجلة أكثر استحالة ، وعلى أية حال ، فليس من المحتمل أن اختيارنا السادس من أكتوبر تقرر لأنه يوم العيد بالذات ، فهناك ضوابط توقيت أخرى عديدة وربما أهم ، كما أن أعياد اليهود عديدة على مدار العام ، فضلا عن أن أى سبت يصلح ويكفى تماما .

ثالثا ، أنسب يوم للعبور تقل فيه سرعة تيارات قناة السويس ويصل فيها مدى المد والجزر إلى حده الأدنى فلا يعوق العمليات الهندسية وإقامة المعابر أو الملاحة عبر الماء بقدر الإمكان . هذا إلى جانب أنسب ليلة قمرية تسمح بحرية العمل ليلا . وهنا نلاحظ أن ليلة العاشر من رمضان قريبة من منتصف الشهر القمرى ، ليلة ١٤ ، حين يكون القمر بدرا ، كما نلاحظ أن هناك ارتباطا طبيعيا بين دورة القمر وبين المد والجزر . وهذا كله عدا أن ليل أكتوبر طويل ، ١٢ ساعة ، بما يكفى ليمنح العملية أطول وقت ممكن للحركة المستورة . وعلى ضوء هذا كله تم تحديد السادس من أكتوبر بعد دراسة علمية مفصلة جدا هيدرولوجيا وفلكيا .

رابعا ، آخر ساعة تتوقع للعبور طوال اليوم . فكل العمليات العسكرية تبدأ كقاعدة عامة إما من أول ضوء فى الشروق أو مع آخر ضوء فى الغروب ، ولكن الخطة اختارت قلب النهار وفى وضحه ، الثانية بعد الظهر . ورغم أن كل عمليات العبور المائى بالذات ، بما تتطلب من مهمات ومعدات هندسية ونقل قوات وسلاح ، تتم بالليل وتحت جنح الظلام ، فقد كان البدء فى الثانية بعد الظهر لا يخل تماما بهذه القاعدة ولكنه لا يخليها من المفاجأة.

فعدا ما فيه من مفاجأة خداعية كاملة ، فان اختيار هذا الوقت ، الذى يسبق آخر ضوء بنحو ٤ ساعات ، يكفل أيضا الاستفادة بضوء النهار طيلة هذه الساعات الأربع فى مرحلة طلائع العبور الخفيفة ، فيمنح قواتنا الجوية والمدفعية القدرة على دقة التصويب وعلى تصحيح نيرانها فى ضربتها التمهيدية الأولى ، كما يتيح اسقاط معدات العبور الهندسية فى آخر ضوء . وبالمثل على الجبهة السورية حيث يمكن أن يتم للسوريين عبور الخندق الصناعى الذى حفره العدو على امتدادها ، ثم التعمق بعده فى ضوء كاف .

ومن ناحية أخرى ، لا يكون العدو قد أفاق واستعد بطيرانه ومدفعيته حتى يكون

الظلام قد حل وحرمه من العمل الجدى أو المجدى حتى صباح الغد ، بينما نكون نحن قد وصلنا إلى مرحلة نقل المعدات الثقيلة والقوات الرئيسية التى يمكن حينئذ أن تتم فى سلام خلال الليل الطويل ، فلا يظهر أول ضوء فى الغد إلا ويكون جيشنا بكامله رجالا وعتادا قد أصبح بالفعل على الضفة الشرقية .

أخيرا وليس آخرا أنسب ساعة من النهار من حيث حركة الشمس اليومية ومواقعها بالنسبة إلى جبهة العدو وإلى جبهتنا نحن . فقد اختيرت ساعة الصفر بحيث تكون عين العدو فى عين الشمس ، وليس العكس ، فيكتمل له بذلك عمى المعركة . إذ لما كان فى الشرق موقعه ، فإن الشمس التى انتقلت نحو الغرب بعد الظهر تغمر عينيه بأشعتها المواجهة فتغشيها وتعاكس رؤيته ، على العكس من الموقف قبل الظهر . وفى هذا الصدد كان لابد من التنسيق الدقيق بين الجبهتين المصرية والسورية . فرغم أن محور المواجهة الأساسى على الجبهتين واحد تقريبا يتمثل فى مجابهة بين شرق وغرب ، فالفارق أن الهجوم المصرى يأتى من الغرب والسورى من الشرق .

وعدا هذا فيبدو أيضا أن سياسة التدريبات المصرية المتكررة ، بل والروتينية الرتيبة عبر سنوات طوال ، خاصة أثناء فترة الركود الحربى المطلق فى مرحلة اللاحرب واللاسلم ، وتحت أنظار العدو، قد «خدرته» ونمت فيه نوعا من ميكانيكية الانعكاس الشرطى ، حتى وصل فى النهاية إلى حد اللامبالاة والاستخفاف المنتظم بها . فكل تحرك للقوات المصرية تدريب ، وكل تدريب مناورة ، وكل مناورة مع الريح . ومن ثم فلا معنى ولا داع كل مرة لاستدعاء الاحتياطى أو للتعبئة العامة بكل صعوباتها وتكاليفها ... إلخ . وكما اعتذر دايان بعد المعركة ، فلم يكن معقولا أن تنفق اسرائيل كل شهر أو شهرين بضع عشرات من الملايين من الدولارات مقابل تحركات عربية دورية تنتهى إلى لا شئ حربيا .

وفى هذا المعنى ، وهو المعنى نفسه ، السلبى بالطبع ، الذى نتحدث به عن «فضل» قرار القبول بوقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ على اقامة شبكة دفاعنا الصاروخى الفائقة الحيوية ، فى هذا المعنى ربما جاز لنا أن نذكر «فضل» مرحلة اللاحرب واللاسلم بسنواتها الثلاث والنصف . فرغم سكون الجبهة إلى حد الجمود ، كانت المرحلة

أبعد شئ عن الاسترخاء العسكرى أو الموات النضالى ، وانما كانت فترة «بيات شتوى» إن صح التشبيه ، كمون وكمين ، اعداد واستعداد ، صمت وصبر ، وعمل وتصميم ، ومجال رحب لتخدير العدو تماما والتمهيد للمفاجأة الكاملة المطلقة . ولو قد أتت الحرب الشاملة ، كتلك التى اندلعت فجأة فى أكتوبر بالفعل ، بعد حرب الاستنزاف مباشرة وتصاعدا منها بالتدريج الوئيد ، لما كان لعنصر المفاجأة مجال كبير على الأرجح ، ولما كانت للمبادأة بالتالى فرصة مذكورة أو بارزة على الأغلب .

ذلك بالطبع ، وعدا غرور العدو الأكبر والأبقى ، ذلك الذى وصل به إلى حد استبعاد تجاسرنا على العبور . وفى هذا فلقد كانت اسرائيل تعتقد اعتقادا شبه جازم أنه لا خطر من حرب جديدة مع العرب قبل نهاية السبعينات ، وأنهم «لن يحاربوا إلا إذا أصابهم الجنون» (كذا) ، وحتى عند ذلك فلإيقاظ الدول العظمى وليس بهدف تحرير الأرض حقا وفعلا . أما عبور القناة نفسها على نطاق واسع فهو فى نظر العدو ومخابراته والمخابرات الأمريكية «يمثل تحديا يجاوز قدرة الجيش المصرى» . ولاشك أن فى هذه الحسابات المغرورة كانت سقطة أخرى من سقطات العدو وكان جزء من مقتله .

بكل هذا وبغيره تم تحقيق المفاجأة الكاملة للعدو، تلك التى أطارت صوابه ووضعته لفترة ثمينة وحرجة فى حالة من انعدام الوزن عسكريا وسياسيا . ورغم كل ما قيل من أن العدو تنبه لاحتمالات الهجوم العربى أو علم به قبل وقوعه بساعات قليلة ، فقد كان سلوك العدو الميدانى فى الساعات الأولى من الهجوم ، كما أحست به القيادة العربية المسئولة نفسها ، دليلا عمليا على أنه أخذ بالمفاجأة تماما . كذلك فلقد تضاربت أقوال العدو وأدلته وشهاداته بعد ذلك حول هذه النقطة تضاربا شديدا . ولدينا فى هذا سيل من تصريحات العدو ، نوردها هنا بنصوصها منقولة أغلبها عن كتاب «حرب رمضان . الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة . أكتوبر ١٩٧٣» ، تأليف اللواء حسن البدرى واللواء طه المجدوب والعميد أ. ح ضياء الدين زهدى . ومن هذه التصريحات ما يعترف بالمفاجأة صراحة ، ومنها ما ينكرها تماما ، ومنها ما يجمع بين النقيضين !

فمن الأولى قال ياريف ان اسرائيل تعمدت أن تخاطر بترك المصريين والسوريين يتخذون المبادرة بالأعمال العسكرية مع ما يترتب على ذلك من مزايا . وقال دايان «إنه

توجد مفاجآت فى هذه الحرب أيضـا» ، وإن أنكر حـدوث أى خطأ فى قوة جيش الدفاع أو فى تشكيله أو تكوينه . أما اليعازر فقد قال «ان هذه أصعب حرب واجهتها اسرائيل - لقد زحفت علينا بدون سابق إنذار» . وبالمثل قال بارليف ان اسرائيل «فشلت وفوجئت مرة واحدة» مؤكدا أن ذلك لن يتكرر . وأخيراً هناك كلمة جونين فى قواته «أنتم مكلفون بالقيام بمهام فرضت عليكم بصورة مفاجئة» .

ومن الذين ينكـــرون المفـــاجأة بطريقة أو بأخـــرى شارون الذى جزم حين رأى الصور الجوية لمعـــدات العبور والحشود المصرية بأن «الحرب ستقع فى يوم أو اثنين» . وبالمثل فعل آلون بطريقة أخرى اذ قال «اننى أؤكد شـخصيا ، وكذلك رسميا ، أننى أقرر بشرفى الشخصى صحة البيان القـائل بأننا لم نبدأ القتال . على العكس ، حتى بعد أن رأينا المجابهات الشـاملة لقـوات العدو فى أوضاع هجـومية ، تجنبنا متعمدين الضرب أولا ، متخلين عن تلك الميزة العسكرية ، ميزة الضرب أولا» .

ولكن الذين يجمعـون بين النقيضـين أكثـر . فبارليف عـاد فناقض نفسه حين قـال «لم يكن هنـاك نقص فيمـا يتعلق بمعرفة نوايا العـرب» . كذلك صرح ضابط مخابرات اســرائيلى كبيـر بأن «كل ما توصلنا إليه وتوقعنـاه هـو أن العرب سوف يشـنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخـذنا فى الموعد على غـرة» . والتنـاقض ظاهر كذلك عند مابير نفســها التى قـررت أنها «كانت تعـلم يقينا بنية هجوم العــرب بل وبتوقيتــه ومراميه ، ولكنها تركت لهم المبـادأة طـوعا واختيارا لأسـباب سـياسية واقتصـادية ملحــة» ، ثم عادت تقـول فيما بعـد «لو أن مسـئولا جـاءنى واقترح اسـتدعاء الاحتياطى لوافقته على الفور» . غير أن التناقض يصل إلى حد التلاعب أو التخبط الساخر عند هرتزوج : «ان الهجوم الذى شنه العرب أخذ اسرائيل على غرة ، وأن تحريك العرب لقواتهم على طول خطوط المواجهة لم يفـاجئ اسرائيل ، ولكن من الواضح أن الهجوم جاء مفاجأة» (!) .

هذه عينـة من تصـريحات العـدو ، التناقض الفاحش بينها غنى عن الذكر ، ولكن السؤال الملح هو : لماذا ؟ وما الذى يخفى وراءه ؟ أغلب الظن أنه تضارب مقصود ، أو لعله غموض متخبط . فالعدو ، بعد أن صعقته الضـربة العـربية ، وانقاذا لسـمعته العسكرية التى تحطمت ، راح يبرر النصر العربى بعـامل المفاجأة وحده ، وأنه لولاه لما

هزم ولانتصر كما تعود ، إلى آخر هـذه النغمة الدعائية غير المجدية وغير الصحيحة . وفى الوقت نفســه فقد اكتشـف العـدو أن منطقه التبريرى هذا هو اعتــراف ضمنى منه على الأقل بعجز وفشل مخابراته التى تمرغت ســمعتها فى التراب ، وخواء قدراته التجسسية التى طالما تباهى بها . لقد وجد نفسه خاسرا على الحالين ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

غير أن الواضح فــى الحـــالتين هـــو التناقض الحاد المدبب فى أقوال العـــدو ثم التضـــارب السافر بين أقـواله وأفعــاله ، ســواء ذلك عن عمد أو تلقـــائيا . ولكن فى الحـالة الأولى كـذب الاســرائيليـون ولو صدقوا ، وفى الحالة الثانية صـــدقوا ولكن بطـريق الخطأ فقط . كيف ؟ لا تفسير لهذا إلا أن فى الأمر شيئا، أو أشياء أخرى . ثمة حلقة مفقودة يحاول العدو اخفاءها ما بين اعترافاته المبتسرة وادعاءاته المكذوبة . فما هى؟ اننا إذا أعدنا تركيب الموقف منطقيا لوجدنا فيه ، ليس مرحلة واحدة كما يوهم العدو ، ولكن أكثر من مرحلة من تحول الرأى وتغير القرار ، وان جاءت كلها مضغوطة فى دورة مختزلة وفى فترة زمنيــة وجيزة جدا . فالعـدو يقول : «لقد رأوا ، ولكنهم لم يفهموا» . وقد يكون هذا صحيحا إلى حين أو إلى حد أو آخر ، اذ لاشك أن القيادة المصرية نجحت فى تضليل العدو واخفاء نواياها واستعدادها وتحركاتها ثم خططها إلى آخر لحظة وبيراعة فائقة ، بحيث لم يفهم العدو حقيـقة ما يدبر وما ينتوى . غير أن هذا نصف الحقيقة ، بل ثلثها فقط .

فالمرجـــح ، بل المؤكد الآن ، أنهم «رأوا وفهموا ، ولكنهم لم يصدقوا» . وهــــذه هى المرحـــلة الثانيـــة فى تقـــدير الموقف . فالثابت أن العدو من شواهد وأدلة عـديدة توصل إلى احتمـــالات نشـــوب حـرب حقيقيـــة قبـل قيـامها بيـــوم أو يومين (تنبؤات شارون). غير أنه لفرط غـروره وامتلائه بالثقــة ولشـــدة استخفافه بالعـرب لم يصـدق أن الأمـر جـد لا هزل ، حتى صفعته الحقائق المجسمة المتوالية بعد ذلك .

وأخيرا ، وهذه هى المرحـــلة الثـــالثة فى دورة القرار والحلقة المفقودة فى الموقف كله لاشك ، تأكـــد العدو من قدوم الحرب قبيل وقوعـــها بعـــدة ساعات صباح السادس من أكتوبر . وقد صرح هو بذلك كما نعلم ، مثلما صرح بأنه تدارس فكرة السبق بضربة اجهاض جوية ، إلا أنه عدل عنها فى آخر لحظة نظرا لأن الوقت (كما وجد) كان قد

أصبح متأخرا جدا لمثلها وأن فرصتها قد ضاعت ، وكذلك حتى لا يتهم (كما ادعى) بأنه المعتدى والبادئ بالهجوم كل مرة فيفقد ما تبقى من الرأى العام العالمى . أى أنه بحكم الضرورة العسكرية ومن أجل الانتهازية السياسية ، قرر أن ينتظر هجوم العرب وأن يترك لهم طوعا زمام المبادأة كما صرح . على أى أساس ؟ - بالطبع على أساس أنه على أية حال قادر بقوته على امتصاص الهجوم ثم تدميره وتدمير الجيوش العربية .

غير أن الذى لم يعلنه العدو هنا ، والذى توصل إليه - بحق فيما نرى - الاستاذ أحمد بهاء الدين فى كتابه «وتحطمت الاسطورة عند الظهر» (ص ١٣٣ - ١٣٤) ، الذى لم يعلنه العدو هو أنه بعد أن رأى وفهم وصدق رحب فى قرارة نفسه وفى آخر لحظة بفرصة «حرب أخرى وأخيرة» كان «يريدها» منذ رفض العرب الاستسلام لانتصاره فى يونيو حتى يسحقهم نهائيا ويفرض عليهم الاعتراف بالهزيمة والتسليم له ، حرب تحقق له النصر السياسى بعد أن عقم نصر يونيو العسكرى ، حرب كان يريدها وها هى الآن تبدو أمام العالم «مفروضة» عليه . ولقد صرح كثير من قادة العدو بلا مواربة كم يتمنون لو أقدم المصريون على عبور القناة حتى يسحقوا قواتهم مرة واحدة وإلى الأبد . دايان على سبيل المثال ، كما كتب ايف كو فى الفيجارو ، «لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس ، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا ، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة» . انها إذن الفرصة المثالية ، حتى وإن فاجأتهم نوعا على غير ما كانوا يؤملون من تأهب فاستدراج فتوقيت .. إلخ . وما دامت هذه هى الحرب يفرضها العرب ، فلتكن هى الحرب التى نحتاجها ونريدها لسحقهم نهائيا ، ولندعهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم ! ولكن نتيجة الحرب هى التى جاءت عكسية وخيبت كل خططهم وتوقعاتهم . ان هزيمتهم هى «المفاجأة» الحقيقية الصاعقة التى تلقوها فى النهاية ، أكثر منها مفاجأة نجاح خفاء الحرب أو محض قيامها أو واقع توقيتها . «لقد رأوا وفهموا ، ثم صدقوا ، ولكنهم مكروا» - غير أن المكر السيىء حاق بأهله . وتلك على الأرجح هى حقيقة قصة المفاجأة ، التى اعترف العدو بجزء منها وأخفى الجزء الأكبر .

وهناك بالفعل رأيان متعارضان فى معسكر العدو بصدد عوامل الهزيمة : رأى مخادع يلقى اللوم والمسئولية كاملة على المخابرات ، ورأى أكثر صراحة يعتبر

مسئولية المخابرات جزئية فقط والخطأ أوسع منها وأشمل . ويمثل الاتجاه الأول بارليف الذى قال «ان المصريين والسوريين قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها . ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم» .

أما الرأى الثانى فقد عبر عنه عزرا وايزمان حيث قال «انه لا يريد القاء المسئولية كلها على التقديرات الخاطئة لأجهزة المخابرات الاسرائيلية . فقد كان هناك نقص فى الرؤية وفى الواقعية على جميع المستويات ... ولولا وقوع هذه المجموعة من الأخطاء لما اضطررنا أثناء الحرب إلى الاعتماد بهذه الدرجة على المساعدات الأمريكية ولأصبحنا اليوم بالتالى أقل اعتمادا على الولايات المتحدة . لقد أسأنا تقدير كمية الأسلحة والعتاد التى زود بها أعداؤنا ، ولم نكن بالتالى مستعدين لحرب بمثل هذه الضراوة» .

ومهما يكن ، وعلى أية حال ، فليس صحيحا أن هزيمة العدو ترجع إلى عامل المفاجأة وحده ، كما يحاول هو أن ينظر ليثبت أن الأمر كله كان فلتة ، مجرد مصادفة لا تتكرر . فهذه ليست إلا محاولة يائسة كما هى يائسة من جانب العدو لتغطية فشله وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من روحه العسكرية المنهارة شعبا وجيشا. والواقع أن هناك جانبين بالغى الأهمية للقضية . فأولا ، المفاجأة على أهميتها القصوى ليست إلا عنصرا واحدا فقط من مركب القوة والقدرة العربية الذاتية الجديدة والمتعددة الأطراف والأبعاد . وليس من المحتم أننا لم نكن لننتصر لو لم نحقق عنصر المفاجأة ، ربما صارت المجابهة أشق وأطول ولكن النتيجة ما كانت لتتغير أساسا وبالضرورة .

ثانيا ، وكما يلاحظ الأستاذ أحمد بهاء الدين بفكر صاف ونفاذ ، هناك نوعان من المفاجأة ، الفرق بينهما كالفرق بين القتل دفاعا عن النفس والقتل من أجل السرقة . المفاجأة الغادرة ، ونمطها الكلاسيكى بيرل هاربر ، وآخر نماذجها ضربة صهيون صباح ٥ يونيو . وهذا النوع ليس انجازة عسكرية بارعة بقدر ما هو قطعة من الخسة العسكرية البشعة ، ضربة جبان فى الظهر والظلام يمكن أن يمارسها بنجاح كل نذل لا خلاق له من الأعداء .

ثم هـــناك المفـاجـأة الشـــرعية التى يقرها الشرف العسكرى ، المفاجـأة الوظيفيـــة أو العضـوية التى تمثل جزءا من صميم العمل العسكرى المشروع ، تقع فى قلــب حـــالة الحرب القـائمـة ووجـها لوجه فى ميدان الصراع تحت سـمع العدو وبصـره (وأقمـاره الصناعيـة ومخـابراته وجواسـيـسه وطائراته الاســتطلاعيـة) وفى وجـه استحكامـاته وحصونه وفى مرمـى مدافعــه (وخط بارليفــه) . «ولكن براعـــة التخطيط الســياسى والعســكرى ، فى تضـليل العدو ، وابقائه حتى الأيام الأخيرة حائرا فى تفـسير معنــى تحــركات قواتنا» .. هذه قطعة «من صلب القتـــال وفنـونه» بل وجزء حتمى منه . وهذا بحذافيره ما قمنا به فى ٦ أكتوبر .

ومعظــم الآراء المحـــايدة والموضــوعية تنص بالفعل دائما على تعدد أسباب الهزيمة الاســـرائيلية ، فتجمع بين عناصر الخدعة والمفاجأة والأداء العســكرى نفســه . ويمـــكن أن نورد نمــــوذجا لهــــذا الموقف رأى تشــــرشل الحـفـيـد . «لقد فــوجئ الجنـــرالات الاســـرائيليون» ، يقـــول هو فى دراسة ضـــافية ، «وهم غافلون ، ويرجع ذلك أساسا إلى ما كانت تشــعر به اسرائيل من نشوة لانتصارها فى ١٩٦٧ . كذلك فإن اســـرائيل لم تكن مستعدة لمواجهة هذا النوع من الحرب الذى خاضـــه العرب بالأسلحة الجديدة . فإسرائيل ظلت تعتمـــد فى اســـتراتيجيتها على انتصــــاراتها بالطـــائرات والمدرعـــات كما فى ١٩٦٧ ، فى حين أغفــلت المدفعيـــة والمشـــاة وهما الســـلاحان اللـذان تحمـلا عنف الهجوم» .

الحرب الشاملة

وهى ما مـارسنا بالفعـل ، وما كـان حتما أن نفعل منــذ قــررنا أن نطلق الطلقــة الجــوابية الأولى فى المعـركة . فلقـــد كانت ضمانا شرطيا للنجاح ومصلا مضادا لأى انتكاس . والمقصـــود بالحرب الشـاملة أن تبـــدأ كاملة مطلقـــة منـــذ أول لحظـــة ، دون مرحلة أو منطقـــة انتقـــال بين حالة اللاحرب والحرب . وتفسير ذلك أنه كانت هناك نظرية شـــائعة بعـد يونيـو تقول بعملية تصعيد «محسوبة» المراحل فى مســـتوى المعركة ، كأن نبدأ مثلا بحــرب استنزاف من نوع جـــديد أو غير جـــديد على غـــرار ما شـــنته مصـــر عبر القناة حتى وقــف إطـــلاق النـــار فى ١٩٧٠ ، أى بتراشـــق المدفعيـــة أو غـــارات الطيـــران أو اغـــارات القـــوات الخـــاصة أو البـــرية أو البحرية .. إلخ .

ولكن كان من الصعب أن نجد أخطأ من هذه الوصفة السانجة ، التى كفانا القائد العام للقوات المصرية بعد عمليات أكتوبر مئونة تفنيدها . «كان رأيى أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فى الفترة التى جربناها فيها . ثم ان اسرائيل لن تقبل بالعودة إليها ، وأى محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من اسرائيل برد فعل أقوى» . ومعنى ذلك أننا كنا ازاء احتمال قيامنا بعمليات صغيرة يقابلها العدو برد فعل كبير يتجاوز أبعادها السياسية والعسكرية . ذلك أنه كان من الواضح أن العدو المتربص الحقود كان يتلمس أدنى ذريعة ميدانية من جانبنا لينتهزها فرصة ليبادر ويشن هجومه المفاجئ اجهاضا وردعا . وهو إن فاتته المباغتة الغادرة مرة لأى اعتبار عسكرى أو سياسى أو دعائى ، فسيجد فى أول رصاصة منا تلك الذريعة ، ليمارس الحرب الشاملة فورا وبصورة كاملة لتدمير قواتنا فى أسرع وقت ونحن لم نزل نتوقع ردا محدودا .

ولقد كان ذلك بالدقة مقتلنا فى ١٩٦٧ ، وتلك كانت فى الحقيقة استراتيجية الحرب كأداة ضغط وتهديد سياسى واستعراض قوة أكثر منها استخدام القوة الجادة . ولكن اللعب السياسى بالحرب لعبة خطرة ، قد يمكن أن يمارسها الأقوى وحده . وقد كان واضحا أن أى بداية للقتال من جانبنا أقل من حرب شاملة منذ أول لحظة تعرضنا لخطر ممكن وكامن ، وأن علينا حين نبدأ الحرب أن نعنيها بكل معانيها : انه ليس ثمة نصف هجوم . وهكذا بالفعل كان . فقد تقرر أن تكون ضربتنا كبيرة شاملة ، بحيث يساوى جهدنا العسكرى على الأقل احتمال تعرضنا لرد فعل كبير من جانب العدو ، الذى ستكون ضربته المضادة كبيرة على أية حال .

ولقد تساءل البعض عما إذا كانت خطة المعركة اصلا هى لعملية عسكرية كبيرة ، أكبر من حرب استنزاف مجددة ولكنها أصغر من حرب شاملة . وبعبارة أخرى ، كان السؤال هو ما إذا كانت الخطة قد اقتصرت على تحرير جزئى لسيناء والجولان ، يحطم خطى بارليف وآلون وينتزع رأس جسر عريض ، مع تدمير أكبر قدر ممكن من قوة العدو وكذلك من أسطورة تفوقه ، ولكن دون أن يمضى إلى نهاية الأراضى المحتلة بعد يونيو . ولكن ، كما أوضحت القيادة العسكرية ، فلقد كانت الخطة

شـاملة وموضوعة لحرب شـاملة ، غيـر أن تطـور الموقـف كـان متـروكا بالضـرورة لرد فعل العـدو من جهـة وللموقـف الدولى من جهة أخرى . والواقع أنه إذا كانت المعـركة قد انتهـت بتحـرير جزئى ومحـدود فقـط ، فذلك وضع مرحـلى فرضتـه ضـغـوط التـوازن الدولى ، ولكن المعـركة نفسـها كـانت - تخطيـطا وتنفـيذا - جـزءا من منطـق الحـرب الشاملة .

وكما يوضـح مؤلفـو كتـاب حـرب رمضـان ، حدد الهدف العسكرى للمعـركة «بهزيمة تجميع قـوات العـدو الاسـرائيلى فى سـيناء والهضبة السـورية والاسـتيلاء على مـناطق ذات أهمية استراتيجية تهيئ الظروف المناسـبة لاسـتكمال تحرير الأراضى المحتلة بالقوات المسلحة ، لفرض الحـل السـياسى العادل للمشكلة . وبناء على هذا الهدف الواضح كان على القيـادة العـامة المصـرية أن تخطط للقيام بعملية هجومية استراتيجية مشتركة ، تنفـذ بالتعاون مع القوات المسلحة السـورية ، وتقوم فيها مصر بالاقتحام المدبر لقناة السويس وتدميـر خط بارليف ، والاسـتيلاء عـلى رؤوس كبار بعمق ١٠ - ١٥ كيلو مترا على الضفـة الشـرقية للقـناة ، وتكبيد العـدو أكبر خسائر ممكنة ، وصد وتدميـر هجـمات وضـربات العـدو المضادة ، والاستعداد لتنفيذ أى مهام قتـالية أخرى تكلف بها فيما بعد . أما سـوريا فتشـن الهجوم وتخترق دفاعات العدو بالجـولان وتجـزئ تجميعه وتدمـر قواته وتصـل إلى الخط - نهر الأردن ، الشاطئ الشـرقى لبحـيرة طبـرية» .

ولعـل من المفيـد بعد هـذا أن نضـيف أن الحرب الشاملة التى اتبعناها بنجاح فى أكتوبر تعنى ، من بين ما تعنى ، الاستعمال الشامل والأمثل لكل أسـلحة القـوات ، هجـومية ودفـاعية ، برية وبحرية وجوية ، مشـاة ومدفعـية ومدرعـات ، صواريخ وقذائف وقنابل ، نظامية وخاصة وفـدائية ... إلخ . وهذا النوع من القتال يعتبر بمعنى من المعانى فصلا جديدا فى كتـاب الحـرب الحديثة ، يعتمد أساسا على التنـسيق الدقيق جدا والمحـكم جدا بين كل هذه الأسلحة بحيث تتكامل وتتنـاغم فى سـيمفونية نارية متعددة الحركات ولكنها موحدة الايقـاع ، لا تترك ثغـرة أو فرصة للعـدو ، وتحقق الاستخدام الأمثل لكل امكانيات كل نـوع منهـا بل وبحيث يضاعف كل منـها قدرات الآخر . وهكذا ، أيضا ، بالفعل كان .

الحرب الطويلة

يبقى أخيرا من عوامل النصر عنصر الحرب الطويلة ، حرب النفس الطويل ، فهى مقتل حقيقى من مقاتل اسرائيل . ومن المسلم به أن الحرب الخاطفة ، السريعة القصيرة ، ليست فى صالحنا قطعا ، ولا هى فى طاقتنا ربما . على العكس ، كلما طالت المعركة كانت فى صالحنا ، والأطول الأفضل . أما العدو فكل قوته مركزة فى نفسه الأول ، نفسه القصير ، وعليه يراهن ببقية حياته .

والحرب الخاطفة هى أساسا استراتيجية المقامرة ، أكثر حتى مما هى استراتيجية المغامرة : تقامر بكل شئ لتكسب كل شئ أو تخسر كل شئ . والحرب الخاطفة ، التى نقلتها الصهيونية عن أستاذتها النازية ، كانت دائما استراتيجية العدو ، إما لأنها تلائم أغراضه وأهدافه ، وإما لأن ظروفه وأوضاعه قد فرضتها عليه فرضا . وقبل أكتوبر كان العدو قد وصل فى اعتماده على الحرب الخاطفة إلى حد أن دايان أعلن صراحة أنه «ينبغى انهاء المعركة خلال ساعات بحيث لا تكلفنا غاليا فى الأرواح والمعدات» (!) .

وقد أوضحت حرب أكتوبر كم فشل العدو فشلا فاحشا فى تحقيق آماله الخرافية وادعاءاته المبتذلة ، وإلى أى مدى نجحنا نحن ، على العكس ، فى توريطه راغما فى أطول حرب حقيقية خاضها منذ نشأته . فرغم أن شكل الحرب ومداها وأمدها لا تتحدد بإرادة طرف واحد ، بل بإرادة الطرفين المتحاربين تتحدد ، ورغم أن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها إلى القصر بحكم الامكانيات التدميرية الهائلة للأسلحة العصرية خاصة منها الجوية والالكترونية ، فقد كان علينا أن نفرض الحرب المطولة إلى أقصى حد ممكن . كان علينا أن نحارب حربا حقيقية من أجل اطالة أمد الحرب ، فكل يوم مضاف إليها هو احتمال مضاف بالنصر ، ذلك أن اقتصاد العدو لا يتحمل إطالة التعبئة العامة إلا أسابيع معدودة ، بعدها تصاب حياته الانتاجية بالشلل الخطير .

وقد كان تقدير الخبراء العالميين دائما أن العدو الاسرائيلى بكيانه المعطى لا يستطيع أن يواصل الحرب لأكثر من شهر أو شهر وبضع شهر كحد أقصى . ولولا التدخل الأمريكى المطلق فى معركة أكتوبر لاصطدم العدو بهذا الحاجز التحديدى الرهيب ولوقف أمامه وجها لوجه، ولوقف معه جهده الحربى عند طريق مسدود لا يعنى إلا الهزيمة الحتمية والكاملة . ولعل هذا يكون طريق الجولة القادمة .

خطة العبور

اجمع الخبراء العالميون على أن معركة أكتوبر تعد واحدة من أكبر معارك التاريخ العسكرى الحديث ، لا تقل عن كبريات معارك الحرب العالمية الثانية ومعارك الدول الكبرى عموما . كذلك أجمعوا ، حتى الأعداء منهم ، على أن ملحمة المعركة المصرية فى سيناء جاءت بكل المقاييس قطعة مذهلة من الاستراتيجية الممتازة فى جميع مراحلها : العبور ، اجتياح الخط ، رأس الجسر ، القاعدة الأرضية . وحتى نعيد تركيب «سيناريو» المعركة متسلسلا فى تداعيه المنطقى وفى تتابع أحداثه ، لتكن هذه المراحل نفسها هى أساس تحليلنا للملحمة السينائية الكبرى .

فأما العبور فقد كان بحق بمثـــابة اقتحـــام العقبة ، ففى قفزة كبرى واحدة ، وفى مبـــارزة نارية التحامية بين البر والبحر وبين الأرض والسماء ، تم اكتساح أصـــعب مانع مائى فى العالم - هذا تقدير العسكريين أنفسهم - فى أقـــل وقت ممكن وبأقل خسائر بشرية متصورة على الإطلاق . وكان العـــدو يصور العبور إما مستحيلا سيغرقه هو فى القنـــاة إغراقا وإما حمام دم لا يتم إلا بنسبة رهيبة من الخسائر .

غير أن القناة ، عنق الزجاجة التى ظنها العدو عنق مصر الذى يمسك به ومنه يمسك بخناقها ، تحـولت إلى مقبرة عائمة له ، بينما لم تلبث العملية الفـائقة النجاح نفسها أن تحـولت إلى درس مـرجـعى ونموذج نمطى ، بل غيـر نمطى على الإطـــلاق ، فى كل أكاديميات العالم العسكرية ! لقد كان العبور بالذات قمة أمـل العدو فى تحطيم أمل التحـرير ، فجـاء قمة هذا الأمل الكبير ، وجاء قمة فشل العدو القمئ .

ولدينا فى هذا شهادة النيويورك تايمز : «ان العبور المصرى لقناة السويس بعد ظهر ٦ أكتوبر كان بارع التخطيط والإعداد والتنفيذ . ان القوات التى كانت فى المواقع المحصنة على الضفة الشرقية للممر المائى الضيق واجهت تفوقا عدديا كبيرا ، لكن ذلك لا يقلل من الشجاعة وعنف الهجوم اللذين أظهرهما الجيش المصرى فى اقتحامه أو تجاوزه لهذه المواقع» .

التحدى

ولكن لماذا عدت عملية العبور بالغة الصعوبة والخطر إلى هذا الحد ؟ الواقع أن القناة لم تكن مشكلة العبور الوحيدة وان كانت الكبرى . فالعائق فى الحقيقة كان مثلثا : القناة ،

الساتر الترابى ، خط بارليف . وثلاثتها تلتصق مباشرة ببعضها البعض كأنها أضلاع مثلث قائم الزاوية ، القناة ضلعه الأفقى ، والساتر الرأسى ، وخط بارليف هو مجازا وتره الحساس والمسيطر . وكل منها عائق رهيب بما فيه الكفاية وحده ، ولكل مشكلاته الاقتحامية الخاصة . ولكن اجتماعها مع بعضها البعض كان يضاعف صعوبة العملية كلها بمعدل الربح المركب ، لأن كلا منها كان يدعم ويؤكد فاعلية الآخر ، وبالتالى يزيد من خطره ومناعته ومن ثم من صعوبات اقتحامه .

بل قد نستطيع أن نتكلم عن ثلاثية أخرى ثانوية من الموانع : خط أحواض النابالم ، خط الأسلاك الشائكة ، خط حقول الألغام . والخطوط الثلاثة تتمحور بطبيعة الحال حول خط بارليف ، الذى هو العمود الفقرى فيها كما هو فى الثلاثية الكبرى . وفى النتيجة فلقد كانت العملية كلها أشبه بسباق الحواجز المركب ، إلا أن الحواجز جميعا متراصة متلاصقة دفعة واحدة . ولنفصل .

فأما القناة ، فترجع صعوبة عبورها لعدة أسباب . أولا لأنها مجرى ضيق بالقياس إلى كثير من الأنهار والعوائق المائية المماثلة ، فاتساعها يتراوح بين ٢٢٠ ، ١٨٠ مترا فى بعض المواضع ، مما يسهل للعدو عملية تغطيتها بنيرانه فضلا عن مراصده . ثم هى ثانيا قناة عميقة نسبيا إذا قورنت بالأنهار العادية ، إذ تصل إلى ٢٠ مترا أحيانا والمتوسط ١٦ – ١٧ مترا ، كما ينخفض سطح الماء فيها عن الشاطئ نحو المترين ، مما يجعلها صعبة العبور للآليات والدبابات والسيارات المدرعة البرمائية ، بل وتستدعى طرزا خاصة منها وكذلك من الجسور والمعابر .

كذلك فإن القناة ، وهى مجرى صناعى بين بحرين وتجرى فى صحراء مكشوفة للعواصف الرملية والرياح القوية ، تمتاز سواء على السطح أو فى الأعماق بالتيارات المائية السريعة (١,٥ متر فى الثانية) ، المتغيرة التى تختلف اتجاهاتها ما بين الشمال والجنوب عدة مرات يوميا (أربعا) ، والتى تتعامد على اتجاه موجات العبور ويمكن أن تعترضها . وهناك أيضا المد والجزر الذى يغير منسوب المياه خلال اليوم ، والذى يصل إلى أقصاه فى الجنوب عند السويس حيث يبلغ مداه ١,٥ متر . ويجب أخيرا أن نضيف كذلك شدة انحدار جوانب القناة ، المبطنة فضلا عن ذلك بالحجارة والدبش والتكسيات والستائر الأسمنتية والحديدية ، مما يجعل نزول المركبات البرمائية وصعودها عليها صعبا يستلزم اعدادا هندسيا مسبقا وشاقا .

أما الساتر الترابى فقد نظنه لأول وهلة عائقا ثانويا بل حتى بدائيا ، ولكنه فى الحقيقة عقبة من الدرجة الأولى ومثل مشكلة حقيقية جدا وتحديا أساسيا للتكنولوچيا والهندسة العسكرية فى أرقى صورها . فهذا الحائط ، الذى يمتد بطول القناة بكاملها ، أقامه العدو من مخلفات حفر القناة قديما وعمليات التوسيع حديثا والتى كانت تؤلف ساترا ترابيا يتراوح بين ٦ . ١٠ أمتار فى ارتفاعه ، ومنه فعلا استمد فكرة حائطه . (لاحظ أن هذه العمليات والمخلفات تتم على ضفة واحدة فقط من القناة ، هى الضفة الشرقية غير المأهولة أو المزروعة) . وهو حائط شديد العرض والاتساع يصل فى المتوسط إلى عشرات الأمتار . ففى قطاعه الجنوبى مثلا وصل عمقه إلى نحو ٢٠٠ متر ، الأمر الذى يجعل نقبه بالوسائل التقليدية بالغ الصعوبة . أما ارتفاعه فيصل إلى نحو ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ مترا فى المتوسط ، بل وإلى أكثر من ذلك في بعض المواضع ، يهوي منها إلى خط الماء بجبهة ساقطة شبه عمودية يصعب جدا ارتقاؤها فضلا عن تسلقها . انه أشبه فى مجموعه بكثيب مهيب من نوع «السيف» ، إلا أنه من مقياس اقليمى غير مألوف .

وقد كان هذا الساتر بارتفاعه الكبير برج مراقبة شاسعا أيضا ، يعطى فرصة بلا حدود لرصد الضفة الغربية وكشف تحركاتنا وقواتنا عليها ، وفى الوقت نفسه يخفى وراءه الجزء الأكبر من خط بارليف وتحركات العدو عليه . وفوق هذا كله كان الساتر يعطى العدو ميزة العمل من أرض مرتفعة بالقياس إلى الضفة الغربية المنخفضة .

من هنا كان من الضرورى للعبور فتح ثغرات فى الساتر بعرض عدة أمتار على الأقل ولعمق يقترب من منسوب مياه القناة حتى يمكن اقامة الجسور وعبور القوات والمعدات البرمائية . والمشكلة أن التجربة أثبتت استحالة فتح هذه الثغرات بالتدمير وقوة التفجير بالمدفعية لأن التراب كاتم يمتص وقع القذائف المنفجرة . كذلك لابد أن نذكر أن المشكلة لم تكن ساتر العدو وحده ، فلقد تضاعفت بساتر مماثل أقمناه نحن أيضا فى سنوات ما قبل المعركة على ضفتنا الغربية ، تحسبا لأى هجوم غادر قد يقدم عليه العدو ، واخفاء لتجهيزاتنا ومعداتنا وتحركات قواتنا عن استطلاع العدو ومخابراته ، وأخيرا رفعا لمستوى أرضنا على الضفة الغربية إلى مناسيب وهيئات عالية حاكمة وتوفير مصاطب دبابات مشرفة تفوق أرض العدو وتتفوق عليه .

غير أن الهندسة العسكرية المصرية وجدت حلا مبتكرا تماما استلهمته من تجربة

مدرسة السد العالى الهندسية – علاقة أخرى حميمة دائمة ومتصلة بين معركتى السد والقناة ، تمويلا وتأميما وبناء وتصميما ! هذا الحل يتمثل فى التجريف الهيدروليكى بقوة المياه شديدة الاندفاع تحت ضغط مرتفع . فبمضخات توربينية مائية جبارة كموتورات الطائرات ، أو مدافع المياه كما سميت ، تسلط على قطاع الساتر مياه القناة نفسها ، تتهدل آلاف الأمتار المكعبة من التراب الرملى وتتداعى حتى تسوى بالأرض . (قوة اندفاع الماء من خراطيم هذه المضخات تكفى للاطاحة بأثقل الدبابات !) وبذلك أيضا فإن القناة – كالأرض – تكون قد حاربت مع أبنائها ! ولا يبقى بعد ذلك إلا تهذيب جوانب القناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكبارى والمعديات وعبور المركبات البرمائية (يلاحظ هنا أن العدو لم يقتنع بأن فتحات الساتر تمت بقوة المياه وحدها ، وهو يعتقد أننا استخدمنا معها مادة كيماوية مذابة أو مذيبة لم نعلن عنها) .

ولا يظن أحد أن هذه العملية كانت كشفا أو تطبيقا سهلا . فقد كان لابد من التوصل إلى طلمبة مياه صغيرة الحجم تعمل بالوقود ، خفيفة الوزن فائقة الضخ ، يمكن حملها باليد وتحميلها على القوارب ويكفى أقل عدد منها لفتح ثغرة واحدة . وقد وجد أن هذا الحد الأدنى هو ٣ طلمبات ، واقتضى هذا عمل سنين . كذلك لا ينبغى أن نتصور فتح الثغرة بعد ذلك عملية روتينية هينة . فالطين اللزج الذى تطيح به خراطيم الماء الجبارة بكميات هائلة وسرعة مخيفة لا يحيل فقط وجوه الرجال إلى السواد ، ولا ينجرف إلى المجرى المائى فيلزم ازاحته على الفور كذلك فحسب ، ولكنه يبقى على أرضية الثغرة وقاعها وحلا لزجا زلقا بعمق قد يصل إلى المتر مستحيل عبور الدبابات والآليات عليه إلا بعد ازاحته بالجرافات ثم فرشه بمواد جافة صلبة كالخشب أو الحجارة أو أكياس الرمل أو ألواح الصلب أو الشباك المعدنية أو غيرها بحسب طبيعة التربة .

أما عن ساترنا على الضفة الغربية فقد كان هو الآخر مشكلة لا تقل خطورة . فقد كان لابد من اعداد فتحات فيه كمنازل أو ساحات اسقاط للكبارى تتلقى ارساءها وعبرها يتدفق العبور حين يبدأ . وأن يتم هذا تحت بصر العدو ، فمعناه أن نكشف له عن نوايانا واتجاهاتنا . ولهذا فقد حلت المشكلة بإعداد فتحات خداعية على طول القناة برمتها ، فتحة كل ربع كيلو متر ، بحيث استحال على العدو أن يعرف أو يحدد أين ومتى سنعبر .

هذا عن الساتر الترابى على حدة . أما خط القوة المنيع ، خط بارليف ، الذى يشرف على المسرح كله أرضا وماء ويسيطر عليه من علٍ سيطرة كاملة ، فقصة أو قضية أخرى ، لأنه غير قابل للتدمير بإصابات القنابل المباشرة سواء بالمدفعية الثقيلة أو من الطائرات القاذفة ، ولهذا سنعود إليه بالتفصيل . ولكن علينا هنا أن نذكر على الأقل تلك السلسلة من أحواض النابالم والزيوت الحارقة والوقود التى رصع بها العدو ضلوع وأجناب الخط والساتر ، مخبأة تحت الأرض وممتدة أنابيبها تحت سطح مياه القناة ، تنساب فيها لتندفع فوقها بحسب نظرية الأوانى المستطرقة ، لتشتعل لحظة العبور فتحيل الماء إلى نار والنار تخرج من الماء وتحول القناة إلى شريط أو شريحة من الجحيم تحرق كل ما حولها . وقد أثبتت التجربة عدم جدوى طريقة الإطفاء ، وتحتم قطع أو سد تلك الأنابيب الحديدية منها والمطاطية قبيل العبور مباشرة . وهذا ما تم بالفعل بنجاح تام ، بحيث أخرج هذا السلاح الحارق من المعركة و«أحرقه» تماما .

وقبل أن نغادر هذا المسرح بعقباته الطبيعية والصناعية ، لعل القارئ قد لاحظ مدى التغييرات التى أحدثها اعداده وتجهيزه فى اللاندسكيب الطبيعى للمنطقة برمتها ، سواء على الضفة الشرقية أو الغربية . هناك على الضفة الشرقية ، كما رأينا ، كان خط بارليف وساتره الرملى بكل جرمهما وضخامتهما . وهناك خلفهما سلسلة متتابعة من الخطوط الدفاعية الثانوية تتعاقب بانتظام وبتباعد محسوب ما بين القناة وخط المضايق الجبلية ، لكل واحد منها تلاله وسواتره الصناعية ومناطق تجمعات القوات ومنشآتها .. إلخ . وهناك بين الكل شبكة كبيرة من الطرق الرئيسية والفرعية ، الطولية والعرضية ، طولها نحو ٧٥٠ كم وعمقها نحو ٣٠ كم ، أنشأها العدو على امتداد تلك الشقة لتخدم تحركاته وقواته بسرعة على كل المحاور وخاصة من محور طولى إلى محور آخر .. إلخ . وبهذا لم يكن الأمر مجرد «خط» دفاعى أحادى يطل على القناة ، ولا حتى «نطاق» دفاعى يوازيها ، بل كانت المنطقة بكل عمقها من القناة إلى المضايق «منطقة» دفاعية كاملة بالمعنى العسكرى المعروف .

بالمثل على ضفتنا الغربية . ثمة كان ساترنا الترابى المناظر بكل ما يضرسه ويشرشر سطحه من عوالى مصاطب وأبراج ومواطئ ثغرات وممرات وساحات اسقاط بالعشرات . ثمة كذلك شبكة الطرق والمدقات الكثيفة بطول وعرض وعمق الجبهة ما بين القناة والوادى ، تؤلف فى مجموعها نحو ۲۰۰۰ کم ، شقتها الهندسة العسكرية خصيصا لخدمة تحركات القوات المسلحة ، وبعضها أقيمت على جانبيه الستائر اخفاء لتحركاتنا عليها ، وبعضها أقيمت عبره الكبارى والجسور .. إلخ . وهناك عدا هذا شبكة ترع الرى والصرف الحيوية بشرايينها ومحاورها الرئيسية وفروعها الثانوية ، تلك الشبكة التى كانت تمثل عقبة فى سبيل التحرك شرقا وغربا بصفة خاصة والتى استلزمت من ثم عديدا من الكبارى فوقها ، وأكثر منها من المخاضات عبرها للربط بين شاطئيها (ترعة الاسماعيلية والسويس خاصة) ، كما استلزمت حبس المياه عنها قبيل المعركة مباشرة تسهيلا للعبور . وتلك الشبكة نفسها كانت هدفا خاصا جدا لطيران العدو . قبل المعركة حاول شلها وسدها بالقنابل أو فتح ثغرات كبرى فيها بحيث تغرق الأراضى المنخفضة حولها بكل ما عليها من منشآت مدنية وعسكرية أو بحيث تتدفق مياه القناة الملحية إليها فتختلط المياه العذبة بالملحية حتى يحرم السكان والقوات من الماء ، كما حاول بالفعل فى منطقة رقبة الأوزة الضيقة النحيلة فى قطاع القنطرة – بورسعيد حيث تختنق أرض اللسان بما تحمله من شرايين طرق المواصلات وطرق الرى . أما أثناء المعركة فقد حاول العدو سد بعضها وحوله إلى كبار ترابية أو حجرية يعبر عليها كما يقتل بها عطشا وغرقا ...

من هذا كله نصل بسهولة إلى أن الحرب ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها ، قد خلقت وخلفت وراءها نوعا من اللاندسكيب يختلف عن «اللاندسكيب الطبيعى» بقدر ما يبتعد أيضا عن «اللاندسكيب الحضارى» بمعناه العادى المدنى أو السكنى أو البشرى التقليدى . ذلك هو «اللاندسكيب العسكرى» بالضرورة والامتياز ، military land-scape, militaryscape, warscape كما يمكن أن نسميه . فصفحة الاقليم هنا بما أقيم عليها من خطوط دفاع وسواتر تراب هائلة وقلاع مشيدة ومنشآت ومصاطب وقواعد صواريخ ثابتة وأطباق الرادار العظيمة الأقطار والدشم والمطارات والمهاجع وأبراج المراقبة المشرفة وترسانات الأسلحة الضخمة ، وبما بث فيها من

حقول ألغام شاسعة ورشق عليها من غابات كثيفة من الأسلاك الشائكة ، ثم بما حفر فيها من آلاف الخنادق الملتوية والمخابئ والملاجئ ودشم وأوكار الدبابات وبطاريات المدفعية ، وكذلك بما أضيف إليها من شبكات طرق شريانية أو هامشية ، رئيسية وفرعية ، بل وبما فرض على شبكة مياهها سواء القنوات أو الترع أو المصارف من تعديلات أو تفريعات أو كبار وسدود أو حتى مخاضات ، نقول : بكل هذا أصبحت صفحة الاقليم مرصعة بآلاف الملامح والمعالم والهيئات العسكرية التى قد تتقارب أحيانا وتتكاثف فى تجمعات كالأسراب الحاشدة أو تتباعد هنا وهناك في كوكبات أو تنقطها فى وحدات منعزلة ، ولكنها تؤلف فى مجموعها أرخبيلا هائلا أشبه بنهر مجرة عسكرى يترامى بين البحرين المتوسط والأحمر بطول القناة وعلى جانبيها بعمق عشرات الكيلو مترات .

لقد أصبح وجه الأرض هناك يحمل بصمة أصابع الإنسان المحارب وخاتم الحرب وطابعها أكثر من أى شئ آخر ، وتحول اللاندسكيب هنا إلى نوع من المعمار الحربى والهندسة العسكرية . لقد خلقت الحرب في هذه المنطقة الاستراتيجية نوعا من الإقليم الجغرافى الخاص ، المؤقت أيضا ربما ، هو «اقليم الحرب» ، وأصبح اقليم الحرب لاندسكيب حرب أيضا ، أعاد تشكيل اللاندسكيب الطبيعى وأعاد خلق تضاريسه الصغرى بل وهيدرولوجيته ، أحيانا بصورة مقلوبة وأحيانا بصورة مدمرة .. إلخ ، بالاختصار ، لقد خلقت المعركة نوعا جديدا من الاقليم ، فبزغت جغرافية تشكيلية جديدة للمنطقة وتخلق شكل رابع من المادة ، شكل يتراوح ويتأرجح باستمرار ما بين البناء والهدم والتعمير والتدمير ، وهو فى النهاية إلى زوال أو تقلص حين يعود السلام .

الاستجابة

تلك كانت ثلاثية الموانع الطبيعية والهندسية ، الأرضية والمائية ، كما واجهت معركة التحرير . وقد كان هناك – نظريا – طريقان للتعامل مع هذه العقبة الكؤود . إما تجاوزها أصلا وتخطيها كلية بهجوم شامل محمول جوا يحقق الاسقاط خلف خطوط العدو ، خلف خط بارليف يعنى . وهذا يحل مشكلة العبور المائى الصعبة ومشكلة السد الترابى الذى لا يستجيب للتفجير المدفعى ثم الخط نفسه الذى لا يتأثر بأى ضرب مباشر . ولكن هذا الطريق يتطلب أسطولا جويا من طائرات النقل والهليكوبتر

من مقياس مســتحيل توفيره فضلا عن تصــوره لمعــركة بالحجم المتــوقع ، بل ربما تقصــر دونه امكــانيــات الدول الكــبــرى ، كــذلك لم يكن من الممكن ضـرب خط الاستحكامات كله بالطيــران نظـرا لأنه لا يبعد إلا ٢٠٠ متر فقط عن قواتنا نحن .

لذلك لم يكــن مفــر مــن الطريق الآخر : العبـور الأرضى لا الجـوى ، الأفـقى لا الرأسى، والاقتحام المباشر لا الالتفاف الخلفى ، أو قل الإنزال بدل الإبرار . وكان هذا يعنى ويستدعى ، إلى جانب الإعداد والحشد والتسليح بالمستوى والحجم المناسب بطبيعة الحال ، خطة عظمى تقوم على دعامتين اساسيتين هما شجاعة التخطيط العلمى وقدرة الهندسة العسكرية .

بالأولى نقصد المخيـلة الجـريئة المتحدية التى لا تتردد فى المخاطرة بالاقتحام وابتكار الحلول دون تقليدية وبلا مخاوف ، لا تقامر ولكن لا تخشى أن تغامر ، وفى الوقت نفسه تقدم تصورا كاملا متكاملا للخطة بجميع مراحلها وتفاصيلها . والواقع أن المعركة ، كما سنرى ، أثبتت أن الخطة لم يكن ينقصها لا المخيلة ولا الشجاعة ولا التجديد ، بل جاءت خطة ثورية ، طموحا ، ومخاطرة إلى حد غير عادى . وقد كان هذا سر نجاحها ، مثلما هو سر دهشة العسكريين فى العالم حيالها وتلهفهم على دراستها .

أما القدرة الهندســية فقــد كانت شرطا جوهريا وضمانا شرطيا لابد منه بحكم طبيعة العمــلية فى كل مراحلها وعقباتها . بل يمكن القــول بلا مبالغــة ان العبور كله ، بجمــيع حلقاته وإلى أن يكتمل لقواتنا موطئ قدم وثيــق على البر الســينائى ، انما هــو عملية هنــدسة عســكرية صرف . وبالفعــل ، فلقــد جــاء عبـور المعركة فى التطبيق قطعــة من العلم والتكنولوجيا العسكـرية الممتازة ، محورها ومهندسـها الأساسى ولا نقـول الوحيد هو ســلاح المهنـدسين ، الذى يمكن أن يعد فى تلك المرحلة بمثــابة ســلاح رابع للقــوات المســلحة جنبا إلى جنب مع القــوات البرية والبحرية والجــوية (خــلال ساعتين فقط من الانطلاق - ســنرى - كان حجــم قـوة المهندســين على الضفــة الشــرقية وفــوق القنــاة نحو ١٥ ألف رجـــل ، وفى الموجة الثانية عبـرت ٨٠ وحــدة هنــدسية بقــواربها الخشــبية محملة بكل تجهيزاتها) .

هذا إذن عن الشــرطين العامين أو الخارجيين للخطة . غير أن هناك أيضا شرطين داخليـين يـأتيان بعدهما . فلما كان العبور هو بداية كل شئ ، بداية معــركة التحرير

جميعا ، ومن ثم كان النقطة الحرجة فى الهجوم ومفتاح النصر أو الهزيمة ، أى فاتحة النصر أو خاتمة الهزيمة ، كان لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن قبل أن يتنبه العدو ويفيق ، وبأقصى حد من النجاح قبل أن يدفع بقواته من العمق . كان المطلوب أساسا هو شغل العدو وشله إلى أقصى حد ممكن طوال هذه الفترة الحرجة . ومعنى ذلك بعبارة أخرى اخراج كل أسلحته فى كل أنساقه وخطوطه الدفاعية - اخراجه كله مثاليا ان أمكن - من المعركة مؤقتا بطريقة أو بأخرى ريثما تتم العملية . فالعملية إذن سباق مع الزمن أساسا ، حسابها يتم بالدقائق وتتم فى جملتها فى ساعات .

من ثم كان محور النجاح وأساس التخطيط هو ضبط توقيت الضربات والتحركات من جانب جميع أسلحتنا وقواتنا فى ترتيب مسلسل بحيث يتزامن بعضها أو يتعاقب بعضها فى جدول زمنى محسوب ، يمهد لبعضها البعض لكى يتم فى ظلها وبمساعدتها وتحت غطائها ، ثم يسلم هو بدوره المهمة لغيره، وهكذا . ومن هنا سنلاحظ تزامن عدة عمليات معينة فى ثنائيات كالتوائم «السيامية» الملتصقة أبرزها ثلاث : الطيران مع المدفعية : المشاه مع المهندسين : المدرعات مع المشاه الميكانيكية .

ففى لحظة واحدة ، سنرى ، بدأت معا عمليتان تتعلقان بعمق العدو هما الضربة الجوية الأولى وانطلاقة عملية المدافع الثقيلة . وفى اللحظة نفسها بدأت عملية عبور الزوارق المطاط والعربات البرمائية المدرعة تحمل المهندسين لإقامة الكبارى والمعابر والمشاة لتأمين رءوسها على الضفة الشرقية . وبعد أن تمت هذه العملية عبرت عليها كل من المدرعات والاسلحة الثقيلة فى جانب ومعها المشاة الميكانيكية والمدفعية فى الجانب الآخر . وسنرى بالفعل كيف أن هذه العمليات الثنائية تؤلف حلقات مترابطة فى سلسلة واحدة تمثل بدورها دائرة مغلقة أحكمت حول العدو .

كل هذا التخطيط الكفء وهذه التكنولوجيا المقتدرة وتلك الحسابات الدقيقة لم تكن ، مع ذلك ، لتكفى . كان لابد لها جميعا قبل التطبيق من تدريب وتجريب يختبرها عمليا ويكشف ثغراتها ويصحح مساراتها ... إلخ . وهنا ثبت أن سنوات ما قبل المعركة ، تلك السنوات القاسية والصبور ، لم تكن سدى . ففى هذه الفترة أتيح لقواتنا

وقيـاداتها المجـال لنـوعين أسـاسيين من التدريب والتجريب : تدريب نموذجى معملى ، وتدريب ميدانى واقعى .

فبالتخـطيط الثـاقب الواعـى والإرادة المصـرة ، جرى التدريب الشـاق المثابر العنيد - قيـل ٣٠٠ تجربة ! - على «ماكيت» اقليمى من الحجم الطبيعى وفى لاندسكيب طبيـعى اختيـر بعناية وعن عمد ليكون أقرب ما يمكن شبها ببيئـة القناة ومسـرح القتال سواء تضاريس أرض أو عمق مجرى أو سـرعة تيـارات . وقد كانت منطقة على قطاع من ترعة الاسـماعيلية ، حيـث أقيم سـد ترابى مشابه تماما لسـد العـدو ، هى هذا المسـرح التـدريبى والتجريبى على العبور والاختراق . كذلك فلقـد أجـريت عملية التدريب أحيانا على قناة السـويس نفسـها فى قطاع يزدوج فيـه مجراها وينشعب شعبتين - قطاع البلاح ، حيث تتوسط المجرى جزيرة البلاح - الغربى منهما كانت تسيطر عليـه قـواتنا سيطرة كاملة وفى مأمن تام من أنظار العدو وأخطاره .

ولا يظن أحـد أن هذه التجارب والتدريبات ، حتى كتجارب وتدريبات ، كانت بالمهمة السـهلة . ففضلا عن صعوبات توفير المسرح الملائم بالمواصفات المحـددة ، كانت هناك اعتبارات امكان استخدام الذخيرة الحـية ، وبإحداث خسائر فى الأرواح والممتلكات والمزروعات بل والأرض الزراعية نفسها ، كذلك ضرورة اقامة ثم هدم الساتر الترابى الصناعى عدة مرات فى كل تجربة واحدة ، ثم تكريك وتطهير المجرى المائى من ردیمها بعـدد تلك المرات نفسها واعادته إلى مكانه على الأرض من جديد ، كل أولئـك مع ما يعنى من مضاعفة أحجام مكعبات الحفـر والردم والتكويم والتكريك عدة أضعاف الحجم الكلى للعملية الحقيقيـة الواحـدة نفسها فى ميدان القتال الفعلى . وكما يذكر كتاب حرب رمضـان فإن تدريب وحـدة هنـدسية واحدة (من ٨٠ وحدة مطلوبة) كان يسـتدعى تحـريك حجم من الأتربة والوحل يعادل ١٢ مرة مثل ما سـتقوم بإزاحتـه فعلا أثناء المعركة ، فى حين ترتفع هذه النسـبة إلى ١٥ ضعـفا بالنسبة لمجمل العملية كلها تجريبا وتدريبا .

بهذا كله وبمثـله وبغيره كانت العملية قد أصبحت بمثابة «الأمر اليومى» أو حتى «الخبز اليومى» بالنسـبة للمهاجم المصرى المقتحم ، كل المعدات والأسـلحة جاهزة «مشـونة» فى أماكنها بالضـبط لساعة الصفر ، وكل فرد يعرف دوره ومكـانه

ولحظـتـه المحـددة ، مما حقق سـاعة التطبيق نتائج قياسـية مذهلـة مـن الكفاءة والاقتـدار والنجاح فاقت أعـرض أحلام التخطيط نفسـه وأشد توقعاته تفاؤلا .

وعـدا هـذا التدريب النموذجي المعملي أو العملي ، كان هناك أيضا التـدريب الميـداني الواقعي ، ونعني به مواجهـة العـدو ومناجزته بانتظـام والالتحام به دوريا عبـر القـناة وعلى أرض سـيناء منذ ما بعد يونيـو وحـتى وقف إطـلاق النار فى أغسـطس ١٩٧٠ . فالواقع أن فتـرة ما بين الحربين (يونيو ٦٧ - أكتوبر ٧٣) ، والتى استمرت نحو ست سنوات ونصـف السـنة ، كانت فترة كمون واعداد ثم اختمـار فانطـلاق نحـو القفـزة الكبرى . ونحن نسـتطيع أن نقـدر هذه الفترة حق قدرها فى سـياق الصـراع العـام إذا نحن حللناها إلى مراحلها التطورية . فهناك أربع مراحل أساسية : الصمود فالردع فالاستنزاف فوقف النار .

فالصمود (يونيو ٦٧ - أغسطس ٦٨ ، أو سنة وشهران) هى أساسا مرحلة «الدفاع الحذر» ، تنقطها معارك رأس العش والمدمرة إيلات وبعض معارك جوية متحدية .

والردع (سبتمبر ٦٨ - فبراير ٦٩ ، أو ستة شهور) هى أساسا مرحلة «الدفاع النشط» ، تلخصها معارك المدفعية التى اتصل فيها التراشق بالنيران عبر القناة ، وكان من نتائجها بناء العدو لخط بارليف الأول .

أما مرحلة الاستنزاف (مارس ٦٩ - أغسطس ٧٠ ، أو سنة ونصف السنة) فتعد أساسا مرحلة «الهجوم الحذر» ، ففيها تم تدمير خط بارليف الأول بالمدفعية المكثفة المستمرة طوال شهرين ، مارس وابريل ١٩٦٩ ، ثم توالى عبور الكومانوز ليلا ثم ليلا ونهارا بقوات متزايدة ثم بلا انقطاع ، كما تكررت غارات الضفادع البشرية على موانىء العدو تحرقها وتغرق سفنه فيها ، هذا فضلا عن الغارات والمعارك الجوية المتصاعدة ، وذلك كله فى وجه غارات العدو المضادة على الجزر المنعزلة والعمق المدنى إلى جانب جبهة القناة .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهى مرحلة وقف إطلاق النار (أغسطس ٧٠ - أكتوبر ٧٣، أو ثلاث سنوات وشهران) ، وهى أساسا فترة اللاحرب واللاسلم .

من هذا التصـنيف نرى أن فـترة ما بين الحربين تكاد أولا تتنصف ما بين مراحل الدفاع بأشـكاله ودرجاته المختلفة وما بين مرحلة اللاحرب واللاسلم (ثلاث سـنوات

وشهران لكل منهما) . والمراحل الدفاعية الأولى تكاد بدورها تتنصف بين الصمود والردع السلبى فى جانب وبين الاستنزاف الايجابى فى الجانب الآخر (حوالى سنة ونصف السنة لكل منهما) . وإذا كان العدو قد تفرغ فى مرحلة وقف النار لبناء خط بارليف الثانى وتدعيم وجوده فى سيناء ، فقد تفرغت القوات المصرية للتدريب الداخلى النهائى والحاسم ولإعادة بنائها وتطويرها للمعركة الكبرى . وهكذا ترسم المراحل مجتمعة عملية متنامية متصاعدة تتعاقب وتتكامل فى زحف صاعد نظيم من البناء العسكرى والاختبار الحربى وكانت كلها بخبراتها وتجاربها ونتائجها مدرسة عملية أخرى بالفعل وتدريبات جزئية مجزأة على معركة التحرير الكبرى فى أكتوبر . بل قد يمكننا أن نقول عنها بالنسبة إلى المعركة نفسها انها إلى حد أو آخر «المعركة الظل» ، حيث التدريبات الخلفية على النموذج المجسم هى بدورها «شبه الظل» .

إلى هذا المدى يرتبط اعداد ما قبل المعركة بالمعركة نفسها ، قبل ارتباط المقدمات بالحدث أو الطلائع بالوقائع . ونستطيع إذن أن نقرر باطمئنان أن المعركة لم تكن طفرة فجائية ، أكثر مما كان نجاحها مصادفة سعيدة أو اتفاقا . فالصحيح أنها وليدة تطور طويل وزحف بطئ وانبثاق له جذور عميقة ، كما أنها الابنة الشرعية لتخطيط وتدريب وتنفيذ كل منهم ناجح ومحكم إلى أقصى حد .

ويمكن أن نضيف كذلك ولذلك أن المعركة أفادت بلاشك من تجربة الهزيمة الأليمة التى سبقتها فى يونيو ، من وقائعها ودروسها ومن أخطائها وخطواتها ، كما من تصريحات العدو نفسه عنها بعد انتهائها . ومن المحقق أن ما أعلنه قادة العدو وكتابه – على سبيل الغرور والتباهى – من تفاصيل وجزئيات وملابسات خطة يونيو كان مادة مفيدة وكاشفة للمخطط المصرى لأكتوبر . ولا أدل على هذا من أن العدو نفسه راح بعد المعركة يندم ويلوم نفسه على ذلك ، من بين أشياء أخرى يأسف ويأسى عليها الآن كثيرا ..

الفصل الثالث

استراتيجية المعركة

الانطلاقة

فى ساعة الصفر بدأت الضربة الجوية الكبرى : ٢٤٠ طائرة من القاذفات المقاتلة انطلقت إلى أعماق سيناء لتدك مطارات العدو وقواعده الجوية وطائراته الجاثمة على الأرض بها . وكانت أبرز أهداف هذه الغارة الضاربة هى مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلى ، ثم القاعدة الجوية فى العريش فى أقصى شمال شبه الجزيرة ومطار رأس نصرانى فى أقصى جنوبها . هذا فضلا عن مراكز الرادار والتشويش فى أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها على المحور الأوسط ، مما شل الجهاز العصبى للعدو الجوى واضطره إلى نقل قيادته الجوية إلى العريش .

ولقد تمت هذه الضربة كلها - كشرط أساسى ومبدئى - فى لحظة واحدة تماما ، بمعنى أن كل طائراتنا كانت فوق مواقعها المستهدفة فى تلك اللحظة الواحدة الموحدة، وذلك حرمانا للعدو من فرصة الانذار وتحقيقا لعنصر المفاجأة الكاملة . وبهذا أخرج طيران العدو من المعركة مؤقتا لساعات ثمينة . وبهذا أيضاً كانت تلك الضربة الساحقة قطعة من الحرب الخاطفة لاشك Blitzkrieg، ردا عادلا ومشروعا على ضربة العدو الغادرة التى قام بها صباح ٥ يونيو ، مثلما هى مكافئ كفء وند لها .

وفى اللحظة نفسها التى انقضت فيها طائراتنا على أهدافها فى أعماق العدو، انطلقت المدفعية الثقيلة البعيدة المدى - ٢٠٠٠ مدفع كاملة ، مضافا إليها قوة صواريخ أرض - أرض كاملة ، تقصف فى قصفات متصلة لا تنقطع نيرانها لساعة كاملة مواقع العدو المختلفة فى الشريط الغربى من سيناء : نقط خط بارليف الحصينة ، بطاريات المدفعية ، تجمعات الاحتياطى الأمامية والخلفية ، التكتيكية والتعبوية . وهكذا كان للمدفعية بعشرات آلاف الطلقات دور أساسى فى التمهيد النيرانى الجبار للعبور ، وفى تغطيته وتأمين اقامة رءوس الجسور على الضفة .

فمن ناحيــة قــامت بتــدمير واسكات مـدافع ورشــاشات العــدو التى تطــل من فتحــات ومزاغل خـط بارليف ، وألزمت قواته بذلك البقــاء داخــل نقط الخــط تاركة الـــرد علـــى مدفعيتنــا لمدفعيتــه فــى العمـــق ، مما أدى إلى تـــرك ســاحة الشاطئ الشرقى مفتوحة للقوات المصـــرية العـــابرة . (يلاحظ أن المدفعـــية الاســـرائيلية ضعيفــة نسبيا بصورة تقليــدية نظـــرا لتركيز العــدو بشـــدة على سلاح طيرانه .) ومن ناحيـــة أخرى فإنها كانت السلاح الأساسى فى التصدى لدبابات ومـدرعــــات العــدو فى المرحلة التى لم يكن لنا فيها على الضـــفة الشـــرقية إلا قوات المشـــاة قبل أن تنتقـــل إليها المدرعات والأسلحة الثقيلة . ومن ناحيـــة ثالثة فإنها شغلت مدفعية العدو فى عملية ســبق مثيلها دون عبـــور غـــزو حقيـــقى ، وبذلك أبعـــدت أنظاره عن حقيقة الغزو وشتت انتباهه عن عملية العبور إلى حين . وأخيرا فإنها هى المدفعية التى تكفلت بتدمير احتياطياته التكتيكية والتعبوية التى كانت معـــدة للتعامل مع قواتنا فى حالة أي عبور كامل ، وبذلك حدت من فرص وامكانيات المقاومة فى لحظات النزول الأولى على الضفة الشـــرقية . وبهذا كله نجحت المدفعية فى «اقتطاع» مقدمة الجبهـــة مؤقتـــا من دائرة دفاعات العدو لتنفرد قولتنا بالمسرح حرا خلال ساعات الحسم الثمينـــة ، تماما مثلما نجحت الضـــربة الجـــوية فى تعطيـــل دفاعاته فى العمق فأصيب بالشلل المؤقت .

تحـــت هذا القوس النارى المحدب الهـــائل ، وفى حمـــايته الوثيقة ، وفى اللحظة نفسها التى انطلق فيها ، بدأت أولى مراحل التحرك الأرضى، وهذه المرحلة الأولى كان قوامها المهندسين والمشاة . ففى صمت تام ، ومن مواقعها المحـــددة والمنتخبـــة بدقـــة ، انزلق إلى الماء فى هدوء أســـطول مـــن زوارق المطـــاط ، ١٠٠٠ قارب ، صغيرة كما هى خفيفة ، وكذلك من المركبـات البرمـــائية جنوب البحيرات المرة وشمال بحيرة التمســـاح ، تحمـــل عدة آلاف بعضـــهم من المهندسين لمد الكبارى والمعابر ولفتح ثغرات المرور فى الســـد الترابى ولإبطال مـفعـــول أنابيب النابالم ، والبعض من المشاة والصاعقة الكوماندوز لتأمـــين رءوس تلك الجسور والتعـــامل المباشر مع طـــلائع العـــدو وصد وتصـــيد دباباته وبث الألغـــام فى مصاطبها لمنعها من الحركة والتدخل .

ولقد كانت عمـــلية مـــد الجســـور والمعـــابر عمـــلية حيوية بالغة الدقة والحرج والتعقيد ، اذ لابد لها أن تتم بســـرعة وكفـــاءة حتى تحت نيران المعركة الكثيفة . فبينما

كانت الزوارق تعبـر بأقصى سرعتها إلى المواضع المحددة لاقامة رءوس الكبارى على الضفة الشرقية ، كانت مدفعيتنا تركز نيرانها على خطين طوليين فى تلك المواضع ، تنقطهما نقطة نقطة تقريبا بقـذائفها الثقيـلة خلخـلة لأجناب السد الترابى وتمـزيقا لشبكة أسـلاكه الشائكة وتفجيرا لحقول ألغامها .

وتلك الخطـوة البارعة كانت بدورها تمهيدا لعمل مضخات المياه الجبارة أو مدافع المـاء التى سـلطت عليها فبدأت تنهار رمالها وأتربتها تحت قوة تعـريتها حتى تحولت إلى أخاديد وفجوات مفتوحة في عرض حائط الساتر . وهنا ينبغـى أن نلاحظ أنه بينما ركزت المدفعية الثقـيلة نيرانها وقصـفاتها على قطاعات المحاور الاستراتيجية الثلاثة بصفة خاصة ، ركزت مدافع المـاء عملها على القطاعات الخالية الفاصلة بين النقـط القوية من خط بارليف .

هذا ولم تكن عملية فتح الثغرات فى السـاتر بالسهلة ، خاصة فى القطاع الجنـوبى من القنـاة حيث الأرض مضرسـة مرتفعة وطبيعـة تكوينات الساتر الترابى طفلية وصلصـالية لا تساعد كثيرا على عمليات التجريف وإنما تتحول تحت الماء إلى كتـلة طينيـة لزجة متماسكة صماء ، زلقة للمشاة وللآليات والمركبات . كذلك كان تراب الساتر يتساقط إلى القناة فيطميها ، فيعوق ارساء الجسور ، فكان لابد من ازالة الاطماء فورا وبسـرعة ، وكان لابد كذلك من تسليط المضخات على أعالى الساتر ثم على أسـافله منعا للإرساب . ولقد كان هذا هو السبب فى تأخر عملية مد الجسـور والمعـابر فى هذا القطاع بعض الوقت .

بيد أن العملية فى جملـتها تمت بنجاح عظيم . وقد تم فيها شق ٨٥ ثغرة فى السـاتر الترابى أزيل فـيها من مكعبات الحفر فى ساعة إلى بعض ساعات ما كان يحتـاج إلى عمل نصـف مليون رجل/ ساعة بالطريقة التقليـدية ، كذلك تمت اقامة ١٠ أو ١١ من الكبارى العائمة الثقـيلة Pontoon bridges ، ١٠ أخـرى للمشاة ، ونحو ٥٠ معدية ، وذلك كله فى بضع أو عدة سـاعات . وهذه هى الشبكة العابرة التى ستنقل الجسم الأسـاسى للقوة الضاربة والتى ستصبح الشريان الحامل لتدفق الهجوم .

هذا عن دور الوحدات الهنـدسية . أما عـن دور المشـاة ، فقد كان ضروريا لتأمـين رءوس الكبـارى عـلى الضفة . وكانت هذه المهمة بالغـة الأهمـية والحرج لأن معنـاها

أن على المشاة أن يتصدوا ، وحدهم وإلى أن يتم انشاء الجسور ، لقوات العدو المدرعة ومدفعيته الثقيلة . ولهذا فإن الساعات القليلة التى استغرقها مد الجسور ثم تدفق أسلحتنا الثقيلة من المدرعات والمدفعية ، والتى تقدر فى مجموعها بما يتراوح بين ١٢، ٢٤ ساعة ، كانت فترة فائقة الخطر وبمثابة عنق الزجاجة فى العملية كلها . ولكنها بنجاح فائق ، بل ومثير ، تمت . فمثلا حتى فى القطاع الجنوبى الذى تعطلت فيه اقامة الجسور بعض الوقت كما رأينا لم تصل الأسلحة الثقيلة إلا بعد يومين أو ثلاثة ، ظلت فيها المشاة وحدها فى الميدان ولكنها تسيدته بالدرجة نفسها التى حققتها فى بقية قطاعات الجبهة .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا على التو هو : كيف ، كيف حدث هذا ، ولماذا؟ والرد مباشر كما هو بسيط : فلقد سلح الرجال ، الذين تخففوا إلى أقصى حد ممكن من كل ما ليس للقتال بصفة مباشرة سواء من المعدات أو التموين ، سلحوا بصواريخ الكتف الخفيفة المضادة للدبابات وللطائرات ، ومدوا بعربات جر يدوية صغيرة مبتكرة يحملونها الأسلحة الأثقل ويعتلون بها الساتر الترابى ، كما زودوا بسلالم خشبية وسلالم من الحبال يتسلقون بها الساتر . وهكذا ، بالسلالم المتحركة والحبال ، والأظافر أيضا ، اقتحم المشاة والصاعقة وقناصة الدبابات الساتر وانطلقوا للتعامل مع العدو .

وإذا عدنا للنظر قليلا إلى عملية العبور فى مجملها ، فسنجد عدة حقائق لافتة لها مغزاها . فهى أولا قد تمت على طول امتداد القناة من البحر إلى الخليج ، ١٧٠ –١٨٠كم، أو نحو ١٠٠ ميل . وبهذا فإن جبهة الهجوم المصرية شملت القناة برمتها، رغم أن جبهة المواجهة المباشرة تدور حول ١٠٠ كم منها فقط، وذلك لوجود قطاعات ذات طبيعة جغرافية خاصة تخرجها من المواجهة. وأهم هذه القطاعات هى سهل الطينة الهش على الضفة الشرقية ازاء بحيرة المنزلة ، ثم قطاع بحيرة التمساح والبحيرات المرة شديدة الاتساع بحيث لا تصلح لعبور قوات كبيرة. ولكن من الواضح أن الخطة المصرية اختارت عمدا وعن وعى أن يغطى الهجوم جبهة القناة بكامل أبعادها بين البحرين. والسبب أن هذا الانتشار يوزع دفاع العدو ويشتت هجومه المضاد وخاصة منه الجوى ، كما يربك العدو فى تحديد اتجاه مجهودنا الرئيسى ويعطل بالتالى رد فعله ازاءه.

كذلك يلاحظ أن العدد الذى أقيم من الجسور والمعابر كان أقل من المطلوب فعلا للعبور. ولكنه كان كافيا لإرباك العدو وتشتيته وخداعه، ولأن يكفل احتياطيا وبدائل تحسبا لأية اصابة قد تحدث، ولأن يفيد من قطاعات القناة الضحلة أو الضيقة، وأخيرا لأن يبتعد بصورة مأمونة عن مواضع نقط العدو القوية على طول خط بارليف.

وبالفعل، فلقد تم فيما بعد، حين مرت الفترة الحرجة، اختزال هذا العدد إلى ٣ فقط ضمت فيها الجسور إلى بعضها البعض فى المواقع الاستراتيجية الأساسية. ففى بداية العملية كان هناك ٣ كبارٍ على القطاع الجنوبى بين خليج السويس والبحيرات المرة، ٣ أخرى بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، ثم ٤ فى القطاع الشمالى ما بين بحيرة التمساح والقنطرة، اثنان منها جنوب جزيرة البلاح واثنان شمالها. وحين ضمت هذه الجسور والمعابر تركزت أمام محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة ، أى فى قطاعات السويس ، الإسماعيلية ، القنطرة.

المبارزة

وبديهى جدا أن هذه الجسور والمعابر، الحبل السرى وخط الحياة بين جانبى القوات الزاحفة، كانت الهدف الرئيسى الذى ركز عليه العدو نيرانه، وخاصة من الجو، بصورة محمومة. وفى وجه هذا الخطر لجأت الخطة إلى تكتيكات ديناميكية أفشلت كل محاولاته. فمن ناحية دأبت القوات المصرية على تحريك مواقع الكبارى بمرونة فائقة وسرعة من مكان إلى آخر. ومن ناحية أخرى أطلقت ستارة كثيفة من الدخان تحجب الرؤية وتمنع إصابة الأهداف ، ومن ناحية ثالثة أقامت بعض الجسور الخداعية ودفعت عليها بقوات هيكلية ركز عيها العدو فبددت جهوده وشغلته عن الجسور الحقيقية. وهكذا، وهكذا. وفى النتيجة فلقد فشل العدو فى تدمير شيء من الكبارى أو المعابر ولم ينل منها بالكاد، على العكس تماما من دعايته الداوية – والكاذبة – فى هذا الصدد. وفى الحالات القليلة التى حدثت بها اصابات كان اصلاحها يتم فى دقائق ويستمر العبور بلا توقف. ولو أن من الجدير بالذكر، كما يقول كتاب حرب رمضان ، «أن معظم الكبارى أصيبت وأعيد اصلاحها أكثر من خمس مرات..» (فى ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت «ربما كل» الجسور التى أقامها المصريون، وأن المعارك تدور «على حافة المياه»، وأنها ستستعيد السيطرة على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨ ساعة. وفى ٩ أكتوبر أعلنت أنها «تخلت»

عن خط بارليف ، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدا، وأن الخسائر الاسرائيلية كبيرة!)

فبعد ساعات من بدء العبور، رد العدو بالهجوم الجوى الشامل. وخلال الليل تحولت السماء إلى نهار بفعل المشاعل الجوية، وبلغ عدد الطائرات المغيرة أكثر من ٢٥٠ طائرة، أى أكثر من نصف سلاح العدو. حتى إذا كان الصباح ، حاول العدو أن يعود إلى أسلوبه فى يونيو ١٩٦٧ بضربة جوية خاطفة ومكثفة على ارتفاع منخفض جدا . ولكن طائراته فوجئت بصواريخنا القصيرة المدى من طراز سام ٧ إلى جانب المدفعية والرشاشات تتصيدها عن قرب أو ترغمها على الارتفاع فورا، فتتسلمها صواريخنا البعيدة المدى من طراز سام ٢ ، ٣ ولكن بالأخص ٦ فتتساقط قنابلها بعيدا عن أهدافها أو تتساقط هى نفسها محطمة أو محترقة.

هكذا نرى أن ملحمة العبور، رغم أنها بدأت مبارزة أمفيبية بين الضفتين تحت ستار هائل من نيران المدفعية المتبادلة بين الطرفين، إلا أنها تحولت فورا إلى مباراة بين الأرض والسماء كذلك . أى أن معركة العبور عملية أمفيبية ابتداء ولكنها معركة جوية أساساً ، ونجاحها كان رهنا بغطائنا الجوى ضد انقضاض الطيران العدو . وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية كان السلاح الجوى هو وسيلة العدو الأساسية لمحاولة اجهاض العملية: مئات الطائرات وآلاف الطلعات. ومن الناحية الأخرى تصدى له الطيران المصرى بقوة مكافئة، ولكن أولا وقبل كل شيء بدفاعه الجوى المتفوق ممثلا فى شبكة قواعد الصواريخ الثابتة والمتحركة الموزعة على طول الضفة الغربية. وتعد الشبكة الأولى ، التى وصفت بأنها غابة هائلة كثيفة من الصلب، أقوى شبكة دفاع جوى فى العالم بالنسبة إلى مساحتها، وقد كانت مقتلا حقيقيا للطيران الإسرائيلى المهاجم. أما الثانية فقد أثبتت نفسها مفاجأة المعركة الجديدة ، وكانت مصيدة أخرى قاتلة للعدو الجوى. وكما قال أحد طيارى الفانتوم الاسرائيليين «ان قوة النيران العربية المضادة للطائرات عبر القناة أعظم كثيرا مما كانت عليه خلال حرب الاستنزاف عامى ١٩٦٩، ١٩٧٠ . وأن المصريين قد صنعوا بقذائفهم المضادة للطائرات وبصواريخهم فوق مواقعهم الجديدة غلالات من نار كثيفة يصعب اختراقها».

وها هنا نلاحظ حقيقة غير عادية وعلى قدر غير عادى من الأهمية والمغزى. لقد تمت عملية العبور بلا غطاء جوى بالمعنى التقليدى، بمعنى مظلة من السلاح الجوى تحمى

القوات المتقدمة ضد طيران العدو. وبدلا من ذلك الغطاء الهجومي، كان الغطاء هو الدفاع الجوى، أى شبكة الصواريخ المضادة للطائرات، الثابت منها والمتحرك، المحمول ميكانيكيا والمحمول بشريا. وكانت هذه طفـــرة أبعد ما تكون عن الكلاسيكية، وتعد أول تجربة عسكرية فى تاريخ الحرب الحــــديثة تتم فيها المواجهة بين سلاح طيران معاد وبين نظـــــام دفاع جوى بحت على أرض مكشوفة. وفى ظل هذا الدفاع كان المهندســـــون والمشاة والمدفعية المصرية جميعا يعملون ويتحركون فى وقـــاية نادرة . ومن المحقق كما قرر القادة المصريون أن عملية العبور ما كانت لتنجح لولا هذه المظلة الواقية. وفضلا عن هذا فإنها حررت سلاحنا الجوى من أعباء تغطية العملية لينطلق إلى ضرب أهداف العدو فى العمق والتفرغ للمعارك الجوية معه .

هكذا اذن جرى حوار هائل بين ســـــتارتين لا ترتفعان من النيران، احداهما نازلة من السماء والاخرى صـــاعدة من الأرض، بهمـــا تحول حيز الفضاء فـــوق مسرح العمليات إلى شيء أشـــبه بكهف ماموث من كهوف ألسنة الارســـابات الجيرية المعروفة : ألسنة المعلقات النازلة الاستــالاكتيت stalactite ، وألســـنة المرسلات الصاعدة الاستالاجميت stalagmite – إلا أنها من نار حية ومميتة بدل الجير الميت ..

ولقد انتصرت الستارة الصاعدة على الستارة النازلة، وألسنة الأرض على ألسنة السماء. وبدلا من أن يغـــرق طيران العدو عملية العبور فى القـــناة كما كان يأمل وكما ظل طويلا يتوعد، تساقطت طائراته حولها «كالفراشات المحترقة» كما عبر بعض المراقبين، وبدرجة رهيبة ومفزعة لم يسبق لها مثيل قدرها البعض بثلاث طائرات من كل خمس. أما ما لم يسقط من طائرات العـــدو فكـــان يلقي بقنابله بعيداً عن أهــــدافها لينجو بنفسه إلى أن أضطر العدو فى النهـــاية إلى الكف تماما عن محاولته ، كما اعترف دايان ، وأصـــــدرت قيادتهم قرارا بعدم اقتـراب طائراتهم من القنـــاة لمسافة ١٥ كم شرقها على الأقل .

ومن الناحية الأخرى فلقد فشلت المدرعات كذلك فيما بعد فيما فشلت فيه الطائرات من قبل، اذ عجزت تماما عن ايقاف العبور وبناء الجسور. ومرة أخرى يعترف دايان بذلك، فيقول «لقد كانت لى نظرية هى أن اقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأننا سوف نستطيع منع ذلك بمدرعاتنا. ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، وقد كلفنا

جهدنا لارسال الدبابات إلى القناة غاليا جدا. فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التى استخدمها المصريون خسائر فادحة فى المدرعات الإسرائيلية. وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الاركان، فنحن لم نتوقع ذلك ».

ومهما يكن، فرغم أنه كان من المحتم ألا نعبر نحن القناة الا على جسر من الدماء حرفيا، فقد جاءت خسائرنا طفيفة نسبيا بدرجة غير متوقعة بل غير معقولة. فالقواعد العسكرية السائدة والمقررة تقدر لعبور الموانع المائية الخطيرة نسبة باهظة بل ومخيفة من الخسائر تصل فى أدناها الى ٢٠ ٪ وترتفع فى بعض التقديرات إلى ٦٠ - ٧٠٪ أحيانا من قوة الهجوم. وقد قدرت حسابات الدوائر العسكرية الأمريكية ثلاثة إلى أربعة أسابيع لعبور القناة وحدها. وحتى التقديرات العالمية المحايدة لم تكن أكثر تشجيعا، فقد كانت تتراوح بين ٢٥، ٣٠ الف قتيل! بل لقد اتضح أن من القادة العسكريين المصريين المسئولين فى وقت ما من اعتبر العبور «عملية انتحارية» ، فى حين ذكر الزعيم اللبنانى كمال جنبلاط مؤخرا أن الخبراء السوفييت قدروا كأصدقاء أن العملية تقتضى التضحية بنحو ١٠٠ ألف جندى.

غير أن مفاجأة عبورنا الكبرى انما جاءت فى هذا الجانب بالتحديد، اذ وصلت إلى حدها الأدنى المتصور أو غير المتصور. فلقد قدرت خسائرنا فيما أعلن بما لا يزيد على بضع مئات من الأفراد، ١٨٠ فردا كما قيل، وهذا فى تقدير البعض ، اجتهادا ، لا يعدو ٢٪ أو نحو ذلك من قوة الهجوم. وهذا ، إلى جـــانب الساعات المعدودات التى استغرقتها العملية ، رقم قياسى دعا كثيرا من كبار المراقبين العسكريين العـالميين إلى أن يعتبر العملية «معجزة» عسكرية كما وضعوها بتعبيرهم.

لقد نجحت عملية العبور التاريخى، وتدفق المد المصرى كالطوفان الكاسح نحو الضفة الشرقية. واذا كان العبور، الخطوة الأولى فى المعركة، هو بمثابة «عبور للهزيمة»، فقد كان نجاحه «هزيمة للهزيمة»، بل بالدقة بداية هزيمة العدو وبداية النصر العربى. فالواقع أن العبور كان مفتاح المعركة ومفتاح النصر، وقد لا يكون من المبالغة أن نقول ان نتيجة المعركة كانت تتوقف عليه، هو الذى يقرر مصيرها إما بالنصر أو عكس ذلك. ولم يكن العدو من جانبه يجهل هذه الحقيقة، ولم يخف قادته فى أوهام غرورهم القديم كم يتمنون لو أقدم الجيش المصرى على عبور القناة حتى يسحقوه ويدمروه مرة واحدة والى الأبد كما صور لهم الوهم.

فكما كتب ايف كو فى الفيجارو «لقد أصيب قادة إسرائيل بعقدة التفوق! فمنذ حرب الاستنزاف وأكبر أحلام قواد اسرائيل أن يروا اليوم الذى تحاول فيه القوات المصرية عبور قناة السويس! وقد وضع هؤلاء القادة خططهم على أساس تدمير الجيش المصرى تدميرا كاملا وساحقا حالما تبدأ محاولة العبور. والجنرال موشيه دايان نفسه، بعد أن اعتمد هذه الخطط ، لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة!» . وبعد ، فلقد انعكست الصورة منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد !

اجتياح الخط

فى «حرب الاستنزاف» ، التى استمرت نحو ثلاث سنوات عقب يونيو، صبت المدفعية المصرية آلاف الأطنان من القنابل لفترة طويلة بلا انقطاع - نحو المائة يوم - على مواقع العدو فى الضفة الشرقية. وكان العدو قد أقام على طول القناة سلسلة من الاستحكامات والتحصينات عرفت فى مجموعها باسم «خط بارليف». وقد انتهت حرب الاستنزاف بتدمير نحو ٨٠٪ من هذا الخط..

وقد كانت استراتيجية تلك الحرب أشبه شىء «بحرب الخنادق» القديمة التى عرفتها الحرب العالمية الأولى فى أوربا، الا أنها هنا خندق مائى هو القناة، أو قل هى «الحرب الجالسة Sitzkrieg" التى يتم فيها التراشق من مواقع ثابتة الا من عنصر الطيران المتحرك. وقد كبدت هذه الاستراتيجية العدو خسائر فادحة وشكلت نزيفا مستمرا وخطيرا على قواته، كان وحده عاملا مؤثرا فى قبوله وقف اطلاق النار فيما بعد.

ومنذ انتهت حرب الاستنزاف، بدأ العدو فى انشاء خط محصن جديد تماما يشرف على القناة، يحمى عمقه وراءها ، ويكون رادعا مروعا لأى محاولة مصرية للعبور، ولا يقارن البتة بالخط البسيط السابق الذى تحطم. ولهذا فإن خط بارليف المعروف والذى اقتحمته قواتنا فى أكتوبر انما هو فى الواقع خط بارليف الثانى. واستفادة من تجربة خط بارليف الأول . كانت الفكرة الأساسية فى الخط الثانى ألا يكون سطحيا بل غائرا تحت الأرض حتى لا تنال منه المدفعية المصرية الثقيلة كما فعلت بالخط الأول ودمرته.

ورغم أنه جاء أحدث وأعقد خط من نوعه فى التاريخ، فإنه ينتمى أساسا إلى سلالة وفكرة الخطوط الثابتة التى تبدأ من أمثال سور الصين العظيم وخطوط التخوم الرومانية

الشهيرة Roman Lines وتنتهى بأمثال خط ماجينو الفرنسى وزيجفريد الألمانى. كما شبهه أحد العسكريين الأمريكيين بخط مينيسوتا الدفاعى الذى أقامته أمريكا فى كوريا أثناء الحرب الكورية. كذلك فإنه ينم عن عقلية تخشى أن ، أو تفضل ألا ، تحارب الا من وراء حصون مشيدة ابتداء من حصون خيبر قديما إلى الدشم وبروج الدبابات والمدرعات حديثا.

والخط كله يأتى بعد هذا مناقضا إلى حد أو آخر لفلسفة العدو الأثيرة فى الحرب الوقائية والمبادرة الهجومية، مؤكدا أن الصمود المصرى بعد يونيو قد وضعه على جانب الدفاع رغما عنه. وصحيح أن الخط وإن كان ثابتا لا يعد نوعا من أنواع الدفاع الثابت، بل يعتمد على الدفاع المتحرك، الا أنه يبقى فى النهاية دفاعا لا هجوما. قارن هذا بما كان يردده دايان من قبل : «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» (لماذا اذن يصرون على تسميته جيش «الدفاع» الاسرائيلى؟).

خريطة الخط

مهما يكن، فلا شك أن الخط كان كقطعة من الهندسة العسكرية المتقدمة «معجزة» حقيقية كما وصفه المحايدون . فقد وضع فيه العدو كل قدراته الذاتية جنبا إلى جنب مع كل خبرات العسكرية العالمية عبر التاريخ. فالخط، الذى يمتد بحذاء القناة وبطولها من رأس خليج السويس حتى مشارف البحر المتوسط، يتألف من حوالى ٣٠ نقطة قوية strong points، (بالدقة ٢٢ موقعا حصينا، تضم ٣١ نقطة قوية) تبدأ من الشط وتنتهى برأس العش. كل نقطة منها اختير موقعها بعناية فائقة، تتحكم فى كل الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أى قوات تعبر القناة فى أى قطاع منها كما قال بعض كبار القادة المصريين. وبعد هذا تربط بين الكل الطرق الخاصة التى تجوبها الدوريات المسلحة بانتظام. ثم يحيط بالجميع نطاق كثيف من خطوط الأسلاك الشائكة والخوازيق الحديدية ثم حقول الألغام الغزيرة، بما فى ذلك الألغام المبثوثة فى مياه الضفة الشرقية من القناة، فضلا عن سلسلة أحواض النابالم والوقود الحارق على ضلوع الخط.

أما النقط القوية نفسها فتتوزع فى أبعادها ومسافاتها بحيث تتفق مع المواضع التلّية العالية والتبات المشرفة والمواقع الاستراتيجية المسيطرة. ولكنها فى كل الحالات مرتبطة

بالقطاعات الصالحة للعبور، وبصفة خاصة بقطاعات محاور سيناء الثلاثة. والمعنى واضح، وهو أنها ما أقيمت ولا وقعت الا لتردع وتمنع عبور مصر يوما ما . وهذا أيضا هو السبب الذى يفسر لماذا يختلف تكاثف أو تباعد تلك النقط فضلا عن مساحاتها، وهو كذلك الذى سيفسر لنا لماذا تأخر الاستيلاء على بعضها بعض الوقت.

فمن حيث المساحة تتراوح النقط بين نحو الفدان وربعه . أما متوسط التباعد فيتراوح بين ٤ ، ١٠ كم ، فهى تتقارب ويقل تباعدها فى القطاعات ذات القيمة الخاصة. ويمكن القول بصفة عامة انها كانت أكثر تكاثفا فى الجنوب وتزداد تباعدا وتخلخلا كلما اتجهنا شمالا. فكان هناك ٩ نقط بين رأس خليج السويس وبداية البحيرات المرة كان من أهمها وأقواها تلك المتحكمة فى رأس الخليج كنقط الشط ولسان بور توفيق. وعلى طول شواطىء البحيرات المرة كان هناك ٤ نقط ، ثم ٣ نقط بينها وبين بحيرة التمساح، ٤ بين الأخيرة وبين جزيرة البلاح، ثم فى النهاية ٧ نقط بحذاء الأخيرة وبطول القطاع الكبير الممتد حتى رأس العش شمالا.

وواضح أن التركيز كان على أشده فى أقصى الجنوب فى قطاع السويس الذى يفضى إلى ممر متلا الحاكم ، هذا بينما تتخلخل النقط بشدة بحذاء البحيرات المرة لأن اتساعها كجسم مائى فسيح يقلل احتمالات العبور والخطر. وبينما يعود التركز شديدا تجاه الإسماعيلية، رأس محور سيناء الأوسط، تعود النقط فتتباعد بشدة فى الشمال حيث تحد ظروف البيئة الطبيعية من فرص الخطر والحركة نسبيا، لا يستثنى من ذلك الا قطاع القنطرة حيث احتشدت كوكبة متقاربة من أربع نقط قربها باعتبارها رأس المحور الشمالى لسيناء . أما آخر نقط الخط شمالا فى رأس العش فكان مبرر وجودها الاستراتيجى هو التصدى لمحاولات أو احتمالات التقدم المصرى نحو الجنوب من جيب بور فؤاد والملاحة ، الوحيد الذى احتفظت به قواتنا بعد يونيو شرق القناة والذى كان يمثل رأس حربة تهدد العدو باستمرار.

تلك بصورة عامة خريطة الخط وخطته. أما كل نقطة من نقطه القوية فهى فى ذاتها قلعة حقيقية قائمة بذاتها، أشبه بمدينة حربية محصنة من الحديد والأسمنت، تتألف من مجموعة من الدشم المدرعة مبنية من الحجر الصلب أو الأسمنت المسلح، مصفحة بأبواب من الصلب ومدعمة بقضبان السكك الحديدية بل وبعرباتها (التى انتزعها العدو من خط

حديد سيناء، مثلما سبق له أن أقام السد الترابى من رديم ومخلفات حفر القناة). والقلعة بعد هذا متعددة الطوابق تضم مئوى الأفراد كما تتسع لملاجىء الأسلحة وأوكار المدفعية والمدرعات، وبها مزالق مركبة صاعدة وهابطة للدبابات بحيث تضرب وتختفى ولا ترى .

ولكن القلعة جميعا غائرة تحت السطح كأنها «مغروسة» فى الأرض أو مدفونة تحت الرمل أو محفورة فى الساتر كبيوت النمل . فلنحو ٢٠ مترا كانت القلعة تقع تحت مستوى سطح الساتر الترابى، فى حين لا يظهر منها أعلاه سوى مترين أو ثلاثة أمتار. والأنابيب التى تزودها بالمياه هى تحت الأرض أيضا. حتى الرؤية هى الأخرى تحت الأرض، من خلال أجهزة كبريسكوب الغواصة، هذا عدا مزاغل المدافع والرشاشات. انها قلعة دفينة كالمغارة الغائرة، سكانها كأهل الكهف troglodytes ، أو هم جنود الكهوف، ولا نقول كالحيوانات الحافرة burrowing animals .

والوحدة كلها مخططة بعد هذا على مبدأ الدفاع الدائرى ، بحيث تنال العدو من مزاغلها فى كل اتجاه دون أن يمكن لنيران العدو أن تنالها حتى لو أصابتها مباشرة بأطنان القذائف. انها، باختصار ، أشبه بمزيج عصرى جدا وحديث إلى أقصى حد من كهوف العصور القديمة الحفرية، وقلاع العصور الوسطى الصماء الملتوية بالدهاليز والأنفاق وخنادق الماء، وأخيرا من عمارات الأسمنت المسلح البرجية الحديثة. انها قلاع وسيطة ولكن طراز القرن العشرين، ومدن حربية عصرية جدا ولكنها من عصور سكان الكهوف ..

هذا الخط القوى، الذى أنفق العدو فى تحصينه وتسليحه سنين عدداً (أكثر من ثلاث سنوات) وملايين بلا عدد (أكثر من ربع مليار دولار، أو نصف تكاليف السد العالى) ، ثم أنفق أكثر من ذلك فى الحديث المخيف عنه كجزء من الحرب النفسية الرادعة، هذا الخط سقط فى أيام بل ساعات - بالتحديد ست ساعات، فى حين كان المقدر لها الضعف! لقد هدمت القوة المصرية العارمة فى ست ساعات ما بناه العدو المفتون فى ست سنوات، كل سنة بساعة.

ولا بأس أن نتذكر أو نتذاكر هنا بعض ما أرسله العدو من صيحات الترويع عن خطه السيىء الذكر. قال دايان فى أخريات ١٩٦٩ «لن تنال عمليات العبور المصرية، ان هى

حدثت، من قبضة إسرائيل المحكمة على خط بارليف، لأن الاستحكامات الاسرائيلية على الخط أشد منعة وأكثر تنظيما. ويمكن القول بأنه خط منيع يستحيل اختراقه، وأننا لأقوياء إلى حد نستطيع معه الاحتفاظ به إلى الأبد». وفى مناسبة أخرى عاد يقول ان خطوطهم المحصنة «أصبحت الصخرة التى سوف تتحطم عليها عظام المصريين»، وأنه إذا حاولت مصر عبور القناة فسوف تتم ابادة ما بقى من قواتها . كما صرح مرة أنه «مادامت قناة السويس هى حدودنا العسكرية ، والعرب هم أعداؤنا، فلسوف نكون نحن على خير ما يرام».

بالمثل أعلن بارليف أنه «لعلى يقين أن مصر لو عادت إلى القتال فلن تستطيع أن تحقق أى عبور، لأن من المستحيل اختراق خط الدفاعات الاسرائيلية بارليف.. كما أن قواتها لن يمكنها قط عبور قناة السويس نظرا لما يمثله هذا الخط المحصن من خطر على القوات العابرة». وفى مرة أخرى قال ان المصريين لا يعرفون أى جحيم سوف ينصب عليهم ما ان يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة. أما اليعازر فكان أقل اطنابا ولكن لم يكن أقل قطعا، قال عن الخط «انه سيكون مقبرة الجيش المصرى» . أما مايير فكانت فلسفية أكثر، قالت ببساطة «ان أى تصور يسمح ، ازاء ما نملكه من تحصينات، بعبور القوات المصرية إلى الضفة الشرقية يعتبر إهانة للذكاء» .

ومن الغريب بعد هذا كله أن قادة العدو الذين وصفوا خطهم كذلك مرة بأنه «غير منفذ للبشر أو للسلاح كما أن الصلب غير منفذ للماء أو للهواء» ، ومرة أخرى بأنه «غير قابل للتدمير حتى بالقنبلة الذرية»، عادوا بلا خجل عند أول هزيمة ليقولوا انه مجرد «شريحة من الجبن الجريير، به من الثقوب أكثر مما به من الجبن» (دايان)، بينما تنصل منه كلية من نسب إليه قائلا انها تسمية دارجة لا وجود لها رسميا فى «جيش الدفاع» (بارليف) !

فأما بارليف فقد قال بالنص «ان جيش الدفاع الإسرائيلى لم يستعمل اصطلاح «خط بارليف» اطلاقا، والصحافة فقط هى التى تداولت هذا الاصطلاح. ولقد أقيمت هذه التحصينات أثناء حرب الاستنزاف كقواعد متماسكة بعضها ببعض لكل عملياتنا على طول امتداد القناة. وأن أى شخص عادى ليدرك أن عشرين تحصينا لم تكن لتوقف وحدها هجوما شاملا تشنه خمس أو أكثر من الفرق المصرية. ان الزعم بأن التحصينات لم تتمكن من صد المصريين هو قول أحمق، لأنها لم تكن معدة لهذه الغاية أصلا. ولقد سقطت التحصينات لأنها كانت مجرد مواقع أمامية فقط».

وبالمثل ركز دايان على «عدم أهمية الخط عسكريا» (!) قال : «هذه منطقة شاسعة، وليست هناك فرصة أيا كانت لحماية كل متر . والآن وبينما التعبئة تجرى، فإن قوة الدفاع الاسرائيلية ستنمى قريبا قواها الكاملة لتجمد وتبدد أثر المكاسب الثانوية التى تمكن العرب من إحرازها» (!). وقالت أصوات أخرى من قادة العدو ان خط بارليف كان مجرد خط اعاقة، وقد كانت خطط إسرائيل أن تهجر الخط بعد العمليات الأولى.. ولكن هذا كله لم يكن ليخدع احدا، وكما قالت اليونايتيد بريس فإن «سمعة دايان هى التى أصبح بها من الثقوب أكثر مما بها من الثقة» ..أين الحقيقة فى هذا كله ؟ أين هى بين هذا الركام المتناقض من التهويل السابق والتهوين اللاحق؟، الحقيقة أن العدو فى الحالين كان مخادعا: فى الأولى كان يخدعنا (أو يحاول) ، وفى الثانية كان يخدع نفسه (وهذا شأنه) . فرغم أن كثيرا من العسكريين الأصدقاء الناصحين أوصوا بالفعل بأن تدمير الخط غير ممكن حقيقة الا بالأسلحة النووية، فقد كان العدو فى تصريحاته عن مناعته يستهدف أساسا معنوياتنا ويمارس صيغة منتهى الحرب النفسية حتى نشعر باليأس والتخاذل. وحين سقط الخط فى ضربة قاضية واحدة، كان كل همه أن ينقذ ماء وجهه بعد هيبته وسمعته ومعنوياته التى انهارت .

أما الحقيقة الموضوعية الكاملة فلا تعدو كلمتين : خط فائق المنعة والقوة والبراعة بلا جدال وخطة اقتحام – مع ذلك – أشد تفوقا وأبرع اعجازا بلا لجاج. ولم تكن التحصينات «مصنوعة من الكرتون» كما قال أحد الجنود الاسرائيليين، ولا كان الخط شريحة من الجبن المثقوب الا بعد أن شرحناه نحن وثقبناه . وليس لنا نحن أن نأخذ أو نؤخذ هنا بدعايات العدو المغرضة، سواء تهليلا فى البداية أو تقليلا فى النهاية. فنحن انما نقلل من عظمة انجازاتنا إذا نحن قللنا من قوة الخط العدو.

ملحمة الاقتحام

فإذا ما انتقلنا إلى ملحمة اقتحام الخط، فإن الأغرب من ذلك كله أن الخط انما سقط أساسا على أيدى المشاة فى الدرجة الأولى، ولم تكن سائر الأسلحة الأخرى إلا عوامل مساعدة، وذلك بحكم طبيعة تلك الحصون ، حصونه التى تستعصى على المدفعية الثقيلة، وكذلك بحكم الوقت ريثما تصل المدرعات بعد تمام مد الجسور والمعابر. كذلك فقد كانت تلك المشاة من المشاة الراجلة ، لا الميكانيكية، مزودة فقط بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة والصواريخ المضادة للدبابات.

من هنا لعبت القوة البشرية أو العددية دورا مهما جدا، فكانت هى التى اقتلعت الخط وخلعته خلعا كأنها الاعصار الغلاب أو التيفون الطوفان. ففور وصول طلائعنا الأولى إلى الضفة الشرقية، اندفعت الوحدات الهندسية تطهر حقول الألغام وتفتح ثغرات فى الاسلاك الشائكة، بينما ارتقى افراد المشاة الساتر الترابى بخفة وسرعة، بالحبال والسلالم والأقدام، لمواجهة العدو ولفتح المزيد من الثغرات بفدائية مذهلة سجلت بطولات تاريخية.

ويلاحظ هنا أن اختراق الخط لم يبدأ أمام النقطة المحصنة ولا بدأ بمداهمتها ومهاجمتها هى نفسها، وانما بدأ بالتسلل خلال الفواصل الواسعة بينها. وبقدر ما زاد هذا من عنصر المفاجأة للعدو، قلل من أخطار المقاومة التى كان يمكن أن نتعرض نحن لها فى تلك المرحلة المبكرة.

ولكن حالما تم مد الكبارى ووصلت المشاة الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وتدفقت القوات بأعداد ضخمة، أخذت قواتنا تغرق الخط بموجات متتابعة كثيفة كانت لا تلبث أن تعزل نقطه المحصنة عن بعضها البعض لتصبح كالجزر مقتطعة فى بحر الكثافة البشرية، فتطبق عليها «وتركبها» . فكان الجنود يقتحمون الحصن بأجسامهم ويطبقون على العدو فى مكامنه ومخابئه ويلتحمون به وجها لوجه وأحيانا بالسلاح الأبيض، حتى يتم تفريغ القلعة منهم بالقتل أو الأسر أو الفرار . «وفر الجنود الاسرائيليون من الخط بعد أن كانوا يجلسون فى خنادقه وهم يلتقطون أنفاسهم وقد علت القذارة أبدانهم وشحبت وجوههم. لقد فرت فلولهم من الجحيم الذى أطلقه عليهم الهجوم المصرى المفاجىء» كما كتبت مجلة إيطالية . «وتحطم خط بارليف، الذى شيدته إسرائيل على غرار خط ماجينو، تحت ضربات القوات المصرية، تماما كما سقط خط ماجينو منذ ٣٤ عاما» كما أضافت المجلة نفسها.

هكذا أثبتت المعركة ، على حد قول الجنرال بوفر ، أن «الدفاع مهما كان حصينا - كقلاع خط بارليف - فلسوف يظل عرضة للاختراق والتدمير مادامت القوات المهاجمة من القوة والكثافة والتنظيم بالقدر الذى يضمن لها الغلبة». أو كذلك على حد قول ولتر لاكير، أثبتت المعركة أن الخطط العسكرية الاسرائيلية التى اعتمدت على بناء خطوط محصنة ثابتة على طول قناة السويس انما اعتمدت على فكرة بالية من الناحية العسكرية لم يعد يأخذ بها المخططون العسكريون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولابد لنا هنا أن نسجل ملاحظتين مهمتين. الأولى أن اقتحام الخط على هذا النحو انما تم بالمواجهة المباشرة، أى وجها لوجه على طول امتداد الجبهة وليس بالالتفاف حوله، الذى على أية حال لم يكن ليتفادى مشكلة الفاصل المائى. وتلك وحدها كانت مفاجأة لم يكن العدو يتوقعها بل كان يستبعدها تماما ويعدها خارج قدرة الجيش المصرى. أما تقديره فكان الهجوم على الاجناب على الأكثر، أى من نهايتى الخط شمالا وجنوبا. لكن المقاتل المصرى أثبت قدراته التامة، ودفع العدو ثمن غروره السفيه.

الملاحظة الثانية أن سلوك العدو داخل نقطه الحصينة أثناء اقتحامها جاء تكذيبا لكل نظرياته العسكرية التى تنضح بالزهو والاستعلاء . فما أن أطبقت القوات المصرية على دشمها، حتى غاصت قوات العدو أو غاضت داخلها، إلى أن نفذت إليها قواتنا. الآن قارن هذا بما قاله دايان قديما: «إن جيشنا ليس كالقنفذ الذى ما يكاد يرى الخطر حتى ينكمش على نفسه تحت أسلاك شعره وينتظر الضربة. وانما هو كالثور الذى ما ان يشعر بالخطر حتى يشرع قرنيه استعدادا للهجوم». فى أكتوبر ، مع ذلك، استحال الثور قنفذا !

هكذا تحولت تلك الحصون الرهيبة التى أعدت لتكون فخا ومجزرة لنا إلى سجن ومصيدة قاتلة لأصحابها . وبعض هذه القلاع سقط أو سلم فى ساعات، ولكن البعض قاوم لفترات أطول، وبعضها الآخر ضرب عليه الحصار أياما حتى استسلم. فمثلا كانت أول نقطة تسقط فى يد الجيش الثانى هى نقطة الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد (ساعة وثلث الساعة)، وفى يد الجيش الثالث نقطة الشط (بعد ساعة ونصف الساعة). ونقطة الفردان سقطت فى ٤٨ ساعة ، بينما سقطت نقطة شمال البلاح ثم استردها العدو ثم استعدناها خلال ليل ٦ أكتوبر. وقد كانت نقط القنطرة شرق الأربع مما وقع فى أيدى القوات المهاجمة مبكرا. فإحدى هذه النقط الأربع سقطت بعد ١٢ دقيقة فقط من العبور، وأخرى بعد ربع ساعة، وثالثة بعد ساعة، وفى اليوم الثالث كانت منطقة القنطرة شرق كلها قد حررت تماما . وعلى العكس كانت نقطة رأس خليج السويس أى لسان بورتوفيق آخر ما سلم - بعد أكثر من أسبوع من الحصار. لكن الخط فى مجموعه كان قد سقط معظمه عمليا وبالفعل خلال الساعات الست الأولى من بدء المعركة، ١٥ نقطة فى الليلة الأولى، وتمت معظم تصفيته وتطهيره فى الأيام القليلة الأولى.

وفيما بعد ، حين اكتملت السيطرة على موطىء قدم على الضفة الشرقية تم نسف هذه القلاع جميعا بالتفجير، وكان هذا ضروريا كما هو طبيعي. وبذلك زال إلى الأبد من على وجه الأرض الخط الذى ظن العدو أنه سيغير به وجه التاريخ، فدخل هو التاريخ من باب الحفريات وأثريات المتاحف الحربية. ومن الطريف أن مخلفات حطامه تحولت فيما بعد إلى مادة خام فى أيدى قواتنا استغلتها فى اقامة قواعدها ومواقعها الجديدة .

وإذا نحن الآن توقفنا قليلا نتأمل ملحمة اقتحام هذا الخط الدارس، فلن نملك إلا أن تجبهنا بل تروعنا حقيقة غريبة مثلما هى باهرة. لقد كان فى فلسفة الخط نفسه شىء من الماضى ومن القديم، فلسفة القلاع ذات التحصينات المترسة والأسوار والحوائط المخندقة، المبانى الحجرية الضخمة، المزاغل، الانشاءات تحت الأرضية.. إلخ، لا يغير من ذلك كل مظاهر وأساليب التكنولوجيا العصرية الحديثة داخله وحوله.

بل ان فكرة الخط كلها كنظام دفاعى، تلك التى تبدو على طرف نقيض مع عملية الحرب الخاطفة التى سبقتها، لتمثل فكرة قديمة بل عتيقة إلى أقصى حد. فالخط فى الحقيقة انما يكرر خطا بل خطوطا سابقة من التحصينات والاستحكامات والقلاع أقامها الفراعنة كما رأينا مرارا عبر برزخ السويس فى نفس موقع القناة الحالية. وإلى هذا فإن الخط ومعه الساتر الترابى لا يشير فى جوهره الا إلى عقلية «سور المدينة» أو «حائط المدينة» القديمة، وانما على نطاق اقليمى بدلا من نطاق المدينة.

لم يكن غريبا لذلك كله أن يتلون الهجوم كذلك بلون قديم نسبيا أو جزئيا يذكر بصورة أو بأخرى بحروب الماضى. خذ تسلق قواتنا بالسلالم والحبال لذلك الساتر الترابى الذى ينحدر عموديا تقريبا كأنه أقدام قلعة من قلاع العصور الوسطى ولكن ينقصها حتى منحدر glacis تلك القلاع . واعتبر كذلك حالات الحصار المحكم التى ضربت واستمرت عدة أيام حول البعض منها. فاذا أضفنا كيف كانت المشاة المصرية تتقافز على دشم هذه القلاع ، تركبها ، تقتحمها جسديا، وتلتحم بالمتحصنين داخلها وجها لوجه وبالسلاح الأبيض أحيانا، لاجتمعت ولا نقول اكتملت لنا فى هجومنا كثير من ملامح فروسية حروب عصر القلاع وبطولات عصر حصار واقتحام المدن المسورة ذات الحوائط والأبراج... إلخ ، وإنما فى صورة جديدة عصرية أو بالأحرى معصرة. ولا يؤكد هذا الانتهاء كما يؤكده ما أعلنه أحد كبار قادة المعركة المصريين من أننا «استخدمنا المشاة بالأسلوب نفسه الذى

كانت تستخدم به المشاة منذ العصور القديمة، وإن اختلفت الأسلحة التى فى أيدينا عن تلك التى كانت فى أيديهم».

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد كانت ملحمة اكتساح خط بارليف فى جوهرها صراعا بين الشجاعة والمناعة، شجاعة المقاتل البحتة ومناعة الأبراج المشيدة، مثلما كانت مواجهة بين فلسفة الخطوط الزاحفة المتحركة ونظرية الخطوط المحصنة الثابتة. وفى الحالين تغلبت الأولى على الثانية: تغلبت الارداة على الأرض، والإنسان على السلاح، وأصحاب الأرض على الغاصبين . لقد «جاءوا، رأوا، وانتصروا» ... عبروا ، اكتسحوا، وانطلقوا.

معركة القاعدة الأرضية

منذ تم تدمير واختراق الخط بدأت مرحلة جديدة فى المعركة، مرحلة اعداد قاعدة أرضية وثيقة للاحتشاد وانطلاق الزحف. فمن رأس جسر إلى رأس حربة، ومن موطىء قدم إلى قاعدة انطلاق، وفى النهاية من موقع ثابت إلى موقعة متحركة – إلى هذا جاء تطور العمليات على الضفة الشرقية .

وبغير تحديد قاطع بصرامة، وفى قدر من التداخل والتواصل المفهوم، قد يمكن أن نقسم هذه المعركة التى امتدت نحو ١٧ يوما منذ تم العبور حتى اعلان وقبول وقف اطلاق النار إلى ثلاث مراحل ميدانية أو تكتيكية بحسب المهمة أو الملمح السائد عليها. فالمرحلة الأولى امتدت نحو اسبوع وهى مرحلة معركة القاعدة الأرضية، والمرحلة الثانية هى وقفة التعبئة نحو ٣ –٤ أيام، وأخيرا مرحلة معركة الدبابات الكبرى واستمرت نحو الأسبوع . أى أن المعركة كلها دامت نحو أسبوعين ونصف الأسبوع، واستغرقت مراحلها أسبوعا فنصف أسبوع فأسبوعاً آخر على الترتيب وعلى وجه التقريب.

وقد بدأت معركة الضفة الشرقية بتدفق القوات المصرية الذى لم ينقطع منذ تم مد الجسور والمعابر. وفى طليعة التدفق جاءت المشاة الميكانيكية ثم المدرعات والمدفعية وسائر الأسلحة الثقيلة. وقد تحقق هذا فى أول ليلة من المعركة تحت ستار الظلام، ولكن فى تنظيم دقيق محسوب وبنجاح تام. وقد حقق تدفق القوات أرقاما قياسية غير مسبوقة، فمثلا فى الأربع والعشرين ساعة الأولى من بدء القتال كان قد انتقل إلى البر السينائى نحو من ٨٠ ألف جندى بكامل سلاحهم فى ١٢ موجة متتابعة. «وهذا فى حد ذاته يعد نصرا عسكريا بأى مقياس» كما كتبت مجلة تايم. ومعهم بدأت ملحمة التحام ومعركة

تصادم شرسة ورهيبة من أجل تحرير الأرض. ولم يطلع فجر ٧ أكتوبر حتى كانت هذه القوات قد توغلت لمسافة ٨ كم.

وفي الوقت نفسه خرجت وحدات الأسطول البحرى تقصف مواقع العدو على كل سواحل سيناء الثلاثة وتتصيد وحداته البحرية في مياه البحر المتوسط وخليج السويس، كما تحمى أجناب قوات الغزو المتقدمة من اليمين والشمال . كذلك انطلقت فرق الفدائيين الخاصة (الصاعقة، الكوماندوز) تعمل خلف خطوط العدو فى أعماق سيناء وسواحلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد كانت ممرات ومضايق سيناء من المسارح الأساسية لنشاط هذه القوات لمنع العدو من التقدم لشن الهجمات المضادة ولتدميره «وتجويفه» من الداخل. وقد استطاعت قوة منهم السيطرة الكاملة على ممر سدر معظم أيام المعركة بكاملها.

وعدا الخسائر الضخمة التى أنزلتها هذه الضربات بأجناب وأعماق العدو، وما أحدثته من قطع لخطوط مواصلاته وامداداته واعتراض لتقدمها، وكذلك ما عادت به من أسرى، فإن دورها كان حيويا وحاسما فى تشتيت جهود العدو وتوزيع قواته فى كل أطراف شبه الجزيرة الشاسعة ، وبالتالى منعه من تركيز قوته على الجبهة الأساسية على القناة. ويكفى لتوضيح مدى وخطر هذا التشتيت أن العدو اضطر على سبيل المثال إلى توجيه أكثر من ١٠٠ دبابة نحو محور الساحل الشرقى لخليج السويس ، بعيدا تماما عن جبهة القناة الاساسية .

وفيما بعد وطوال المعركة لم ينقطع نشاط البحرية والكوماندوز، بل تزايدت عملياتها ونجاحاتها على أوسع نطاق . وقد اعترف العدو بذلك، وأعلن أن قوات الكوماندوز المصرية تستخدم تكتيكات جديدة لأول مرة، وأنها تدخل سيناء من كل مكان ومن كل اتجاه وبكل الوسائل ، الهليكوبتر، القوارب، الأقدام، تقاتل بشراسة وبأحدث الأسلحة.

هذا على إطار شبه الجزيرة ، أما على جبهة المواجهة الأساسية فى الضفة الشرقية للقناة، فيجب أن نذكر أولا أن القوات المصرية المهاجمة التى اخترقت خط بارليف لم تتوقف أمام حصونها بعد أن طوقتها وركبتها، بل تقدمت مباشرة نحو الشرق تاركة تلك الحصون تتساقط بالجملة أو واحدة بعد أخرى كجيوب محتواة تماما. ومن الناحية الأخرى كان كل هم العدو هو أن يدفع بقواته بأسرع ما يمكن لمواجهة القوات المهاجمة

المتقـدمة ولتدفع بها إلى الخلف نحو القناة، دون جـدوى مع ذلك بالطبع. والواقـع أنه فى الليلة الأولـى من القتال كانت القوات المصرية قد دمرت معظم قوات احتياطى العدو الاعتراضية، مما اضطره إلى أن يدفع بأنساقه الخلفية إلى المعركة واحدا اثر الآخر .

وهنا لابد أن نلاحظ أن خط بارليف لم يكن هو خط الدفاع الوحيد على جبهة القتال، ولا كان معناه الدفاع الثابت كما قد نتصور. فلقد كان هناك خطان دفاعيان آخران خلف خط بارليف، يفصل بين كل منها ٣ - ٤ كم، بحيث تتوالى ثلاثتها عبر نحو ٨ كم عمقا. فأما الخط الأول فكان خط الاحتياطى التكتيكى، يتألف من قوات من المشاة الميكانيكية والأسلحة الخفيفة تعـاونها بعض الأسلحة الثقيلة، ومهمتها التصدى لأى قوات قد تخـترق خـط بارليف، فعنـدئذ تتعامل معها وتساعد حصون الخط إذا حوصرت. أما الخـط الـثانى فكان خط الاحتياطى التعبوى، وهو أقـوى عـددا وأثقـل تسـليحا، ويتـوزع فى قواعد ومراكز مختارة بعناية. أما مهمته فالتقدم لتدعيم الخط الأول إذا لم يكف للمواجهة.

وإذا كان خط بارليف نفسه قد سقط فى الساعات الأولى، وكان الاحتياطى التكتيكى قد تمزق فى الليلة الأولى من العبور، فقد جاءت نهاية الاحتياطى التعـبوى بدوره فى غضون اليـومين أو الثـلاثة الأولى. وقد بلغت خسائر العـدو فى هذه الفترة معدلات خطيرة، وكان واضحا للغاية مدى الاضطراب والارتجال فى قتال العدو. ولم تلبث المعركة أن تطورت إلى حرب ضـارية بالأسلحة الثقيلة والمدرعات تعاونها الطائرات ، واضطر العدو أن يدفع بأسرع مما كان يتوقع باحتياطيه الاستراتيجى الذى نقله على عجل من أعماق سيناء ومن داخل إسرائيل نفسها.

فمن الجانب المصرى المهاجم تقدمت القوات الثقيلة من المدرعات والآليات والمدفعية جنبا إلى جنب مع قوات المشاة الميكانيكية والراجلة تحمل من بين ما تحمل الصواريخ المضادة للدبابات وتلك المضادة للطائرات، وفوق الكل غطاء جوى عارم من المقاتلات والقاذفات المقاتلة ، وخلف الجميع على الضفة الغربية أقوى وأكثف وأحدث شبكة من نوعها فى العالم من صواريخ مضادة للطائرات، عالية ومنخفضة، تغطى نطاقا عمقه نحو ٢٠ - ٣٠ كم من سماء الضفة الشرقية.

وعدا هذا فلقد كانت جبهة الزحف المصرى تمتد بطول القناة من البحر المتوسط إلى خليج السويس، موزعة على الجيش الثانى فى الشمال والجيش الثالث فى الجنوب، تفصل

بينهما منطقة البحيرات المرة. أما التقدم عبر القناة فقد تم - والتقدم فى حروب الصحراء يتم أصوليا على محاور وليس جبهويا - على محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة : المحور الشمالى ازاء القنطرة أى عند نهاية بحيرة المنزلة وباتجاه الساحل الشمالى، المحور الأوسط أمام الإسماعيلية أى منطقة بحيرة التمساح وباتجاه مضيق الجفجافة، وأخيرا المحور الجنوبى مقابل السويس حول رأس الخليج وباتجاه ممر متلا. ومنذ احتلت القوات المصرية رءوس الجسور ، أخذت توسعها وتعمقها إلى جيوب كبيرة ، ثم أخذت الجيوب تتوسع وتستعرض لتتصل وتتلاحم فى قاعدة أرضية جبهوية عريضة واحدة ليس بها الا الحد الأدنى من الثغرات.

ومن الناحية الأخرى سارع العدو بدفع كل قواته المتاحة أو المتبقية، بما فى ذلك الاحتياطى الاستراتيجى من العمق، فى هجوم مضاد مستيئس كما هو مضطرب ليصد الزحف المصرى . وقد تكررت عمليات الهجوم المضاد هذه عدة مرات (فى القطاع الأوسط مثلا شن العدو ١٦ هجوما مضادا خلال ٧ أيام على رأس جسر واحد فقط)، ولكن كل هجوم مضاد منها كان لا يلبث أن يتكسر ، ليبدأ غيره فيتكسر من جديد. وكانت المدرعات والمدفعية هى قوام قوات العدو (طوال الأيام الثلاثة الأولى لم يشاهد جندى مشاة إسرائيلى واحد، دبابات فقط!) تحت غطاء جوى كثيف جدا من الطائرات بأنواعها بما فى ذلك طائرات الهليكوبتر المصفحة.

ورغم أن الأسحة التى دفع بها كل من الطرفين إلى المعركة كانت متنوعة إلى أقصى حد وتشمل كل أنواع الترسانة المتاحة، فقد كان بينهما اختلاف فى درجة التركيز على هذا السلاح أو ذاك. فكان العدو الاسرائيلى من جانبه يضغط أساسا على الطائرات والدبابات بأنواعها، بينما ركزت القوات المصرية بصفة خاصة على صواريخ الدفاع الجوى فى وجه الأولى وعلى مشاة الصواريخ فى وجه الثانية.

فبالأولى أقامت من أسفل وخاصة من قاعدتها غرب القناة سدا ناريا بالغ الكثافة والضراوة ضد الستار النارى الذى أسقطه طيران العدو من أعلى سواء من شرق أو غرب القناة. وبالثانية تصيدت مشاتنا دباباتهم ومدرعاتهم على الأرض أولا بأول. وبهذا كانت شبكة صواريخنا المضادة للطائرات تجرد العدو بانتظام من غطائه الجوى، فتتسلم صواريخ مشاتنا قواته المدرعة على الأرض وتبيدها على الفور وبلا ابطاء .

ومن الثابت أن التفوق العددى والنوعى فى السلاح والرجال فى تلك المرحلة كان لنا، فى حين كان العدو ممزقا بين عملية حشد احتياطيه التى تأخرت وبين خوفه من أن يؤدى القذف به فى المعركة إلى تعرية ظهره. قال دايان «فى اليوم الرابع من الحرب كان لدى مصر من الدبابات فى سيناء أكثر مما عند إسرائيل» . ولو كانت إسرائيل قد استمرت فى محاولة دفع المصريين إلى الخلف عبر القناة «لفقدنا قوتنا وتركنا إسرائيل بغير قوة».

ولقد وصف الأسبوع الأول من القتال بأنه «أسبوع تأديب للجيش الاسرائيلى»، بينما وصفه دايان بأنه «أخطر أسبوع فى حياة إسرائيل كدولة». وإنه لكذلك بالفعل . فلقد كانت المعركة تتلخص ببساطة وبلا أدنى مبالغة فى عجز على جانب العدو ، وإعجاز على الجانب المصرى. فقد اكتسح الهجوم المصرى خطوط العدو ومزق صفوفه وحقق انتصارات مذهلة، وسيطر تماما على ميدان المعركة، أو كما كان يصرخ شارون فى جونين «اننا نرقص على أنغامهم!».

ومنذ الساعات الأولى بدأت القوات الإسرائيلية تتحطم وتتهاوى: وحدات مدرعة برمتها تدمر وأطقمها تقتل، وأخرى يقع معظمها فى الأسر أو تلجأ إلى الفرار تاركة أسلحتها وذخيرتها إما حطاما كالأطلال أو سليمة دون قتال أو استعمال، وعشرات الطائرات الأمريكية الصنع تتساقط محترقة بطياريها أو بغير طياريها الذين لا يلبثون أن يضافوا إلى قائمة الأسرى المكتظة، سواء كان ذلك على الضفة الشرقية أو الغربية.

ويكفى مصداقا، بل تلخيصا ، لهذا كله أن نقتبس قائدا من قادة العدو نفسه، ابرييل شارون، الذى قال فى غضب هستيرى انه رأى وحدات المشاة المصرية تتقدم فى تلك المرحلة «كما لو كانت فى عرض خلف راياتها» بل لقد فكر العدو فى بداية المرحلة فى التراجع الاستراتيجى، فقد قال دايان فى يوم ٨ أكتوبر «ان الموقف يبدو حرجا، وكى ندافع عن إسرائيل لم يبق أمامنا إلا أن ننسحب بقواتنا إلى خلف ممرات سيناء وعلى قمة هضبة الجولان». أما دايان نفسه فقد تحول إلى «رجل محطم» كما وصفته هاعولام هازيه التى كتبت تقول «ان الجنرال موشيه دايان قد انهار فى اليوم الثانى من حرب اكتوبر عندما حطمت القوات المصرية كل الهجمات الاسرائيلية فى سيناء ووصلت القوات السورية إلى مسافة لا تتجاوز خمس دقائق من وادى الأردن، وأوقعت خسائر فادحة فى الدبابات والطائرات الاسرائيلية حولت دايان إلى رجل محطم». أو كما وضعها وولتر لاكير، «فقد فاعليته وكاد يصاب بالهلع».

وإذا كانت مفاجأة هذه المرحلة هى النصر المصرى الساحق الذى حطم عصب الجيش الإسرائيلى وكسر عموده الفقرى على أقل تقدير، فإن مفاجأتها الأخرى ولا نقول الصغرى هى دور المشاة فى الميدان. فرغم أن حشود الدبابات والطائرات إلى جانب المدافع والصواريخ كانت هى المسيطرة على ميدان القتال وهى التى ملأت المسرح، فقد كان نجم المعركة وبطلها الحقيقى هو رجل المشاة والمشاة الميكانيكية المسلح بالأسلحة المحمولة الخفيفة ولكن بوجه خاص جدا بالصواريخ المضادة للدبابات وللطائرات. وقد قدر العدو، إن خطأ أو صوابا ، أن من بين كل ثلاثة مشاة مصريين كان واحد مسلحا بتلك الصواريخ.

وأيا ما كان ، فلقد كانت المواجهة على الأرض تدور غالبا بين دبابة مدرعة وفرد بصاروخ، أو فى الجو بين طائرة مصفحة وفرد بصاروخ، وكانت النتيجة فى الأغلب سقوط الدبابة أو الطائرة، بل ان كثيرا من جنود المشاة أسقط الواحد منهم عشرات من هذه الأهداف بمفرده على امتداد المعركة. وتلك جميعا كانت ظاهرة ثورية وسابقة غير مسبوقة فى التاريخ العسكرى تحتاج إلى وقفة خاصة حين نحلل نتائج الحرب فيما بعد.

أما هنا فيكفى أن نقول ان حصيلة الأسبوع من خسائر العدو على الجملة كانت بضع مئات من الطائرات المحطمة وعدة مئات من الدبابات المحترقة، ثم بضعة آلاف من القتلى وعدة آلاف من الجرحى، أما إقليميا، فقد وصلت المنطقة المحررة أثناء تلك المرحلة إلى نطاق مهم بطول الضفة الشرقية من البحر إلى الخليج وبعمق بضع عشرات من الكيلو مترات ما بين القناة والمشارف الأمامية أو الخارجية لمضايق سيناء، وكانت تتراوح محليا بين ١٠ ، ١٨ كم.

وقفة التعبئة

عقب الأسبوع الأول من بدء المعركة أو قبل نهايته بقليل، حدث إلى حد ما هدوء نسبى فى حدة القتال أو انخفاض ما فى سرعة ايقاع التقدم . وهو تطور كان ملحوظا أحس به الجميع لبضعة أيام وعكسته بوضوح البلاغات العسكرية المصرية كما جسمته قلة خسائر العدو نسبيا عما ألفناه فى المرحلة السابقة، كما استرعى الانتباه واستثار التساؤل بل واستدعى النقد من البعض . فرغم أن الموقف كان أبعد شىء عن الجمود أو السكون وحتى عن الركود أو الاسترخاء العسكرى، فلقد شعر الكثيرون منا ومن غيرنا بعد نصر

الأسبوع السابق الساحق أن ثمة فرصة كبرى يجب ألا نضيعها وأن علينا بأسرع ما يمكن أن نستثمر انتصارنا وهزيمة العدو وانهياره البادى لنجهز عليه بضربة أقوى داحرة ونهائية.

فلقد كان أمام القوات المصرية المتقدمة أحد اختيارين: إما الاندفاع نحو الممرات للسيطرة عليها، وإما التركيز على تأمين قاعدتها الأرضية وتدعيمها . وعلى الجانب الآخر كان أمام العدو الإسرائيلى أحد اختيارين: إما الانسحاب إلى المضايق والتحصن بها، وإما الصمود والمصادمة بأمل التمكن من التقدم وربما التوغل فيما بعد. وقد كان الانسحاب كفيلا بأن يستدرج القوات المصرية خارج نطاق شبكة صواريخها الحامية ويفرض عليها الانتشار الواسع المتعجل ويطيل خطوط مواصلاتها ، وبذلك كله يعرضها لخطر الاستنزاف. غير أن خطر مثل هذا الانسحاب من وجهة نظر العدو يتمثل فى الأثر النفسى والمعنوى أولا، ثم فى احتمال تفوق المصريين واستيلائهم على المضايق أو التشبث خلفها فى حرب طويلة تستنزف العدو ولا تلائمه.

ولقد كان هناك بالفعل اغراء شديد للقيادة المصرية بأن تندفع بأقصى سرعة فى زحفها نحو الشرق وبوجه خاص نحو المضايق ، مفاتيح سيناء الاستراتيجية الحاكمة بلا جدال. فالمضايق، التى أصبحت طلائع قواتنا المتقدمة على بعد عنها يتراوح بين ٥٠ ، ١٥ كم فقط فى بعض القطاعات، هى كما نعرف قطب الجاذبية فى أى صراع مسلح يدور على أرض شبه الجزيرة، هى الرهان الحقيقى، وهى الجائزة الكبرى. ليس فقط لأن السيطرة عليها تعنى بالنسبة لنا تحرير نحو ثلث المستطيل القاعدى الشمالى من سيناء، ولا لأن هذا الثلث كساحة حرب أضيق من أن يعرضنا الانتشار فيه لخطر اطالة خطوط مواصلاتنا بصورة مقلقة، (ولا كذلك لأنه أضيق من أن يسمح للعدو بفرص الحركة الكاملة والمناورة المطلقة بالمدرعات التى يعتمد عليها) ، ولكن أيضا وقبل كل شىء لأن السيطرة على المضايق تحدد مصير بقية المعركة. ولقد كان التسابق على المضايق هو بالفعل ما توقعه كثير من المراقبين العسكريين فى الخارج كالخطوة التالية للقوات المصرية والتطوير الطبيعى لهجومها بعد أسبوع النصر الأكبر.

غير أن من الواضح أن القيادة المصرية قاومت بشدة كل اغراءات الزحف السريع الكاسح وفضلت عن عمد وبوعى خطة تعميق وجودها فى القاعدة الأرضية المحررة على خطوة تنمية الهجوم وتطويره شرقا، أى فضلت التوسع الرأسى على التوسع الأفقى كما

قد نقول. أو بعبارة أخرى آثرت البطء المحسوب على المغامرة بانتهاز فرصة قد تنطوى على فخ كامن، وفضلت انزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو من حالة الثبات – وهى أفضل وضع ممكن حينذاك – على دفع القوات وزجها فى العراء بلا غطاء أو ساتر أو تجهيز هندسى يحميها من العدو الجوى. والسبب الأساسى فى ذلك أن التوسع بعيدا إلى الشرق كان سيتقدم بقواتنا خارج نطاق تأثير وفاعلية شبكة صواريخنا المضادة للطائرات ويحرمها من حماية مظلتها، وبذلك يعرضها لأخطار الطيران العدو وقد يمنحه فرصة للتفوق غير المأمون.

وقد حدث بالفعل ، كما أعلن فيما بعد، أن القوات المصرية خرجت عن خطة الوقفة مؤقتا حين اتضح أن خطة العدو هى «تثبيتها» ومنعها من التقدم ليتفرغ لسوريا، حتى إذا ما فرغ منها عاد بكل ثقله الينا. ولهذا، وتخفيفا لضغط العدو على سوريا فى الجبهة الشمالية، اضطرت قواتنا فى يوم ١٤ أكتوبر إلى تطوير هجومها وإلى شن هجوم واسع النطاق فى مرحلة سابقة لأوانها امتدت بمدرعاتنا خارج نطاق صواريخنا المضادة للطائرات . وما إن حققت هذه الخطوة أغراضها فى إرغام العدو على سحب كثير من قواته وطائراته من الجبهة السورية، حتى عادت قواتنا إلى قاعدتها الأرضية ورءوس جسورها حرمانا للعدو من أى فرصة لتصيدها بطيرانه، واستدراجا لهجماته المضادة إلى مقتل محقق فى نطاق شبكة صواريخنا .

وعلى هذا الأساس روعى فى عملية الضغط هذه ألا تؤثر على التمسك التام برءوس كبارينا أو تماسكها المطلق. فتم الهجوم بجزء فقط من القوات المدرعة والميكانيكية، يتألف من مفارز صغيرة الحجم نسبيا ولكنها مؤثرة كثيفة فى قوتها النارية. وقد مهدت قواتنا الجوية للعملية بضربة جوية كبيرة بالطائرات والصواريخ على أهم أهداف العدو فى سيناء، صحبتها فى اللحظة نفسها قصفة مدفعية كبرى مركزة (٥٠٠ مدفع/ربع ساعة)، كما نقلت قوات دفاعنا الجوى بعض وحدات صواريخها مدا لغطائنا الجوى إلى أبعد مسافة ممكنة شرقا. وعلى أثر هذا التمهيد وفى ظل هذه الحماية تقدمت مفارزنا على المحاور الرئيسية الثلاثة تجاه المشارف الغربية للمضايق والممرات، وتوغلت داخل نطاقات العدو نحو ١٥ كم أو إلى مسافة ٣٠ كم من القناة، ونجحت فى تدمير الكثير من قواته هناك وفى منع تدفق قوات امداداته نحو الغرب. وعندما اتمت هذه المفارز مهمتها عادت

إلى رءوس كبارينا مرة أخرى. وبذلك كانت العملية فى آن واحد مناورة توازن مع الجبهة السورية من جهة ، ونوعا من التمهيد المسبق للتطوير الأساسى القادم لهجومنا شرقا من جهة ثانية، ثم حلقة وصل بين الوقفة التعبوية ومعركة الدبابات الكبرى الوشيكة من جهة ثالثة.

وفيما عدا هذا كان قرار القيادة أن تحرم العدو أى فرصة انتقامية، وآثرت أن تتوقف مؤقتا وقفة تعبوية تشدد فيها قبضتها على قاعدتها الأرضية المحررة وتوطد مواقعها فيها وتعيد تنظيم وتجميع القوات، وكذلك ريثما يكتمل وصول الامدادات الادارية ووحدات دفاعنا الجوى ومدرعاتنا فتحشدها لمواجهة فاصلة. وبذلك يتم التقاط الأنفاس ويتحقق الاتزان الاستراتيجى للمسرح كله. وفى أثناء ذلك تمتص كل هجمات العدو المضادة وتحطمها موجة وراء موجة حتى تتكسر جميعا. وهكذا بالفعل كان، وكان هذا هو المدخل إلى معركة الدبابات الكبرى. وحسب هذه المرحلة أن تم فيها تدمير ٥٠٠ دبابة للعدو، بجانب آلاف من الأفراد.

ولقد كان فى هذا السياق ما قاله جونين قائد الجبهة الجنوبية فى أمر يومى من أن إسرائيل تخوض «أكثر حروبها صعوبة منذ انشائها من ٢٥ سنة»، وأن «هذه الحرب ليست حربا خاطفة ولا حربا تعتمد على الهجمات الأمامية السريعة، وانما هى حرب قاسية ومستمرة، وأن من الضرورى أن نصارح شعبنا بأن هذه الحرب ليست مماثلة لأى حرب خضناها من قبل».

وعلى هذا يمكن تشخيص هذه المرحلة التى تميزت أساسا بالتقدم البطىء الحذر بأنها كانت مرحلة من «الهجوم الدفاعى» على الجانب المصرى ومن «الدفاع الهجومى» على الجانب الإسرائيلى. وكان التكتيك المصرى أساسا هو «اجذب واضرب» : الالتصاق بقاعدتنا الأرضية فى حماية شبكة صواريخنا وعدم الابتعاد عنها وعن مجال فاعليتها، مع استدراج القوات الاسرائيلية اليها لاستنزافها على التوالى حتى تتآكل تماما. أما التكتيك الاسرائيلى فكان الهجوم المضاد، فى محاولة لمنع تقدمنا أو لتقليص جيوبنا وقاعدتنا الأرضية. فقام بعشرات من الهجمات المضادة وجهها إلى رءوس كبارينا وركزها ضد أجنابها بوجه خاص بهدف تثبيتها ثم تطويقها ثم المروق إلى المعابر لتدميرها ايقافا لتدفق قواتنا إلى الشرق ثم عزلها عن قواعدها فى الغرب.

وفى هذا الصراع ، المحلى نسبيا، دفع كل من الطرفين بأعداد عظيمة من الدبابات، ٧٠٠ - ٨٠٠ دبابة لكل جانب، وكانت الخسائر المتبادلة كبيرة أيضا. وبينما لعبت صواريخ المشاة الكثيفة المضادة للدبابات دورا بارزا على الجانب المصرى فى هذه المعركة، لعبت الهليكوبتر المصفحة المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات دورا كبيرا على الجانب الاسرائيلى . وقد بلغ عمق القاعدة الأرضية المحررة فى نهاية المرحلة نحو ١٨ - ٢٠ - ٢٥ كم .

معركة الدبابات الكبرى

تعتبر هذه المعركة ذروة أخرى من ذرى حرب أكتوبر بعد نقطة القمة التى تمثلت فى العبور واكتساح خط بارليف. وهي فى الوقت نفسه ، وبإجماع كل المحللين العسكريين العالميين، واحدة من أكبر وأعظم معارك الدبابات فى التاريخ الحديث جميعا، لا تقارن الا بمعركة العلمين ومعركة ستالينجراد فى الحرب العظمى الثانية وربما فاقتهما كلتيهما من حيث الحجم والكثافة والضراوة . فقد حشد فيها كل من الجانبين، عدا سائر أنواع الأسلحة والقوات الأخرى، نحو ١٠٠٠ - ١٢٠٠ دبابة، وربما أكثر ، أى بمجموع يربو كثيرا على ٢٠٠٠ ، وقد يصل إلى ٣٠٠٠ دبابة. وذلك فى شقة أرضية ضيقة ومحدودة، قد لا تزيد على عدد مماثل من الأميال المربعة، يعنى نحو دبابة لكل ميل مربع، وهذه كثافة ميكانيكية ومن ثم كثافة نيران نادرة للغاية وربما غير مسبوقة وربما كذلك غير ملحوقة.

وليس من السهل تحديد بداية هذه المعركة بالدقة أو بالضبط، وان كانت نهايتها محددة بوضوح. فمنذ اليوم السادس للقتال بدأ المراسلون والمراقبون يتحدثون عن «أكبر المعارك البرية فى سيناء» و«أكبر معارك الدبابات فى التاريخ». وكان كل يوم يتلو يعد من جديد «أكبر معارك المدرعات فى التاريخ»، وهكذا بانتظام. لقد كان الخط البيانى للمعركة فى تصاعد رهيب، وكانت المعركة كل يوم طاحنة أكثر منها فى أى يوم مضى بلا استثناء. غير أن الذروة القمية السامقة التى تحدد بداية «معركة الدبابات الكبرى» هى يوم ١٥ أكتوبر، ومنه استمرت بلا انقطاع فى التصاعد حتى نهاية القتال فى ٢٥ أكتوبر، أى أنها اتصلت ١٠ أيام كاملة.

وقد كان الاجماع العالمى تاما على أنها قد تحدد مصير الحرب جميعا، وبات العالم يترقب نتيجتها بأنفاس معلقة. ليس هذا فحسب، بل إن الاجماع كان مطلقا أيضا على

أنها تجاوزت كل حروب المدرعات فى تاريخ الحرب الحديثة بحيث لم يشهد العالم مثلها فى التاريخ ولم يسبق لها مثيل فى الحجم والشراسة والتدمير. بل لقد وصلت فى مراحل معينة إلى حد المعركة الانتحارية من الجانبين، اذ قذف كل منهما فيها بكل أسلحته الثقيلة والصغيرة، البرية والجوية، وكلما زادت الخسائر دفعا بالمزيد من القوات. وتحول مسرح المعركة إلى جحيم من النيران الكثيفة لا ينقطع، وبكثافة مماثلة امتلأت أرضها بالحطام المحترق والمهشم والجثث المتفحمة.

ولنفصل . على القطاع الأوسط من الجبهة دارت المعركة، تصادمية هائلة بالمدرعات، استنزافية رهيبة بالمدفعية، وانقضاضية مريرة بالطائرات. وفيها لعبت صواريخ المشاة المضادة للدبابات وللطائرات دورا حاسما مرة أخرى. وقد بدأ العدو أولا بهجمات مضادة محدودة، ما لبث أن صعدها إلى هجمات أساسية متواترة ليلا ونهارا على جميع رءوس كبارينا. ولكنه ركز أساسا على الجانب الأيمن للجيش الثانى، هادفا إلى تصفية رأس الجسر فى هذا القطاع والاستيلاء على رقعة من الضفة الشرقية للقناة وشطر قواتنا على تلك الضفة . ولكنه فى وجه مقاومة ضارية وباسلة فشل، ولم ينجح فى أكثر من أن يدفع بتلك الأجناب إلى الخلف مسافة ٢ - ٣ كم فقط، لم تلبث قواتنا أن استردتها وأغلقت الثغرة مكبدة العدو خسائر فادحة . ومع ذلك فقد أصر العدو على مواصلة الهجوم بأى ثمن، فدفع بالمزيد من قواته وتوالت هجماته ولكن أيضا تصاعدت خسائره. غير أنه بعد بضعة أيام من الخسائر الفادحة وبعد أن ألقى بنحو ٥٠٠ دبابة فى المعركة استطاع دفع أجناب الجيش الثانى إلى الخلف نحو ٨ - ١٠ كم. وكان هذا هو التمهيد والمدخل إلى عملية التسلل إلى الضفة الغربية كما سنرى، كما كان حلقة الوصل بين معركة الدبابات الكبرى فى سيناء وعملية جيب الضفة الغربية.

ومنذ البداية بدا واضحاً أن معركة الدبابات ، التى استطالت ذروتها إلى أكثر من الأسبوع ، ستكون فاصلة وربما تحسم الحرب الرابعة عمليا كما توقع كثير من الخبراء . وبالفعل أخذت المعركة فى أيامها الأولى مساراً محدداً لصالحنا بصورة قاطعة وضد العدو الذى بدا انهاكه واستنزافه جليا لا يخفى على أحد . والواقع أن العدو الذى كان قد قذف فيها بمعظم احتياطيه الاستراتيجى بدأ يشعر بنقص قوته البشرية مثلما بدأت قواتنا تشعر باختلاف وتدهور نوعية رجاله . وأخطر من ذلك أن العدو ، كما اتضح فيما

بعد ، كان قد بدأ يعانى بشدة من نقص سلاحه عامة وذخيرته خاصة بصورة خطيرة لم تكن لتسمح له بمواصلة القتال لأكثر من ثلاثة أيام أخرى باعتراف دايان نفسه.

ولا غرابة بعد هذا أن يضطر هذا الأخير أن يقول للاسرائيليين أثناء المعركة «هذه حرب صعبة، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة، انها حرب ثقيلة بأيـــامها ، ثقيلة بدمائها. وليس أمامنا الا أن نقـــاتل بقـــلوب كسيرة، ولكن علينا جميعا أن نطوى أعماق قلوبنا على الأحــزان». وحين أحس العـــدو أنه لا محالة خاسر المعركة وأن الدائرة ســـتدور عليــه، بدأ يمهد للتقلــيل من خطورتها انقاذا لروحه المعنـــوية، فأعــلن قـــادته أن المعــركة الحاسمة لن تكون هذه التى تدور على الجبهة الوسطى ولكن تلك التـــى ستدور على القطاع الجنوبى. كـــذلك راح يعلــن اســـتعداده لقبــول وقف اطـــلاق النار بشـــروط بادية الافتعال لا يقـــصد بها الا حفظ ماء وجـــهه واخفاء هزيمته الحقيقية.

وفجأة، وعند هذا الحد ، أخذ الموقف منعطفا جديدا وخطيرا. فقد بدأت الإمدادات الأمريكية تتدفق على العدو بمعدل صارخ وبغير حساب، فوق جسر جوى وآخر بحرى حشدت له أمريكا أحدث ما فى ترسانتها من أسلحة متطورة لم يسبق قط استخدامها حتى فى فيتنام بما فى ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ T.O.W المضـــاد للدبابات وصواريخ وول آى ومافـــريك وســـتاندارد وشـــرايك وغيـــرها كثير، وكلها يمتاز بإحكام التصـــويب الفائق. هذا عدا مئات الطائرات والدبابات.

وهذه الإمدادات ، التى بلغ وزنها عشرات الآلاف من الأطنان وقيمتها عدة مئات من مـلايين الدولارات، جـمعت من القواعـد الأمريكية فى أوربا ولكن أساسـا من الولايات المتحدة إلى حد أن هددت مخزونها الاستراتيجى هى نفسها (أعلنت أمريكا بعد الحرب أنها أساءت تقدير كمـية الذخائر الضـرورية فى حالة نشوب أزمـة مثل الحرب العربية الاسرائيلية بشكل خـــاص). وكان جـــزء كبير من هـــذه الإمدادات يصل إلى ميدان القتــــال فى سيناء نفسـها رأسـا، العـــريش فى البداية وربما فيما بعد الدفرسوار، أحيـــانا دون حتى تغيير علاماتها أو ألوانها، وأحيانا بطـــواقم أمريكية كاملة. والمفهـــوم أن هذه الأسلحة حدت من فاعلية صـــواريخنا التى كانت متفوقة ضد الدبابات والطائرات.

لقد دخلت أمريكا المعركة مباشرة. حقا لقد كانت دائما فى الصراع كله، وفى المعركة نفسـها، ولكن ليس بمثل هذا السـفور والمباشرة والتحدى ولا بكل ثقلها هذا . من هنا

ظهرت على مسرح المعركة حشود جديدة، طازجة وغير منهكة، من السلاح والقوات. والمقدر أن عدد الدبابات الجديدة وحدها وصل إلى ٥٠٠ دبابة. ولهذا يمكن اعتبار هذه المعركة أساسا معركة مصرية - أمريكية أكثر منها مصرية - إسرائيلية.

وقد ردت القوات المصرية على هذا التحدى الجديد بهجوم ضار مروع غير مسبوق على الاطلاق، وكبد العدو خسائر رهيبة حتى اعترف القائد الاسرائيلى لسيناء أن «المصريين يقاتلون بشراسة انتحارية فى أعنف رد على تحركاتنا. انهم يقومون بهجمات كثيفة ويردون بنيران كثيفة وأسلحة كثيفة وأسلحة مضادة للدبابات كثيفة وأعداد كثيفة من الدبابات. انهم يفعلون كما فعل الصينيون فى كوريا، يهاجمون بموجات وراء موجات ويحاربون بعناد شديد».

هذا بينما شكا الجنود الاسرائيليون أنفسهم من أن «انتشار الدبابات المصرية فى سيناء قد صنع جدارا سميكا من الصلب، بينما ينتشر المشاة الميكانيكية فى مواقعهم يصيبون دباباتنا بصواريخهم التى تطلق من الكتف، كما أن كثافة النيران المصرية قد وضعت الطيران الاسرائيلى فى موقف بالغ الصعوبة، وذلك عدا العناد الفائق الذى يقاتلون به».

جندى اسرائيلى آخر ممن شاركوا فى القتال و(الهزيمة) على جبهة القناة قال للصحفى الفرنسى اريك رولو ما ترجمته «كانت تجربة مروعة بالنسبة لى. كان لدينا الاحساس بأننا نواجه هجوما من أمواج لا تنتهى من النمل المتماسك الملتصق ببعضه البعض، والمصمم على أكلنا. كان هذا هو حالنا أمام الجيش المصرى عند قناة السويس. أمواج متلاحقة من المدرعات والدبابات والعربات، تقذف علينا القنابل والقذائف والصواريخ، وكلما حاولنا ان نسكت تشكيلا من تشكيلات الجيش المصرى المهاجم، فوجئنا بإحلال قوة جديدة مكان القوة التى نجحنا فى اسكاتها، وتبدأ القوة الجديدة فى قصفنا وضربنا بقسوة وبإصرار».

هكذا أطال التدخل الأمريكى العدوانى القتال، وزاد من خسائر الجانبين بصورة مزعجة، وربما أفقد القوات المصرية هامشا ضيقا من نطاق الأرض المحررة حيث ان عمق هذا النطاق فى نهاية القتال يقصر بضعة كيلومترات عن الحد الأقصى الذى كان قد سجله فى أوج النصر. ومع ذلك فإن هذا التدخل غير مصير المعركة بالكاد، أو هو

بالتقريب حَيّد نتيجتها إلى نوع من التعادل فيما يبدو للبعض. ومهما يكن، فلولاه لنالت إسرائيل بالتأكيد هزيمة محققة كانت جديرة بحسم بقية الصراع الى حد كبير على أرجح الآراء.

وفى نهايات القتال، التى صبت القوات المصرية على العدو فى الأيام القليلة الأخيرة منها كمية من النيران تفوق كل ما صبته عليه طوال أيام المعركة السابقة، كان الموقف النهائى كالآتى: المنطقة المحررة فى سيناء ساعة وقف اطلاق النار، كما أعلنت القيادة المصرية فى يوم ٢٢ أكتوبر، تشمل الشاطىء الشرقى لقناة السويس برمته من رأس مسلة على خليج السويس حتى بورفؤاد بطول ٢٠٠ كم، وبعمق يتراوح بين ١٢ ، ١٧ كم شرقا، بما فيها مدينة القنطرة شرق، وفيما عدا ثغرة ضيقة من الدفرسوار شمالا بطول ٧ كم ملاصقة للبحيرات المرة. وتبلغ مساحة هذه المنطقة التى نسيطر عليها تماما ونؤمنها بقوة ٣٠٠٠ كيلو متر مربع. كذلك فإن خطوط اتصالنا وتموين قواتنا بالمنطقة منتظمة ومضمونة تماما.

وينبغى أخيرا أن نضيف أنه منذ انتهى القتال رسميا لم يتوقف تبادل النيران إلا بالكاد، بل بكثافة متصاعدة، وكان لقواتنا دائما فيه اليد العليا. فلم تكف عن إلحاق الخسائر الفادحة بالعدو وعن منعه من تحسين مواقعه وحرمانه من الاستقرار او الاسترخاء. وفرضت عليه حرب استنزاف من نوع جديد كما وصفها العدو نفسه. ومن جهة أخرى لم تكف قواتنا عن تحسين مواقعها وتوطيدها بعمق وعن توسيع رقعة سيطرتها شرقا، كما فى عيون موسى مثلا.

كذلك أخذت تدعم جسور الاتصال عبر القناة، فأصبح لنا ٥ جسور، بعضها تحول إلى طرق ثابتة لا مجرد كبارٍ عائمة. وفضلا عن هذا فلم يكن هناك نقص فى تموين القوات لا فى السلاح ولا فى الذخيرة ولا الماء، بما فى ذلك الجيش الثالث فى القطاع الجنوبى الذى حفر كثيرا من الآبار ليوفر لنفسه كل موارده المائية المطلوبة.

وفوق كل هذا فلقد بدأت القوات المصرية شرق القناة تقيم، كما أعلن العدو محذرا الاسرائيليين، قواعد جديدة للصواريخ المضادة للطائرات، تمتد بطول القناة ويتجاوز مداها الى ما بعد ممرى متلا والجدى بمسافة كبيرة. وبالمثل أقامت صواريخها أرض - أرض البعيدة المدى بعد أن حركتها من الداخل الى الضفة الشرقية للقناة لتصبح

أكثر قربا من عمق إسـرائيل. باختصار، كانت القوات المصرية شرق القناة فى وضع استعداد كامل لاستئناف القتال بكفاءة تامة، فورا ولشهور عديدة حتى بما تختزن وحده فقط من أسلحة وذخيرة وتمـوين.

عملية التسلل

بـــدأت هذه العملية، «عملية شارون» كما يسمونها، وإن ثبت الآن أنه لم يكن مخططــها الأصلى او الوحيد، بدأت فى ليل ١٥ – ١٦ أكتوبر، أى فى اليوم العاشر من المعركة، وامتدت على مدى أسبوع، الأسبوع الأخير، حتى وقف اطـــلاق النار فى ٢٢ أكتـــوبر، ولكنها ظلت مستمرة بعده بضعة أيـــام أخرى فى تـــلاعب فاضح بالقانون الـــدولى وبصفة غير مشـــروعة. وهـــى بهـــذا قد استغرقت فى جملتها نحو ١٠ أيام. ومعنى هذا أيضا انهـــا تعاصرت تقريبا مع معركة الدبابات الكبـــرى، بدأت معها او عقبها بقليـــل، ثم سارت موازية لها حتى تجــــاوزتها فى النـــهاية. والواقـــع أنها ما قـــامت الا كنتيجة تعـــويضية مباشرة لتلك المعـــركة ولا تسللت بنجاح نسبى الا فى ظلها وانتهـــازا لها، كما أنهـــا لم تلبث أن تـــداخلت معها وتشـــابكت حتى اندغمتا كلتاهما فى ملحمة عظـــمى واحدة على جانبى القنـــاة. فالعلاقة بينهمـــا إذن وثيقة عضويا ووظيفيا وسببيا وتوازنيا.

تفصيل ذلك أن اسرائيل تحت ضغط المعركة وتدهور موقفها فيها حاولت أن تفتح جبهة جديدة لا تخفف ذلك الضغط فقط وانما كذلك تنقله الى مؤخرة القوات المصرية، وربما كذلك بأمل أن تقلب معادلة القوة فى الميدان ومـــوازين المعركة برمتها فى النهـــاية. ففضلا عن أن هذا ينقلها من موقف الدفـــاع إلى موقف الهجوم، وقد يمنح قواتها فرصة الوصول الى شبكة صواريخنا المضـــادة للطـــائرات وتدميرها برا بعد أن فشل طيرانها فى ذلك جوا، فإنه قد يرغم مصر على أن تسحب جزءا من قواتها فى سيناء الى غرب القناة، والا فإنها تستطيع على الأقل أن تخلق لها متاعب خطيرة وحقيقية فى مؤخرتها وتشيع بذلك جوا مقلقا من التشويش والاضطراب فى جبهتها. أو كما عبر – واهما! – شارون نفسه، حتى تكون الثغرة بمثابة «مسدس مصوب نحو القاهرة، وحبل حول رقبة الجيش الثالث».

وفى كل الأحوال فإن ذلك يكفل لاسرائيل نصرا دعائيا ونفسيا وسياسيا داويا، مهما يكن كاذبا او وهـــميا، يرفع روحها المعنوية المنهارة فى الداخل، ويغطى على سمعتها

العالمية التى تحطمت، ومن الناحية الأخرى يطغى على الانتصار المصرى الحقيقى ويشوهه فى نظر العالم، الى جانب تأثيره العكسى وانعكاساته الضارة على معنويات مصر والعرب.

هكذا كبديل عن عجزها فى المواجهة التصادمية المباشرة، لجأت اسرائيل الى سلاحها الأثير وهو استراتيجية الاقتراب غير المباشر indirect approach التى تقوم على الاختراق ثم التطويق فالتصفية، والتى مارستها بنجاح فى حرب السويس وحرب يونيو من قبل والتى تكفل مجالا واسعا لعنصر المفاجأة وتكتيك المناورة الواسعة المدى التى تلائم بدورها سلاح الدبابات والمدرعات. من هنا بدأ العدو، فى غمرة انشغالنا بمعركة الدبابات الكبرى، يبحث عن ثغرة او نقطة ضعيفة يتسلل منها. وقد اتضح فيما بعد أن العدو كان قد خطط لهذا الاحتمال واستعد له بل ومهد فتحات فى الساتر الترابى حددها بعلامات معينة من الحجارة تحسبا للعبور.

ومن المؤكد والمسلم به الآن أن هذا البحث تم بتواطؤ ومساعدة طائرات التجسس الأمريكية التى قامت فى تلك الفترة بعدة طلعات متلصصة على الأجواء المصرية العليا حيث رصدت ثغرة مخلخلة الكثافة الدفاعية نسبيا فى منطقة الانتقال او جبهة الانفصال بين الجيشين المصريين الثانى والثالث شرق القناة فى قطاعى الجبهة الشمالى والجنوبى على الترتيب. ومن المقرر والمسلم به عسكريا أن وجود ثغرات فى جبهة الحرب الصحراوية التى يتم التقدم فيها كقاعدة على محاور رئيسية، ليس خطأ من حيث المبدأ، ولكن الخطأ أن تترك للعدو فرصة استغلاله، خاصة فى مناطق الانتقال بين الجيوش المتجاورة.

ومن المعروف والمسلم به أيضا ان اسرائيل منذ فوجئت بالعبور المصرى وتدمير خط بارليف وهى تهاجم فى القطاع الأوسط بضراوة بالطيران والمدرعات من أجل العبور المضاد. وفى هذا السبيل حاولت فيها يبدو أن تتسلل مرة عند كبريت على العنق المختنق بين البحيرات المرة الكبرى والصغرى ولكنها لاقت مقاومة عنيفة لعلها كانت بداية ذلك الحصار الطويل الذى صمد له الموقع صموده التاريخى والباسل. كذلك حاولت أن تتسلل عبر منطقة الفردان، أى فى ذلك القطاع من القناة الواقع بين بحيرة التمساح جنوبا ومضيق القنطرة شمالا. والمرجح ان هدفها من ثغرة فى الفردان كان أن تنفذ منها الى

احتلال الاسماعيلية والقنطرة غرب ثم حصار بورسيعد بعد ذلك. غير أنها فشلت وردت على أعقابها، ومن ثم عاودت التسلل من نقطة أخرى إلى الجنوب أكثر هى منطقة الدفرسوار، التى تقع على الزاوية الشمالية الغربية للبحيرات المرة الكبرى. فما هو الفارق بين النقطتين، وما مغزى تحول العدو عن الأولى الى الثانية؟

من الثابت المقرر فى جغرافية مصر العسكرية كما رأينا أن الهدف الاستراتيجى الأول لمن يهاجم القناة من الشرق هو الاسماعيلية. أما طرفا القناة فأقل أهمية كمداخل. السويس لأنها تؤدى الى وراء صحراوى غير معمور، وليس خلفها الا الطريق البرى الى القاهرة رأسا. وبذلك لا تصلح الا طريقا لمقامرة كاملة، وفى ظروف المعركة الحالية مقامرة مجنونة، لهجوم خاطف على العاصمة نفسها. وهذا لا يعنى مع وجود قواتنا الاساسية فى شرق الدلتا سوى قطع الطريق عليها وحصارها وابادتها تماما.

أما بورسعيد فأكثر بعدا وتطوحا وأقل أهمية. وقد حاول العدو فى المعركة أن يركز عليها من الجو على أية حال. فانقلب عليها بالغارات المكثفة التى لم تكد تنقطع طوال ساعات النهار والضوء. وذلك بصورة هيستيرية ووحشية وبلا تمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية، ربما ليحطم الروح المعنوية، وربما تمهيدا لمحاولة انزال أو ابرار. ولكن محاولاته جميعا فشلت على صخرة المقاومة الهائلة والصمود الرائع ورغم الدمار الكبير الذى أصاب المدينة الباسلة وبلغ نسبة ٣٠ - ٤٠ ٪ من مبانيها.

الاسماعيلية اذن هى المدخل الطبيعى للهجوم على القناة من الشرق. وثانى أفضل بديل لها هو منطقة الفردان لأنها تتوسط قطاع جزيرة البلاح، تقريبا ما بين الاسماعيلية نفسها جنوبا والقنطرة شمالا. وحين عجزت القوات الاسرائيلية المتسللة عن المروق عبر منطقة الفردان، وجدت الثغرة البديلة فى الدفرسوار جنوبا على رأس البحيرات المرة الكبرى. وهنا نلاحظ ان العدو قد عبر القناة الى الغرب من أوسع قطاعاتها، على عكس ما فعلنا نحن حين عبرناها الى الشرق فى أضيق قطاعاتها.

ورغم أنها بديل ضعيف، لا يتحكم فى مصادر المياه الحيوية لتموين المنطقة والقوات، وتميل كثيرا الى الموقع الجنوبى بعيدا عن وسط الجبهة، فللدفرسوار بضع مزايا مع ذلك، فهى مفترق طرق برية شمالا الى بورسعيد وجنوبا الى السويس وغربا الى الوادى. ثم ان موقعها على رأس البحيرة يعطى عدة ميزات للمهاجم. فالبحيرة عكس القناة

تمثل منطقة ضعف فى الاستحكامات الدفاعية، ان لم تكن أضعف نقطة فيها، لأن الدفاعات خلف البحيرات عموما وكقاعدة تكون عادة اضعف منها خلف الأنهار او القنوات اعتمادا على اتساعها واستبعاد احتمالات اختيارها للعبور. ولقد كان على هذا الأساس بالفعل ان ارتكز خط تقسيم الجبهة بين جيشينا الثانى والثالث شرق القناة على منطقة البحيرات المرة بالذات. كذلك كانت التحصينات الدفاعية على جوانبها المقابلة غربا أقل كثافة وقوة منها على بقية جبهة القناة. وهذا وذاك باعتبارها خط دفاع طبيعى لا يصلح لعبور قوات كبيرة ولا يرجح الاقدام على الهجوم عبره.

هكذا اختار العدو عن عمد أن يعبر عند البحيرات المرة كنقطة لا يتوقع العبور عندها فى الظروف العادية. ورغم مخاطرها وصعوباتها، فإن هذا كان كفيلا بأن يحقق عنصر المفاجأة، كما يعطى فرصة للقوات المتسللة من الشرق أن تعبر مسطحها الواسع بعيدا بقدر الامكان عن أنظار ونيران قواتنا المرتكزة على الضفة الغربية وكذلك طائراتنا من أعلى. وأخيرا فإن المنطقة لكثرة ما بها من حدائق وبساتين كثة بأشجار الفواكه وحقول القصب، ثم مخازن ومبانى حظائر مطارات مهجورة او قديمة، فضلا عن الحشائش البرية العالية شبه السافانية، يمكن أن تقدم أرضا صالحة للاختفاء والتمويه، لاسيما بالنسبة للدبابات، أضف كذلك انتشار القرى والعزب وأشجار مصدات الرياح.. الخ (كان هناك اقتراح مصرى قبل الحرب بإزالة هذا الغطاء النباتى الخطر وتهجير فلاحيه، ولكنه لم يتحقق).

ولقد كادت العملية، عملية التسلل، تفشل فى البداية، والمعتقد أن العدو أوشك أن يتراجع عنها. ولكن التسلل نجح ليلا بطائرات الهليكوبتر وعلى نوع من الأطواف العائمة، وليس بالدبابات البرمائية وحدها كما ساد الاعتقاد أولا. فقد استخدم العدو فى بداية العبور عددا صغيرا من الدبابات تلتصق بها من أسفل قطع متكاملة من كوبرى عائم بحيث تنفصل عنها عندما تصل إلى الشاطىء فتعبر عليها الدبابة اليه فى حين تتلاحم تلك القطع فى كوبرى تام، يصبح بعد ذلك معبرا جاهزا للدبابات العادية.

وتذكر «الشرارة» انه قد تبين فيما بعد أن العدو استعمل فى البداية عددا من الدبابات المصرية التى كان قد غنمها سليمة فى حرب يونيو، فعبرت بالخداع دون

مقاومة، حيث ظنها السكان المحليون من قواتنا فى حين كانت قواتنا المحلية محدودة اعتمادا على دفاعات البحيرة الطبيعية. وقد نجحت هذه الدبابات فى الاختفاء بين الأشجار والجناين. ولم تكتشف الخدعة كلها الا بعد أن كان عدد كبير نوعا منها يقدر ببضع عشرات قد تسلل بالفعل. وحين بدأت المقاومة الجدية، كانت أعداد أكبر قد تدفقت من قبل عبر ٣ جسور أقامها العدو بعد ذلك ليلا. وكان العدو بهذا قد نجح من أسف فى اقامة رأس جسر محدود. وفيما بعد قام العدو بإنشاء كوبرى ثابت له عبر القناة عند الدفرسوار من كتل الحجارة الضخمة أسقطها فى القناة حتى صار بعرض ٢٠ مترا عند السطح، ١٠٠ متر عند القاع (أصبح من المقرر الآن إزالة هذا الكوبرى الذى سد القناة).

وقد كان أول عمل وهدف للقوات المتسللة هو شبكة قواعد الصواريخ أرض - جو المضادة للطائرات، تلك التى عجز ازاءها طيرانهم كلية وأصابت قواته الجوية بأفدح الخسائر. فقام على الفور بضربها وتدمير كل ما يمكنه منها على الأرض، وان وجد معظمها قواعد هيكلية خداعية.

وبهذا ضمن العدو لنفسه ثغرة فى أجوائنا فتحت الطريق أمام طيرانه وأعطته حرية العمل التى حرم منها طوال الحرب. لاسيما ان قيادتنا قررت عندئذ سحب باقى صواريخنا فى القطاع الجنوبى من الضفة الغربية صونا لها من التدمير وحفاظا على سلامة نظام دفاعنا الجوى. وكان هذا كله مما ساعد بعد ذلك على تدعيم عملية الاختراق وتأمين تعزيزها بالامدادات المتزايدة. كذلك كانت بطاريات مدفعيتنا وطرق مواصلاتنا وامداداتنا من أهداف العدو. كذلك سارع العدو الى الاستفادة من المطارات الأمامية الثلاثة الموجودة بالمنطقة، بما فيها مطار الدفرسوار المهجور.

ورغم المقاومة المستميتة لقواتنا والهجمات المضادة التى قامت بها بالمدفعية والطائرات لتقليص حجم رأس الجسر وتدمير معابره واحتواء الجيب كله لضربه فى النهاية، الا أن الواضح انها جاءت متأخرة بعد أن تدعم رأس الجسر وتحول إلى جيب متوسع باطراد وبعد أن نجح العدو فى تحقيق اغراضه فى شق ثغرة فى صفوفنا وفتح جبهة خلفية وراءها. والمقدر أن العملية التى بدأت بتسلل نحو ٤٠ دبابة ليلة ١٦/١٥ اكتوبر، كانت قد تدفقت وراءها نحو ١٩٠ من دبابات الكوماندوز فى خلال اليوم أو اليومين التاليين، وفى ٢٠ أكتوبر، حسب التقديرات الأمريكية، كان حجم

القــوة الاســرائيلية العاملة غرب القناة نحو ٢٠٠ – ٣٠٠ دبابة مع ١٢ ألف جندى. وحوالى وقف اطــلاق النــار يوم ٢٢ أكتوبر كانت القوة قد وصلت الى نحو ٥٠٠ دبابة. لقد تحول التسلل إلى ثغرة، والثغرة الى اختراق.

وعند هذه النقطة ينبغى علينا أن نعود الى العلاقة بين عملية الاختراق هذه غرب القــناة ومعركة الدبابـات الكبرى شرقها. لقد كانت بدايـــة الاختراق كامنة فى الثغرة الفاصــلة بين الجيشين الثانى والثالث شرق القناة، وبها ارتبطت تـغذيتها وتوسيعها، وعليها كان يتوقف استمرارها ثم مصيرها. ومنذ بدأ العدو عملية الاختراق أخذ يمهد لها بتــأمين تلك الثغرة. فنشر قواته من مدرعات وصواريخ مضادة للدبابات على جانبى ممر تلك الثغرة شمالا وجنوبا لضمان استمرار فتحها ومنعــا لقــوات الجيــشين الثانى والثالث قرب المحور الأوسط من الإطباق عليها وغلقها من الشمال والجنوب على الترتيب.

ولهذا أخذ العــدو يركز ضغــوطه على جناحى الجيشين وأجنابهما، متخذا موقفا دفاعيا فى الشــمال فى محــاولة لتثبيت الجيش الثانى، وموقفا هجــوميا فى الجنوب فى محاولة لزحزحة الجيش الثالث جنــوبا. ومن الجانب المصرى احتدمت معركة الدبابات فى شرق القناة الى الذروة فى محــاولة لاغــلاق تلك الثغرة وقطعها حتى تتوقف تغذيتها بالقوات والتعـزيزات وبذلك يتم تطويقها غرب القناة وتدميرها فى النهاية. وفى التقديرات الأمريكية أن هذه المعركة انتظمت نحو ٨٠٠ دبابة على الجانب المصرى ونحو ٦٠٠ دبابة من جانب العدو. وفى تقديرات أخرى أن قوة العدو العاملة فى سيناء حينذاك كانت نحو ١٠٠٠ دبابة.

وقد اشتدت بالفعل ضراوة معركة الدبابات شرق القناة وخاصة حول ممر الثغرة وعلى طول المحور الأوسط، وأنزلت القوات المصرية بالقوات الاسرائيلية خسائر فادحة، لكن دون أن تحسم المعركة مع ذلك. ونجح العدو فى دق إسفين عميق نسبيا، ٧ – ٨ كم، بين قوات الجيشين المصريين. والسبب الأساسى فى هذا يرجع إلى الأسلحة الأمريكية الحديثة التى تدفقت على العدو بشدة. ولهذا ظلت التعزيزات المعادية تتدفق عبر عنق الثغرة الى غرب القناة، كما ظل الجو مفتوحا بحرية أمام طيران العدو، مما حد من فاعلية الهجوم المصرى المضاد غرب القناة ومكن العدو من توسيع جيبه باطراد. غير أن خسائر العدو فى عنق الثغرة وجيبها بلغ حدا مروعا، وتحولت المنطقة بما فيها مياه القناة إلى مقبرة حقيقية

لدباباته وأفراده. أو كما أذاعت رويتر بعد انتهاء القتال «مازال حطام الدبابات الاسرائيلية طراز سنتوريون، وعليها آثار الحريق والرماد، مبعثرة على امتداد المسطح الصحراوى، ذكرى للمعارك التى تمثل أروع الانتصارات المصرية».

ومن الوجهة الاستراتيجية، فإن من المحقق رغم النجاحات التكتيكية والميدانية التى حققها الاختراق، ان حجم العملية لم يكن بالذى يمكن أن يغير مجرى الحرب أو يقرر مصيرها. ومن الثابت عجز اسرائيل عن توفير قوات أكبر للعملية. ولم يكن أمامها الا أن تسحب من قواتها فى سيناء المشتركة فى معركة الدبابات الكبرى، ولكنها لم تستطع الاقدام على هذه الخطوة خشية أن تعجز عن حماية ممر ثغرتها فتقع فى حصار كامل. واذا كان ثمة تأثير استراتيجى مهم للعملية فهو أنها قد منعت القوات المصرية من أن تطور هجومها الكبير فى اتجاه الممرات وفرضت حدودا معينة على الزحف شرقا فى سيناء. وهذا دور وان كان خطيرا فهو سلبى أساسا.

من هنا نظر العسكريون فى العالم الى العملية نظرة متحفظة محدودة. فالعسكريون الامريكيون مثلا كانوا لا يرون ان اختراقة غرب القناة قادرة على أن تؤثر تأثيرا جوهريا فى سير المعارك. وفى رأى بعض المراقبين المحايدين ان هذه الثغرة فى ظروفها وبأوضاعها لو كانت أمام أى جيش آخر لغيرت مجرى الحرب، لكن الاسرائيليين عجزوا عن أن يخلقوا منها أكثر من جيب محاصر بسبب تماسك القيادة والقوات المصرية التى اعتبرت العملية فى النهاية مغامرة دعائية سياسية نفسية ولكنها عسكريا محكوم عليها بالاحتواء والفناء. واذا كان وقوع هذه الاختراقة مما يحسب على القيادة المصرية، فمما يحسب لها بلا شك كذلك هدوء أعصابها ورباطة جأشها وموقفها الصامد ازاءها. ففى وجه دعوات الانسحاب من الضفة الشرقية (تذكر عقدة الانسحاب المذعورة!) او تقليص حجم المعركة فيها للالتفات الى الثغرة، قررت الصمود والمواجهة فى الضفتين، وبنجاح طيب ولا بأس به فى النهاية.

فإذا عدنا الآن الى رأس الجسر النامى على الضفة الغربية حول الدفرسوار، فقد كان أمامه فرص الانتشار المروحى، أى استراتيجية المروحة، إما شمالا الى الاسماعيلية، وإما جنوبا الى السويس، وإما الى الاثنتين معا. وقد كان شارون يريد الخطة الأخيرة، ولكن قيادة العدو رفضت، كما لم تكن الامدادات او الاحتياطيات كافية للاتجاهين.

ولهـذا اتجه التقدم أولا نحو الشمال على طريق الاسماعيلية، ولكن الجيش الثانى استرد الساتر الترابى على ضفة القناة الغربية المواجه لمنطقــة الثغرة شمال الدفرسوار، ودمر قوات العدو وضربه عند نفيشة، فظل جيب العدو محدودا للغاية. وهنا عاد العدو فاتجه جنوبا ونجح فى احتلال سرابيوم شمال البحيرات المرة الكبرى، ومنها بدأ الزحف تجاه السويس، ولكن هذا انما تم أساسا استغلالا لقرار وقف اطلاق النار.

ولما كان هذا التقدم الأخير قد تم فى نطاق الجيش الثالث وقرب مؤخرته، فإن هذا يفسر تواتر الحديث، ان خطأ أو صوابا، عن متاعب هذا الجيش بالتحديد. وقد كان هدف هذا الزحف أن يحاصر بسرعة مواقع الجيش الثالث من الخلف، وبذلك يعـزله بقطاعيه على الضفتين الغربية والشـرقية عن قاعدة الامــداد والتـموين فى الدلتا والعاصمة، كما يقطع مواصلاتهما ومعابرهما عبر القنــاة. وبذلك كله كان العدو يأمل أن يتحول الاختــراق الى منتهاه الطبيعى وهــو التطــويق، والواقــع ان العدو بعد أن حقق بعض النجــاح الأولى، قرر أن ينتهز الفرصــة ليحرز نصرا عسكريا اساسيا بأى ثمــن ليعــوض به هزائمه السابقة.

غير أن الشىء الغريب هنا أن العدو، الذى قام بعمليات ارهاب وخطف أى حملة تخريب ونهب اجرامية واسعة النطاق فى المناطق المأهولة من القطاع، اتخذ فى توسعه شكلا انتشاريا مثيرا للغاية. فانتهازا لفرصة احتمالات وقف اطلاق النــار الــتى كانت تلوح فى الأفق، ثم أكثر منها اعلان الوقف فعلا، لجأ العــدو المخادع الى الانتشار على أوســع مدى ممكن فيزيقيا بأقل كــثافة ممكنة عسكريا. وقد ساعده على هذا طبيعة الأرض والطبوغرافيا فى هذا القطاع الجنوبى المرتفع من الضفة الغربية الذى تكثر فيه، على العكس من القطاع الشمالى السهلى المكشوف، التلال والتبات والأودية والخيران التى تصلح كثيرا للتسرب والتسلل والانتشار فى خفاء. كما استغل العدو أن يد القوات المصرية المدرعة لم تكن، على النقيض منه، مطلقة الحرية فى ضرب نيرانها حفاظا على أبناء المنطقة من السكان الوطنيين.

هكذا كان كل هم العدو أن يتوزع على أكبر مساحة متاحة تمهيدا وترتيبا لأى ادعاءات اقليمية قد يساوم عليها فيما بعد. ولهذا أخذ يرسل بوحدات مفتتة وقزمية، مفارز كالشظايا او الشراذم من دباباته ومدرعاته فى كل اتجــاه لتتداخل الى اقصى حد بين

صفوف قواتنا ومواقعنا فيما وصف بحـق باستراتيجية حرب عصابات دبابات (الأستاذ محمد حسنين هيكل). وهذا وحده ما سوف يفسر صعوبة الفصل بين قوات المتحاربين فيما بعد، ثم من قبل اتساع نطاق وجود العدو نسبيا.

فهو يوجد - أو كان - فى شريحة أو شريط ضيق طوله نحو ٥٠ كم، أو بالأحرى كلسان مسحوب على ضفة القناة الغربية حتى مدينة السويس جنوبا بضواحيها وموانيها الأدبية والزيتية ومشارف جبل عتاقة، ثم فى بضعة ألسنة دقيقة نحو الداخل تتجه نحو ابوصوير غربا وتقطع عبر طريق السويس - القاهرة الصحراوى فى بعض النقاط (الكيلو ١٠١) جنوبا بغرب.

ولقد كان من هذا الامتداد الأخير بالذات ما ردده العدو ودعايته المغالطة عن اقترابه يوما فيوما من القاهرة، كل يوم على الكيلو كذا(!)، ثم محاولاته قطع طرق المواصلات والتموين بين السويس والقاهرة، وأخيرا ادعاءاته السيطرة على ما سماه «محور القاهرة - السويس» و«حصار» الجيش الثـالث. وبالمثل كان من امتداده الأول محاولته الفاشلة ٤ مرات لحصار أو اقتحام السويس المدينة نفسها. ولكن المدينة الباسلة هبت إلى جانب قواتها المسلحة فى حرب شعبية وطلائع حرب مدن حقيقية حتى أرغمت العدو الغادر على التراجع بعد أن كبدته خسائر جسيمة وفادحة.

ولقد كان صمود السويس نقطة تحول حاسمة فى مصير مغامرة الثغرة كلها. فقد ركز العدو عليها كل أحلامه، وكذلك كل أحقاده. فقد صب عليها أكثف نيرانه جوا وبرا حتى أصيبت بدمار رهيب، بحيث ارتفعت نسبة الخسائر فى المنازل من ٦٥٪ قبل اكتوبر الى ٨٥٪ بعده (قارن وارسو، المثل الكلاسيكى للمدن المدمـرة، بالنسبة نفسها). ثم عمد العدو الى تطويق المديـنة وحصـارها من الشمال والغرب والجنوب، حيث وصل فى الاتجاه الأخير الى جبل عتاقة وكان هدفه فيما يبدو السخنة والزعفرانة ايضا. وبهذا أصبحت المدينة محاصرة تماما، إلا من اتصالها عبر القـناة بجنـاح الجيـش الثالث شرقا. والواقع انها كانت الموقع الوحيد فى الجبهة الذى كان محاصرا بالفعل، على عكس بقية مزاعم العـدو، وفيما عداه فلقد كان العدو كله محاصرة مواقعه ووجوده.

ثم لجأ العدو الغادر الى قطـع المياه عن المدينة، حيث قام بردم ترعة السويس العـذبة فى قطـاع منها يبلغ طـوله عدة كيلومترات، حولها الى طريق للتقدم، فضلا عن

عدة جسور أقامها عليها للعبور، وبالمثل ردم قطاعا من ترعة الاسماعيلية، وبهذا انقطع امداد المدينة بالمياه، فضلا عن انقطاع امدادات التموين والغذاء. ومن هذا الحصار والضرب كان العدو يأمل أن تسقط المدينة او تسلم فى النهاية جوعا وعطشا. ولكن السويس الباسلة ضربت مثلا رائعا فى المقاومة، فمنعت العدو من دخولها تماما، وحولت دباباته على مشارفها الى ركام وحطام، وأجهضت كل خططه للتقدم، فكانت خير ظهير للجيش الثالث شرقا وغربا وأروع مثل للدفاع الشعبى. ولو لم تصمد السويس فلربما تغير مصير معركة غرب القناة، ولكنها بصمودها وضعت حدا لها وختمت على مصير مغامرة العدو الغادر، الذى غادرها كما جاءها لصا نذلا ومخربا من الوندال، قام بفك وسرقة مصانعها ومصافيها ثم بتدمير وحرق ما تبقى منها.

تلك قصة المغامرة، وتلك نهايتها، وكما هو، فإن هذا كله لم يكن الا وجودا انتهازيا، مخلخلا فطيرا «وهشا» كما قيل، مسطح بلا عمق، ومساحة أكثر منه كثافة. واكثر من هذا فإنه كان وجودا غير شرعى، انتهاكيا تم معظمه عن عمد وتخطيط بعد وقف اطلاق النار، فمن نحو ٧٠٠ كيلو متر مربع، او نحو ٤٧٥ ميلا مربعا ادعى العدو كاذبا سيطرته عليها، اى مساحة بطول ٢٤ ميلا فى ٢٠ ميلا عرضا، لم يزد مدى وجوده قبل وقف اطلاق النار على ٧٠ كيلو مترا مربعا كما أعلنت السلطات المصرية. وفى تقدير آخر ان المساحة التى احتلها العدو قبل قرار وقف اطلاق النار، لا تزيد على ثلث المساحة التى احتلها فى النهاية.

وعلى أية حال فلم يكن للعدو وجود اطلاقا غرب القناة بالقطاع الشمالى ابتداء من طريق الاسماعيلية شمالا، ولا فى أى من مدن القناة الرئيسية، السويس، الاسماعيلية، وبورسعيد. والأهم من هذا وذاك جميعا ان وجود العدو على الضفة الغربية هو برمته وجود محصور مطوق داخل جسم الجيش الثالث بامتداده فى عمق الدلتا غربا وجناحه على أرض سيناء شرقا. فقواتنا غرب القناة تحتل النطاق الدفاعى الثانى، تؤمن المنطقة جنوب الاسماعيلية، وتحاصر قوات العدو غرب القناة وشمال البحيرات المرة. أما قوات العدو المتسللة فقد أصبحت محصورة، كما يحدد كتاب حرب رمضان، بين ترعة الاسماعيلية شمالا، والنطاق الدفاعى الثانى غربا، ومنطقة جبال شبراويت والشهابى وجبل جنيفة وجبل القط جنوبا.

فعلى العكس إذن من مزاعم العدو، لم يكن الجيش الثالث هو المحاصر، المحاصر فقط كان جيبين داخل وجــود العدو: مدينة السويس على الضفة الغربية، وقوة كبريت على الضفة الشرقية، وكلتاهما صمدتا لحصار العدو، دوخته وأعطته درسا مذهلا فى ضراوة المقاومة. وفيما عدا هذا فقد كان العدو هو المعزول والمطوق.

فنظرة واحدة الى خريطة تــوزيع قــوات الجانبين على ضفتى القناة، كتلك التى نشرتها وكالات الأنـــباء مع اتفاق الفصـــل بين القوات، توضح على الفور أن الوجود العسكرى للعدو غرب القناة هو، أولا، جيب منفصل exclave عن جسمه الأساسى فى سيناء الا من حبل سرى ضعيف لا يربطه به الا بمقدار ما يسهل قطعه عنه. ثم هو، ثانيا، جيب مـحصـــور enclave داخـــل قبضة القـــوات المصرية التى تطوقه بعمق تام تطويقا دائريا من كل الجهات فيما عدا ثغرة محدودة فى الشرق. وفيما بين هاتين الحقيقتين فإن الوجود الاسرائيلى غرب القناة لم يكن يعدو ، على أحسن تقدير ، إسفينا محاصرا مطوقا تماما ومختنق العنق، يمكن خنقه بالإطباق عليه من الشمال والجنوب بواسطة الجيشين الثانى والثالث.

ومن الناحية الاستراتيجية يتضح على الفور أن هذا ليس الا مأزقا عسكريا، وضع غير سليم وغير متوازن استراتيجيا، يضع قوات العدو جميعا «رهينة» فى يد القوات المصرية المحدقة كما عبر الجنرال بوفر، بل وكما اعترف بارليف العدو نفسه فيما بعد. او كما وضعها أحد القادة المصريين، لقد وضع العدو «رأسه فى فم الأســـد»، وأصبح معرضا لخطر اســـتراتيجية «الأســـنان فى اللحم» اذا تجدد القتال كما وصفها مصدر آخر. ولكن خير ما يصور حقيقة مــوقف الجيب العدو هو، لاشك، ما صرح به الرئيس السادات نفسه لمجلة نيوزويك فى حديث له فى مارس ١٩٧٤ الى مندوبها دى بورجريف. «كان باستطاعتنا»، قال سيادته، «استئصال هذا الجيب فى وقت قصير. فقد كانت صواريخنا مصوبة فى وضع الاطلاق على كل واحـــدة من دباباتهم الأربعمـــائة التى كانت تتخفى بالليـل فى حفر بمـــواقع ثابتة.. وكان من الممكن فى لحـظات قــلائــل أن يفقدوا نحواً من نصف قــواتهم المدرعـــة فى الضفة الغربية حتى مع حساب الخطأ. وكان لدينا أيضا ٨٠٠ من دباباتنا حول جيبهم هذا، مستعدة لسحق ما يتبقى من القوات الاسرائيلية». والواقـــع أنه كان قـــد بات معروفا لبعض الوقت ان قواتنا المصرية كانت

تعد وتحتشد لهجوم ساحق وحاسم يصفى وجود العدو غرب القناة ويقلصه شرقها حتى أتى قرار وقف اطلاق النار فأنقذ العدو منه. غير أن الرئيس عاد أخيرا فكشف عن قرار بتصفية الجـيب عسكريا بعد شـهرين من وقف النار، رضوخ العدو للانسحاب فى الفصل بين القوات هو وحده الذى أنقذه منه هذه المرة.

وبالفعل، فمنذ توقف القتال شكليا أخذت القوات المصرية تشدد الضغط على جيب العدو وتحصره فيه بالنيران التى لا تنقطع بل تتصاعد كل يوم وبكل الأسلحة الخفيفة والثقيلة. ومن الواضح أن العدو كان يتعرض على الضفة الغربية لحرب استنزاف أشد وأقوى على الأرجح من تلك التى تعرض لها على الضفة الشرقية، لا تدعه فى هدوء قط، ولا تسمح له بتثبيت مواقعه او انشاء دفاعات او تحصينات هندسية.. الخ.. وكما اعلنت هيئة الطوارىء الدولية مرارا، فإن القوات المصرية ظلت توسـع مناطق وجودها وتضيق نطاق وجود العدو بانتظام وبإحكام وبعمق قدر أحيانا بالكيلومتر، وتدفع به دفعا نحو شاطىء القناة.

وعدا هذا فلم يكن للعدو الا طريق واحد عبر القناة، هو وخطوط امداداته وتموينه الطويلة الشاقة من خلفه كانوا تحت رحمة نيراننا وقواتنا. كذلك فإذا كان وجود العدو فى هذا النطاق قد مكنه من تدمير شبكة دفاعنا الجوى السابقة به، والتى كان يحاول أن يستفيد من قواعد منصاتها فى استحكاماته الدفاعيـة، فقد أقـمنا نحن شبكة جديدة الى الغرب أقوى وأكثف وأفتـك. هذا فضلا عن تكثيف قـواتنا فى شرق الدلتا وتعزيزها بفرق جديدة متطورة السلاح، بحيث أصبحت نسبة القوات المصرية الى الاسرائيلية غرب القناة هى ٣ : ١، وبحيث أصبح العدو حقيقة ويقيـنا بين فكى كمـاشة سـاحقة. وسنرى بعد قليل كيف آثر العدو الانسحاب طـائعا أو كارها لينجو بنفسه من هذا المأزق المميت، وليتحقق بالتـالى ما قاله الجنـرال بوفر بصدق من أن «عملية شـارون» كلها لم تكن عملية عسكرية بقـدر ما كانت «مظاهرة تليفزيونية».

الفصل الرابع

المعركة السورية الكبرى

لسوريا، فى الاستراتيجية كما فى السياسة، وضع خـــاص وبارز بين العرب. فكما كانت دائما قمة من قمم العروبة الشامخة طوال العصور الاسلامية ورائدة القومية العربية الأولى بلا منازع فى العصر الحديث، كانت الجبهة السورية فى الصراع العربى - الاسرائيلى قلعة شاهقة، مجازيا كما هى حرفيا، عسكريا كما هى جغرافيا، وقوة ضاربة أساسية بالغة الصلابة والعنف، حفظت التوازن مع العدو على سائر الجبهات وفرضت عليه ضغوطا مضادة مزقته من الوجهة الاستراتيجية وشتته تشتيتا .

واذا كانت الجبهة السورية واحدة فقط من عدة جبهات محاربة فى معركة ١٩٦٧، فإنها فى أكتوبر كانت الجبهة الوحيدة على الجانب الآسيوى، وذلك بعد أن وقفت الجبهة الأردنـــية المترامية من أسف خارج المعركة. فكانت هى مع مصر قطبى الصراع المسلح الذى اتخذ بذلك محورا أحاديا فى هذه الجولة. وكما هو معروف، فقد كان من الأوليات فى استراتيجية العدو الإسرائيلى، الذى يقع جغرافيا فى حالة حصار أرضى كامل داخل الـــوطن العربى، ألا يحارب قط فى جبهتين او اكثر فى وقت واحد. وعلى شبكة كثيفة كفء من طرق المواصلات الجيـــدة، وعلى أساس من ضآلة مساحته الجغرافية، كان العـــدو يعتمد على، ويتعمد أن، ينفـــرد بكل دولة عربية على حدة فى حرب سريعة خاطفة ينثنى بعدها فورا الى دولة أخرى بضربة عاجـــلة ممـــاثلة، وهكذا. ولقـــد كان هـــذا بالضبط ما نجح العدو فى تحقيقه فى ١٩٦٧، وكان عاملا أساسيا من عوامل الهزيمة العربية.

العكس تماما ما حدث فى ١٩٧٣، ففى ظل سياسة قومية تحريرية موحدة، وتحت اســـتراتيجية عظمى مشتـــركة، وبقيادة عسكرية واحدة، كان التنسيق كاملا ومطلقا بين الجبهتين السورية والمصرية، توقيتا وتكتيكا، استراتيجية وتخطيطا، تصعـــيدا او تخفيفا.. الخ، بحيث كانت الجبهـــتان فى واقـــع الأمر كفكى كماشة وضعت العدو لأول

مرة وبصورة جدية «كالبندقة فى الكسارة» - هذا تعبير بن جوريون القديم - ووضعت المعركة كلها «بين قوسين» من الارادة العربية.

وبين هذين القوسين تمزق العدو وانشطرت قواته وتبددت قواه، وراح يلهث من الشمال الى الجنوب حينا وحينا آخر من الجنوب الى الشمال - دون جدوى مع ذلك. ولعلها لم تكن محض مصادفة ان العدو اكتشف وعانى لأول مرة نقصا حادا فى أسطول سيارات النقل وشعر بعدم كفايته وحاجته الملحة الى شراء بضعة آلاف من الشاحنات بسرعة لسد هذا العجز الذى خلقته لاشك ثنائية الجبهة بالنسبة له.

ولقد كانت وحدة المعركة العربية على الجبهتين عاملا أساسيا بلا ريب فى انتصار العرب، وجاءت مصداقا مجددا وعمليا للقانون الخالد فى صراع الأمة العربية مع أعدائها، ألا وهو أن مصير العرب معلق دائما ورهن أبدا بوحدة القوة السورية والمصرية. سوريا - مصر كانت باستمرار وحدة جيوستراتيجية واحدة، من وضع قدمه فى احداهما قادته تلقائياً الى الأخرى، وهما معا قلب الوطن العربى جغرافيا وطليعته تاريخيا، والذبذبات السياسية فى مصير العرب ارتفاعا او اتضاعا، تحريرا او استعمارا، مرتبطة بالعلاقات بينهما إن وحدة أو تفككا وإن تضامنا أو تباعدا. ولقد أثبتت معركة أكتوبر الجانب الموجب فى معامل الارتباط الكامن فى هذه العلاقة واستبعدت الجانب السالب. لقد أثبتت المعركة أن فى وحدة سوريا ومصر دائما نصر العرب العسكرى والسياسى.

هكذا كان دور الجبهة السورية التاريخى، وهكذا كان فى أكتوبر. ولئن كانت هذه الجبهة أقصر بكثير جدا من الجبهة الاردنية المجاورة فى طول حدودها المشتبكة مع العدو، فإنها قد عوضت عن الطول بالكثافة، وعن الاتساع بالعمق، وعن القرب بالصلابة. فكما أثبتت سوريا نفسها فى الميدان قوة بالغة الضراوة قتالا وحربا، حشدت أمام العدو قوة عسكرية تعتبر بكل المقاييس بالغة الضخامة عددا وعُددا (أكثر من ربع مليون جندى، او نحو ٢٦٠ ألفا) وتعد بلا شك أعظم مما يمكن أن يتناسب مع حجم سوريا البشرى ومواردها الاقتصادية. ولكن سوريا، التى كانت قد نذرت نفسها وعاشت للمعركة فقط، كانت تخصص للقوات المسلحة نسبة من دخلها القومى ومن ميزانية الدولة تعد من أكبر ما خصصته الدول العربية جميعا، ولم تكن لتقل فى ذلك كثيرا عن

العـــدو الـــذى يكرس كما هو معروف أعلى نسبة من الدخل القومى فى العالم كله للتسليح والجيش.

وعلى سبيل المثـــال، فقد قذفت سوريا فى المعركة بأعداد من الدبابات جاوزت فى بعض مراحلها الألف بكثــير، قيل فى وقت ما ١٤٠٠، وأكثر منها من المدافع الثقيلة، عدا مئات الطائرات المتفوقة، فضلا عن قوة بشرية هائلة كثيفة. ويكفى للدلالة على ضخامة وكثافة هذه القوة الســـورية انها ناهزت فى خطوط معينة مثل ما قذفت به مصر تقريبا على جبهة سيناء فى الجنوب. كما أن ضراوة وحدة المعركة على الجبهة الشـــمالية لم تكـــن تقـــل أبـــدا عنها فى الجبهة الجنوبية. وفى وقت ما وصل عدد الدبابات المتصارعة من الجانبين الى نحو ٢٣٠٠ دبابة.

إلى جانب هذه القوة الأساسية، تدفقت على الجبهة السورية أيضا قوات مساعدة وتكميلية من الدول العربية الشقيقة. القوات العراقية خاصة ثم قوات سعودية وأردنية وأخرى مغربية. وقد ساهمت هذه القوات فى تدعيم طاقة سوريا القتالية مساهمة طيبة.

كذلك لابد أن نضيف هنا القوات الفلسطينية الفدائية التى لعبت دورا مهما على الجبهة السورية، مع وأمام وخلف القوات النظامية، فى قلب صفوف العدو وفى قلب أرضه المحتلة، وأصابته بضربات مؤثرة وكبدته خسائر جسيمة فى الأرواح والسلاح والمنشآت. وقد عبرت إحدى وكالات الأنباء الغربية عن دور الفدائيين الفلسطينيين هذا بقولها «فى الوقت الذى تدور فيه معارك كبيرة بين الاسرائيليين والعرب فى سيناء والجولان، تدور هنا – فى شمال اسرائيل – حرب أقل اثارة ولكنها مدمرة تماما».

وليس من شك فى أن الـــدور الفلسطينى الباسل كان، على روعته وحجمه، يمكن أن يكـــون أعظـــم وأكبر، شـــيئا كجبهة ثالثة بكل معنى الكلمة، لولا ما كان قد أصيب به من ضـــربات غير شريفة ولا مشرفة فى مجـــازر سبتمبر (أيلول) وما بعـــدها، ولـــولا أنه لم يتح له أن يمارس نشـــاطه من جبهـــته الطبيعية والفعالة وهى الجبهة الأردنية.

وعلى الجملة فلقد قـــدمت الجبهة السورية مســـرحا قتاليا لا يقل ثقلا وقـــوة وعنفا وكذلك اقتدارا عما قدمت الجبهة المصرية. وقد أدارت ســـوريا معركتها هناك بكفـــاءة لا تـــدانيها الا بسالتها وصمودها واصرارها على النصر وتدمير أكبر قدر من قوة العدو البشرية والسلاحية.. وفى ذلك كله نجحت إلى أبعد الحدود بحيث أصبحت الجولان مقبرة

أخـــرى للعـــدو الاسرائيلى، مقبرة – على سبيل التغيير والتوســـعة على العدو! – ندية خضراء مشجرة معلقة، حيث كانت ســـيناء مقبرة رملية فقط ، غبراء جرداء مسطحة.. لقد أعادت ملحمة المعركة الســـورية أمجـــاد الأمـــوية فى أعظم صورها، وضعت المـقـاتل العربى فى موقعـــه الصحيح على القمة مسجلا بطولات اسطورية، وصححت كل أخطاء يونيو مثلما صححت مسار المستقبل.

المسرح الطبيعى

وهناك بطبيعة الحال اختلافات اساسية بين الجبهتين السورية والمصرية من حيث هما مسارح قتال. فالفارق جذرى فى الموقع الجغرافى من ناحية وفى بيئة المسرح الطبيعى من ناحية أخرى.

الموقع

فأما الموقع، فإن سوريا إذ تقع الى الشمال من أرض العدو دون فاصل يذكر من اللامعمور، كفاصل صحراء سيناء، لا تعرف فراغا بشريا أو عمرانيا على جبهتها ولا منطقة عازلة تبعد خطوطها الأمامية عن خطوط العدو. الجبهة هناك متصلة وواحدة ومستمرة، وكلها باستثناءات محلية نسبيا من المعمور، وحتى مرتفعات الجولان وحوران وما حولهما هى من المعمور الخفيف على أقل تقدير. وغير بعيد الى الخلف من الجولان، بل وشيكا جدا، يبدأ المعمور السورى بكتلته الرئيسية وبكامل كثافته السكانية وازدحامه البشرى – دمشق نفسها لا تبعد الا ٧٠ كم عن أقرب نقطة فى حدود فلسطين المحتلة (لسان اسرائيل الحالى المتطاول فى أعالى ومنابع الأردن).

وعلى جانب العدو، ربما بدرجة أكبر، تتكدس الكـثافة السكانية على الحـــدود وخلفها مباشرة تكدســـا غير عادى. انها مرتفعات الجليل، أغزر جهـــات شمال فلسطين مطرا ومن أكثفها انتاجا وزراعة، ومن أشد قطاعات اســـرائيل ازدحاما بمدن الحدود والمستعمرات من كيبوتز وموشاف، حشدت هنا أو حشرت اما بحكم الطبيعة الجغـــرافية وغنـــاها واما لأغراض التوسع والتهديد الاستعمارى المخطط. معنى هذا على الفور ان جبهة الصـــدام وميدان القتال ليس فراغا بشريا خلوا من المدنيين على أى من الجانبين، ولا هم بمنأى او بمنجى من الخطر او الضرب. ويكفى ان نتذكر هنا ان عشرات وعشرات من الالاف من السكان المدنيين قد تعرضوا للطرد من الجولان مرتين على أيدى العدو،

الضارى حقده، فى كل حرب نشبت، أثناء وبعد حرب يونيو ثم فى أكتوبر على السواء. وقد بلغ مجموع هؤلاء اللاجئين الآن ١٧٠ ألفا. وهذا الخطر لا ينفصل بطبيعة الحال عن خريطة جغرافية السكان التى تتكدس فيها التجمعات البشرية بدرجة او بأخرى على جانبى الحدود السياسية.

ولا شك ان هذا الخطر يصدق على العدو الاسرائيلى بدرجة أكبر، اذ أنه يعانى بصفة خاصة جدا من نقص حاد فى القوة البشرية. ومن هنا قلقه بل رعبه التقليدى والمزمن من الجبهة السورية بالذات. حيث ان نيرانها تستطيع أن تصل، حتى من وراء الخطوط العسكرية، الى دائرة واسعة من شمال إسرائيل. ومن هنا أيضا خوفه الدفين من أى تقدم مفاجىء او سريع للقوات السورية، الأمر الذى قد ينقل المعركة الى أعماق العدو المأهولة بكل ما يعنيه ذلك من خسائر مدمرة بشريا واقتصاديا.

ان الخطر السورى الكامن هو، من وجهة نظر العدو، خطر مزدوج، عسكرى وبشرى، حيث الخطر المصرى فى الجنوب خطر عسكرى فقط بحكم بعد المعمور الاسرائيلى الشديد عن ميدان المعركة، وأطماع اسرائيل الاستعمارية فى الجولان هى استعمار استيطانى واستراتيجى. حيث هى فى سيناء استعمار استراتيجى اساسا فحسب، وقد عبر دايان عن هذه الحقيقة بلا مواربة أثناء المعركة، فى تصريحاته السرية التى لم تعلن إلا بعد شهور، حيث قال «رغم ان الجبهة المصرية كانت تسيطر على الأنباء، فإن الاستراتيجيين الاسرائيليين كانوا فى شغل أكثر بمعركة الجولان، على أساس ان نجاح سوريا هناك يهدد قلب الأراضى الاسرائيلية اكثر مما يهدده التقدم المصرى فى صحراء سيناء». كما اعترف بأن إسرائيل قصفت دمشق بالقنابل بعد أن أصابت الصواريخ السورية أرض - أرض المستعمرات الاسرائيلية.

ومن هنا وهناك جميعا فى النهاية نستطيع أن نفهم ذلك الحقد الضارى والروح الانتقامية الوحشية التى كان يضمرها العدو دائما لسوريا ولموقفها الصلب غير المتهاون، ثم توعده وارهابه لها علنا قبل المعركة واثناءها، وسنرى ترجمة أمينة، بقدر ما هى خسيسة، لهذه الروح العدوانية والشراسة الحيوانية فى كل مراحل المعركة تتمثل فى تركيزه عمدا على الأهداف المدنية والسكان المدنيين العزل من السلاح.

المسرح الجغرافى

هذا عن الموقع الجغرافى. أما عن المسرح الطبيعى او البيئة الجغرافية للجبهة السورية فتختلف كثيرا بطبيعة الحال عنها على الجبهة المصرية.

فأولا: ليس هناك ذلك الفاصل المائى المانع، القناة، يضع خطا أو خندقا صارما بين المعسكرين، ان أرض المعركة متصلة بلا انقطاع والمواجهة برية تصادمية مباشرة، وثانيا، فبدلا من البيئة الصحراوية الرملية والجافة فى سيناء، فإن ها هنا بيئة جبلية صخرية وعرة قاسية بقدر ما هى مرتفعة معلقة. وحتى المناخ يختلف: أمطار وبرودة وثلوج فى الشتاء تغطى قمم الجبال وتحد كثيرا جدا من امكانيات القتال فى ذلك الفصل.

واذا أردنا أن نوجز الطبيعة الطبوغرافية للجبهة السورية فى ملامحها الاساسية فيمكن أن نقول ان التربة جرداء موحشة، والأرض صخرية صلبة وحادة شديدة التضرس، اصولها بركانية أحيانا أو غالبا، بها طفوح بازلتية قاسية مدببة زجاجية حادة الزوايا، منها ما لا يصلح حتى للآليات الميكانيكية او ما يصلح للمدرعات بالكاد. والأودية الجبلية المنحوتة والأخاديد الغائرة ليست أفضل كثيرا نظرا لضيقها وشدة انحدار سفوحها.

باختصار، الجولان كمسرح طبيعى ميدان قاس معقد لا يسمح الا بمعركة شاقة مريرة بالغة القسوة. فمن ناحية، خطوط المواجهة متداخلة ومتشابكة فى تعقيد شديد. ومن ناحية أخرى، لا مجال هنا للمناورة أو تكتيك الاكتساح والالتفاف الذى تصلح له بيئة سيناء المكشوفة الواسعة المفتوحة، الأنسب هنا هو تكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات ثم الانقضاض المباغت. فى جملة واحدة، فرص المناورة هنا أقل، وفرص المفاجأة أكثر.

وعلى الجملة فإن المسرح الطبيعى، وبالتالى أساليب القتال معه، أقرب نوعا فى الجبهة السورية الى ظروف الحرب فى أوربا الغربية الباردة المطيرة، الغابية الجبلية، منها الى طبيعة حرب الصحراء المطلقة التى تمثلها جبهة سيناء خير تمثيل. والمعركة نفسها هنا «رأسية» معلقة كما قد نقول، حيث هى «أفقية» مسطحة على جبهة القناة.

ونحن نستطيع ان نفهم هذه الحقائق أكثر، ومعناها الاستراتيجى أيضا، اذا تمثلنا فى أذهاننا خريطة المنطقة الجغرافية، فالقطاع الذى احتلته اسرائيل فى يونيو هو الركن الجنوبى الغربى الأقصى من رقعة سوريا السياسية. شكله العام مستطيل

طـــولى تقريبا، مساحته ١١٥٠ كم مربعا، أبعاده القصوى نحو ٧٠ كم بالطول، ٢٥ كم بالعرض، وهذا الرقم الأخير يحدد بالتقريب امتداد جبهة المواجهة المباشرة مع العدو. بالطول، تمتد الرقعة المحتلة من الأجزاء الجنوبية من جبل الشيخ فى الشمال حتى مصب نهر اليرموك فى نهر الأردن حيث تشترك الحدود السورية مع الأردن وفلسطين فى الجنوب. أما بالعرض فتمتد الرقعة من خط الحدود السياسية الذى يتبع قمم جبل الشيخ فى الشمال ثم وادى الأردن والحولة حتى طبرية فى الجنوب. هذا من ناحية الغرب. أما من الشرق فإن حدود الرقعة تتعرج فى تقوس عام، أقصى نقطة فيه شرقا هى الرفيد.

وعلى هذا الأســـاس فإن الجزء الأكبر من الرقعة تغلب عليه المرتفعات والارتفاع. ولكن الارتفـا ع يتغير ويتدرج على محورين. بالطول يزداد السطح ارتفاعا باطراد كلما اتجهنا شمالا، من سهول وادى اليرموك فى اقصى الجنـــوب الى أعلى مرتفعات وذرى جبل الشيخ فى أقصى الشمال. أما بالعرض فإن المرتفعات تنحدر بشدة وبسرعة غربا نحو وادى الأردن الرئيسى، وشرقا بالتدريج الوئيد نحو مرتفعات حـــوران وبادية الشـــام. وبهذا يتقوس سطح المرتفعات بصورة عامة ولكنها غير منتظمة او متناظرة ما بين الشرق والغرب. وفى المحصلة العامة ينقسم سطح المنطقة المحتـــلة الى ثلاثة قطاعات هى من الشمال الى الجنوب: جبل الشيخ، هضبة الجولان، سهل اليرموك.

فأما قطاع جبل الشيخ فيشمل نحو ثلث سلسلة الجبل التى تعرف ايضا بجبل حرمون والتى تسودها الصخور الجيرية. متوسط ارتفاع القطاع يتراوح بين ١٠٠٠، ١٥٠٠ متر، فى حين تصل القمم الى أكثر من ٢٨٠٠ متر أحيانا بحيث تغطى بالثلوج الدائمة طول العام فتبدو القمم بيضاء معممة كالشيخ – من ثم الاسم. والمسرح الطبيعى بهذا كله وعر للغاية يصعب اختراقه بالعرض من الغرب الى الشرق حيث يعد مانعا طبيعيا خطيرا.

ويتحكم الجبل بارتفاعه فى كل الدائرة التـــى حـوله بما فيها القطاع الأوسط.

هذا الأخير هو المرتفعات السورية بالمعنى المحدد والتى تسميها الصهيونية الجولان. هى تمثل الجزء الأكبر من الأرض السورية المحتلة، وتتوسطها مدينة القنيطرة، كبرى مدنها وعقدة مواصلاتها ومفرق طرقها الجبلية الاستراتيجية، ترتكز الهضبة فى الشمال والشمال الغربى الى كتلة جبل الشيخ، ولكنها اقل ارتفاعا، بين ١٠٠٠، ٥٠٠ متر فى المتوسط، غير انها تندفع على سطحها سلاسل جبال وتلال ومرتفعات أعلى (كتل الفرس

مثلا) كما تختطها الأودية بالطول والعرض. أرض الهضبة حمراء رمادية، تربتها بركانية غطت قاعدتها الجيرية القديمة الطفوح البازلتية الداكنة وخطوط المخاريط البركانية الحديثة التى تنتشر على سطح الهضبة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى عامة.

وعموما ترتفع الهضبة نحو ٣٠٠ متر فوق مستوى منخفضات وادى الأردن الأعلى فى فلسطين المحتلة، ومن ثم تتحكم فى كل مستعمرات العدو ومواقعه فى وادى الحولة والأردن وطبرية. ومن ناحية الحركة فإن الأرض صالحة على العموم للعمليات الميكانيكية، ولكنها تظل قاسية للغاية. والسفوح والمنحدرات الغربية للهضبة والتى تطل على وادى الأردن هى بالتحديد اصلح طريق للحركة بين الشمال والجنوب. وعليها بالفعل يمتد المحور الشريانى دمشق - القنيطرة - جسر بنات يعقوب.

أخيرا لا يبقى الا قطاع من السهول المتموجة فى الجنوب والجنوب الشرقى من الأرض السورية المحتلة، تليه فى الشمال، تتدرج باعتدال نحو وادى اليرموك فى الجنوب ووادى الأردن فى الغرب. والمنطقة مفتوحة بسهولة للحركة والعمليات الحربية ولا تمثل مشكلة طبيعية او عسكرية خاصة.

واذا كانت تلك هى القطاعات الطبيعية لأرض الجولان، فإنها تنعكس مباشرة على قطاعاتها العسكرية، فرغم ان الجولان رقعة مستطيلة تمتد من الشمال الى الجنوب، ورغم ان الجانبين المتحاربين يقع أحدهما الى الشمال والآخر الى الجنوب. فلا يفهم المنطقة تماما كمسرح للعمليات الحربية من ينظر الى معركتها كمجابهة بين شمال وجنوب بالضبط. فليست المعركة اندفاعا مستقيما كالسهم المرسل ينطلق من اقصى الشمال او العكس، ولكن المجابهة أدنى فى الواقع ان تكون بين شرق وغرب. وهى إلى ذلك تنقسم الى ثلاثة قطاعات بالعرض لكل منها محور عرضى، وهى فى ذلك كله تشبه فى معنى ما مسرح سيناء الغربية.

ذلك أن جبهة الهجوم السورية تتمثل هنا فى الحدود الشرقية لهضبة الجولان والأجزاء الغربية من هضبة حوران، فهذا هو المنطلق الطبيعى وقاعدة الانطلاق والوثوب المنطقية لاسترداد الجولان. والهجوم السورى يبدأ أساسا من الشرق على طول هذه الجبهة الطولية. وقد كان على طول هذه الجبهة بالفعل، وبامتداد تتمتها الثانوية العرضية.

أن أقام العدو خطا من الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة التى تعتمد إلى أقصى حد على الظـاهرات الطبوغرافية من مرتفعات ومنخفضات وتـلال وأودية ، وعرف فى مجمـوعه «بخط آلون». وقد كان من أبرز عناصر هذا الخط خندق صناعى من الأسمنت المسلح بعمق ٤ أمتار وعرض ٦ أمتار وبطول ٣٠ كم على طول جبهة المواجهـة ، وقد حفر هذا الأخدود الغـائر، الذى رصع بالألغام الكثيفة، لكى يمنـع المدرعات والآليات السورية من الاقتحام. ولكن القوات السورية عبرته، كما سنرى، على جسور حديدية رغم أنف العدو ورغم نيرانه.

واذا كان الشرق هو المصدر الطبيعى للهجوم السورى، فإن هدفه بعد ذلك هو التقدم بعرض الجولان على ثلاثة محاور عرضية رئيسية تحاول فيما بينها ان تمزق قوات العدو الى عدة جيوب محاصرة لتعزلها عن بعضها البعض وتضربها على حدة. ويمكن أن ينشعب كل محور منها بعد ذلك فى داخل الهضبة الى شعبتين شمالا وجنوبا ليتصل بعضها ببعض امعـانا فى تفتيت الـعدو وتطويقه. فإذا ما قاوم او تقهقر فإنه يدفع غربا إلى السفوح الغربية المنحدرة حيث الظروف الجغرافية غير ملائمة للعمل. وهذا أيضا هو الذى يفسر ان المعركة كانت تدور فى جميع مراحلها على القطاعات الثلاثة فى وقت واحد مهما تغيرت مصايرها.

هكذا تنقسم ارض المعركة الى ثلاثة قطاعات عرضية يتوسط كلا منها تقريبا محوره العرضى الأساسى. غير أننا لابد أن نذكر أولا أن القطاعين والمحورين الشمالى والجنوبى يعتبران ثانويين نسبيا، أما القطاع الأوسط ومحوره فهما الأهـم على الاطـلاق، فالقطاع الشمالى أقلها مساحة، ويتركز على محور مجدل شمس - بانياس. والقطاع الأوسط أوسع مساحة، ومحوره يعد العمود الفقرى للتقدم والحركة فى المعركة كلها. ويمتد هذا المحور من الصمدية الى القنيطرة الى حوالى منطقة سهل الحولة عموما (بحيرة الحولة سابقا) اما القطاع الجنوبى فهو أكبرها مساحة، ومحوره يمتد من منطقة الرفيد والجواخدار فى الشرق الى منطقة بحيرة طبرية فى الغرب بعامة، والى فيق والحمة بخاصة.

سلبيات يونيو

تلك إذن صورة لفظية لمنطقة المرتفعات السورية، نستطيع أن نرى منها انه كان لسوريا تقليديا ميزة استراتيجية وعسكرية مهمة جدا على العدو الاسـرائيلى، الا انها

من أسف ضـــاعت فى يونيو. تلك نقصد ميزة الارتفاع المسيطر والطبوغرافيا الحاكمة. فالمرتفعات السورية كتلة عالية تشرف من علٍ على منابع الأردن وسهول الحولة وطبرية وامتداداتها وكذلك على منحدرات هوامش الجليل الأعلى فى شمال اسرائيل. وبهذا تبدو المرتفعات السورية كهضبة شبه مائدية مشرفة، كالقلعة الشماء، سفوحها الوعرة فى الجنوب والغرب تميل كالمنحدر التقليدى للقلاع glacis ، ومن سطحها تستطيع ان تكشف كل السهل اسفلها فى داخل اسرائيل وتسيطر على مواقعه ومستعمراته بحيث تقع هذه مباشرة تحت نيرانها ومدفعيتها البعيدة المدى.

ولقد كانت اسرائيل تشكو دائما بمرارة من وضعها الطبوغرافى غير الملائم بالنســبة للمرتفعات السورية، وكانت لا تخفى قط أطماعها ونواياها فى اغتصابها والســيطرة عليها عنــد أول فرصة، وقد واتتها هــذه الفرصة من أسف فى يونيو، حين احتلت قطاع الجولان بأكمله حتى سفوح جبال لبنان الداخلية وجبل الشيخ. وبذلك تحسن موقفها الاستراتيجى كثيرا جدا. من ناحية، لأن مرتفعات الجولان توفر للعدو الأمن التام فى الجليل الأعلى والأسفل وغـور الأردن، ومن ناحية، لأنها خط دفاع طبيعى عميق وعريض ضد أى هجوم سورى يأتى من الشــمال. ومن ناحية ثالثة، لأنها فى الوقت نفسه تقدم قاعدة انقضاض مـــثالية للهجوم او للهجوم المضاد على سوريا. هذا فضلا عن أنها باتصـــالها المباشر بحـــدود الأردن الشمالية تعطى العـــدو فرصة فتح جبهة ثانية مع الأردن فى حالة دخوله الحرب.

على أن سوريا لحسن الحظ لم تفقد كل ميزتها الطبوغرافية القديمة، فقد ظلت محتفظة بمناطق جبلية وهضبية مرتفعة خارج الجولان، سواء فى كتلة حـوران شـرقا أو فى بقية جبل الشيخ شمالا أو فى سلسلة لبنان الداخلية شمالا وغربا. وبهذا فقد كان الطرفان المتواجهان يقفان على قدم المساواة طبوغرافيا من حيث الارتفاع والوضع الاستراتيجى المشرف.

ولقد كان فى وجه هذا الوضع المتكافىء بالدقة أن لجأت اسرائيل بخبث الى اقامة مرصد محصن كنقطة مراقبة شــاملة على قمة من أعلى قمم جبل الشـيخ لتكشف منها بقـية المرتفعات السورية وكل مواقع القوات السورية فى جبهة المواجهة. وقد كان هذا المرصد – الحصن مبنيا على غرار دشـــم خط بارليف، إلا أنه معلق فى خط السماء على

أعلى الجبـــل، فقد كان قلعة حجرية مسلحة متعـددة الطوابق، ولكنها بكاملها مدفـونة تحت الأرض فى باطن الصخر، ومدعمة بأسقف وأبـواب من الصلب يسـتحيل تحطيمها حتى بالقذائف المباشـرة الثقيـلة. وسنرى القيمة الاستراتيجية والدور العسكرى الذى لعبه هذا المرصد فى المعركة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إســرائيل اذا كانت قـــد امتلكت منذ يونيو ميزة الموقع المرتفع كسوريا او شاركتها هذه الميزة، فإن هذه المشاركة لم تكن مطلقة او كاملة، فلقد أصبح على خطوط مواصلاتها وامداداتها ، التى طالت كثيرا وصارت معرضة اكثر، ان تصعد من السهل فى الجنوب الى هضبة الجولان وهى آتية وان تهبط من الهضبة الى السهل وهى ذاهبة. وهذه الحركة الصاعدة الهابطة عبء شاق جسميا وميكانيكيا بطبيعة الحال. ولم يكن هكذا وضع خطوط المواصلات السورية، التى تنساب باطراد ورفق نسبيا ما بين مرتفعات الجنوب ومنطقة التلال والمرتفعات المحيطة بغوطة دمشق والمؤدية اليها، وهى المنطقة التى تتعاقب عليها ثلاثة خطوط دفاعية قوية تمثل الدرع الصلبة للعاصمة وتناظر فى صورة مضغوطة الخطوط الدفاعية الثلاثة ما بين القناة والقاهرة.

مراحل المعركة

تلك هى الفروق الاساسية بين مسرح المعركة فى كل من الجولان وسيناء . وقد انعكست هذه الفروق بطبيعة الحال على الخطط والعمليات الحربية فى المعركة. ففيما عدا الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيـــفة على الجانبين، لم تكن هنا على الجولان مشكلة عبور مائى وكان التقدم الأرضى ممكنا منذ ساعة الصفر فور اجتياز الخندق. ومن الناحية الأخرى فقد كانت جبهة الجولان تشـــبه جبهة سيناء من حيث ان عليها هى الأخـــرى شبكة من صواريخ الدفاع الجوى تعد أيضا من أكثف وأكفأ ما على الأرض من نوعها، تعززها كذلك غابة من المدفعية الثقيلة شـــبيهة بشقيقتها على الجبهة المصرية نوعا وكثافة وقوة. ولعلنا نضيف كذلك ذلك القدر من التشابه بين الجبهتين من حيث الامتداد المستطيل والانقسام إلى ثلاثة قطاعات ومحاور عرضية.

وفيما بين هذه الاختلافات الطبوغرافية والمشابهات العسكرية، جاءت المعركة السورية شبـــيهة بالمعركة المصرية الى حد أو آخر. بل إلى حد بعيد، فى كثير من خططـــها وخطوطها وخطواتها، وأخذت مراحل وتطورات مناظرة الى حد معين سواء فى حركة المد

والجزر الميدانية او فى الانجازات التدميرية أو فى النتـائج الاقليمية. وفيها أيضا تعددت أسلحة المعركة ما بين البـر والبحر والجو، كما كانت مجـالا لبعض من أضخم وأعتى معارك الدبابات والمدرعات فى العصر الحـديث، لا تقل هى الأخـرى عن أكبر ما عرفت الحرب العالمية الثانية، قـذف فيها بأعداد تعادل ان لم ترجح أحيـانا ما قذف به فى سيناء من دبابات فى بعض المراحل. فالمقدر أن سوريا هاجمت فى وقت ما أثناء المعركة بنحو ١٤٠٠ دبابة، عدا مئات الدبابات العراقية التى شاركت فى القتال. أما المعركة الجوية فلم تكن أقل ضراوة بالتاكيد، وفيها أيضا لعبت الصـواريخ المضـادة للطائرات دورا حاسما ومهلكا لطيران العدو. وأخيرا قامت البحرية كما فى المياه المصرية بدور أكثر من جانبى، نشط وفعال، على طول امتداد السواحل والموانىء السورية.

وعموما يمكن أن نقسم المعركة بحـسب تطوراتها وملامحها ونتائجها الى أربع مراحل، تكاد تتعاصر ذبذباتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها مع ما كان يحدث على الجبهة المصرية. وسنرى أن التدخل الأمريكى هو القاسم المشترك بين هذه التطورات المتوازية والضابط الكامن خلفها دورا وتوقيتا ومصيرا. وهذه المراحل هى: الأولى، مرحلة الاكتساح السورى (٦ - ١٠ أكتوبر)، الثانية، مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد (١١ - ١٤)، الثالثة، مرحلة المد السورى الثانى (١٤ - ١٦ أكتوبر)، الرابعة، مرحلة التوازن النسبى (١٧ - ٢٢ أكتوبر).

مرحلة الاكتساح السورى

بدأت مقدمات المعركة، كما على الجبهة المصـرية، بعدوان اسرائيلى جوى وبرى مدبر على بعض المواقع السورية. وفى ساعة الصفر نفسها، الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، بدأ الهجوم السورى الجوابى، ويلاحظ أن هذا التوقيت اختير لتـوحيد بدء المعركة فى الجبهتين السورية والمصـرية لتحقيق المفـاجأة الكاملة للعدو من كل جانب. فأنسب توقيت للجبهة السورية حيث لا مانع مائيا هو أول ضوء فى الفجر. وهذا على العكس من الجبهة المصرية حيث يستدعى عبور القنـاة العمل فى ظـلام الليـل وبالتـالى البـدء مع أخر ضوء فى المساء.

فى تلك اللحظة التاريخية انطلقت ١٠٠ طائرة قـاذفة مقـاتلة لتعطى العدو ضربة جـوية خاطفة وقاصمة مكافئة لنظيرتها على الجبهة المصرية. ومعها كذلك بالضبط

انطلقت المدفعية السورية الثقيلة فى ضربة هائلة مكثفة - ١٠٠٠ مدفع، كما على القناة - تدك مواقع العدو فى أعماقه وأنساقه المختلفة. وكما حدث فى الجنوب، فقد العدو كل توازنه: لقد حققت سوريا المفاجأة وانتزعت المبادأة ووضعت العدو على الدفاع وألقت به فى دوامة من الاضطراب والارتباك البادى.

وفى حماية مظلة النيران الرهيبة تلك، وفى ظل اهتزاز العدو، زحفت جيوش المدرعات والدبابات السورية بقوة عارمة وبأعداد لم تعرفها الجبهة من قبل، وراحت تكتسح مواقع العدو واستحكاماته، كما قصفت كل مستعمراته فى الهضبة. وكما كتب تشرشل الحفيد «هجم السوريون بقوة أمامية قدرها ١٢٠٠ دبابة، وهو أكثر من ضعف قوة المدرعات عند روميل فى العلمين وأكبر من ذلك قوة». وقد بدأ الزحف من الشرق على طول الجبهة بكاملها وفى مواجهة الجانب الشرقى من الجولان برمتها، فى حين أرسلت بعض القوات المحمولة جوا لإسقاطها على المواقع الخلفية على الجانب الغربى من الجولان.

ولقد كان مرصد جبل الشيخ بالذات من أول أهداف الهجوم السورى المنقض. فبواسطة القوات المحمولة جوا، قام فرسان الجو «والمغاوير» (الكوماندوز) السوريون باقتحام الحصن رأسيا وأفقيا، جسديا وتلاحميا، بحيث تحولت القلعة المدرعة الى مصيدة موت لحامية العدو، تماما على نحو ما حدث لدشم خط بارليف فى الجنوب. وهكذا سقط المرصد فى الساعات الأولى من اليوم الأول، وحرم العدو من نقطة مراقبة خطرة.

أما على الأرض، فقد تقدم الزحف البرى من الشرق على المحاور الثلاثة، ونجحت كلها فى اختراق قوات العدو وتحصيناته منذ البداية. وتقدمت القوات السورية المدرعة على كل محور لينشعب كل منها الى شعبتين نحو الشمال والجنوب، وتم الاتصال بين كل هذه الشعب بحيث تمزق العدو الى جيوب وتم تطويق منطقة القنيطرة بصفة خاصة بفكى كماشة من الشمال والجنوب. وفى الجنوب كانت الاندفاعة السورية قوية بنوع خاص، وكان خطرها شديدا لشدة كثافتها ولقربها من حدود العدو. وقد قال الاسرائيليون ان السوريين كانوا يفوقونهم عددا فى هذه النقطة بنسبة عشرة الى واحد. وقطع السوريون طريق الامدادات الاسرائيلى الرئيسى بالقرب من جسر بنات يعقوب وهددوا أعالى وادى الأردن. وقد فشل العدو بطيرانه ومدرعاته فى ايقاف الزحف، وتكسرت كل هجماته

المضادة. وفى اليوم الرابع وحوالى نهاية هذه المرحلة كان قد تم تحرير الجزء الأكبر من الجولان بالفعل.

والواقع أنه منذ بدأ الزحف السورى العظيم «وضحت على الفور، وبشكل وحشى، الطبيعة المكشوفة العارية للمواقع الاسرائيلية» كما كتبت الصنداى تايمز. وكما تضيف الصحيفة نفسها، لم تتوقف موجة الزحف السورية الأولى للاستيلاء على المراكز الاسرائيلية القوية فى هذه المواقع ، وانما تجاوزتها كالدوامة الكاسحة. وتلك كانت استراتيجية الاقتراب غير المباشر، اختراقا وتطويقا. وفى هذا علق قائد مدرعات اسرائيلى «انهم لم يبقوا على الطرق. لقد ظلوا يتدفقون الى الداخل كالماء، يشقون طريقهم فى أى مكان يستطيعون. أما التصدى للمراكز الاسرائيلية القوية فكان مهمة الموجة الثانية» . وبهذا أصبحت الهضبة كلها مسرحا مختلطا اشبه بعالم الكوابيس تدور فيه معارك برية منفردة يائسة وقتال وحشى يدا بيد، فى حين كانت القوات الاسرائيلية تتراجع شبرا شبرا .

وبصفة عامة كانت صورة الموقف الأساسى خلال أيام هذه المرحلة الأربعة او الخمسة هى كالآتى: القوات السورية المدرعة على الهجوم، معها المبادأة والمبادرة.. وفى زحف مستمر عنيد على طول القطاع الشمالى من مرتفعات الجولان، العدو، الذى يحتاج الى ٢٤ ساعة فى تسلق الطريق الجبلى الملتوى من روش بيناه فى الجليل عبر وادى الأردن إلى هضبة الجولان، يتقهقر بغير انتظام رغم مقاومة مستميتة تكسر له خلالها هجومان مضادان رئيسيان قام بهما بكل حشد وعنف. وفى نهاية المرحلة كان جبل الشيخ ومعظم القطاع الشمالى وجزء كبير من القطاع الأوسط قد تم تحريرها ووصلت القوات السورية إلى مشارف القنيطرة عاصمة الجولان الاقليمية والاستراتيجية.

بل لقد اعترفت اسرائيل ان طلائع المدرعات السورية توغلت فى وقت ما فى نهاية هذه المرحلة فى عمق شمال اسرائيل ووصلت الى رأس منحدر وادى نهر الأردن، وأوشكت أن تصل الى حافة التلال المطلة على الجليل، الى مسافة تتيح شطر القوات الاسرائيلية فى الشمال الى نصفين، ولو قد كان هناك اسفين متقدم آخر ليهبط الى الضفة الأخرى من النهر وليكونا معا فكى كماشة لاستطاعا اقتطاع شريحة من أطراف اسرائيل، لسانها الشمالى الناتىء. «كقضمة التفاحة»، كما وصفها أحد المعلقين الغربيين (جيرار ليجران).

وفى وجه هذا التفوق السورى المطرد على الأرض، وأمام الخسائر المخيفة التى منى بها العدو فى المدرعات والقوات الميكانيكية، وضع هذا ثقله فى سلاحه الجوى. والحقيقة ان ضراوة وكثافة الهجوم الجوى العدو كانت تتناسب تناسبا طرديا مع هزائمه وخسائره على المسرح الارضى. فباستثناء الليل، لم تنقطع غاراته الجوية المكثفة، على المواقع والقوات السورية، أحيانا بمئات الطائرات، وبصـورة قيل «فيتنامية». غير انه كان كلما تصاعد بهجماته الجوية، تصاعدت خسائره من الطائرات بصورة مخيفة تماما.

فلقد تصدى له الطيران السورى بكفاءة نادرة من ناحية، وشبكة صواريخ الدفاع الجوى من ناحية أخرى، تلك التى تحولت الى مصيدة قاتلة لطيران العدو. وأصبح مشهدا يوميا روتينيا مألوفا فى سماء المدن والجبهة السورية لقاء الصاروخ بالطائرة فيما وصفه البعض سخرية «بقبلة الموت». اذ كانت طائرات العدو تتساقط كالفراشات، وطياروها يصادون بالعشرات. «يبدو أن عملية القبض على الطيارين الاسرائيليين- هكذا كتبت إحدى وكالات الانباء - أصبحت هواية عند الدمشقيين الذين امسكوا بعشرات منهم حتى الان»!، او كما عبر مراسل آخر ساخرا «لأول مرة فى التاريخ يجد الطيار المعادى الذى يهبط بالمظلة جميع أهل البلد فى استقباله!» وهكذا تحولت الحرب الجوية الى عملية استنزاف رهيبة لسلاح طيران العدو، الذى فشل بذلك فى شل الزحف السورى المتقدم على الجبهة.

هنا لجأ العدو الى فتح جبهة جانبية اخرى تستهدف اساسا تحويل ثقل القوات السورية بعيدا عن الجبهة فى الجولان، دون جدوى مع ذلك، فتكررت غاراته البحرية على موانىء وسواحل سوريا، خاصة اللاذقية وطرطوس ثم بانياس.. غير أن القوات البحرية والدفاع الساحلى السورى تصدوا بنجاح تام لهذه الهجمات وأغرقوا كثيرا من وحدات العدو، وحين واجه العدو الفشل على هذا النحو برا ثم جوا ثم بحرا، عاد فتحول بسلاحه الجوى إلى ضرب الاهداف المدنية والاقتصادية ، الأحياء السكنية والمدنيين فى دمشق وحمص وغيرها ، مصافى البترول والمنشآت الصناعية فى حمص وطرطوس وبانياس .. إلخ .. وفى هذه الهجمات الوحشية غير القانونية ، التى كانت وحدها دليلا ساطعا على عجز العدو فى ميدان القتال الحقيقى، حدثت خسائر جسيمة فى الارواح والمنشآت.

ولكن الطيران السورى رد عليها بقصف منشآت بترول العدو فى حيفا وغير ذلك من الاهداف الاستراتيجية والحساسة فى قلب العدو وعمقه بشمال اسرائيل، كذلك انصب القصف المدفعى الثقيل الكثيف والقصف الصاروخى البعيد المدى (صواريخ فروج أرض ـ أرض) على المستعمرات الاسرائيلية فى سهل الحولة والجليل ومرج ابن عامر. وقد اضطر العدو الى إخلاء الكثير من هذه المستعمرات وتهجير سكانها ـ وبعض هذه المستعمرات يقع على بعد ٢٣ ميلا من اقرب نقطة سورية من خط وقف اطلاق النار السابق ، كما اعلنت اسرائيل فى شكاواها العديدة ، والمخادعة ، للأمم المتحدة، بل والى «مسافة ٥٠ ميلا فى عمق اسرائيل» كما كتب تشرشل الحفيد.

مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد

منذ اليوم الخامس او السادس تبدأ مرحلة جديدة فى المعركة. فقد حشد العدو كل احتياطيه الاستراتيجى من المدرعات تعززها قواته الجوية، وقذف بها فى هجوم مضاد محموم ألقى فيه بكل ثقله وحقده معا، بأمل ان يفرغ من الجبهة السورية ليتفرغ للجبهة المصرية التى زاد حرجه فيها إلى اقصى حد، وقد حقق العدو بعض النجاح بالفعل ، والمهم احيانا على المحاور الثلاثة ، واضطرت القوات العربية للاسف الى التراجع الى الشرق.

والثابت ان التقدم السورى فى المرحلة السابقة كان أسرع وأعمق من المرسوم بحيث ابتعد كثيرا عن نطاق حماية شبكة صواريخه الجوية من ناحية وبحيث لم يتسع له الوقت ليحصن مواقعه الجديدة من ناحية اخرى.

وقد ركز العدو الاسرائيلى على المحورين الشمالى والاوسط بصفة خاصة لأنهما اقرب الى تهديد دمشق نفسها كما يرتكز الاول منهما على جبل الشيخ ، أما المحور الجنوبى فطويل وبعيد عن طريق دمشق كما يعرض العدو لهجوم مضاد شامل من مرتفعات حوران .. وحين وجد العدو انه قد حقق نجاحا كبيرا فى القطاع الشمالى، قرر أن يستثمر نصره الى اقصى حد.

فحشد كل قواته المتاحة على محور القنيطرة ـ سعسع، الذى يقع على الطريق إلى دمشق ، لكى يقوم بهجوم شامل وساحق.

ورغم أنه واصل تقدمه وتجاوز خطوط وقف اطلاق النار فى قطاعها الشمالى ووصل قرب سعسع، إلا ان العدو كان قد لجأ إلى الحرب النفسية يؤمن بها هجومه، فأطلق

على العالم سيلا من الدعاية الكاذبة عن تقدم وهمى إلى دمشق، وصدرت تصريحات قادته بأنهم فى الطريق اليها، على بعد اميال منها حدودها اولا بأول ، وأنهم سيدخلونها فى ٢٤ ساعة.. الخ... وبطبيعة الحال لم يتحقق شىء من هذا ولا الفيحاء سقطت.

وانكشفت اكذوبة الدعاية الاسرائيلية للعالم الذى عدها دعابة سخيفة وكانت موضعا لتندره.

ذلك أن القوات السورية، التى وصلت القوات العراقية ثم الاردنية لمساندتها ، قد صمدت بكل عناد وبسالة للهجوم المعادى وتصدت له بإصرار مخيف، وقد لعبت مشاة الصواريخ فى هذا الصمود دورا كبيرا، إذ كانت تتقدم ليلا وتقترب من دبابات العدو ومدرعاته وتدمرها بالجملة، كذلك أدت القوات المدرعة السورية مع العراقية دورا خطيرا فى تكسير الزحف وايقافه ثم ارغامه على التراجع، بحيث توقفت قوة العدو عن الحركة تماما فى يوم ١٤ أكتوبر. وكان هذا هو الموقف الذى وصفه كيسينجر بأنه «عائم».

مرحلة المد السورى الثانى

ومن هذه النقطة بدأت مرحلة جديدة فى المعركة، فمنذ اليوم الثامن واصلت القوات السورية التقدم جنوبا فى القطاع الشمالى فى وجه هجوم مضاد جديد للعدو، واستمر الصدام سجالا ثلاثة أيام ، حين أعلن الرئيس السورى فى اليوم العاشر ان القوات السورية تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض المحتلة فى القطاعين الأوسط والجنوبى، فى حين ان مدفعيتها «تقصف الآن مواقع العدو فى سهل الحولة وشمال طبرية» ، ولعل هذه النقطة تحدد ذروة النصر والتقدم السورى.

وفى هذه الجولة دارت معركة من أكبر معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، اشترك فيها من الجانبين نحو ٢٠٠٠ دبابة، تغطيها سحابة كثيفة من الطيران وعلى مدى بضعة ايام اتصلت المعركة التى تكبد العدو فيها خسائر فادحة على الأرض وفى الجو.. وعاد الزحف السورى من جديد نحو الجنوب وبدأ التقدم فوق اجزاء من الأرض المحررة للمرة الثانية بعد أن تم طرد العدو منها للمرة الثانية ايضا. فعلى محور القنيطرة ـ سعسع تم دفع العدو الى منتصف المسافة بين سعسع وخطوط ١٩٦٧. وفى اقصى الشرق تم

طرد العدو من تل الفرس ومنطقة القنيطرة ثم من هامش كبير من القطاع الجنوبي. وبذلك تمت دورة شبه كاملة نوعا من المد والجزر ثم المد على جزء كبير من الهضبة انتهت الى حد ما لصالح سوريا.

المرحلة الاخيرة

ومنذ اليوم الحادي عشر من القتال، وتماما كما على الجبهة المصرية، تبدأ مرحلة جديدة واخيرة، افتتحها العدو بهجوم مضاد شرس وعنيف ، شنت سوريا في وجهه هجوما عريضا وعنيدا حشدت له، كما أعلنت اسرائيل نفسها، «دبابات اكثر من الدبابات التي استخدمتها ألمانيا ضد الروسيا في الحرب الثانية»، وقد استمرت هذه المعركة بلا هوادة لعدة أيام متصلة، حقق فيها العدو بعض التقدم شمالا، لكنه تكبد خسائر فاحشة في قواته وعتاده . وقد استطاع العدو، على محورين للتقدم شرق الجولان وغربها، أن يحقق «ثغرة» في خطوط القوات السورية كتلك التي أحدثها غرب القناة على الجبهة المصرية ـ ومنذ اليوم الخامس عشر والسادس عشر كان القتال مستميتا حول جبل الشيخ مرة اخرى في الشمال، وبهذا كانت هضبة الجولان، كلها او بعضها ، قد تم اكتساحها وتبادلها أو استردادها مرتين من كلا الجانبين خلال المعركة، أي خضعت لعملية مد وجزر مزدوجة.

غير ان الموقف العام بعد هذا تجمد نوعا واتخذ القتال صفة محلية وتكتيكية غالبا، بهدف تحسين المواقع المحلية أو القيام بهجمات محدودة أو الرد عليها ردا محدودا. ورغم استمرار المساجلات بالمدفعية والصواريخ فقد تحول القتال الى حرب استنزاف برية وجوية يتبادل فيها الجانبان الضربات المحدودة على التعاقب، وكان من الواضح ان الجانبين قد بلغا حد الارهـــاق والاعيــاء، وايضا حد التوازن ، فدخلا في دور من «تناطح الكباش» كما وصفته «الشرارة» (دار الصياد، بيروت).

وخلف هذا المسرح، كانت القوات العربية تعد لهجوم كبير حاسم، ولكن قرار وقف اطلاق النار كان اسبق، وهنا، كما على الجبهة المصرية، كان اثر الامداد الامريكي الخاطف قد بدأ يظهر على تطورات المعركة، وتحول المد لصالح العدو بصفة عامة وان كانت خسائره في تصاعد جنوني.

وكما على الجبهة المصرية ايضا، استغل العدو بخسة فرصة وقف اطلاق النار ليوسع رقعة الأرض التى يحتلها. فدفع بكل قواته ليختلس أكبر نصر ممكن فى أخر لحظة متاحة، والمفهوم انه فى نهاية القتال تماما كان قد استعاد منطقة الجولان ووصل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت قبل ٦ أكتوبر ثم تجاوزها بنحو ١٠ كم على امتداد القطاع الشمالى، مثلما فعل على الجبهة المصرية غرب قناة السويس، وكما على الجبهة المصرية، فقد كانت سوريا تخطط لهجوم ساحق وشامل تكسح به العدو نهائيا حين أتى قرار وقف اطلاق النار ليترك الموقف على هذه الصورة، وإذا كانت عملية الفصل بين القوات فى الجولان لم تتحقق حتى الآن وتبدو صعبة شاقة بسبب أطماع العدو، فقد فرضت سوريا عليه حرب استنزاف ضارية بكل الاسلحة الثقيلة سوف يكون لها ما بعدها بلا ريب.

على أننا ينبغى ان نلاحظ ان العدو اذا كان قد نجح فى تجاوز خطوط ١٩٦٧ وتوسع فى جيب محدود جديد عبرها، فإن السوريين ايضا وفى الجانب المقابل جغرافيا قد نجحوا فى التوسع جنوبا غربا ووصلوا الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ مع العدو ثم تجاوزوها وتعمقوا فى اطراف أرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ (حيث سبح الجنود السوريون بالفعل فى مياه طبرية).

والفارق ان التوسع السورى للاسف لم يتح له ان يستمر ويبقى، على العكس من التوسع العدو، الذى على أية حال لم يلبث ان انحسر خاسئا وهو حسير مع إتمام الفصل بين القوات .

خصائص معركة الجبهتين

عند هذا الحد من الدراسة يتعين علينا ان نتوقف لنلخص التقييم العام الشامل للمعركة بجبهتيها فى خريطة بيانية او صورة لفظية محددة كما هى مركزة، فماذا نجد؟ هناك خطوط وملامح او انتهاءات اساسية ستة يمكن التعرف عليها والتوصل اليها بدقة، كما تكاد تتكرر بحذافيرها على الجبهتين السورية والمصرية، الامر الذى يشير إلى وحدة المعركة بينهما ايقاعا ونبضا، توقيتا وتعاصرا، ضوابط وضواغط ، أقدارا ومصيرا.

أولا : من أوضح ، ولعلها ابرز، ملامح المعركة ان اول بدايتها بالدقة هى قمتها المطلقة، بينما على العكس كانت نهايتها هى قاعها، وما بين البداية والنهاية كان الخط البيانى اميل الى النزول الخفيف منه الى الاستواء الافقى او افق الاستواء.

فلقـد بدأنا بانتصار انفجارى داو حقا هو ملحمة العبور وخلع الخط ، أو ملحمة الساعات الست الخالدة . وبعدها كانت معركة رأس الجسر والقاعدة الارضية قمة اخرى، ولكن ـ لعلنا لن نختلف ـ اقل قامة وارتفاعا.

ثم جاءت معركة الدبابات الكبرى قمة اخرى ولكنها فى اتجاه المنحنى نفسه عموما او تقريبا، الى ان سجلت عملية الاختراق انحدارا ملحوظا، فكانت قاع المنحنى كما كانت نهايته.

هذا على الجبهة المصرية ، ولكن ايضا بالمثل على الجبهة السورية : زحف كاسح رائع اولا : ثم ارتدادة محدودة ، فمد مشجع وبارع من جديد، ثم اخيرا تراجع بطىء ولكنه صامد فى النهاية.

ثانيا: على هذا الاساس ينقسم منحنى المعركة ككل، وفى الجبهتين على السواء، الى قسمين وربما بالتحديد الى نصفين، متمايزين، فمن بين ايام القتال العشرين ، كانت الايام العشرة الأولى انتصارا مصريا وسوريا مطلقا وأحيانا ساحقا، ولا مبالغة فى هذا، كما لا شك . أما الأيام العشرة الاخيرة فإنها النصف المحايد، فهى اقرب على الجملة الى التعادل ، من هنا فإذا كانت المعركة برمتها هى «العصر البطولى » heroic age » فـى تاريخ العرب الحديث ، فإن نصفها الاول هو بدوره العصر البطولى فى ملحمة المعركة نفسها عموما.

ثالثا: ذلك التصنيف او التنصيف انما يرجع الى حقيقة واحدة ووحيدة تعد وحدها من أخص، كما هى من أخس، خصائص حرب أكتوبر: لقد حارب العدو معركتين اثنتين لا معركة واحدة فى هذه الحرب، «معركتين توأمتين» الا انهما مختلفتان جذريا فى النتائج والمصائر، قل فى النوع او الجنس. ولا يعبر عن ثنائية معركة العدو هذه تعبيرا مباشرا وسافرا كما تعبر ثنائية المد والجزر التى شهدتها الجبهة السورية بصورة محددة جدا ودالة الى أبعد حد. كما يرمز اليها ويلخصها تبادل العبور إلى ضفتى القناة بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء.

والواقع أن المد والجزر الميدانى الذى حدث اثناء المعركة، إذا نظرنا اليها من بدايتها إلى نهايتها، يمكن ان نصفه فى حالة الجبهة المصرية بأنه مد وجزر «أفقى» توسع ثم انكمش فيه كلا الطرفين المتحاربين يمينا ويسارا مرة واحدة على مستوى واحد.

أما فى سوريا فقد كان المد والجـــزر مزدوجـا، ومن ثم كان «رأسيا» تمدد فيه ثم تقلص كل من الطرفين مرتين «طباقيا» فوق الآخر وتحته.

أما كيف حارب العدو معركتين لا معركة واحدة، فأمر بالغ الوضوح، فى الأيام العشرة الاولى حاربت اسرائيل معركة مهزومة بصفة مؤكدة، كانت القوة الاسرائيلية فيها على وشك ان تتحطم وتنهار نهائيا وكانت ذخيرتها تنفد إلا من رصيد أيام معدودات، حين بدأت المعركة الثانية من نقطة الصفر تقريبا فأنقذتها من هزيمة كاملة محققة.

أما هذه المعركة الثانية التى استمرت ايضا عشرة أيام فهى معركة امريكية اكثر منها اسرائيلية، معركة التدخل الامريكى شبه المباشر الذى نقل اليها وفى الميدان شلالا من الاسلحة الحديثة البالغة التطور فاق ما كان لدى اسرائيل قبل الحرب كما وكيفا، فكان الموقف اشبه بعملية «نقل دم» كاملة إلى جريح طريح الميدان على وشك ان يلفظ انفاســـه الاخيرة فمنحته «سـلفة» جـديـدة من الحياة a new lease of life وكان الوضع كما لو ان اسرائيل قد بدأت معركة جديدة لأول مرة كأنها لم تحارب على التو معركة سابقة وهزمت فيها هزيمة ساحقة.

وقد عبر الاستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه الثنائية نفسها تعبيرا ثاقبا وسديدا ولكن بطريقة اخرى تضغط على العلاقة بين الابعاد الدولية والمحلية للمعركة، فهو أيضا يقسم أيام الحرب العشرين الى قسمين متساويين بالضبط، المرحلة الأولى «كانت الحرب فيها بين العرب وإسرائيل مباشرة وبقوة كل منهما بمفرده.. والحركة فيها هى حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية .. وفى هذه المرحلة بالتحديد تركزت معظم خسائر اسرائيل فى الحرب كلها، حيث فقدت نصف قوتها المدرعة وثلث قوتها الجوية ، لقد «هزمناها.. ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط».

المرحلة الثانية «تداخلت فيها تأثيرات التوازن الدولى مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.. ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، ولا مباشرة.. ولا بقوة كل منهما بمفرده، ان ساحة الصراع تغيرت، لم يعد هناك طرفان فيه ولكن اربعة.. لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية.. وأصبح الصراع دائراً على مستويين ، صدام اقليمى بالسلاح فى الشرق الاوسط، واحتمال صدام عالمى عند القمة بين القوتين

الاعظم». ونتيجـة لهــذا التغير فإن القيادة الاسرائيلية «تمكنت من استعادة توازنـها ، وعادت الى السيطرة على ادوات قــوتها، خصوصا بإتمــام حالة التعبئة العامة الى حدودها القصوى.. وراح ذلك يظهر فى ميدان القتال» ، كما لابد ان نعترف حتى لا نخدع انفسنا.

رابعا: ثنائية المعركة هذه هى التى تفسر ادعاء اسرائيل بتعادلها او انتصـارها المزعوم فى الحرب، فهى تريد ان تصور نتيجة معركتها الاولى المهزومة مكافئا موضوعيا ومعادلا استراتيجيا للمعركة الثانية الاقرب الى التعادل.. وهذه مغالطة فجة تناقض ابسط بديهيات المنطق والواقع.

وواقع الامر ببساطة هو ان اسرائيل حاولت ان تجعل من الحرب الرابعة فى اكتوبر نسخة مكررة من الحرب الثالثة فى يونيو، فلما فشلت حاولت ان تجعل من المعركة الثانية من حرب اكتوبر نفسها نسخـة مقلوبة من المعركة الاولى منهـا، فلما فشلت فى ذلك عسكريا حاولت دعائيا، فلما فشلت حاولت وتحاول الآن سياسيا.

خامسا : إذا كانت اسرائيل قد حاربت او مكن لها من ان تحارب معركتين وتخرج بالتالى بنصف هزيمة، فإن سوريا ومصر على العكس قد حاربتا نصف حرب فى معركة واحدة كاملة خرجتا منها بنصف انتصار.. ولا يغير من هذا او يتعارض معه بطبيعة الحال ان مدة القتال هى واحدة بالنسبة لكل الاطراف المتحاربة، وانما المقصود التطورات الاساسية التى طرأت داخل المعركة.

وإذا كانت اسرائيل تدعي لإخفاء هزيمتها أنها حرمت عاليا من ان تحقق انتصارا ممكنا، فـإن العكس تماما هو الصـحيح ، فـإنما مـصـر وسوريا، بسبب التـوازنات والحسابات الدولية وبسبب تدخل امريكا شبه المباشر والقوات الاسرائيلية تكاد تحتضر، مصر وسوريا همـا الطرف الذى حرم من استكمـال نصره الواقع بالفعل الى منتهاه وقمته، فاختزلت الحرب بالنسبة اليهما من حرب كاملة الى نصف حرب والنصر الكامل الى نصف نصر.

سادسا : واخيرا.. وفى التحليل النهائى، وبأى حسابات وعلى اى مقاييس، ورغم كل ادعاءات العدو، خرجت مصر وسوريا وهى المنتصرة واسرائيل المنهزمة فى الحرب

الرابعة، صحيح لقد كان من الممكن لهذا النصر وتلك الهزيمة ان يكونا اكبر واكمل لولا ان المعركة اوقفت قبل الأوان ولم تستمر الى مداها ومنتهاها الطبيعى فجاءت الحرب، «منقوصة» ـ أو «مقصورة» ان شئت ـ وذلك بفعل العوامل الخارجية والتدخل الاجنبى.

ولئن كان العدو يزعم انه لم ينهزم وانما انتصر، بل وحقق انتصارا اكبر من انتصاره الساحق فى ١٩٦٧، فهذا لم يخدع أحدا، حتى هو نفسه.

ولكن هذا يحتاج الى مناقشة أكثر تفصيلا، ولهذا فليكن سؤالنا الختامى هو: لمن النصر؟

الفصل الخامس

النصـــــر لمــــن ؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا، مثلما هو مؤسف عربيا، وقد يبدو متطفلا وطفيليا غير مشروع اكثر مما فيه من فضول مشروع، ولكن لا حيلة لنا فيه، ولا مفر لكاتب من التعرض له بعد ان حاولت الدعاية الاسرائيلية المحترفة ان تطمس معالم الحقيقة وان تقلب حقيقة الموقف، ولنا على أية حال ان نتذكر ان العدو، هو الآخر، يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

ولا يقل اهمية عن هذا أن البعض منا يتساءل ايضا، يتشكك او يشكك فى حقيقة انتصارنا، بل يذهب الى ان من «الغفلة» ان نعتبر معركة اكتوبر انتصارا لنا، وان حرب اكتوبر ليست «حرب تحرير» بقدر ما هى «حرب تحريك» كما وضعوها فى صيغة من السجع السياسى الأثير والمأثور.

ولن نذكر هنا بطبيعة الحال ذلك الرأى الذى يقول بخطأ الحرب كلها، قرار البدء بها، ثم توقفها او ايقافها واخيرا قبول المحادثات السياسية.

وعندنا ان الاجابة عن هذا السؤال، مهما كانت اكاذيب العدو او «غفلة» البعض منا، ينبغى ان تكون موضوعية بحت، نقول ما لنا وما علينا ونضع الحقيقة فى حجمها الطبيعى، واثقين من قبل ومن بعد بأن الحق والحقيقة معنا دائما واكثر من اى وقت مضى، ان الموقف الميدانى لم يكن قط غامضا او ضبابيا أو متميعا بحيث يسمح فى تقييمه بوجهات النظر المختلفة فضــلا عن التأويلات الشخصية او التحيزات الخــاصة والتفــسيرات الملتــوية، ودعك تماما من قلب الحقيقة رأسا على عقب كما يفعل العــدو الحقود ومن ضللتهم دعايته من بيننا.

موقف العدو

ولنبدأ بالعدو، واقع الامر ان العدو بعد ان خسر المعركة العسكرية وقبل ان تبدأ المعركة السياسية، فقد أدار معركة دعائية داوية على مستوى العالم فى هستيريا

محمومة مكابرة ومريبة ليشوه بل ليسرق بها انتصارنا وليزيف لنفسه انتصارا موهوما منتحلا، وخلاصة هذه الحملة الدعائية هى أن العدو لم يهزم والعرب لم تنتصر، بل واكثر من هذا ان العرب هى التى هزمت (كذا!)، بل والاكثر منه ان اسرائيل قد سجلت نصرا عسكريا اكبر وأعظم من انتصارها الساحق فى ١٩٦٧، وأن العرب - بالمقابل - تلقوا هزيمة عسكرية اكبر وافدح من هزيمتهم فى ١٩٦٧ (كذا!).

واخيرا وليس آخرا ذهبت اسرائيل الى حد القول بأنها لولا التدخل الدولى لوقف اطلاق النار لدمرت الجيوش العربية ولحققت انتصارا اكبر مما حققته بالفعل، وقد عبر حاييم هيرتزوج عن هذا فى مؤتمر صحفى يوم ٢٧ اكتوبر بزعمه ان «العالم لم يكن يريد لاسرائيل ان تنتصر. وقد اظهر نحوها فى اللحظات الحرجة عداء غريبا لا نستطيع تفسيره الا بأنه نزعة من نزعات معاداة الساميـــة» (!) . أما دايان فبعد ان اعترف بأن الجيش الاسرائيلى قد «عجز عن تدمير الجيـــوش العربية كما وعد». اضاف مستدركا «نتيجة لاسباب سياسية».

ذلك باختصار موقف العدو الدعائى فى تقييم الحرب، اما اساس هذه النتائج او الاستنتاجات المثيرة، المثيرة للدهشة بعد السخرية، فهو انه إذا كانت مصر قد عبرت القناة الى سيناء فقد عبر هو القناة الى الضفة الغربية، حيث اصبحت قواته تحارب - كما اعلن وقتئذ - «فى افريقيا» (!)، وإذا كانت مصر قد استردت قطاعا على الضفة الشرقية فقد توسع هو ايضا فى قطاع مناظر على الضفة الغربية، واخيرا فإن سوريا ومصر وان احرزتا انتصارات ميدانية لا سبيل الى انكارها، فإن العدو بالمقابل سجل مكاسب اقليمية وســـعت منطقة احتلاله السابق بنحو ١٠ كم سواء على الجبهة الـــسورية او المصرية، لتمتد بذلك «من سعسع الى الادبية» بعد ان كانت تمتد « من القنطرة إلى القنيطرة» فقط (!).

وإذا كان هذا هو موقف العدو الاسرائيلى المتطرف نفسه، وبخاصة مؤسسته العسكرية المتحكمة، فإن حلفاءه الامريكيين - اكثر تواضعا - ينتهون إلى انتهاء اقل تطرفا واعوجاجا ولكنه اكثر خبثا ربما، فالدوائر العسكرية فى واشنطن انتهت فى تقييمها للمعركة - هكذا حملت وكالات الانباء - الى انه ليس هناك منتصر ولا مهزوم، وأن الجولة انتهت بالتعادل بين الطرفين، هذا بينما تميل اغلب الدوائر المحايدة فى الخارج الى

القول بأن العرب على الجملة قد حققوا «نصرا محـــدودا» ، قدره احدهم - بصيغة اسهم الشركات ؟ - بنسبة ٥١٪ للعرب ، ٤٩٪ لاسرائيل (!). . ولكن هذه النسبة - سنرى - ينبغى ان تعدل. وقد يكـــون من المبـــالغة ان نقـــول ٧٥٪ ضد ٢٥٪، ولعل المقبول شيء وسط بين الطـــرفين ، اذا كان ولابد من مثل هذه الصياغة.

وقبل ان نعود الى حقائق الميدان والى ملف المعركة نفسها، فإن لنا يقينا ان نتساءل او بالأصح ان نسـأل العدو: فمـاذا اذن هذا الذى يجرى داخل البيت - الجيتو اسرائيل ؟ كيف ولماذا تحول الى مأتم قومى حار، ومبكى وطنى على مقياس دولة ثم الى مستشفى امراض عصبية (أعلنت اسرائيل ان نسبة الامراض النفسية قد زادت ١٠٪ بعد الحرب!).

ان الخبر اليومى، ام لم نقل الخبز اليومى، الذى يخرج من اسرائيل منذ المعركة انما يصنع مادته الاساسية الحزن العميق والقلق والاكتئاب والخوف من الغد والاحساس العام بالضياع والاحباط وان المستقبل غير مضمون او مؤكد او موثوق به . ثم ما هذا الصراع وهذه الاتهامات الكاسحة المتبادلة بين قادة اسرائيل العسكريين - «حرب الجنرالات» - تلك الآلهة التى هوت والاصنام التى تحطمت ؟ وهذا التحقيق الرسمى الذى تديره الحكومة فى اسباب وملابسات «الكارثة» الوطنية التى اصابت «جيش الدفاع» و «الدولة اليهودية» ؟ ثم سقوط تلك الحكومة نفسها ؟ وو.. الخ؟

لقد اعترف كل قادة وزعماء اسرائيل انها اصيبت «بكارثة» مروعة - هذا تعبيرهم - فى ٦ اكتوبر، وتحدثوا علنا عن «اخطاء حرب اكتوبر القاتلة». بينما اعترف ابا ايبان صراحة «بفشل اسرائيل فى سيناء» . فكيف يتفق هذا مع ادعائهم الانتصار؟ لقد قال رئيس المنظمة اليهودية فى ستراسبورج بعد المعركة بلا مواربة «ان الجولة الرابعة قد اسفرت عن كارثة كاملة بالنسبة لاسرائيل.. فنتائج المعارك والانعكاسات التى بدأت تظهر عنها فى اسرائيل تؤكد اهمية الانتصارات التى حققتها القوات العربية فى المعركة، تلك الانتصارات التى أنهت الشعور بالتفوق الاسرائيلى وجيشها الذى لا يقهر، وأكدت كفاءة المقاتل العربى وتصميمه وفاعلية السلاح الذى فى يده». ولئن كان القادة الاسرائيليون، كما يقول كاتب يهودى آخر هو فيكتور سيجلمان، «يدعون ان اسرائيل قد انتصرت فى الحرب، فـان الاسرائيليين انفسهم لا يشعرون بأنهم انتصروا على

الاطلاق». وفى المعنى نفسه كتبت مجلة تايم بعد ٥ شهور من انتهاء الحرب، كتبت تقول «ان معظم الاسرائيليين يشعرون الآن أنهم خسروا الحرب العسكرية فى اكتوبر الماضى، وأنهم يخسرون الحرب السياسية».

لماذا اذن - دعنا نحن نسأل انفسنا هذه المرة - تذهب اسرائيل إلى هذا المدى المخل والمخجل من التناقض الفاضح بين دموعهم فى الداخل ودعايتهم فى الخارج؟ كيف يحدث ان يتباكى متحدثو العدو وقادته على ان العالم لأمر ما «حرم» اسرائيل من تحقيق نصر، وفى الوقت نفسه يزعمون انهم قد سجلوا نصرا؟ هذه النكسة المقبضة والخسائر الفادحة، كيف تتفق عقلا ومنطقا مع تلك الدعوى الفاحشة.. دعوى النصر أو حتى اللاهزيمة؟

ثمة اسباب ثلاثة اساسية وراء هذه الاكذوبة الشاحبة، تستميت اسرائيل من اجلها، وثلاثتها - سيلاحظ - تؤلف حربا نفسية بعيدة المدى متعددة الابعاد.

أولها: ولعله اقلها اهمية رغم خطره البالغ، تمهيد اسرائيل للمعركة السياسية المصيرية التى ستترجم المعركة العسكرية الى مكاسب او خسائر اقليمية والى تسوية ارضية . فما دام لا غالب ولا مغلوب ، فلا مجال ولا محل لتنازلات سياسية او انسحاب من أراض محتلة. مادام لم يحدث تغيير فى التوازن العسكرى، فلا مبرر لتغيير فى «الحالة الراهنة status quo» اقليميا. تلك هى اللعبة، ولقد بدأتها اسرائيل من قبل بالفعل. ففى وجه المقترحات المصرية فى محادثات الكيلو ١٠١ ثم فى مؤتمر جنيف بانسحاب العدو من طرف واحد، رد بأن هذا «لايعكس حقيقة الموقف فى المعركة» (كذا)، واقترح بالمقابل ان ينسحب من الضفة الغربية للقناة، مقابل ان تنسحب مصر من ضفتها الشرقية فى غرب سيناء.

صفقة صفيقة كما هى سفيهة، وعليها كانت تراهن حتى قريب لكى لا تنسحب الى خطوط وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

أما السبب الثانى العاجل والملح لادعاء العدو بالنصر فهو اعلان الحرب النفسية المباشرة على الروح المعنوية العربية والمصرية، على الوحدة الوطنية داخل كل بلد عربى، وخاصة سوريا، وبالأخص مصر، ثم على الوحدة القومية بين العرب جميعا، وواضح تماما منطق وهدف وأسلوب العدو فى هذه الزاوية . فما دام العرب قد هزموا مرة

ثانية، بل رابعة، بعد كل ما حدث، فما هو الامل، وما جدوى قياداتهم وانظمتهم التى توفر لهم الهزيمة بانتظام؟ محاولة دق الاسفين بين الجماهير والقيادات وبين الشعوب والنظم واضحة، والهدف هو احداث بلبلة وتساؤلات ثم انفجار عربى من الداخل يمزق الوحدة الوطنية والقومية ويقدم العرب فريسة سائغة للعدو وأطماعه التوسعية والاستعمارية التقليدية.

السبب الثالث والاخير هو من وجهة نظر العدو أشد خطرا على المدى البعيد لأنه يلقى بظلاله وانعكاساته على صميم الوجود والكيان الاسرائيلى ذاته، ذلك نقصد انقاذ فكرة الامن الاسرائيلى وهيبة القوة الاسرائيلية وصورة اسرائيل فى العالم، فاسرائيل التى بنت وجودها كله على مبدأ القوة الرادعة الساحقة، واسطورة التفوق العسكرى المطلق لا يمكن ان تسمح لنفسها او ان يسمح لها بأن تهزم، ومن ثم لا يمكن ان تعترف بهزيمة، ان مثل هذا الاعتراف لمرة واحدة كفيل بأن يهدد وجودها الى الابد، وعليها الآن من هذا المنطق وبعد ان هزمت بالفعل ان ترفض الإقرار بالهزيمة وان تقاومه بكل ضراوة حفاظا على روحها المعنــوية المتــداعية من الانهيــار الكلى، وذلك بأمــل ان تصحح الموقف بنصــر غــادر تختلسه فى اقرب فرصة متاحة مستقبلا.

وسنجد بالفعل انه شرط اساسى ومنطقى جدا لموقف اسرائيل الراهن، من انكار الهزيمة وادعاء النصر المزور، ان تباغت يوما ما بالهجوم ، انها لا يمكن ان تخدع نفسها حقيقة، وانما هى تخادعنا نحن ، على نية مبيتة ومحتومة بتحويل هزيمتها الى نصر قريب يجبها ويمحوها من سجل حياتها.

وهذا انتهاء بديهى كما هو جوهرى بالنسبة للعرب، وعلينا ان نعيه جيدا لانه مؤشر مؤكد نحو سلوك العدو المستقبلى. غير ان هذا موضوع آخر سنعود اليه بتفصيل فى موضعه.

حساب الخسائر والارباح

أما الآن، فلنستعرض كشف حساب المعركة وصولا الى تقييم موضوعى متزن لنتيجتها، بعيدا عن دعاية العدو وادعاءاته وعن التحيز الشوفينى او المزايدة والمناقصة، وهناك اساسان ممكنان للحساب : خسائر الجانبين فى السلاح والرجال، وخسائر او مكاسب الجانبين فى الأرض.

فإذا بدأنا بالاولى، فإن تقديرات الخسائر تختلف بحسب مصادرها، ولكن المتوسطات المقبولة فى اغلب الدوائر المحايدة والمعتدلة تدور على النحو الآتى :

خسائر العدو فى القوة البشرية عشرة آلاف قتيل ـ هذا تقدير فرنسى وامريكى يشمل الجبهتين السورية والمصرية. وهناك تقدير رويتر، ٨٠٠٠ قتيل.

وهذا على اقل تقدير يفوق كثيرا مجموع خسائر العدو، كما اعلنها هو نفسه، منذ ١٩٤٨ وحتى ما قبل اكتوبر، والتى تبلغ ٦٠٠٠ قتيل، وإذا كان دايان قد «اعترف» بأن خسائرهم فى اكتوبر ثلاثة امثال ما خسروه فى ١٩٦٧ (وهى فى تقديرهم المعلن ٧٥٩ فردا) فهذا تضليل سافر وكاذب، لأن الارقام التى اعلنتها اسرائيل بنفسها تفوق هذه الحسبة بكثير، ولقد صرح احد كبار الاساقفة الامريكيين بعد زيارة للقدس بأنه علم ان عدد القتلى الاسرائيليين فى اكتوبر يبلغ فى الحقيقة ٣ أو ٤ أمثال الارقام الرسمية المعلنة، وعلى اية حال، فإذا نحن اضفنا الى قائمة القتلى هذه عدد الجرحى الاسرائيليين الذى يقدر بنحو ٢٠ ألفا، لأدركنا بسهولة صحة القول الدارج من ان فى كل بيت بإسرائيل اليوم تقريبا قتيلا او جريحا او اسيرا أو مفقودا على الأقل، أو كما كتب ليڤى هيروشليمى فى معاريف ، «لا يوجد حى او شارع او كيبوتز دون عائلات مصابة».

أما بحساب القتلى وحدهم، فلقد قدر انه يعادل بالنسبة لعدد السكان فقدان الولايات المتحدة مثلا لثلثى الى ثلاثة اربا ع المليون، او مرتين ونصف المرة الى ثلاثة اضعاف خسائر الولايات المتحدة فى فيتنام على مدى ١٠ سنوات ، كما ان هذا يعنى ايضا ان نسبة القتلى الى عدد السكان هى ١ : ٣٠٠ ، اى ٠٫٣٪ (١٠٫٠٠٠/٣٫٠٠٠٫٠٠٠) .. أما إذا قارنا بخسائر مصر فى ١٩٦٧ ، التى تعد حالة شاذة جدا، والتى تقدر بصفة غير رسمية بنحو ٢٠ الفا ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل النصف، غير اننا اذا عدنا فنسبنا الى عدد السكان (٣ ملايين ضد ٣٦ مليونا) ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل كما لو ان مصر فقدت ١٣٠ ألفا، اى ستة امثال خسارة مصر فى يونيو.

هذا فى القوة البشرية. اما فى السلاح فان تقدير خسائر العدو يدور بالتقريب حول ١٠٠٠ دبابة، وبضع مئات من الطائرات، البعض يقول ٢٠٠، والبعض يصل بها نحو ٣٠٠

طائرة، وآخرون إلى اكثر والمقول ان هذا يعنى ان العدو فقد نصف سلاحه عامة ، وفى تقدير آخر نصف قوته المدرعة وثلث قوته الجوية ، وفى تقدير ثالث ثلاثة ارباع سلاحه الجوى بالذات. وفى هذه الخسائر الرهيبة قال الصحفى الامريكى أرنو دى بورجريف «ان ما شهدته على جبهة السويس لم أشهده فى ١٢ حربا».

أما خسائرنا نحن فى السلاح فهى على ضخامتها اقل بكثير وباجماع الكل من خسائر العدو، على الاقل باعتبار كل من الدولتين العربيتين على حده وهى فى الرجال اقل مما فقدناه فى حرب يونيو . فأما فى السلاح، فكما وضعها المتحدث العسكرى المصرى فى منتصف ايام القتال تقريبا فإن خسائره. ولما كانت خسائر إسرائيل كما اعلنها المتحدث المصرى فى المناسبة نفسها هى نحو ٣٠٠ طائرة، ٥٠٠ دبابة، فيمكن ان نستنتج من هذا وذاك ان خسائرنا كانت ٦٠ طائرة، ١٧٠ دبابة، غير ان هذه الأرقام ، حتى مع حفظ النسب المعطاة، لابد ان تعدل كثيرا ـ بالزيادة ـ بعد ان تضاعفت خسائر العدو تقريبا بنهاية القتال.

أما خسائرنا فى الرجال فلم تعلن رسميا، ولكن مجلة «تايم الامريكية» تضعها فى حدود ٣٠٠٠ فرد، وتقول : إن هذا يعنى بحسب نسبة السكان ان خسائر اسرائيل ١٠ أمثال خسائر مصر. وهناك بعض مصادر اجنبية تعطى أرقاما اكبر بكثير ، ولكن هذه لا عبرة بها ولا اعتبار لها، فحتى ها أرتس قد اعترفت بأنه «حتى بالنسبة للاصابات فى الجنود المصريين ، فان التقديرات تشير إلى أنها نسبة لا تكاد تذكر مقارنة باجمالى عدد الجيش . فهى اقل وبكثير من ١٪». ذلك كله رغم ان المفروض نظريا وعمليا ان خسائر المهاجم ترجح دائما وبالضرورة خسائر المدافع، وهى فى حالتنا طفيفة بدرجة نادرة بالنسبة لما حققناه من انتصار وانجاز.

أما على الجانب السورى، فليس لدينا تقديرات متاحة، لكن خسائر العدو على تلك الجبهة لا تقل عن عدة مئات من الدبابات وبضع مئات من الطائرات، إلى جانب رقم كبير من القتلى قد يزيد ايضا عن خسائر السوريين زيادة كبيرة للغاية، أما على الجانب العربى على الجملة فقد ورد فى حديث للمناضل ياسر عرفات ان مجموع شهدائنا على الجبهتين ٩٠٠٠، منهم اقل قليلا من الألف من الفدائيين الفلسطينيين ، بالاضافة الى ٢٠٠٠ دبابة.

وإذا كان لهذا كله من معنـــى فهو ان الجيش المصرى وكذا السورى خرج كلاهما من المعركة وهيكله الاساسى سليم تماما وقادر على العودة الى القتال بكامل قوته، بينما ان الجيش الاسرائيلى قد خرج بالفعل مـدحورا محطما، لولا المساعدات الامريكية الخرافية والجزافية لكان غير صالح للقتال من جديد قبل سنين.

الأرض

يبقى الآن كشف حساب الأرض، الورقة التى ظنها العدو رابحةٍ وبها كان يلعب لعبته الدعائية المكنوية ومناورته السياسية المكشوفة، والنقطة التى لا نظنها جدلية بقدر ما تحتاج الى التصحيح إن فشل التوضيح.

بحسب ما اعلنه المتحدث العسكرى المصرى عشية اعلان وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتـوبر، كانت القوات المصرية تسيطر على منطقة من سيناء مساحتها ٣٠٠٠ كيلو متر مربع، تمتد بطول القناة من البحر الى الخليج ويعمق يتراوح بين ١٧ ، ١٢ كم. أما قوات العدو فكانت تضـع يدها غرب القناة على رقعة مساحتها ٣٠٠ كيلو متر مربع، ٧٠ كيلو مترا منها هى التى كانت قد احتلتها قبل وقف النار.

على هذا الاساس، واضح تماما، حتى من حيث المساحة البحتة، انه لا وجه للمقارنة على الاطلاق ، فالنطاق المصرى قاعدة ارضية عريضة صلبة وثيقة تبلغ عشرة اضعاف مساحة الوجود العدو والعدوانى غرب القناة، والذى لا يعدو جيبا ضئيلا محتوى محصورا تماما فى تضاعيف وقبضـة قواتنا، فضلا عن ان معظمه تحقق بالغش والخداع ومفروض أن ينسحب العدو منه بفرض الامم المتحدة والا فبالقهر العسكرى، انه اسفين محكوم عليه سياسيا والا فعسكريا.

وعلى خريطة اتفاق فصل القوات التى نشرتها وكالات الأنباء العالمية، تبدو مساحة الجيب الاسرائيلى غرب القناة مساحة كبيرة طولا وعرضا تبدأ فى الشمال جنوب مدينة الاسماعيلية مباشرة وتنتهى فى الجنوب بعد السويس عند الأدبية وجبل عتاقة، واما نحو الداخل فتتعمق فى كتلة متصلة بلا انقطاع حتى خط يمتد من ابو صوير شمالا حتى الكيلو ١٠١ على طريق السويس ـ القاهرة جنوبا. وبهذا يبدو الجيب الاسرائيلى فى نحو مجموع مساحة المنطقة المحررة شرق القناة، التى تنقسم الى نطاقين يفصل بينهما نحو ٢٠ كم، ولا يفسر هذا الاتساع غير العادى الا ما رأيناه من تسطح وتخلخل فى كثافته.. هذا أولا.

ثانيا: ليس بالمكاسب الأرضية وحدها تتحدد نتيجة الحرب الحديثة، وخاصة حروب التحرير، وبالأخص حروب الصحراء، لمدى تدمير القوة البشرية وقوة السلاح اعتبار اكبر واخطر، وفى هذا فلقد تلقت اسرائيل ضربة صادمة ونزيفا رهيبا لاشك فيهما، لم تعرفهما من قبل طوال حياتها، يتعديان اعرض احلام اعدى الأعداء، ويتجاوزان كل حدود مكابرة أو انكار أشد الأصدقاء عنادا وتعصبا.. هذا بينما خرج العرب بالحد المناسب من المكاسب العسكرية وبالحد الادنى من الخسائر البشرية وخسائر السلاح.

ثالثا: لا سبيل إلى المقارنة اى مقارنة بين الانجازة العسكرية المصرية المتمثلة فى العبور واقتـــلاع الخط وانتزاع القاعدة شرقا وبين عملية الاختراق العدو غربا. ولدينـــا فى هذا شهادة ناطق العدو، هيرتزوج، ان «من الضرورى وضع عملية التسلل الى غرب القناة فى إطارها الصحيح، ويجب ألا ننسى فى أية لحظة ان المعركة الحقيقية إنما تدور فى سيناء»، هذا بينما كتب صحفى امريكى هو هنرى تانر يقول «واضح ان الاسرائيليين قد شنوا هذه العملية لأهداف سياسية ونفســية ، وخاصة لمحاولة دعم موقفهم فى المساومات إزاء ضغط خارجى متزايد لوقف اطـــلاق النـــار». وهناك ايضا حكم ريتشارد كروسمان، الزعيـم العـمالى البريطانى العريق فى صهيونيته:

«نشاط الاسرائيليين غرب القناة، «طنطنة» فارغة، لن يكسبوا منها شيئا سوى مزيد من الخسائر».

فإذا جئنا الى التقييم الموضوعى المقارن بين الانجازتين العسكريتين المضادتين شرق وغرب القناة ، فإن الحقائق الوحيدة التى تبقى وتقوم هى كالآتى .. أولا ، لقد قلبت الاولى توازنا قائما كاملا برمته وغيرت مصير الصراع لاول مرة، ولكن الثانية لم تغير حتى مجرى المعركة او تقلب توازنها المحلى.. ثانيا، ثمة كذلك فارق جوهرى بين طبيعة الانجازتين بعد نقطة مهمة جدا فى المقارنة: وجودنا شرق القناة غير قابل استراتيجيا للاقتلاع، ولكن وجود العدو غربها قابل .. ثالثاً واخيرا.. وفى المحصلة العامة، يمكن ان نلخص حقيقة الموقف كله فى ان النصر العربى «نصر استراتيجى» بينما الاسرائيلى «نصر تكتيكى» وهذا بالضبط مفتاح القضية برمتها والقول الفصل فيها.

أما ان يدعي العدو بعد هذا في دعايته ان نصره مكافيء عسكري لنصرنا، وان النتيجة الصافية بالتالي هي التعادل «بالنقط»، فهذه مغالطة اما بالغة السذاجة او فائقة الخبث - والاخيرة الأرجح .. بل لقد فضح العدو بنفسه اخطاء وقصور عملية الاختراق بصورة تقلص حتى من قيمتها المحدودة كنصر تكتيكي. ففي الاتهامات الحادة المتبادلة بين جنرالات العدو بسبب الهزيمة، كان الاتهام الاساسي الموجه الى شـارون ، بطل العمـلية والذى صور - اسرائيليا - على انه بطل الحرب الرابعـة كلها واله الحرب الجديد وملك اسرائيل الأخير، هو انه افسد تنفيذ عملية الدفرسوار بحيث حققت من المكاسب اقل مما حققت من الخسائر، حيث تمت باكبر قدر متصور من الخسائر البشـرية وتبديد السلاح ، وهذا اعتراف صريح بما فيه الكفاية يكذب الادعاء البائس بتعادل النصرين العربي والاسرائيلي.

حقيقة الموقف

وإذا كان هذا هو الموقف المكابر والكاذب للعدو الرسمي، فإن قطاعا كبيرا من الرأى العام الاسرائيلي قد تولى مهمة الرد عليه وتفنيده ، فاكد بصورة قاطعة ان المعركة كانت خاسرة بالنسبة لإسرائيل ووضح حقيقة الهزيمة التى تحاول السلطات الاسرائيلية اخفاءها عن شعبها، مثلا كتبت ها أرتس غداة انتهاء القتال تقول : إنه إذا كان الهدف الأساسي امام الجيش الاسرائيلي من القتال هو تحطيم الثقة الذاتية للجيش المصرى عن طريق تدمير سلاحه او رجاله، فقد اكد وقف إطلاق النار انه لم يستطع تدمير جيشي سوريا ومـصر، ومن الواضح ان ثقة الجيش العربي بنفسه ومعداته لم تتقوض . «والحقيقة انه حتى بدون وقف النار الآن، فان من المشكوك فيه ان جيش اسرائيل كان سينجح في تدمير الجيش المصرى، فمن اجل تحقيق ذلك في وقت قصير، كان جيش اسرائيل يحتاج إلى قوات اكثر مما عنده، بينما من اجل تحقيق الهدف بالمعطيات القائمة كان يحتاج الى حرب طويلة ومضنية».

وفي الصحيفة نفسها كتب زيف شيف في مقاله «من انتصر؟» يقول : «إن الحد الأدنى الذى كان مطلوبا لنا هو دحر المصريين في سيناء، وهذا ما لم ننجزه». واضاف «ومن ناحية الارض - وهـو الاهـم ليست هناك اهمية خارقة لحقيقة اننـا نحتل الآن كذا كيلومترا غرب القنـاة، لانه إذا لم يتم التوصل الى تسوية سيكون من الصعب جدا على اسرائيل التمسك بالخطـوط الجديدة إلا بجيش اكبر».

كذلك كتب إوري دان في معاريف غداة وقف النار ايضا ان «الامر يبدو خطيرا جدا، لان هذه المرحلة من الحرب انتهت عشية وقف القتال دون هزيمة مصر، رغم الضربات التي وجهت لها، وبعد الخسائر التي تكبدناها في الارواح والمعدات، وواضح انه من غير الممكن قياس النجاح بعدد الكيلومترات المربعة التي يحتفظ بها الجيش الإسرائيلي». كذلك اصبح من أولويات الحياة في اسرائيل ان تحول دايان الى موضع السخط المستمر والتهجم الثائر المثير بسبب «النكسات الفادحة التي منيت بها إسرائيل في حرب ١٩٧٣» أصبح «وزير العار» كما سبته المظاهرات الغاضبة والحاشدة اليومية، «ورمزا لكل ما هو خطأ في اسرائيل كما عبر بعض الضباط الشبان .. الخ.

واخيرا .. وفي ندوة عقدت في القدس في مارس ١٩٧٤ شارك فيها الجنرال بيليد، اتفق المجتمعون على ان «اسرائيل لم تحقق اى انتصارات في حرب اكتوبر، » وان كل ما حققته هو مكاسب تكتيكية فحسب، لا تكفي لان تحرز بها اى تغيير اساسي لصالحها، وارجع المنتدون ذلك الى ان اســرائيل فشلت في ان تتوصل إلى نصر عسكري حاسم، إذ انها وجهت في البــداية هجوما مضادا إلى ســوريا لتدمير جيشــها فلــم تنجــح في ذلك، وعندما حــولت قواتها نحو الجبهة المصــرية فانها فشــلت كذلك في تحقيق هدفها هناك.

وقد وضح احد المتحدثين ان استراتيجية الدفاع الاسرائيلية مازالت كما هي منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، ثم اكد انه اصبح من الضروري ادخال تغيير اساسي على أساليب اسرائيل التكنيكية في العمليات كما في الاستراتيجية نفسها.

ذلك اذن موقف العدو، لا نقول منقسم على نفسه بين الشك واليقين، بل بين الخداع والاعتراف. ومن الملاحظ ان العدو قد استخدم كل الالفاظ الممكنة والمتاحة للتعبير عما اصابه في المعركة، الزلزال، الصدمه، الضربة، وتحدث عن الخسائر الفادحة، والأخطار المحدقة، عن التقصير، عن الكارثة والفشل.. الخ، لكنه كان حريصا جدا على الا يتكلم عن «هزيمته» قط. ولكن يجب ألا يخالجنا اى شك في ان العدو في هذا كما في غيره يكذب باستمرار وانتظام، لا نقول كما يتنفس ولكن كما يرسم ويخطط. بل قد اعترف بعض قادته اخيرا بذلك صراحة. قال اليعــازر، تقريبا عشيه سقوطه معزولا، «من المؤكد انه كانت هناك أخطاء ، ومن الطبيعي ان يحدث تركيز على هذه الاخطاء». ثم اردف بلا مواربة «ان مبدأنا الا نقول كل الحقيقة ، حتى نشجع رجالنا وننشط همة العدو» .

واذا كان من المسلم به ان جميع الدول المحاربة فى العالم لا تعلن الحقائق السالبة او حتى الموجبة كاملة تماما لاعتبارات الامن والمعنويات وضرورات الصراع المعقدة... الخ، فقد فسر البعض مزاعم العدو الاسرائيلى على اساس ان معادلة الاعلام العسكرى الاسرائيلى تقوم على ضرب مكاسبه هو وخسائر العدو فى اثنين، وقسمة خسائره هو ومكاسب العدو على اثنين ! ولهذا فإن المحصلة الصافية لا يمكن ان تعدو او تبلغ ربع الحقيقة! ومهما يكن فليس لنا او لأحد ان يأخذ بأقوال العدو او ادعاءاته ببساطة أو بسذاجة، لا سيما عن « نصره» المزعوم.

اما نحن من جانبنا، فليس لنا ان نشك لحظة فى ان النصر الصافى، على الجملة وفى التحليل الاخير، كان لنا. وإذا كان العدو يزعم أنه لولا التدخل الدولى لحقق الانتصار فى نهاية الحرب، وأن قرار وقف اطلاق النار وحده الذى انقذ العرب من الهزيمة ، فعليه ان يذكر أنه لولا هذا التدخل الاجنبى نفسه لما حقق العرب النصر الكامل فى وسط الحرب فقط بل ولسحقوا اسرائيل نهائيا، فكما يقول بوفر «لقد اصاب الشلل اسرائيل فى الفترة الاولى من الحرب حتى حصلوا على معدات أمريكية فائقة التطور، ومع ذلك فلم يستطيعوا ان يحرزوا ذلك التفوق الكامل الذى احرزوه فى ١٩٦٧» . أو كما اعلن مسئول كبير فى الوزارة المصرية «الحكومة الامريكية منعت العرب من الحاق هزيمة كاملة باسرائيل». ولدينا ايضا اعتراف دايان من ان «امريكا لا تريد لاسرائيل ان تخسر الحرب». وهناك كذلك استغاثة اسرائيل بأمريكا فى وسط المعركة، تلك التى شبهها البعض بأنها استغاثة غريق على وشك الموت S.O.S message، والتى ارسلتها جولدا مايير شخصيا الى نيكسون يوم ١٢ اكتوبر قائلة فيها «اذا لم تقدم الولايات المتحده شحنات ضخمة وعاجلة من السلاح، فسوف يؤدى ذلك الى انسحاب اسرائيل من الحرب».

ثم لدينا الآن فى هذا ، وهو الاهم، شهادة مباشرة بل اعتراف صريح من أمريكا نفسها. فقد نقلت الاخبار عن المصادر الامريكية تصريحها بأن اسرائيل كانت «تواجه مأزقا استراتيجيا حرجا وطريقا مسدودا فى اثناء حرب اكتوبر . فقد كشفت الحرب لاسرائيل قابليتها للهزيمة، وان شحنات الاسلحة الامريكية اليومية هى وحدها التى انقذتها»واضافت تلك المصادر فى تلميح كاشف انه «عندما تجد إحدى الدول نفسها عاجزة عن توجيه ضربات لأعدائها، فلا بد ان تعترف انها تواجه مأزقا استراتيجيا». واذا

كان ذلك كذلك، فان علينا، مهما يكن، ان نعترف ايضا بأن عملية الاختراق، رغم انها نصر ثانوى بالنسبة لنصرنا الاساسى ولا تغير من النتيجة الشاملة للمعركة، قد اساءت بالتأكيد الى انتصارنا الكبير واخذت بالضرورة شيئا من وقدته وسناه وقدره واطفأت قدرا من بريقه ولمعانه. هذا عدا ما اعطت من مادة دسمه لدعاية العدو ليقلل زورا وبهتانا من حجم انتصارنا الحقيقى ومن حجم هزيمته الحقيقية ، بل وإلى حد قلب معه هزيمته الحقيقية الى نصر ملفق ونصرنا الحقيقى الى هزيمة مكذوبة . ولولا هذه العملية لظل انتصارنا الاول والاولى بكامل حجمه وثقله وبكل سموقه وشموخه . ومن الملاحظ بالفعل بين جماهير الشعب ان موجة الامال الشاهقة العليا التى اثارتها انتصاراتنا الاولى قد اصابتها بشئ من الفتور والهبوط الملحوظ تلك العملية الاختراقية. ان المد العربى، وإن لم يتحول قط إلى جزر، فقد فقد لا شك بعضا من اندفاعه وارتفاعه.

وها هنا لا بد لنا ان نعترف بأنه كان خطأ لا يبرر كما لا يغتفر ان سمحنا لتلك الثغرة وتلك الاختراقة ان تحدثا. لقد كان من الواضح منذ الايام الاولى للمعركة ان العدو مستميت الى حد الانتصار من أجل تحقيق هذا الهدف. وهو من قبل لم يخف تهديده بأن أى محاولة من جانبنا لعبور القناة شرقا لن تستبعد عبوره غربا. وصحيح ان من الثابت الان ان التخطيط المصرى لم يغفل الاحتمال، بل واعد واستعد له وتدرب عليه مرارا. لكن هذا لا يغير من الحقيقة والواقع.

كذلك فلقد كان مفهوما من جانبنا انه مهما تطورت احداث المعركة فى سيناء، فكحد ادنى لن يسمح ولا ينبغى قط ان يسمح للعدو بأن ينقل المعركة الى ارض الوادى. وليس ردا ان يقال ببساطة ان الحرب سجال وكر وفر، تحتمل كل الاحتمالات، او انها يوم لك ويوم عليك . وليس ردا – إلا فى سياق واحد فقط، وهو الحرب المتصلة . اعنى انه لا تبرير لعملية الاختراق تلك الا فى سياق استمرارالقتال بعدها كما كان قبلها.

أما وقد توقف القتال، فقد اصبح المعنى الوحيد المقبول والبديل الوحيد للاستمرار هو كما سنرى الاستئناف، أى العودة الى القتال، الا اذا انسحب العدو سلما.

مهما يكن، فأما وقد حدث ما حدث، فقد أصبح السؤال هو كيف ننقذ انتصارنا الغالى الثمين (والحقيقى جدا) ونستنقذه من حملة تشوية العدو وتمييعه ان لم نقل تبديده وتخريبه . لقد رد انتصارنا الاول اعتبارنا فى العالم، وقد وجب الان ان نرد له اعتباره هو

الآخر. وهذا يعنى ان واجبنا هو ان نصحح موقفا، لا نقول سيئا، ولكن كان يمكن ان يكون اروع وأعظم وأكمل . كان الواجب ان نحول التطور الانتهازى المختلس من «خصوم» علينا وعلى حساب المعركة إلى «اصول» لنا ولنصرنا. فكيف؟

لقد كان المفروض بحسب نصوص اتفاقية وقف اطلاق النار وشـــروطها الستة التى اعتمدتها الامم المتحدة وضمنتها الدولتان الاعظم ، ان ينسحب العدو «فورا» الى ما وراء خطوط ٢٢ اكتوبر، أى الى بقعة لا تزيد على ٧٠ كيلو مترا مربعا حول الدفرسوار. ولكن كان من الواضح لمدة طويلة ان العدو يماطل ويسوف ويساوم ليتهرب من قشية الانسحاب الاكبر والكلى التى ستكون وحدها صراعا آخر بلا حدود على ما يبدو. ويبدو كذلك ان العدو لم يكن يريد أن يربط بين الانسحاب الى خطوط ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣وبين الانسحاب الى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، بل كان يحاول ويتحايل على عدم الربط بينهما ليساوم بالأولى على الثانية وليضع هذه عقبة مانعة فى سبيل تلك . ولذا كان لا بد من انذاره والزامه بحد زمنى أدنى للانسحاب . فاذا لم يفعل فلا مفر من القوة، لا مفر من العودة إلى القتال.

إن وضع العدو الاستراتيجى غرب القنال لم يكن «هشا» فحسب كما قيل، ولكنه «هامشى» ايضا. اعنى انه وضع «حدى» يمكن ان يتطور (سيان هنا ان تقول يتدهور) الى احد النقيضين بدفعة كبرى اما من هذا الجانب او ذلك. فقد كان من المتصور ان يحاول العدو فى نوبة من اليأس ان يتم اختراقه بمباغتة غادرة، بينما كان يمكن ان يسحق ويباد إبادة كاملة بضربة منا قادرة. ان النصر التكتيكى الذى أحرزه العدو هنا كان يمكن تماما ان يتحول إلى هزيمة اســـتراتيجية كبرى وأخرى له .

وقد لخص نائب رئيس وزراء مصرى هذا الموقف كله بدقة فقال : إنه حين «تحركت اسرائيل بعد٢٢ أكتوبر فى غرب القناة للحصول على مركز سياسى، وهى تعلم ان مواقعها العسكرية فى المنطقة محاطة بقواتنا المسلحة بل هى فى مصيدة تحرمها من ايه قيمة عسكرية، فإن الأمر بالنسبة لرفع هذا الجيب الاسرائيلى كان يتمثل فى إجراء عملية عسكرية كاملة شرق القناة وغربها مثل عملية ٦ اكتوبر. وكانت هناك موازنة بين أمرين وهما: اما دخول المعركة بقواتنا فى الشرق والغرب على ضفتى القناة، او نبحث اقتراح كيسينجر الخاص بفصل القوات ليخرج العدو من الضفة الغربية نهائيا وليس فقط العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، وذلك بعد ان وضح للعدو انه تم تعزيزنا فى غرب القناة بقوة كبيرة فى الفترة الاخيرة».

معنى الانسحاب

وهذا بالدقة ما أثبتته وقائع التطـورات اللاحقة، وان يكن بغير طريق القتال، فقد أدرك العدو، كما أعلن الـون ودايـان وغيرهما صراحة ، ان حرب الاستنزاف التى تعرضت لها قواته على جبهة القناة كانت ستتصاعد حتما الى حرب جديدة «ستعرض أمن اسرائيل للخطر». او كما اعلنت مايير «لم يكن امامنا من بديل لفصل القوات سوى مواجهة حرب جديدة مع مصر » ولهـذا وبعد أقل من ثـلاثة أشهر من المعـركة، وبعد كل مواقف التصلب والعنـاد والمزايـدة، وبدون أدنى تنازلات من جنب مصر، اضطر العدو مرغما فى اتفاق الفصل بين القـوات الى القبـول بالانسحاب التام لا من الضفة الغربية برمتـها وحدها، ولكن ايضا من نطـاق كبير من الضفة الشرقية كذلك.

ففى هذا الاتفاق الذى وصفته صحفية اسرائيلية بأنه «مخاطرة محسوبة تعطى مزايا سياسية واستراتيجية مهمة لمصر»، سلمت اسرائيل بالانسحاب المباشر من جميع الاراضى المحتلة الواقعة غرب خط يوازى قناة السويس بطول امتدادها ويبعد عنها ٣٠ كم، اى قرب مشارف ممرى متلا والجـدى، وبالفعل اخذ العدو صاغرا، بعد شهور معدودة من المعركة وخلال اسابيع محدودة منـذ الاتفاق ، ينسحب كما جاء، ولكن فى خط محدد عكس ما جاء: من الضفة الغربية أولا ، من الجنوب الى الشـمال على التـوالى، ثم مـن الضفة الشرقية، من الغرب الى الشرق على الترتيب. وبذلك اصبحت مصر مسيطرة على جانبى القنـاة تماما، واتسـع نطاقها المحرر فى سيناء، وتحول الميزان الاستراتيجى لصالحها، واصبحت فى الوضع الاستراتيجى الافضـل، ومنه يمكنها التقدم فـورا الى معـركة فاصلة اذا لـزم الامر مستقبلا.

واذا كان لهذا الانسحاب من معنى، فهو انه اساسا اعتراف، اعتراف مزدوج: أولا، بخطورة وضع الجيب الاسرائيلى غرب القناة، وفى هذا فان اعتراف دايان صريح تماما: «ان وجهة النظر القائلة بأن على إسرائيل أن تحتفظ بمواقعها على الضفة الغربية من القناة هى وجهة نظر خاطئة . انها ربما تؤدى الى انتصار براق، ولكنه لا يؤدى بدوره إلا إلى حالة حرب دائمة». اما الاعتراف الثانى فهو بأن النصر العسكرى الحقيقى فى أكتوبر إنما كان للعرب. وخير ما عبر عن هذا ما قاله مصدر عسكرى فرنسى بعد اعلان اتفاق فصل القوات من «اننا نستطيع الآن ان نقول بعد ثلاثة شهور من النجاح العسكرى

المصرى ان ما حدث فى أكتوبر اصبح امرا واقعا مسلما به». وقد فسر ذلك بان اجتياز الجيش المصرى لقناة السويس فى ٦ أكتوبر يمثل نجاحا فعليا واستراتيجيا بحيث لا يمكن تصور المطالبة بإجلاء القوات المصرية من مواقعها، بينما ان اجتياز الجيش الاسرائيلى إلى غرب القناة لم يكن مأمونا سواء استراتيجيا أو عسكريا.

وليس من شك في أن هذا الانسحاب نصر سياسى ، لأنه يعنى أن إسرائيل لم تعد فى وضع الذى يفرض إرادته ، بل هى على العكس التى ترضخ للإرادة العربية . ولاشك كذلك أن هذا النصر السياسى يمثل أولى ثمرات النصر العسكرى فى أكتوبر ، ولولاه لما كان . واعتراف مايير هنا صريح وقاطع . فقد قالت عن اتفاق الفصل بين القوات أمام الكنيست انه «ثمرة ما انتهت إليه الحرب ، وانعكاس لانتصارات مصر فى الأيام الأولى من القتال» كذلك فليس أدل على هذا من موقف المعارضة وكثير من الإسرائيليين الذين اعتبروا اتفاق الفصل «استسلاما تاما» و «ليس تخفيضا للقوات وإنما تخفيض لأمن إسرائيل» كما قال بيجين : «وتنازلا من جانب واحد بلا مقابل» عن «الورقة السياسية والعسكرية الرابحة الأساسية والوحيدة» فى يد إسرائيل كما قال شارون بطل الثغرة الذى استقال احتجاجا على الاتفاق ، والذى أعلن أيضا أن صيغة خط الممرات ليست إلا خدعة لأن ممرى متلا والجدى «لا يحميان الا منطقة محدودة من سيناء».

أما كتلة ليكود فقد هاجمت الاتفاق قائلة «لقد تصرفنا كمنهزمين فى الحرب الأخيرة» ، وأضافت «أننا لم نحصل على شىء فى المقابل ، لا الاعتراف بإسرائيل ، ولا وضع حد لحالة الحرب ، ولا حتى مبدأ نزع سلاح الأراضى التى يتم الانسحاب منها» . كذلك وصف بعض أصدقاء إسرائيل الاتفاق بأنه «ليس فى صالحها» . هذا بينما ذهب إسرائيليون كثيرون إلى أن الانسحاب قد يكون الخطوة الأولى «نحو تصفية إسرائيل على مراحل» ، على حين ذهب آخرون الى أن كيسنجر ، مهندس الاتفاق، أراد السلام «فأتانا بكارثة» .

ثم نعود ، بعد أن استكملنا رحلتنا طويلة وموضوعية حتى نهايتها، إلى سؤالنا الأصلى : لمن النصر ؟ خلاصة الرحلة كلها وجوهر الحقيقة الواقعة برمتها هى أن النصر الميدانى التدميرى كان لنا بالقطع ، ولكن شابه وضع القوات الاقليمى ، غير أن هذا الوضع تكفلت بتصفيته التطورات التى حتمها النصر الأول . بذلك استرد نصرنا

على الجملة وزنـــه الحقيقى واتضحت أبعاده الطبيعية ، ولم يعد هناك من مبرر أو حتى مجال للتساؤل عما اذا كنا انتصرنا أم لم ننتصر .

بل إن هناك ملاحظة لعلها اخذت تفرض نفسها بالتدريج على الجميع الآن ، وهى أنه كلما مضى الوقـــت وتقادم العهد بالمعركة ، زدنا اقتناعا بنصرنا وزاد نصرنا حجما فى أنظار العالم . بعد المعركة مباشرة كان ثمة حيرة فى حقيقة النصر عند البعض ، ثم عدم وضوح كاف ، ثم اقتناع محدود ، ولكن مع الوقت تحول الاقتناع المتحفظ الى اقتناع مطـــلق والشـــك إلى يقين قـــاطع . كأن حقيقة نتيجة المعركة كانت كلوحة مرســـومة كلما اقـتربت منها ضاعت ملامحها فى تفاصيلها ، ولكى تراها على حقيقتها لابد أن تبتعد عنها بقدر كاف .

لقد كان النصر العسكرى فى حرب أكتوبر عموما لنا بلا ريب ، ويمكن الآن بتحديد اكثر أن نضيف : ربما بنسبة ٢ : ١ بمعنى أن نصرنا يعادل ضعف نصر العدو وأن هزيمته تعادل ضعف هزيمتنا ، وفى المحصلة فان النتيجة العامة ليست ٥٠ ـ ٥٠٪ أو ٥١ ـ ٤٩٪ كما يود أن يحددها البعض . واذا كان من المبالغة أن نضعها عند ٧٥ ـ ٢٥٪ فلنقل مثلا ٦٦ ـ ٣٣٪ بالتقريب ، فإذا بدا لأحد أن هذه مبالغة مسرفة ، فالرد هو أن الأمر أساسا نسبى . بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إننا اذا فكرنا مليا أو حتى وهليا ، ولكن بموضوعية ، فسنجد على النقيض تماما من أوهام العدو أن النصر العربى فى ١٩٧٣ أكبر من النصر الإسرائيلى فى ١٩٦٧ نسبيا ، نكرر نسبيا ، وإن لم يكن على الاطلاق بالطبع .

فلأسباب متعددة ومعقدة ولكنها مفهومة ومعروفة ، كان الحجم المطلق لنصر العدو فى يونيو أكبر جدا من نظيره العربى فى أكتوبر ، ولكن بالقياس إلى الظروف الموضوعية والملابسات المحيطة ، لابد أن يعد الأخير أكبر نسبيا إلى حد أو آخر . فنصر العدو فى ١٩٦٧ إنما تم بغارة من طراز بيرل هاربر لم تحدث بعدها مواجهة أو حرب حقيقية ، كما أن سيناء كانت غير محصنة للمدافعين ، أما فى ١٩٧٣ فقد حقق العرب انتصارهم من موضع الهزيمة أولا ، والهزيمة البشعة ، وهذا فارق نفسى رهيب ، ثم كانت هناك ثانيا استحكامات وتحصينات لا مثيل لها من قبل فى ســيناء والجـولان ، لقد كان نصر العدو فى ١٩٦٧ كبيرا لكنه مزيف مختلس ، بل كان كبيرا ، لأنه مزيف مختلس ، وكان نصرنا فى ١٩٧٣ محدودا نسبيا ولكنه حقيقى ومســتحق الى أقصى حد .

وإذا كان العدو الإسرائيلي هو أكثر من قلل أو حاول أن يقلل من حجم انتصارنا وقيمته بالدعاية وحملات التشويه ، فذلك أمر طبيعي جدا وجد مفهوم ، لكن الحقيقة ، على غرابتها ، هي أن هذا العدو نفسه هو أكثر من يدرك القيمة الحقيقية لذلك النصر ، ليس في الدنيا من يدركها أكثر منه . هو وحده الأقدر على معرفة معنى تحطيم خط بارليف، الذي يعرف حقيقته أكثر من أي أحد آخر، والعبور والاجتياح ، ثم المعارك الجبارة ثم الصمود بعد التدخل الأمريكي .. الخ .. إن العدو ، أكثر من يقلل من قيمة انتصارنا دعائيا ، هو وحده أكثر من يدرك في قرارة نفسه وبلا أوهام ولا خداع للنفس القيمة الحقيقية لهذا الانتصار.

أما للذين يتصورون منا أن من «الغفلة» وحدها أن نعتبر معركة اكتوبر نصرا لنا ، فنحن نقول إنما الغفلة الحقيقية أن نهدى العدو ، متبرعين أو متسرعين أو متذرعين ، نصرا وهميا لم يحققه ، وأن ننظر بعينه الوحيدة إلى الموقف . من الغفلة حقاً أن نضع انتصارنا في أكثر من حجمه الطبيعي ، بل إننا لنقرر أن أكبر خطر يمكن أن يهدد انتصارنا اليوم هو أن نضعه في أكبر من حجمه الحقيقي . أو كما قال الرئيس الجزائري «لست أحب أن نغالي في تقدير انتصاراتنا حتى لايقع المواطن العربي في الخطأ الذي وقعت فيه اسرائيل بعد ١٩٦٧» ، «وإن كان يضيف بعد ذلك «أننا لم نهزم اسرائيل ، ولكننا هزمنا الخوف ، وهذا من أهم مكاسب المعركة» ولكنها يقينا أكثر من مجرد غفلة أن نضع انتصارنا في أقل من ذلك الحجم ، ولا خلاف على أن نصرنا جاء منقوصا ، وإنجازاتنا كانت طموحة ولكنها دون المطلوب ، وأن نصرنا لن يأخذ معناه ولا أبعاده الحقيقية إلا إذا استكمل مستقبلا بطريقة أو بأخرى .

لا خلاف ، ولكن الأمر بعد ذلك يتوقف على زاوية الرؤية ، وكيف ننظر إلى تقدير الموقف : أهو كوب نصف ملآن أم نصف فارغ ؟ وهل ننظر إلى أحد وجهي العملة دون الآخر أم اليهما معا ؟ العدو لا يريد إلا أن يرى جانبا واحدا من المعركة هو الجزء الأخير منها ، ولا يريد أن يرى الجانب الآخر والأكبر والأخطر منها ، كأنما هو الوجه الذي لا يرى قط من القمر . إنه لاينظر الا إلى ١٦ أكتوبر ، ويعمى عينه عن ٦ أكتوبر .

ونحن انتصرنا لأننا بدأنا من نقطة الصفر بل من تحت الصفر فارتفعنا الى أكثر من النصف ، وإسرائيل انهزمت لأنها بدأت من القمة المطلقة فهوت إلى ما دون النصف .

وانجازة أكتوبر الحقيقية هى أنها كسرت الاتجاه النزولى السابق ، فلقد كنا كحجر ضخم يهوى من قمة جبل شاهق وفى اتجاهه بفعل الجاذبية الأرضية الحتمية الى أن يرتطم بالسفح ويتهشم . ثم فجأة وبقوة الدفع الأقوى تغلبنا على قوة الجاذبية فبدأنا عملية التصاعد . أو اذا شئنا صورة أخرى تقابل صورة راكب الدراجة يصعد الطريق الجبلى متعلقا بعربة لورى ضخمة، تلك التى رسمها دايان لدور إسرائيل فى معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فلقد كنا إلى ما قبل أكتوبر كعربة تعطلت «فراملها» تنزلق على سفح منحدر مخيف ، فجاء أكتوبر كحجر ضخم اعترض طريق عجلاتها فأوقفها فعادت تصعد المنحدر لأول مرة بقوة وبأقصى سرعة ونحو أعلى قمة .

وإذا كان لنا أن نختتم مناقشـــتنا بحكم نهائى ومسئول ، فكما لخص الرئيس السودانى الموقف كله «إننا فى السودان معكم نرقب بالأسى محاولات التشكيك فى انتصاركم العظيم» تلك المحاولات التى «لن تنال من انجازكم العظيم .. ونصركم الباهر والذى كان وسوف يبقى مفخرة للأمة العربية .. إن انتصاراتكم فى أكتوبر المجيدة ، لم تكن اقتحاما لمواقع ظنها العـــدو منيعة ، كما لم تكن اجتيازا لمواقع ظنها العدو حصينة، كما أنها لم تكن تحديا لغرور القوة الإسرائيلية فحسب ، وإنما كانت بداية عصر جديد تخلف كل ما كان قبله من فنون القتال وعلومه» ثم أخيرا كما وضح الرئيس السادات بصورة حاسمة فى تقديمه لورقة أكتوبر «خرج البعض وشكك .. شككوا وما زالوا يشككون حتى هذه اللحظة .. قالوا إن مصر انهزمت ، وأننى لم أكن لدى الشجاعة لأقول أنى انهزمت. كلا ، مصر لم تنهزم. مصر انتصرت أروع انتصار» .

الفصل السادس

٦ أكتوبر والاستراتيجية العسكرية والإقليمية

فى الاستراتيجية العسكرية

منذ الحرب العالمية الثانية ، أكبر ملحمة عسكرية كوكبية فى التاريخ البشرى، وفى ظل العصر النووى نفسه ، لم تحدث حرب ما انقلابا فى الفكر الاستراتيجى والنظريات العسكرية مثلما فعلت حرب أكتوبر . فبإجماع كل الخبراء العسكريين ، قادة ونقادا ، محترفين ومؤرخين ، جاءت حرب أكتوبر «ثورة» استراتيجية جذرية كاملة قلبت معظم مفاهيم الحرب التقليدية وغير التقليدية وثورت كثيرا من قواعد الجغرافيا العسكرية بحيث جعلت من الضرورى إعادة كتابة «كتاب الحرب» من أساسه . ولقد كانت هذه النتيجة هى كبرى مفاجآت هذه المعركة ، لا تقل عن مفاجآتها هى نفسها .

الحرب الكورية مثلا ، وحرب الهند ـ الباكستان ، وحتى حرب فيتنام الممطوطة المطولة التى استمرت سنين عددا ، كانت كلها حروبا تقليدية رغم حداثتها وعصرية الأسلحة التى استخدمت فيها . حتى حرب يونيو، التى اعتمدت على نظرية الحرب الخاطفة ، لم تقدم جديدا ثوريا بالقياس إلى نموذجها الأصلى الذى ابتكرته ألمانيا الهتلرية فى الحرب الثانية ، ومن هنا أصبحت حرب أكتوبر تجربة جديدة ، مدرسة جديدة ، انكبت عليها دوائر الجيوش والاكاديميات العسكرية والمعاهد الاستراتيجية ، تعكف على نتائجها ومغازيها ومدلولاتها ومحمولاتها . وسيمضى وقت طويل بالتأكيد قبل أن تأخذ هذه النتائج كل أبعادها وأعماقها الكاملة .

على أن الشىء الذى يمكن القطع به من الآن بكل اطمئنان وثقة هو أن المعركة أثبتت أصالة وجدة كلتاهما حقيقية ومحققة من الناحية الاستراتيجية تخطيطا وتنفيذا وتطويعها واستخداما للسلاح . إنها فى كل هذه المجالات تختلف اختلافا بينا عن كل الحروب

المحدودة وغير المحدودة التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية . وهذا هو بالفعل مدار تفردها ومحور الاهتمام العالمى الملتهب بها .

فمما لم يعد يتطرق اليه شك أن المعركة قد أضافت اضافات رائدة أصيلة محددة وغير تقليدية ولا مسبوقة ، وأثبتت بذلك أن المدرسة العسكرية العربية ، وخاصة المصرية ، قد ساهمت مساهمة مبتكرة وفذة فى الفن العسكرى ، ضربت بها أرضا جديدة بكرا فى العلم الاستراتيجى والحربى . المعركة ، باختصار ، أثبتت أن العسكرية العربية قد انتقلت، ربما لأول مرة ، من مرحلة التلمذة الحربية والنقل الى مرحلة الخلق والابتكار .

وأبسط دليل على هذا أن جيوش العالم بدأت تأخذ عن المعركة كثيرا من خبراتها ودروسها ، ومن انجازات العسكرية العربية بعض خطوطها التكنولوجية والهندسية وخططها الاستراتيجية والتكتيكية . على سبيل المثال ، دشم مخابىء الطائرات المصرية المبتكرة منذ ما بعد يونيو اقتبس منها حلف الاطلنطى الكثير كما يقال . وفى هذا قال وزير الدفاع الأمريكى بأسلوب مباشر «ليس ثمة على الاطلاق غير الدشم وسيلة لحماية الطائرات من إغارة الطيران المنخفض » وبالمثل اقتبس حلف وارسو وبعض الاشقاء العرب اضافات الهندسة العسكرية المصرية فى مجال بناء وتصميم قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، والتى توصلت اليها بالتجربة الواقعية أثناء ملحمة إنشاء شبكتها العظيمة غرب القناة فى أخريات حرب الاستنزاف . هناك أيضا تطوير تعدد ممرات المطارات وتصميمها وحمايتها، الاستخدام الثورى للمشاة الصاروخية والميكانيكية فى جبهة القناة أصبح الآن نموذجا يحتذيه الجميع .. الخ .

وإذا نحن نظرنا بعد هذا نظرة كلية علوية الى معركة أكتوبر فلا شك أن أبرز ما يجبهنا هو أنها بحق «حرب المفاجآت» فهذه الحرب العجيبة ـ وعجيبة هى كما سنرى بالتأكيد ـ مليئة بالمفاجآت النادرة بل التناقضات المذهلة ، كما هى حافلة بالأوليات والأخريات ، بالقمم والكبريات ، والبدايات والنهايات . انها غنية جدا بالطفرات الاستراتيجية الجديدة وخصبة الى أقصى حد فى نتائجها ودروسها العسكرية بحيث قد تكون استراتيجيا نهاية عصر وبداية عصر ، أى نقطة تحول تاريخية بكل مقياس .

من سجل «الأوليات» بها ، على سبيل المثال ، أنها أول حرب محدودة فى ظل الوفاق ، إنها أول حرب تكنولوجية فى التاريخ . ومن سجل «الكبريات» بها إنها قد تكون أكبر حرب

صحراء فى التاريخ الحديث ، وكذلك أكبر معركة مدرعات فيه . ولكن ممن سجل «أخرياتها» أنها ـ للمفارقة الغريبة ـ قد تكون أيضا آخر معركة دبابات كبرى فى تاريخ الحروب !

والواقع أن هذه المفارقة الأخيرة تكفى وحدها لتضع أيدينا على المفتاح الحقيقى لجوهر طبيعة هذه الحرب الثورية المثيرة ، والذى هو وحده المدخل الطبيعى لدراستها وتحليلها . إنها أساسا «حرب المتناقضات» ـ نعم المتناقضات، وإلا لما ثورت القواعد المقررة والأصول السائدة .. ونستطيع هنا أن نرصد خمسا من هذه المتناقضات على الأقل، سندير حولها مناقشتنا وتحليلنا بالتفصيل : حرب محدودة ولكنها بالغة الكثافة ، حرب طويلة ولكن مصيرها تقرر فى ساعات ، حرب الطيران ضد الصواريخ ، حرب دبابات ظاهريا ولكنها حرب مشاة فى الدرجة الأولى ، وأخيراً حرب تكنولوجيا ولكن حرب القوة البشرية أكثر .

حرب محدودة لكنها كثيفة

فأولا ، حربنا بحسب التصنيف الاستراتيجى الحديث والمتداول حرب «محلية أو اقليمية» ، «صغيرة أو محدودة» تدور بين دول اطراف متوسطة أو صغيرة الحجم والقدرات ، فعلى المستوى الاستراتيجى ، كما يقول بوفر ، «فإن الموقف العالمى الحالى ، ووجود القوتين الأعظم وتهديدات الحرب النووية ، قد جعل الحرب بين الدول الصغيرة محدودة من حيث الاهداف ، ومن حيث الزمن ومن حيث الساحة . ولقد كانت حرب رمضان حربا محدودة» . وهى من هذه الزاوية تأتى ـ بالتعريف ـ فى الفئة أو الطبقة نفسها التى تضم حرب فيتنام وحرب الهند ـ الباكستان ، عدا حرب يونيو بالطبع . ومع ذلك فإنها تختلف عنها جميعا اختلافاً كميا يكاد يصل إلى حد الاختلاف الكيفى .

فأما مع حرب فيتنام ، فإن الاختلاف واضح . حرب فيتنام تتفوق خارج كل مقارنة فى المدة والطول بطبيعة الحال ، وكذلك فى كميات الأسلحة الرهيبة والخسائر المادية والبشرية الهائلة بحكم أن الدور الأمريكى هناك كان مباشرا وإباديا من البداية إلى النهاية ، ولكن الفارق الأساسى هو أن المواجهة كانت بين قوات نظامية من جانب «أمريكا» وحرب عصابات وحرب شعبية من الجانب الآخر «الثوار الفيتناميون» أما اذا قارنا حرب أكتوبر بسابقتها ونقيضتها حرب يونيو، فإنها حتى بصرف النظر عن اختلاف النتائج ، أكبر

حجما الى أقصى حد فى كميات الأسلحة وأعداد القوات ، فضلا عن أنواع الأولى ونوعيات الثانية .

والشـــىء نفسه صحيح حين نقارن بحرب الهند ـ الباكستان ، على الرغم من الفارق الفادح فى حجم السكان والموارد ومساحة الدول الاطراف فى الحالتين «عدد سكان الدول المتحاربة فى حرب الهند ـ الباكستان نحو ٦٨٠ مليونا ، مقابل ٤٦ مليونا فقط لأطراف حرب اكتوبر!» كذلك فرغم تشـــابه أنواع ومصادر السلاح الذى استخدمه كلا الجانبين فى كلتا الحربين ، اللتـــين كانتا أيضا مواجهات تصادمية بين جيوش نظـــامية أساسا ، فقد كانت حرب الهند ـ الباكستان تقليدية بصفة عامة فى استراتيجيتها وأساليب استخدام السلاح فيها ، بينما أبدت حرب أكتـــوبر أصـــالة وتفردا غير مسبوقين فى استراتيجية الاصطدام والاقتحام بعامة وفى استخدام المشاة والصواريخ بخاصة .

على هذا يمكننا أن ننتهى بسهولة واطمئنان الى أن حرب أكتوبر هى أكبر وأخطر ، كما هى آخر حرب محلية محدودة فى الفترة المعاصرة ، ومع ذلك فإن الأمر أبعد من هذا . فحرب أكتوبر ـ للغرابة والدهشة ـ تكاد ترقى أيضا بأبعادها ومقاييسها العسكرية والميدانية الى مستوى حرب كبيرة ، إنها معركة تليق تماما بالدول الكبرى ولا تتناسب فى الحقيقة الا مع أحجامها وطاقاتها وقدراتها . بل ان هذه الدول الكبرى التقـــليدية ، باســـتثناء القوتين الأعظم ، لتنظر الآن بدهشة وحيرة لما كشفت عنه الحرب من معدل استهلاك فاحش فى السلاح لا تستطيع ترساناتها أن تصمد لمثله إلا بالكاد ، بل إن من المحللين من يعتبر حرب أكتوبر اعنـــف حرب عرفتها البشرية وأشدها ضراوة وكثافة ، وأنها تمثل «مسودة Blue Print » أو تصغيرا «ماكيت» للحرب العالمية التقليدية فى المستقبل ، كتلك التى يمكن أن تنشب مثلا بين حلفى الاطلنطى ووارســـو، إنها باختصار ترسم صورة المستقبل ، حرب القرن الحادى والعشـــرين، تفعل ذلك أولا بحجم القوات التى قذف بها فى المعركة ، وتفعله بحجم ونوع السلاح الذى استخدم فيها ، وتفعله أخيرا بكثافة الاثنين بالنسبة إلى مساحة الميدان .

فالمقدر أولا أن ما لا يقل عن مليون جندى قد شاركوا فى المعركة من كل الاطراف ، تعاملوا بنحو ١٠٠٠ طائرة وقرابة ٢٠٠٠ وربما ٤٠٠٠ دبابة ، والواقع أن أرقام الدبابات بالذات تتضارب ، ولكنها تتضارب دائما نحو المزايدة ، فأما اسرائيل فهناك مصادر تقدر

عدد دباباتها التى اعتمدت عليها فى المعركة بنحو ١٧٠٠ دبابة ، وهذا الرقم ـ تضيف هذه المصادر ـ يزيد على ما تملكه دولة كبرى كبريطانيا ! بل تذكر مصادر أخرى أن إسرائيل التى كنا نظن أن لديها ١٠٠٠ دبابة ، ٣٧٥ طائرة ، تكشف أن لديها ٢٠٠٠ دبابة ، ٥٠٠ طائرة . أما عن الجانب العربى ففى تقرير للجنة الكونجرس الأمريكى عن الشرق الأوسط أن الهجوم المصرى اعتمد على ٢٦٤٠ دبابة ، والسورى على ٢١٠٠ دبابة ، أى بمجموع قدره ٤٧٤٠ دبابة «أى أكثر من ضعف وأقل من ثلاثة أمثال الرقم الإسرائيلى» .

بهذا يكون مجموع دبابات كل الاطراف المتحاربة هو ٦٤٠٠ دبابة إلى ٦٧٤٠! وهذا الرقم الرهيب لا ندرى مدى نصيبه من الصحة بالضبط، ولكنه على أية حال يشير إلى مدى فداحة حجم هذه الحرب «المحدودة» . ومهما يكن فقد لايكون بالرقم المسرف فى المبالغة اذا نحن ذكرنا حقيقة أخرى مذهلة ومؤكدة ، وهي أن مجموع ما دمر من دبابات لكل الاطراف المتحاربة فى ٢٠ يوم قتال هو ٢٥٠٠ دبابة ، أى أكثر مما تم تدميره فى الحرب العالمية الثانية كلها كما تؤكد بعض المصادر. بل لقد ورد فى حديث للرئيس السادات الى النيوزويك أن هذا لعدد هو ٣٠٠٠ دبابة : «ان نحوا من ٣٠٠٠ دبابة فقد على الجانبين خلال حرب أكتوبر ، وهو أكبر بكثير من أى شىء حدث فى الحرب العالمية الثانية» .

هذا عن الدبابات ومعها الطائرات ، أما عن سائر الأسلحة الأخرى بجميع أنواعها ، فلا سبيل الى حصرها ، ولكنها بطبيعة الحال تتناسب مع تلك الأسلحة القاعدية ، ويكفى هنا ، على سبيل المثال ، أن نذكر حقيقة واحدة ولكنها عميقة الدلالة ، فلقد قدر أن ما صبته مدفعيتنا وحدها ـ وللمدفعية المصرية تاريخ عريق مشهور ومشهود له ، كان آخر فصوله معركة المدافع عبر القناة فى حرب الاستنزاف ـ مجموعة ما صبته طوال حرب أكتوبر من البداية الى النهاية يعادل فى مجموع قوته التفجيرية قوة قنبلة نووية صغيرة !

فإذا نحن نسبنا هذا كله الى رقعة ميدان المعركة المحدودة نوعا ، لكانت كثافة الحرب من أعلى ما عرف فى الحروب الحديثة ، وفى هذا المعنى قال بعض المعلقين العسكريين أثناء المعركة ، مثل ك. تانر مراسل اليونايتدبرس ، ان خبراء الدفاع فى العالم فى حيرة تامة ازاء هذه الأعداد الهائلة من جانب القوات العربية التى تخوض الان قتالا ضاريا لم تعرفه حتى الحرب العالمية الثانية نفسها ، حتى فى أخطر مراحلها ، حتى فى العلمين أو

ستالينجراد . ثم يردف الكاتب نفسه قائلا إن خبراء الدفاع يرون أن اشتراك مثل هذه المعدات العسكرية الثقيلة على مساحات أرض صغيرة ومن جانب دول صغيرة نسبيا هو ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، بما فى ذلك معارك أوربا بين الدول الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية ، وهى التى شاركت فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا و ألمانيا ما بين سنتى ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ .

ولا ننسى بعد هذا أن معظم الأسلحة التى دخلت المعركة هى أسلحة بالغة العصرية والحداثة ، فائقة التطور ، أغلبها بحكم العصر لم تعرفه حرب أخرى من قبل . ومع ذلك فكما أكد الخبراء العسكريون فى الغرب فقد كانت هناك قدرة قتالية عالية جدا وخبرة ومهارة فائقة فى ادارة معارك الدبابات خاصة والحرب الحديثة عامة أثناء حرب أكتوبر ، فإذا تذكرنا أخيرا أن الدول المتحاربة كلها دول صغيرة نامية أو شبه نامية ، وأنها لا تنتج السلاح ولا تملك امكانات الصناعات الحربية الثقيلة بل وحتى الخفيفة الصغيرة الى حد أو آخر ، لتأكد لنا تناقض الموقف كله .

ويزداد التناقض الى حد مثير حين ننظر الى المستقبل ، المستقبل القريب جدا ، فلقد أعلنت اسرائيل عن ضرورة مضاعفة اسلحتها للحرب القادمة ، فقررت رفع قوتها من الطائرات إلى ١٠٠٠ طائرة ، ومن الدبابات إلى ٤٠٠٠ دبابة ! هذا بينما أعلن دايان مؤخراً أن العرب قد أعادوا التسلح من جديد بعد أكتوبر ، وزعم إن خطأ أو صوابا أن «إسرائيل تواجه اليوم قوة جوية مشتركة مجموعها ٩٢٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة على الجبهتين» . ثم جاء بيجين بعد ذلك فادعى أن لدى مصر وسوريا الآن ٥٠٠٠ دبابة ، سترتفع فى بضع سنين إلى ٩٠٠٠ ! فإذا صح هذا تقريبا أو نسبيا ، لكان معناه أن الحرب الخامسة اذا قامت فسيشترك فيها من الطرفين نحو ٢٠٠٠ طائرة ، ٨٠٠٠ دبابة بحسب تكهنات دايان ، أو ٩٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ فيما بعد بحسب تكهنات بيجين ! وهذه أرقام تذكر لا بترسانات الدول الكبيرة ، بل بالأحرى بترسانات الأحلاف الكبرى كالاطلنطى ووارسو !

التفسير يكمن ، مع ذلك ، فى عدة حقائق كاشفة ودالة ، أولاها الطبيعة الخاصة للصراع ، فهو ليس خلافا أو نزاعا «عائليا» أو بين «جيران» على حدود أو رقع أرض أو حقوق ، بل هو صراع وجود ومصير وتحرير بين دولة دخيلة استعمارية استيطانية احلالية

توسعية وبين دول وطنية عريقة متحضرة على جانب لا بأس به من التقدم والتنمية وتسعى أساسا الى التحرير والاستقلال .

ولا يقل البعد الدولى فى الصراع أهمية بعد ذلك عن البعد المحلى . فالمعركة جزء من صراع القوى التحررية والتقدمية فى العالم ضد المعسكر الاستعمارى ، وعلى رأسهما القوتان الأعظم ، وهاتان القوتان هما اللتان تتكفلان بإمداد الاطراف المحلية بالأسلحة المتطورة وبكميات هائلة ومتصاعدة أبدا . بل ان البعض ليعتبر الصراع «منطقة تجارب» للسلاح الجديد الذى تنتجــه هاتان القــوتان . ومن هنا يشبهون المعركة بالحرب الأهلية الإسبانية فى الثلاثينات ، تلك التى سبقت الحرب العالمية الثانية «وبشرت» بها ، مثلما كانت حقل تجارب وانبوبة اختبار وصوبة زجاجية لترسانة اسلحتها المعدة وأساليب استراتيجيتها المخططـة.

ولأن نتائج حقل التجارب تعكس أثارها على النموذج الأصلى ، وقد تلقي بظلال شاحبة أو غير مطمئنة أو مستحبة على ترسانة الأسلحة الأم ، فإن القوة العظمى الموردة للسلاح يهمها إلى أقصى حد أن ينتصر الطرف المحلى الذى يستخدم سلاحها لأنه انتصار الى حد معلوم لسلاحها ، ان ذلك يصبح جزءا من صميم صراع القوى العظمى المباشر نفسه وجزءا لا يتجزأ من توازن القوة بينها . ولهذا يتصاعد الصراع المحلى بمنافسة مزدوجة فى الواقع : من اطرافه المتحاربة فى الميدان ، وتلك الموردة للسلاح . وهذا أيضا هو الذى يفسر تصميم أمريكا بعناد وضراوة ، نكاد نقول بحقد وحشى وغل أسود ، على امداد إسرائيل فى قلب المعركة بكل ماتملك فى ترسانتها من أسلحة جديدة ومتفوقة وبكل وسيلة نقل وتوصيل ممكنة وغير ممكنة ، حتى تضمن انتصار سلاحها أو على الأقل تنقذ سمعته وهيبته العالمية ، وهذا نفسه هو الذى جعل كيسنجر وزير خارجية أمريكا يقرر صراحة أنهم ليسوا على استعداد لأن يتركوا السلاح الأمريكى يضرب ويهزم بالسلاح السوفييتى .

حرب طويلة لكن بدايتها خاطفة

بالقياس إلى حرب الأيام الستة الخاطفة فى ١٩٦٧ ، فإن حرب الأيام الــسبعة عشر شكلا والتى امتدت إلى ٢٠ يوما بالفعل فى ١٩٧٣ ، تعد بلا شك حربا «طويلة» . هى وحدها تعادل طول فترة القتال فى حربى ١٩٦٧ «٦ أيام» ، ١٩٥٦ «١٠ أيام» كما تزيد

على ثلاثة أمثال الأولى ، وقد لا تقل كثيرا عن مجموع أيام القتال فى معارك العرب الثلاث ضد إسرائيل منذ ١٩٤٨ ، انها باختصار أطول حرب خاضتها العرب ضد العدو ونجحت فى فرضها عليه رغم كل خططه ومبادئه العسكرية . أما خارج دائرة الصراع ، فإنها تكاد تعادل ضعف طول حرب الهند ـ الباكستان «١١ يوما» آخر وأقرب حرب محلية قبل أكتوبر .

مع ذلك ، وهنا المفارقة ، فقد اكتسبت حربنا فى بدايتها على الأقل شكل الحرب الخاطفة بطريقة أو بأخرى ، فلا سبيل إلى الشك فى أن افتتاحية العبور وملحمة الخط كانتا قطعة من الحرب الخاطفة ، صاعقة سريعة وقصيرة وأخاذة كالعاصفة وضربة المائة والمائتى طائرة الكاسحة فى ساعة الصفر لا تفعل سوى أن تستكمل كل مقومات الحرب الخاطفة .

والواقع أن السرعة المطلقة كانت شرط نجاح تلك المراحل الأولى ، بعدها فقط كان يمكن للحرب الطويلة الممطوطة أن تبدأ ، تلك الحرب التصادمية والاستنزافية التى كان لابد منها لتحسم الصراع على الأرض . فبينما استغرقت عملية العبور واقتحام خط بارليف ، وانتزاع رأس جسر وموطىء قدم على الضفة الشرقية عدة ساعات فقط استوعبت معركة البر السينائى بقية أيام الحرب التى تناهز العشرين يوما .

والمعتقد أنه بين هذين القوسين الخاطفين ، الضربة الجوية والعبور ، كان قد تحدد مسار ومصير المعركة كلها ، حتى ليسمى البعض حرب أكتوبر «بحرب الساعات الست» على غرار ما سميت حرب يونيو «حرب الأيام الستة» أو ربما على سبيل النقيض ، أو لعله الانتقاد . المهم أن حرب أكتوبر وإن تكن أطول حرب فى تاريخ الصراع الا أنها أيضا تنطوى فى ثناياها على حرب خاطفة جدا . وتلك كانت المفارقة الثانية فى هذه الحرب العجيبة .

كانت المعركة اذن مزاوجة تكاملية بارعة ومتوازنة بين نوعى الحرب القصيرة والطويلة الأمد ، تأخذ محاسن ومزايا كل منهما دون أضداد وعيوب أى منهما ، ولكن هذا إنما يذهب ليؤكد لنا ثلاث حقائق لا ينبغى أن تغيب عن أنظارنا قط . تلك على الترتيب هى : اعادة تقدير طول الحرب الحديثة ، أهمية دور موردى السلاح فى الحرب الحديثة ، اعادة تقدير قدرات العدو وقدراتنا على أشكال الحرب الحديثة .

فعن الأولى ، لم يعد شك أن الحرب الحديثة هى بطبيعتها أميل إلى القصر ، ومن ثم الى نوع الحرب الخاطفة بالضرورة ، فالأسلحة الحديثة خاصة الجوية والالكترونية ، شديدة الفاعلية وسريعة المفعول ، شراهتها التدميرية بلا حدود . واذا كانت إسرائيل مجرد مقلد لأستاذتها النازية فى تبنى الحرب الخاطفة ، فمن المحتمل أن هتلر لم يكن المؤلف الحقيقى للبليتزكريج ، وإنما هو اكتشف فقط الامكانيات الكامنة والطبيعية للسلاح الحديث . واذا كانت حرب فيتنام حرب سنوات، فذلك لطبيعتها الخاصة جدا سياسيا وعسكريا ، بينما ضاعت باكستان الشرقية فى ١١ يوما ولم يكن مجموع الأسلحة والقوات المحشودة فى حربها ليقل كثيرا عما ألقى به فى معركتنا الأخيرة .

وحسبنا فى هذا الصدد أن نذكر أن مجموع خسائر كل اطراف المعركة قد قدر بنحو ٢٥٠٠ دبابة «ذكر وزير الدفاع الفرنسى أن مجموع ما دمر ٤٠٠٠ دبابة ، ٦٠٠ طائرة» ، فإذا علمنا أن طاقة انتاج دولة كبيرة كفرنسا من الدبابات لاتزيد على ٣٠٠ دبابة سنويا ، لكان معنى هذا أن المعركة التهمت منها فى ٢٠ يوما ما يعدل انتاج ٨ أو ٩ سنوات «فى تقرير للكونجرس الأمريكى أن معدل الانتاج الأمريكى من الدبابات هو دبابة كل يوم أو ٣٦٥ تقريبا فى السنة» وهو يعنى أيضا أن طول مدة المعركة يتوقف على كمية ورصيد السلاح المتاح للطرفين ، أحدهما أو كليهما ، ويتناسب معه تناسبا طرديا فى التحليل الأخير .

وهذا كله يعنى أن الفارق الزمنى بين ما نسميه الآن الحرب الطويلة والقصيرة قد انكمش وتضاءل كثيرا بحيث اقتربت النهايتان العظمى والصغرى وتقارب النقيضان فأصبح الفرق بينهما محدودا نسبيا كما وكيفا ، لم يعد التمييز بين الحرب الطويلة والقصيرة بالسنين أو بالشهور وإنما بالأسابيع وربما بالأيام ، وعموما فلقد اثبتت معركتنا أن الحرب الحديثة أصبحت قصيرة للغاية ، بضعة أو عدة أسابيع على الأكثر أو فى الأعم الأغلب .

ويترتب على قصر الحرب الحديثة نتيجة أخرى بالغة الأهمية ، وهى دور عنصر المفاجأة ، لقد تحدث المعلقون كثيرا ، وبكثير من القلق ، عن دور المفاجأة فى انهيار الاستحكامات والخطط الاسرائيلية وانكسار اسرائيل . وكان فى اذهانهم الأخطار المشابهة التى يمكن أن تتعرض لها الدول الكبرى اذا هوجمت فجأة . والسبب

لاشك ، أو جــزء منه بالأصح ، أن الحرب الحديثة ، وهي على هذا القصر والســرعة ، لا تكاد تســتوعب مفاجأة الهجوم حتى تكون أيامها الباقية قد أصبحت معدودة ، فهى لا تتحمل المفاجأة ثم الاستمرار طويلا .

لقد كان من الممكن فى الماضى أن يتلقى طرف ضربة خطيرة فى مفاجأة مباغتة ، ولكن تستطيع الحرب أن تمضى بعدها لشهور أو لسنين ، أما الحرب الحديثة التى لا تتجاوز عدة أسابيع فى الظروف العادية ، فان مفاجأة تتم فى يوم أو اثنين قد تحسمها ، ربما نهائيا ، فلا تستمر بعدها الا أياما معدودة ، باختصار ، ان الحرب الحديثة ، مثلما هى قصيرة بالطبع ، تعطى الهجوم المفاجىء دورا حاسما أو ميزة لم يسبق لهما مثيل فى تاريخ الحروب تقريبا .

وهذا ما يؤدى بنا الى الحقيقة الثانية التى جسمتها المعركة . فلأن صراعنا يعتمد فى كلا طرفيه على السلاح المستورد أساسا ، فإن كمية هذا السلاح ، وبالتالى مدى طول المعركة ، تتوقف فى المحل الأول والتحليل الأخير على ضوابط خارجية ، هى السياسات أو القدرات التسليحية للقوى العظمى الموردة . وجزء مهم جدا من هذه السياسات «حسابات التوازن» وهذه القدرات «تكنولوجيا اللوجستية أو النقل» هو عملية الإمداد بالأسلحة «أثناء» المعركة ، فقد أصبح لها دور خطير فى اطالتها أو تحديد طولها .

ولما كانت القوى العظمى هى وحدها اليوم القادرة على انتاج السلاح العصرى المتطور ونقله بالحجم والسرعة اللازمة لحرب حديثة ، فقد بات من المقرر أن الدول الصغيرة والنامية ومن فى حجمها لا تستطيع الآن أن تخوض حربا حــديثة بغير الاعتمــاد اعتمادا كليا تقريبا على مورد مضمون من بين تلك القوى العظمى . أبعد من هذا ، يصل البعض الى حــد التنــبؤ بأن الحروب المحدودة بين الدول غير العظمى غير المنتجة للسلاح العصرى الحديث قد تنقرض بالتدريج وبانتظام؟» .

مهما يكن ، فلما كانت الولايات المتحدة ، مورد العدو ، مستعدة للتصاعد إلى النهاية وبلا نهاية فى تسليحه كما وكيفا ، فإن هذا يعطى للعدو الاسرائيلى قدرة لم تكن متوقعة أو غير محسوبة على الاستمرار في القتال تكاد تصل إلى حد الحرب الطويلة ، ولقد رأينا كيف أن العدو بدأ بالفعل معركة ثانية جديدة تماما بعد أن كاد رصيده من السلاح والذخيرة ينفد فى معركة أولى خاسرة ، وذلك دون انقطاع فعلي ظاهر بين المعركتين .

كذلك فلما كانت اسرائيل تعتمد اقتصاديا وماليا على مساعدات أمريكا وقروضها وجباياتها المتواصلة بلا حدود ، فإن هذا يساعدها على الصمود التعبوى فترة أطول مما كان يمكن لها وحدها ، ويساعدها على الاستمرار فى القتال رغم الحدود الصارمة والسلبيات التى تفرضها التعبئة العامة وغياب الأيدى العاملة عن الانتاج وتوجيه الموارد المالية الى الحرب .. الخ .. ورغم الضربة الحقيقية التى أصابت الاقتصاد الاسرائيلى من الحرب ، فقد ظل القطاع الصناعى مثلا يعمل بنحو ٧٢٪ من قواه العاملة فى الظروف العادية ، وبالنسبة نفسها تقريبا من طاقة الانتاج ، ٧٥٪ كما أعلن وزير التجارة بارليف ، ولو أن خطوطا معينة هبطت هبوطاً ذريعا كالبناء الذى تدهور بنسبة ٤٠٪ من حجمه العادى والنشاط التجارى الذى بلغ ٣٠٪ من حجمه العادى . كذلك استطاع اقتصاد العدو أن يتحمل الحرب ٢٠ يوما والتعبئة العامة أو شبه العامة لفترة أطول مازالت ممتدة حتى الآن .

والخلاصة النهائية هى أن إسرائيل وان كانت بتكوينها الذاتى الخاص قصيرة النفس ولا تتحمل الحرب الطويلة المطوطة جدا ، فإننا ينبغى أن نتحفظ نوعا فلا نبالغ فى حدود هذه الحقيقة . لقد ألفنا أن نقول إن اسرائيل لا تتحمل الحرب والتعبئة العامة لأكثر من بضعة أسابيع أو لنحو شهر على الأكثر دون أن تنهار اقتصاديا ، غير أن التجربة إنما تشير الى صعوبات هائلة حقا ، لكن دون أن تصل الى حد الشلل المقعد ، وبالفعل ، أعلن القائد العام المصرى مؤخراً أن إسرائيل لا تتحمل التعبئة العامة لأكثر ولكن ليس أقل ، من ثلاثة شهور ، والسبب فى هذا ، أولا وأساسا ، أن وراء اسرائيل المنظورة إسرائيل غير المنظورة التى تدخل المعركة دائما وعند الضرورة بطريقتها الخاصة ثم ثانيا ما رأينا من أن «طويلة وقصيرة» و«خاطفة وتقليدية» أصبحت مفردات متقاربة نسبيا فى قاموس الحرب .

الحقيقة الثالثة والأخيرة التى تؤكدها المعركة هى أننا اذا كان علينا ألا نبالغ فى تقدير عجز اسرئيل دون الحرب الطويلة المدى أو ضعفها ازاءها ، فليس لنا كذلك أن نفترض أنها وحدها التى تملك القدرة على الحرب الخاطفة ، لقد ظلت اسرائيل طويلا تتباهى فى العالم بقدرتها على الضربة الخاطفة المكثفة التى تعبر عن قدرات خارقة فى الاعداد والتخطيط والتنظيم والتنفيذ تمثل في الواقع جماع القدرة الحضارية والتكنولوجية لأى دولة . وكل ما كتبته إسرائيل وأذاعته فى العالم ، بحيث جعل من الضربة الجوية فى

صباح ٥ يونيو بل ومن معركة يونيو كلها أسطورة سحرية ، إنما كان يعنى شيئا وحدا أرادت أن تثبته فى عقل العالم ووجدانه وهو احتكار الكفاءة ، رمزا وترجمة عملية للتفوق الحضارى والتكنولوجى والعسكرى .

ولقد جاءت حرب أكتوبر تكذيبا عمليا لهذا الادعاء العريض ، فقد أتت مقدمتها الخاطفة ضربة لأوهام العدو النظرية كما كانت لقواته المسلحة فى الميدان، من ناحية لأنها اثبتت القدرة العربية على التخطيط الثاقب والواثق والانضباط المطلق والتنفيذ الدقيق السليم لعملية هى بالطبع فائقة التكثيف والتعقيد ـ والمخاطرة أيضا . ومن ناحية أخرى لأنها أثبتت عجز العدو عن توقى الضربة المفاجئة وكشفت مدى الفوضى والانهيار فضلا عن الجزع والرعب الذى أصاب قياداته وقواته التى أمسكت بها القوات العربية وهى «عارية» كما وضعها صحفى عربى . وفى هذا كله فلقد استفاد العرب من أخطائهم فى يونيو وطبقوها على العدو . ان الحرب الخاطفة لم تعد حكرا على العدو ، لأنها أيضا ملك للقدرة العربية ، فضلا عن أنها الى حد معلوم شىء كامن فى طبيعة الحرب الحديثة عامة وفى عملية العبور والاجتياح فى حالتنا خاصة .

حرب طيران حسمتها الصواريخ

من أكبر مفاجآت أكتوبر التى ألهبت خيال العسكريين فى كل الدنيا وأثارت دهشتهم «وكذلك مخاوفهم» بروز دور الدفاع الجوى بعامة والصواريخ المضادة للطائرات بخاصة ، وبالأخص صواريخ «سام» بأنواعها وعائلاتها وبنسلها وأجيالها المتعاقبة «٢ . ٣ ثم ٦ . ٧». وهذه الصواريخ تتعامل مع الطيران العالى والمنخفض ، كما تنقسم الى ثابتة ومتحركة ذات قواعد أرضية أو ميكانيكية أو محمولة على أكتاف المشاة . ولم تكن سام ٢ ، ٣ جديدة على المعركة ، فقد أثبتت وجودها فى نهاية حرب الاستنزاف بعد أن أقيمت شبكة الصواريخ المصرية الشهيرة على القناة قبل وقف اطلاق النار فى ١٩٧٠ ، تلك التى وصفتها مايير فى حينها بأنها «كعش الغراب المشئوم ، كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى بدلا منها» .

فى تلك المرحلة أسقطت الصواريخ عددا ضخما من طائرات العدو بصورة روعته ودفعت به فى النهاية الى قبول وقف اطلاق النار ، (فى نوفمبر ١٩٧٠ قدرت مجلة افييشن ويك الأمريكية خسائر اسرائيل بنحو ٥٠ طائرة ، ثلثها دمر ،

والثلثان اصابات) ولعلنا نذكر كيف تورط أبا ايبان حينذاك فى تصريحه المشهور عن «تاكل» سلاح طيرانهم ، ثم صرخته «إنهم يسقطون طائرة بملايين الدولارات بصاروخ بآلاف الدولارات!» ..

واستفادة من هذه التجربة المريرة ، كان العدو قد استعد بالأجهزة الالكترونية الأمريكية المضادة للحد من خطر هذه الصواريخ ، غير أن سام ٦ و ٧ كان المفاجأة الكبرى التى وقف طيران العدو المدجج أمامها عاريا عاجزا شبه مجرد من السلاح ، فتهاوت طائراته أثناء المعركة بالعشرات حتى بلغت المئات ، فانتوم وسكاى هوك وميراج وكذلك هليكوبتر مصفحة ..الخ .. والصورة نفسها تكررت على الجبهة السورية ، وبالنتائج الباهرة نفسها ، واذا صحت التقديرات الأمريكية فإن ٨٠٪ من مجموع الطائرات الإسرائيلية التى اسقطت فى أكتوبر سقطت بفعل الصواريخ أرض - جو مقابل ٢٠٪ فقط سقطت فى المعارك الجوية المباشرة .

والطريف أن العدو حتى بعد أسبوع تساقط الفانتوم فى نهاية حرب الاستنزاف عاود الحرب النفسية ضدنا حفاظاً على اسطورة تفوقه الجوى . فظل يشيع فى الدنيا أننا غير قادرين حتى على حسن صيانة أسلحة دفاعنا الجوى فضلا عن حسن استخدامها ، وعلى هذ الأساس كتب أصدقاؤه - النيوزويك فى ١٩٧٣ - أنه «يمكن لإسرائيل أن تكتسح طول مصر وعرضها بدون أى مقاومة أو مواجهة من قوات الدفاع الجوى ، كما يمكنها تدمير عناصر الدفاع الجوى بالسرعة نفسها التى تم بها ذلك عام ١٩٦٧ ».

ولكن فى أكتوبر فشل طيران العدو فى التشويش على دفاعنا الجوى كما كان يأمل ، «وتغلب الذكاء المصرى على الخداع الإسرائيلى» كما وضعها قائد قوات الدفاع الجوى المصرى ، وبهذا فشل فى ضرب معابرنا وجسورنا أولا ثم زحف مدرعاتنا بعد ذلك ، وكانت المعركة مبارزة مصيرية بين التفوق الجوى الذى بنى عليه العدو كل استراتيجيته وبين دفاعنا الجوى الذى كان بلا شك أساس كل استراتيجيتنا القتالية والذى غير شكل المعركة والذى لولاه لتغير الموقف كثيرا وربما النتيجة أيضا . لقد حيد دفاعنا الجوى طيران العدو . ونحن وان لم ننتزع السيادة الجوية من العدو فقد حرمناه منها . وبذلك كان الموقف أقرب إلى التعادل أو التكافؤ الجوى ، الأمر الذى ترك للمعركة البرية أن تمضى حرة مباشرة فكان نصرنا المحقق فيها أمرا مقضيا .

ولنتوقف قليلا هنا عند تعليقات بعض المراقبين المحايدين ، قال توماس تشيتام مراسل اليونايتيد بريس «ان الطيران الاسرائيلي لم يتمكن من تحقيق النجاح الذى كانت عامة الشعب الاسرائيلي تتوقعه له قبل الحرب . لقد اتضح من خلال سير العمليات أن التأكيدات الرسمية التى كانت تتحدث عن قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على القيام بعمل سريع ضد العرب فى حالة تجدد القتال كانت مزاعم غير دقيقة» أما جان فرانسوا لى موف فقد كتب يقول «لقد شد انتباه الخبراء الغربيين الذين درسوا سير الصراع العربى الاسرائيلى وفنون الحرب التى استخدمها المتحاربون أنه بينما انتصر الاسرائيليون عام ١٩٦٧ بفضل تفوقهم الجوى الكامل ، اذ بنشاطهم الجوى يتضاءل هذه المرة فى القتال والقصف بفضل تسلح العرب بالصواريخ طراز سام» حتى العدو نفسه قالها ، فقد نقلت الجيروزاليم بوست عن قائد من القوات الجوية الإسرائيلية تصريحه بأن «الدفاع الجوى المصرى يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، تفوق تلك التى واجهها الأمريكيون فى فيتنام» «مقتبسة فى كتاب حرب رمضان» .

ولم تكن تلك الطفرة نقطة التحول الحاسمة فى المعركة وحدها فقط ، ولكن فى كل تاريخ الحرب الجوية الحديثة . فعلى حد تعبير الجنرال بوفر «لقد أدى توفر الصواريخ المضادة للطائرات لتقديم الوقاية الفعالة للقوات البرية ـ حتى فى غياب الحماه بواسطة الطائرات ـ أدى الى خلق موقف جديد تماما لم يسبق ممارسته فى الحروب السابقة ، وأعنى به ذلك التوازن بين القوات الجوية لدى الطرفين الذى خلق موقفا يختلف تماما عما لمسناه فى الحرب العالمية الثانية أو فى الجولات العربية الإسرائيلية السابقة ، عندما كان أحد الخصمين ينجح فى احراز التفوق أو السيطرة الجوية على سماء المسرح خلال المرحلة الافتتاحية أو الأولى للحرب». فرغم أن الطيران المصرى والسورى تصدى باقتدار وكفاءة وندية كبيرة لهجوم العدو الجوى ، فقد كان تركيزنا الأساسى فى المواجهة على الدفاع الجوى ، احتفاظا بقوة الطيران الرئيسية لمراحل الصراع القادمة . وبهذا انحصرت المعادلة أساسا فى الدفاع الجوى العربى ضد الهجوم الجوى العدو ، فكانت حرب صواريخ في الدرجة الأولى ، واذا كان السلاح الجوى هو العمود الفقرى فى جهاز الردع العسكرى الإسرائيلى ، فقد كان الدفاع الجوى هو العمود الفقرى لقواتنا فى ردع الردع الإسرائيلى .

وهنا كانت المفارقة : فلقد كنا ـ جويا ـ «نهاجم» بالدفاع ، بينما كان العدو «يدافع» بالهجوم ، وفى هذا السياق كتبت مجلة تايم الأمريكية «ان التقدم المصرى عبر قناة السويس قد برهن على أن الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات على السواء يمكنها أن تلعب دورا هجوميا أيضا ـ رغم أنها أسلحة دفاعية ـ حيث انها مكنت القوة المهاجمة من اقامة وحماية رءوس الجسور وتدعيمها بقوات المشاة الميكانيكية والمدرعات بعد أن قامت بشل فاعلية طيران العدو ومدرعاته ـ التى تمثل أسلحة الردع الإسرائيلية ـ وكبدته الكثير من الخسائر» .

لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع ! انتصر الدفاع ، وعلى صخرته العتيدة تحطم سلاح الطيران الإسرائيلى ، العمود الفقرى «لجيش الدفاع» ، أو بالأحرى «سلاح القرصان الجوى فى «جيش العدوان الإسرائيلى» ومعه تحطمت الى الابد اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا ودعاية ، وحاول أن يملأ بها قلوبنا خوفا أو قلقاً . كذلك تحطمت تلك الفروق الصارمة يضعها البعض بين أسلحة «دفاعية» وأخرى «هجومية» ، وأثبتت المعركة أن كل سلاح يصلح ويمكن أن يستخدم للغرضين ، وإنما يتوقف الأمر على الاطار أو السياق الاستراتيجى .

ولعل من الملائم والمفيد هنا أن نقتبس خلاصة تحليل مركزة وواعية لمعركة أكتوبر الجوية قدمها الجنرال السوفييتى ميخائيل تومينكو فى النجم الأحمر ، فهى تلقى من الضوء بقدر ما تبدد من وهم . فحرب الشرق الأوسط كما يقول الجنرال دمرت اسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى «الذى لا يهزم» والدفاعات العربية المضادة للطائرات «قد لقنت درسا قاسيا لقراصنة الجو ، واظهرت مقدرتها على الدفاع عن مواقع قواتها وعن المنشآت العسكرية والمدنية وعلى الحاق خسائر جسيمة بالعدو» ويضيف تومينكو أن «إسرائيل التى كانت تأمل أن تحتفظ بالتفوق الجوى قد أخفق سلاحها الجوى فى الالتجاء الى أسلوبه المفضل الذى كان يعتمد على الأعمال الفجائية» . ثم يحلل الجنرال أسباب الخسائر الفادحة فى الطيران الإسرائيلى ، فيردها الى الروح القتالية العالية للعاملين على الصواريخ المضادة للطائرات وللطيارين على المقاتلات ، وما وصلوا اليه جميعا من مستوى فى التدريب ، والى هذا يضيف ثقتهم بقواتهم وإيمانهم بعدالة القضية العربية ، ثم أخيرا وليس آخرا تنظيم أجهزة الدفاع الجوى والتعاون الوثيق بين كل هذه الأجهزة والعناصر .

تلك إذن قصة الصـــراع على سماء المعركة وتلك نتائجها . وإذا كان هناك من مغزى تطورى شامل لها ، فهو بلاشك تناقص دور الطيران نسبيا فى المستقبل ، لقد كان الطيران ـ اعظم سلاح هجومى فى الحرب الحديثة ـ يتسيد أسلحة الجيوش عموما وباطراد ، ويوشك فى وقت ما أن يحتكر كل الأهمية والسيطرة بينها . كانت الحرب بمعنى اخر ، «تنتقـــل» حثيثا وبقوة من الأرض الى السماء ، وتنذر اذا ما استمر الاتجاه دون تغيير بأن تغـــادرها تقـــريبا تاركة لها دورا طفيفا متضائلا باطراد . حرب أكتوبر انزلت الحرب من السماء واعادتها إلى الأرض أكثر ، وبالتـــالى أعادت الى القوات البرية كثيرا من قيمتها القديمة ، إن الطائرة وان لم تفـــقد قيمتها فقد فقدت سيادتها .

أما على المستوى العام والعالمى ، فقد أحدث ذلك كله انقلابا كاملا وثورة جذرية في استراتيجية الحرب الحديثة كما اتفق كل المختصين ، فكان حكمهم بالاجماع أن عصرا جديدا قد بدأ فى تاريخ الحرب الحديثة ، وأن سام ، وسام ٦ بخاصة ، هو الذى دشن هذا العصر وهو سيده ، انه أساسا عصر الصواريخ والدفاع الجوى ، بينما تراجع عصر التفوق الجوى تقريبا أو هو فى سبيله إلى الانكماش ، لا ، ولم يعد السلاح الجوى سيد حرب الصحراء كما أوحت التجارب السابقة ، ولا هو بالضرورة سيد الحرب الحديثة عموما ، أو كما ذكر لى موف «يرى بعض الخبراء العسكريين أن مبدأ التفوق الجوى الذى اعترف به خبراء الاستراتيجية منذ الحرب العالمية الثانية قد يعاد النظر فيه على ضوء أحداث الجولة الرابعة ، بينما لا يتردد البعض الآخر فى تأكيد أن هذا المبدأ قد انهار تماما» .

انقلاب راديكالى وخطير فرض على كل الدول والجيوش والصناعات الحربية أن تعيد حساباتها وخططها الاستراتيجية كلية فى مواجهة عصر الصواريخ الجوية . ومن ناحية أخرى انتهى البعض إلى أن امتلاك عنصر المفاجأة العسكرية لا يكفى لتحقيق النصر ، ما لم يصاحبه ضرب القوة الجوية للعدو منذ اللحظة الأولى ، هذا بينما راح البعض الآخر يتنبأ بأن طيران المستقبل سيكون كله بلا طيارين ، وآخرون ذهبوا إلى أن تكاليف انتاج الطائرات سترتفع الى مستويات فلكية ومانعة .. الخ .. الخ .

وقد عبر عن هـــذه الطفرة كلها بالدهشة «والقلق أيضا!» وزير الجيش الأمريكى نفسه حيث قال «إن عبور القوات المصرية لقناة السويس فى مواجهة التفـــوق الإسرائيلى فى

القوة الجوية يعتبر علامة بارزة فى الحروب الحديثة ســـوف تؤدى الى تغييرات فى الاستراتيجية العسكرية العالمية .. ان حرب الشـرق الأوسط قد فجرت وبددت الكثير من المفاهيم ، فلأول مرة فى التـاريخ الحـديث تتمكـن قوة عسكرية من انجاز عملية عبور ضخمة لقنـاة تمـــاثل النهر دون أن تفقد أى طائرة من طائراتها ، وذلك فى وجـــه عدو يملك سلاحا جويا متفوقا ، ولقد تمت عملية العبور بصواريخ متطـــورة ، ممـــا يجعل من الضرورى ادخال تغييرات جديدة على الاستراتيجية العسكرية» . وعلى هذا الأساس أعلنـــت وزارة الدفـاع الأمريكية عن بدء برنامج لتطوير أسلحة الدفاع الجوى ، يركز على انتاج طراز معدل من الصواريخ المضادة للطائرات ويعطى الأولـــوية للصواريخ أرض - جو .

وبالمثل أعلن جـــالليه وزير دفاع فرنسا أن حكومته ستطبق الدروس المستفادة من معارك الميدان فى الشرق الأوسط فى تطوير خططها العسكرية والدفـــاعية ، خاصة فى مجـــالات الصواريخ الدفاعية المتوسطة المدى والمشاة الميكانيكية والصواريخ المضادة للدبابات .. الخ .

وأخيرا ، وعلى سبيل المثال أيضا ، فلقد بدأ حلف الاطلنطى ينظر بقلق حاد إلى التوازن العسكرى بينه وبين حلف وارسو ، فسلاح الحلف الأخير هو نفسه السلاح الذى استعمله السوريون والمصريون فى أكتوبر بكفاءة وخطورة ، وبالتالى يلقى بظلال كئيبة على مصير وفاعلية أى مواجهة مسلحة فى أوربا ، لاسيما أن سلاح حلف الاطلنطى هو نفسه سلاح إسرائيل فى المعركة بل قد يكون أقل تطورا من هذا الأخير فى خطوط معينة اختصته بها أمريكا دون حلفائها الأوربيين . أما من جانب الصناعات الحربية ، فقد أوقفت بعض مصانع السلاح فى العالم بالفعل انتاج بعض خطوطها التقليدية والمفضلة سابقا ، وبدأت تخطيطا جديدا تماما للانتاج .

حرب دبابات ضد مشاة

وهذا الذى قلناه عن الحرب الجوية يصدق تماما ، وربما بصورة أكثر درامية ، على الحرب البرية ، وبخاصة حرب المدرعات أو الدبابات. فقد سجلت معركة أكتوبر انقلابا آخر لا يقل خطرا ونتائج واثارة فى الحرب الميكانيكية ومعارك المدرعات ، كما سجلت مفارقة أخرى فذة فى تاريخها .

فمن الغريب أن الحرب شهدت ما قد يعد أكبر معركة دبابات فى التاريخ الحديث ، أكبر على وجه اليقين من العلمين وعلى وجه الاطلاق من ستالينجراد ، ولقد رأينا كيف شاركت من الجانبين نحو ٤٠٠٠ دبابة فى الصراع الرهيب ، وكيف بلغت الخسائر المشتركة نحو ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ دبابة . ومع ذلك فلقد أثبتت المعركة نتيجة ثورية ومتناقضة جدا : أثبتت فى تقدير البعض نهاية عصر الدبابة ، لقد كانت المعركة أكبر ، وربما فى الوقت نفسه ، آخر معركة دبابات فى التاريخ المعاصر على ما يبدو ! لقد ولدت الدبابة فى الحرب العالمية الأولى ، وماتت فى حرب أكتوبر ، عمدت فى بريطانيا ودفنت فى سيناء والجولان على مايرى البعض ، خلقها الانجليز وخنقها العرب .

الأغرب بعد ذلك كله أنها ليست كما ظن الكثيرون معركة دبابات ، بل معركة مشاة أولا وقبل كل شيء .. ذلك أن المفاجأة الصادمة هنا كان ظهور الصواريخ المضادة للدبابات والموجهة الكترونيا ، سواء المحمولة على منصات وقواعد متحركة أو المحمولة على أكتاف المشاة «صواريخ ساجر وسنابير ومولوتكا والاربيجى السوفييتية الصنع ، يقابلها صواريخ س . س ـ ١١ وتاو الأمريكية الصنع» ، هذا بالطبع عدا المدفعية المضادة للدبابات وغيرها . فكانت أرتال دبابات العدو ومدرعاته ، التى يعتمد عليها بعد السلاح الجوى مباشرة ومعه أساسا ، كانت تذوب وتتلاشى أمام صواريخنا المضادة بأنواعها المختلفة «أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أن المصريين دمروا نحو ٢٠٠ دبابة إسرائيلية فى الأيام القليلة الأولى من المعركة باستخدام القذائف الموجهة الكترونيا» .

ولقد كانت الصدمة الصاعقة للعدو بوجه خاص هى صواريخ المشاة ، هؤلاء الذين لم يكن يعتد بهم تقليديا فى الحرب المدرعة الحديثة، والذين كانوا ـ كالفرسان من قبل ـ يمثلون آخر مخلفات وزوائد وبقايا الحرب القديمة ، ولعل مما له مغزاه الدال فى هذا السياق ذلك التشبيه التاريخى الذى ذكرته النيوزويك نقلا بعض الخبراء العسكريين ، فلقد قارنوا بين نجاح الأسلحة السورية والمصرية الجديدة وبين الدمار الذي أحدثه اكتساح المشاة الانجليز للفرسان الفرنسيين في موقعة كريسى الشهيرة فى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد فتك المشاة المزودون بالأقواس البعيدة المدى بالفرسان الراكبة فتكا ذريعا .

ففى أكتوبر كان رجل المشاة الراجل يواجه الدبابة المدرعة بشخصه وبصاروخه على كتفه ، فيحيلها بقذيفة واحدة أحيانا الى حطام يحترق . ومن هنا فكما كانت المعركة

تصادمية بين مدرعات ومدرعات وبين دبابات وصواريخ مضادة للدبابات ، كانت أيضا مواجهة بين المدرعات بمدافعها وبين المشاة بصواريخها . وليس هناك أدنى شك فى تفوق الجانب العربى فى الحالين . فكما اعترف آلون فى حديث الى ايديعوت أحرونوت ، فإن المشاة المصريين برهنوا على بسالة عظيمة ، كما أن القوات العربية تعلمت جيدا كيف تقاتل ليلا . وكما صرح وزير الدفاع الأمريكى فى مارس ١٩٧٤ فإن الدراسات التى أجراها خبراء الأسلحة فى الجيش الأمريكى على الدبابات التى استخدمتها إسرائيل فى أكتوبر لم تثبت وجود عيوب خطيرة فيها ، ولكن اللوم فى الخسائر الجسيمة التى منى بها الإسرائيليون فى دباباتهم إنما يقع على «الأساليب الإسرائيلية الطائشة والاستخدام العربى المركز للصواريخ المضادة للدبابات» .

وبقدر ما أعاد هذا كله المشاة الى قلب الصورة بقدر ما حدد مصير المدرعات، إنها عودة المشاة وربما نهاية الدبابات أو بداية نهايتها . فلم تعد المدرعات سيدة الحرب البرية، ولا الدبابة بالضرورة سيدة حرب الصحراء تصول فيها وتجول فى مناورات الحركة السريعة والالتفاف الواسع المدى كما كان دورها فى العلمين مثلا. وإنما انتقلت السيادة الأرضية عموما إلى الصواريخ المضادة للمدرعات ، وعلى رأسها المشاة الصاروخية بالذات .

وقد أدى هذا كله بأحد المعلقين العسكريين الى انتهاء خطير مؤداه أن مستقبل الدبابة فى خطر «وأن أيام الدبابة قد أصبحت معدودة فى الحرب الحديثة» كما كتبت مجلة تايم فى نوفمبر قائلة «ان التكنولوجيا المصرية قد جعلت العصر الذى كانت الدبابات والطائرات تسود فيه ميدان القتال يذهب فى ذمة التاريخ» ولكن البعض يرى أن من الحكمة أن نتحفظ قليلا ، فربما كان مثل هذا الجزم القاطع سابقا لأوانه ، ولابد من التريث بعض الوقت قبل أن تتحول الدبابات والمدرعات نهائيا إلى قطع متاحف .

وعلى أية حال فلقد فرضت معركة أكتوبر على العسكريين قضية الصراع على السيادة فى الحروب بين الدبابة والصاروخ المضاد لها . وإذا كان البعض يرى أن تجربة أكتوبر قد أفقدت الدبابة سيادتها ، فإن هناك من يعتقد أن من الممكن لها أن تحتفظ بأهميتها ودور مهم اذا ما ركبت عليها حوامل صواريخ مضادة . فإذا صح هذا أو حدث ، فلن يكون له فى الحقيقة من معنى سوى أن الدبابة قد بعثت وعاشت مرة أخرى من خلال مصل أو لقاح مضاد اتخذته بالدقة من سمها القاتل نفسه .

هذا عن الدبابات ، أما عن المدفعية ، من الناحية الأخرى ، فلقد أثبتت المعركة خطورتها وأكدت دورها وبقاءها ، وذلك أمر منطقى فى الواقع ، فما الصواريخ نفسها ، سواء المضادة للدبابات أو للطائرات ، الا امتداد وتطوير بشكل ما للمدفعية ، وعلى أية حال ، فمن السهل بعد هذا أن نتصور الانقلاب الهائل والعميق الذى سوف تحدثه هذه التطورات على هياكل الجيوش وصناعات التسليح واستراتيجية الحرب فى المستقبل على المستوى العالمى جميعا ، ولقد قررت أمريكا أخيرا بالفعل مضاعفة انتاجها من الدبابات ومن الصواريخ المضادة لها فى الوقت نفسه ، الأولى تعويضا لاستنزافها على يد إسرائيل، والأخيرة كدرس أكتوبر بلاشك .

حرب التكنولوجيا ضد القوة البشرية

ونصل أخيرا من مجموع هذه الانقلابات والطفرات الثرى الى خاتمة ، وربما كبرى ، الحقائق - النقائض التى دفعت بها حرب أكتوبر الى المقدمة . انها أول حرب الكترونية فى التاريخ كما وصفت ، ولكنها بمنطق ديالكتيكى مثير أعادت الى عامل القوة البشرية وزنه وقيمته الحاكمة . أى أنها بداية حرب التكنولوچيا العظمى ، ولكن أيضا نقطة عودة القوة البشرية .

والأصل - نظريا - أن التكنولوجيا فى الحرب بديل القوة البشرية تختزلها وترثها وقد تجبها تماما ، مثلما تحل الآلة محل الإنسان فى الحياة العادية وحضارة السلم . ولكن معركة أكتوبر ، على شدة اعتمادها على أحدث وأرقى ما توصلت اليه تكنولوجيا الحرب وصناعة السلاح ، هى التى لأول مرة أعادت التوازن الى طرفى معادلة التكنولوجيا - الإنسان ، وأعادت القوة البشرية بالتالى الى مكان الصدارة فى الحرب الحديثة .

وللقوة البشرية Manpower - والتعبير أصلا من وضع الجغرافى البريطانى الكبير هالفورد ماكيندر ، صكه وأشاعه منذ الحرب العالمية الأولى - للقوة البشرية جانبان متكافئان فى الأهمية : الكم والكيف ، وللكيف بدوره جانبان مماثلان: المادى والمعنوى . فليست القوة البشرية إذن مجرد حجم أو كثافة ، أى عدد القوات ، وإنما هى أيضا نوعية الرجال ، تدريبهم وكفاءتهم وقيادتهم وخططهم ، ولكن أيضا وأولا وقبل كل شىء روحهم المعنوية ودرجة الإقدام والشجاعة والفدائية والإيمان والاقتناع بالهدف الخ .. وبغير هذا مجتمعـا لا نفهم معنى القوة البشرية.

فإذا عدنا إلى المعركة ، فسنجد الصاروخ القاسم المشترك الأعظم فى الدفاع، سواء على الأرض ضد المدرعات أو فى الجو ضد الطائرات، سواء ثابتا أو متحركا، محمولا على قاعدة ومنصة أو على أكتاف المشاة. إنها اذن ليست معركة دبابات وطائرات ضد دبابات وطائرات فقط، ولكنها بالدرجة نفسها أيضا معركة مشاة وصواريخ ضد دبابات وطائرات. وفى هذا قال الجنرال بوفر «لقد ابرزت حرب اكتوبر دروسا عديدة فى المجالات التكتيكية والتعبوية والاستراتيجية. فالصواريخ الموجهة المضادة للطائرات والمضادة للدبابات قد اثبت كفاءتها وبطشها الشديد. وبفضل هذه الصواريخ فشلت الدبابات والطائرات الاسرائيلية فى إحراز التفوق ومالت الموازين الى جانب العرب» . ومن هذه الزاوية فاذا كان من الصحيح تماما ما اضافه بوفر بعد ذلك من أن الحرب اثبتت «أن المعركة فى مجالها الفنى سوف تزداد تعقيدا، نظرا لأن كل خطوة للتطور سوف تعقبها خطوة أخرى مضادة لهذا التطور، وسوف يصبح التفوق التكنولوجى تبعا لذلك شديد الوقع عظيم التأثير على احداث القتال». فلا شك ايضا أن هذا كما رأينا قد أعاد المشاة الى قلب الصورة ومقدمة المعركة، وحد أو خفف من حاكمية الاسلحة الحديثة وخاصة الطيران والمدرعات. وعلى هذا فان المغزى الأعم والأعلى هو إعادة القوة الى عنصر القوة البشرية، جنبا الى جنب مع عامل التفوق التكنولوجى. نعم، العدد والحجم، الكثافة البشرية ونوعية الرجال ومعنويات المقاتل، كلها عادت الى الصدارة. وهذا قلب آخر مثير لقوانين الحرب الحديثة .

وثمة انقلاب ثالث أو رابع أو عاشر تنبىء أو تشى به هذه التطورات لا يقل آثارا وإثارة ، لقد رأينا ان الحرب الحديثة بطبيعتها وبتكنولوجيتها تميل باطراد الى أن تكون حربا قصيرة سريعة مختزلة ومضغوطة، لكن هناك تحفظا استراتيجيا مهما تمليه عودة الأهمية الى عامل القوة البشرية. ففى رأى البعض من الاخصائيين أن تزايد دور القوة البشرية المطرد سيفرض على حرب المستقبل اتجاها مضادا نحو الطول الى حد أو آخر. ستعود الحرب طويلة نسبيا، ليس بطولها فى الماضى البعيد بالطبع، ولكن ليس كذلك بقصرها الشديد الذى يسود حاليا. لن تعود حروب السنوات العديدة، ولكن ستنتهى حروب الايام المعدودة ، لتسود حروب الشهور المعقولة .

وإذا بدا الآن ان معظم هذه الانقلابات والاحتمالات الاستراتيجية التى كشفت عنها المعركة أقرب أن تكون عودا بدرجة ما وبصورة أو بأخرى الى الماضى – العدد والحجم ،

الشجاعة والاقدام، معركة كريسى ، البشر أكثر من السلاح استطالة الحرب نوعا – فليس هذا رجعة أو ردة الى الخلف ولا هو يعيد عقارب الساعة الى الوراء كما قد يبدو على السطح، وانما هو بالاحرى عودا الى الطبيعة، الى طبائع الأشياء، بعد أن كانت التكنولوجيا قد فصلتها عنها كثيرا أو قليلا. الحرب ستعود بالتدريج الى البيئة، تتلاحم وتنسجم معها أكثر، تعكسها ولا تعاكسها، تماما مثلما تتجه الحضارة المعاصرة العادية إلى العودة الى الطبيعة والى البيئة والى الجغرافيا .

والجدير بالملاحظة بعد هذا أن الانقلاب فى جملته يأتى لصالح كثافة السكان ولصالح الدول والجيوش الكبيرة الحجم والشعوب الفقيرة والاقل تنمية وبالتالى فى صف العرب عامة ومصر خاصة فى مواجهة اسرائيل، وبصفة أعم فى صف دول العالم الثالث. لقد فتحت المعركة باب الأمل العسكرى أمام الدول المتخلفة نسبيا. فلقد كشفت حرب اكتوبر عن بديل متاح وميسور للتفوق التكنولوجى الساحق يوازيه ويوازنه ويحيده أو يحد منه، ذلك هو الخزان البشرى العميق وأعماق الشخصية المحاربة.

ولقد كان مما زاع العدو الاسرائيلى بالفعل وروعه فى المعركة قوة الكثافة البشرية (أو كثافة القوة البشرية، سيان) المصرية التى اطلقت عليه أثناء العبور واقتحام الخط وبعدهما. وكما رأينا فلقد حشدت مصر للمعركة ١.١ مليون جندى وسوريا ٢٦٠ ألفاً ، أى بمجموع ١.٣٦٠.٠٠٠ جندى أى مليونا وثلث المليون .

ولعلنا كذلك نذكر كيف أعلن العدو شاكيا صارخا أن نسبة المشاة الصاروخية المصرية الى المدرعات أثناء المعركة بلغت ١:٢ ومن ناحيتنا نحن، فلقد عبر الرئيس السادات فى حديث له الى مجلة الحوادث اللبنانية عن ذلك بصورة حاسمة بقوله : إن اسرائيل اعتمدت على التفوق الجوى لأن القوى البشرية اللازمة لم تكن متوافرة لديها، ولكن حرب اكتوبر اثبتت أن التفوق فى القوى البشرية كان اساس التميز الاستراتيجى، وهذه القوى هى التى أخرجت العدو من المعركة». كذلك عبر أحد القادة المصريين عن الموقف بصورة ثاقبة أمسكت بجوهر التطور كله حين قال إن قواتنا استخدمت فى العبور اعقد الاسلحة المتطورة جنبا الى جنب مع ابسط الوسائل «واكثرها بدائية» .

من الاولى اسلحة الدفاع الجوى والاعاقة اللاسلكية والرادارية، ومن الثانية سلالم الحبال وعربات الجر وتجريف الرمال :

وإذا كان لهذا كله من معنى استراتيجى ، فهو أن العرب قد استثمروا عامل الكثافة البشرية الى أقصى حد ووظفوه فى المعركة بنجاح تام. فالتفوق العددى ، وهو مكفول لنا تماما، هو من أكبر اصولنا فى الصراع ومن أكبر «خصوم» العدو وكان حتما أن نوظفه بكفاءة ، على الأقل تعويضا بالكم عن الكيف ، تماما كما توظف الصين مثلا كثافتها السكانية الهائلة فى مشاريع السلم والحرب على السواء . ولعلها أكثر من مصادفة تشبيه جونين للمد المصرى الذى اجتاح قواته فى سيناء بموجات الهجمات «الصينية». ولقد كان من اخطاء يونيو وادعاها إثارة للدهشة أن العدو حشد فى المعركة قوة بشرية تفوق مجموع القوى العربية مجتمعة! أما معركة اكتوبر، رغم انها اساسا حرب العلم والتكنولوجيا وأول حرب الكترونية فى التاريخ ، فقد أثبتت أن للقوة البشرية - لا يزال - دورها وقيمتها الحيوية ، وخطأ كبير أن يظن أحد أن العدد الحديثة حتى اليوم، تغنى كلية عن العدد فالتفوق البشرى العددى هو بمثابة مضاعفة لعدد الجيوش ورصيد لا ينفد فى وجه أى انتكاسة عارضة. فمع التفوق العددى ، حتى مع تفوق العدو نوعيا يمكنك ان تستهلكه الى حد الاستنزاف بجيش تلقى به وراء جيش إلى أن تنهكه وتنتصر عليه .

كل هذا عن العدد والحجم الخام. ولكن جانب الكيف والنوع والمعنويات لا يقل خطرا أو اثارة فبصفة خاصة يعيد هذا التطور الخلاق الاعتبار الى عامل كان مهما جدا فى القديم وحروب الماضى وخاصة العصور الوسطى ثم أصبح متنحيا فى عصر الحروب العلمية الحديثة، ونعنى به عامل الشجاعة والاقدام أو الفروسية. . فقد كان يقال إن الحرب الحديثة حرب ذكاء وعلم وآلات متطورة وتخطيط معقد. لم يعد فيها مكان كبير للحماسة أو الشجاعة .. إلخ .

حرب اكتوبر اعادت للبسالة والشجاعة وروح التضحية والاقدام كل قيمتها فلأول مرة يلتحم المشاة بالدبابات والمدرعات وجها لوجه، ويتحول المشاة الى دبابات حية فى مواجهة وصفت ببلاغة ولكن بجدارة بأنها مواجهة بين اللحم والصلب وبين الأعصاب والنيران . ولأول مرة يصمد رجال الصواريخ على الارض لسيال نارى متصل من السماء ويقفون فى وجه الطيران الغامر، لقد كانت المعركة معركة الاقدام الراجلة والاقدام الجسور ضد القلاع الزاحفة والفرسان المدرعة، معركة المشاة الحاملة ضد المدرعات المحمولة، أى اساسا حربا بين الشجاعة والمناعة وبين البسالة والحصانة .

وعند هذه النقطة تثور مفارقة أخرى تضاف الى قائمة متناقضات هذه الحرب الفريدة. وهى مفارقة دالة وكاشفة بقدر ما هى طريفة ولاذعة ايضا، لأنها تسخر من العدو فى صميم وهم أثير لديه. فلقد ألف منظرو العدو أن يصوروا الصراع بين العرب وإسرائيل على أنه صراع بين جثة ضخمة ثقيلة غليظة ولكنها متبلدة وعاجزة عن الحركة ، وبين كائن صغير دقيق الحجم ولكنه حركى قادر مفعم بالنشاط والمهارة .. إلخ ، بالتشبيه العبرى التوراتى الأثير : بين جوليات وداود . وقد صنع العدو من هذا المثال الساخر رأسمال عدائيا كاسحا فى العالم وصورة باهرة للدولة الصغيرة المتحضرة المتقدمة التى تقهر دولا عديدة ضخمة وشاسعة .. الخ .

حرب أكتوبر جاءت لتسخر بدورها من هذه السخرية ! فمما لاشك فيه أن من الظاهرات اللافتة للنظر جدا فى المعركة أن العرب إنما تصدت لسلاح طيران ومدرعات العدو بالصواريخ أكثر منها بالطيران والمدرعات . وهذا بحذافيره – أليس كذلك ؟ – هو صميم الصراع بين الوحدات الضخمة الحجم والثقيلة الوزن فى جانب ، وبين الوحدات الصغيرة الخفيفة الوزن والحمل فى الجانب الآخر ، تماما كالأرمادا الإسبانية قديما ، تلك القلاع الضخمة الثقيلة العائمة ، ضد سفن القرصنة البريطانية المرنة الخفيفة السريعة الحركة ، فى ذلك الصراع البحرى المصيرى الذى أنهى خرافة «الأرمادا التى لا تقهر"The Invincible Armada" ولعها أكثــر من مصادفة أن العدو لم يكن يتحدث ، هو الآخر إلا عن جيش الدفاع وسلاح الطيران «الذى لا يقهر».. لقد قهرت المرونة والوحدات السلاحية العربية الصغيرة «غول» الوحدات الضخمة الثقيلة للعدو، ولكن داود هذه المرة عربى وجوليات هو غول العدو!

وهذا بالضبط هو الرد الصحيح الوحيد على كل ما ادعاه العدو أو روج له اصدقاؤه تبريرا للنكسة التاريخية التى منى بها فى المعركة، فلقد ركز كثيرون على الاسلحة المتطورة الممتازة، وخاصة صاروخ سام ٦، فى ايدى السوريين والمصريين، كبطل المعركة ونجمها الوحيد، وذلك عمدا ليبعدوا المقاتل العربى خلف تلك الاسلحة عن دائرة الضوء والتركيز، غير أن الواضح تماما أن فاعلية وكفاءة تلك الاسلحة بالذات، والممتازة بلا أدنى شك، إنما تتوقف أساسا على اليد التى تمسك بها وتشغلها وتسيطر عليها، وكان الانسان العربى المحارب هو البطل الحقيقى فى المعركة .

وهذه الحقيقة نفسها هى التى تفسر تخبط ألعدو فى تبرير هزيمته. فهو مرة يقول إنه فوجىء بموعد الهجوم ثم عاد يقول بل بكمية ونوعية الاسلحة والتدريب ، بل لقد وصل الى حد البحث عن «السلاح السرى» أو «العقار السرى» (حبوب الشجاعة) الذى حمله المقاتل العربى (كذا!) . ولم يكن ذلك كله فى الحقيقة سوى تبرير خاطىء لعدو فاشل على أنه فى النهاية اضطر الى أن يعود فيعترف بأن مفاجأة المعركة كانت هى نوعية المحارب العربى .

رئيس اركان العدو بنفسه أعلنها : «أن كل حرب تحمل معها مفاجآتها»، قال ديفيد اليعازر «وهناك أشياء لا بد لنا أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا بشأنها . وكبرى هذه المفاجآت أن الجنود المصريين، وكذلك السوريين، قد أظهروا قدرا من الكفاءة والتضحية بالنفس وتوفر الدافع يفوق بكثير ما أبدوه فى الحروب السابقة. إن الجيش الاسرائيلى قد فوجىء تماما بتدريب وكفاءة الجندى العربى». لقد اكتشف العدو، متأخرا جدا ، أن «السلاح السرى» أو «العقار السحرى» الذى توهمه مع المقاتل العربى انما هو المقاتل العربى نفسه !

والشىء نفسه اعترف به بارليف حين قال ان المصريين حاربوا هذه المرة بدوافع وطنية أكثر قوة من أى وقت مضى، وأنه لا يستطيع أن يقلل من القوة القتالية للمصريين فى المرات السابقة فقد كانت صفوفهم صعبة التفتيت عندما كانوا يقاتلون من مواقع دفاعية جيدة، ولكنهم فى هذه المرة كانوا أكثر جسارة وتصميما وكانت روح الفداء لديهم لا نزاع فيها ، بل وصلت الى حد المخاطرة. ثم اضاف بارليف أن المصريين والسوريين فضلا عن ذلك قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها. ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم .

عن الاستراتيجية الإقليمية :
دراسة مقارنة

من الضرورى، كما هو من المفيد أن ننظر الى السادس من اكتوبر فى اطار الاستراتيجية الاقليمية لنقارنه بما سبقه من معارك ومواجهات عسكرية داخل المنطقة أو خارجها. فمن اوجه الشبه والاختلاف المرصودة نستطيع أن نحدد الخصائص الأساسية والخصوصية المنفردة لحرب أكتوبر، ولا شك أن حرب يونيو هى أول ما يفرض نفسه على

الدراسة المقارنة ، على أن من المستحسن واللازم أيضا أن نجمع الاثنين معا، يونيو واكتوبر فى اطار واحد هو اطار الصراع العربى - الاسرائيلى عموما. غير أننا سنجد أن هذا يوحى على الفور بالمقارنة بالصراع الأوربى - النازى فى الحرب الثانية. وهناك أيضا تشابه جزئى وثانوى، لكنه جدير بأن يذكر، بين حرب اكتوبر وبين حرب الهند - الباكستان الأخيرة. وسنبدأ باشارة سريعة إلى المقارنة الأخيرة، نتفرغ بعدها بتفصيل للمقارنة بين قصة النازية وخطتها فى أوربا ونظيرتها الصهيونية فى الشرق الأوسط .

الصراع العربى - الاسرائيلى
والصراع الهندى - الباكستانى

فعن حرب الهند - الباكستان ، هناك عدة ملامح تذكر بالصراع العربى - الاسرائيلى ، مع فارق اساسى وشرطى للغاية يتعلق بالحقوق الشرعية والمواقف القانونية الأساسية فى الصراع والتى لن نتعرض لها هنا. ففيما عدا هذا التحفظ الجوهرى، وبعيدا تماما عن مقارنة الشرعية الاقليمية بين اطراف الصراع فى الحالتين. وكذلك مع التسليم بوجود اختلافات اخرى عديدة قد ترجح اوجه التشابه، يمكن أن نعدد مظاهر التقارب الآتية :

فأولا : هناك فارق حجم وموارد ضخم الى أبعد الحدود بين الهند والباكستان (٥٥٠ مليونا ضد ١٣٥ مليونا) كذلك الذى بين العرب واسرائيل (١٢٥ مليونا ضد ٣ - ٣.٥ مليون) ولكن لأسباب خارجية متعددة ومختلفة كان هناك تقارب ما فى مستوى التسليح وقوة السلاح بين جانبى كلا الصراعين .

وثانيا : قامت بين الهند والباكستان ٣ حروب منذ التقسيم ، مقابل ٤ حروب بين العرب واسرائيل منذ الاغتصاب. ولعلها مصادفة أو أكثر من مصادفة ان الصراع فى الحالين دينى فى الاساس وينتظم دولة دينية من جانب واحد على الأقل غير أن الفارق الأساسى هو الوضع الاستعمارى الاغتصابى الدخيل لاسرائيل فى الشرق الاوسط، وهو بطبيعة الحال فارق جذرى وحاسم يطغى على كل ما عداه من فروق فضلا عن التشابهات، ولهذا لا يحتمل مزيدا من الضغط والتأكيد ولا تأويلا أى تأويل .

وثالثا : كانت الولايات المتحدة تقف بانتظام مع الطرف الاصغر (الباكستان هنا، واسرائيل هناك) كحليف بدرجة أو بأخرى يورد له السلاح الاساسى ويسانده سياسيا واقتصاديا وفى جانب الطرف الأكبر (الهند هنا، ومصر وسوريا وغيرهما هناك) وقف

الاتحاد السوفيتى مؤيدا بالسياسة والاقتصاد وموردا للسلاح. الفارق الوحيد أن المساعدات السوفيتية للآخرين متكافئة متزنة ومتناسبة مع احجامها، أما مساعدات أمريكا للباكستان فلا تقارن قط بسيل مساعداتها المتدفق على إسرائيل.

رابعا : فى الحرب قبل الاخيرة (الحرب الثانية بين الهند والباكستان ١٩٦٥) والثالثة بين العرب واسرائيل (١٩٦٧) سجل الطرف الاصغر على الاكبر انتصارا ساحقا بدرجة أو بأخرى وفى كل منهما لعبت الحرب الجوية الخاطفة دورا أو آخر. وفى الحالتين بدا أن هذا الانتصار الضخم قد جاء مضادا للتوازن الطبيعى للقوى بين الطرفين وربما غير معبر عن حقائق القوة بينهما، ولكنه بالدرجة نفسها قلب الموازين الاستراتيجية فى الصراع .

خامسا : فى الحرب الأخيرة (١٩٧١ فى شبه القارة، ١٩٧٣ فى الشرق الاوسط) التى كانت حربا محدودة فى الحالتين دامت ١١ يوما فى الأولى ونحو ٢٠ يوما فى الأخيرة، لم تلعب الحرب الجوية الخاطفة دورا حاسما وكانت المواجهة برية تصادمية أساسا، وفيها كان النصر حليف الطرف الاكبر الأول مرة فى الحالين تقريبا. وكان التنسيق بين هذا الطرف وبين الاصدقاء الكبار السوفييت وكذلك السلاح السوفيتى عاملا مهما فى تحقيق هذه النتيجة .

سادسا : تشترك الحرب الأخيرة فى كل من الحالتين فى انها اول حرب محدودة فى ظل الوفاق الدولى بين القطبين الاعظم، واكدت بذلك أن الوفاق ليس قيدا على الحروب المحلية ولا مانعا لها، وأن كان عليها أن تعمل فى ظله وبالتنسيق معه ومراعاة توازناته العالمية الحرجة. غير أن هناك فارقا مهما أيضا بين الحربين بعد ذلك، فحرب الهند، الباكستان دارت والوفاق لم يزل بعد فى مرحلته التكوينية نسبيا، ولا نقول الجنينية . أما معركة اكتوبر فقد وقعت والوفاق قد اكتمل نضجا وتبلورا ، أو هو على الاقل فى سبيله الى ذلك . حرب شبه القارة هى الأولى شكلا فى ظل الوفاق، ولكن حرب شبه الجزيرة هى الأولى موضوعا ، من هنا تعد حرب اكتوبر بجدارة أول حرب محلية حقيقية تتم فى ظل الوفاق .

سابعا : وفى الحالتين ، بينما جاء انتصار الطرف الاصغر فى الحرب قبل الأخيرة مدويا من الناحية العسكرية، جاء عقيما من الناحية السياسية، فقد جمد الاوضاع الراهنة دون أن يفرض الحل النهائى. أما فى الحرب الاخيرة، فرغم ان انتصار الطرف الاكبر

كان أقل بريقا وحجما وربما دويا من الناحية العسكرية، فقد كانت آثاره حاسمة من الناحية السياسية .

فمعركة الهند - الباكستان قلبت التوازنات الاقليمية فى شبه القارة تماما، اذ انشطرت دولة الباكستان وتقلصت الى وحدة سياسية مقلمة متوسطة الحجم كايران المجاورة تقريبا، بينما خلقت دولة جديدة تماما هى بانجلاديش ، على حين طفرت الهند الى الصدارة كقوة شبه عظمى فى جنوب آسيا .

بالمثل فى حرب اكتوبر، لأول مرة تعاد اسرائيل الى حجمها الطبيعى كدولة صغرى فى مثل حجم الأردن المجاور تقريبا، ويسترد العرب مكانتهم العالمية مرشحين ، ربما لدور قوة كبرى أو شبه عظمى، مع احتمال ان تتمخض التسوية ايضا عن قيام دولة فلسطينية جديدة ؟ مثلما قامت بانجلاديش .

معركة يونيو ومعركة اكتوبر

تلك مقارنه عاجلة وعابرة على مستوى الاستراتيجية العسكرية والاقليمية بين معارك الصراع العربى - الاسرائيلى ، والصراع الهندى - الباكستانى . والتشابه جزئى بطبيعة الحال ، ولكن لعله يكون مقنعا مثلما هو دال وأن يلقى من الضوء اكثر مما يلقى من الظلال. وعلى أية حال، فان المقارنة بين الصراع العربى الاسرائيلى والصراع الاوربى النازى هى ما تعنينا أساسا. ولنبدأ أولا بالمقارنة بين معركتى يونيو ١٩٦٧ واكتوبر ١٩٧٣. ثمة نقاط أساسية خمس، وكلها أوجه اختلاف جذرى - بالطبع .

أولا : معركة يونيو هى النموذج الكامل للحرب الخاطفة، ولكن أيضا وأساسا لضربة «بيرل هاربر» الغادرة فقد بدأت بهجوم شامل، مبيت وغادر، على السلاح الجوى المصرى وهو على الارض اخرجه على الفور من المعركة فكان الوضع اشبه بمبارزة اطاح أحد طرفيها بسيف الطرف الآخر على غرة قبل اشارة البدء القانونية ، فتحولت المبارزة على الفور إلى التحام بين حامل سيف واعزل من السلاح . وكانت البقية محتومة ! طعنة نافذة فى جسم الأخير. هكذا تحولت المعركة فى سيناء الى مواجهة بين جيشين فى جانب، جوى وبرى وبين جيش واحد برى فى الجانب الآخر. أو بالأحرى لم تحدث مواجهة حقيقية. فبعد أن فقد غطاءه الجوى، أصبح سلاح المدرعات المصرى هدفا مباشرا وسهلا لسلاح طيران العدو.

أما فى اكتوبر فقد انعكس الوضع بصورة أو بأخرى فقد تحول الجانب العـــربى من الدفـــاع الى الهجوم وأحرز قصب المبادأة ونجح فى مفاجأة العدو بضربة جوية شـــاملة وخاطــفة قد تقل حجما وابعادا عن حرب العدو الخـــاطفة فى يــونيو ولكنهــا لم تكــن أقــل فاعلية وكفاءة ، وإن كانت أبعد شيء عنها من حيث اخلاقيات الشرف والنزاهة. وبعدها اصبحت المواجهـــة حقيقية بين جيشين فى كلا الجانبين ، جيـــش برى وآخر جـــوى. من هنا كانت معركة اكتوبر اختبار قوة حقيقى للطرفين، حيث كانت معركة يونيو تجربة غدر من طرف واحد .

ثانيا : فى يونيو توسع العــدو توسعا دائريا أى على الجبهات العربية يمينا ويسارا: شمالا فى الجولان وشرقا فى الضفة الغربية للاردن، وجنوبا فى سيناء، وبهذا وصل الى حدود طبيعية مانعة وموانع مائية من الدرجة الأولى : المرتفعات السورية ونهر الاردن وقناة السويس وبهذا أيضا تحقق له احتلال مساحة شاسعة من الارض العربية بلغت أربعة أمثال مساحة الارض السليبة فى فلسطين المحتلة نفسها ، وترامت «من القنطرة الى القنيطرة ومن شرم الشيخ الى جبل الشيخ» كما وضعها السوفسطائيون من فلاسفة العدو .

فى اكتوبر على العكس، نجح العرب فى رد العدو على اعقابه عن قطاعين مهمين فى غرب سيناء بطول القناة وفى بعض أطراف القطاع الشمالى من الجولان بعرض المرتفعات . وإذا كانت هذه المناطق المحررة لا تمثل إلا كسرا صغيرا من الارض المحتلة فى يونيو، فان الحرب لم تنته والمعركة مستمرة نظريا وعمليا. ويمكن أن تكون تلك القطاعات المحررة عتبة عريضة أو خشبة قفز وثيقة لخلع العدو عن بقية الارض العربية .

وإذا كان العدو قد فاته الغدر على طريقة بيرل هاربر أو غيرها فى بداية المعركة مثلما فعل فى يونيو فقد لجأ الى التعويض بالخداع فى آخرها. فسواء على الجبهة المصرية أو السورية استمات فى نهاية القتال ، ولكن اساسا بعد وقف اطلاق النـــار رسميا ليفتح ثغرة ليتسلل منها إلى مكاسب إقليمية أو عسكرية أو سياسية وقد نجح بالفعل على الضفة الغربية للقناة وفى تخوم القطاع الشمالى من الجولان . غير أن وجوده غير الشرعى – لا يعدو فى الحالين جيبا محاصرا كان يمكن تصفيته وسحقه اذا عاد القتال ولهذا سارع بالانسحاب منه فى الفصل بين القوات .

ثالثاً : كانت حرب يونيو حربا جوية فى الدرجة الأولى بداية ونهاية وحسما بالتالى اعطت سندا للنظرية القائلة بأن الطيران هو سيد حرب الصحراء مثلما اعطت مادة لدعاية العدو الراعدة عن تفوقه التكنولوجى والجوى.. إلخ . حرب اكتوبر ، على النقيض ، تأتى حربا جوية وميكانيكية ، حرب طيران ومدرعات ، قاذفات مقاتلة ودفاع جوى، وصواريخ ومشاة، وعلى النقيض اكثر جاءت لتكتسح نظرية الطيران سيد حرب الصحراء ومعها اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى بل وكذلك جاءت لتنسخ نظرية منافسة هى نظرية الدبابات سيدة الارض فى حرب الصحراء.

وعلى العموم فعلى حين لم تغير حرب يونيو شيئا من قواعد الحرب التقليدية بما فيها حتى نظرية الحرب الخاطفة التى كانت تقليدا لا تجديدا، قلبت حرب اكتوبر معظم نظريات الحرب المقررة وهزت اركان الاستراتيجية ومعطياتها الثابتة هزا عنيفا وعميقا على نحو ما رأينا تفصيلا فى الصفحات السابقة .

رابعاً : حرب يونيو هى أقصر حرب خاضها العرب ضد اسرائيل وحرب اكتوبر هى أطولها ، استطالت كما رأينا الى ثلاثة - اربعة أمثال الاولى ، وبينما كانت الاولى جولة واحدة ناجزة ، انتظمت الثانية بصورة ما جولتين فقدت اسرائيل أولاهما بصورة قاطعة ، وكادت تفقد بها الحرب نهائيا لولا التدخل الامريكى غير المباشر - ولكن غير المستتر - الذى منحها فرصة جديدة من الحياة والمقاومة لتبدأ الجولة الثانية التى انتهت الى شكل من التعادل . وبهذا كانت نتيجة الحرب الصافية نصراً محدودا ولكنه اكيد للعرب .

ولئن بدأ هذا النصر أقل ضخامة وبريقا من نصر العدو فى يونيو من الناحية العسكرية ، فان العكس صحيح تماما من النواحى الأخرى. فنصر العدو العسكرى فى يونيو أتى عقيما من الناحية السياسية ، اذ عجز عن فرض ارادة اسـرائيل على العرب وبقى الوضع الجديد معلقا . اما نصر العرب المحدود عسكريا فى اكتوبر فقد جاء مع ذلك خصبا الى أقصى حد من الناحية السياسية وغنيا جدا بالتداعيات الجيوبوليتيكية . فلقد قلب الميزان الاستراتيجى فى المنطقة تماما وفتح الباب لفرض الاوضاع السياسية الجديدة وكانت له انعكاسات عالمية على موازين السياسة الدولية المعاصرة تزداد كل يوم وضوحا وستفرض نفسها لا شك فى الواقع الدولى إن عاجلا أو آجلا.

خامساً: حرب اكتوبر فى المحصلة النهائية وترتيبا على كل ما سبق، هى انعكاس تام وقلب كامل لحرب يونيو. انهما طرفا نقيض عسكريا وسياسيا، اقليميا وعالميا ، كالقطب الموجب والسالب على الترتيب ، أو كالقرار والجواب، أو كالنفى والاثبات . السادس من اكتوبر هو نفى النفى، هو النقيض الموضوعى للخامس من يونيو ، وهو النسخ التاريخى لمسخ يونيو. لقد قلب يونيو الصراع وتركه «واقفا على رأسه». فأعاد أكتوبر اقامته على قدميه .

فى البداية انتزع العرب المبادأة والمفاجأة والهجوم لأول مرة، ووضعوا العدو على الدفاع لأول مرة. فى الميدان : كان يونيو آخر نصر عسكرى يحققه العدو، وكان اكتوبر اول نصرى عسكرى يسجله العرب. وفى الرأى العام العالمى : فى يونيو كان الانحياز الاستفزازى بل والعدائى كاملا ضد العرب ولصالح العدو ، ولكن فى اكتوبر كان العدو فى عزلة شبه تامة عن العالم. فى السياسة : انتهى يونيو الى طريق مسدود والى حالة من الجمود هى حالة اللاحرب واللاسلم، أكتوبر أنهى هذه الحالة وفرض على العالم ضرورة الحل الحقيقى للأزمة .

الصراع العربى الاسرائيلى
والصراع الأوربى - النازى

يبقى الآن أن نضع ٦ أكتوبر مع ٥ يونيو داخل اطار الصراع العربى الاسرائيلى موضع المقارنة مع استراتيجية قيام وسقوط النازية اثناء الحرب الثانية، وبين النازية والصهيونية عدد من أوجه التشابه والتقارب، بل أكثر منها علاقة نسب مباشرة، فما خرجت الصهيونية إلا من رحم النازية فكانت هذه جلادتها وولادتها فى الوقت نفسه ورغم مافى ذلك من تناقض ظاهرى. ولنا بكل تاكيد ان نتحدث عن «الصهيونازية Zio-nazism» كمرادف لنازية العنصرية الاسرائيلية، إلا انها أكثر تحديدا ووضوحا وادخل الى العقلية الاوربية التى تعرف جيدا معنى النازية بكل محمولاتها وابعادها. على أن ما يعنينا الآن من علاقة النسب والتشابه بين النازية والصهيونية هو الجانب الجيوستراتيجى وحده، وهو الذى سنركز عليه .

فالعنصرية العدوانية فى كل من ألمانيا النازية واسرائيل الصهيونية توسعت من حولها توسعا دائريا فى كل الجهات والجبهات ، وبسرعة كاسحة فى حرب خاطفة فى الحالين.

الأولى على امتداد اوربا من الاطلسى حتى البحر الاسود وكذلك حتى شمال افريقيا، والثانية من قناة السويس حتى نهر الاردن والجولان. وكما كان لألمانيا جبهتان اساسيتان محيطتان فى وقت واحد، شرقا فى الاتحاد السوفيتى وغربا فى أوربا الغربية، كان لاسرائيل ايضا جبهتان، شمالا وشرقا مع سوريا والاردن وجنوبا مع مصر .

وهناك تناظر مركب بشكل ما فى الجغرافيا الاستراتيجية للحرب والمعارك الكبرى داخل الاطارين تأخذ مصر فيه من سمات الجبهة الشرقة مرة والغربية مرة. فعلى أقصى ضلوع منطقة النفوذ والتوسع الالمانى حدثت معركتان تاريخيتان فاصلتان ، وتكادان أن تكونا متعاصرتين (١٩٤٢)، هما اللتان حددتا مصير الصراع: العلمين على اطراف شمال افريقيا وعتبة مصر فى اقصى الجنوب الغربي، وستالينجراد فى قلب الروسيا الاوربية فى اقصى الشمال الشرقى. وكلتاهما كانتا من معارك الدبابات العظمى فى التاريخ الى جانب دور الطيران الحاسم .

وبالمثل فى اطار صراع الشرق الاوسط، شهدت سيناء فى أقصى الجنوب الغربى والجولان فى أقصى الشمال الشرقى الصدامات الرئيسية فى حرب يونيو، ولكن اساسا فى حرب اكتوبر حيث دارت معركتان فاصلتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ حتى لتكادا تعادلان ان لم تفوقا نظيرتيهما حجماً مثلما توازيهما موقعا ودورا . وفى كل الحالات كانت هذه المعارك هى نقط التحول لأول ولآخر مرة فى اتجاه الصراع ورسمت بذلك مؤشرات النصر أو الهزيمة .

وإذا شئنا مزيدا من التفصيل فى هذه المقارنة فثمة هذه الأرقام الدالة فى العلمين مثلا، قدرت قوة بريطانيا بنحو ١٤٠٠ دبابة، حيث لم تملك المانيا وايطاليا إلا ٥٥٠ دبابة فقط، أى بمجموع كلى نحو الالفى دبابة . أما فى ستالينجراد فكانت المواجهة بين ٩٠٠ دبابة للسوفييت، ٧٠٠ فقط للألمان ، بمجموع كلى قدره ١٦٠٠ دبابة. وللمقارنة ، فان هذا الرقم الأخير قد لا يزيد كثيرا جدا عما ألقى به أى طرف من اطراف حرب اكتوبر طوال المعركة ويقل بالتأكيد عما قذف به أكبر اطرافها ، بل أن مجموع ما قذف به فى المعركتين العالميتين القديمتين، وهو ٢٥٥٠ دبابة ، ليقل كثيرا بالتأكيد عن نظيره فى معركة اكتوبر والذى يتراوح حول ٤٠٠٠ دبابة وربما رجحها . بل لعل من المثير ان نلاحظ ان ذلك

المجموع ، ٢٥٥٠ دبابة، هو نفسه مجموع عدد خسائر الطرفين المتحاربين فى معركة اكتوبر وحدها !

هذا كله من ناحية التشابه العام بين خريطتى الصراعين العربى – الاسرائيلى والاوربى – النازى جيوستراتيجيا. ومن ناحية اخرى نجد موقف مصر فى يونيو يشبه موقف الاتحاد السوفيتى فى الحرب الثانية من منظور معين. فكما توغلت المانيا فى الاتحاد السوفيتى الي خط مدن لننجراد – موسكو – ستالينجراد ، توغلت اسرائيل فى سيناء اثناء حرب يونيو الى او قرب خط مدن القناة بورسعيد – الاسماعيلية – السويس . وكما هجر الاتحاد السوفييتى سكانه وصناعاته الى ما وراء الاورال ، هجرت مصر سكان ومصانع الاسماعيلية والسويس وجزءاً كبيرا من سكان بورسعيد الى ما وراء القناة .

كذلك فكما صمد الاتحاد السوفيتى فى عمقه الاستراتيجى وبجرمه الهائل أمام الزحف الالمانى ، صمدت مصر فى وجه النصر الاسرائيلى بفضل ثقلها ووزنها وعمقها الكبير . وكما جمد الاتحاد السوفيتى بصموده القوة الالمانية فى صحراء جليدية قارصة فعقم الحرب الخاطفة الى أن تمكن من التحول مع الغرب الى الهجوم ثم سحق النازية نهائيا، فكذلك أدى صمود مصر وسوريا الى تجميد القوة الاسرائيلية فى صحارى رملية حارقة فعقم حربها الخاطفة الى أن كانت ساعة الصفر والنصر فى ٦ اكتوبر .

وإذا كانت تلك هى الصورة العريضة للتشابه الجيوستراتيجى بين المسرحين والملحمتين فلعلنا سنلاحظ كيف تأتى مصر بخاصة قاسماً مشتركا حلقة وصل بينهما . فكما تمت العلمين الفاصلة على ارضها اثناء الملحمة الاوربية، كانت سيناء هى ارض الصراع الحاسم فى دراما الشرق الاوسط. واللافت المثير حقا ان الصراع فى الحالين كان ضد النازية عموما: القديمة هناك والجديدة هنا ، نازية اوربا سابقا ونازية الشرق الأوسط حاليا .

وهنا ايضا نلاحظ كيف تبرز مصر وعلى جانبيها يميناً ويسارا ، بالتحديد على كتفيهما قد دارت اثنتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، ان لم تكونا كبراها على الاطلاق كما يذهب معظم العسكريين ، العلمين وسيناء. وإذا كان لاجتماع معركتين تاريخيتين عظميين على أرض دولة واحدة من معنى ، فهذا المعنى بلا شك هو

اولا خطورة واهمية موقع مصر الجغرافي : لقد تحول الموقع الى موقعة ، ثم هو ثانيا دور مصر الاستراتيجى الحاسم فى الصراعات العالمية والاقليمية : انها الصخرة التى تحطم عليها المد النازى غربا والصهيونى شرقا .

وفيما عدا هذا فان هناك تناظرا غريبا بين المعركتين حتى من داخل المنظور المصرى نفسه ، رغم ان الأولى كانت لحساب الاجانب والثانية لحساب الوطن. ففضلا عن التناظر فى الموقع على بوابتى مصر ومدخليها الشرقى والغربى، فان كلا منهما يمثل عنق زجاجة عنق مصر كذلك فالمسرحان كلاهما بيئة طبيعية واحدة اساسا هى البيئة الصحراوية، وبالتالى فراغ عمرانى وبشرى وعازل استراتيجى مهم. ومن الطبيعى بعد ذلك أن المعركتين كانتا على السواء حرب صحراء بكل ما تعنى استراتيجيا وتكتيكيا من التركيز على الحرب الميكانيكية والجوية أو المدرعات والطيران وكمجال مثالى للمناورات الشاسعة المدى والكر والفر بلا حدود .

بل أكثر من ذلك أخذ هذا الكر والفر نمطا متشابها فى الحالتين، نمط المد والجزر تقدما وتقهقرا عدة مرات ما بين الشرق والغرب أو استراتيجية «شد الحبل tug of war» كما تسمى أحيانا ففى العلمين زحفت قوات المحور من شمال افريقيا وليبيا على بوابة مصر الغربية ثم ارتدت أمام زحف الحلفاء المضاد ثلاث مرات على الاقل حتى كانت الجولة النهائية فى العلمين. وفى سيناء تقدم الزحف الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ، وحده أو فى حماية الحلفاء، غدرا أو غصبا ، ثم انحسر كليا أو جزئيا ، ثلاث مرات أيضا فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣.

وهنا نلاحظ أن معركة العلمين اشبه عسكريا بمعركة اكتوبر من أى منهما بمعركة يونيو ، وذلك من حيث الاستراتيجية والسلاح والمدى الزمنى . فبينما اعتمدت يونيو على الحرب الجوية الخاطفة السريعة، كانت العلمين كأكتوبر حرب مدرعات وطيران على السواء، تصادمية طويلة ورهيبة. واخيرا فانهما تتناظران حجما وحشدا وخسائر بل ونتائج مصيرية رغم أن الواحدة كانت عالمية والثانية محلية : دبابات بالآلاف وطائرات بالمئات فى الحالين، وخسائر جسيمة فى السلاح، ثم فى النهاية أول انكسار للطرف النازى فى الصراع بعد سلسلة انتصارات متصلة ، وأول انتصار

للجانب التحريري بعد هزائم متكـــررة ، ومن نقطة التحول فى الصرا ع هنا وهناك على حد سواء .

تلك خطوط عريضة فى المقارنة بين قصة صعود وسقوط النازية الألمانية فى اوربا وقصة نشأة وانكسار الصهيونية الاسرائيلية فى الشرق الاوســـط ، قد لا تزيد على بروفيـــل عام ، ولكنها كافية لأن تجعل من المناظرة بينهما تناظرا ايضا. وإذا كـــان لنا بعد هذا ان نتتبع هذا التنـــاظر الى منتهاه . فان هذا المنتهى هو النهـــاية المحتومة للصهيونية تماما كما حدث للنـــازية. انها مثلها كيان محكوم عليه جغرافيا وتـــاريخيا، استراتيجيا وحضاريا، فلسفيا . وانسانيا ، وهو محكوم عليه لأنه أســاسا كيان ضـــد الطبيعة وضد الحياة . لقد خرجت الصهيـــونية من رحـــم النـــازية ، ثم كررت دورة تاريخها الطبيعى، وستتم الدورة وتـــدور الدائرة كاملة تدفن مثلها فى مقبرة التاريخ ..

الباب الثانى

٦ أكتوبر
فى استراتيجية السياسة العالمية

منذ الحرب العظمى الثانية، لا نكاد نعرف حربا محلية خصبة بآثارها الإقليمية وحبلى بنتائجها العالمية مثل حرب أكتوبر. قد تكون حربا محدودة بالمقياس العسكرى، إلا أنها بلا حدود فى انعكاساتها وإشعاعاتها السياسية: وربما كانت مجرد حرب محلية جيوستراتيجيا، ولكنها بلا مبالغة كوكبية جيوبوليتيكيا. وهذه واحدة أخرى من مفارقات هذه الحرب الفذة، إنها ليست فقط حربا عصرية بالغة العصرية، وإنما هى كذلك حرب العصر بالضرورة والامتياز.

أو كما قال الجنرال بوفر «الحرب بدلت الموقف تماما فى الشرق الأوسط، فلقد رأينا حربا محدودة فى المكان والزمان، لكنها حققت هدفا سياسيا مهما»، هذا بينما قال ريمون آرون إن حرب أكتوبر «من أكبر مفاجآت العصر»، كما عدها جالليه وزير دفاع فرنسا «نقطة تحول فى التاريخ المعاصر». وبالمثل اعتبر وزير خارجية السودان أن «٦ أكتوبر تحول سيكون له أثره على تاريخ البشرية». وبالمثل تكلم الرئيس تيتو مخاطبا صديقه وضيفه الرئيس السادات فى بريونى عن أحداث تجرى أخيرا فى الشرق الأوسط «يمكنها أن تؤثر بشكل مصيرى على التطور اللاحق ليس فقط فى تلك المنطقة بل على نطاق أوسع فى العالم أيضا». هذا فى حين قال السادات نفسه إن ٦ أكتوبر «غير التاريخ ليس فقط فى بلدنا أو أمتنا، وإنما غير تاريخ العالم كله». يحدث هذا ويصدق إلى أقصى حد رغم أن انتصارنا لم يكن كاملا تماما حيث إن المعركة لم تتم إلى آخر المدى، وهذه وحدها مفارقة أخرى لا تقل إثارة.

الحرب الفيتنامية مثلا، تلك الملحمة الرائعة والمروعة معا، كانت أطول بكثير جدا بالطبع، وربما أشد ضراوة وترويعا، كما لم تكن مشحونة بأخطار أقل كثيرا، ومع ذلك لم يكن لها الوقع والإيقاع والإشعاعات والانعكاسات العالمية الحاسمة والفاصلة التى لمعركة أكتوبر، خذ حرب الهند ــ الباكستان الأخيرة أيضا، غيرت خريطة شبه القارة تماما، فلقت دولة قائمة وخلقت دولة قادمة، وقلبت ميزان القوة فى جنوب آسيا: لكن كل تلك آثار إقليمية فى الصف الأول أكثر منها عالمية الصدى أو المدى.

كذلك كانت كوبا مواجهة نووية مباشرة وسافرة، حيث لم تزد معركة أكتوبر على تهديد بالمواجهة، أو بالأحرى على «تشنج نووى» أمريكى، ومع ذلك فلا مجال للمقارنة بين الأزمتين من حيث شلال النتائج السياسية العالمية.

أما حرب أكتوبر، فإننا نستطيع أن نضعها ببساطة كالآتى: حرب كان لها دور وفعل الزناد trigger action، أطلق رصاصة تتابعت بعدها الطلقات الأكبر والأبعد مدى فى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال chain reaction ، بدأت من أدق دقائق الموقف العسكرى المحلى نفسه فى الميدان إلى أكبر وأخطر القضايا النظرية الكوكبية كفلسفة الحضارة المعاصرة نفسها والنظام العالمى الراهن.. الخ. أو كما عبر الأستاذ أحمد بهاء الدين فى صورة دقيقة وشيقة، كانت الحرب «بمثابة القنبلة التى تنفجر فى مخزن للقنابل فتنفجر سائر القنابل وتتطاير شظاياها على مساحة واسعة.. كل قنبلة موقوتة تنفجر، ثم لا يلبث انفجارها أن يفجر قنبلة أخرى مجاورة». «وتكاد لاتكون هناك قضية - كما يضيف فى مكان آخر - إلا وطرحتها حرب أكتوبر للنقاش وعرضتها لامتحان عسير».

كذلك لايكاد يمضى يوم منذ ٦ أكتوبر إلا ويكشف للخبراء والمراقبين فى العالم كله أثرا جديدا أو وقعا بكرا أو نتيجة انقلابية، ليس فقط فى الجوانب العسكرية والنظريات الاستراتيجية، وإنما كذلك فى توازنات القوى العالمية ومناخ السياسة الدولية بعامة. ومن المحقق أنه مهما قيل فى هذا الصدد فإن أحدا لن يستطيع لوقت طويل جدا أن يقدر تلك المعركة حق قدرها أو أن يحدد وزنها كاملا على أى مستوى. المستقبل وحده هو الذى سوف يضعها فى مكانها الجدير فى تاريخ عالمنا المعاصر.

لقد أحدثت المعركة كثيرا من التغيرات المهمة فى موازين القوة العالمية والإقليمية وحسابات الصراعات الدولية والمحلية، كما صفت وستصفى كثيرا من الحسابات السياسية المعلقة والقديمة. وفيما عدا هذا فإن المعركة قد زلزلت كثيرا من المعتقدات السائدة والأفكار المستقرة والثوابت المقررة فى كل مجالات الحياة السياسية ومستوياتها، وبدأت ترسى مكانها بدائل جديدة ووريثة، وليس يقل أهمية ونتائج أنها قد بددت كثيرا من الأوهام وحطمت غيرها من الأساطير التى عاشت أو عششت طويلا، ليس فقط فى عقل العدو ومعسكره بل وفى عقولنا وأصدقائنا كذلك. باختصار، لقد نسخت حقائق قائمة وأقامت غيرها، ثم فجرت أوهاما دفينة وخلقت معتقدات جديدة.

وهناك بعد هذا حقيقة أولية تفرض نفسها على الملاحظة بشأن موقع أكتوبر العالمى ووقعه الدولى، تلك هى أن تأثيرات ٦ أكتوبر فى كل المجالات السياسية وعلى كل

مستوياتها أكبر جدا من المعركة نفسها ومن حدود ميدانها المباشر. والواقع أننا نستطيع بسهولة أن نضعها قاعدة عامة أن المعركة أكبر فى حجمها العسكرى نفسه من إنجازاتها الإقليمية أى الأرضية البحتة حتى الآن، وأكبر فى نتائجها الاستراتيجية العامة والفكر العسكرى من حجمها العسكرى بدوره، ثم هى أخيرا أكبر وأكبر فى نتائجها السياسية العالمية من نتائجها فى مجال الفكر الاستراتيجى العسكرى العام.

وإلى هذه المتتالية الدالة يمكن أيضا أن نضيف حقيقة لا تقل خطورة ومغزى، تلك هى أن أغرب مافى المعركة أن نتائجها المستقبلية أكبر من نتائجها الحاضرة، وغير المباشرة أكبر من تلك المباشرة، كما أن نتائجها البعيدة المدى أكبر من نتائجها القصيرة المدى. ويمكن أن نعبر عن هذا كله بطريقة أخرى وفى عبارة مركزة فنقول إن نتائج ٦ أكتوبر هى «بالقوة» أكبر منها «بالفعل». إنها معلقة ومتعلقة بالمستقبل أكثر مما هى محققة فى الواقع، وأكبر وأخطر نتائج أكتوبر بلا جدال هى تلك التى لم تتحقق بعد.

والسؤال الذى يقترح نفسه، بل يطرح نفسه طرحا، عند هذه النقطة هو: لماذا كل هذه الأهمية غير العادية لمعركة أكتوبر؟ ما الذى يمنحها هذا الخطر والخطورة الفائقة وهذه الأبعاد العالمية؟ إنها معركة محدودة، بل نصف معركة هى، ونصف نصر بعد ذلك، ولكنها قلبت العالم كله قلبا، فلماذا؟ ليست المصادفة بالقطع «ولا التحيز بالطبع!»، وإنما هناك ثلاثة أسباب محسوسة جدا وأكثر من مقنعة: خطورة المنطقة نفسها، طبيعة الصراع الداخلى، امتداد الصراع الخارجى.

فأولا : خطورة المنطقة نفسها لا خلاف عليها، فهى «عاصمة العالم استراتيجيا» مرتين، مرة بموقعها الاستراتيجى الحاكم فى قلب العالم، ومرة لأنها «عاصمة العالم بتروليا» ــ والبترول نفسه وبدوره أهم سلعة استراتيجية فى العالم. المنطقة إذن مركز ثقل مؤثر وحساس وقطب جاذبية شديد الإغراء لكل المصالح العالمية، من ثم فإن كل مايحدث فيها تنتشر آثاره بعيدا كموجات الزلزال ويتردد صداه مضاعفا داويا كما لو خلال مكبر صوت.

ثانيا: طبيعة الصراع الداخلى «أو الداخلية، سيان» ليست مما يسمح بأنصاف الحلول أو بأنصاف الأفعال وردود الأفعال. فهو صراع مصيرى وبقائى، صراع وجود لانزاع حدود، فإما أن يكون أحد الطرفين أو لايكون، وهذا وحده يكفى لتفسير ضخامة

الترسانات المسلحة المحشودة فيها وتطور الأسلحة المستعملة بها بدرجة قد لا تملكها أو تعرفها حتى بعض الدول الكبرى، أو على الأقل بدرجة لاتتناسب مع الحجم البشرى ومستوى التنمية الراهنة للمنطقة، ولنا أن نلاحظ هنا كم يصبح من الخطورة أن تكون المنطقة، التى هى «بئر بترول» العالم، «برميل بارود» أيضا.

ثالثا: امتداد الصراع الخارجي يأتى نتيجة منطقية وحتمية للعاملين السابقين، ولكنه يضاعف آثارهما بمعدل الربح المركب، فبحكم طبيعة العصر، ينطوى كل صراع محلى اليوم على عنصر دولى. إلا أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى هو الوحيد الذى يتقاطع فيه المستوى العالمى والمستوى المحلى بأكبر درجة من التشابك والتفاعل. وفى النتيجة فإن منطقتنا تنفرد بأنها منطقة التقاطع الحرج والتداخل الأقصى بين البعدين المحلى والدولى.

من ثم فإن الصراع المحلى «يتلبس» إلى أقصى حد مع الصراع العالمى، وبالتالى يصبح هو نفسه بمثابة صراع «اختزالى catalyst يختزل كثيرا من صراعات العالم ومصالح القوى المختفية وراءها. بل نستطيع أن نقرر أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى أصبح اختزالا موضعيا مكثفا للصراع العالمى جميعا، فكان بصفة خاصة استقطابا محليا للاستقطاب الثنائى فى الماضى وهو الآن استقطاب للوفاق الثنائى. ويؤدى هذا كله إلى أن المنطقة، وقد رأيناها عاصمة العالم استراتيجيا، تتحول هى نفسها إلى كشاف جيوبوليتيكى re-agent، أى محك أو حجر مغناطيس عالمى touchstone, load-stone، وتصبح بمثابة بارومتر الجيوبوليتيكا الكوكبية، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يتحول الإقليم الكشاف إلى منطقة اختبار واستكشاف لأسلحة الأقطاب العظمى مثلما هى منطقة ارتطام بينها.

لكل هذه الأسباب مجتمعة تبدو معركة الشرق الأوسط أكبر من حجمها الطبيعى، وتكاد تخرج عن أبعادها الذاتية، وبالتالى تأتى بنتائجها وآثارها عالمية إلى أبعد الحدود متجاوزة الدائرة الإقليمية أو المحلية بالتأكيد. وليس لنا أن ندهش، ولا لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، حين نجد هذه النتائج والآثار تتخلل النسيج السياسى للعالم كله وتفرض نفسها على توازن القوى المعاصر برمته، وليس من قبيل الحماس أو الانفعال أن نعدها، كما سنرى، أخطر نقطة تحول فى عالمنا المعاصر وفى استراتيجية السياسة العالمية منذ الحرب الثانية.

ومن الناحية الأخرى، وقبل أن نذهب إلى أبعد من هذا المدى من السياق، قد يكون من الخير لنا والمفيد أن نسجل رنة تحفظ ولا نقول نبرة تحذير، فحتى لا نقع فى خطأ «صيغة منتهى المبالغة» أو نتورط فى مزالق «أفعل التفضيل»، ينبغى أن ندرك ونقرر بوضوح مرة أخرى أن كل نتائج أكتوبر التى ألمحنا إليها إجمالا والتى سنفصل القول فيها تفصيلا إن هى بعد إلا بدايات وإرهاصات فقط، لم تكتمل ولم تتحول إلى حقائق نهائية بالضرورة حتى الآن، ليس فقط لأن هذا يحتاج إلى فسحة كافية من الوقت، ولا كذلك لأن هناك مقاومة من الأطراف المعادية أو المعنية لفاعلية وآثار أكتوبر، بل ومحاولة حاقدة لحصرها وتضييعها ولإهدارها واستنزافها، وإنما كذلك لأن أكتوبر نفسه ليس إلا بداية مهما كانت موفقة، ومجرد افتتاحية أيا كانت براعة الاستهلال فيها، إنه الخطوة الأولى الحاسمة فى رحلة الألف ميل، ولكنه بالقطع ليس نهاية المطاف، إننا لم نملك المستقبل بعد، وهو عريض جدا، ولكننا ملكنا مفتاحه بالتأكيد وفتحنا باب الأمل على مصراعيه.

وإذا كان لهذا من درس أو مغزى، فهو أن علينا نحن أن نكافح من أجل إعمال آثار المعركة وتحقيق نتائجها كاملة، واجبنا أن نحارب من أجل أن يتحول الممكن والكامن إلى كائن وواقع. إن نتائج المعركة الكامنة معلقة ومشروطة ورهن بأن نستكمل نحن شوط الصراع إلى نهايته. وإذا كانت هناك معركة سياسية لتمييع نتائجها أو إجهاضها، فإن علينا أن نشن معركة مضادة وأن نضرب والحديد ساخن لكى نجنى ثمار النصر كاملة. ويجب أن يكون مفهوما لنا جميعا أن نتائج أكتوبر لن تحقق نفسها بنفسها أوتوماتيكيا ولن تقدم نفسها لنا تلقائيا وذاتيا. وليس دورنا بعد النصر دور المتفرجين أو المنتظرين سقوط الثمرة ناضجة، وليس لنا كذلك أن نبيع جلد الدب قبل أن نصيده، والمعركة السياسية بعد كل معركة حربية لا تقل خطورة أو خطرا ولا أهمية أو مشقة.

إن عظمة وجبروت النصر الذى أحرزناه، أيا كان عنصر النسبية فيه، شىء يجب أن نحرص عليه تماما وعلى ترجمته إلى مكاسب سياسية وأرضية حقيقية مكافئة، ذلك لسبب بسيط، وهو أن هذا النصر بهذا البريق والوهج والبعث وعودة الروح والثورة القومية لن يتكرر بسهولة كل يوم، كما لن يستمر طويلا إذا ترك ليتآكل مع الزمن ويفقد بريقه، فالزمن عامل خطير من عوامل التعرية، فى السياسة كما فى الطبيعة، إنها حقا لتكون

خطيئة مأساوية، إن علينا أن نمسك به، نصرنا، لا ندعه يفلت أو يتبدد، بل نعمقه، ونعمقه بأن نستكمله، وإذا كان لنا أن نستقرىء كل المؤشرات والدلائل، خيرا من أن نستبق الحوادث، فإنها تكاد تصرخ أن هذه المعركة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها: نصر محقق جديد.

ولعلنا الآن بحيث نستطيع أن نتقدم إلي دراسة آثار أكتوبر ونتائجه دراسة تحليلية منهجية أصولية مفصلة. من الممكن أن نقسم هذه الآثار والنتائج على أساس مزدوج من التصنيف النوعى والإقليمى، فنبدأ بنتائج المعركة على العرب أولا، وفى القلب تأتى مصر ٦ أكتوبر وسوريا، ثم ننتقل إلى العدو المباشر لنرصد صورة إسرائيل بعد المعركة، ثم نتوسع إلى محيط السياسة العالمية كبعد أخير، وهكذا تنقسم فصول هذا الباب إلى ثلاثة: العرب والسادس من أكتوبر، ٦ أكتوبر والعدو الإسرائيلى، العالم والمعركة.

الفصل السابع
العرب والسادس من أكتوبر

حين وصف بعضهم ٦ أكتوبر بأنه بعث أو ميلاد جديد للعرب، وحين ذهب آخرون إلى أنه أعظم وأمجد أيام العرب منذ قرن ونصف القرن على الأقل، أى نقطة الأوج والذروة فى تاريخهم الحديث جميعا، لم يكن ذلك من قبيل الحماسة أو المزايدة العاطفية ولا كان فيه من الرومانتيكية الجامحة أو المجنحة أكثر مما فيه من الموضوعية العلمية الصارمة، وإذا كان هناك من يرى فى ذلك «كثيرا من المبالغة، وقليلا من الدقة العلمية»، وأن ٦ أكتوبر مرحلة مهمة من مراحل الصراع فقط، وتغيير كمى لا كيفى بعد»، فإن الاختلاف فى النهاية نسبى، وخطر التقليل قد يكون أسهل ولكنه أسوأ من خطر التهويل، ويبقى ٦ أكتوبر تغييرا ضخما وجذريا بكل مقياس وعلى أى أساس.

ذلك لأنه بقدر ما يكون عمق السقطة السابقة يكون ارتفاع القفزة اللاحقة، ولا يستطيع أن يقدر معنى ومدى وحجم النصر العربى فى أكتوبر إلا من يستطيع أن يتخيل مدى الانهيار والسقوط ونوع المصير الذى كان يمكن أن ينتهى إليه العرب لو أنهم هزموا فيه فوق هزيمتهم فى يونيو وبعدها، ولو أننا فكرنا بهدوء وواقعية فيما كان يراد بنا ويخطط لنا على أيدى العدو وأطماعه وطموحاته، لتأكد لنا بلا أدنى شبهة أننا على الأقل وعلى الأسوأ قد نجونا من خطر ماحق كان يدبر لنا وكان يمكن فعلا لو تحقق أن يودى بنا، وعلى الأغلب والأرجح قد ضمنا مستقبلنا وأمنا مصيرنا إلى الأبد، وعلى الأكثر والأحسن سوف نحقق كل أهدافنا وآمالنا القومية العظمى كاملة يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد، أو كما يقول بهاء الدين مرة أخرى «هزيمة يونيو لم تجعلنا نركع» ولكن ظل «سيفها مسلطا فوق رءوسنا ، قريبا جدا من أعناقنا.. حرب أكتوبر كسرت هذا السيف المسلط، وحطمت القيد الذى كان يكبلنا»..

فليس سرا أن نكسة يونيو كانت قد أصابت الوجود العربى فى مقتل أكثر مما كانت جرحا داميا أو كسرا أليما.. وقدر البعض مابين جيل إلى جيلين حتى تخرج العرب من

كارثتها العسكرية وتعيد بناء قواتها المسلحة. بينما ذهب ريمون أرون إلى أن العرب لن يفيقوا من هول ماحدث إلا بعد قرن كامل، ففى يونيو خسرنا فى ستة أيام سوداء ليس فقط ما كلفنا ستة أعوام حالكة كالحة من الانهيار والعار والتمزق ومهانة الهزيمة، كل يوم بسنة، ولا كذلك ما قيمته ستة آلاف مليون جنيه من السلاح وحده خسائر مباشرة ، أى كل يوم بألف مليون جنيه، هذا عدا ستة آلاف مليون أخرى خسائر مادية واقتصادية غير مباشرة، ولكنها أكثر منه جميعا شوهت ستة آلاف سنة عريقة من التاريخ المجيد، كل يوم بألف سنة.

ولم تكن بشاعة الهزيمة لتكمن فى ذاتها فحسب، فالعرب قد عرفت وامتصت هزائم كثيرة فى تاريخها المفعم، ولا كانت كذلك فى حجمها، وقد كان مخيفا مهينا بصورة غير متصورة وإن لم تكن بالضرورة غير مسبوقة، وإنما كان هول الهزيمة فى مصدرها ومعناها، فمن مثل عدونا الإسرائيلى المعقد القمىء، بكل أحقاده وصغاره وسعاره، وأكثر منها وأخطر خططه وأوهامه المجنونة ونواياه المعلنة والمكتومة كاستعمار استيطانى إحلالى إبادى وأبدى، من مثل هذا العدو كانت الهزيمة إذلالا دمويا مشينا للماضى والحاضر برمته يسفحهما سفحا ونذير شؤم سوداوى للمستقبل يئده إلى الأبد.

معنى نكسة يونيو

من هناك جميعا لم يكن من المبالغة فى شىء أن تعد سنوات ما بعد يونيو السوداء بمثابة ردة فى تاريخ العرب الحديث إلى «العصور المظلمة». وفى الوقت الذى كان العالم يطفر طفرا نحو آفاق عصر جديد ونحو حضارة لم يسبق لها مثيل فى درجة التطور والتعقيد والإمكانيات، وحتى المتخلفون كانوا يلهثون للحاق بالعصر، بدا للبعض كما لو أن العرب وقد انزلقوا وحدهم فى حمأة هذه الرجعة التاريخية قد أمسوا وكأنهم أمة منقرضة لن تقوم لها قائمة، ميئوس منها، شاخت واستنفدت أغراضها ومبرر وجودها، وتلك فقط إنما علامات الزوال وآلام الاحتضار. أما من ترفق منهم فقد قال : إن العرب قد توقف بهم التطور عند صلاح الدين أو على الأكثر عند محمد على..

ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع، بل بالقطع، ولكن كان لابد من تحد عملى قاطع، ومن ثم جاء ٦ أكتوبر بمثابة بداية «عصر النهضة» العربى المحدث بعد تلك «العصور المظلمة» التى انتهت إليها النكسة، لقد رد هذا اليوم اعتبار العرب فى العالم، ونسخ كل النظريات

والنظرات الاستخفافية والاستهزائية التى نسجت حولهم، وأعاد تأكيد وجودهم إنسانيا، كما أعاد إقامة تاريخهم على قدميه بعد أن كان قد انكفأ على وجهه ثم انقلب على رأسه.

غير أنه أكثر من ذلك أيضا ساعد على وضعهم فى مكانهم الحق والمستحق فى العالم كقوة كبرى كامنة أو قادمة، لقد فتح باب الأمل كاملا أمامهم، لا ليلحقوا بالعصر فقط، بل ليسبقوه إن أرادوا، بحيث يمكن لنا، ربما بقليل من مبالغة ولكن بأكثر منه من الصحة، أن نعتبر السادس من اكتوبر بمثابة البداية المسبقة والطافرة للقرن الحادى والعشرين فى تاريخهم الحضارى.

بل أكثر من قرن جديد، كوكب جديد، فلو أننا فقط نجحنا - وهذا شرط لازب - فى أن نستكمل المعركة والنصر بحيث نستخرج منهما كل نتائجهما المنطقية ونعتصر ثمراتهما الطبيعية كاملة ، لكنا بمثابة من انتقل إلى كوكب جديد اليس هذا - فى النهاية - معنى حديثنا الشائع عن البحث عن مكان جديد تحت الشمس؟ أو لم نكن بعد يونيو- كما رددنا كثيرا - فى مفترق طرق مصيرى وعنق زجاجة تاريخى، اما أن نفشل فننزلق إلى الخلف عشرات السنين حبيسى الزجاجة المغلقةواما أن نقتحم عنقها فنطفر منطلقين إلى أوسع آفاق المستقبل واعرض امكانيات التطور، نخترق حاجز التخلف، نحقق الوحدة وندخل دائرة القوة والسيادة العـالميـة، إلى آخـره؟ حسنا، لقد قررت المعركة الاختيار الأخير.

الآثار العالمية

ونستطيع الآن ان نحصر الآثار السلبية لهزيمة يونيو فى ثلاثة مجالات نحللها تباعا: عالميا، قوميا، ووطنيا. فأولا، على المستوى العالمى لم يكن هناك أدنى شك ان العرب فقدوا كثيرا جدا من وزنهم السياسى ومن هيبتهم ومكانتهم الدولية، وانتقلوا فى معادلة القوة العالمية قرب تخوم خط الخمود، وتحولوا على خريطة استراتيجية السياسة الدولية إلى منطقة ضغط منخفض، أى إلى «انخفاض جيوبوليتيكى» أغرى تيارات ضغوط القوة من حوله ومن بعيد بالتدفق لملء التخلخل الناشئ، ولا نقول الفراغ.

تضاءلت - علينا من أسف أن نعترف - قامة العرب فى المجتمع الدولى وخفت موازينهم فى حساب الصراعات العالمية، وبدا كما لو قد أتى على الانسان العربى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. حتى لقد طمع فينا احيانا الصغار قبل الكبار، القوى المحلية

المجاورة قبل القوى العظمى النائية، بل لقد تكامل الاثنان فى مشروعات ومخططات مشتركة بزعامة القوة الأعظم المعادية وهى الولايات المتحدة. وكانت الاستراتيجية العظمى فى هذا هى الحصار والعزل فى الخارج، والضرب والتفتيت فى الداخل.

فمن ناحية بدأت الولايات تعد لسقوط المنطقة كاملة فى قبضة نفوذها وفرض الوصاية عليها، بطرد القوة المكافئة والمضادة منها، وتصفية النظم الوطنية بها، ثم تقنين السيادة الاسرائيلية المباشرة عليها. ومن الناحية الأخرى أخذت تمهد بالسلاح والاقتصاد وبالاستراتيجية الاقليمية والاستراتيجية البحرية لخلق مناطق «أقطاب مضادة» للمنطقة العربية تقوم على ضلوعها مباشرة سواء فى آسيا أو فى افريقيا، «ترث» دورها القيادى فى الشرق الأوسط الكبير وتنتزع منها زعامتها فيه إلى الأبد، وذلك بزعم أنها أصبحت مجرد جسم مترهل متخلف مضروب وإن كان غنياً ، وعاجز ثقيل الحركة بقدر ما هو ضخم ومترام.

على المستوى القومى

هذا عالميا، أما قوميا فلم يكن شك أن اللطمة التى أصابت العرب عامة قد أساءت إساءة بالغة إلى مصر خاصة، باعتبارها عاصمة العرب استراتيجيا والقوة الوطنية الكبرى التى يقع عليها تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا وتكنولوجيا مسئولية الدفاع القومى فى الصف الأول والتحليل الأخير. ولما كان هذا العجز العارض قد جاء فى مرحلة، عرضية هى الأخرى، أخل فيها البترول بدرجة أو بأخرى بتوازنات القوة فيما بين الدول العربية نفسها، فقد استغل الاستعمار هذه الفرصة للطعن فى زعامة مصر والتشكيك فيها- محاولة انتزاعها أمر غير وارد أصلا لأنها، بترول أو لابترول، مستحيلة، ضد الطبيعة والجغرافيا والتاريخ والمستقبل.

وقد يمكن بصورة تقريبية نسبيا ولكنها مقربة للغاية ان نشبه موقف العرب فى العالم ومصر بين العرب بعد النكسة بموقف العالم السلافى وعلى رأسه الروسيا بعد حرب اليابان والحرب العالمية الأولى وقبل ثورة اكتوبر، حيث كانت اوربا تنظر إلى كل منهما كمارد ضخم الجثة راقد على أطرافها وتخومها ولكنه عاجز لا يأخذه أحد بجدية. وهناك فروق عديدة وعميقة جدا بالطبع، ولكن المقصود فقط هو الموقف العسكرى وموازين القوة والهيبة بالنسبة للعالم الخارجى. فالعالم السلافى عائلة كبرى واحدة رغم الاختلافات

والخلافات ورغم التعدد السياسى، تجمعها الأصول الاثنولوجية إلى حد معين والقرابة اللغوية إلى حد آخر، ثم كان هناك الدين والكنيسة، وأخيرا نمط الحياة العامة وقالب الحضارة.. الخ.. وفى وسط هذه المجموعة المترامية الممتدة كانت الروسيا بضخامتها وجرمها العملاق ومواردها تقف تقليديا وتاريخيا كحارسة السلافية وحاميتها العتيدة ولكن مع تضعضع الروسيا القيصرية ثم هزيمتها على يد المانيا فى الحرب الأولى، بدت كحارسة عاجزة مضروبة ومحتلة مقتطعة أجزاء من اراضيها، لا تملك أن تحمى نفسها فضلا عن الأخوات الصغريات. إلى أن قامت الثورة، ثم إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية حيث حققت إلى القمة دورها التاريخى فى تحريرهن وحمايتهن. بالمثل كان وضع العرب ومصر فى العالم بعد يونيو، بل ربما منذ ١٩٤٨ وسنرى بعد قليل كم يصل التشابه إلى منتهاه وكيف تعادل حرب أكتوبر فى أثرها عندنا ثورة أكتوبر عندهم.

وعدا هذا فلقد حمل أعداء القومية العربية على فكرة الوحدة العربية، التى لاشك اهتزت بعض الشئ فى قرارة النفس العربية، وان لم يصل الأمر قط إلى حد الشك فيها أو فقد الايمان بصحتها أو بحتميتها ولكن الاستعمار اهتبلها سانحة للهجوم بالجملة على كل أعمدة العروبة والقومية والوحدة وذلك للاجهاز عليها مرة واحدة وإلى الأبد. فزعم، على سبيل المثال، أن العرب مجرد مجموعة غير متجانسة: لا جنسا ولا لغة ولا لونا ولا دينا، إلى آخر تلك النظريات السقيمة الخاطئة التى دفع بها الأعداء بثا للبلبلة والتخريب..

ولا مفر لنا من أن نعترف أن هذه الحرب النفسية نجحت نسبيا فى خلخلة التماسك العربى إلى حد ما، وبدا لوقت ما كما لو ان العرب قد خضعوا لحركة مركزية طاردة centrifugal وقعوا فى عين دوامتها الكاسحة، وأنهم يتصرفون كما لو كانوا أمة غير واحدة. بل بدا أحيانا - ولكن فقط على السطح وللمراقب السطحى - كما لو أن العرب ليسوا أصلا وأساسا «أمة واحدة» وأن القومية العربية لم تكن مجرد مثالية اسطورية فهى ليست أكثر من حقيقية تاريخية ولكنها بالتاكيد ليست حقيقة واقعة فعلا.. إلخ.

ووطنيا

أخيرا، على المستوى الوطنى، غنى عن القول أن صدمة النكسة قد هزت الوجدان الوطنى حتى النخاع، وأحدثت مرارة الجرح كثيرا من التقلصات الحادة بل والتشنجات العنيفة فى الجسم السياسى، وحدثت فجوة تصديق وثقة ساحقة بين القاعدة والقيادة فى

كل بلد من البلاد العربية تقريباً. وعلى الجملة فقد انعكست كل تفاعلات الهزيمة على الوحدة الوطنية، وأصبحت مشكلة الوحدة الوطنية هى قضية الجبهة الداخلية الأولية والآنية.

ولحسن الحظ فان الوطنيات العربية، بفضل رصيدها التاريخى الزاخر والهائل من التماسك والتجانس والوعى، تجاوزت الأزمة وسرعان ما التأمت جراحها والتحمت صفوفها فى وجه الخطر الخارجى، بل لقد اتخـذت تلك الوطنيات من الوحدة الوطنية خط دفاعها الأخير الذى تخنـدقت فيه تعيـد ترتيب بيتها من الداخل وتستعد للتحـدى، ومنه بالفعل قفزت قفزتها التحريرية الرائعة فى اللحظة المقدورة.

وفضلا عن هذا فلقد سجلت الوحدة الوطنية مكاسب ثورية وتقدمية محققة صنعتها فى ظـل النكسـة وبرغمهـا بل وكرد فعل متحد ومصل مضاد لها. فـكانت الثـورة فى الـسودان ثـم فى ليبيا، وكذلك فى اليمن الجنوبية ثم فى العراق... إلخ وكان هذا كله اعلانا بنبذ الهزيمة وبرفض نتائجها وعلامات على طريق الصمود حتى فجر النصر.

بعث أكتوبر

الآن يأتى ٦ أكتوبر لينسج هذه الصورة كلها، بل وليقلب التوازنات والاوضاع جميعا رأسا على عقب. وكما قال الجنرال بوفر «ان النجاح العظيم الذى حققه العرب فى هجومهم يوم ٦ أكتوبر يكمن فى أنهم حققوا تأثيرا سيكولوجيا هائلا فى معسكر الخصم وفى المجال العالمى الفسيح ويبقى عليهم بعد ذلك أن يفكروا فى نتائج هذا التأثير على العالم ليحصلوا على مناصرته وتأييده» انه أول انتصار عسكرى حقيقى يحرزه العرب فى العصر الحديث. أو كما قالت المجاهد الجزائرية «ان الأمة العربية كلها تحس اليوم بفخر عظيم وشكر عميق لجيوش مصر وسوريا التى حققت للعرب أول انتصار لا رجوع فيه. ومهما تكن النتائج النهائية للمعركة، فلسوف تبقى حقيقة أنها أنهت مهانة ١٩٦٧، وجددت الكرامة العربية».

انه – لابد لنا أن ندرك جيدا وأن نقرر منذ البداية – نهاية عصر كامل وبداية عصر جديد تماما، وطنيا وقوميا وعالميا. اننا نعتبر السادس من أكتوبر خط التقسيم التاريخى بين مرحلتين اساسيتين ومتناقضتين كل التناقض فى تاريخ الصراع العربى – الاسرائيلى ما كان منه وما سيكون: مرحلة الجزر العربى حيث كان المنحنى فى نزول مستمر للأسف

بالنسبة لنا ولصالح العدو باطراد، ومرحلة المد العربى حيث غير التطور مساره بزاوية حادة صاعدا إلى أعلى لصالحنا وعلى حساب العدو ووجوده الطفيلى البغيض.

ليس انفعالا غير منضبط اذن أو تهويلا غير مسئول، ولا هو من السابق لأوانه كذلك، أن نقول ان ٦ أكتوبر يتجاوز فى معناه التحريرى والتاريخى ومغزاه النضالى كل ابعاده الراهنة المباشرة، الميدانية منها والدبلوماسية، العسكرية أو السياسية، أو غير ذلك.انما السادس من أكتوبر هو - بلغة الرسم البيانى - نقطة الانعكاس العنيفة والحاسمة point of inflection فى ذلك الخط الخطأ والاتجاه النازل أبدا الذى اتخذه منحنى الصراع منذ بدأ فى ١٩٤٨ وحتى الأمس القريب والى أن ينتهى بالتحرير الشامل والاسترداد النهائى للاراضى المحتلة والسليبة والمقدسة على السواء.ومن هنا يشبهه البعض بحق بمعركة حطين بالنسبة للصليبيات ، لم تكن النهاية ولكن بداية النهاية، لم تكن التصفية نفسها ولكنها كانت نقطة الانكسار ومنعطف التحول اليها. ومن ثم فمعركة أكتوبر هى حطين الصهيونيات. وأخرون يقولون معركة ذى قار فى التاريخ العربى.

إن السادس من اكتوبر - نحن نجادل - انما هو فى واقع الأمر الخط الأول فى خريطة سياسية جديدة تماما للشرق الأوسط وللوطن العربى الكبير، والخطوة الافتتاحية من خطة مستقبلية كاملة عنوانها التصفية والاسترداد والعودة، وتصفية الاغتصاب، استرداد فردوس العرب المفقود ، وعودة فلسطين، والشعب إلى الوطن والوطن إلى الشعب. ان تاريخا جديدا تماما، تاريخا بكرا واعدا مبشرا وواثقا إلى أقصى حد، قد كتب ويكتب حتى الآن بالدماء على الرمال، وان مستقبلا جديدا ليصنع الآن صنعا بقوة السلاح وبسلاح القوة على أرض سيناء والجولان ليفرض نفسه فرضا على «ارض اسرائيل» المزعومة..

فاذا بدا للبعض فى هذا قليل أو كثير من التجاوز أو التفاؤل، فلنسمع معا ما يقوله الآخرون.يقول الكاتب الأمريكى ادوارد شيهان عن أكتوبر «ان هذه الحرب لم تقيَّم من حيث ما حققته من نتائج عسكرية، بل من حيث انها نقطة تحول تبشر بنهاية عصر التدهور العربى الذى دام أكثر من خمسة قرون». ثم يضيف أن «هذه الحرب سوف تحتل مكانة فى التاريخ العربى المعاصر، بل ربما التاريخ العربى بأكمله. فلقد تكون لها من الوجهة السياسية والمعنوية أهمية تضارع الفتوح العربية الأموية فى العصور الوسطى

وهزيمة الصليبيين ومولد القومية العربية والوطنية المصرية واسترداد قناة السويس». أو فلنقرأ ما كتبته النيوزويك فى دراسة علمية وضعها أخصائيون لا يمكن ان يتهموا بالانحياز إلى العرب: «لدى العرب الآن مشروعات تعميرية طموحة، اذا تحولت إلى واقع فقد يكون العرب بالفعل على مشارف عصر نهضه حقيقية». أو ما كتبته الديلى تلجراف: «لقد غيرت الساعات الست الأولى من يوم ٦ أكتوبر مجرى التاريخ بالنسبة لمصر وبالنسبة للشرق الأوسط كله». أو اخيرا كما قال كريستوفر ميبهيو فى شهادة مقتضبة ولكنها جامعة «لقد غيرت حرب أكتوبر مجرى التاريخ العربى الحديث».

فاذا ما عدنا لنقترب من دقائق الموقف المعاصر وتفاصيله الحية، فماذا بالضبط فعلت المعركة؟ أولا وقبل كل شئ لقد مزقت حرب أكتوبر ونصر العرب شبكة العلاقات والتوازنات القديمة والقائمة فى العالم من حولنا، بكل معطياتها وفرضياتها وقيودها ونذرها، وبدأ نسيج جديد تماما يتخلق بدلا منها. وفى كلمة اختزالية واحدة، يمكن أن نلخص التغيير الجذرى كله فى أننا (ومعنا أصدقاؤنا وأنصارنا) قد تبادلنا المواقع والمواقف مع العدو الاسرائيلى (وخلفه معسكره والمتواطئون معه) وطنيا كان أو قوميا أو عالميا.

وطنيا

فوطنيا، اذا كان لنا أن نبدأ بالدائرة الأصغر ومن البسيط إلى المركب، فجرت شرارة المعركة تيار الوطنية العارمة، صحيا قويا وغلابا .فكان نداء المعركة هو نداء الدم، وكان نداء الدم نداء الوحدة. وفى لحظة تاريخية فذة تحول الجسم السياسى فى كل قطر عربى إلى كتلة واحدة صلبة متماسكة كالبنيان المرصوص، ليس بها من الثقوب أو الثغرات الا ما اصابها من رصاص الميدان، وغير منفذة لرصاص الدعاية العدوة أكثر مما يعد الرصاص منفذا للماء.

نعم، لقد تلاحمت خيوط الوحدة الوطنية، القاعدة والقيادة، الشعب والجيش، الجبهة الداخلية والميدانية، كما لم يحدث قط من قبل فى تاريخ الصراع. فلا شئ فى الدنيا - هكذا اثبتت المعركة - كالحرب يستثير الوحدة الوطنية، ولا شئ بعدها كالنصر العسكرى يدعم ويقوى هذه الوحدة. نعم، ان الحرب هى النار التى تصهر الوحدة الوطنية، والنصر هو «الأسمنت» الذى يلحمها بعد ذلك، أما السبيكة التى صبت وصقلت فخرجت من المطهر

صافية نقية من كل الشوائب فهى الشعب بكل أصالته ، والكل هو فى النهاية البوتقة العظمى المقدسة التى نسميها الوطن.

قوميا

بالمثل قوميا. لم تكد الطلقة الأولى فى المعركة تدوى حتى انطلقت الأمة العربية بأسرها فى مد قومى طاغ، أذهل حتى العرب أنفسهم، حتى أشدهم تفاؤلا، فضلا عن الأصدقاء، ودعك تماما من الأعداء، هؤلاء الذين لم يشكوا قط ولا اخطئوا الحسابات فى أن قوة العرب فى وحدتهم وضعفهم فى تفككهم ، وأن قوتهم هم أنفسهم فى ضعف العرب وتفككهم فقط ولا قوة ولا مكان لهم ان اتحد العرب. راجع مثلا قول دايان «ان تناقضات الدول العربية سياج أمن يحمى اسرائيل».

وحتى بشهادة الآخرين، فان «انتصار مصر الحاسم فى حرب أكتوبر»، كما تقول صحيفة لاسويس، «عزل اسرائيل دوليا، فى حين حقق للعرب تضامنا واتحادا بالفعل والعمل، وليس بالأقوال كما كان يتصور البعض خطأ». ومن قبل كتبت النيوزويك أن «حرب اكتوبر جاءت بفجائية لا يعادلها سوى الأداء العسكرى العربى الممتاز، ووجد ١٠٠ مليون عربى أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة عزيزة عليهم هى الوحدة. وأيا كان، فلقد كان السبب الرئيسى لهذه الوحدة العربية هو يقينا وقبل كل شئ ذلك النجاح العربى الذى تحقق لهم فى ميدان القتال ثم فى فرض الحظر على امدادات البترول».

لقد جاءت المعركة أعظم بوتقة وأدق كشاف لحقيقة العروبة وجوهرها الأصيل، فبرزت القومية العربية حقيقة واقعة ملء السمع والبصر والوجدان - والميدان أيضا. فلقد ألهبت المعركة خيال العروبة وفجرت كل طاقتها الكامنة وجسمتها قوة محاربة فدائية واحدة. فتنادت كل الدول العربية إلى ساحة المعركة منذ اللحظة الأولى، وألقت كل منها بكل مواردها وامكانياتها وثقلها فى الميدان، رجالا وسلاحا، مالا وبترولا. تلاشت كل الحساسيات والحسابات القديمة، وانفكت العقد الوهمية والتحفظات، تقاربت كل الأنظمة والمذاهب، ذابت دول المساندة فى دول المجابهة، وانصب المغرب فى المشرق. (راجع فى هذا، على سبيل المثال فقط، ما قالته النيوزويك من انهم الآن فى لبنان يقولون انهم عرب، بينما كانوا قبل ٦ أكتوبر يتحدثون عن الفينيقية..).

وبهذا أيضا توسعت حركة التحرير الوطنى مع معركة التحرير الوطنى جغرافيا ونضاليا وفكريا لتتحول من مجرد أزمة الشرق الأوسط «اللفانتية» إلى قضية العروبة بأسرها من المحيط إلى الخليج. وفى هذا الاطار برزت ليبيا وهى عمق استراتيجى فعال ومثمر جدا لمصر، بالسلاح والمال والبترول كوقود، وكطريق وكميناء بديل أمين.. الخ، مثلما برز العراق عمقا استراتيجيا ضخما ومساندا مقتدرا لسوريا، ليس فقط بتأمين ظهرها وظهيرها وفتح طريقها ولكن أولا وقبل كل شئ بسلاحه ورجاله. وكما قدمت السعودية مشاركة بترولية ومادية ومعنوية عظيمة باذلة وباذخة، سياسيا وماليا بل وسلاحا وجنودا، قامت الجزائر الثائرة بدور قبل أكثر من رائع عسكريا وسياسيا واقتصاديا .كذلك فعلت بقية دول المغرب ومن قبلها الكويت ودولة الامارات العربية وسائر دول الخليج. بالمثل قدمت اليمن الشعبية والشمالية معاونة استراتيجية قيمة فى حصار باب المندب بحريا ومن الناحية المادية البحتة، على سبيل المثال فقط، اذا كانت دولتا المواجهة قد صبتا فى المعركة ما لا يقل بحال عن العشرة آلاف مليون جنيه وذلك عبر سنوات الاعـــداد لها، فقد شاركت دول المساندة بنصيب كبيـــــر فى دعمها قدرته بعض المصادر الخارجية بنحو الثلاثة بلايين دولار، فضلا عن بليون رابعة بعد ذلك.

لقد اندغم الجميع فى جبهة حرب واحدة طولها القومية وعرضها الوحدة، وتحققت جماعية القيادة، وبدا قادة العرب كما لو كانوا «فرسان المائدة المستديرة». وبعد ان كنا نعيش (أو نعانى) معركة القومية، عايشنا قومية المعركة. فى الجبهة السورية كانت القوات العراقية والمغربية والسعودية ثم الأردنية تحارب مع الجيوش السورية المستبسلة والقوات الفلسطينية الفدائية وعلى الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائرى والليبى فضلا عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب.. الخ حتى بعض الدول العربية وزعت قواتها الرمزية على كلتا الجبهتين. انها وحدة الدم تختلط بوحدة التراب على خط النار.

وخارج جبهة القتال وإلى جـانبها، فتحت جبهة البتــرول، فبدأت دول البترول العربية حربا حقيقية، حرب البترول. بإرادة ذاتية ودون ضغوط من الأشـقاء بدأتهـا، فكانت عونا لنا وعوانا على الاعداء وانصاف الأعداء وأرباع الأصدقاء من أدعياء الحيـاد واللامبالين أو المتعاطفين مع العدو سرا، الســتتهم مع العرب واسلحتهم مع العدو. ومازالت المعركة مستمرة وهى اذا كانت تحتاج وحدها إلى وقفه خاصة مفصـلة، فان ما

يعنينا منها هنا هو مغزاها القومى الكبير العام: ما معناها؟ ومعنى وحدة العمل العربى؟ علام يدل هذا كله، وإلى أين يؤدى؟.

بغير مقدمات مطولة، هناك ثلاثة معان. أولا أن القومية العربية حقيقة واقعة، ارتفعت إلى مستوى المعركة مثلما ردت هذه لها اعتبارها لقد أعادت المعركة خلق العالم العربى، وخلقت منه «عالما جديدا شجاعا». الحرب اثبتت وحدة العرب، وحققت العرب وحدة الحرب. وهى وحدة عسكرية وسياسية، وأيضا اقتصادية واعلامية، أى وحدة واقعية تتجاوز كل مشاكل الوحدة الدستورية ولكنها تكاد تتجاوزها عمليا فى التنسيق والتضامن والتنظيم وعلى هذا الاساس تقدم التفاعل العربى فى ظل المعركة، كما لوحظ، من وفاق عربى إلى تضامن عربى إلى وحدة عربية ومن بين الكل خرجت «القوة الذاتية» العربية وهى القاعدة الأساسية والأصولية فى المعركة والصراع جميعا.

ولقد تجلى هذا - بالمناسبة- ابلغ ما تجلى فى مؤتمر القمة بالجزائر أول مؤتمر عربى منتصر منذ بدأت مؤتمرات القمة، وأول مؤتمر ناجح لا فاشل، وهجومى لا دفاعى.كذلك بدا الوطن الكبير أثناء المعركة وبعدها، ولكن اساسا من خلالها، بدا أشبه «بكومونولث عربى» تلقائى، وربما قال البعض «اتحادا كونفيديراليا» دون الاسم والشكل. ولا ينفى هذا بطبيعة الحال وجود بعض صعوبات واختلافات، الا أنها ثانوية وعارضة وضعتها المعركة على الرف مؤجلة أو مجمدة ولا شك كذلك أنها ظاهرة ذات دلالة مهمة أن جامعة الدول العربية قد بدأت مؤخرا فى مراجعة نظامها الأساسى والتفكير جديا فى تعديل وتطوير كيانها إلى مستوى أعلى يتلاءم مع التطورات الضخمة التى احدثتها المعركة فى الصف العربى .

المعنى الثانى للموقف العربى أن البترول أثبت نفسه سلاحا سياسيا من الدرجة الأولى وسلاحا قوميا فى الدرجة الأولى: لقد نجحت المعركة نهائيا فى «تسييس» البترول بعد ان كان ذلك املا بعيدا بل مستبعدا جدا فى نظر البعض . وقد تحقق هذا بفضل جهود دائبة وصامتة فى مجال العلاقات الثنائية. وبطبيعة الحال فلقد كانت هنا أيضا صعوبات ومشاق فى التخطيط والتنسيق والتنفيذ، ولكنها كلها توارت خلف الدفع القومى الباهر. ومن الواضح أن سلاح البترول لم يكن ليسبق منطقيا وعمليا السلاح العسكرى، بل كان

لابد للأخير أن ينطلق ويعمل قبل ان يشرع الأول ليعمل على الفور. لقد كان توزيع الأدوار رهنا أيضا بحسن ترتيبها. وهكذا بالفعل كان.

ويبقى أخيرا معنى ثالث لا يقل دلالة وخطرا. لقد مارست مصر دورها الطبيعي والطليعي في قيادة الصراع وادارته بالعمل الهادئ الفاعل وبانكار الذات دون ادعاء فظ غليظ منفر. فمصر، التي قدمت نحو ١٠٠ الف شهيد وانفقت نحو ١٥ الف مليون جنيه على مدى ٢٥ سنة منذ بدأ الصراع العربي - الاسرائيلي، حشدت لمعركة أكتوبر وحدها ١.١ مليون جندي تحت السلاح لمواجهة كل الاحتمالات وهذا بالتأكيد أضخم حشد عسكري محلي عرفته منطقة الشرق الأوسط في تاريخها الحديث وربما القديم وبهذا العطاء الذي لا حد له، ارتفعت إلى مسئوليتها التاريخية كقلعة العروبة، واضعة قدرها على كتفها وقلبها على يدها، فالتف العرب حولها مبايعين مزكين، واستعادت هي حجمها الطبيعي بينهم - ثلث العرب- واستردت مكانتها التي اهتزت حينا بالهزيمة، وفي الوقت نفسه وفرت لكل منهم دورا مشرفا وبناء. لقد كانت معركة أكتوبر بالنسبة لمصر بين العرب كثورة أكتوبر بالنسبة للاتحاد السوفيتي بين السلاف، وخرجت منها وهي «كروسيا العرب» لا «كبروسيا العرب» كما كان الاستعمار يزعم ويردد تمزيقا وتأليبا ومن الناحية الأخرى اثبتت مصر ٦ اكتوبر ان الزعامة السياسية الحصيفة الرشيدة انما هي فن توزيع الأدوار، لا احتكار الأدوار، هي اولوية بين أكفاء primus inter pares، وليست منافسة فجة على الصدارة الشكلية الجوفاء.

عالميا

اذا انتقلنا أخيرا إلى المستوى العالمي ، فماذا فعل ٦ أكتوبر بالعرب وللعرب؟ أول شئ ان الحرب كشفت عن مفاجأة مذهلة: نحن أقوى مما كنا نظن، ومما كان اعداؤنا يتصورون بل وكذلك أصدقاؤنا! في ساعات انهارت كل الأفكار المسبقة المهينة والنظريات المشبوهة الموضوعة (وغير الموضوعية) لتشويه وتحطيم العالم العربي سياسيا ومعنويا ونفسيا ودعائيا. ثم في ايام فقط كانت الصورة كلها قد انقلبت بطنا لظهر. ونستطيع هنا أن نقسم دراستنا إلى عنصرين: الانسان العربي والسياسة العربية، أو المقاتل العربي والدولة العربية.

الانسان العربى المقاتل

فقد كان أول ما أثبتته المعركة أن الانسان العربى مقاتل، مقاتل ممتاز، شعب محارب قادر على قبول التحدى وعلى تحدى العصر، وفى الوقت نفسه نسفت كل دعايات العدو المغرضة عن «الشعب غير المحارب» و «الجندى الذى لا يجيد إلا الفرار عند اول مواجهة» و«الانسان غير القابل للتعليم وغير القادر على استيعاب فنون الحرب الحديثة».. الخ لقد اعادت المعركة ثقة الانسان العربى فى نفسه كمحارب، واعادت تقدير العالم واحترامه له عسكريا، كما اعادت بعث العسكرية العربية فى أشرف صورها وأكثرها اشراقا. وفى هذا قالت التايمز «ان العرب حققوا الانتصار، وبرهنوا على قواتهم تستطيع أن تقاتل وأن تستخدم الأسلحة المعقدة بنجاح كبير، كما أن القادة العرب اثبتوا انهم يقودون ببراعة».

بل وكما اعترف عالم نفس اسرائيلى «لم تعبر العرب السويس فقط، بل انهم حاربوا جيدا أيضا ولم يفروا وقد بددوا الادعاء الاسرائيلى بأنه لا يمكن لأى قدر من العلم أن يحسن قتال العرب. لقد تذكر العالم فجأة، كما قالت صحيفة غربية، أن العرب فتحوا أوربا من قبل وغزوا العالم وأسسوا امبراطوريات وهزموا الأتراك وهددوا الاستانة..!

ومن زاوية القدرة التكنولوجية، لدينا أكثر من شهادة من محايدين وغير محايدين. فقد كتب درو ميدلتون «لقد اكدت عملية العبور المصرية للقناة أن تلك القوات قد تطورت تكنولوجيا منذ ١٩٦٧. واثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر، وان فى وسعهم بعد ما حققوا من مفاجأة وبنجاح أن يتصرفوا فى انضباط». كما أضاف أن «جميع التقارير التى وصلت إلى مصادر غربية تشير إلى أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة. وكانت القيادة على مستوى الكتائب والأسراب من مستوى مرتفع، كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة».

هذا بينما قالت الأوبزيرفر «منذ عام أو عامين كانت اسرائيل تبدو متقدمة فى سباق التكنولوجيا العسكرية. وقد تنبه المصريون فيما يبدو - خلال حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ - إلى أهمية الدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى القتال.. ويبدو الآن، وبعد معارك أكتوبر ١٩٧٣، أن مصر قد لحقت باسرائيل وسبقتها تكنولوجيا فى ميدان الصواريخ والالكترونيات».

وبصيغة حاسمة أيضا قالت الجارديان «لقد برهن الجيشان المصرى والسورى على انهما أفضـــل تدريبا وأحسن تشكيلا واستعدادا وأشد جلدا وافضـل عتادا».

أما النيوزويك فقد كتبت فى نهاية الحرب قائلة ان الروح القتالية العالية والأسلحة الحديثة التى لدى الجيش المصرى كانت وراء الخسائر العالية فى الأرواح التى يصعب على اسرائيل تحملها، فضلا عن أنها «افقدتها توازنها». ثم اضافت ان الشراسة العربية فى القتال لم تقدر حق قدرها منذ بداية الحرب، كما ان وجود عدد كبير من الكفاءات العربية وراء خطوط القتال جعل من المستحيل أن يتعرض العرب لنقص فى الرجال. «وحتى ثقة الاسرائيليين فى أن لديهم تفوقا تكنولوجيا واضحا على العرب فى مجال السلاح قد سقطت «مثل الطائرات» بفعل النجاح العربى الملحوظ فى استخدام الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات».

حتى العدو نفسه اعترف. مثلا أرى يعرى، عضو المابام الاسرائيلى، قال ان حرب اكتوبر بمدتها ومعاركها وعدد ضحاياها قد اثبتت مدى التقدم الكبير الذى احرزته القوات العربية وقدرة مقاتليها على استخدام الأسلحة الحديثة المتطورة والمعقدة.

وهذا بينما كتبت معاريف فى حقد ولوعة «لقد سبقت السلحفاة العربية الأرنب الصهيـونى». حتى قـادة العدو لم يملكوا الا ان يعترفوا:

«كان الجندى المصرى يتقدم فى موجات بعد موجات، وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم، نحيل ما حوله إلى جحيم ويظل يتقدم، وكان لون القناة مخضبا بلون الدم ومع ذلك ظل يتقدم» – هكذا تكلم جونين مهندس الهزيمة المباشر. اما من خلف الخطوط فقد جاء صوت الجنرال أوزى ناركيس المشهور بتعليقاته العسكرية ليسلم بأن «لا مفر من ان نشهد لجهاز التخطيط المصرى بالبراعة. لقد كانت خططهم دقيقة، وتنفيذها أكثر دقة ولقد حاولنا جهدنا إعاقة عملية العبور وردها بالقوة على أعقابها، غير اننا ما كدنا نتمثل ما حدث الا وكانت نتائجه قد تحققت لهم، كأنما أغمضنا أعيننا وفتحناها فاذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، وفاجأونا صباح ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة». وأخيرا هناك اعتراف آلون : «ليس هناك وجه للمقارنة بين المعارك التى خاضها المصريون فى أكتوبر والمعارك التى خاضوها من قبل، حيث كان واضحا حرصهم على عدم تكرار الأخطاء السابقة إلى حد أن كلمة «الانسحاب» اختفت تماما من القاموس المصرى».

أما من المحايدين فإن الجنرال بوفر يلخص لنا الموقف كله فى جملة مركزة ولكنها جامعة: «لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة، وبنجاح». وفى مناســـبة أخرى نراه يقول، فى شهادة واقعية بعد زيارة لميدان المعركة وما رآه حوله، أن العرب قد حاربوا «بأكفأ مستوى يعرفه العصر». والواقع أن تجربة المعركة أثبتت أن التفوق الكمى العربى أخذ فى التحول تدريجيا إلى تفوق كيفى أيضا، وأن التفوقين، هذا وذاك، هما بسبيلهما إلى الانتقال نهائيا إلى العرب. أو كما قال ديفيد اليعازر «لقد فوجىء الجيش الإسرائيلى بأن الكم المصرى قد تحول إلى كيف». وفى هذا أيضا كتب آرى يعرى يقول إن التقدم العربى فى الكيف يضاف إلى المزايا الهائلة التى يتمتع بها العرب من حيث الكم، ثم ينتهى إلى أن هذا يدعو إلى تغيير النظرية القائلة بأن إسرائيل يمكنها بتفوقها فى الكيف أن تضرب العرب فى كل جولة جديدة.

وأخيرا يصل بنا أحد المعلقين العسكريين البارزين فى الغرب إلى قمة الشهادة، وكذلك منتهى النبوءة، فيقول «إن الطريقة التى حارب بها الجندى العربى فى ١٩٧٣ ضربت التفوق الإسرائيلى المطلق، وتلك كانت واحدة من كبرى حقائق الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل. وهى على هذا الأساس نذير شؤم لإسرائيل فى الجولة الخامسة، ونذير كارثة فى السادسة، وقد تكون نهاية كل شىء فى السابعة».

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من كل هذه الشهادات والمؤشرات هى أن المعركة قد أثبتت، أول وآخر وأخطر ما أثبتت، الروح القتالية العالية المندفعة والكامنة فى الجندى العربى، وأكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد، لاينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذى يواجهه. ليس هذا فحسب، إذ أثبتت المعركة أيضا قدرة المقاتل العربى على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطويع التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات، كذلك الأمر مع فنون القتال، التخطيط، التنفيذ، المناورة والحركة... إلخ. فعلى سبيل المثال، أثبتت المعركة خطأ الاتهام الذى روجه العدو عنا من أن العرب لايجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة، فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت إلى القتال المتحرك. كذلك أثبتت قدرة الدبابات المصرية والسورية المتفوقة على القتال الليلى، على

عكس الجولات السابقة، وبالمثل سلاح المشاة المصرى، بينما لم يشترك مشاة إسرائيل فى أى قتال ليلى تقريبا رغم تدريبهم عليه.

وفى هذا كله وغيره نسخت الحرب ونسفت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الشوهاء، الظالمة والكاذبة، التى ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لإلصاقها بالمقاتل العربى ونوعيته، أولا لتثبيتها فى نفسيته هو ثم ثانيا لترسيخها فى عقلية العالم. (أو كما عبر كاتب أوربى كبير بقلق أكبر «إن ماهو خطير فى تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من التراب العربى المحتل، وإنما هو فى تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت رائجة عندنا»!) فتلك الأساطير والأكاذيب، التى خرجها العدو من تجارب الماضى ودلل عليها بها، لم تكن تقوم على أى أساس من الحقيقة أو الواقع كما يدرك هو فى قرارة نفسه. فكل تجارب الماضى لم تكن اختبارا لقدرة وطبيعة المقاتل العربى كفرد أو كمجموعة بقدر ما كانت سجلا لأخطاء القيادات المهزوزة غير الناضجة أو غير المؤهلة.

فمن الثابت المقرر، كما عبر أحد كبار العسكريين المصريين أثناء أكتوبر، أن «حرب ١٩٤٨ كان فيها فقط بعض المواجهة، وحرب ١٩٥٦ قليل من المواجهة، وحرب ١٩٦٧ لا مواجهة تقريبا». الحرب الرابعة ، وحدها، كانت أول اختبار حقيقى ميدانى حاسم لنوعية المقاتل المصرى والسورى كجندى محارب، وفى هذا الاختبار الأول، بقدر ماتحطمت خرافة العسكرية الإسرائيلية وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيونى، بقدر ما أثبت هو نفسه ووجوده وتفوقه بلا حدود، أو كما قال معلق عسكرى غربى، استرد اعتباره وشرفه العسكرى، وهذا تطور بالغ الخطورة والدلالة، له مابعده فى المستقبل، مستقبل الشرق الأوسط كله.

حتى العدو نفسه تغيرت نظرته إلى الإنسان العربى والمقاتل العربى، واعترف. أو كما ذكر تيرنس سميث «أصبح الإسرائيليون من الجندى الذى يقف على خط النار إلى الوزير فى الحكومة ينظرون إلى العرب نظرة مختلفة بعد حرب أكتوبر». أو كما كتب أريك رولو، إن الإسرائيليين ما عادوا يستخدمون التعبير العبرى الشائع «أرافيت زى أرافيت» «أى العربى لايعدو أن يكون عربيا!» والذى يمثل قمة التهوين من شأن العرب بل والتحقير لهم، وأصبحوا الآن يقولون «لقد أجبرنا العرب بالقوة على احترامهم!» إننا نعرف الآن أن فى

استطاعتهم أن يكونوا على القدر نفسه من الشجـــاعة، وأن فى إمكانهم استيعاب الفنون العسكرية الحديثة».

بل الواقع أن من أطرف نتائج أكتوبر وأكثرها مدعاة للتفكير أن العدو نفسه لم يعترف فقط بكفاءة وندية المحارب العربى فى تلك الحرب، ولكن أيضا «بأثر رجعى» عام على حروب الماضى! لقد «أعاد اكتشاف» حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربى ـ فقط متأخرا ربع قرن! انظر مثلا ما كتبه الجنرال متتياهو بيليد فى معاريف: «من الواضح حتى الآن أن الجندى المصرى يظهر روحا قتالية قوية، ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال، إننا نعرف هذه الظاهرة جيدا، منذ حرب ١٩٤٨، وخلال حرب سيناء كذلك فى ١٩٥٦، لم تكن قليلة الحالات التى حارب فيها الجندى المصرى حربا عنيدة، فى المعارك الدفاعية وفى جميع الحالات كان المصرى موجودا فى تجهيزات محمية يعرفها، ولم يفاجأ بالهجوم عليه، وإذا لم يحدث انهيار فى الجيش، ولم تتولد ظروف جديدة لا يلم بها إلماما تاما، فإنه سيستمر فى تنفيذ مهمته بإخلاص، وهذا مايحدث الآن فى جبهة القناة».

أو أنظر إلى ماكتبه المدعو تيدى برديس فى دافار: إن الثغرة بين التوقعات والواقع الذى نشأ هذه المرة تكمن فى الحقيقة التى نسيناها، وهى أن العربى لم يكن خلال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلا رديئا، بل قاتل بشجاعة وتصميم. إلا أن أصحاب شعار «هذه ليست لعبتهم» طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها، كذلك فإنهم تناسوا نتائج البحوث السيكولوجية على الأسرى المصريين ١٩٦٧، تلك التى كانت بعيدة تماما عن الاستهتار بالجندى المصرى، الذى وجد أنه يتمتع بقوة تحمل كبيرة وكفاية جسمية جيدة وروح هجومية، ثم عدد الكاتب حالات من الصمود المصرى النادر نسيت بسبب «أقوال العجرفة والتعالى التى كانت تصدر عن القادة والسياسيين»: جيب الفالوجا ١٩٤٨، نموذجا لقوة صمود المصرى المحاصر، صمود أبوعجيلة ١٩٥٦، حيث اضطر الجيش الإسرائيلى إلى العمل ٣ أيام لاختراقهم «١٠٠ ساعة فى الوحل»، شجاعة ومهارة المصريين فى الإغلاق المتتالى للثغرات التى كانت قوة إسرائيلية مختارة تحاول شقها على مفترق طرق رفح فى ١٩٦٧.... إلخ.

الدولة والسياسات العربية

ذلك كله عن الإنسان العربى كرجل محارب بين إنسان العالم، أما من الناحية السياسية العالمية فإن الانقلاب لايقل خطرا ولا مغزى، وهو فى الواقع مترتب مباشرة على

الانقلاب الحربى. فلأول مرة خرج عرب ٦ أكتوبر وهم صنعة التاريخ بعد أن ظلوا طويلا لعبة التاريخ، وتحولت المنطقة من منخفض سياسى إلى منطقة ضغط سياسى مرتفع مؤثر وفعال، ومن إقليم جيوبوليتيكى سالب إلى إقليم موجب يساهم اليوم جديا فى تشكيل التوازن العالمى وتضاريس السياسة الدولية، باختصار، أصبح العالم العربى فاعلا بعد أن كان مفعولا به بانتظام أو مجرد رد فعل على أفضل تقدير. ولأول مرة فى تاريخها الحديث تقريبا، أصبح العالم العربى عاملا مهما فى تحقيق التوازن السياسى فى المنطقة، إن لم يكن الأساسى، ولا نقول الوحيد، ولأول مرة يصبح مصير المنطقة معلقا بقواها الداخلية وإرادتها الذاتية أكثر مما هو متعلق أو مرتبط بعوامل وقوى من خارجها. ولأول مرة كف العالم العربى عن أن يكون لعبة السياسة الدولية المفضلة، بما فى ذلك الاستقطاب أو الوفاق، وعدا ذلك تم تصحيح ميزان القوة الذى كان قد اختل بوضوح فى غرب آسيا وتم وضع حد للاستراتيجيات الإقليمية المضادة بها، بل لقد غيرت المعركة ميزان القوة فى قارة آسيا عموما.

ليست إسرائيل وحدها إذن التى ردت إلى حجمها الطبيعى، العرب أيضا، بل العرب أكثر، والأكثر فى المستقبل، لقد انقلبت كفتا الميزان بينهما، أو بالأصح عادتا فاعتدلتا وصححتا، وكما قالت جريدة انجليزية أخيرا: «شىء واحد مؤكد الآن، أن العرب أصبحوا فى الوقت الحاضر فى مركز تفاوضى أقوى بكثير مما كانوا عليه.. وأن إسرائيل قد أصبحت فى مركز أسوأ بكثير مما كان العرب أو أى أحد يعتقده ممكنا قبل بداية الحرب». وحتى أولئك الذين يشككون فى النصر العسكرى العربى أو يقللون منه، لايملكون أن يشككوا فى نتائجه العالمية السياسية والنفسية أو أن يقللوا منها، مثلا كتبت مجلة تايم فى حديث لها مع الرئيس المصرى «إن المؤرخين سوف يتجادلون طويلا حول ما إذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصارا عسكريا فى حرب أكتوبر. ولكنهم ـ على الأرجح ـ لن يختلفوا حول الرأى القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربى قدرا من الثقة بالنفس كانوا فى أشد الحاجة إليه وكان غائبا عنهم منذ الهزيمة المهينة فى عام ١٩٦٧».

وليس أدل على الهيبة الدولية الجديدة والمكانة المرموقة التى حققها عرب أكتوبر من نظرة العالم الجديدة إليهم. فبدل الإشفاق والرثاء الممزوج بالاستخفاف إن لم يكن ماهو

أسوأ، حل الاحترام والتقدير الذى لايخلو أيضا من إعجاب، أو كما ذكرت ورقة أكتوبر «لقد رفعت حرب أكتوبر من شأن العرب جميعا، وأصبح العالم كله يعترف بالوجود العربى وبدور العرب ويعمل على كسب ودهم». أو كما كتبت النيوزويك «الزمن تغير فجأة. تبدلت نظرة العالم إلى العرب، وأصبح ينظر إليهم بكل الجدية، بعد طول معاملة لهم على أنهم شعوب همجية ودول متخلفة، وبالمثل بدأ العرب ينظرون إلى أنفسهم على ضوء جديد». بل إن قطاعا كبيرا من العالم، وخاصة من العالم الثالث، أصبح يتطلع إلى العرب ويرنو ساعيا إلى التقارب معهم. «اعتبر مثلا التقارب الإفريقى الكبير، أو فكر فى معنى ما قاله رئيس النيجــر من أن فى الإفريقيين دماء عربية كما أن فى العرب مؤثرات افريقية، وأنه هو شخصيا تجرى فى عروقه دماء عربية الأصل والنسب بنسبة معينة».

وعدا هذا فلا يكاد يمضى يوم منذ أكتوبر دون أن يزور سياسى قيادى أو وفد كبير من دولة ما من دول العالم دولة عربية أو أخرى، بينما تتجول الوفود العربية بدورها بكثافة على اتساع العالم لتقابل بالترحيب والاحترام. أما عروض القروض والمعونات ومشروعات التنمية والمشاركة فى التعمير فلا تكف عن التدفق تباعا من كل الجهات، وهذا كله صورة مرآوية مقلوبة أخرى لما حدث فى أعقاب يونيو، حين كان الكل فى «زيارة للمنتصرين» وكانت الأموال تنهال على إسرائيل بغير حساب.. لقد أصبح العالم العربى بوضوح بؤرة اهتمام العالم ومحط أنظاره كقوة ضاغطة مؤثرة فيه لها وزنها وتقديرها، وورث العرب مكان إسرائيل السابق فى قلب العالم وعقله.

وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير مثلا إلى مؤتمر القمة الإسلامى الثانى الذى عقد فى لاهور أخيرا تقديرا ومساندة من العالم الإسلامى لقلبه العربى، فعلى العكس من المؤتمر الأول الذى عقد فى الرباط منذ ٤ سنوات فى ظل الهزيمة، جاء المؤتمر فى ظل النصر فكان نجاحا كاملا، وكما جاء المؤتمر دفعة معنوية كبيرة للعرب، كان تأكيدا لانتصارهم ولنفوذهم المتعاظم فى العالم بعد النصر، وبالمثل كان دور العرب وخاصة مصر فى تحقيق التصالح والتقارب بين الباكستان وبانجلاديش داخل المؤتمر دليلا على مكانتهم المرموقة فى العالم الإسلامى.

وعلى الجانب الآخر، جانب العدو، جاء المؤتمر ضربة سياسية أخرى ومزيدا من الحصار، إقرأ مثلا ما كتبته هاتسوفيه صحيفة الحزب القومى الدينى فى إسرائيل: «إن

نداء تحرير القدس الذى وجهه مؤتمر لاهور يأتى فى وقت أصبح العالم الإسلامى فيه أقوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية بصورة لم تحدث منذ أربع سنوات» (حين عقد مؤتمر الرباط). أو اقرأ ما كتبته معاريف: «لقد أوضح مؤتمر لاهور تماما التناقض بين الواقع الذى يحيط بنا والواقع الذى نعيش فيه وبين الوحدة المتزايدة للعالم العربى والفرقة التى تنهكنا».

ليس هذا فحسب. بل إن العالم العربى نفسه «يتوسع» الآن بصورة لافتة ولايمكن أن تكون بلا مغزى، فليس من المصادفة وحدها على الأرجح أن يتم انضمام دولتين من افريقيا، موريتانيا والصومال، إلى الجامعة العربية فى وقت واحد تقريبا قبيل وبعد انتصار أكتوبر مباشرة، كأنها جميعا على ميعاد، لقد اتسعت جغرافية العروبة كما ارتفعت قامتها.

ويسترعى الانتباه هنا، كما يستدعى التفسير بإلحاح، أن تنبثق كل هذه الانطلاقة والطفرة الإيجابية من أمة قيل عنها بالأمس فقط أنها قد أصيبت بتصلب الشرايين، إن لم يكن بالشيخوخة المبكرة أو القديمة. فكيف نعلل هذه المتناقضة إذا كانت صحيحة، وإن صحت فإلى أى حد؟ وماهو التشخيص أو التكييف العلمى الدقيق لهذا التطور؟ الإجابة تكمن فى دورة حياة الدول الجيوبوليتيكية كما وضعها العالم الجغرافى فإن فالكنبرج، تلك التى تحدد مراحل تطور الدولة كجسم سياسى وككائن عضوى بمعنى ما فى أربع: مرحلة النشأة أو الطفولة التى تنطوى فيها الدولة على نفسها ترتب بيتها من الداخل وتحمى حدودها فى الخارج، ثم مرحلة الشباب أو التوسع وفيها تنطلق إلى دور خارجى إيجابى إما من التوسع أو فرض النفوذ، ثم مرحلة النضج أو الاستقرار حين تكون قد وصلت إلى أوج القوة ولا تريد إلا المحافظة على الوضع الراهن والتوازنات القائمة، ثم أخيرا مرحلة الشيخوخة أو الانهيار التى تعجز فيها عن المحافظة على نفوذها أو حدودها فتبدأ تفقد منها تدريجيا حتى تنكمش وتتقلص وربما سقطت لتقوم دولة جديدة تبدأ دورة جديدة، وهكذا.

والدول العربية كنظم سياسية معاصرة تعتبر، ابتداء، دولا حديثة فى مرحلة النشأة، لأنها رغم عراقتها التاريخية الألفية إنما بدأت دورة جيوبوليتيكية جديدة بالأمس القريب فقط حين تحررت من الاستعمار الأوربى واستكملت استقلالها النهائى منذ ٢٠ سنة أو ١٠

سنوات على الأكثر أو فى المتوسط، وبعض هذه الدول كمصر وسوريا والعراق كانت تزحف حثيثا نحو مرحلة الشباب وقد انطلقت بالثورة والتنمية، والبعض الآخر كان على الطريق بفضل ثورة البترول وثروته الدافقة كالسعودية وربما الجزائر وليبيا... إلخ. ولكن هزيمة يونيو ردت أكثر هذه الدول إلى الخلف كثيرا، رغم أنه كان وضعا مؤقتا معلقا بالضرورة، وهنا يأتى دور أكتوبر: إنه بالدقة والتحديد قد «جدد شباب» العرب جميعا، وبدأ مرحلة جديدة من «تجديد شباب» الدول العربية political rejuvenation، وخاصة منها دول المواجهة والطليعة، وهذا هو المعنى الأول والمباشر لأكتوبر فى الكيان الدولى العربى، إنه بداية مرحلة جديدة فى المورفولوجيا السياسية للدول العربية.

ومن هذا المنطلق والمنطلق بالتحديد فرض العرب على العالم واحدة بل سلسلة من أكبر وأخطر «المتغيرات» فى السياسة الدولية بعد أن كانت مصايرهم رهنا بالمتغيرات الدولية تتقاذفها وتعصف بها دون أن تملك هى من أمرها شيئا، لقد كان الجميع يتحدثون طويلا وكثيرا عن المتغيرات الدولية قبل أكتوبر، فأصبح أكتوبر هو أبرز المتغيرات الدولية وأقواها أثرا. وكان أوضح تعبير عن هذا هو بروز «شخصية دولية عربية» على المسرح العالمى.

عرب أكتوبر كقوة عظمى

وإذا كان من العسير القول بأن العرب يشكلون بعد «نظاما سياسيا» مستقلا فى المجتمع الدولى، فإن المؤكد أنهم أصبحوا يزحفون حثيثا نحو مركز بارز من مراكز القوة العالمية متعددة الأقطاب، وقد تحدثت الصحافة العالمية بالفعل عن العرب المنتصرين كقوة كبرى أو شبه كبرى، مرشحة بغير منازع واضح لمركز «القوة السادسة» فى عالم ما بعد الوفاق. ولم يكن ذلك قطعة من الإثارة الصحفية ولا انطباعا عابرا تحت وهج المعركة. فبعد نصف عام من توقف القتال، عاد التقرير السنوى لمعهد الدراسات الإستراتيجية بلندن فأكد الحكم بصيغة موضوعية وقاطعة فقال «إن حرب أكتوبر، بسلاحيها العسكرى والبترول، قد جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوربا الغربية». (لا داعى هنا، ولا هو من المفيد، أن نخدع أنفسنا فننساق وراء ما يزينه لنا بعض «غلاة الأصدقاء» من أننا إنما مرشحون لمركز «القوة الثالثة»!، حيث أن الصين مازالت إمكانية لم تتحقق وكلا من أوربا الغربية واليابان عملاق اقتصادى

ولكنها قزم سياسى لم تزل). هذا، وليس غريبا أن نتكلم عن العرب، وهم الذين ينقسمون سياسيا إلى ٢٠ دولة، كقوة عظمى واحدة، فإن أوربا الغربية ـ لنتذكر ـ تقع بدولها التسع فى الوضع نفسه تقريبا.

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة كان علماء السياسة والجغرافيا السياسية لا يرون من القوى الكبرى الجديدة المحتملة أو الممكنة بعد الخمسة الكبار، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وأوربا الغربية واليابان والصين، كانوا لايرون سوى الهند والبرازيل. غير أن هذه النبوءة لم تتحقق إلا جزئيا بزحف الهند إلى موقع القوة شبه الكبرى بعد حرب الهند ـ الباكستان الأخيرة، أما الآن فإن صعود القوة العربية البازغة بعد أكتوبر يشى بخريطة جديدة تماما لتوزيع القوة فى العالم.

والواقع أن العرب يملكون كل خامات القوة الكبرى، مساحة أرض وتعداد سكان وموقعا جغرافيا وموارد طبيعية ومستوى حضاريا، بل إن الكثيرين ينظرون اليوم إلى العالم العربى باعتباره ـ كما يعبر بحق حازم الببلاوى ـ «احتياطى نمو العالم ورصيد المستقبل» من وجهة نظر التنمية الاقتصادية والتطور المادى والصناعى، فبمساحته الشاسعة وتعداد سكانه الكبير، ولكن أكثر بكثافة سكانه المحدودة بحكم سيادة الصحراء على الجزء الأكبر منه، فإن الإقليم بدخوله البترولية المليارية إلى جانب انتاجه الزراعى، والصناعى يعد الآن من أغنى أقاليم العالم الجغرافية والسياسية فى مستوى الدخل القومى ووفرة رأس المال وإمكانيات التصنيـــع والاستثمار.... إلخ. كذلك فلـــقد كانت المنطقة دائما حبلى باحتمالات الوحدة، كما كان الكل يشعر بطريقة ما بأنها مؤهلة بالطبيـــعة لدور غير عادى وللبروز كقوة من قوى العالم الأساسية.

غير أن هذه العناصر الأولية كانت دائما وحتى قريب مجرد إمكانيات كامنة بالقوة لا كائنة بالفعل، وكانت المنطقة دائما خطيرة جدا فى السياسة الدولية وفى نظر العالم، ولكن كغنيمة ثمينة يتصارعون عليها، لا كمركز قوة ذاتى مرموق، فقد كان محور السياسة الاستعمارية العالمية فى هذا الجزء من العالم تقليديا هو منع قيام قوة قومية كبرى فيه بأى ثمن. وكانت لعبة تمزيق المنطقة أولا، ثم عملية خلق إسرائيل فيها ثانيا، هى أدوات تنفيذ تلك السياسة، وكان وجود إسرائيل وحده، فضلا عن وصمة هزائمها المتتالية للعرب، ضمانا أبديا بتعقيم القوة العربية كفيلا باستحالة ترجمة الممكن إلى واقع فى هذا المجال.

أو كما تقول ورقة أكتوبر «لقد كانت عناصر القوة العربية الكامنة، بالنسبة للعالم، مجرد احتمال نظرى، بينما كانوا يرون فى إسرائيل القوة الفعالة المؤثرة فى رسم مجرى التاريخ فى المنطقة، والكفيلة بتشكيل مستقبله».

انتصار أكتوبر قرر العكس، فتح الباب أمام انطلاقة عربية عظمى يمكن أن تستقر بها فى النهاية فى نادى الكبار. أو إذا اقتبسنا ورقة أكتوبر مرة أخرى «حرب أكتوبر طرحت الإمكانيات العربية كحقيقة واقعة، لا كمجرد احتمال بعيد.. وصارت أى سلطة وطنية فى أى بلد عربى تشعر بعزة جديدة، ويعاملها العالم معاملة الند للند.. لم يعد العالم العربى غنيمة يختلف الأقوياء على أنصبتهم فيها، أو ترسم مصائرها فى عواصم بعيدة، بل صارت طرفا قويا يتحدث عن نفسه بنفسه».

لقد تغيرت ليس فقط خريطة الشرق الأوسط السياسية، وإنما كذلك خريطة العالم السياسية جميعا. وإذا كان هذا التغيير جنينيا فقط حتى الآن بطبيعة الحال، فالمسألة أولا مسألة وقت، وهى ثانيا مسئولية العرب أنفسهم الآن، فعليهم وحدهم ألا يكفوا لحظة عن استكمال نصرهم واستثمار نتائجه الطبيعية، وقد لخصت الصنداى تايمز الموقف كله كالآتى: «إن العلاقات مع الدول العربية طرأ عليها منذ أكتوبر الماضى تغير جذرى. ولم يكتف العرب باكتشاف وحدتهم الحقيقية لأول مرة عن طريق استخدام سلاح البترول، بل إنهم استطاعوا أن يستخدموا قوتهم الاقتصادية بما حقق لهم نجاحا سياسيا كبيرا، وسعوا عن طريق الضغط على أوربا إلى تغيير السياسة الأمريكية نفسها إزاء إسرائيل، وكذلك نجحوا فى إحداث صدع فى حلف الأطلنطى بفرض حظر بترولى على الدول غير الصديقة، وحملوا وزير خارجية أمريكا على بدء إجراء حوار معهم اتسم بتأييد وجهة النظر العربية، وأخيرا نجحوا عن طريق مضاعفة أسعار البترول ثلاث مرات فى تعزيز سيطرتهم على النظام النقدى فى العالم».

عن مصر مثلا، إذا أخذنا نموذجا منفردا، كتبت الإيكونوميست أخيرا أنها تبشر بنهضة اقتصادية كبرى، ثم قالت إن هذا الانطلاق المصرى سببه «النجاح الهائل الذى حققته مصر فى عملياتها العسكرية ضد إسرائيل فى أكتوبر الماضى الذى رفع ثقتها بنفسها وبقدراتها الذاتية وقدرات الأمة العربية كلها». كذلك كتبت مجلة بيزينيس ويك الأمريكية أن «مصر على وشك الانطلاق إلى ازدهار اقتصادى»، وأن المال للاستثمار

يتدفق إليها، من الدول العربية البترولية، بدافع القومية العربية، ومن الدول الصناعية بدافع الحرص على كسب الثقة وضمان إمدادات البترول العربى، كما من الاتحاد السوفييتى الذى «أصبح مجرد مجموعة أجنبية أخرى تحاول الاستثمار فى مصر». هذا بينما تنبأ البعض أنه لم يمض عقد أو أكثر إلا وتكون مصر قد انتقلت إلى قائمة «الدول الغنية» فى العالم، حتى كيسنجر اعترف أخيرا بأن أمريكا تعتبر مصر «قطب الرحى» فى استراتيجية الشرق الأوسط.

أما على مستوى استراتيجية السياسة الكوكبية فيمكن القول فى الواقع إن مرحلة تعدد مراكز القوى العالمية ثم مرحلة الوفاق بعدها، أو باختصار مرحلة توازن القوى الجديد على الطريقة المترنيخية المحدثة وأسلوب القرن التاسع عشر المجدد، هى فى التحليل الأخير مرحلة إعادة تحديد علاقات القوى العظمى بالعالم الثالث بالتحديد، ذلك الوليد الجديد الذى لم يكد يفوز باستقلاله عن قوى الاستعمار القديم ثم عن كتل الصراع الاستقطابى حتى وجد نفسه مشوشا مضطربا لايزال بين مراكز القوة المتعددة الجديدة التى تتسابق عليه وتتجاذبه أو تتنازعه.

ويمكن القول فى هذا المجال إن العالم العربى هو أول قطاع من هذا العالم الثالث يدخل ويحسم هذه المرحلة بثقة واقتدار، فهو الذى دشنها والآن يهندسها، حيث أصبح أول منطقة من العالم الثالث تصل إلى احتمالات القوة العظمى العالمية، وهو بذلك أيضا يفتح الباب أمام العالم الثالث لكى يتقدم إلى مكان ومكانة أكثر تكافؤا فى العالم، ويعطيه الفرصة لكى يضيق هوة القوة المخيفة بينه وبين العالمين الأول والثانى، وكما حدد الرئيس السادات، فإن حرب أكتوبر هى «بالتأكيد انتصار لدول عدم الانحياز، وأثبتت أننا نستطيع أن تكون لنا إرادة فعالة فى عالم مابعد ٦ أكتوبر. والمشكلة الآن هى ماذا سنعمل نحن ودول عدم الانحياز فى هذا العالم. فالموازين الدولية قد تغيرت، والعلاقات السياسية لابد أن تعاد صياغتها، وأننا نواجه عالما جديدا، لن يكون عالم ماقبل ٦ أكتوبر ولكن عالم مابعد ٦ أكتوبر».

وكدول قوة عالمية تنبثق من صميم العالم الثالث، يمكن أن يكون للعالم العربى رسالة خاصة، وظيفة إقليمية، تكاد تنفرد بها بين القوى العظمى مثلما ينفرد بين أقاليم العالم كإقليم جغرافى وتاريخى وكموقع جيوستراتيجى وجيوبوليتيكى وكمنطقة حضارية وثقافية،

فالمنطقة، التى كانت القوة الأعظم المطلقة فى العالم يوما ما، بل لأكثر من مرة، وربما كذلك لأطول فترة عرفتها منطقة مماثلة فى التاريخ، يمكن بكل خصائصها ومعطياتها ومؤهلاتها الطبيعية تلك أن تكون عقدة قوة فى قلب العالم خالية من عقد القوة بمعناها السيىء.

إنها ـ توضيحا ـ مؤهلة لأن تكون بمثابة جيروسكوب سياسى وبؤرة انفتاح ماصة صدمات ومصب تيارات، أى عامل ثقل وتوازن بين القوى العظمى الأخرى يمنعها من التصادم أو الإخلال بتوازن العالم، يخفف من حدة التناقض بينها، يقرب بين بعضها البعض وبينها بين القوى الصغرى، ويقارب الشرق من الغرب ويقدم الجنوب إلى الشمال ويسد الفجوة بين الأقوياء والضعفاء ويضيق الهوة بين الأغنياء والفقراء ويحل المعادلة الصعبة بين الأصالة والمعاصرة وبين القوة والسلام. إنها رسالة تاريخية تحددها الجغرافيا، وانسانية رغم أصلها الإقليمى.

وإذا كان هذا هو الجانب الإيجابى والمشرق من نتائج صعود أو بداية صعود عرب أكتوبر إلى مركز القوة العالمية، فيجب ألا ننسى جوانبها الشاقة والشائكة أيضا، فللقوة ثمنها الباهظ وضريبتها المستمرة التى يتعين دفعها واجبات ومسئوليات ومخاطر وأخطارا، ولكن قبل كل شيء صراعات وصدامات ليس فقط مع الأنداد أو الصغار وإنما حتى مع الكبار بل ربما أساسا معهم، وليست لعبة الكبار لعبا ولا نزهة سياسية أو استراتيجية رخية هنية أو هينة، وإنما هى أساسا صراع قوة، فالقوى الكبرى لاترحب ابتداء بمنافسين أو مشاركين جدد، ومن المسلم به أنه ما من أحد فى العالم كان يريد لقوة كبيرة أن تنبثق فى هذه المنطقة الخطيرة من العالم بالذات. فإذا ما فرضت نفسها وقامت، كما قد بدأ يحدث بالفعل، فإن عليها أن تتوقع وتتحمل مخاطر ومتاعب ومقاومة القوى الكبرى الأخرى، ولقد بدأت بوادر هذه المتاعب بالفعل، حتى مع بعض قدامى الأصدقاء الكبار، وهذا مايفرض على القادمين الجدد إلى دائرة القوة ليس فقط الحد الأقصى من الحذر والتنبه، ولكن كذلك أن يرتفعوا بوعى واقتدار وبذل إلى مستوى المسئولية ومتطلباتها.

وإذا كان لنا عود مفصل إلى هذه القضية فى دراستنا للعالم والمعركة، فإن علينا هنا أن نسجل ثلاث ظاهرات بل حقائق أعقبت حرب أكتوبر وترتبت لاشك عليها، فأولا، لا

سبيل إلى الشك فى أن العرب، أرادوا أو لم يريدوا ، أدركوا أو لم يدركوا ، فقد بدأوا يدخلون لعبة القوة العالمية، أى لعبة الكبار، وبالتحديد مع القوى الكبرى، وبالذات مع العملاقين ثم إلى حد ما مع أوربا الغربية، وبعد أن كان العرب لعبة هؤلاء الكبار، أصبحوا هم بأنفسهم طرفا متناميا فى لعبة الكبار، وقد ترتب على هذا بدء ظهور تعديلات مهمة فى علاقات العرب بالقوى الكبرى الخارجية، وكما كانت حرب أكتوبر هى السبب المباشر فى هذه التعديلات ، فقد جاءت أيضا المناسبة التاريخية لها، ولهذا نرى فترة ما بعد أكتوبر فترة تغير جوهرى فى تلك العلاقات وإعادة توجيه لها وصياغة جديدة لمعادلتها.

ثانيا، تأخذ هذه اللعبة أساسا شكل لعبة التوازن، توازن القوى، وذلك لتحقيق أكبر قدر من الاستقلال والأمان إزاء كل وأى من أطراف اللعبة. والمعنى الجوهرى لهذا أن العرب قد بدأوا يخرجون من دائرة الاستقطاب الثنائى القديم ومناطق النفوذ النسبية التى كانت تحكمهم وتشلهم قبل أكتوبر إلى سياسة توازن القوى الجديدة، وبعد أن كانوا يخضعون لقواعد «لعبة الشطرنج» بين العملاقين checkmate، أصبحوا هم الذين يمارسون «سياسة المضاربة» بينهما عن طريق مضاربة كل منهما بالآخر stalemate. ومحور هذه السياسة هو الانتقال المتوازن من الاعتماد الكامل على أحد العملاقين، وهو الاتحاد السوفييتى، إلى التعامل المتوازن والمتكافىء مع العملاقين كليهما، كسبا للواحد دون فقد للآخر، وتحييدا للعدو وتحديدا للصديق.

ثالثا، مانراه الآن من صعوبات جديدة أو متجددة بين العرب والاتحاد السوفييتى والأخذ والرد والشد والجذب بينهما، خاصة بل أساسا على سياسة التسليح، هو إلى حد معين مظهر من مظاهر دخول العرب دائرة القوة العالمية ولعبة الكبار. فهناك خطة أو محاولة واضحة لتحديد قدرات العرب وقوتهم بتحديد إمدادات السلاح إليهم، وبالمقابل أتت خطة العرب فى تنويع مصادر سلاحهم، وتقارب العرب مع أوروبا الغربية والاتجاه إليها كمورد سلاح متطور، ثم محاولة تحسين العلاقات مع أمريكا، هى مظاهر أخرى للحقيقة نفسها ، وهى دخول العرب حلبة القوى الكبرى بصراعاتها وتوازناتها.

معركة البترول

لا سبيل إلى الفصل بطبيعة الحال بين حلقات هذه الثلاثية المترابطة: أكتوبر ـ العرب ـ البترول. ولهذا لابد من دراسة خاصة مركزة، لا لاقتصاديات البترول بالمعنى الواسع،

وإنما لجيوبوليتيكا البترول بالأحرى والأخص. نريد، يعنى، تحليل الجوانب السياسية للبترول كبعد أساسى وعنصر أصيل فى معركة أكتوبر دون أن نفقد أنفسنا أو نضيع فى خضم الأرقام والإحصائيات التقليدية التى تزخر بها الدراسات الاقتصادية عادة.

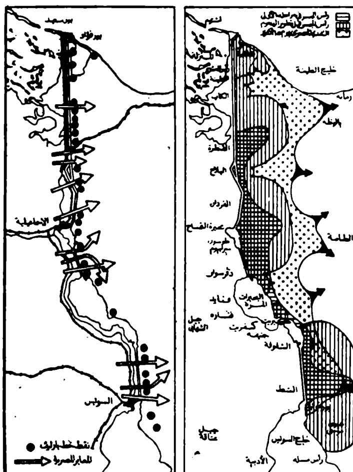
دور البترول ودورته السياسية

ولقد مرت تجربة البترول كسلاح سياسى فى عدة مراحل. فلقد طالما تكلم العرب عنه ولوحوا به، دون أن يجمعوا هم أنفسهم على رأى موحد أو موقف عملى، ودون أن يأخذهم الاخرون بجدية أو اهتمام. كذلك حاول الكثيرون عزل البترول عن السياسة وعن المعركة، بزعم أنه سلاح اقتصادى فقط لا دخل له بالسياسة، ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق، فلقد كان البترول دائما فى قلب السياسة العربية ومحور السياسة الدولية فى المنطقة، بل لقد كانت كل الأخطار التى تعرض لها الوطن العربى فى العقود الأخيرة تدور حول البترول مباشرة وغير مباشرة. وكان السباق الاستعمارى رهيبا من أجل بترول العرب، وبالمثل كان صراع القوى حول هذا السباق.

بل إن من الثابت المؤكد أن خلق إسرائيل نفسها كان على علاقة عضوية بالبترول، ومنذ البداية إلى النهاية كان الاستعمار يستخدم إسرائيل «كلب حراسة» لصالحه فى المنطقة «ماذا سوى البترول؟» وإرهابيا مخصصا لتأديب أصحاب البترول حتى لايتمردوا على حظيرة الاستعمار البترولى يوما ما. فإلى جانب تهديد مصر والقناة، كانت وظيفة إسرائيل الأخرى باستمرار هى تهديد العرب والبترول، العرب حاملة البترول وإسرائيل حاملة الطائرات.. وآخر حالة فى هذه النقطة هى إيماءات وتلميحات ثم تصريحات إسرائيل قبل أكتوبر عن التهديد بضرب مناطق البترول العربية إما لحسابها مباشرة أو لحساب أمريكا رأسا. فى المرة الأولى حدث هذا ضد ليبيا الثورة حين تصاعدت مواقفها القومية، وفى المرة الثانية حين تفاقمت أزمة الطاقة فى أمريكا والعالم حيث قال أحد قادة إسرائيل ببساطة أنه ليس بين جيش إسرائيل والكويت سوى الصحراء..

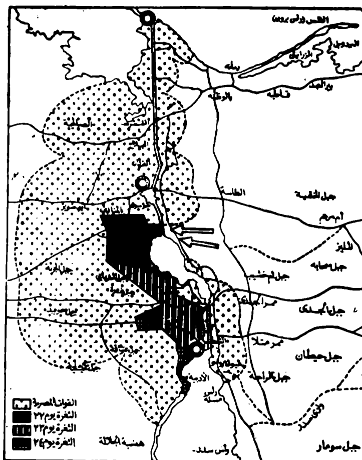
أبعد من هذا، لقد كان البترول العربى هو شريان حياة إسرائيل المادية والاقتصادية. وتلك كانت قمة المتناقضة التاريخية والمأساة السياسية، فلو أننا حصرنا أرباح ومكاسب الاحتكارات والاستثمارات الاستعمارية فى بترول المنطقة منذ بدأت، ثم حصرنا الهبات والمنح والمساعدات والقروض المالية التى صبها الاستعمار فى جسم إسرائيل منذ كانت،

شكل ١ ـ سيناء ، بوابة مصر ومدخلها الشرقي ، ثلاثية في مثلث ، أو بدقة أكثر ، مثلث في الجنوب يستقر على قاعدته مستطيل في الشمال . المستطيل هو ميدان الحرب وأرض المعركة الحقيقي . المعركة تحددها [illegible] استراتيجية [illegible] ثلاثة من خطوط الهجوم التعبوية ، أو محاور استراتيجية [illegible] وثلاثة معتمدة من خطوط الدفاع التعبوية الدولية . والمحور [illegible] الثلاثي هو أهمها . ونقط تقاطعها [illegible] أكثر وأشد أهمية .

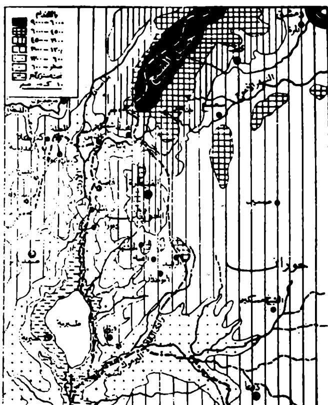


شكل ٢ ـ الى اليسار : مواقع نقط العدو القوية فى خط بارليف .
لاحظ كيف تتقارب وتتكاثف فى القطاعات الهامة خاصة ازاء المحاور الاستراتيجية الثلاثة ، بينما تتباعد وتتخلخل نسبيا بعيدا عنها لا سيما امام البحيرات المرة . ثم لاحظ كيف تتوزع الكبارى والمعابر المصرية على طول جبهة القتال تشتيتا للعدو وتفتيتا لجهده .

الى اليمين : راس الجسر النامى على البر السيناوى يتوسع باطراد نحو الشرق حتى بلغ بضع عشرات من الكيلومترات فى اتساعه . لاحظ ارتباط زحف رؤوس الجسر بالمحاور الثلاثة الشمالى والأوسط والجنوبى .

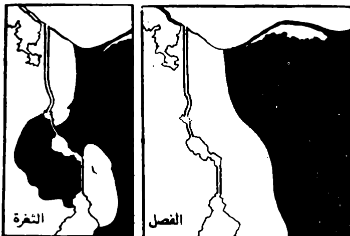


شكل ٣ ــ قصة الثغرة فى خريطة ، او محاولة الحصار التى تحولت الى مصيدة . الأسهم توضح مدخل او عنق الثغرة عند الدفرسوار . التسلل بدا فى الشمال فى ظل احتمال وقف النار ، ثم توسع بالتدريج نحو الجنوب بعد اعلان وقف النار . بدل ان يكون الجيش الثالث محاصرا ، اصبح جيب العدو هو المحاصر بين شقى الجيش الثالث فى الجنوب والثانى فى الشمال . جيب كبريت المحلى الضئيل هو وحده الموقع المصرى المحاصر ؛ ولكن العدو كله محاصر حوله بدوره داخل نطاق القوة المصرية الشاسع . اما حصار السويس بالتسلل الغادر فقد عجز امام دفاع المدينة الباسلة حتى ارتد خاسئا وهو حسير بعد ان تكبد افدح الخسائر .

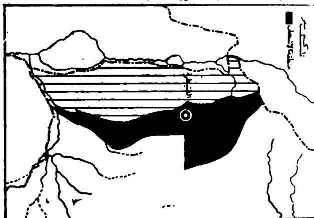


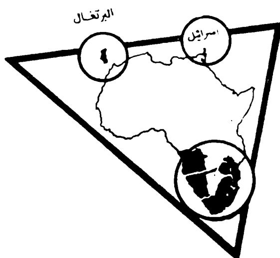
شكل ٤ — ارض المعركة السورية الكبرى ، او المرتفعات السورية . او هضبة الجولان التى تؤلف قلعة جبلية شماء تهدد الشمال الاسرائيلى المنخفض . كأنها منحدر القلعة او منصة المدفعية . الأرض تنحدر باستمرار من الشمال الى الجنوب . من ذرى جبل الشيخ الاستراتيجية الحاكمة حتى منخفضات الأردن وسهول اليرموك فى الجنوب . لاحظ أخدود البقاع ثم الاغوار . ولاحظ كذلك ان بحيرة الحولة (التى جففها العدو الآن) تقع فوق سطح البحر . ثم ما بعدها جنوبا يقع تحت سطح البحر . القطاعات العسكرية الثلاثه فى الجبهة واضحة : المنطقة الشمالية جبلية ، الوسطى متموجة . الجنوبية سهلية . على الخريطة تظهر ايضا التلال الاستراتيجية الثلاثه حول القنيطرة : شمالا بغرب . وغربا . وجنوبا بغرب . حرب الجولان اقرب فى طبيعتها وجغرافيتها ومناخها الى حرب الجبال والغابات ، او عموما حروب البيئة الأوربية ، حيث حرب سيناء هى حرب الصحراء المكشوفة المثالية .

شكل ٥ — معركة التحرير السورية الكبرى . الزحف السورى العارم بدأ من الشرق بطول الجبهة ، وعلى المحاور الثلاثة الطبيعية الرئيسية ، وباتجاه الجنوب الغربى ونحو وادى الاردن وطبرية . الهجوم الاسرائيلى المضاد يأخذ اتجاهات ومحاور عكسية . تبادل الطرفان اكتساح الهضبة كليا او جزئيا مرتين كل منهما ، بحيث كانت حركة المد والجزر مزدوجة افقيا وراسيا . المد السورى وصل فى أوج انتصاره الى مياه طبرية واليرموك ، وهدد بقطع لسان اسرائيل الطويل الضيق الكثيف بالمستعمرات والممتد بطول نهر الأردن الأعلى والمحصور بين كتلة الجولان شرقا والجليل الاعلى غربا . عند سعسع وضع الصمود العربى حدا للثغرة الاسرائيلية وارتد العدو جزئيا .

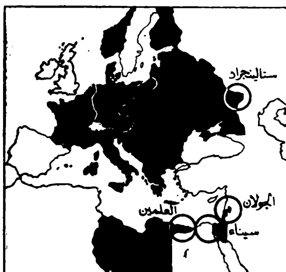


شكل ٦ ــ الفصل بين القوات . الفصل اتفاق عسكرى محض ، ولكنه
١ دليل قاطع على النصر العسكرى العربى . (٢) نصر سياسى عربى
ناصع وخطوة أولى نحو الانسحاب الاسرائيلى الشامل . اعلى : خريطة
الثغرة والفصل على الجبهة المصرية كما أعلنتها وكالات الأنباء . القوات
المصرية تسيطر على الضفة الشرقية بصلابة تامة من رمانة فى الشمال
الى رأس مسلة فى الجنوب ، أى من البحر الى الخليج ، باستثناء ممر الثغرة .
بالفصل . انسحب العدو الى الشرق من خط يوازى القناة ويقع على بعد
٣٠ كم منها . اسفل : الفصل على الجبهة السورية . مساحة المرتفعات
السورية المحتلة بعد يونيو (الجولان) تبلغ ٧٥٠ كم٢ ، ومساحة الجيب
المحتل فى اكتوبر ٥٠٠ كم (المجموع ١٢٥٠ كم٢) ، بالفصل انسحب العدو
من ٦٢٣ كم٢ ، أى من نصف الأرض المحتلة جميعا .



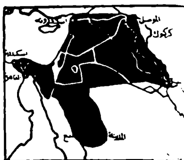


شكل ٧ ــ طرد اسرائيل من افريقيا اثناء اكتوبر . افريقيا محاطة على اركانها الثلاثة بالاستعمار الاستيطاني الأبيض .



شكل ٨ ــ خريطة مقارنة بين توسع الاستعمار النازى فى اوربا اثناء الحرب العالمية الثانية وتوسع الاستعمار الصهيونى فى الشرق الأوسط .

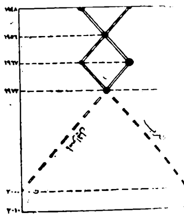




شكل ٩ ــ اسرائيل الكبرى : الحلم المجنون الذى تحطم على واقع اكوبر . تفسيران مختلفان للاطماع الصهيونية السفيهة : الى اليمين : الاطماع تبتلع كل العراق ونصف مصر ، والى اليسار : نصف العراق وكل مصر . فى الحالين يدخل بقية المشرق العربى ، بما فى ذلك الأراضى الاسلامية المقدسة وبعض مناطق البترول !



شكل ١٠ ــ خريطة طباقية مقارنة بين الصهيونيات والصليبيات. النواة الصلبة مشتركة ، ولكن الاولى توسعت شمالا اكثر . والثانية جنوبا اكثر . غير ان النهاية ستكون واحدة.



شكل ١١ ــ رسم بيانى تخطيطى لمنحنى الصراع العربى ــ الاسرائيلى ، ما كان منه وما قد يكون . اذا استمرت الاتجاهات الجديدة ؛ فقد لا تعمر اسرائيل اكثر مما عمرت حتى الآن .

والتى بدونها ما كانت لتعيش فضلا عن أن تحقق مستوى معيشة وتنمية تتفاخر به كذبا وادعاء على العرب «المتخلفين» حولها، لو أننا حصرنا هذه وتلك لوجدنا الأولى أضعاف الاخيرة ، أى أن الاستعمار البترولى ، كان يمول اسرائيل إلى حد التخمة بجزء فقط من مكاسبه من البترول العربى .

فلو اضفنا بعد ذلك سيل السلاح المتطور المتدفق على إسرائيل لتقتل به العرب (تذكر : «ادفع دولارا ، تقتل عربيا»!) وتستبقيهم رهينة الاستعمار الصهيونى والإمبريالى وتنتزع أوطانهم بالقطاعى، لأدركنا أن البترول كان سلاحا يأخذه الاستعمار من العرب باليمين ليضعه فى يد إسرائيل بالشمال لتقتلهم هى به بكلتا اليمين والشمال معا. البترول، فى الخلاصة الصافية ، ثروة فريدة تخرج من أرض العرب لتعود، بعد دورة غير مباشرة ولكنها غير خافية، سلاحا فى يد عدو العرب يقتلهم به فى أرضهم أو يطردهم منها كلية.

ولما كانت أمريكا بوجه خاص هى المسيطر على الجزء الأكبر من امتيازات واحتكارات البترول العربى (أكثر من ٦٠٪)، وكانت أيضا المورد الأساسى للسلاح والأموال لإسرائيل، فإنها بذلك كانت «الوسيط» الأول بين العرب كضحية وبين إسرائيل كقاتل، تماما مثلما كانت «الوسيط» الأكبر بتروليا بين العرب كمنتجين وأوربا كمستهلكين. إن الدور والدورة أوضح ما يكونان ، وإسرائيل تعيش وتسمن وتفره على دماء العرب مرتين، بيدها وبيد أمريكا، مباشرة وغير مباشرة ، بيولوجيا واقتصاديا، حرفيا ومجازيا، لاجئين وبترولا، ودعك تماما من الاعتبار الأصغر، على خطورته الجسيمة، وهو احتمال إعادة تصدير البترول العربى نفسه أو مشتقاته من الغرب إلى إسرائيل، تدير به آلة اقتصادها وآلة حربها ضد العرب.

وكان لابد إذن للعرب من «تسييس» بترولهم، وتحويله من سلاح اقتصادى بحت إلى سلاح سياسى مسلط، حاسم وبتار. وفى ظل الوفاق العربى الحكيم، برز البترول لأول مرة «ملكا King Oil»، ومنذ اللحظة الأولى فى المعركة العسكرية، ازدوجت بمعركة سياسية موازية لاتقل خطرا وفاعلية.

حرب البترول النفسية

ومنذ تلك اللحظة أيضا لجأ الاستعمار إلى لعبة الحرب النفسية مرة أخرى. فزعم حينا

أن «سلاح البترول الذى يهدد به العرب هو سلاح وهمى»، كما قالت مايير، «فلقد عرفت القيادات العربية طعم الرخاء الاقتصادى، وهى ليست على استعداد للتضحية بهذا الرخاء فى سبيل قضية عربية مشتركة» كما فسرت. ثم إن البترول ليس ذلك السلاح السياسى المطلق الذى يتصوره العرب، فليس أمام العرب إلا أن يبيعوه أو يشربوه كما قال أبا إيبان (!). وأضافت أمريكا بالذات أنه سلاح مفلول غير مؤثر بالنسبة لها، بزعم أنها لاتعتمد عليه إلا غرارا ولماما. كما أفاضت فى الحديث عن «البدائل» ما ظهر منها وما بطن، ومشروعات كبرى لتحقيق «استقلالها القومى» فى الطاقة سنة ١٩٨٠... إلخ. ثم زعم الاستعمار حينا آخر أنه لايتصور حقا أن تتحد كلمة العرب وأنهم لم يتفقوا قط إلا على أن يختلفوا، وأن الأمر كله لايعدو أن يكون تهديدا أجوف غير جاد، أى «تهويشا» سياسيا bluff ليس إلا. فلما لمسوا أن الخطر حقيقى ووشيك، راحوا يروجون أن العرب لن ينجحوا فى استخدام سلاح البترول بقوة وكفاءة، وأنه سوف يرتد لذلك إلى صدورهم، كذلك هددوا بعقوبات مضادة كتجميد إن لم يكن مصادرة الأرصدة العربية فى البنوك الغربية، وكحظر توريد السلع الغذائية والصناعية فضلا عن الأسلحة إلى الدول العربية، ومحاصرتها حصارا بحريا أو قاريا... إلخ.

وفى النهاية، حين شعروا بعقم هذه الإجراءات التهديدية وبأنها هى التى قد ترتد إلى صدورهم حيث أن أمام العرب بنوكا وأسواقا وأسلحة بديلة فى العالم الواسع، لجئوا إلى التهديد العسكرى السافر، سنحتل مناطق البترول، تلك «السلعة الحضارية»، لصالح «العالم المتحضر». وفى هذا المعنى تواترت الأنباء عن اتصالات بريطانية ـ أمريكية لتخطيط العملية، وعن مناورات حربية أمريكية على مسارح صحراوية لحرب صحارى البترول، وعن تحذيرات علنية بأن على العرب ألا يستبعدوا إمكانية العمل العسكرى المباشر للاستيلاء على مناطق البترول ومنابعه.... إلخ. وقد رد العرب على الفور بأنهم على استعداد للاستغناء عن دخل البترول لسنين طويلة بل ولتدمير الآبار والعودة إلى حياة الصحراء إذا لزم الأمر، وبالفعل، أعلن أن كلا من الكويت والسعودية قد قامت بإحاطة حقول بترولها بحزام من المتفجرات لنسف الآبار عند أول بادرة غزو غربى معاد. ولا يفوتنا هنا فى التهديد الغربى العسكرى مغزى كلمتى السلعة «الحضارية» والعالم «المتحضر»، فهو ينضح بروح ورائحة العنصرية الكامنة والدفينة، فالصورة المتضمنة من

وجـــهة العقل الغربى هـى ببساطة أن البتــرول كمصادفة جيولوجية جاء لسوء الحظ فى أيدى أمـــة من البـرابرة تنذر بـأن تتحـول به إلى أمـة من الوندال تخـرب حضـارة العـالم الزاهية التى بناها بعلمه وعمله وتقدمه..

وإذا كانت أمريكا السياسية والرسمية، أكثر من أى أحد آخر، خلف كل هذه الدعايات والادعـاءات والتـهديدات، فقد كـان يكمن خلفهـا بدورهـا جـمـعـات الضـغط الصـهـيونيـة الأمريكية وأصدقاؤها من محترفى السياسة الحزبية هناك، ومن خلف الجميع كانت تكمن «أو تبرز؟» إسرائيل التى حاولت عبثا مغالطة أن تصور أزمة الطاقة فى العالم وفى أمريكا خاصة بأنها أزمة وهمية غير حقيقية أو مهمة، وأنه على أية حال فإن أمريكا لن تسمح لنفسها أن «تبيع الدم الإسرائيلى من أجل البترول العربى» (كذا) كما ردد مرارا وزيرها المغرور أبا إيبان، ولكن إسرائيل فى هذا إنما كانت تخدع نفسها فقط، والدعاية لاتغنى عن الحقيقة أو تغيرها، أو كما قال الصهيونى لاكيــر لم يكن فى استطاعة هذه الدعـــاية السـاذجة أن «تجعل آبار البتــرول فى السعودية وليبيا والعراق تختفى أو أن تنقلها إلى صحراء النقب».

أو إقرأ مـا قـاله ايتسـهـاك رابين فى أغسطس ١٩٧٣ حين كـان سـفـيـرا لدولتـه فى الولايات المتحدة ولاحظ مافيه من دس واستعداء يطفح بالحقد: «إن هناك وعيا متزايدا هنا فى الولايات المتحدة بأن من المسموح به للعالم المتمدين فى حالة الاضطرار أن يستولى بالقوة على منابع البترول العربية. إن فى أمريكا من يقول: إذا كان بعض النظم التى تنتمى إلى القرون الوسطى ينوى حقا تهديد الاحتياجات البترولية لعدة مئات من الملايين فى العالم المتحضـر، فـإن من الطبيـعى حينئذ أن يلجـأ الغرب إلى اسـتـخدام الوسائل الفعالة لمنع حدوث ذلك».

غـيـر أن المعركـة، وهذا من نافلة القـول وتحصـيل الحـاصل، بددت كل الأوهـام. فقد أثبتت المعركة أن البترول كسلاح سياسى قد يكون أقوى من القنبلة الذرية كسلاح حربى، ولعل مما له مغزاه أن جريدة كالصنداى تايمز اعترفت، بعد أكثر من نصف عام على انتهاء معركة أكتوبر، بأن المعركة أثبتت أن «البترول سـلاح لا يعادله سوى القنابل الهيدروجينية». ثم أضافت «إنه إذا كان ماوتسى تونج قد قال إن القوة السياسية تنبع من فوهة البندقية، فقد أظهر أكتوبر أنها تنبع من برميل البترول». البترول، باختصار، أخطر

وأرهف مادة استراتيجية فى عالمنا المعاصر وحضارة العصر. إنه، نكاد نقول حرفيا، دم الحضارة الصناعية، وخط الحياة بالنسبة لجميع خطوط الإنتاج الحديثة، من أضخم جهاز تكنولوجى إلى أصغر منشأة هندسية، بغيره تشل الحضارة الحديثة ويتدهور مجتمع الوفرة والاستهلاك ويرتد العالم المتطور إلى حضارة ما قبل العصر الصناعى ولا نقول حضارة العصور الوسطى.

والعالم العربى من ناحيته هو «عاصمة العالم بتروليا» كما قلنا: أكثر نوعا من ثلثى احتياطى العالم بأسره، أكثر كثيرا من نصف تجارته الدولية، وأكثر جدا من ثلث الإنتاج العالمى، وعلى هذا فإن العرب، أكبر مصدر فى العالم، فى موقف احتكارى لاجدال فيه، وفى مركز قوة تفاوضية لاسبيل إلى تجاهله، ابتداء من تحديد الإنتاج إلى ضبط الأسعار حتى سياسة الحرمان المطلق denial measure. وكل عام يمضى، بل كل يوم، تزداد فيه هذه الاتجاهات نموا وتبلورا وهذا الموقف قوة وتسيدا.

وإذا كانت هناك مناطق أو دول لا تعتمد مباشرة وبصورة حاكمة على بترول العرب فى تسيير عجلة انتاجها ودورة آلتها الصناعية، كالولايات المتحدة أساسا، فإن هناك عوالم بأسرها تعيش عليه: أوربا الغربية واليابان أساسا، الأولى بنسبة نحو ٧٠٪ فى المتوسط (تتراوح من دولة إلى أخرى بين ٥٠٪ كحد أدنى، ٩٥٪ كحد أقصى)، والثانية بنسبة ٨٥ ــ ٩٠٪ (باعتبار الشرق الأوسط كله) وبين هذين الطرفين النقيضين لاتكاد دولة فى العالم تستغنى عن البترول العربى بنسبة أو أخرى، بما فى ذلك لأسباب فنية حتى بعض الدول المنتجة للبترول.

وفضلا عن هذا فإن سوق البترول العالمية. هذا السائل الإكسيرى، هو نظام مغلق closed system من الناحية العملية، أشبه فى دينامياته بالأوانى المستطرقة، كل نقص هنا يستتبعه تغيير هناك، والعكس، وكل برميل يحبس عن السوق تنعكس آثاره على مستهلكيه هنا وعلى غير مستهلكيه هناك، ويصدق هذا إلى أقصى حد فى السنوات الأخيرة بوجه خاص حيث زاد الطلب على العرض بشدة وبانتظام، بحيث تنبأ البعض «بمجاعة بترولية» إذا استمرت هذه الاتجاهات، بينما أصبحت «أزمة الطاقة» من قبل من مفردات السياسة الدولية الدارجة والسارية والأكثر شيوعا ــ وإقلاقا أيضا..

البترول «ملكا»

فى إطار هذه المعطيات الجبرية، ألقى العرب بسلاحهم المشرع والمشروع فألقوا بالعالم الاقتصادى المعادى أو اللامبالى فى دوامة من الفوضى وفى اضطراب صادم بدد كل غفلة ووهم. فكما جاءت معركة أكتوبر صدمة صاعقة للعدو الإسرائيلى، جاءت معركة البترول صدمة كهربائية للغرب أفاق عليها من التنويم المغناطيسى الصهيونى (أو بالأصح الاستنامة له).

وبطبيعة الحال فإن خفض انتاج البترول العربى أو حظر تصديره لم يكن هو الذى خلق ماسمى بأزمة الطاقة فى العالم أو فى أمريكا، فالحديث عن هذه المشكلة سبق معركة أكتوبر بسنة وبعض سنة على الأقل. ولكن كان للمعركة، كما فى كثير من جوانبها الأخرى، دور المفجر والمعجل والمضاعف multiplier .. فقد جاءت اللحظة الحرجة تاريخيا وسيكولوجيا فضاعفت أبعادها بمعدل هندسى لا حسابى.

ومن حسن الحظ أن المواجهة جاءت بعد أن كان موقف العربى المالى العالمى قد تغير تماما عما كان مألوفا من سنين. فلقد كان تراكم لهم فائض مالى هائل فى السنوات الأخيرة أصبح يغنيهم عن لهفة انتظار الدخل السنوى وحررهم من ضغوطه الآنية. ومن حسن الحظ أيضا أن توقيت الطبيعة جاء هو الآخر متوافقا مع توقيت المعركة، فقد دشنت معركة البترول والشتاء الأوربى القارس على الأبواب، أو كما قال بعضهم فى الغرب، لقد جند «الجنرال شتاء» نفسه فى خدمة «الملك بترول»!

أما النتائج الاقتصادية المباشرة فكانت بالغة الأثر بل باترة: هزة خطيرة فى الإنتاج وضغوط انكماشية وأخرى تضخمية بعيدة المدى، بطالة متزايدة وأحيانا مخيفة، غلاء جارف وارتفاع فى الأسعار مع انخفاض فى مستوى المعيشة وفى معدلات التنمية الاقتصادية، شلل جزئى أو زاحف فى النقل والمواصلات والحركة، اختلال تام فى نمط الحياة اليومية والمنزلية.. إلخ.

أما بالنسبة للمستقبل، فقد ولت إلى الأبد ـ هكذا أدرك الغرب الصناعى ـ أيام الطاقة الرخيصة بغير حدود، «أيام العز» الذهبية the real bonanza daus، والانطلاق الصناعى الفائق على حساب العالم المتخلف، وإفراط الصناعة فيه - Over industrialization كمكافىء موضوعى (أو غير موضوعى!) لتفريط الصناعة

فى العالم الثالث under-industrialization ويمكن القول بكل ثقة إن أحوال العالم الاقتصادية على النحو التقليدى السائد حتى قريب لن تعود قط ثانية. بل أكثر من هذا، وكما قرر بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بكل جلاء، بدأ العالم يدخل الآن مرحلة اقتصادية جديدة تماما بسبب حرب أكتوبر. لقد ثورت الحرب العربية الناجحة، عن طريق البترول العربى الحاكم، هيكل الاقتصاد العالمى، مثلما ثورت بفعلها المباشر الاستراتيجية العالمية.

أما على المستوى الحضارى، فقد أثبتت معركة البترول وأكدت فضل العرب على المجتمع الصناعى الحديث، فالتجربة الواقعة أثبتت أن البترول عامة والبترول العربى خاصة هو الذى صنع الثورة الصناعية الثانية، ثورة العلم والتكنولوجيا، فى الغرب بعد أن استنفدت الثورة الصناعية الأولى، ثورة الفحم، أغراضها وعصرها، هو البترول، وخاصة العربى، الذى جعل ممكنا المجتمع الاستهلاكى ومجتمع الوفرة والرفاهية والرخاء ومجتمع مابعد الصناعة، إن البترول العربى وقناة السويس هما أخطر أعمدة حضارة أوربا الصناعية المعاصرة، إغلاق القناة خنق أوربا، وخفض البترول أصابها بالأنيميا والشلل، بل هما أيضا أعاداها إلى الماضى الغابر: الأول أعاد شبكة النقل العالمى إلى نمط العصور الوسطى حول الرأس، والثانى أعاد عصر الخيول وعربات الخيل ومواقد الخشب والفحم!

بل لقد أثارت الأزمة الأسئلة الفلسفية الأساسية عن حضارة هذا العصر وحضارة المستقبل ومستقبل الحضارة، إلى أين، وإلى متى هذا الاقتصاد الهدمى والاستنزاف النهم المسعور لموارد الطبيعة المحدودة غير المتجددة، ما جدواها حضارة الاستهلاك المحمومة هذه... إلخ؟ لقد فرضت الأزمة على الإنسان وعلى البشرية، باختصار، وقفة حضارية مع النفس قد تتمخض فى أسلوب جديد للحياة على هذا الكوكب الصغير وعن فلسفة جديدة لروح العصر.

ومن الغريب، أو لعله ليس غريبا، أن الصهيونية العالمية حاولت بالحقد كله أن تنفث سموم دعايتها فى أنحاء العالم لكى تدق أسفينا بين العرب والغرب خاصة ولكى «تقلب المائدة» على العرب الذين شبهتهم «بقطاع طرق القرون الوسطى» (لاكير)!. ففى البداية، حين برزت وحدة العرب وصلابة الموقف العربى، أثارت الصهيونية نغمتها المكذوبة عن

«هذه الحرب الصليبية» التى يجددها «التعصب العربى» على العالم الغربى ويشنها على الغرب المسيحى» (كذا!). ولم يكن هناك قلب للحقائق أبشع ولا أخطأ من هذا، فإنما الصهيونية وحدها هى صليبيات العصر، والعرب وحدهم هم ضحيتها.

أما فى النهاية، حين تبددت هذه الدعاية المبتذلة فى مناخ الإهمال والازدراء، بدأ الحديث عن «الابتزاز البترولى» العربى، وهى النغمة التى لاتـــزال أمريكا ترددها للآن. وتلك أيضا دعوى رخيصة مضللة، فإنما سلاح البترول العربى سلاح مشروع للدفاع عن النفس، والدعوة إلى عدم استعماله دعوة إلى الانتحار. أما الابتزاز فهو فن قننه بل وشرعه الآخرون، وضد العرب بالتحديد، حرب التجويع وســـلاح القمح ، سياسة القروض وسحب عروض التمويل، خفض أسعار الخامات... إلخ. ذلك ودون أن نذكر أن الوجود الإسرائيلى برمته ومن أساسه فى المنطقة هو ابتزاز أمريكى نـــووى وغير نووى، كما أن النـــفوذ الصهيونى فى أمريكا هو بدوره ابتزاز إســـرائيلى، سافر ومســـتمر، بل إن آخر مظاهر الابتـــزاز الأمريكى هو تهديدها المتكـــرر بحظر صادراتها الغذائية وخاصة القمح والحبوب إلى الدول العربية والنامية كرد مضاد على حظر البترول.

استراتيجية المعركة

إن الكلاب تنبح، ولكن القافلة تسير، قافلة العرب، باقتدار وذكاء، وفى مرونة واعية وانضباط فى التوقيت والتصعيد والتهبيط، شهد بها الجميع، راح العرب يطبقون خططهم فى خفض الإنتاج وفى تصنيف الأعداء وفى تحديد الأسعار (كان أول رد فعل حانق خرج من إسرائيل عن سرعة تحرك ومرونة العرب هى أنهم قد تعلموا فيما يبدو الكثير من الدبلوماسية مثلما تعلموا من فنون القتال منذ حرب يونيو). فأما عن الخفض، فقد بدأ أولا بقرار بتحديد الإنتاج بنسبة ٥ ـ ١٠٪ مما كانت عليه معدلات شهر سبتمبر السابق للمعركة، على أن يترك لمن يشـــاء من الدول العربية أن يرفع الخفض إلى ٢٥٪، تزداد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر.

غير أنه بتلقائية فذة، قفز معدل الخفض فورا وعند الجميع إلى نسبة «السقف» المحدد، ٢٥٪. لهذا، وحين أتى الخفض آثاره وأحس الجميع بوطأته، ومنعا لحدوث أى شرخ أو مضاعفات فى العلاقة الجديدة الناشئة مع أوربا الغربية، عاد العرب فقرروا تهبيط نسبة

الخفض إلى ١٥٪ ابتداء من يناير ١٩٧٤، وذلك باعتبار هذه النسبة الحد الكافى للتأثير دون الإضرار.

أما عن التصنيف، فلم يكن سلاح الحرمان عشوائيا بلا تمييز، ولو قد كان، ووضع الكل فى سلة واحدة لجمع الكل أنفسهم فى جبهة ومواجهة واحدة ضد العرب، وهذا بالدقة ما حاولته أمريكا حين راحت تضغط على أوربا الغربية واليابان بخاصة لتكوين جبهة من المستهلكين تقاوم ضغوط المنتجين العرب، «اتحاد المستهلكين» المقول الذى يكاد يذكرنا سياسيا واقتصاديا «بجمعية المنتفعين» سـيئة السمعة والمصير التى حاولوا فرضها إبان أزمة السويس ١٩٥٦ .. ولم تخف أمريكا أغراضها الحقيقية، من هذه الدعوة، إذ وضحت أن هدفها هو «إرغام» الدول العربية على تخفيض أسعار البترول أولا وضمان تدفقه ثانيا، لقد تزعمت أمريكا حملة العداء ضد العرب وحرب البترول المضادة، فهل نجحت؟ .

تحت ضغط المصالح البترولية الحقيقية، ورغم كل الضغط الأمريكى السافر والمباشر، تباعدت اليابان بحذر شديد عن هذه اللعبة الخطرة، وأعلنت للعرب، وهى التى يعتمد اقتصادها اعتمادا شبه كلى على بترولهم والخليج، أنها حريصة كل الحرص على عدم التورط فيها، كما تباعدت بوضوح عن إسرائيل سياسيا واقتصاديا، فأعلنت تأييدها السياسى لحقوق العرب العادلة وقرار ٢٤٢، وطبقت قواعد المقاطعة التجارية للمصالح الإسرائيلية وذلك رغم تهديدات الصهيونية الأمريكية بمقاطعتها عالميا، كذلك تقدمت إلى العالم العربى بعروض القروض والمساعدات الاقتصادية ومشروعات التنمية والمشاركة فى الإنتاج الصناعى وإعادة التعمير وتصنيع البترول.... إلخ.

وهنا يمكن القول باطمئنان إن أزمة الطاقة التى تعرضت لها اليابان قد فرضت عليها موضوعيا أن تخرج من عزلتها السياسية لتلعب دورا عالميا لأول مرة منذ الحرب الثانية، وكان الشرق الأوسط هو مسرحه الأول والأساسى، وعلى هذا يمكن القول أيضا بثقة وتأكيد إن العرب وأكتوبر بالتحديد هى المناسبة التاريخية كما هى العوامل الضابطة أو الضاغطة التى ساعدت هذا العملاق الاقتصادى الذى كان قزما سياسيا تقليديا أن يرتفع سياسيا إلى مستواه الاقتصادى، يتخلص أكثر من وقر الوصاية الأمريكية الكاتمة،

ويقترب أكثر وأكثر من مكانه المحجوز له فى نظام تعدد المراكز فى العالم، وهذا أثر آخر من آثار أكتوبر المحققة على هيكل السياسة العالمية.

هذا عن اليابان . أما عن أوربا الغربية، التى لاجدال فى دور أكتوبر فى تعميق، استقلالها وتباعدها عن أمريكا، والتى تقود فرنسا معركتها للاستقلال القارى والوحدة الأوربية، فقد عارضت اقتراح اتحاد المستهلكين الأمريكى وأوضحت بإصرار أن هذا إجراء سيعده العرب عملا عدائيا وسيعطيهم الانطباع بالتحدى والمواجهة ولن يفعل فى النهاية سوى أن يوسع الهوة ويضاعف الأزمة بدل أن يحلها، وكاقتراح مضاد، طلبت فرنسا تشكيل اتحاد من المنتجين العرب والمستهلكين فى الغرب للتنسيق والتفاهم. وفى الوقت نفسه قاومت فرنسا كل الاتجاهات الانتهازية داخل السوق الأوربية التى حاولت أن تتلاعب بالموقف العربى أو أن تدور من حوله.

ومن الضرورى هنا أن نلاحظ بموضوعية أن الموقف الأوربى يمتاز مع ذلك بثلاث ظاهرات حتى الآن، أولا أنه غير متجانس تماما، فمازالت هناك دول مترددة أو غير متجاوبة مع الحق العربى، وعلى الأقل فإن دولة واحدة معادية للعرب علنا (هولندا). ثانيا، أنه لايخلو جزئيا من انتهازية بادية، وربما من تلاعب غير مخلص، وهو فى كل الأحوال موقف اضطرارى أكثر منه عن قناعة وعدل، ثالثا، وأخيرا، أنه لم يزل يقدم الكلمات والبيانات أكثر من الأفعال والضغوط، بزعم أنه لايملك وسيلة لذلك على أى من أمريكا أو إسرائيل.

ومن الناحية الأخرى فقد بدأت بعض الدول الأوربية تعقد عقودا مباشرة وطويلة الأجل مع بعض الدول العربية لضمان حصولها على البترول بكميات ضخمة ولعشرات السنين المقبلة، وأول وأبرز مثال لذلك فرنسا مع السعودية، بينما يبدو أن بريطانيا واليابان تحاولان تكراره، ومن هنا فقد تتمخض الأزمة فى النهاية عن نتيجة تاريخية حاسمة وهى إعادة إقامة العلاقات البترولية بين العرب وأوربا الغربية على أساس مباشر يستبعد دور الشركات الأمريكية، وسيط استغلالى طفيلى.

ولعل هذا بالدقة ما تخشاه الحكومة الأمريكية وما تصارع ضده صراعا محموما، فالخوف عندها هو أن تتمخض المواجهة عن «أبعادها» من العالم العربى بتروليا بأوضاعها الاستغلالية المفروضة القديمة، وحلول أوربا الغربية محلها برغبة العرب

وبشروطهم وبأوضاع جديدة من وضع العرب أنفسهم، فلو حدث هذا لانقلب الموقف الذى كان قائما بين المتنافسين فى حرب ١٩٥٦، حين انتهزت أمريكا الفرصة لتطرد «الاستعمار القديم» من المنطقة وترثه فيها كاستعمار جديد، والفارق الأساسى فى الحالة الجديدة إذا تحققت هو أن التقدم هذه المرة سيكون من صيغة «الاستعمار الجديد» إلى صيغة «الوفاق الجديد».

ومهما يكن من شيء، فالواضح حتى الآن أن السياسة الأمريكية البترولية المضادة للعرب قد فشلت، وكان التخطيط العربى أبرع، وبدلا من أن تشق أمريكا الصف العربى شق العرب الصف الغربى. ذلك أنهم صنفوا المستهلكين حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل إلى ثلاث فئات: الأصدقاء، ولهم أن توفر كل حاجاتهم المشروعة من البترول دونما فرص للتسرب أو التسريب، من هؤلاء فرنسا وبريطانيا ثم بعض دول أخرى من أوربا الغربية، فضلا عن الدول الإسلامية والافريقية ودول عدم الانحياز التى وقفت بجانب العرب. ثم هناك المحايدون الذين كفوا عن الانحياز إلى العدو أو السير فى ركاب الولايات المتحدة. وعلى هؤلاء يسرى التخفيض، ولكن دون حرمان. هنا وضعت بقية دول أوربا الغربية، كما كانت تأتى اليابان التى حسنت موقفها كثيرا فنقلت إلى قائمة الأصدقاء، وأخيرا فإن هناك الأعداء، على رأسهم أمريكا، الهدف الأساسى لحرب البترول فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى جميعا. أما فى الذيل فدول توابع أمثال هولندا والبرتغال وغيرهما. والحرمان الشامل هو هنا الحد الأدنى الممكن من العقاب الواجب.

وربما حاولت هذه الفئة الأخيرة، وغيرها، أن تخترق حاجز الحرمان أو أن تتسلل حول حائط المقاطعة بطريقة أو بأخرى، وهناك فعلا إشارات غامضة وشواهد متواترة على وجود بعض ثغرات فى تنفيذ الحظر كانت تؤدى إلى وصول بعض التسرب إلى معسكر الأعداء. بل لقد أعلنت أمريكا رسميا عن «تزايد» امدادات البترول العربى الواصل إليها دون أن تفصح عن مصادرها وكيفيتها، ولاشك فى أن الشركات الأمريكية العاملة في المنطقة العربية هى التى كانت تقف وراء هذا التلاعب، ومن الضرورى التنبه لهذه الثغرات وسدها مهما كانت ثانوية ـ ويبدو أنها ليست كذلك تماما.

كذلك كان لابد من ضبط معدلات التخفيض فى الإنتاج والتصعيد فى الأسعار بحيث لايتأثر الأصدقاء فى الغرب الصناعى أو فى العالم الثالث الفقير أكثر مما يتـأثر الأعداء، وحتى لا يضار الاقتصاد والعملات والنقـد الأوربـى واليابانى أكثر من الاقتصاد والدولار الأمريكى، كما حدث بالفعل على مايبدو حيث حققت أمريكا مكاسب ملتـوية من أزمة الطاقة محليا وعالميا وتحسن وضع دولارها على هذا الأساس.

والواقع أن هناك من يرون أن التكتيك الذى نفذت به استراتيجية تحديد ضخ وتصدير البترول لم يلحق ضررا كبيرا أو مؤثرا بأمريكا بقدر ما أضر بأصدقاء العرب الأوربيين، فالشركات الأمريكية المنتجة فى العالم العربى هى تلقائيا شركاء فى لعبة الأسعار، بل الشركاء الأكبر، وهى مستفيدة منه بالضرورة، بل إن لها مصلحة فى رفع الأسعار، وأكثر من ذلك ثبت أنها كانت تناور منذ مدة وتتلاعب بالأسعار وأنها حققت بالفعل أرباحا فى العام الأخير أكثر مما حققت فى أى عام مضى.

وهناك أيضا مؤشرات على أن أمريكا رحبت فى قراراتها بالأزمة من حيث أنها شلت الاقتصاد الأوربى واليابانى المنافس لاقتصادها، ووجدت فيه كذلك بالتالى أداة لإعادة سيطرتها السياسية على أوربا الغربية وإخضاعها لضغوطها من جديد، وبهذا كله فقد يكون من المحتمل أن أمريكا أفادت من معركة البترول بدرجات متفاوتة اقتصاديا وسياسيا، إلى جانب معاناتها وخسائرها بالطبع . أو فلنقل أفادت بقدر ما أضيرت سواء على هذا المستوى أو ذاك .

معركة الأسعار

تبقى أخيراً معركة الأسعار . لقد أضير المنتج العربى للبترول فى السنوات الأخيرة بسبب سلسلة تخفيضات قيمة الدولار الأمريكى وغيره من العملات الغربية ، ونزلت برء وس الأموال العربية ودخول البترول العربية خسائر فادحة فى يوم وليلة تقدر بمئات الملايين من الدولارات ، فضلا عن الزيادات المحمومة والمفتعلة فى أسعار السلع الصناعية .والمنتجات الغذائية التى فرضتها الدول الصناعية على صادراتها إلى الدول العربية وغير العربية فى العالم الثالث . وقد وصلت هذه الزيادات فى بعض السلع إلى نحو ثلاثة وأربعة الأمثال فى بضع سنين فقط . ومعنى هذا باختصار أن العرب كانوا يصدرون دم حياتهم إلى أمريكا والغرب ، فتصدر أمريكا إليهم التضخم وهبوط العملة وانخفاض مستوى المعيشة .

من هنا كان طبيعيا أن يقترن خفض انتاج البترول العربى منذ المعركة برفع أسعاره ، أولا اعادة للتوازن بين أسعار الخامات والمصنوعات فى دورة التجارة الدولية ، وثانيا تعويضا عن نقص الدخول البترولية الناشىء . بل أن المقدر أن القيمة الحقيقية لدخول الدول البترولية قد تقصر ، حتى بعد كل زيادة أسعار البترول الأخيرة ، دون مثيلتها منذ سنوات بل وحتى أيام المناصفة ، وذلك لانخفاض قيمة العملات من جهة وارتفاع أسعار الواردات الصناعية والغذائية من جهة أخرى .

على أية حال ، فلسوف يسجل التاريخ لمعركة اكتوبر فضلا كبيرا على العرب ، مثلما سجل للعرب فضلا كبيرا عليها . ليس فقط أنها قد ضاعفت من دخولهم البترولية بصورة صاروخية ، ولكن – وهو الأهم – أنها فتحت أمامهم عصر «التحرير الاقتصادى» على أوسع أبوابه . فلقد كانت المعركة مناسبة ملائمة جدا لأن يحقق العرب استقلالهم الفعلى عن شركات البترول الاحتكارية التى كانت تتولى تحديد أسعار البترول المعلنة وتتلاعب بها تلاعبا فاضحا ، وهذا عدا ما كانت تفرضه عليها من معدلات ومستويات لا ترتبط بالقيمة الحقيقية للسلعة فى السوق العالمية . فلأول مرة فى تاريخ البترول العربى انتزعت الدول المنتجة حق تحديد الأسعار من جانب واحد .

هكذا ، من دولارين أو اكثر قليلا بالكاد قبيل المعركة ، قفز السعر للبرميل إلى ١٤ ، ١٥ دولارا بل وإلى ١٨ دولاراً فى سقفه الأعلى ، وإلى ١١ دولارا فى المتوسط ، وذلك فى غضون شهرين تقريبا . وعموما قدرت الزيادة بنحو ٤٠٠٪ فى الشهور الثلاثة الأخيرة . لقد أنفق العرب منذ نهاية الحرب الثانية أكثر من ٢٥ سنة وهم يكافحون ويصرخون ليزحف ثمن البرميل من بضعة شلنات إلى دولارين كحد أعلى ، فإذا به بفضل أكتوبر يتضاعف من هذا الحد إلى تسعة أو عشرة أمثال فى أقل من ٥٠ يوما ! وفى أعقاب العرب توا ، ابتداء من أندونيسيا إلى ايران ومن فنزويلا إلى بيرو ، جاء بقية المنتجين .

بهذا أجد ، من الناحية الحسابية البحتة ، أن الدول العربية البترولية قد تضاعفت دخولها من البترول عدة أضعاف بفضل المعركة ورغم خفض الانتاج ، هذا الخفض الذى حافظ أيضا على رصيدها للمستقبل البعيد بعد النزح المقنن والمنتظم الذى مارسته الشركات عقودا . ويكفى فى هذا الصدد رقم واحد : قبل حرب اكتوبر بلغ مجموع دخل الدول العربية من البترول يوميا نحو ٣٠ مليون دولار ، وبعد الحرب ورغم خفض الانتاج

والصادر بنسبة ١٥ - ٢٠٪ تقريبا قفز مجموع الدخل اليومى إلى ١٠٠ مليون دولار، أو بنسبة ٣٣٣ ٪، أى أكثر من ثلاثة أمثال . وهكذا أيضا حققت دول العرب البترولية لحسن الحظ وبفضل المعركة أرباحا مباشرة تعادل أضعاف ما دفعوه فى تمويلها من دعم ومساندة (يقدر البعض نسبة هذا التمويل إلى هذه الأرباح بنحو ١٪) . وبهذا جاءت المعركة نصرا اقتصاديا لدول المساندة ، كما جاءت نصرا عسكريا لدول المواجهة ، وكما جاءت نصرا سياسيا للجميع .

وفيما عدا هذا فلقد يرى البعض ، موضوعيا ، أن هناك من كان يحاول أن يستغل الفرصة لصالحه اكثر منها لصالح القضية المصرية ، أو أن بعض الدول البترولية غالت نوعا فى رفع الأسعار ، أو أن هناك خطرا من الفصل أو محاولة الفصل بين حرب البترول وحرب اكتوبر بالتدريج جريا وراء المكاسب المادية . والمهم على أية حال أن يظل المبدأ المسود هو أن البترول فى خدمة المعركة وليست المعركة فى خدمة البترول .

ومن هذه الزاوية ، لم يعد هناك شك أن مشكلة العالم الآن لم تعد تدفق البترول بقدر ما أصبحت ارتفاع أسعاره . وهناك حسابات مفصلة يقدمها الغرب عن الخسائر والأضرار المادية التى ستلحق باقتصادياته وانتاجه نتيجة لأسعار البترول الجديدة ، وتقدر هذه الحسابات بمئات المليارات من الدولارات سنويا . كذلك رأى البعض أن خطر التهديد العسكرى - الأمريكى أساسا - لمناطق البترول قد زاد وأصبح واردا بعد موجة رفع الأسعار بالذات ، وأن على العرب أن يأخذوا ذلك التهديد بجد واهتمام . وفى المقابل ، أعربت بعض الدول العربية عن اقتناعها بأن تلك الزيادة فى أسعار البترول كان مبالغا فيها بعض الشىء ، وأبدت رغبتها فى تخفيضها نوعا ، ولو أن البعض الآخر يعارض ويربط بين أى تخفيض فيها وبين تخفيض الدول الغربية لأسعار منتجاتها الصناعية والغذائية . وعلى الجملة يبدو أن المرونة والحذق اللذين اتسمت بهما سياسة الضخ والانتاج قد تمتدان أيضا إلى سياسة رفع الأسعار .

انقلاب تاريخى وكوكبى

وعلى أية حال ، ومهما تكن التطورات المقبلة ، فيبقى أن المجابهة الحادة قد تركت بصماتها عميقة إلى الأبد على عالم البترول وغيرت هيكل العلاقات الاستغلالية التقليدية التى سادت طويلا وصفتها إلى غير رجعة . كيف ؟ من ناحية لقد تحرر العرب من ابتزاز

الشركات فحرروا معهم سائر المنتجين ، وبذلك حطم عالم البترول كل محاولات الغرب لفرض الوصاية الاقتصادية عليه . لقد أعطى العرب ، كأمر واقع ، قيادة ناجحة وشجاعة للعالم الثالث، ستمتد آثارها ومضاعفاتها لا شك إلى بقية دوله ، وأعطى البترول نموذجا طموحا وقادرا لكل المواد الأولية الخام فى العالم .

ومن تحصيل الحاصل بلا ريب أن نقول إن البترول كسلعة استراتيجية مطلقة الحاكمية هو المادة الخام الوحيدة بين خامات العالم التى كانت قادرة على أن تعطى ، وأعطت بالفعل ، تحديا وتهديدا وندية حقيقية لأقوى صناعات العالم التكنولوجية الغلابة والعالم الصناعى المسيطر . ومن السخرية لا شك أن يصور الغرب الموقف كله بالمقلوب ، فيحاول أن يتباكى على مصالح الدول النامية وامكانيات تنميتها نتيجة رفع أسعار البترول العربى . ولكن الحقيقة أنه انما يحاول أن يدق اسفينا بينها وبين الدول العربية يشق به جبهة العالم الثالث الموحدة ويقلب بذلك المائدة على العرب .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أثبت العرب بمعركة البترول حقيقة انقلابية مذهلة بقدر ما تبدو شاذة . فلقد ألفنا أن نتحدث عن الاقتصاديات العربية كاقتصاديات تابعة economies dominées يعنى لاقتصاديات الغرب السائدة dominant economies. الآن فإنه العكس تماما أو تقريبا : تبدو الدول الصناعية الفائقة التقدم وكأنها «التابعة» لدول البترول العربية على شدة تخلفها ! بل أن البعض ليتنبأ بأن المصالح العربية فى دول الغرب الكبرى هى التى قد تتعرض من الآن فصاعدا لاحتمالات «التأميم» ، بعد أن كان التأميم هو الخطر المعلق فوق رءوس مصالح تلك الدول المتقدمة والموجودة فى العالم العربى المتخلف ! لكنما هو البترول ، عصب الحضارة الحديثة ومانح الحياة للصناعة .

وحقيقة الأمر كله إذا نظرنا إليه ، كما ينبغى ، فى إطاره الواسع ، هى أن معركة البترول التى فجرتها معركة اكتوبر هى الطلقة الأولى فى معركة اقتصادية كوكبية أوسع مدى بكثير هى معركة الصراع بين الخامات ودول الخامات من ناحية وبين الصناعات ودول الصناعات من الناحية الأخرى ، وبالتالى بين العالم الثالث والعالم المتقدم . وهذه المعركة هى بدورها تعبير عن تغير هيكل العلاقات الجذرية بين هذين العالمين فى عصر ما بعد التحرير وتصفية الاستعمار ثم عصر الاستقطاب فالوفاق وما بعدهما .

لقد كنا نقول دائما إن عصر الثورة الصناعية كان عصر الصراع على الخامات والأسواق . أما الآن فإن عصر الثورة التكنولوجية المعاصرة ، بما حققته من وفرة الانتاج المثيرة ورفع مستوى المعيشة الباذخ مع استهلاك فاحش وضغط رهيب على الموارد الطبيعية المتناقصة لعالم متزايد العدد ، هو عصر يعلو فيه الصراع من أجل الخامات على الصراع من أجل الأسواق . إن الغرب المعاصر ، بطفرته الانتاجية المذهلة وبمجتمع الوفرة والاستهلاك والرخاء المفرط ، لم يعد ينظر إلى العالم الثالث كسوق إلا نظرة ثانوية بالنسبة لسوقه هو المشتركة ذات الامكانيات والأبعاد الهائلة . غير أنه ، على النقيض تماما ولكن للسبب نفسه ، عاد ينظر إليه بكل اهتمام وتكالب كمستودع للخامات . إنها عودة الصراع على الخامات إلى بؤرة السياسة العالمية ، وذلك أيضا فى ظل توازنات قوة جديدة . والبترول هو رأس الحربة فى هذا الصراع الكوكبى الجديد ، كما أن العالم العربى هو رأس حربة العالم الثالث فى معادلة القوة العالمية الجديدة .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أتت معركة اكتوبر ثورة بالبترول وفى البترول وعلى البترول ، سياسيا واقتصاديا وماليا ، عربيا وعالميا . فجرت أولا مشكلة الطاقة العالمية بعد أن كانت كامنة أو شبه ذلك ، وضعت حضارة العالم المعاصر وحضارة الاستهلاك وجها لوجه أمام مشكلة المستقبل والبقاء وجدوى فلسفتها الأساسية ذاتها ، وأخيرا قلبت سوق النقد الدولية وكشفت عجز النظام النقدى العالمى الراهن وضرورة تغييره . وفى النتيجة فلقد غيرت المعركة أيضا موازين القوى فى عالم البترول بين المنتجين والمستهلكين ، بين دول الخامات المتخلفة ودول الصناعة المتطورة ، أو بين «الذين يملكون والذين لا يملكون Haves & Have No's، وذلك نحو قدر أكبر من العدالة والتوازن . أو كما عبر الرئيس السادات فى حديث له إلى مجلة نيوزويك «لقد غيرت أحداث ٦ أكتوبر كثيرا من الأمور فى العالم . بل أنها فرضت «اعادة النظر» بطريقة جذرية على العلاقات بين الدول الغنية التى «تملك» والدول الفقيرة التى «لا تملك شيئا» فى جميع انحاء العالم» .

بهذا كله بدأت الهوة السحيقة بين المتقدمين والمتخلفين وبين الشمال والجنوب ، تضيق نسبيا ، وأخذ الانحدار الجيوبوليتيكى الرهيب بين الطرفين يقل تدريجيا . أنه نمط جديد وثورى من أنماط القوة فى عالم ما بعد اكتوبر ، ربما يشى بانبثاق «نظام عالمى جديد» ، المعركة وحدها والعرب اساسا هم مهندسه الأول والأخير . أو كما تقول ورقة اكتوبر «إن

الدول النامية أخذت بعد حرب اكتوبر تحس بأنها تملك عناصر قوة تتمثل فى مواردها من المواد الأولية ، وأن صوتها فى المجتمع الدولى يجب أن يسمع ، وأن مصيرها يجب أن يتحدد بمعرفتها وليس بقرارات تؤخذ فى غيبتها» .

حرب عادلة

أخيراً ، لنا أن نتساءل : هل حقق سلاح البترول أغراضه ؟ البترول بطبيعته كأداة سياسية سلاح طويل المدى بطىء المفعول ، يحتاج لاعماله بفاعلية مؤثرة إلى جرعات متتابعة متصاعدة وغير متباعدة من أعمال القوة وسائر الضغوط السياسية . ولكن المثير أن أثر البترول قد ظهر بأسرع مما كان مقدرا . إن البترول هو أداة الحل السياسى ، حيث القتال هو أداة الحل العسكرى . وقد كانت الاستراتيجية العظمى فى بترول العرب هى أن يضغطوا به على أصدقاء اسرائيل وامريكا لعزلهما أولا ، ثم ليضغطوا هم ثانيا على امريكا حتى تضغط هى على اسرائيل لكى تنسحب من الأراضى المحتلة . ولقد قلبت معركة البترول الموازين السياسية والدبلوماسية ضد اسرائيل كما قلبت الموازين العسكرية والاستراتيجية معركة الميدان من قبل .

وإذا كان قطاع كبير ، الأكبر فى الواقع ، من العالم قد تعرض لمتاعب وصعوبات شديدة أو محدودة فى العملية ، فلم يكن القصد من ذلك عقاب أحد ولا الاضرار بمصالح واقتصاديات أى أحد . ومع ذلك فإن العالم كله مسئول عن خلق اسرائيل ثم السكوت عليها وعلى ارهابها «وفتوحاتها» ، دع عنك أولئك الذين يؤازرونها ويشجعونها على العدوان بكل وسيلة منظورة وغير منظورة . على هذا العالم – ولنقلها ولا نخف – يقع دم الفلسطينيين والعرب من الضحايا واللاجئين والمشردين ، وعليه وزر اضطهادهم وتشتتهم . أنه لمن أبسط مبادىء العدالة الانسانية – أليس كذلك ؟ .. أن يتذوق هؤلاء جرعة مما يجرعه الفلسطينيون والعرب كخبز يومى بانتظام واستمرار على مدى ربع قرن من الزمان .

إن تجربة معركة البترول تنبيه عادل للعالم أن العدالة لا تتجزأ ، كما أن السلام لا يتجزأ ، أو كما قال السادات «رسالة حاولنا أن ننقلها إلى العالم كله ، وهى أن العرب بعد السادس من اكتوبر يستحقون مكانهم تحت الشمس» . أو كذلك كما قال بومدين «إننا كنا ننتظر ولا نزال ننتظر أن تعيد أوربا تقييمها لعلاقاتها مع الأمة العربية ، لا على أساس أنها مصدر الطاقة ولكن على أساس أنها مجموعة بشرية لها قيمتها ولها حقها فى

الحياة . المعركة حث للجميع على الضغط على أمريكا ، والمطلوب من أصدقاء البترول العربى الآن المزيد من الفعل لا القول ، والضغط لا البيانات . عليهم أن يحاصروا أمريكا دبلوماسيا إلى حد الارهاق والاتهام والادانة .

أما هذه ، فقد كانت هناك أسلحة أخرى إن احتاج البترول إلى أسلحة معاونة، هناك الأرصدة العربية الضخمة فى بنوك الغرب . هناك التجارة الواسعة النطاق . مع أمريكا .. إلخ . وإن آجلا أو عاجلا كان على أمريكا أن تختار بين بترول العرب أو فتوح اسرائيل ، بين الاستثمار البترولى أو الاستثمار الاسرائيلى . ومنطق المصالح الحقيقية يقول إنه لا خيار أمامها فى الحقيقة ، ويوما ما ستتصادم حتما مع محميتها - أو معنا . وهذا فعلا هو ما بدأ يتحقق إلى حد أو آخر . فلقد سلمت أمريكا أخيرا فى اتصالاتها مع العرب بحقوقهم وتعهدت بتغيير موقفها المتحيز للعدو وبأن تعمل على فرض الحل السلمى العادل فى وقت معقول . وعلى هذا قرر العرب فى مارس ١٩٧٤ رفع الحظر البترولى عن الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى وقف الخفض والغائه عن الدول الأوربية الصديقة ، واستمرار حرمان هولندا ، على أن يعاد النظر فى الموقف البترولى كله فى يونيو .

غير أن هناك نقطة مهمة فى موضوع البترول ، وإن كانت أدخل فى باب المستقبل . لقد تحول البترول العربى من مجرد سلاح اقتصادى إلى سلاح سياسى ، وأغلب الظن أنه لابد يتحول فى المستقبل إلى سلاح عسكرى . لقد رأينا كيف أن الصراع العربى - الاسرائيلى صراع لن يحسمه فى النهاية وعلى المدى البعيد الا المجابهة العسكرية ، وأن مناط المواجهة العسكرية الناجحة هو أساسا السلاح المتقدم الوفير ، وأن هذا السلاح محكوم بسياسات عليا للدول الأعظم ، وأن اختراق هذا الاطار يكمن فى غزو أسواق جديدة حرة مفتوحة للسلاح المتطور وأخيرا أن هذا لا يعنى الا غرب أوربا فى الدرجة الأولى والتحليل الأخير .

الآن لا سبيل إلى فتح هذه الأسواق ، المغلقة أمامنا حاليا بدعوى الحياد ، الذى هو حياد بين المعتدى والمعتدى عليه ، إلا بالضغط ، والضغط البترولى أساسا . ولهذا لابد أن يأتى اليوم الذى يطلب فيه العرب أن يتم تبادل سلعتهم الاستراتيجية بسلع استراتيجية مكافئة ، البترول بالسلاح . إن هذا هو التحدى المستقبلى الذى على العرب أن يستعدوا له يوما ما فى القريب العاجل أو غير العاجل . وهو تحد لا نشك أن النصر فيه مكفول لمن يملك زيت الحياة الصناعية وزبدها . والمفهوم أن هذا قد بدأ يتحقق بالفعل ، وإن كان فى مراحله الأولى .

الفصل الثامن

٦ أكتوبر والعدو الاسرائيلى

من يونيو إلى أكتوبر

حين اختلس العدو نصره السهل الرخيص فى يونيو ١٩٦٧ ، كان تقديره أن تلك هى «آخر الحروب» وأنهم قد أصبحوا سادة المنطقة نهائيا وإلى الأبد ، وأن حالة اللاحرب واللاسلم باقية لعشر سنوات قادمة على الأقل ، وأن العرب على الطريق إلى التسليم وتوقيع صك الاستسلام . وعليه ، جلس إلى جانب التليفون فى انتظار مكالمة من المهزومين يضعــون بها أنفسهم تحت تصرفه . أو كما وضعها دايان ، صاحب تلك الكلمات الشهيرة ، «إنها الحرب التى انهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، لا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان ، ٢١ شارع كابلان ، القدس» .. وهكذا لم يعد السؤال الذى يؤرق العدو هو ما إذا كانت اسرائيل قد «وجدت لتبقى» ، بل أصبح ما إذا كانت الامبراطورية الصهيونية هى التى بقيت لتوجد . لقد فتحت سيناء والضفة الغربية والجولان – هكذا وقر فى قرارة العدو – الطريق «من النيل إلى الفرات» وإلى «أرض اسرائيل» أو «اسرائيل الكبرى» .

غير أن الصمود العربى ورفض الهزيمة – على سلبيته الآنية – حرم العدو من جنى ثمار العدوان ، فوجد أن أصابعه إنما تتقبض على نصر عسكرى ساحق ولكنه عقيم بلا نصر سياسى يتوجه . وعلى الفور أصبحت سياسة العدو الفعلية – المعلنة أو المبيتة لا يهم – هى سياسة «الأمر الواقع» ، سياسة «الضم الزاحف» أو «الضم البطىء» كما وصفها بعض قادته . وكان من الواضح تماما للجميع أن العدو قد قرر البقاء إلى ما لا نهاية فى الأراضى المحتلة الجديدة ، وأن الأمر ليس الا دورة أخرى من دورات التوسع الاقليمى «العقدى» المرسوم ، لا رجعة فيها ولا عودة إلى حدود ما قبل يونيو .

والواقع أن العدو بدأ يشعر باطمئنان لا حد له ، وأن الأمر استتب له إلى الأبد. يقول الكاتب الصهيونى وولتر لاكير فى كتابه «المواجهة» : «لقد كان المراقــبون الأجانب

والاسرائيليون على حد سواء متفقين تماما على أنه لم يسبق لدولة فى التاريخ أن شعرت بهذا القدر من الأمان ، ولم تكن فرص الحرب فى يوم من الأيام أقل مما كانت عليه ، وكانت اسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند» .

وعلى هذا الأساس أخذ العدو فى صمت وسرعة يخلق «الحقائق الجديدة» على الأرض والطبيعة : تفريغ السكان بالطرد والابادة والتهجير الجبرى ، ابتلاع الأرض بوضع اليد والمصادرة ، التوطين والتهويد ، تغيير التركيب الجغرافى والديموغرافى وتهويد اسماء الأماكن ، محو القرى العربية وزرع المستعمرات الاسرائيلية (نحو ٥٠ مستعمرة) ، فرض «السلم الواقعى» كبديل عن «السلم القانونى» .. الخ . وهذه ، للذكرى ، بعض تصريحات العدو : دايان : «يجب علينا أن نثبت الأمر الواقع بالنسبة للأراضى التى احتللناها ، دون أن نجهر علانية بضمها الينا .. إن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو أن نوطن اليهود بالسرعة القصوى فى المناطق المحاذية لنهر الأردن وفى مرتفعات الجولان وأن نقيم مراكز زراعية فى سيناء» ، «وفى جميع الحالات التى نقرر فيها انشاء قرى اسرائيلية ، فإن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه المناطق ستظل تحت سيطرتنا ، كما ينبغى أن تنضم إلى الحدود الجديدة للبلاد بعد إبرام معاهدة الصلح» . مايير : «على اسرائيل أن تحتفظ بجميع الأراضى التى احتلتها فى حرب يونيو ، عدا تلك المناطق التى تضم كثافة سكانية عربية» . دايان : «الضفة الشرقية للقناة وشبه جزيرة سيناء هى حدود اسرائيل الآمنة مع مصر» . آلون : «اسرائيل ليست بحاجة إلى طلب الاذن من أحد قبل أن تقدم على اقامة مستوطنات لها فى الأراضى المحتلة» ... الخ .

هذا فى الأراضى المحتلة . أما على مستوى العالم العربى فقد كانت فترة ما بين الحربين بحق فترة العربدة و «البلطجة» الاسرائيلية المثالية بلا رادع وبلا حدود ، أو كما كانوا يسمونه «دور رجل البوليس» فى المنطقة . فقد وصل الغرور والصلف ، وكذلك الارهاب الاسرائيلى إلى الذروة . غاراته الجوية وقرصنته المدنية وحملاته «التأديبية» وعملياته التخريبية لم تنقطع على الدول والأهداف العربية المحيطة . أضف تهديداته العلنية من حين إلى حين بغزو واحتلال العواصم العربية وبضرب مناطق البترول ، ثم حديثه المستمر عن «ذراع اسرائيل الطويلة» «ويدها القوية العليا» وقدراتها العقابية التى

لا حد لها ... الخ ، تلك وحدها تملأ مجلدات . بالمثل تصريحات قادة العدو وساسته عن خططهم ومشاريعهم فى اقتطاع الأرض العربية ورسم خريطتها النهائية .

حسبنا هنا فقط أن نقول إن العدو ، الذى أحرز سمعة سياسية لا شك فيها فى العالم ، والذى رفعه النصر من مرتبة التابع الذيلى للولايات المتحدة إلى مرتبة الشريك الأصغر ، هذا العدو وصل به غرور القوة وصلف التسلط إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسى والتأله الدولى ، أحيانا بصورة تدعو إلى السخرية . فمن ناحية بدأ العدو يمارس ترف الوصاية التى لم تطلب منه على العالم الخارجى ودور الناصح المتبرع له . أو كما قالت مجلة «نيو ستيتسمان» ، كنا نرى الاسرائيليين دائما مغرورين يعطون دروسا للجميع ، يقولون للانجليزى ماذا يتعين عليه أن يفعل لحل المشكلة الأيرلندية ، وللامريكى ماذا يفعل لحل مشكلة الزنوج .. الخ .

ومن ناحية أخرى ، أخذ العدو يتصرف باعتبار اسرائيل «الدولة الأولى primate state» ، الحاكمة والمتحكمة المعترف بها عالميا واقليميا فى الشرق الأوسط ، هى التى تقرر مصيره وتفرض عليه وصايتها ، وتل أبيب هى عاصمته السياسية العليا أو عاصمة العواصم super-capital التى تتعامل باسمه مع العالم . ومن ناحية أخرى فإن العدو لم يلبث أن ذهب إلى حد اعتبار نفسه على المستوى الاقليمى «قوة عظمى "super-power"، أى القوة الأعظم فى الشرق الأوسط بل وفى البحر المتوسط . ومن الغريب أن العدو لم يتورع ايضا عن أن يعلن أنه أقوى من أى دولة فى أوربا باستثناء فرنسا ، التى عاد فأغفلها من الاستثناء ! الأغرب أن أحدا فى أوربا لم يعلق بكلمة على هذه الوقاحات الزرية . ويكفى هنا أن نقتبس الجنرال شارون . قال أولا «اسرائيل قوة عظمى عسكريا ، قادرة على غزو المنطقة من الجزائر حتى بغداد فى مدى اسبوع واحد» ! ثم عاد فى مناسبة أخرى فردد ما قاله ديان «يمكن لاسرائيل أن تهزم جيوش الدول الاوربية مجتمعة» ! وأخيرا قال إن اسرائيل تعتبر أقوى دولة فى العالم ما بين أمريكا وروسيا ! ثم جاء رابين فأضاف بدوره أن لدى اسرائيل خططا لكل الاحتمالات ، «حتى لاحتلال القطب الشمالى» !

الأغرب من الكل أن جنون العظمة وغرور القوة بلغا باسرائيل حد تهديد القوتين الأعظم ، نعم الأعظم . فلعل منا من يذكر تصريح دايان بعد ٥ يونيو مباشرة بأنه على

استعداد لمحاربة «الروس» (كذا !) ، وكلنا لا شك نذكر لا نزال تصريحه أيضا بعد اكتوبر باستعداده «لمقاومة» الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تفرض ارادتها على اسرائيل . وفيما بين التصريحين أضاف عزرا وايزمان «أننا نستطيع أن ننتصر فى مواجهة القوات السوفيتية نفسها» ! وهو تصريح ، على أية حال ، أشد تواضعا من تصريح وزير البوليس شلومو هيليل بعده عن استعداد اسرائيل «لمحاربة العالم كله إذا اقتضى الأمر» ! .. ولكن أليس سلاح الطيران الاسرائيلى هو «أكفأ سلاح طيران فى العالم» (كذا) ، أو ليس جيش الدفاع الاسرائيلى هو «الجيش الذى لا يقهر» ، ثم أليست اسرائيل هى داود الصغير الأسطورة والعالم هو جوليات الجديد ، الشعب المختار والجوييم على الترتيب ؟

ليس مبالغة إذن تشخيصنا لاسرائيل بجنون العظمة . ولا تجنيا كذلك . فلسنا وحدنا الذين نقول بذلك . إنه لا أقل من رجل الدولة الأمريـــكى - اليهودى - كيسنجر الذى يقولها بل ويمارســـها . فلقد أعلن أخيرا مؤرخ اســـرائيلى - يقال له ياكوف تالمون - أن كيســـنجر يعتبر اسرائيل دولة مصابة بمرض جنون العظمة ويعاملها كما يعامل طبيب نفســانى مرضاه من المجانين ، وخاصة عندما يعالجهم بالصدمات الكهربائية .. وقد أضاف تالمون هذا أن الدول المجاورة لاسرائيل تلفظها وترفض الاعتراف بشرعية وجودها، وهى مضطرة لذلك إلى القيام بتصرفات ترفضها المنطقة المحيطة بها . وقديما اتهم الرايخ الثالث كـدولة بجنـون العظمة سياسيا ، بينما اتهم به هتلر عقليا ..

غير أننا نخطىء كثيرا إذا رددنا كل هذا الغرور إلى مجرد النرجسية الحادة أو جنون العظمة . العدو أخبث ، ونحن أذكى ، من ذلك . فالحقيقة أن تلك كانت قطعة مزدوجة من الحرب النفسية المخططة بإحكام وعناية . فمن ناحية كان العدو بتهديداته الراعدة تلك واستعراض عضلاته الرادعة على هذا النحو الفج إنما يحاول أن يزرع فينا ويخلق «مركب نقص وطنى» ، نشعر معه بالضعف والعجز ازاءه ، فنسقط له بسهولة . ومن الناحية الأخرى فقد كان «مركب العظمة» الذى يعانى منه العدو انما هو فى واقع الأمر ، وكما هو واقع كل مركب عظمة، «مركب نقص مقلوب inverted inferiority complex» . فلقد كان العدو يدرك فى قرارة نفسه أنه هو ، وليس الجندى العربى ، المتهم فى نوعيتـــه كمحارب والمطعون والمشكوك فى حقيقة قدراته القتالية . وبهذه الدعاية المزدوجة كان يحقن نفسه أيضا بأقصى جرعات ممكنة من التحصين النفسى ضـــد هذا الشعور

الداخلى . ولدينا فى هذا شهادة قاطعة لبن جوريون نفسه : «لقد كان علينا بعد اقامة اسرائيل» ، قال هو فى الخمسينات الباكرة ، «أن نبرز حقيقة تاريخية ونقضى على خرافة ، هى أن اليهودى جندى ردىء ، غير قادر على حمل السلاح» .

كذلك لابد أن نضيف من أسف أن نتائج جولات الصراع المسلح منذ بدأ وحتى يونيو كانت كلها تشجع العدو على المضى إلى آخر المدى فى خداع نفسه وخداعنا . فإذا نحن نظرنا إلى الخط البيانى للصراع المسلح بيننا وبين العدو منذ ١٩٤٨ لوجدناه دائما فى اتجاه واحد صاعد باطراد لمصلحة العدو . فاسرائيل ، كسيدتها أمريكا، لم تهزم قط عسكريا . وهى لم تضرب قط على أرضها منذ ١٩٤٨ ، مثلما لم تطأ أمريكا قدم غاز منذ ١٨١٢ . وهى دائما كأمريكا على جانب الهجوم سياسيا وعسكريا ، بينما نحن على الدفاع أبدا . وهى كأمريكا لم تخسر سلاحا أو رجلا أو بيتا على أرضها طوال حروبها ، كما لم تزد كل خسائرها فى الأرواح منذ ١٩٤٨ وحتى يونيو ١٩٦٧ على ٦٠٠٠ فقط .

أكثر من هذا ، كان حجم نصر العدو فى تصاعد مطرد من جولة إلى أخرى . ففى ١٩٤٨ هزمتنا اسرائيل بصعوبة أكثر مما وجدت من صعوبة فى هزيمتنا سنة ١٩٥٦ ، ١٩٥٦ بصعوبة أكثر مما وجدت فى ١٩٦٧ . وفى كل جولة لاحقة كانت اسرائيل تجد أن عدد الدول العربية المحاربة أكبر ، وعدد أيام القتال أقل ، وحجم نصرها أكبر . ولم يكن فى ذلك كله ما يقنع العدو بالتعقل أو بمراجعة النفس أو كبح جماح غروره المستشرى . ولهذا كان منطقيا مع نفسه ، هكذا اعتقد من وجهة نظره ، حين قدر للحرب القادمة ساعات لا أكثر !

معنى ٦ أكتوبر

فى الثامنة والدقيقة الخامسة من مساء السادس من اكتوبر ، كان هذا الصرح الشاهق من البارانويا السياسية قد انهار وتقوضت أسسه وجذوره . انهارت الأسطورة وبناتها مرة واحدة والى الأبد فى ساعات ست تاريخية غيرت وجه التاريخ بل والجغرافيا ، نسخت الماضى بكل سوالبه وسوءاته ، ونسجت المستقبل بكل آماله المشرقة . لهذا كان لابد أن يعد ٦ أكتوبر نقطة التحول العظمى فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى جميعا ، ما كان منه وما سيكون .

لماذا أيضا ؟ باختصار شديد وبتحديد قاطع ، لأن «مبرر وجود» اسرائيل يتعرض لأول مرة منذ قيامها غير الشرعي «لاختبار أحماض» حاسم وباتر ويوضع لأول مرة موضع الشك والتساؤل والتهديد . نعم، مبرر الوجود raison d'etre. فاسرائيل لم تقم ولم تستمر ولن تبقى إلا على أساس واحد وحيد ، منه استمدت وجودها وبغيره تفقده . هذا الأساس هو القوة ، القوة المسلحة ، القوة العسكرية بالتحديد . وفيما عدا منطق القوة وعامل القهر العسكرى ، فإن اسرائيل لا تعدو أن تكون خرافة جيوبوليتيكية ، مجرد حـــزمـة مفككة واهية وملفقة من الأكاذيب الدينيـــة المتهافتـة والأوهام العنصرية البارانوية والانحرافات التاريخية المريضة . إن القوة ، بالنسبة للوجود الاسرائيلى ، هى شرط البقاء ، بل هى البقاء ذاته ، وبغير القوة تفقد اسرائيل مبرر وجودها الحقيقى ومعه صميم وجودها نفسه . وتلك حقيقة يعلمها علم اليقين كل قادة اســـرائيل ، بل كل قطيعها البشرى ، صقـــورا وحمائم ، ذئابا وأبناء آوى ، مجرمى حروب أو تجار حروب .. الخ .

الآن ، ولأول مرة منذ قيام دولة اليهود المزيفة ، فإن عامل القوة هذا يجابه برد فعل مقتدر ومتحد من القوة المضادة لها فى الاتجاه والمماثلة لها فى الطاقة . الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ تذوق اسرائيل طعم الهزيمة العسكرية الحقيقية ، وتتحطم اسطورة التفوق العسكرى المطلق التى اختلقتها اختلاقا بالحرب النفسية الرهيبة والدعاية المرسومة الكاسحة والتى ساعدنا من أسف على تجسيمها وتضخيمها بقصورنا نحن وتقصيرنا وأخطائنا أمدا طويلا .

الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ يتحقق توازن قوى جديد ، عسكريا وسياسيا ونفسيا وتكنولوجيا . فالهزيمة العسكرية الأولى سوف تكون حدثا تاريخيا أعظم ، سيفرض تداعيات بالغة الخطر والنتائج . ونحن الآن ولأول مرة إزاء صراع انقلبت أوضاع أطرافه رأسا على عقب ، وازاء معادلة قوة تعدلت أوزان حديها جذريا . منذ الآن سنحارب اسرائيل جديدة ، اسرائيل ردت إلى حجمها الطبيعى وقامتها القميئة بعد أن جردت من عقدة النصر المركبة ومركب التفوق العسكرى ووهم التأله الحربى المغرور أو المرسوم . باختصار ، سنحارب اسرائيل انكسر «عمودها الفقرى النفسى» ، فلم تعد ذلك العدو «الذى لا يقهر» ، وانما القابل للهزيمة بل والذى بالفعل هزم . منذ الآن ستكف اسرائيل ،

«طفل أمريكا المدلل enfant gaté» ، عن أن تكون «طفل العرب المرعب enfant terrible» أو عصا الاستعمار الغليظة فى المنطقة . وحتى إذا عادت الأوضاع الاقليمية إلى ما كانت عليه يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ ، فستكون اسرائيل غير ما كانت : قبله كانت دولة لم تهزم قط ، وبعده ستكون دولة مهزومة . وذلك - فى ظروفها - كيان منهار ستنخر فى عظامه ونخاعه جرثومة الهزيمة ، ولن يفلت من ضغوط التآكل والتمزق الداخلى التى ستعريه وتكشف زيفه الكامن وجوهره المصطنع أكثر من أى شىء آخر وأكثر من أى وقت مضى . لقد أثبتت حرب اكتوبر أن اسرائيل هى الدولة - المشكلة فى الشرق الأوسط . وليس الشرق الأوسط هو المنطقة - المشكلة فى العالم ، أو على الأقل فإنه ليس كذلك إلا بها وبوجودها . اسرائيل ، لا العرب ، هى الآن مشكلة العالم ، كما كانت بالأمس جذر المشكلة ، وتصفية الأخيرة إنما تكمن فى معالجة الأولى على نفس الأساس . لقد تحول، ولا نقول نهائيا تحدد ، مصير اسرائيل .

فإذا بدا هذا كله ادعاء عريضا أو نبرة عالية بالغة الحدة مسرفة فى الحماس والتفاؤل ، فيكفى أن نورد شهادة فرانسوا ميتران ، الزعيم الاشتراكى الفرنسى والصديق القديم لاسرائيل . «أن حرب اكتوبر» - قال ميتران أخيرا - «مرحلة مهمة ، إذ أوضحت لاسرائيل أنه لا ينبغى لها أن تعتقد أن بإمكانها تحقيق كل شئ . ولقد أوضحت شجاعة الجندية المصرية لاسرائيل أن هناك حقائق وقوى لا يمكن أن تتجاهلها» . ثم يضيف «لقد وضعت اكتوبر حدا للنزعة الحربية فى اسرائيل منذ ١٩٦٧ . وهى العلامة التاريخية لانهاء هذه الطريقة من التصرف . والتوازن الجديد فى المنطقة لا يمكن أن يتم على أساس استمرار واستقرار وضع الغزو والاحتلال» . بالمثل يقول الجنرال بوفر إن «الجيش الاسرائيلى لم يعد يتمتع بالتفوق الساحق الذى كان يتمتع به سابقا . وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، واعتقد أنهم قد فهموها تماما» . ثم يضيف «وإذا لم ترضخ اسرائيل للحل الوسط فإن عليها أن تواجه حروبا أخرى» .

فإن عدّ هذا غير كاف ، فإننا نقول إن الأحداث الكبرى تتطلب فكرا كبيرا وحسا تاريخيا ملهما ، بمثل ما أن التحديات الكبيرة هى التى تصنع الأمم الكبيرة ، وفضلا عن هذا فإن تجربة التاريخ تعلمنا أن كل حرب منتصرة أو منهزمة ترسم وحدها مستقبل أى أمة لعشرات وربما مئات من السنين . إن الحرب هى أعظم محدد للتاريخ ، بمثل ما أن

النصر هو أروع ملحمة فى تاريخ الشعوب . ولا يصدق هذا على صراع فى التاريخ مثلما يصدق على الصراع العربى الاسرائيلى نظرا لطبيعته الخاصة جدا والرهان الفادح الذى ينتظمـه . نعم ، أعطنى نصرا عسكريا واحدا ، لا أقول ساحقا بالضرورة أو صاعقا ، يكفى فقط أن يكون محققا ، ليكون نقطة انكسار بل وانعكاس لكل أوضاع المنطقة ، اعطنى فقط نصرا عسكريا واحدا ، أغير لك مصير الصراع ، مصير مصر ، والعرب .

وإذا كان لنا من تحفظ استدراكى بعد هذا كله ، ورغم خطر التكرار ، فإننا نعود فنقول إن معنى ٦ أكتوبر كما يتحدد من هذا المنظور معلق بشرط ضمنى ولكنه جوهرى جدا وهو أن ينتهى كما بدأ بالنصر القاطع المحدد . ولقد حققنا حتى الآن انجازات عسكرية وسياسية رائعة ونصرا محققا ومعقولا ، ولكن مازالت أمامنا معارك أقسى وأشق وأطول بالتأكيد . إن كل شىء الآن معلق بأن نتم ما بدأناه ونستكمل نصرنا إلى مداه .

ونستطيع الآن ، بمزيد من التحديد والتحليل ، أن نحصر النتائج الموضوعية الايجابية والممكنة لأكتوبر سواء بالنسبة للعدو أو بالنسبة للعلاقات المتغيرة بينه وبين العرب . وبصيغة جامعة مانعة ، يمكن أن نقول إن اسرائيل والعرب ، أو أن يونيو وأكتوبر ، قد تبادلوا المواقع ، بكل ما تعنى هذه من أوضاع وتوازنات وتداعيات ، عسكريا وسياسيا ونفسيا ومصيريا ، آنيا ومستقبليا ، ابتداء من السلاح المحطم والأرض المفقودة والجنود الفارة وطوابير الأسرى إلى المعنويات المنهارة وسخرية «الأحذية» العسكرية المتروكة (!) إلى البلاغات الحربية والدعائية الكاذبة وفجوة الثقة والتصديق العالمية وحتى الأغانى الشعبية ... إلخ .

ففى كل هذه الجوانب وغيرها يمكننا بسهولة تامة أن نقول عن اسرائيل أكتوبر ما قيل عن عرب يونيو ، بحذافيره وطبق الأصل احيانا. أنها كما قد نقول صورة مرآوية معكوسة enantiomorph، أو كما وضعها أحد الكتاب الصحفيين فى الغرب بصورة شيقة كما هى دقيقة أن حرب اكتوبر هى «حرب المرآة» . «فهناك بالفعل ما يغرى بهذه التسمية ، ذلك أنك إذا أمسكت بمرآة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، فإن الصورة المعكوسة ستكون من نواح عديدة هى الصورة نفسها التى يراها المرء بعينيه فى مسرح الحرب

القائمة» ، حرب اكتوبر . باختصار ، لقد انعكست الأدوار فى الحربين وتبادل حدا معادلة القوة طرفيها المتناقضين كل مكان الآخر . وفى إطار هذه الصيغة العامة الشاملة ، هناك موضوعان اساسيان للدراسة : انقلاب التوازن الاستراتيجى ، انهيار نظرية الأمن الاسرائيلى .

انقلاب التوازن الاستراتيجى

هذا أبرز نتائج المعركة وأكثرها مباشرة . فلقد قلبت المعركة ميزان القوة الاستراتيجى لصالح العرب لأول مرة وضد اسرائيل إلى الأبد . ولأول مرة تصبح اسرائيل مفعولا به والعرب فاعلا ، بعد أن ظل العكس هو القاعدة التى لا استثناء لها أبدا . فالحرب قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، كما قال زعيم الشعب الفلسطينى المناضل ياسر عرفات ، إن «التوسع الاسرائيلى ليس قرارا اسرائيليا ، وانما الوجود الاسرائيلى نفسه رهن الارادة العربية» .

لقد تغيرت خريطة المنطقة ، بل وصورة العالم ، ودفن الماضى تماما يوم ٦ اكتوبر ، ولن يعود الماضى قط ، ولن تعود منطقة الشرق الأوسط إلى ما كانت عليه أبدا . ومهما حدث أو يحدث فلن تعود الأوضاع والتوازنات القديمة فى المنطقة . أو كما قالت التايمز «ان خسائر اسرائيل الأساسية هى فى سمعتها كدولة لا تقهر ، والكسب الأساسى للعرب هو الثقة بالنفس وثقة الآخرين بهم عسكريا . ولن يغير أى عمل اسرائيلى من أحد الأمرين» . أو كذلك كما قالت الديلى تلجراف «مهما كانت النتيجة النهائية لمعارك الشرق الأوسط ، فإن الأمور لن تصبح كما هى مرة أخرى . وهذا يسرى على الجانبين . ثمة تغير نفسى لابد من وقوعه » .

لقد انتهت الأسطورة الباهرة المتفوقة ، تحولت إلى مجرد خرافة ضخمة ، وعادت دولة عادية جدا ، ارتدت إلى حجمها الطبيعى المجرد بغير تورم أو انتفاخ مصطنع ، وكفت نهائيا عن أن تكون مركز الثقل فى المنطقة أو مقررة مصيرها . أو كما اعترف الجنرال أوزى بن أرى «لقد كان شعورا مصيريا فظيعا . كان شعورا بأننا نتضاءل ، وبأنهم ، المصريين ، يتضخمون» . بل لقد نقل الصحفى تيرنس سميث عن بعض كبار المسئولين الاسرائيليين قولهم إن اسرائيل لا تشعر بأنها حرة التصرف كما كانت ، وانهم عرفوا حدود المساحة التى تستطيع اسرائيل أن تناور فيها ، وذلك فى عالم تحكمه دبلوماسية

القوى الكبرى . «ونحن واعون تماما - هكذا اضافوا - بأن اسرائيل لم تعد سيدة مصيرها كما كانت - أو على الأقل كما كان يبدو - بعد حرب ١٩٦٧» .

ولقد كان الكل دائما فى اسرائيل على وعى تام بحقيقة ومدى وعمق اعتمادهم على الولايات المتحدة ، ولكنهم الآن - ربما لأول مرة - يعترفون بذلك علنا . والفضل فى ذلك يرجع إلى اكتوبر . ففى قلب المعركة وقف دايان فى الكنيست ليقول لمعارضى وقف اطلاق النار «كيف يمكن معارضة دولة ترسل اليكم الذخيرة فى الصباح لاطلاقها بعد الظهر ؟» أما بعدها فقد قال : «الذين يطالبوننا بشن حرب جديدة من أجل الأسرى عليهم أن يعرفوا أن اسرائيل لا تستطيع أن تحارب مرة أخرى ما لم تكن مستندة إلى تأييد أمريكا السياسى والمادى» . كذلك صرح مسئولون اسرائيليون أثناء محادثات الفصل بين القوات على الجبهة المصرية بكلام صريح واضح : «لقد تأكد لنا أننا لا نستطيع إلا أن نجادل حول التفاصيل الصغيرة ، ولكننا مرغمون - فى التحليل الأخير - على السير فى الطريق الذى تريده الولايات المتحدة» . هذا بينما كتبت هاآرتس تقول «إن اهتمامنا بأمن بلادنا لا ينبغى أن يذهب بنا إلى حد قيام مواجهة بيننا وبين الولايات المتحدة تضاف إلى مواجهتنا مع الدول العربية .

ومن ناحية أخرى كتبت الفينانشيال تايمز تقول إن الاسرائيليين قد ادركوا مدى سيطرة الولايات المتحدة على اسرائيل ، لأنه لولا المساعدات العسكرية الأمريكية لاسرائيل أثناء الحرب لتعرضت اسرائيل لكارثة . ثم أضافت الصحيفة أن هذا الادراك يعد من أكثر العوامل اثارة للكآبة لدى الاسرائيليين . ونقلت عن صحفى اسرائيلى قوله «إن الساسة قد يخفون ذلك ، ولكن كل انسان فى اسرائيل يعرف أننا خاضعون للولايات المتحدة» . وقد صرح يشاياهو ليبوفيتش ، عالم اسرائيلى ، بأنه «أصبح من المؤكد أمامنا جميعا أن اسرائيل ليست سوى وكالة لأمريكا فى الشرق الأوسط . إننا مثل الكلاب التى وضعت لحراسة المصالح الأمريكية فى المنطقة . وأن وجودنا هنا يعتمد اساسا على مدى نجاحنا فى تنفيذ ما يطلب منا » . وترجمة هذا كله هو أن حرب اكتوبر قد عرت تبعية اسرائيل لأمريكا مثلما عرضتها لعوامل التعرية .

وحقيقة ما حدث ، وهو أسوأ ما يؤرق اسرائيل بل ويفزعها ، هو أزمة انكماش وضمور عضوى ووظيفى وعملية تقلص تاريخى . فالذى حدث فى اكتوبر هو وضع حد

نهائى ونهاية غير محدودة «للدور الخاص» الذى حاولت اسرائيل أن تقوم به فى المنطقة ، ومعه ذلك «الوضع الخاص» الذى حاولت فرضه عليها وانتزاع الاعتراف به منها . ولقد كان هذا الدور «التاريخى» المأمول دورا غير طبيعى بلا ريب ، بل وشاذا على التحقيق فقد كان فضفاضا وأكبر جدا من أن يتناسب مع حجم اسرائيل أو طاقتها الحقيقية . غير أن هـــدفه ودافعه كان المجد وبريقه وحب العظمة والفخار وهالة الشهرة الســـــياسية . ولقـــد سرائيل تبدو فى هذا الـــدور كقزم يتبختر فى ثوب فضفاض ، ولكنه فى أكتوبر تعثر فى هذا الثوب وسقط ، ولم يعد ينتظره الآن إلا مستقبل شاحب باهت فى الظل وعلى الهامش ، ووضع عادى كنكرة خامل الذكر بلا ضجيج ولا بريق . وما التشنجات الداخلية فى اسرائيل الآن ، والتى تكاد تصل إلى حد الصرع ، إلا آلام هذا التقلص القابض والمقبض وهذا الانكماش الحاد العنيف . لقد تمت - أو كادت - دورة كاملة من قيام وسقوط أو صعود وأفول القوة الاسرائيلية ، وعبرت دولة اسرائيل خط الزوال ، ولعلها مهما طال الأمد فى الطريق إلى مرحلة الشفق ولا نقول الغسق .

أما حلم الامبراطورية الصهيونية من النيل إلى الفرات فقد انتهى إلى الأبد ككل حلم «فاوستى» مجنون ، إذ أن اسرائيل قد انتقلت بصورة قاطعة من مرحلة التوســـع إلى مرحلة التوقف ثم الانكماش . منذ السادس من أكتوبر ، لنا أن نقول ، انتهى «سفر التكوين» وبدأ «سفر الخروج» ، وتحولت سيناء إلى «تيه جديد» لاسرائيل . أو كما قال فيكتور سيجلمان ، فى مقال يقرأ من عنوانه «نهاية دولة اسرائيل الكبرى» ، أن الفكرة الثابتة والعقيدة الراسخة التى سيطرت على اذهان الاسرائيليين تماما وعاشوا فيها وعاشت فيهم حتى شهور مضت قد «اختفت تماما دون أن تخلف أية آثار .. ومن الواضح الآن أن المواطن الاسرائيلى قد تخلص من عقدة «القوة العظمى» فى وجه الدول العربية ، وهى العقدة التى تقمصت شخصيته فى أعقاب حرب يونيو ، ثم جاءت حرب اكتوبر لتبددها نهائيا . وعاد المواطن الاسرائيلى إلى طبيعته ، الصغير ، الوحيد ، الخائف» .

وإذا كان من المسلم به إن اسرائيل ستظل باقية إلى أمد لا يمكن التنبؤ به ، فإنه لن تصبح بعد الآن ذلك السرطان الأخطبوطى المدمر الذى كانته ، بل ستتقلص إلى مجرد بؤرة صديدية مزمنة ، أو قرحة حادة على الأكثر . وعموما يمكن القول بأن المعركة ، التى هى نقطة التحول فى الصراع كله بلا جدال ، هى نقطة انعكاس لا مجرد انكسار فى

منحناه العام . وإذا كان عمر الضلع الصاعد من المنحنى هو ٢٥ سنة تقريبا ، فقد لا يزيد عمر الضلع الساقط عن هذا المدى نفسه ، وإن كان الجزم صعبا ، أو كما تقول الفيجارو «مصر وخلفها ٧٠٠٠ سنة من الحضارة تشتبك فى حرب طويلة الأمد مع اسرائيل التى تكافح اليوم لكى تعيش غدا ، ثم لا تفكر قط فيما قد تئول اليه بعد ٢٥ سنة مثلا» .

وإذا كان البعض منا لا يرى أن المعركة تثير مسألة بقاء اسرائيل ويتساءل عما إذا كان مثل هذا السؤال صحيحا أو مبررا علميا وموضوعيا على ضوء أبعاد المعركة ونتائجها ، فمما لا شك فيه أن السؤال غير وارد على المدى القريب أو المتوسط ، ولكن الأمر ربما اختلف على المدى البعيد ، كما أن العدو نفسه يثيره . أو كما قالت الصنداى تايمز «أن هذه الحرب (تعنى حرب اكتوبر) قد جعلت بقاء اسرائيل حتى نهاية القرن موضع تساؤل» . وعلى الأقل فليس هناك شك أن الحرب قد اثبتت أن اسرائيل تفتقر إلى مقومات البقاء الذاتى أو الاستمرار الذاتى. والواقع أن حرب اكتوبر كان لها من الآثار أعمق مما توقع لها الجميع . والخطر على الكيان الاسرائيلى نفسه مثار ، ليس لأن العرب يتحدثون عن تدميرها ، ولكنهم هم أنفسهم الذين يتساءلون ويتوجسون . الصحفى الصهيونى جوزيف كرافت ، مثلا ، تحدث عن «الزلزال الذى زعزع اسباب بقائها كله» . كذلك جاء أخيرا فى تقرير لروبرت سليتر مراسل اليونايتيد بريس من اسرائيل أن المفكرين الاسرائيليين أصبحوا الآن يفكرون فى مستقبل اسرائيل : بشعور من القلق لم يكن يخطر لهم ببال من قبل ، بل أن الزعماء الاسرائيليين مرغمون الآن على أن يلقوا نظرة جديدة على استراتيجية بقاء اسرائيل ، كما يعكف صانعو السياسة الآن على تحديد موقفها على خريطتها الجديدة ، وهو ليس بالأمر الهين. وفى ذلك قال هاركابى إن الخطأ الأساسى الذى وقعت فيه اسرائيل قبل اكتوبر هو أنها لم تدرك مأزقها فى العيش فى بيئة معادية ، وأنها كانت تقلل دائما من أهمية مشكلاتها مع العرب .

فإن هذا حدث ، والاتجاهات الجديدة استمرت ، فقد لا يأتى على اسرائيل سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو يفتتح القرن الحادى والعشرون ولا مكان على خريطة الشرق الأوسط لشىء يقال له اسرائيل . وأيا ما كان ، فلقد فقدت اسرائيل ماضيها بقدر

مـا فقـدت الأمل فى المسـتـقبل ، عادت دولـة بلا مسـتـقبل مثلما بدأت دولة بلا تاريخ .
وبالمقابل ، فإن مستقبل الصراع عربى بقدر ما كان ماضيه اسرائيليا .

انقلاب التوازن العسكرى

ذلك فى بروفيله العام هو انقلاب التوازن الاستراتيجى ، نستطيع الآن أن نحلله إلى عوامل أولية خمسة : انقلاب التوازن العسكرى ، انقلاب الاستراتيجية الاقليمية ، الانقلاب السياسى ، الانقلاب النفسى ، الانقلاب الاقتصادى . فأما انقلاب التوازن العسكرى ، أولا ، فإن الحرب الرابعة - أو الرائعة إن شئت - قد جاءت لتنهى اسطورة العسكرية الصهيونية والقوة الاسرائيلية «التى لا تقهر» . فبعيدا جدا عن أن تأتى الحرب الثالثة «آخر الحروب» فى الصراع ، كما تاهت وتباهت اسرائيل طويلا ، جاءت آخر نصر عسكرى تختطفه ، بينما خرجت من الحرب الرابعة وهى مهزومة فعلا بصورة أو بأخرى . بل خرجت منها وقد اتضح للاسرائيليين ، كما يقول اريك رولو ، «أن العرب كانوا يدمرون اسرائيل كلها لولا طائـرات النقل الأمريكية التى نقلت اليهم الذخيرة والطائرات والأسلحة الحديثـة . فلولا هذه المساعدات العاجلة لما أمكن لاسرائيل أن تواصل الحرب» . بل لولاها ، كما يضيف تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية فى السويد ، لكان الطريق إلى تل أبيب نفسها ورأسا مفتوحا أمام القوات المصرية تماما مثلما كان الطريق إلى القاهرة مفتوحا أمام القوات الاسرائيلية فى ١٩٦٧ . لقد أثبتت المعركة أن اسرائيل ليست «فوق الهزيمة» ، وانما قابلة للهزيمة ، بل ومهزومة فعلا . أو كما وضعها البعض فى سخرية بليغة كما هى لاذعة «أخيرا ، أثبتت حرب اكتوبر أن «الله ليس يهوديا» ، على الأقل إله الحرب! » ... أو كما تساءل حتى لاكير «ترى هل حدث للجيش الاسرائيلى ما حدث للجيش البروسى فى عهد فردريك الثانى ، حيث كان أفضل جيش فى أوربا لمدة عشرين سنة ، ثم انهارت بروسيا بعد موت ملكها فى يينا وأورشتات؟» ..

والواقع أن من أخطر ما أثبتته حرب اكتوبر حقيقة نكاد لفرط ما بها من مفاجأة وبداهة معا أن ننساها ، وهى أن اسرائيل أضعف مما كان الجميع يعتقدون ، بمن فيهم وعلى رأسهم اسرائيل نفسها . وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة ، فإن اعتراف دايان سرا اثناء الحرب هو - بحكم منصبه - سيد الاعترافات . «ان الحرب قد أظهرت للعالم - صرح هو للصحفيين - أننا لسنا أقوى من المصريين ، وأن هالة التفوق والمبدأ السياسى

والعسكرى القائل بأن اسرائيل أقوى من العرب ، وأن الهزيمة ستلحق بهم إذا اجترأوا على بدء الحرب ، هذا المبدأ لم يثبت .. أننا سوف نضطر إلى أن نتعايش مع حقائق حياتنا ، مع شعبنا ، ومع العالم ، ومع العرب» .

هذا ولما كانت الحرب قد أثبتت أيضا بدء تحول التفوق العربى الكمى إلى كيفى ، فلا أمل إذن أمام اسرائيل فى «الحل العسكرى» قط بعد الآن . وإذا كانت القوة ، والقوة العسكرية بالتحديد ، هى أساس الوجود الاسرائيلى ، فالواضح المؤكد أن الطريق قد أصبحت مسدودة أمام العدو على المدى الطويل . لقد فقدت اسرائيل دورها الوحيد ، دور رجل البوليس المحلى ودور الرجل القوى («البلطجى») فى المنطقة ، أو دور كلب الحراسة . البلطجى شاخ وهرم ، والكلب فقد أسنانه . وعلى أحسن الفروض ، لقد تحولت اسرائيل عسكريا من نمر ، لا نقول من ورق ، إلى ذئب ، إن يكن ضاريا فإنه قابل للترويض وإلا فالتدمير .

وفى ختام هذا الموضوع ، قد يكون من المفيد أن نسرد بعض اقتباسات من بعض المصادر العالمية ، بغض النظر عن مدى حيادها ، وكذلك دون تعليق منا ، فما أغناها عنه . قالت النيوزويك «أن كل يوم يمر يحطم الأساطير التى بنيت منذ انتصار اسرائيل الساحق عام ١٩٦٧ . ولقد كانت هناك اسطورة تقول أن العرب ليسوا محاربين وأن الاسرائيلى سوبرمان ، لكن العرب اكتشفوا أن الاسرائيلى رجل عادى» . وقالت الفيجارو «كل شىء حدث كان غير متوقع ، ولن تبقى الأمور بعد الآن كما كانت فى الماضى إن الاسرائيليين لم يعودوا سادة الموقف فى الشرق الأوسط . والعرب لم يعودوا المهزومين التقليدين» . والمعنى نفسه تقريبا تؤكده لاستامبا الايطالية : «ظلت اسرائيل تبدو كالقوة المسيطرة فى الشرق الأوسط حتى حرب يوم الغفران ، فى أكتوبر التى أكدت أن هذا الوضع قد انتهى» .

كذلك كتب الجنرال جاللو يقول «لقد حقق العرب انتصارا سياسيا ومعنويا مهما تكن النتيجة النهائية للحرب . فإذا ما انتصرت اسرائيل عسكريا (وهو ما لم يحدث) فإن ذلك سيكون الحرب الأخيرة التى تنتهى بانتصارها» (وهو ما لم يعد فيه شك) . وبالمثل كتبت الديلى تلجراف «لقد أصبح من المستحيل أن تلحق اسرائيل بالعرب هزيمة حاسمة . ولقد جاءت الحرب الأخيرة نذير شؤم لما سوف تجلبه مواصلة اتباع السياسة الاسرائيلية

الحالية . كما أن الخصم العربى كفء وقوى على نحو متزايد . كل هذا بالإضافة إلى معاناة اسرائيل من جرح سوف يستنزف كل قواها» . ولعل خير ما نختتم به هذه الاقتباسات ما قاله الرئيس بومدين بتحليل صائب كما هو ثاقب : «لقد ثبت أن انتصار اسرائيل فى الحرب مستحيل ، ولن تكون الكلمة لها فى معركة قادمة لأن عوامل نصرها تتناقص يوما بعد يوم» .

انقلاب الاستراتيجية الاقليمية

هذا الانقلاب أصبح حقيقة واقعة بفضل المعركة وحدها أيضا . فمنذ حرب ١٩٥٦ حين نفذت اسرائيل من مضيق تيران إلى البحر الأحمر والبحار الجنوبية وتسللت إلى افريقيا ، ولكن بالأخص منذ حــرب ١٩٦٧ حين انفتح امامها طريق الجنوب على مصراعيه بلا رادع ، والعدو يحاول أن ينسج استراتيجية اقليمية واسعة طموحا ، لا يتخطى بها نطاق الحصار العــــربى فقط ولكن ايضا يضرب بها حصارا مضادا قاريا وبحريا حول العــالم العربى ذاته جميعا ، فمن خلال وجوده المتوســـع والمستشرى فى افريقيا المدارية ، كانت اسرائيل تسعى لفتح جبهة عريضة فى ظهر العرب وظهيرهم القارى قل على غرار ما حاولت البرتغال بصورة ما فى عصر الكشوف الجغرافية فى مناورة التفاف تضع بها العرب المسلمين بين فكى كماشة من شمال وجنوب .

وفى فترة ما بين الحربين ، ٦٧ - ١٩٧٣ ، ركزت اسرائيل على القطاع الشمالى من الجبهة فى الشرق الأوسط والبحرين المتوسط والأحمر . وكانت خطتها العظمى أن تطوق العرب بمثلث تتوسطه هى وترتكز رءوسه على الأسطول السادس الامريكى فى البحر المتوسط من ناحية وبعض الدول الصديقة فى القرن الافريقى والخليج العربى من الناحية الأخرى . وداخل هذا المثلث ، كانت تحلم بتحويل البحر الأحمر إلى «بحيرة اسرائيلية» أو خاضعة للسيطرة الاسرائيلية بالاشتراك مع الولايات المتحدة . وعلى هذا الاساس رسمت استراتيجيتها البحرية فى الأحمر ، وسعت إلى السيطرة على مدخله الجنوبى . ومنذ أوائل السبعينات كثر الحديث عن قواعد لها مؤجرة أو محتلة ، بحرية وجوية ، فى بعض جزر ذلك المدخل .

هذه الاستراتيجية الاقليمية كلها تحطمت على صخرة المعركة فى يوم وليلة . فمن قبلها ، ولكن أساسا أثناءها ، بدأ «شلال» جارف من قطع العلاقات الدبلوماسية بين

الدول الافريقية مع اسرائيل ، بحيث تم «طردها» من القارة تقريبا . ومن الناحية الأخرى مدت البحرية المصرية المتفوقة ظلها وسيطرتها على البحر الأحمر ، وفرضت بالتعاون مع اليمن الجنوبية الشقيقة حصارا بحريا محكما على مضيق باب المندب . وقد أفقد هذا شرم الشيخ قيمتها الاستراتيجية على الفور ، وأثبت أن ليس لها كل تلك الأهمية الكبرى التى كانت اسرائيل تدعيها وتبنى عليها أطماعها التوسعية فى سيناء . أو كما قال القائد العام للقوات المصرية «إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات ، وانما «نزل» المفتاح إلى أقصى الجنوب» عند باب المندب . ولقد اعترف بعض الاستراتيجيين الاسرائيليين بالفعل بأن المعركة «أثبتت أن شرم الشيخ لم تعد تعتبر حيوية لأمن اسرائيل» . ويمكن أن نضيف كذلك أنها أفقدت اسرائيل حرية الحركة البحرية تماما نحو الجنوب وتركتها «حبيسة» حقيقية للبحر الأحمر .

هذا الحصار المحكم ما معناه ؟ المعنى الأول أنه عقم ميناء العدو ايلات ، «نافذة الجنوب» ، وعطل حركة تجارة المرور على الطريق البرى بين البحرين . كذلك فإنه أوقف حركة التصدير والاستيراد جنوبا ، وأخطر منه أوقف امداد العدو بالبترول الايرانى . وما فتئت اسرائيل تصرخ من هذا الحصار ، دون جدوى . ودون جدوى كذلك جاءت تحركات الأسطول الأمريكى فى المحيط الهندى وحوض بحر العرب ، البوابة الجنوبية للشرق الأوسط ، تلك التحركات – التحرشات التى تحمل طابع التهديد الاستفزازى والتلويح بالتحدى للحصار المصرى لباب المندب .

والخلاصة الصافية هى أن مشاريع الحصار الاسرائيلى القارى والبحرى القديمة قد انقلبت رأسا على عقب لتقع هى فى حصار عربى مطبق برا وبحرا ، شمالا وجنوبا ، افريقيا وأسيويا . إنها صورة مرآوية معكوسة حتى التفاصيل ، ونمط جيوستراتيجى مقلوب ظهراً لبطن .

الانقلاب السياسى

أبرز ما انعكس اكتوبر داخل اسرائيل ، انعكس على الحياة السياسية . فمنذ اكتوبر تعيش اسرائيل فى أزمة سياسية خانقة ومزمنة ، تتعاظم كل يوم وتتفاقم ككرة الثلج . فالصراعات والتصدعات الداخلية ممثلة فى الصدامات الحزبية وتضارب جماعات المصالح والضغط وتحولات الرأى العام ثم انهيار مكانة المؤسسة العسكرية أصبحت كلها نظام

الحياة السياسية اليومى ، ووصلت فى وقت ما إلى حد احتمالات انقلاب على الطريقة الاسرائيلية ، أى انقلاب عسكرى صامت بلا رصاص ، انقلاب ائتلافى أو غير ائتلافى فى الحكم . ولئن كانت الانتخابات الأخيرة لم تحقق هذا الاحتمال ، فإن كل الدلائل الراهنة تشير إلى أنه لم يستبعد بعد تماما .

وفى ظل هذه الفوضى النيابية المربكة ردد البعض ، مثل عضو الكنيست شموئيل تامير ، أن أخطاء الحكومة القاتلة التى أدت إلى كارثة يوم الغفران مازالت قائمة ، بينما دعا البعض الآخر علنا . مثل رئيس تحرير ايديعوت أحرونوت، إلى «اقامة حكومة عسكرية وإلى الغاء جميع الحريات الديموقراطيــة». بل لقد أشارت وكالات الأنباء الامريكية مرة إلى مؤامرة انقلاب يعدها دايان بتأييد امريكا للاطاحة بمايير (؟) .

ومن جهة أخرى وصلت أزمة الحكم وصراع السلطة إلى حد البحث فى قيام أول حكومة أقلية فى اسرائيل منذ نشأتها ، وذلك بعد أن هوت المعركة بالأغلبية البرلمانية لحزب العمل الحاكم إلى الحد الأدنى وبعد تفسخ الائتلاف الوزارى المتراخى تحت وقر المشاكل المصيرية التى أثارتها الهزيمة . وقد كانت تلك هى الأزمة الطاحنة التى شقت حزب العمل وهددت بتمزقه وباعتزال دايان، الذى طالب الكثيرون برأسه، ثم مايير التى صرحت (أو صرخت!) وقتئذ أن الحزب «ينتحر على طريقة الهاراكيرى» . ولم تسو الأزمة مرحليا بعودة الحكم الائتلافى إلا كحكومة انقاذ وتحت ضغط الموقف العسكرى المتفجر على جبهات القتال وبخاصة الجبهة السورية.

غير أن الأزمة لم تلبث أن عادت متجاوزة كل الحدود والأبعاد والأعماق المتوقعة وغير المتوقعة بل وغير المتصورة . وكان نشر تقرير لجنة تحقيق اجرانات هو زناد التفجير ، وان كانت هزيمة أكتوبر هى بالطبع القنبلة الموقــوتة الكامنة أسفل هذا كله . فقد أدانت اللجنة رئيس المخابرات زئيرا ورئيس الأركان اليعازر وحملتهما مباشرة مسئولية النكسة ، فاستقالا ، ولكن بعد أن نقل اليعازر الاتهام إلى دايان ، الذى نقله بدوره ولكن بطريقة ملفوفة إلى مايير ، بينما عممت المعارضة الاتـــهام على الحكومة بأكملها باعتبارها مشـــتركة دستوريا فى المسئولية الــوزارية ، وأخيرا ألقى شــعب إسرائيل بدوره بالاتهام على الحكومــة والمعارضة جميعا باعتبارهما معا طبقة الساسة والحكام المحترفين.

وهنا عاد الصراع يتركز داخل الحكومة ، واستقطب بالتحديد داخل العسكريين ، أى داخل المؤسسة العسكرية . بين القيادة العليا والدائرة المحيطة مباشرة ، أو بين دايان فى جانب والوزراء العسكريين الثلاثة بارليف ورابين وياريف فى الجانب الآخر، وكان صراع العسكريين هذا ، كما صرحت مايير ، هو الذى فجر الحكومة من الداخل . وهنا لم تملك مايير إلا أن تعلن أنها قد وصلت إلى نهاية الطريق وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى حكم هذا البلد «الذى أصبح من الصعب جدا على رئيس حكومة أن يتولى أموره» ، وقدمت استقالتها لتعتزل إلى الأبد . غير أنها عادت فاضطرت إلى الاستمرار كحكومة انتقالية مؤقتة ريثما ينجح خليفتها المرشح رابين، الذى ظفر بالترشيح على منافسه بيريز، فى تشكيل حكومة جديدة ، الأمر الذى ظل معلقا لفترة طويلة.

فبغض النظر عن الأطماع والمنافسات الشخصية لآخرين فى الرياسة، فإن هناك الخلافات الحزبية الأساسية الحادة . كتلة ليكود المعارضة عرضت نفسها بالفعل على رئيس الدولة لتولى الحكم كبديل عن حزب العمل المنقسم والمعراخ المهدد . والحزب القومى الدينى يشترط اشراك ليكود فى الحكومة الجديدة لتكون ائتلاف وحدة وطنية شاملة . كذلك يفعل الأحرار المستقلون الذين يرفضون رياسة رابين ولو بالائتلاف القديم . هذا على حين لم تقبل مايير مطلقا برابين مرشحا لخلافتها.

وعدا هذا فلقد حذرت مايير مرارا، من بعد كما من قبل فى الانتخابات، من اشراك ليكود بأى صورة ، إذ أنها «واثقة تماما أنه إذا وقعت زعامة الدولة فى أيدى ليكود فان هذه ستكون كارثة حقيقية بالنسبة لإسرائيل»، لماذا ؟ - لأن «تشكيل حكومة وحدة وطنية تشترك فيها كتلة ليكود اليمينية المعارضة من شأنه أن يخلق أزمات جديدة بين الولايات المتحدة وإسرائيل» . لماذا مرة أخرى ؟ - «لأن الولايات المتحدة ، المورد الأساسى للأسلحة لإسرائيل ، لن ترتاح إليه». وعلى النقيض تماما من هذا ، كان هناك رأى يقول «يجب ألا تتركوا مايير تقود الحزب ، لأنها لو بقيت أكثر من ذلك فسوف تسلم البلاد إلى كتلة ليكود» !

وهكذا ، سلسلة من المتناقضات والتضارب لا تنتهى . وإذا كان حزب العمل قد قرر نهائيا تشكيل حكومة أقلية ، لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، وبدون الحزب القومى

الدينـــى لأول مرة أيضا ، فان هذا الوضع الجديد لا يبدو مستقرا أو قابلا للاستمرار طويلا. ومازالت إسرائيل تبحث عن حكومة ، والحكومة عن رئيس . فإذا لم تنجح ، فقد ترغم على العـــودة إلى الانتخـــابات من جـــديد فى غضون شهور فقط من انتخـــاباتها العامة الأخيرة . ومازالت الأزمة مستمرة. ان إسرائيل معلقة سـياسيا فى الداخل ، تماما كما هى فى الخارج .

والسؤال الآن : ما معنى أزمة الحكم والسياسة المستعصية هذه، وما هو مغزاها الصراعى بالنسبة لنا ؟ من أطناب التزيد وحده بالتأكيد أن نقول إن هذه الأزمة هى النتيجة الحتمية والنهائية لمعركة أكتوبر ونكســـة إسرائيل فيها . ولئن كانت إسرائيل قد انفقت شهورا ترفض الاعتراف بالهزيمة أو تقـــاوم الاعتراف الكلى بهـــا ، فان هـــذا الشـرخ السـياسى العـميق انما هو الآثار المتخلفة belated effects لـــلـــزلـــزال الاستراتيجى الذى صدع الكيان الإسرائيلى بعد عملية «البركنة» العسكرية العربيـــة المدمرة . لقد تحـــولت الصدمة التى هزت إسرائيل إلى صدع ، والصدع إلى صراع ، ثم الصراع إلى صرع !

إن سقوط حكومة مايير هو سقوط وزارة الحرب وحكومة المعركة، وهو أول ظهور كامل وعلنى لنتائج أكتوبر . وهو كذلك دليل على مدى فداحة الـــشرخ الذى فلق البناء السياسى الإسرائيلى ، الصرح والأساس ، أى الكيان برمته . وهو ليس شرخا بسيطا أو خللا سطحيا ، بل هو انكسار متعدد الأعماق والمستويات والشقوق ، رأسى وأفقى ، بالعرض والطول ، سطحى وجذرى ، غائر وزاحف ، موضعى وجسدى .. إلخ . والحقيقة أنه لا يقل عن انقلاب سياسى كامل، يأخذ شكل انقلاب عسكرى بالتحديد ، وانما على الطريقة الإسرائيلية ، وربما بصيغة جديدة . ولهذا فالأزمة ليست أزمة فرد (دايان) ، ولا حكومة (مايير) ، ولا نظام (المؤسســـة العسكرية) حتى كيان (إسرائيل)، وانما هى أزمة هذا كله .

فعلى المستوى الفردى ، لقد سقط دايان أخيرا نهائيا وإلى الأبد ، ليس منذ رشح رابين للخـــلافة دونه، ولكن منذ طالب ياكوف شابيرو لأول مرة باســـتقالته، بل بالأحرى منذ وطـــئت قـــدم أول جندى مصرى أرض سيناء. ولقد تعرض دايان منـــذ ذلك الوقت لهجمات قاسية ولحملات تحقير لا تتصور، فى حرب الجنرالات ، فى معركة الحـــزب ، فى

كواليس مجلس الوزراء ، فى أروقة الكنيسيت ، فى الشارع ، من رؤسائه ومرءوسيه ، من المعارضة ومن أتباعه وحوارييه ، من المجندين والمدنيين ، ومن الشباب والشيوخ. وأصبح حامى إسرائيل وملكها السابق يوسم ويوصم علنا «بوزير العار» «ورمزا لكل ما هو خطأ فى إسرائيل» ، موضع سخط الجميع والمشجب التى تعلق عليه كل الأخطاء .

وقد حاول دايان أن يقدم اليعازر كبش فداء لينجو برأسه أو بجلده ، ولكنه لم يلبث أن أصبح الضحية ، وإن جر معه مايير وحكومتها إلى المذبح . وإذا كان دايان قد ظل هكذا يقاوم الموت ويتشبث بحلاوة الروح حتى آخر رمق وإلى آخر لحظة ، فالحقيقة أنه انما كان يحتضر أثناء المعركة ، وبعدها مباشرة مات ميتة طبيعية ، وإن لم يدفن إلا بالأمس القريب فقط حين صدر تصريح الدفن باستقالة مايير و كما ولد فى سيناء - هو من مواليد ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ - دفن أيضا فى سيناء ، سيناء أكتوبر . على أنه يستطيع الآن أن يستريح فى قبره ، بعد أن أطاح برأس الحكومة مثلما فقد رأسه ، محطما المعبد على رأسه وعلى رءوس أعدائه .

أما عن الحكومة ، الائتلافية ، فقد كانت حلبة للصراعات الفردية والحزبية الضارية من كل نوع وعلى كل مستوى . ولقد اعترف ايبان أن «هناك أزمة ثقة ، ليس فقط فى المراخ وحده ، بل داخل كل الأحزاب». وهذا صحيح ، ولكنه دون الحقيقة . فحزب العمل يتفتت ويتاكل من الداخل بالصراع بين السياسيين والعسكريين ثم بين العسكريين والعسكريين ، وكان هذا الأخير هو الذى أسقط الحكومة مباشرة . وبسقوطها سقط «الحرس القديم» . ذلك الذى حكم الدولة منذ أقامها ، والذى تكون من شيوخ المهاجرين القدامى وأبناء الأجيال المخضرمة أمثال مايير وسابير وجاليلى (ومن قبل بن جوريون وشاريت وأشكول).

ولقد كان ذلك أيضا رمزا ونتيجة لصراع الأجيال المزمن والحاد فى إسرائيل . فلقد كان الشباب ينظر إلى القيادات الحاكمة على أنهم أولئك المهاجرون من الروسيا وبولندا منذ ٤٠ سنة ، الذين تحجرت عقولهم وعقائدهم على قوالب عتيقة عاجزة عن التطور ولم تعد قابلة للحياة ولا بقادرة على أن تتناغم مع متغيرات العصر ومن المشكوك فيه الآن أن تتغير أو تتعلم . والانتقال الآن من زعامة مايير إلى زعامة رابين، إذا تحققت ، هو

انتقال من قيادة جيل الرواد المهاجرين إلى جيل الصابرا من شباب مواليد فلسطين المحتلة.

وبينما يحدث هذا داخل الحزب الحاكم ، فانه يحاصر باطراد من الخارج ويكاد يختنق بمنافسة الأحزاب الأخرى التى تحمله مسئولية الكارثة التى حلت بإسرائيل ، وتتربص به وتنتظر سقوطه . ولكن تلك الأحزاب نفسها تعانى هى الأخرى من الداخل وتتقلب صفوفها وتختل ولاءاتها التقليدية. والكل يعمل - يبدو - بمبدأ «علىّ وعلى أعدائى» . لقد انكشف زيف اسطورة الديموقراطية الشكلية الإسرائيلية ، عرتها حرب أكتوبر وأزالت القشرة الهشة عن مجتمع الحكم العسكرى الكامن فى كيان الدولة.

لكن هذا كشف بدوره عن أزمة النظام . أزمة المؤسسة العسكرية الحاكمة . فهذه المؤسسة، التى تمثل قمة السلطة الحقيقية فى إسرائيل وحاكمة الحكومة ودولة فوق الدولة، قد تلقت ضربة قاصمة بالهزيمة العسكرية، وأصبحت مكانتها موضع تساؤل بل وشجب صريح من كل الأحزاب والسياسيين والطوائف والأجيال والمدنيين بل والمجندين . هوت إلى الحضيض سمعتها ، بينما هوت ألهتها وأصنامها إلى الأبد، ابتداء من دايان إلى شارون ، فلم يعد، ولن يكون بعد ، فى إسرائيل ملك ولا بطل ولا منقذ ولا «موسى» جديد . ولكن المؤسسة العسكرية تحارب بشراسة من أجل الحفاظ على مصالحها ووجودها وسيطرتها . ومن أجل هذا دار الصراع داخلها ، وبسببه سقطت الحكومة الائتلافية.

ولكن الغريب أن الحكم سقط كالثمرة الناضجة فى أيدى المؤسسة . فلعل أبرز مغزى لانتقال الحكم - إذا الأمر تم - من مايير إلى رابين هو انتقال قمة القيادة من أيدى السياسيين المدنيين إلى أيدى الساسة العسكريين. فإذا نجح رابين فى تشكيل حكومة ، فسيكون أول رئيس وزارة عسكرى يحكم إسرائيل منذ انشائها . ولهذا فان الأزمة السياسية الخطيرة التى تعيشها إسرائيل الآن أدنى أن تكون بالفعل انقلابا عسكريا على الطريقة الإسرائيلية وانما بصيغة جديدة مختلفة عما حدث عشية حرب يونيو مثلا .

لقد تلقت المؤسسة العسكرية فى إسرائيل أول لطمة مهينة ومزلزلة فى تاريخها ، ولكنها للغرابة والدهشة برزت منها وهى على قمة السلطة . وان دل هذا على شىء فانما يدل يقينا على أن الكيان الإسرائيلى فى جوهره كيان عسكرى لا غنى له عن مؤسسته

العسكرية منتصرة كانت أو منهزمة. غير أنه أيضا مؤشر بليغ إلى اتجاهات المزاج الإسرائيلى الكامنة واحتمالات حركته فى المستقبل ردا على الهزيمة.

كذلك فلعل «عودة» المؤسسة إلى الصدارة على هذا النحو المتناقض هو نوع من الاعتراف والتعويض الصامت بأن الخطأ لم يكن خطأها وحدها، بل خطأ جهاز الحكم ونواة الدولة كلها، عسكريا وسياسيا وغير ذلك . ولكن الذى لا يبدو أن الإسرائيليين قد فطنوا إليه بعد واستوعبوه جيدا هو أن مثل هذا الاعتراف انما يعنى أن الخطأ الجوهرى كامن فى الكيان ذاته ، فى الوجود الصهيونى ومبدأ الدولة اليهودية على أرض فلسطين المغتصبة واستراتيجية إسرائيل نحو العالم العربى . غير أن هذا موضوع آخر، وهو بالدقة ما سيقرر مصير الدولة فى المدى البعيد ، فضلا عن احتمالات المستقبل فى المدى القريب.

ولكن هذا الانقلاب السياسى الضارب فى أطناب العدو ، ماذا يعنى فى النهاية من المنظور العربى ؟ كما قال المناضل ياسر عرفات فى حديث له إلى مصطفى نبيل بالمصور أنه لا يعنى إلا «عمق الأزمة التى ولدتها حرب رمضان ، والتفسخ والضعف اللذين تمر بهما إسرائيل» . وهنا يجدر بنا أن نسجل ملاحظة مهمة . لقد عشنا طويلا وسياسة القوة والردع «والحملات التأديبية» الإسرائيلية تتحكم أحيانا بل كثيرا فى السياسات العربية الداخلية البحتة ، تحدد حريتها فى الحركة والعمل داخل ذات حدودها، وتفرض عليها بطريق غير مباشر أن تفعل هذا ولا تفعل ذاك، بل وفى النهاية تسقط الوزارات وتقيمها .. إلخ . حدث هذا مثلا فى محاولة تحويل مجرى نهر الأردن قبل يونيو حين أجهضت إسرائيل المشاريع العربية بتهديد القوة، وحدث بعد يونيو فى صورة اسقاط أو تشويه زعامات عربية كانت عتيدة ، وحدث فى لبنان حيث تعدد سقوط الحكومات بصورة مؤسفة تحت ضربات إسرائيل وعربدتها العسكرية بحرية كاملة داخل الحدود .. إلخ.

لكننا الآن ولأول مرة نشهد المشهد معكوسا : المسرح السياسى فى إسرائيل أصبحت القوة العربية المنتصرة هى التى، على البعد ، تؤثر فيه وتحكم اللعبة السياسية وتلعب بالسياسات الحزبية إلى حد ما وتعكس ظلها على أزمات الحكومة فى إسرائيل بدرجة أو بأخرى. انقلاب مهم كما هو دال ! ولعل آخر وأبرز مثال له هو أزمة الحكم الأخيرة فى

إسرائيل وتشكيل الوزارة الجديدة بعد الانتخابات . فلقد كان تفاقمها أثرا مباشرا من آثار معركة أكتوبر ، كما كان الاسراع المهرول إلى احتوائها بأى ثمن نتيجة مباشرة لضغوط الجبهة السورية التى لم يتم الفصل بين القوات عليها بعد . وأخيرا كان سقوط وزارة مايير ، وتعثر تأليف وزارة بعدها على يد رابين ، لوقت طويل ، ثم ضعف هذه الوزارة البادى، تعبيرا عن عمق الطعنة التى وجهها العرب إلى قلب إسرائيل السياسى . لقد أسقط العرب الحكومة الإسرائيلية لأول مرة منذ ربع قرن.

الانقلاب النفسى

من المظاهرات الدالة ، والتى لا تخلو من مؤشرات طريفة ومسلية أيضا ، أن الميزان النفسى وتوازن المعنويات قد انقلب هو الآخر ما بين العرب وإسرائيل نتيجة للمعركة ، فقد انعكست كل الأوضاع والأحوال والملابسات والأدوار بين الطرفين فيما قبل أكتوبر وبعد أكتوبر أو بالأصح فيما بعد يونيو وبعد أكتوبر . فكما يقول لاكير : «ربما كانت أهم نتيجة درامية لحرب الأيام الستة هى المحصلة النفسية. فقد كانت إسرائيل تعانى من مرض الاختناق فى الأماكن المغلقة . وعندما تحولت إلى دولة أكبر اختفى الشعور بأنهم محاطون بسور من كل جانب . وكان هذا أول تغيير كيفى ، وكانت هناك رغبة جارفة فى عدم العودة إلى الاختناق القديم». ولكن حرب أكتوبر عادت فقلبت الميزان النفسى وأعادت الشعور القديم بالاختناق والحصار مضافا اليهما الانكسار.

فهم الآن الذين يعيشون فى بكائية وطنية كبيرة بحيث تحولت إسرائيل كلها إلى «حائط مبكى واحد» . «ان الشعور بالأسى» ، أذاعت وكالة أنباء من تل أبيب «يسود شوارع إسرائيل حيث الوجوه مقطبة وجامدة . ولم يحدث من قبل أن تركت حرب مثل هذا الشعور بالحسرة والمرارة فى إسرائيل ، وما عاد يتردد فى إسرائيل اليوم سوى حديث الموت هنا وهناك». يحدث ذلك بعد أن كانت الأراضى المحتلة هى «مبكى العرب الكبير» ، كما وصفوها هم أنفسهم بعد يونيو سخرية وشماتة . وهم الآن الذين يقولون إنها حرب حياة أو موت والذين يتساءلون – حرفيا – «أن نكون أو لا نكون» ، السؤال الهاملتى الشكسبيرى الذى كنا نردده بعد يونيو . وأخيرا وليس آخرا فانهم هم الذين يعانون بصورة فادحة وصارخة من تمزق وانهيار الوحدة الوطنية، فى الوقت الذى تلاشت فيه هذه المشكلة من المجتمع العربى نهائيا وأصبح التلاحم الوطنى فيه أقوى منه فى أى وقت مضى.

وفيما عدا هذا ، فيبدو أن المراحل النفسية الدرامية والمأساوية التى مررنا نحن بها بعد يونيو ، تعيشها إسرائيل الآن تباعا مرحلة بعد أخرى! فبعد صدمة الذهول التى أحدثتها الضربة العربية التاريخية ، تلك التى وصفها الرئيس بأنها «ضربة لن تنساها إسرائيل إلى الأبد» ، اجتاحت العدو ، فضلا عن الحقد المكبوت والمكتوم ، موجة كثيفة من الحزن والقهر والكمد الكظيم أو المتفجر . وأغلب الظن أن إسرائيل الآن لا تزال فى مثل المرحلة التى مررنا نحن بها عقب يونيو مباشرة حين كنا بين تصديق وتكذيب لم نزل وحين لم نكن قد وعينا بعد المعنى الرهيب للهزيمة بكل ثقلها ووقرها وضغوطها المخيفة وبكل محمولاتها وتداعياتها وأخطارها البعيدة المدى. وحين تفيق إسرائيل من آخر بقايا أوهام الماضى ، فستدرك تمــاما ذلك المعنى ، لتدخل به مرحلة جديدة قد تكون أشد خطرا هى مرحلة اعادة التفكير فى الذات والغوص فى الأعماق . وحــين تفعل ، فستكون أعمــق هذه الأعماق هى فكرة «الأمن» ، العمود الفقرى فى الوجود الإسرائيلى، والكلمة التى أدمنت إسرائيل ترديدها فى العالم منذ نشـأتها أكثر بالتأكيد من أى كلمة أخرى فى قاموس السياسة العالمية جميعا ، وربما إلى درجة الملل والغثيان بالفعل .

أما الآن فانها مرحلة الانهيار النفسى الداخلى وتعذيب الذات بعد مرحلة الانبهار الذاتى والنرجسية المفرطة والبارانويا السادرة التى أزمنت طويلاً. وأصبحت إسرائيل نموذجا مجســما للباثولوجيا النفسية والاجتماعية إلى جانب كونهــا أصلا دراسة فى البــاثولوجيا السياسية والاستراتيجية . وهكذا بدأت سلسلة الاعتراف بالخطيئة وعملية الاستيطان الداخلى بل والنــدم وان يكن الــشانىء لا التائب . ولدينا فى هذا الصدد مجمـــوعة من الاعترافات «والبكائيات» بأقلام العدو ، كتبها صحفيون وساسة وعلماء نفس . وكلها فى غنى عن التعليق ، ويكفينا منها مجــرد السرد والاقتباس . ولعل من المناســب، مــادمنــا نتكلم عن الانقــلاب النفــسى ، أن نبــدأ بعلمــاء النفس والسيكولوجيين.

تعددت شهادات هؤلاء الاخصائيين ، ولكنهم أجمعوا على أن إسرائيل خرجت من حطــام الحرب وهى تشعر بالتوتر والقلق والاضطراب أمام مستقبل غير مؤكد ولا مضمون ، وان هذه الحالة العصبية انعكست فى شكل زيادة ملموسة فى عدد المترددين على مراكز الصحة النفسية والعصبية أثناء الحرب وبعدها . وقال طبيب نفسى بارز فى

جامعة تل أبيب إنها حرب مريرة حتى أن الناس لا يشعرون بسعادة إذا بلغتهم أنباء طيبة، ثم تنبأ بأن الأثر النفسى للحرب على الإسرائيليين سيكون أشد وأقوى على المدى البعيد لأن «جميع زعمائنا الأحياء الذين كنا نؤلههم قد خذلونا . بل وخذلتنا الأفكار كذلك» . وأضاف المصدر نفسه أن العرب نتيجة للحرب قد «زاد احترامهم لأنفسهم ، بينما كف الإسـرائيليون عن أن يعتبروا أنفسهم من طبقة الإنســان السوبرمان والعرب أقل منهم مستوى على الدوام».

وقال عالم نفسى آخر إن الحرب قد أعادت إلى أذهان الإسرائيليين شيئا يعرفونه دائما ولكنهم كانوا يؤثرون تجاهله فى الماضى، وهو أنهم يعيشون فى دولة صغيرة يحيطها «أعداء» . وأرجع العالم خطورة الاستجابة العربية فى أكتوبر إلى الاستفزاز الإسرائيلى الغر. فقال «لقد بنينا جيشا كبيرا ولكننا فى الوقت نفسه خلقنا جو الحرب والتحدى لجيراننا . وكنا نسألهم : ألا تستطيعون أن تكونوا مثلنا ؟ أليس فى قدرتكم أن تقاتلوا مثلما نقاتل ؟ قالوا بلى ، نستطيع . وهذا ما فعلوه . وأعتقد أن الحرب الأخيرة كانت دورهم ليصبحوا الأبطال، وليغيروا الصورة التى كانت فى أذهاننا».

فإذا انتقلنا من علم النفس إلى عالم الصحافة ، وجدنا العينات بلا حصر. مثلا كتب كاتب منهم أن معركة أكتوبر «نسخت كل المفاهيم السياسية والعسكرية التى اكتسبناها من يونيو» . وقال آخر انها «أعادت شعورنا بالخوف على حقيقة كياننا كما كنا سنة ١٩٤٨»، وأضاف ثالث «إننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا» . وفى المعنى نفسه قال معلق إسرائيلى معروف «اتضح لنا فى النهاية أن مجتمعنا الصغير الأنيق كان يعيش داخل قشرة بيض سهلة الكسر». أما صحيفة معاريف فقد كتبت ما مؤداه أن إسرائيل كانت تعيش فى «جنة البلهاء fools' paradise »، فأتت حرب يوم الغفران كضربة مارد جبار أو كصاعقة البرق فأيقظتها منها. وقالت هاأرتس «السؤال المطروح، إذن ، هو : إذا كنا قد عجزنا عن تدمير المعدات «السوفيتية» (كذا) وابادة الجيش المصرى، فما الذى أحرزناه إذن ؟» ثم أجابت قائلة «أن المكسب المهم ، والوحيد ، لنا هو العبرة من حرب يوم الغفران. لن يكون هناك مجال لعدم المبالاة والتبجح ولا للحديث عن الاستعداد لامتصاص الضربة الأولى». وباللهجة نفسها كتب شبتاى نيفيت ، وهو معلق عسكرى ، يقول «لقد لقن الجنود العرب إسرائيل درسا بأنها بالغت إلى حد

السفه فى الثقة بالنفس». وبالمثل قال ميكونس عضو الكنيست انه بعد مرور ٢٥ سنة من غسيل المخ المنظم والعامد أصبح يسود إسرائيل الآن شعور بعدم الثقة .

كذلك نشر أخيرا فى إسرائيل كتاب عن محنة أكتوبر وضعه مجموعة من الصحفيين ، اعترفوا فيه أولا بأنهم كبقية الكتاب الإسرائيليين قد «شاركوا فى نشر الاستخفاف والاستهتار العام بالعدو ، والثقة المبالغ فيها بالنفس، فكان ذلك مساهمة فى الخلل العام الذى أدى إلى الحرب ونتائجها» . أما عن هذه فقد قالوا «لقد رأينا الحرب ووجهها الخفى عن الكثير من الأعين. وعدنا من الحرب جزءا من شعب مهموم قلق تلاحقه علامات الاستفهام. ووقفنا مشدوهين أمام أولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث وكأن الحرب التى وقعت لم تغيرنا جميعا . وقفنا مذهولين أمام محاولات التغطية والتضليل واخفاء الحقائق التى أدت إلى هذه الحرب، وأوهام القادة الذين يحاولون التنصل من المسئولية الرهيبة . ونحن لا نريد المساهمة فى مؤامرة الصمت التى أدت إلى هذا الزلزال».

أما على المستوى السياسى فقد اعترفت مايير بأن صدمة حرب أكتوبر قد غيرت الحياة فى إسرائيل وتركت آثارها «على أفكارنا وأعمالنا وطريقة حياتنا فى جميع المجالات». وقبيل سقوط حكومتها نهائيا عادت إلي النغمة نفسها قائلة ان إسرائيل قد تلقت صدمة عنيفة وقوية، «ولن تعود إسرائيل قط كما كانت». ويكاد دايان يكرر المعنى نفسه . «كانت حرب أكتوبر»، قال هو فى ديسمبر ١٩٧٣، «بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل . وما حدث فى هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون وأظهر لنا ما لم نكن نراه قبلها . وكل هذا أدى إلي تغيير عقلية قادة إسرائيل . غير أن أيام إسرائيل العصيبة القصوى لم تحدث بعد ، وعلينا أن نبقى صامدين خلال فترة المحنة التى لاتزال أمامنا».

أما ايبان فقد قال «لقد كنا نعيش فى وهم الدولة القوية منذ ١٩٧٠». وايبان بالتحديد واحد من أكثر من تحدثوا بلا تحفظ عن اسراف الإسرائيليين فى الاعتقاد فى تفوقهم والتفاخر الفج الأجوف بقوتهم ، ودعا الإسرائيليين إلى التواضع وعدم المبالغة فى أسلوب «البلاغة الوطنية» . ففى أكثر من حديث له قال ان كل شىء قد تغير بالنسبة لإسرائيل بعد حرب أكتوبر ، فقد تمكن العرب من أن يقنعوا العالم كله بقدرتهم على حمل السلاح ،

وتمكنوا من استعادة كرامتهم. ثم أضاف أن نتائج حرب يونيو كانت قد خلقت «اقتناعا فكريا خطيرا» بأن إسرائيل لا تقهر، ولقد «جعلنا ذلك مغالين أكثر مما ينبغى فى الثقة بأنفسنا وأكثر عنفا مما ينبغى، كما اننا أدلينا فى أحيان كثيرة بخطب رنانة تفتقر إلى التروى».

غير أننا لا شك نصل إلى ذروة الاعتراف مع كاتزير، رئيس إسرائيل. «ان إسرائيل»، قال هو فى حديث موجه لمواطنيه، «كانت تعيش فيما بين سنتى ١٩٦٧، ١٩٧٣ فى نشوة لم تكن الظروف تبررها. بل كانت تعيش فى عالم خيالى لا صلة له بالواقع. إن هذه الحالة النفسية مسئولة عن الأخطاء التى حدثت قبل حرب أكتوبر وفى الأيام الأولى للحرب، لأنها كانت قد تفشت فى كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية وأحدثت بها مواطن ضعف خطيرة يجب أن يشترك الإسرائيليون جميعا فى تحمل مسئوليتها .. يجب علينا أن نتعلم بعد هذه الحرب الفظعية أن نكون أكثر تواضعا وأقل نزوعا إلى المادية ..».

ولعل هذه الاقتباسات - الاعترافات فيها الكفاية أو أكثر من الكفاية لتصور حقيقة السيكولوجية الإسرائيلية بعد الهزيمة، سيكولوجية الهزيمة. وواقع الأمر أن إسرائيل، التى أسكرتها خمرة النصر مرارا وطويلا، كانت كأى مدمن مزمن تعيش فى أحلام يقظة وفى حالة من الغيبوبة السياسية - الوطنية أفاقت منها فقط على وقع الحقائق الصادمة والصدمة السيكولوجية القاسية.

ولسوف يكون لهذا الوعى المسترد ما بعده. فإذا كانت الضربة العسكرية التى تلقتها إسرائيل بمثابة العوامل التكتونية، أى انفجارات الأرض الباطنية من زلازل وبراكين بلغة الجيولوجيا، فان آثار الهزيمة النفسية وفعلها هى بالضبط بمثابة عوامل التعرية فى التشبيه، بطيئة سارية وخبيئة، ولكنها مؤثرة ومدمرة إلى أبعد الحدود، تتسلل وتتسرب إلى الأعماق فلا تنتهى إلا بالتقويض الجذرى والانهيار من الداخل. إنها حرب المدى البعيد والنفس الطويل.

الانقلاب الاقتصادى

قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل تمر بأزمة اقتصادية حادة ومستحكمة، كان من أبرز أعراضها تضخم شديد أدى إلى سلسلة من خفض العملة وبطالة قدرت بنسبة

١٠٪ من مجموع القوة العاملة وتدهور فى مستوى المعيشة وتزايد فى عجز الميزان التجارى وميزان المدفوعات ثم تواتر فى الاضرابات المتلاحقة، وحتى الهجرة الخارجة فاقت تقريبا الهجرة الداخلة . وكما كانت الأزمة دافعا جوهريا من دوافع الحرب ، وكانت الحرب مخرجا مقصودا من الأزمة ، جاءت الحرب فعلا بموجة من الرخاء الشديد . فلقد تدفقت القروض والمساعدات على إسرائيل المنتصرة، وتكاثرت بها «مؤتمرات المليونيرات» من يهود العالم ، وانهالت عليها الهبات ومشاريع التنمية المشتركة ، كما عاد ميزان الهجرة اليهودية فانقلب لصالح إسرائيل.

ونتيجة لهذا كله ارتفع معدل التنمية ونمو الإنتاج والدخل القومى فى إسرائيل حتى وصل فى بعض السنوات إلى ١٠٪، ١١٪، كما تحققت العمالة الكاملة، بل واستوعبت أكثر ما استطاعت أن تستقطبه من الأيدى العاملة العربية فى داخل الأراضى المحتلة، وارتفع مستوى المعيشة بصورة ملحوظة ، وبدت إسرائيل كلها وكأنها مشروع استثمارى ناجح للغاية لا ينقصه حتى مغانم الحرب الدسمة وموارد الأراضى المحتلة الجديدة ابتداء من بترول ومنجنيز سيناء إلى برتقال وحمضيات غزة وفواكه وخضراوات الضفة الغربية إلى أسماك البردويل والعقبة.. إلخ . لقد أثبتت التجربة مرة أخرى أن إسرائيل «تعانى» من «حالة» السلام اقتصاديا مثلما تعانى سياسيا واجتماعيا ، بينما تفره على العكس وتزدهر على حالة الحرب وذلك فى تلك المجالات كلها على السواء . وبدأت السنوات السبع السمان.

هذه القاعدة القديمة جاء أكتوبر ليكسرها ويقلبها رأسا على عقب. فكأول هزيمة عسكرية حقيقية تلحق بإسرائيل، انكشف الاقتصاد الإسرائيلى على حقيقته، وتعرضت إسرائيل لأسوأ أزمة اقتصادية وحالة انكماش عرفتها منذ نشأتها . فالخسائر الجسيمة فى السلاح والمعدات ثم نفقات استعاضتها بجديد ونفقات القتال والتعبئة وانخفاض الإنتاج مع تناقص الصادرات وتزايد الواردات، كل هذا أدى إلى تفاقم الحالة الداخلية وأصبحت الحياة اليومية تختنق بالضرائب الباهظة والغلاء الفاحش وبالتالى بالاضرابات المتلاحقة .. إلخ . وعلى الجملة فلقد ولت بلا تحفظ أيام الرخاء . وبعد السنوات السبع السمان بدأت السنوات العجاف، كم لا ندرى بعد ، ولكنها ستطول بلا شك .

ويبدو كذلك أن الهجرة قد بدأت تتأثر هى الأخرى بعد أن أصبحت إسرائيل بيئة

حياتية طاردة أو على الأقل غير جاذبة أو جذابة . فقد أعلن المكتب المركزى للاحصاء فى إسرائيل أن عدد النازحين فى ١٩٧٣ بلغ نحو ١٢ ألفا، وأن معدل الهجرة النازحة بلغ قمته فى أواخر العام، بينما انخفضت أرقام المهاجرين إلى إسرائيل خلال يناير ١٩٧٤ عن مثيلاتها فى يناير ١٩٧٣. كذلك سجلت أرقام هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل فى الشهور الثلاثة الأولى من ١٩٧٤ انخفاضا بنسبة ٢٥٪ عن مثيلاتها فى ١٩٧٣، وفى إبريل ١٩٧٤ وصل الانخفاض إلى نسبة ٥٠٪. وخلال الشهور الأربعة مجتمعة هبط عدد المهاجرين الروس إلى ٦٧٠٠ مقابل ١١ ألف فى الفترة المماثلة فى ١٩٧٣.

وفى مارس ١٩٧٤ نشرت هاآرتس نتائج استطلاع للرأى كشفت الكثير عن احتمالات الهجرة من إسرائيل فقد ظهر أن شخصا من كل عشرة يفكر فى الهجرة من اسرائيل نتيجة لارتفاع الأسعار والاستياء من نتائج حرب أكتوبر. والتفكير فى الهجرة أقوى بين الجيل الجديد . فمن بين البالغين الذين اشتركوا فى الاستطلاع، قرر ٥ر٦٪ الهجرة بالفعل ، بينما يفكر فيها بجدية ١ر٥٪ . أما بين مجموعة العمر ١٨ - ٢٩ سنة ، فان ٢ر٢٠٪ ذكروا أنهم يفكرون فى الهجرة . وكشفت استطلاعات أخرى تالية أن ١٥٪ على الأقل من جيل الصابرا - مواليد إسرائيل - يريدون الهجرة منها فورا إن أمكن . على أن نقطة الهجرة هذه ينبغى أن تنتظر مزيدا من المؤشرات ومزيدا من الوقت.

ليس هذا فحسب ، بل لقد انقلبت الصورة كذلك بالنسبة للعرب . فإذا كانت سوريا ومصر قد وضعتا الكثير من مواردهما وميزانيتهما فى المعركة، وتعرضتا لخسائر عديدة فى الممتلكات والمنشآت ، وكلفتهما الحرب مع سائر الدول العربية عدة بلايين من الدولارات، فقد استطاع الاقتصاد العربى بعامة أن يمتص صدمة الحرب وأن يتكيف معها بل وأن يخرج منها بأقل قدر من الخسائر وأكبر قدر من المكاسب، وبعد اقتصاد الحرب القاسى والتقشف الصارم فيما بين الحربين ٦٧ - ١٩٧٣ ، انفتح باب التوسع أمام الاقتصاد العربى الذى انفتح هو الآخر على العالم بلا قيود أو معوقات. ولن نكرر هنا مكاسب أسعار البترول الجديدة، ولا عروض القروض ومشاريع التعمير والاستثمارات العالمية التى تدفقت على الدولتين المحاربتين وغيرهما . ولكن يكفى أن نقارن هذا بما فى إسرائيل اليوم وبما كنا عليه بعد يونيو لكى ندرك أن انقلابا اقتصاديا حقيقيا قد وقع فى منطقة الشرق الأوسط عموما نتيجة لحرب أكتوبر.

فى هذا الإطار الأساسى، نستطيع الآن أن نفصل خسائر العدو الاقتصادية بشىء من التحديد ومن واقع تصريحاته هو وأصدقائه. خلال الأيام الخمسة الأولى فقط من المعركة أنفقت إسرائيل، هكذا أعلن وزير المالية سابير، نحو ٢ بليون دولار، أى بمعدل ١٠ ملايين دولار فى كل ساعة قتال فعلى (٥ - ٦ ساعات يوميا) . وبعد انتهاء الحرب ذكرت معاريف أن قيمة خسائر المعدات والأسلحة بلغت بليون دولار ، كما بلغت بليونا آخر قيمة تكاليف التحصينات التى دمرت ونقص الربح الناتج عن انخفاض الإنتاج. ولكن وكالة اليونايتد بريس عادت فذكرت أن الرقم الأخير وصل إلى ٢ بليون دولار ، وأن مجموع خسائر إسرائيل العسكرية والاقتصادية خلال الأسبوعين الأولين من الحرب تصل بذلك إلى ٣ بلايين دولار. وعلى هذه الأسس كان المقدر أن الحرب قد كلفت إسرائيل فى شهر ما يعادل ميزانية عام بأكمله.

لكن مرة أخرى عاد سابير فأعلن أن تكاليف الحرب قد زادت على المقدر سابقا وهو ٣ مليارات دولار، وأن العجز التجارى المقدر لسنة ١٩٧٤ قبلا وهو ٥ر١ مليار سوف يرتفع إلى ٥ر٢ مليار. وجاء التوضيح فى النيوزويك التى ذكرت أن التقدير الاجمالى النهائى لتكاليف الحرب من ذخيرة ووقود وصل إلى ٥ر٥ مليار دولار ، وهو ما يوازى عدة أضعاف قيمة الميزانية الكلية للدولة . ولكن مسئولين إسرائيليين آخرين صرحوا بأنه ليس من مصلحة إسرائيل الافصاح عن الأرقام الحقيقية لخسائرها فى الحرب لأن هذا يخدم العرب، بينما قدر مسئولون آخرون مجمل النفقات بنحو ٧١٠٠ مليون دولار . وقد عاد سابير بعد ذلك فأعلن بالفعل أن حرب أكتوبر كلفت إسرائيل واقتصادها (خسائر الإنتاج والاستثمار) ٧١٤٠ مليون دولار. وأن ثلث الميزانية سيوجه للدفاع. ومن جهة أخرى قدر سابير أن تكاليف الحرب كانت تكفى لشراء ١٢٠ مليون طن من القمح، أى حاجات إسرائيل منه لمدة ١٢٠ سنة مقبلة ، أو ما يعادل ٥٠٠ مليون طن من الوقود بأسعار سنتين مضتا . كما أعلن سابير بعد ذلك أن إسرائيل اشترت ما قيمته ٧ بلايين دولار من الأسلحة منذ ١٩٧٠.

وقد لخص تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكى اقتصاديات الحرب الإسرائيلية بعد انتهاء المعركة، فذكر أن الحرب قد كلفت إسرائيل ٢٥٠ مليون دولار يوميا، وهو ما يزيد على ١٠ أضعاف ما تحملته فى عام ١٩٦٧. وأشار التقرير إلى أن ما استوردته

إسرائيل للاغراض الحربية والدفاعية فى ١٩٧٣ يعادل ما استوردته فى ١٩٦٧ نحو ١١ مرة ، وأن هذا يمثل ثلث جميع الواردات الإسرائيلية ونحو ٤٠٪ من الدخل القومى . أما المـــديونية الـــخارجية لإسرائيل فقد قدرها التقرير بنحو ٥ بلايين دولار ، أى بمعدل ١٥٠٠ دولار للفرد الواحد، وهو أعلى معدل مديونية فى العـــالم. وانتهى التقرير إلى أن الحرب قد كلفت إســـرائيل غـــاليا وباهظا، وانهم أدركـــوا نهائيا أنهم لا يمكنهم خوض حرب جـــديدة كل عدة سنوات كما كان الحال فى السابق.

ورغم التغطيات الكثيفة التى ترد من الخارج - أكثر من ٢ر٢ مليار دولار قيمة سلاح بديل شبه مجانى من أمريكا، ومئات الملايين من الدولارات من اليهود الأمريكيين .. إلخ - فقد قدر أن إسرائيل تحتاج إلى ما قيمته ٣٠٠٠ مليون دولار من العتاد الحربى لتعويض خسائرها. ولذلك ينتظر أن ترتفع الميزانية العسكرية لإسرائيل إلى حوالى ٣٠٠٠ مليون دولار سنويا، يغطى نصفها المشتريات العسكرية من الخارج والنصف الآخر الامدادات والخدمات العسكرية، وترتيبا على هذا فسيكون على أمريكا أن ترفع معونتها العسكرية لإسرائيل من معدلات ما قبل الحرب التى تقدر بحوالى ٤٠٠ مليون دولار سنويا إلى ١٥٠٠ مليون دولار سنويا .

وقد عبر عن هذا الوضع كله بطريقة أخرى وزير المالية سابير، الذى قال ان الخطط التى كانت موضوعة قبل حرب أكتوبر كانت تخصص ١٧٪ فقط من اجمالى الناتج القومى لنفقـات الأمن. ولكن هذه الخطط «قد سـقطت من النافذة نفسـها التى سـقطت منها الافتراضات القائلة بأن العرب لن يتجاسروا على مهاجمة إسرائيل». ثم أضاف أن الضغوط المالية للحرب قد قفزت بنفقات الدفاع إلى ٣٠٪ ثم إلى ٤٨٪، أى نصف اجمالى الناتج القومى. وفى ظل هذه الظروف - تعلق اليونايتد بريس - تجد إسرائيل نفسها تعتمد الآن ، أكثر من أى وقت مضى، على أمريكا لمساعدتها على البقاء «وانقاذها من الغرق فى البحر الأحمر». ولا تأتى هذه المساعدات فقط من جانب اليهود الأمريكيين الذين يطلب منهم أن يحفروا فى جيوبهم بعمق أكثر من ذى قبل، وإنما كذلك من جانب الكونجرس الأمريكى. وهكذا أثبتت المعركة مرة أخرى وأكثر من أى وقت مضى صحة كلمة الرئيس السادات من أن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة فى كل شيء «ابتداء من رغيف الخبز حتى طائرة الفانتوم».

واضح إذن تماما أن الحرب إن لم تكن قد دمرت أو خربت اقتصاد إسرائيل ، فقد أصابته بضربة فى الصميم. وبتعبير سابير «وان الأيام السعيدة قد انقضت اننا الآن فى حالة حرب من الناحية الاقتصادية» ، أو بتعليق اليونايتد بريس «أن الحرب التى اندلعت فى أكتوبر لم تنته، وانما انتقل ميدان المعارك من الجبهة المصرية والجبهة السورية إلى أرفف المحلات التجارية بإسرائيل». فلقد ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات، ووصل الارتفاع أحيانا إلى ١٠٠٪، وأصبحت الأحزمة مشدودة إلى آخرها على البطون. فقد تأثرت جميع خطوط الإنتاج «من المقابر إلى الصناعة، ومن المزارع إلى الفنادق السياحية». وانتشر الكساد وقل السياح وأفلست بعض المؤسسات كما توقفت شركات أخرى مثل شركة زيم للملاحة . وفى الوقت الذى ارتفعت الضرائب إلى حدها الأقصى، ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات بشكل حاد، وبذلك تحولت الأزمة، أو امتدت بالأحرى، من المجندين إلى ربات البيوت ومن المنتجين إلى المستهلكين. وأخيرا أعلن المكتب الحكومى للاحصاءات فى إسرائيل أن العجز فى ميزان المدفوعات خلال الربع الأول من ١٩٧٤ قد بلغ ٤٣٦ مليون دولار ، أى بزيادة ٩٠٪ عن الرقم المماثل فى العام الماضى.

أما عن المستقبل فان الصورة ليست أكثر اشراقا. فإلى أمد طويل ستظل التعبئة الجزئية قائمة تحرم الإنتاج نسبة معلومة من الأيدى العاملة، كما ستبقى كثير من خطوط الإنتاج موجهة نحو الاقتصاد الحربى. فمثلا بينما كان نصف إنتاج الصلب والالكترونيات ووسائل النقل يصب فى مجال الدفاع، يقدر أن هذه النسبة سوف ترتفع فى العام القادم إلى نحو ٧٥٪. وقد قدر اقتصادى إسرائيلى معروف يدعى يوفال اليتسور أنه لا مفر من تخفيض مستوى المعيشة الإسرائيلى بعامة خلال السنة القادمة أو السنتين بنحو ١٠٪ على الأقل، كما قرر بصفة جازمة عن الاقتصاد الإسرائيلى أن «الظروف التى سادته قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لن تعود ثانية».

ولقد لخصت النيوزويك الموقف برمته بدقة حين عقبت قائلة أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا ، ولولا وقف إطلاق النار لوجدت تلك الدولة حياتها وقد اقتصرت على الكفاف. لقد خسرت إسرائيل – نحن نلخص – الجبهة الاقتصادية كما خسرت الجبهة العسكرية، وإسرائيل اليوم دولة مأزومة كما هى دولة مهزومة. ان طفل الشرق الأوسط المدلل قد أصبح طفل المنطقة العليل، ولا نقول رجلها المريض، وتحول ما كان بعد بلغة

الاستعمار العصا الغليظة إلى ما يمكن أن نسميه بالتعبير التوراتى «بالقشة المكسورة broken reed» .

انهيار نظرية الأمن الإسرائيلى

نصل الآن إلى حجر الزاوية وركن الأساس فى الوجود الإسرائيلى جميعا، قضية الأمن التى أغرق العالم بها حديثا وتفسيرا. ما هى بالضبط فى النظرية والتطبيق؟ وماذا فعل بها ٦ أكتوبر ، وإلى أى حد بالدقة عصف بها؟

إذا بدأنا من البداية، فسنجد باختصار أن قضية الأمن مشكلة تاريخية قديمة تطارد «اليهودى التائه» نفسيا وماديا فى الشتات عبر القرون والقارات. وأيا كانت الدوافع أو الأصول المعقدة، الحقيقية أو الوهمية، فقد أصبح الأمن عقدة مزمنة، ملازمة لعقدة الاضطهاد. وقد كان «الجيتو» هو الرد، ولا نقول الحل ، التقليدى، ذلك الحى الغامض المعزول المسور والمحصن المتقوقع داخل المدينة، فيها وليس منها، يحقق الرغبة المرضية فى التباعد وعدم الاندماج أو الذوبان فى مجتمع الجوييم العريض دون أن ينفصل مع ذلك عن مصالحه ومعاملاته بل والتطفل على خدماته وموارده.

ومنذ ظهرت الصهيونية السياسية فى القرن الماضى ، لم يكن «الحل الصهيونى» «المشكلة اليهودية» إلا تكبيرا أو تعظيما maximization لعقلية الجيتو تلك. ولم يكن يستهدف إلا تجميعا مجسدا فى بقعة واحدة للآلاف من خلاياه المبعثرة والمبثوثة فى تضاعيف الشتات. وإذا كانت فلسطين، بمنطق أسطورة غيبية محرفة بقدر ما هى منحرفة ، قد أصبحت الضحية، فقد كان معنى هذا أن تتحول بعد تفرغ من أصحابها الأصليين والشرعيين إلى جيتو واحد أعظم يختزل ويختزن كل جيتوهات العالم المفتتة.

بذلك اجتمعت الأسطورة الدينية مع العنصرية العرقية مع الاغتصاب الاستعمارى لتكون الدولة – الجيتو أو الجيتو – الدولة ، إسرائيل. وبذلك أيضا تحول الوجود اليهودى فى فلسطين . بالتسلل فالهجرة ثم بالاغتصاب فالغزو ، من لاجئين «وييشوف» (جسم المجتمع اليهودى فى فلسطين الانتداب). إلى مستوطنين ومستعمرة ، ثم أخيرا إلى دولة ومشروع امبراطورية! ولم يكن شعار الصهيونية «لأرض بلا شعب شعب بلا أرض» إلا تزييفا فاجرا وقلبا وحشيا للحقيقة وغطاء للاغتصاب، أما صحته هذا الشعار المزعوم فهى «أرض شعب لشعب الأرض» (أى فلسطين العرب ليهود العالم على الترتيب).

ومنذ اللحظة الأولى ، أصبحت مشكلة إسرائيل الأولى والأخيرة هى مشكلة «الأمن» المزعوم، وتحول الأمن إلى دعوى عريضة جدا، فأصبح محور كل شىء فى الوجود الإسرائيلى، بل فى كل الدنيا، وأصبح أصغر حدث جار وأبسط حقائق الحياة اليومية فى إسرائيل أو خارجها يترجم إلى صيغة أمن ويقيم باعتبارات الأمن ومقاييسه . باختصار ، أصبح أمن إسرائيل هو «بقرتها المقدسة» وهو «عبء الرجل الإسرائيلى»، بل يكادون يقولون عبء العالم أجمع!

غير أن دعوى الأمن الإسرائيلى هذه فيها من الادعاء والدعاية بل ومن المغالطة بقدر ما فى الكيان الإسرائيلى نفسه من خطأ أساسى أو خطيئة أصلية . وحقيقة الأمر أن الأمن قد أصبح تبريرا للقتل، بمثل ما أن الصهيونية نفسها تبرير للسرقة. والأمر كله تحول إلى حلقة مفرغة مفزغة، حلقة لولبية صاعدة أبدا، بدايتها الأمن ونهايتها الأرض.

كيف ، ولماذا ؟ تفسير ذلك أن إسرائيل ، ككيان عدوانى غاصب وكاستعمار استيطانى احلالى مطلق في الأصل والأساس، تجد نفسها جزيرة مقتطعة محاصرة ببحر شاسع خضم من العرب أصحاب الأرض الشرعيين، متفوق فى المساحة والعدد والثروة خارج كل مقارنة. وهى من ثم تجد الأمن شرط البقاء، والقوة صمام الأمن ، والأرض عصب القوة، ومن هنا أصبح الأمن مرادفا للأرض، أى للتوسع ، أى للغزو والامبراطورية فى نهاية المطاف .

وبعبارة أخرى فان إسرائيل، بصميم كيانها وتكوينها المجلوب، لا يمكن أن تعيش داخل حدود الأرض المغتصبة فى الأراضى المقدسة بغير توسع وإلا اختنقت. وهى بالأحرى لا يمكن أن تكون – بالتعريف الصهيونى – «دولة اليهود» فى العالم «والوطن الطبيعى لليهودية العالمية» إلا إذا كانت دولة توسعية بالضرورة .فالتوسع إذن شرط البقاء كما هو شرط الأمن ، ومن ثم فان «إسرائيل الصغرى» ليست سوى النواة «لإسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات. والمشرق العربى بذلك هو «المجال الحيوى Lebens-raum الحتمى الذى لا سواه لإسرائيل كما كان وسط أوربا بالنسبة للنازية ، وعليها أن تقيم فيه «نظاما جديدا New Order » تابعا وخاضعا مثلما أقامت النازية فى أوربا أثناء الحرب الثانية.

الأمن = التوسع

ومنذ نشأت الصهيونية ، لم يخف صهيونى واحد ابتداء من هرتزل عبر وايزمان وجابوتنسكى وبوبر إلى بن جوريون واشكول وجولدمان وحتى مايير ودايان وبيجن وسائر المعاصرين ،لم يخف واحد منهم أن التوسع هو لب الصهيونية وأسها وأساسها كما هو شرطها ومقياس نجاحها . ومن المستحيل تماما أن نحصر كل تصريحاتهم السافرة فى هذا الصدد ، ولكن لمجرد الذكرى والتاريخ لابد أن ننتخب عينات ممثلة منها .

هرتزل ، الذى قال ابتداء لمن سألوه عن جدوى وعد بلفور «بوطن قومى لليهود» لاينص على «دولة» لليهود أن «كل صهيونى سيفهمه على أنه يقصد دولة»، قال بعد ذلك وقبله «كلما حصلنا على مزيد من الأرض نكون على استعداد للقيام بتضحيات أكبر» ، كما قال «كلما ازداد عدد المهاجرين زادت حاجتنا إلى الأرض» . «والرجال المستيئسون الذين هم أفضل الغزاة» سيكونون عماد الجيش الصهيونى ، بينما سيكون العرب «قطيعا من الوحوش علاجه الوحيد هو الإبادة الجماعية» –هكذا أيضا كتب هرتزل . ولا يكاد يختلف عن هذا ما قاله وايزمان أو زانجويل . وعند مناحم شاينكين كذلك .. أن «المرء لا يشترى أرضا بل يستولى عليها ويأخذها بنفسه ولنفسه» . أما نبى الإرهاب الصهيونى جابوتنسكى فهو القائل «عليكم إن تحتفظوا بالسيف ، لأن القتال بالسيف ليس اختراعا ألمانيا ، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل .إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» . وبعد هذا قال بوضوح تام «المنطقة المفتوحة للاستعمار اليهودى والمزمع إقامة الوطن القومى اليهودى على أرضها فيما بعد لاتنحصر من حيث المبدأ فى منطقة الانتداب البريطانى» .

أما تلميذ جابوتنسكى وخليفته فى الإرهاب مناحم بيجين فقد أعلن بلا مواربة أنه «لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ، حتى ولا للعرب ، مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح» . وأخطر من ذلك قال : «كن أخى أو أقتلك» ، وأشهر منه قال : «أنا أحارب ، إذن أنا موجود» ، ومعناها الحقيقى «أنا أتوسع ، إذن أنا موجود» . كما يمكنك دائما أن تقرأها بالمقلوب : «أنا موجود ، إذن أنا أحارب» ، «أنا موجود ، إذن أنا أتوسع» ، وبالمعكوس أيضا: «أنا لا أحارب ، إذن أنا غير موجود» ، «أنا لا أتوسع ،إذن أنا غير موجود» .. إنها مرة أخرى تلك الحلقة اللولبية الجهنمية .

حتى جولدمان ، السلامى وداعية التعقل كما يوصف (!) ، يقول «لاتوجد أى دولة أخرى فى العالم يعيش ٩٠٪ تقريبا من شعبها خارج حدودها» . وقد وضعت النقط على هذه الحروف الخطة الأستراتيجية للجيش الإسرائيلى المنشورة فى عام العدوان ١٩٥٦ حيث قالت بلا لبس «إن المهمة القومية التى تضطلع بها دولة إسرائيل - وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل - تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٣٠ عاما) . وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمن الأحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان .. ولهذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها» .

ولقد كان من أجل جلب وحشد هذه «الأغلبية المغتربة» ، وما تحتاجه من أراض جديدة بالتأكيد مضافة بالتوسع والفتح والغزو ، حرص إسرائيل نفسها منذ البداية وعن عمد وتخطيط على أن تكون دولة بلا حدود ، وذلك على عكس كل الدول السوية التى نعرف . وليس محض مصادفة أن بن جوريون الذى وضع هذه السياسة هو نفسه القائل «إن الجيش الإسرائيلى هو خير مفسر للتوراة» ، وهو كذلك الذى شبه الصهيونيين فى فلسطين بالغزاة الفاتحين الأسبان فى العالم الجديد Conquistadores.

الآن ، وعلى هذه الأسس ومن أجل هذه الأهداف بالضبط ، تحددت استراتيجية الأمن الأسرائيلى المقول .فالأمن هو أساسا «سياسة القوة» ، صيغة منتهى القوة ، وخطة «صعق الفئران» كما سموها . أما طريق ذلك فهو تحقيق التفوق العسكرى المطلق والدائم على العرب مجتمعين . وهذا هو المعنى الوحيد المقبول لتوازن القوى مع العرب . فبمثل هذا الميزان المختل المعوج يمكنها دائما أن تطالب «بالحدود الآمنة» ، ثم تمارس «الحرب الوقائية بحرية كاملة وبطريقة خاطفة ، بحيث تحقق سياسة «الأمر الواقع» فى المنطقة ، وتضمن أن تقع الإرادة العربية أسيرة خطة الترويع والتهديد ثم الردع والتأديب . وبذلك كله تفرض فى النهاية «السلام الإسرائيلى» بعامل القوة وبقوة السلاح .

السلام الإسرائيلى = سياسة القوة

ولكن ، قبل أن نمضى فى مناقشتنا إلى أبعد ، ماهو بالدقة معنى هذا السلام الإسرائيلى المزعوم والمفروض ؟ إنه الاستسلام ولا سواه ، من جانب العرب ولا سواهم . السلام الإسرائيلى هو الاستسلام العربى ، وذلك جوهر المعادلة المطلوبة بلا زيادة

ولا نقصان . «كن أخى أو أقتلك» إنمـــا ترادف «كن عبدى أو أقتـــلك» . إنه الســـلام القائم على الظلم والقهــر ، سلام القوة والأقوى ، وسلام السادة والأرقاء .من هنا كان صمـــيم نقيض السلام الحقيقى وتـــورية وقحة عن الحرب . إنه قلب كامل وغطاء مقلوب لسياسة الدم والحديد والتوسع والعدوان .

ولقد أرغمت هزيمة أكتوبر بعض مثقفى الإسرائيليين على الاعتراف بهذه الحقيقة بكل سفور . فمنذ أسابيع كتب أستاذ بالجامعة العبرية ، يقال له ليبوفيتش ويقال إن له مكانته فى إسرائيل ، كتب فى ها آرتس يقول : «لقد كان الخط القائد لسياستنا ، ولايزال ، هو الرأى القائل بأن وضعا دائما من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة هو أفضل وضع بالنسبة لنا وينبغى المحافظة عليه بكل وسيلة .. وبذلك وضعت مشكلة الأمن فى مـركز كل تفكير وكل نشاط سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى .. لقد ســادت هذه السياسة الإجرامية والشريرة طوال ٢٥ سنة .. حتى وصلت بنا إلى الأزمة التى نعيشها الآن .. إننا لم نسع إلى الســلام طوال ٢٥ سنة ، وكل التـصـريحات بهـذا الصـدد ليـست إلا تصريحات متلونة وكذبا عامدا» .

ذلك هو السلام الإسرائيلى وموقعه فى نظرية الأمن . ومن أجل هذه الاستراتيـجية العظمى كانت «عسكرة» إسرائيل ، كما تسمى ، تلك السياسة التى حولتها إلى ثكنة وترسانة مسلحة حتى الأسنان وجعلت منها مجتمعا عسكريا أساسا ، صلبه وقلبه هو المؤسسة العسكرية الحــاكمة والمهيمنة ، وجسمه هو مجموع سكان البلد من الناحية العملية . ولقد كان فى هذا المعنى بالتحديد ماقيل من أن إسرائيل لم تعد دولة لها جيش وإنما جيش له دولة .. والواقع أن إسرائيل منذ وقت مبكر أصبحت دولة جيشها هو تقريبا شعبها وشعبها هو عمليا جيشها ، بمثل ما أصبح جيشها بدوره هو حدودها وحدودها هى عمليا مدى ما يصل إليه جيشها على الأرض وعلى الطبيعة ، أو كما وضعها دايان بكل سفور وقحة «حدودنا هى ماتصل إليه مدرعاتنا» .

والحقيقة أن أحدا لن يفهم الكيان الإسرائيلى إذا فهم دور الجيش فيه كما يفهم دور الجيش فى كل دول الأرض العادية التى نعرف . وأحد كذلك لن يفهم الجيش الإسرائيلى إذا فهم الكيان الإسرائيلى كما يفهم كيان أى دولة عادية سوية معروفة على وجة الأرض . فالوجود الإسرائيلى ، كاغتصاب قائم على القهر والسلب ، لايجعل من الدولة دولة العنف

والقوة من حيث المبدأ والبداية فقط ، ولكنه يجعل العنف والقوة بحد ذاتها أيديولوجية قومية ضرورية لضمان وتكوين الشخصية القومية والذاتية الوطنية نفسها .

وعلى هذا فإن وظيفة الجيش فى الوجود الإسرائيلى ، كالوجود الإسرائيلى نفسه ، وظيفة غير عادية ، بل ويمكن بلا حرج أن تقول شاذة . إنه سبب ونتيجة فى آن واحد ، مبرر وجود ومقرره معا ، غاية ووسيلة على حد سواء . وإسرائيل دولة عسكرية تماما كما هى دولة دينية ، وكلتا الصفتين مترتبتان على بعضهما البعض مثلما هما مرتبطتان بعضهما البعض ، وإسرائيل لاتتصور بدون أى منهما .إن «جيش الدفاع» هو كالصهيونية نفسها ، بل اليهودية ، عقيدة وديانة ، إلا إنها علمانية ، والحرب هى صناعة الأمة الحقيقية بمثل ما أنها هى من صناعة الحرب.

ليس ذلك لأن الجيش هـــو الذى خلق الدولة وهو الذى يحافظ على بقائها ويوسعها فقط ، ولكنه أيضا هو وحده الذى يخلق الذاتية اليهودية والشخصية القومية من عدم الشتات وعجز الماضى ، فالجيش بوتقة إسرائيل ، تلك «الأمة» من المهاجرين ، فيه تنصهر أشتات الشتات بكل أخلاطها وتنافراتها ، وبفضله ومن أجله «تؤمم» الخلافات والتناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية والطائفية ، ومنه تتخلق فى النهاية الوحدة الوطنية الجديدة المنشودة .

وهكذا فإن وظيفة الجيش فى الكيان الإسرائيلى ودوره مزدوج : داخلى وخارجى ، رأسى وأفقى ، أو كما نقول إسرائيلى « وعربى» . الجيش هو عمود إسرائيل الفقرى وذراعها الطويلة كما هو قلبها وكبدها الحيوى ، هو صلب الجسم السياسى ومعظم الجسم البشرى ، فى الداخل أداة الوحدة الوطنية ، وفى الخارج أداة التوسع .

عن الجانب الأول ، انظر مثلا ما يقوله مناحم بيجين «إن الإرهاب والحرب وحدهما هما اللذان استطاعا أن يحولا هذه الغرائب الشاذة ، التى لم تكن فى ظاهرها تبشر بأى أمل بشعب قادر ، وأن يرفعا عن اليهود انحطاطهم التاريخى الذى وصل بهم إلى قيمة التراب . ذلك أن الكراهية هى الدافع للارتقاء فى تاريخ عالمنا ، وأننا عندما نحارب فقط فإننا سوف نستشعر للوهلة الأولى وجودنا» .

أما عن الجانب الثانى فيقــول آلون «سوف يبقى الجيش الإسرائيلى ونظرية الأمن العنصرين الأساسيين لتحقيق الشخصية الوطنية الجماعية .. إن المحارب الإسرائيلى هو

وحده الذى يقف متحديا للقيد الديمقراطى على إسرائيل الذى يفرضه تعدادها المحدود وهو وحده الذى يقف متحديا مشكلة العمق الجغرافى المحدود لإسرائيل» . (الاقتباسان من مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد بجريدة الأهرام) .

والواقع التاريخى والسياسى من جانبه لايدع مجالا لأى شك فى حقيقة هذه الفلسفة العدوانية التوسعية وتلك الاستراتيجية العظمى المخططة والمبيتة . فلقد فرضت إسرائيل على المنطقة أربع حروب فى غضون ربع قرن ، حتى جعلت منها «بؤرة حرب» مزمنة . ومنذ ١٩٤٨ أثبتت التجربة الإسرائيلية الدموية أن «مع الأكل تأتى الشهية» ، ومع الوقت تتحول الشهية إلى شهوة ، ومع الاثنين تتحول الشهوة إلى شره . أو أن شئت فقل أثبتت أن نظرية الأمن هى كمن يشرب ماء البحر ليرتوى ، فلا يزداد إلا ظمأ ، فيشرب أكثر فيظمأ أكثر ، وهكذا إلى حد الانفجار .

وتعبيرا عن فلسفة الردع العسكرية وروح التوسعية الإقليمية هذه ، جنبا إلى جنب مع غرور القوة المتغطرسة ، يمكن أن نقتبس هنا بعض تصريحات العدو وتهديداته بعد يونيو ، ففى تلك الفترة بالذات تبلورت كل مفاهيم نظرية الأمن الإسرائيلى وبرزت فرضياتها ومعالمها تماما . «إن الأمل الوحيد فى ردع العدو حتى لايفرض حربا على إسرائيل» ، قال آلون ، «يرتبط بقوة جيش الدفاع وبطريقة استخدامها» . أما هذه القوة وهذه الطريقة فقد حددهما بارليف بوضوح فى أن «القوات التى تحتل المراكز الأولى فى سلم الأولويات هى السلاح الجوى ، والقوات المدرعة ، والقوات المحمولة جوا . أما عناصر قواتنا المسلحة الأخرى فهى إلى حد كبير عناصر مساعدة» . وفى مناسبة أخرى عاد آلون يقول «إن هدف هذه القوات الصريح والمعلن هو ردع العدو عن بدء حرب جديدة . فإذا قامت الحرب رغم ذلك ، فإن علينا أن نضمن النصر الإسرائيلى بأكبر قدر من السرعة والكفاءة مع أقل قدر من الخسائر» .

أما المعلق العسكرى زيف شيف فكتب يقول بعد يونيو «لقد تخلصت إسرائيل بفضل الوضع الجغرافى -الاستراتيجى الراهن من مخاوفها القديمة وهى أنها أن لم تكن البادئة إطلاق النار فقد تهزم أو تضطر إلى دفع ثمن فادح من الضحايا» . وفى الخط نفسه أعلن ديان أن «هدف إسرائيل هو تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى سلام دائم مع العالم

العربى . وللوصول إلى ذلك علينا حماية حدودنا الجديدة بطريقة تبدد أدنى أمل قد يطوف بأذهان أعدائنا بالقدرة على طردنا بقوة السلاح» .

واستطرادا للمنطق نفسه قالت مايير «إن أعداءنا يحافظون على وقف إطلاق النار لا عن رغبتهم فى السلام وإنما من خوفهم من الدبابات والجنود والطيارين الإسرائيليين» . وردد المعنى نفسه موردخاى هود قائد الطيران الأسبق حين قال «لقد تمت المحافظة على الهدوء النسبى المستمر منذ سنتين بفضل قوة الردع التى يمتلكها جيش الدفاع . إن قوة الردع التى يملكها جيش الدفاع تنبع من لياقة هذا الجيش واستعداده وقوة سلاح الطيران» .

إلى هذا المدى بالفعل وصلت فلسفة «عبادة القوة» عند إسرائيل ، وجها آخر منطقيا وحتميا «لعبادات الذات» - فسياسة القوة إنما هى المكافىء الموضوعى لسياسة العنصرية. وفيما بين الاثنتين ، عبادة القوة وعبادة الذات ، أصبح التوسع «حقا طبيعيا» ، إن لم يكن حقا «الهيا مقدسا» (!) لإسرائيل ، ورسالة الأجيال المباركة . ولم يكن هذا خافيا على الكثيرين فديجول مثلا واجه الإسرائيليين فى ١٩٦٨ بقوله «يعتقد الإسرائيليون أن كل شىء مباح لهم . أنهم يتوسعون خارج حدودهم سعيا وراء أعداء حقيقيين أو وهميين» . ثم اعتبر فى هذا مثلا قول دايان المشهور بعد يونيو : «الجيل السابق أقام الدولة ، وجيلنا امتد بحدودها إلى خطوط آمنة ، وعلى جيلكم أن يحمل هذه الحدود إلى حيث آمال الأجداد فى أرض إسرائيل الكبرى» ..

وعند هذا الحد أيضا يكتمل لنا بروفيل دقيق للكيان الصهيونى فى إسرائيل . فهو بتركيبه النفسى والعنصرى والعسكرى والجغرافى يكرر ويجمع فى آن واحد وفى جسم واحد ملامح مدينة قمة التل أو «أكروبوليس» العصور القديمة التى تتحكم من عل فى السهل تحت أقدامها ، ووضع قلعة العصور الوسطى المحصنة التى تنقض على الريف المحيط بغاراتها من وقت لآخر ، ثم دور بروسيا - «بروسيا الشرق الأوسط» - بسياسة الدم والحديد والضم ، ثم أخيرا حالة ألمانيا النازية بعنصريتها الاستعلائية وعسكريتها التوسعية ومجالها الحيوى واستراتيجيتها الأثيرة فى الحرب الخاطفة . والحقيقة أن إسرائيل الفاشية المتحجرة بدأت ببربرية العصور القديمة ولانقول الحجرية ، وانتهت تلميذة مخلصة لجلادها النازى فلسفة ووجودا ووسائل .

وعدا هذا ، تدل كل وقائع ومؤشرات السنوات الأخيرة على أن غرور القوة وصلف التسلط وصلا بإسرائيل إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسى كما رأينا . فهى وقد بدأت بفكرة «الشعب المختار» وعقدة العرق والتفوق العنصرى ، فقد انتهت إلى أن تعتبر نفسها «الجنس السيد» أو السوبرمان (كذا) بالقياس إلى الإنسان العربى . وبدعوى التقدم الحضارى والتفوق التكنولوجى على العرب انتهت إلى الاعتقاد بأنها تمثل «المدينة» والعالم المتقدم فى الشرق الأوسط ، حيث العـــرب هم «الريف» أو عالمه الثالث على الترتيب . وعلى هذا الأساس وذاك عدت نفسها الدولة السيدة أو السائدة والقائدة فى المنطقة Su-per- Stete ، ومنها قفزت كما رأينا إلى دعوى القوة العظمى فى المنطقة - Super Power أيضا ، وهكذا : ثلاثية مريضة من مركبات الاستعلاء تدور حول محور معنوى واحد هو التسيد وتشترك فى مقطع لغوى واحد هو أعلى : سوبرمان، دولة سوبر، سوبر باور!

٦ أكتوبر وأمن اسرائيل

لقد سبق أن تعددت المواجهات العسكرية بين العرب واسرائيل دون أن تكون أى منها نقطة تحول جذرى أو تحول أكثر من محلى، لأن نتائجها الميدانية كانت من اســف تسير فى اتجاه واحد، رتيب كما هو كئيب، يتفق تماما مع موازين القــوى العـــالمية السائدة ومضارباتها .لكن حرب اكتوبر وحدها تأتى لتقلب التوازنات المحلية ونتائج الصراع الميــدانى، ليس فقط لأول مرة فى تاريخ الصراع، ولكن أيضـــا لأول مـــرة فى ظـــل الوفـــاق الـــدولى الجديد ومناخه. من هنا جاءت المعركة أول «اختبـــار قوة» حقيقى للعدو المباشر ومعسكره.

ففى هذه المعـــركة الفاصلة نـــالت اســـرائيل صـــدمة كهربائية، ان لم تكن صاعقة مدمرة بصـــورة مباشـــرة ، فانها بآثارها غير المباشر والبعيدة المـــدى قـــد ألقـــت ظـــلالا كثيـــفة وكئيبـــة على بنائها التحتـــى والقـــومى على السواء وسلطت ذبـــذبات عميقة ومخلخلة على صميم كيانها وعلى جـــذور هيكلها المـــادى والايديولوجى جميعا .

وبصفة محددة فان هذه الاهتزازات استقطبت فى نظرية أمنها المقولة بكل معطياتها وفرضياتها وادعاءاتها المزعومة، وكانت محصلة نتيجتها الصافية هى فشل وافلاس بل وانهيار هذه النظرية ومعها فلسفة الردع.

فلقد اثبتت المعركة أن الأمن ليس بالأرض، وأن الأرض ليست بالقوة، وأن القوة ليست بالسلاح، وأن السلاح لا يفرض السلام، كما أن السلام لا يفرض. ولما كان دور الجيش في الوجود الاسرائيلى هو ما رأينا، وكانت نظرية الأمن عنده تعنى ما تعنى، فيمكننا أن ندرك أى ضربة قاصمة تلقتها اسرائيل فى صميم عمودها الفقرى وجهازها العصبى المركزى بل وجسمها وكيانها كله.

ولدينا فى هذا مجموعة شهادات واعترافات قاطعة من العدو نفسه. يقول يوئيل ماركوس: «لقد أصيبت ثقة الجمهور بضربة قوية، حين بدأ يتضح لنا أن نظرية سياسية كاملة متعلقة بالأمن قد انهارت». ويقول بنيامين كادر، أستاذ بالجامعة العبرية، فى رسالة إلى مايير «.. كانت أياما صعبة لأن نظريات أساسية قد انهارت خلالها، ولأن بديهيات قد تحطمت عشيتها ولأن اساطير كثيرة قد انتهت بعدها». ويقول شبتاى تيفت: «كانت قوة الردع هى القيمة العليا فى مفهوم أمن اسرائيل وكانت جوهره . ولكن ثبت أنه كلما قويت ضربات جيشنا، كلما قوى فى قلوب العرب الاصرار على تنمية قوتهم ومجابهتنا من جديد». هذا بينما حذر آمنون روبنشتاين قائلا «لقد أثبتت حرب أكتوبر أن علينا أن نفهم أن لقوتنا حدودا، وأن نحسب قوة الآخرين ومشاعرهم. ومن يقترح علينا غير ذلك فهو يقترح على اسرائيل مصيرا أسود». وأخيرا يأتى اعتراف وزير العدل الاسرائيلى السابق، الذى استقال احتجاجا على بقاء دايان بطل النكسة فى الحكم، ليلخص الموقف كله: «إن الحرب ليست الوسيلة التى يمكن بها فرض اسرائيل على العرب». والمعنى نفسه أكدته الجارديان حين قالت «ان اعتماد اسرائيل فى علاقاتها مع العرب على قوتها العسكرية كان باهظ الثمن فى الماضى، وقد يؤدى إلى الكارثة فى المستقبل».

انهارت، اذن، نظرية الأمن الاسرائيلى، ولا سبيل إلى الشك فى هذا ذلك مجمل الحقيقة. أو كما وضعها جميس شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى نفسه «لقد فشلت نظرية الأمن الاسرائيلى.. والاسرائيليون يدركون الآن أن أمنهم لا يمكن أن يتحقق بمجرد الاحتفاظ بالتفوق العسكرى، ولقد أصبحت الآن هالة الدولة التى لا تقهر موضع تساؤل». أو كذلك بعبارة ناداف سافران فى مجلة فورين أفيرز، فان الحرب لقنت اسرائيل درسا جديدا فى الأمن، وربما تعلم الاسرائيليون شيئا جديدا عن أساس أمنهم. تلك هى خلاصة الخلاصة. أما تفصيلا فنحن نستطيع أن نرصد ونسجل لأكتوبر المؤشرات الثلاثة الآتية: خطر القوة غير الذاتية ، وقصور الأمن الجغرافى، وهم التفوق التكنولوجى.

خطر القوة غير الذاتية

أثبتت المعركة خواء وعجز منطق القوة كمحور لنظرية الأمن الاسرائيلى. فأسطورة الجيش الذى لا يقهر، والقلعة التى لا تقتحم، وسلاح الطيران سيد سماء الشرق الأوسط، وآلة وآلهة الحرب الاسرائيلية، ونوعية المقاتل الاسرائيلى والسلاح الاسرائيلى، إلى آخر كل هذه المقولات الدعائية كلها قد ضربت فى الصميم مرة واحدة وإلى الأبد على يد القوة العربية المضادة - ويمكن أن نضيف بالاستدلال: والمتفوقة أيضا.

والسؤال الذى يقفز على الفور هو: لماذا، وما الذى حدث هنا والآن بالدقة خلافا لما أوحت به تجربة الماضى فيما قبل أكتوبر؟ والرد الوحيد هو أن التحدى العربى الجاد كشف لأول مرة عن حقيقة فائقة الأهمية والمغزى وان لم تكن جديدة فى حد ذاتها.

هذه الحقيقة هى أن القوى الاسرائيلية هى أساسا قوة مستعارة منحولة وليست أصيلة، قوة غير نابعة من الذات ولا من عند نفسها، وإنما مستوردة من خزان القوة الأمريكية وبحرها المحيط . فحين جوبهت القوة المستعارة بقوة مكافئة لها وأصيلة على الجانب المضاد كان أمرا مقضيا أن تتصـــدع الأولى وأن تتهاوى.

إن اسرائيل ككيان جيوبوليتيكى وجيوستراتيجى هى بوضوح كيان «محكوم عليه» بالجغرافيا والتاريخ، بكثافة السكان، بكثافة الانتاج، بالكثافة الحضارية.. الخ. ولم يكن وجه الغرابة أن تنكشف وتتعرى خرافة القوة الاسرائيلية التى بنتها وضخمتها إلى حد التورم والانتفاخ آلة الدعاية الصهيونية. الغرابة الحقيقية انها لم تنكشف من قبل، وأن القوة العربية الحقيقية لم تكشف جوهرها الكامن منذ البداية. ان الهزيمة الاسرائيلية فى ٦ أكتوبر ليست استثناء لقاعدة، ولكنها عودة إلى القاعدة الأصولية والطبيعية، عودة إلى الطبيعة، إلى الجغرافيا، «قدر الدول السياسى» كما وضعها ديجول ذات مرة..

قصور الأمن الجغرافى

وعلى ذكر الجغرافيا، فلعل وأبلغ ما اثبتته حرب أكتوبر أن فكرة الأمن ليست، ولا يمكن أن تكون، فكرة جغرافية محضة فى عصر العلم والتكنولوجيا. الأمن ليس جغرافيا صرفا، أو هو لم يعد بالجغرافيا وحدها.

فحين اجتاحت القوة المصرية الطافرة والظافرة عائق القناة واقتحمت من بعده خط بارليف القوى الذى أسرف العدو فى تحصينه وأسرف على نفسه فى الدعاية له، وحين

اعتلت القوات السورية العارمة والمقدامة مرتفعات الجولان الوعرة واقتحمت معاقل خط ألون ودشمه ومخابئه وأوكاره ودكت خطوط دفاعه فيها، فانها فى تلك اللحظة نفسها فجرت ونسفت إلى الأبد دعوى «الحدود الآمنة» (اقرأ: الحدود الآثمة!) التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا وتضليلا. ولعل مما له مغزاه العميق هذا التساؤل الذى شاع أخيرا فى اسرائيل: أليس من المفارقات الغريبة أن تنتصر اسرائيل فى ١٩٦٧ من «حدود غير آمنة»، بينما تنكسر فى ١٩٧٣ من «حدود آمنة»؟

خذ مثلا، كمجرد نموذج، تعريف ايجال ألون فى كتابه «الأمن الاسرائيلى»، ١٩٥٨، للحدود الآمنة. «إن الحدود الآمنة - يقول بالنص - هى تلك الحدود السياسية الدفاعية التى ترتكز إلى عمق اقليمى وإلى موانع طبيعية تحول دون تقدم جيوش برية مسلحة بالمدرعات وتوفر وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية. ومن ناحية أخرى فإنها الحدود التى يمكن أن تستخدم كقواعد للهجوم المضاد». والتفسير الحقيقى الوحيد لهذا التعريف هو أن الحدود الآمنة هى تلك التى يمكن منها القيام بهجوم جديد: ان الحدود الآمنة عند اسرائيل هى «الحدود الهجومية».

لعل من الواضح الآن جيدا أن دعوى الحدود الآمنة هذه هى دعوى ملفقة ونظرية حتمية بالية بعثها العدو من جبانة الفكر العسكرى المنقرض لتكون مبررا للاغتصاب وابتلاع الأرض المحتلة ووضع اليد عليها نهائيا. فالحقيقة أن ادعاءات العدو الاقليمية ومطالبته بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها إن هى إلا فكرة عتيقة تمت إلى تاريخ العسكرية الغابر وإلى عصر ما قبل المدفعية على الأقل وهذا بالضبط ما أثبتته حرب أكتوبر، وما فرض نفسه على بعض الكُتّاب الاسرائيليين.

مثلا كتبت صحيفة هاموديع تحت عنوان «الأمان المفقود» «لقد خلق العمق الاستراتيجى الذى حصلت عليه اسرائيل منذ حرب الأيام الستة فاصلا طبيعيا بين الجبهة والمؤخرة. وحتى فى ذلك الوقت كانت البلاد كلها جبهة، وليست القدس وحدها التى تقع على خط الحدود وكانت تتعرض لعمليات القصف التى وجهت ضد السكان المدنيين، بل وحتى مدن السهل الساحلى المنخفض كانت قريبة من الجبهة. وهكذا لم يكن هناك فصل بين المؤخرة. غير أن هذا الفاصل لم يكن الا للرؤية فقط. وحقيقة أنه لم تسمع فى مدن اسرائيل ومستعمراتها أصوات المدافع، ولكن ذلك لم يقلل من احساس الشعب بأنه فى حصار».

حتى نظرية مستعمرات الحدود ومستوطناتها فى الجولان كدرع دفاعية واقية لاسرائيل، وكذلك نظرية الفراغ العمرانى والبشرى فى سيناء كعامل مساعد على صد الهجوم المصرى، كلتاهما قد سقطتا كما قال ديفيد شليف فى دافار. فعن الأولى، اذا كان ديفيد اليعازر قد قال إن هناك أهمية قصوى من ناحية الأمن لسلسلة المستعمرات المقامة فى الجولان تكاد تقارب أهمية الجيش الاسرائيلى نفسه، فقد اتضح فى الجبهة السورية - يقول شليف معارضا - أن مستوطنات مدنية قليلة السكان، كما فى هضبة الجولان، ليست بقادرة على صد وايقاف هجوم واسع النطاق للمدرعات السورية تشترك فيه مئات الدبابات ويشارك فيه القصف المدفعى والصاروخى البعيد المدى.

أما عن النظرية الثانية فقد أثبتت المعركة أن الفراغ العمرانى لم يجد اسرائيل شيئا، حيث أن غياب السكان المدنيين فى سيناء وقطاع القناة لم يمنع الغزو المصرى وعبور القناة. «لقد تبددت فى حرب يوم الغفران كما يبدو، هاتان النظريتان».

وعند العالم الخارجى أيضا أن نظرية الحدود الآمنة بالمفهوم الإسرائيلى قد ماتت وشبعت موتا. «ان الأحداث الخطيرة التى تجرى الآن فى الشرق الأوسط - كتبت الايمانيتيه فى نورة المعركة - توجه ضربة قاتلة إلى نظرية الحدود الآمنة كما يفهمها حكام تل أبيب». وبالمثل وفى نفس الوقت كتبت الديلى تلجراف أن «أسطورة الأمن الاسرائيلى قد تحطمت تماما. وعلى اسرائيل منذ الآن أن تتخلى عن فكرة أن أمنها يمكن أن يتحقق بمجرد احتلال قطعة من الأرض دون أى برنامج سياسى». أما السناتور الأمريكى المعتدل فولبرايت فلم يكن يقل وضوحا ولكنه كان أكثر عمقا، اذ قال «من المحتم على اسرائيل أن تتخلى عن خرافة الأمن العسكرى المطلق عن طريق احتلال الأرض، مع الاعتراف بأن الأمن العسكرى المطلق لدولة ما يعنى عدم الأمن المطلق للدولة المجاورة لها». وفى مقال له فى الموند يصل موريس ديفيرجيه إلى القمة فى كشف وتفنيد مفهوم الحدود الآمنة الاسرائيلى. «ولكن ما هى الحدود الآمنة؟.. إن مفهوم الحدود الآمنة عند هؤلاء الاسرائيليين يرتبط بمفهوم «المجال الحيوى»، ومعناه المجال اللازم لاسرائيل لكى تتمكن من تعبئة جنودها المستوطنين لمواجهة هجوم ما.. وبهذا المعنى فان الحدود الآمنة لن تكون آمنة إلا لفترة وجيزة محدودة بتقدم الوسائل الحربية التى يتبناها الخصم».

وأى طالب للجغرافيا العسكرية، فضلا عن الجغرافى الأكاديمى، يدرك تماما أن كل العوامل الجغرافية والحواجز الطبيعية والعوائق التضاريسية هى سلاح ذو حدين، وأنه ليس ثمة شئ «كحدود طبيعية» و «كحدود آمنة» فى عصر الطيران والذرة والمدفعية عابرة الدول والصواريخ عابرة القارات. أو كما قالت التايمز «اذا أريد لاسرائيل أن تتخلى عن الأسطورة القائلة بأنها لا تقهر، فان عليها أن تصل إلى القناعة بأنه لا توجد حدود عسكرية آمنة». إن الأمن فى عصر التكنولوجيا الحديثة- لتعلم اسرائيل الآن ان لم تكن تعلم - ليس بالطبوغرافيا، ولا المنعة والحماية هى الجغرافيا كـــذلك، بل ليست حتى بالتكنولوجيا ذاتها بعد ذلك جمعيا.

وهم التفوق التكنولوجى

نعم، ليس الأمن بالتكنولوجيا هى الأخرى، وهذا ما ينقلنا إلى الضلع الثالث والساقط من مثلث نظرية الأمن الاسرائيلى. لقد روجت اسرائيل وحماتها طويلا لفكرة تفوقها التكنولوجى «الخرافى» بالقياس إلى تخلف العرب «المخيف». بل لقد وصل الأمر باسرائيل إلى حد أن قدرت أن العرب لن يعبروا تلك الهوة التكنولوجية ويلحقوا بها قبل منتصف القرن الحادى والعشرين على الأقل! وكان التفوق الجوى بالذات هو نقطة ارتكاز هذه الفكرة الغشوم. لماذا، وعلى أى أساس؟- لأن العرب - هكذا نظر العدو - عقلية بدوية غير آلية، وبدوية لأنها بدوية، وبدوية لأنها بدائية وصــدق الكثيـرون هـذه الســذاجـات أو السماجات، بحيث وقع حتى وقر فى روع البعض، حتى منا، أنه لا ندية ولا تكافؤ وأن الهوة سحيقة والصراع عقيم.

وكـان هذا بالضبط هو هدف العدو من تلك النظرية التى لم تكن قطعة من العلم الموضوعى بقدر ما كانت قطعة من الاعلام الدعائى والحرب النفسية.

فبعيدا عن التهوين أو الاستخفاف، فلقد كان فى تلك الدعاية، كما فى كل دعايات العدو الجهول، من الخديعة أضعاف مما بها من الحقيقة. وكان ذلك جزءا لا يتجزء من طبيعة الحرب النفسية كما هو كامن فى سياستها. ومهما يكن، فلقد جاءت المعركة لتحيل تلك النظرة أو النظرية ركاما وأطلالا مع حطام الطائرات الفانتوم والميراج المتساقطة بالمئات، فضلا عن قلاع الدبابات المحطمة بالآلاف، والتى استحالت بها صحراء سيناء ومرتفعات الجولان جبانة كبرى «للحديد الخردة، وارد أمريكا» كما سخر البعض، أو رمزا

حيا (أو ميتا!) للمقولة الشهيرة «مصر مقبرة الغزاة» كما قد نضيف نحن. أو كما قالت النيوزريك «لقد سقطت ثقة اسرائيل فى تفوقها التكنولوجى على العرب، تماما مثلما تهاوت طائراتها بفعل شبكة الصواريخ المصرية العملاقة».

وتفسير ذلك ببساطة أن الحرب أثبتت، أولا، أن الانسان لا السلاح هو الأساس والفيصل، فالسلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح، وثانيا، أننا أيضا نملك السيطرة على التكنولوجيا وعلى حضارة العصر وروحه، وأن التفوق التكنولوجى ليس حكرا على العدو أكثر مما يعد التخلف فرضا أبديا على العرب. وحين تحقق هذا، أصبح فى حكم المحتوم أن يتحول التفوق العربى العددى الهائل إلى تفوق كيفى أيضا أشد هولا وخطرا. وهذا بالفعل ما حدث فى أكتوبر، وبأكثر منه سيحدث فى المستقبل.

وعلى هامش القضية، بل فى صميمها اذا كنا نعنى حقيقة أن الصراع معركة حضارية إلى جانب كونه معركة عسكرية وسياسية، ولابد أن نلفت النظر إلى مغالطة مزدوجة، ساذجة بقدر ما هى جذرية، فى منطق العدو ودعايته. فحتى تفوقه التكنولوجى المزعوم، والذى إن صح لم يكن الا منحولا منقولا من الغرب عامة وأمريكا خاصة، لم يكن ليحتم انتصاره فى الصدام بالضرورة. فما أكثر فى التاريخ قصص الغارات المتبربرة المنتصرة على مراكز الحضارة العريقة الكثيفة. بل لقد كان موت معظم الحضارات التاريخية الكبرى على يد أمثال تلك الجماعات المتخلفة البربرية التى لا تملك سوى القوة الحربية الصرف. فالتفوق التكنولوجى الحربى لا يرادف بالضبط أو بالضرورة التفوق الحضارى.

وأغلب الظن أن العدو كان يدرك هذه الحقائق فى قرارة نفسه، بل انه ليدرك يقينا أنه هو نفسه بقدر ما يبدو متفوقا تكنولوجيا وماديا يعد متخلفا حضاريا وثقافيا وانسانيا وايديولوجيا. غير انه كان يخدع نفسه كما يخدعنا كجزء من حربه النفسية ضدنا. وعلى أية حال فقد اضطر العدو إلى أن يعترف فى النهاية. ففى كتابه «المواجهة» يقول لاكير عن العلاقة بين الجيش والمجتمع أو بين التفوق التكنولوجى والتقدم الحضارى «كان ثمة تحليل لحرب الأيام الستة يقول ان مرجع النصر فيها هو التفوق التكنولوجى والنظام لطرف حارب ضد أناس متخلفين تعليميا واجتماعيا. وقد اثبتت هذه الحرب (أكتوبر) أنه يمكن

بناء جيش متقدم جدا عن القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والتكنولوجية التى ينتمى اليها. وربما كان ذلك هو أخطر دروس الحرب على الاطلاق!».

مهما يكن، وعلى أية حال، فلقد كان من المغالطة السافرة الحديث عن التفوق الاسرائيلى الحضارى على العرب بصفة مطلقة ودون عنصر النسبية والنسب الصحيحة. فعلى الأقل، فان الدول العربية مجتمعة تملك بحكم الحجم المطلق عددا حقيقيا من العناصر والأفراد العلميين والفنيين والتكنولوجيين أضعاف ما تملك اسرائيل بلا شك، بل ربما أضعاف مجموع سكانها بلا تحديد. بل لعل مصر وحدها، بحسبانها كبرى الدول العربية، تملك من هذه العناصر عددا يعادل ان لم يفق ما تملك اسرائيل. إن التفوق الكيفى، حتى إن صح، عارض مرحلى جدير بأن ينوب فى بحــر التفوق الكمى بحكم العصر وقوانين الاحتكاك الحضارى والتنوير.

الفصل التاسع

العـــــالم والمعـــركة

أن يقول أحد إن معركة أكتوبر هى نقطة التحول الحاسم فى تاريخ العرب الحديث، أو أنها خط التقسيم التاريخى الفاصل فى الصراع العربى - الاسرائيلى، فتلك على الأقل فرضية معقولة تتناسب مع أبعاد المنطقة المحلية والاقليمية، إن لم تكن حقيقة واقعة تثبتها عشرات الأحداث والشواهد والمؤشرات اليومية الجارية. أما أن نقول أيضا إنها أخطر نقطة تحول فى تاريخ العالم المعاصر والسياسة العالمية فى عصر الوفاق أو منذ الحرب الباردة، فمقولة قد تبدو للبعض فضفاضة أو ادعاء عريضا.

الحقيقة، مع ذلك، هى هذا بالضبط. إنها نهاية عصر وبداية عصر، على المستوى العالمى كما هى على المستوى الاقليمى والمحلى. وبالتحديد نهاية عصر ما بعد الحرب الثانية أو الحرب الباردة وبداية عصر ما بعد الوفاق. فآثار ٦ أكتوبر ونتائجه السياسية تتجاوز تماما النطاق الاقليمى لتترامى اشعاعاتها وانعكاساتها على النطاق العالمى بأسره تقريبا بحيث تلقى بظلالها وأصدائها على الأفق الكوكبى بغير مبالغة. سوف يثبت المستقبل - نحن نرجح، ولا نقـــول نقطع - أن حرب أكتوبر هى أخطر حدث كوكبـــى فى تـوازنات الـــقوى الجديدة فى الـــعالم منذ أزمة كوبا، وربما منذ حرب فيــتنام، وربما كذلك منذ الحرب الكورية، وقد نضيف الحرب العـــالمية الثـــانية نفسها. يكفى أنها أكثر من أى عامل آخر قد عمقت من اتجـــاه العـــالم إلى تعدد المراكز وظهور مراكز قوة عالمية بازغـــة أو نامية على حساب الولايات المتحدة بصفة خاصة.

فاذا بدا فى هذا قليل أو كثير من التجاوز أو الترخص والتضخيم أو التفخيم بالقياس إلى حجم المعركة ومقياسها المباشر، فالرد هو أن العبرة إنما هى باللحظة التاريخية للحدث وكثافة الملابسات والعلاقات المتشابكة فيه ومغزى الضوابط والضواغط المتفاعلة معه ثم أخيرا بمدى الاستقطاب والاختزال الذى يفرضه هو على كل هذه المعطيات والمتغيرات.

ومن هذه الزاوية يمكن أن نقرر بلا مخاطرة أن حرب أكتوبر قد أثبتت نفسها أكبر محول ومفاعل، أكبر مكثف ومختزل، سياسى فى الاستراتيجية العالمية. فما نعرف تقريبا حربا محلية محدودة منذ الحرب العالمية الثانية ثرية فى أثارها وثورية وثرى بنتائجها الدولية كاكتوبر. إنها على أقل تقدير أكبر المتغيرات العالمية منذ وبعدِ الوفاق، وهى بدورها قد فرضت متغيرات عديدة على كل المستويات العالمية والاقليمية والمحلية. إنها - هذه الحرب العجيبة سياسيا كما هى عسكريا - نقطة الاختزال وبؤرة التكاثف لتطورات وتغيرات عصر باكمله وعالم بأسره. وعلى هذا الأساس وحده - نحن نجادل - ينبغى أن تفهم وأن تحلل.

وليس أقطع ولا أوضح فى هذا التقدير العالمى من شهادات القيادة العربية العليا المسئولة التى يتوافر لدينا نخبة جامعة منها. فلنستمع أولا إلى تقييم الرئيس السادات. «انها ببساطة - قال سيادته مخاطبا الصحافة العالمية فى مؤتمر لاهور - معركة ٣٠٠٠ دبابة خلال ١٧ يوما فقط من القتال...

معركة يعترف العالم كله اليوم بأنها نقطة تحول فى تاريخ العالم. ولن يعود العالم إلى ما قبل العاشر من رمضان، ولا عسكريا ولا اقتصاديا. كل شئ لابد أن يتغير. وقد بدأ فعلا هذا التغير فى موازين القوى».

وبالمثل يقول الرئيس الأسد «حرب أكتوبر سطرت صفحة مشرفة فى التاريخ العربى.. حرب أكتوبر خلقت أوضاعا جديدة، ليس فى اقتصاد الوطن العربى فقط، بل وفى الاقتصاد العالمى أيضا». كذلك صرح وزير الخارجية المصرى للصحافة العالمية قائلا «لا أبالغ فى القول إن هذا التاريخ يعتبر نقطة تحول جديد، لا فى تاريخ المنطقة العربية فحسب، وإنما فى أوضاع وموازين القوى المعاصرة».

ويبقى فقط أن نجيب أولا على السؤال المنطقى والحتمى: كيف، ولماذا لننظر اذن إلى خريطة السياسة العالمية من منظور الصراع العربى - الاسرائيلى قبل المعركة، نحدد معالمها وتضاريسها ومؤشراتها، ثم نرصد ما طرأ عليها من تغيرات وانقلابات بعدها. ومن حجم الفارق بين الخريطتين يتحدد لنا الحجم الحقيقى لدور المعركة.

خريطة اللاسلم واللاحرب

إن للقضية أبعادا دولية تتعدى حدود المنطقة وأطراف الصراع المباشر، فذلك أمر طبيعى فى عالمنا المعاصر الذى أصبحت فيه كل المشكلات المحلية بحكم طبيعة العصر

نفسه مشكلات دولية بدرجة أو بأخرى. وليست قضيتنا باستثناء ولا هى بشذوذ. الفارق فقط هو فى الدرجة لا النوع. فهنا يجتمع البعدان المحلى والدولى ويتشابكان فى تداخل مربك ومعقد كما لم يحدث فى أى مشكلة محلية أخرى. وهذا التداخل العميق هو أعقد ما فى القضية، بل هو عقدتها الصماء،وهو يعنى أن القضية ليست ثنائية مطلقة، بل هناك رباعية تتألف من القطبين المحليين العرب واسرائيل، والقطبين الأعظم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، فضلا عن إطار كامل من الأطراف والمؤثرات الثانوية والجانبية.

ولئن كان هذا يرجع فى جزء منه إلى الطبيعة والأصول العالمية للعدو الصهيونى ثم سياسته المخططة فى مرحلة ما فى تدويل الصراع، فان جزءا أخر يرجع إلى، كما يدل على، عجز أى من الطرفين المحليين حتى الآن عن حسم الصراع لصالحه مرة واحدة وإلى الأبد. ويتضح هذا الوضع الأخير فى «متناقضة» حرب يونيو، حيث حقق العدو نصرا عسكريا حاسما وفشل فى انتزاع النصر السياسى، فى حين انهزمنا نحن عسكريا ثم صمدنا سياسيا.

والشئ المهم هنا، كأنه القانون، هو أن الجانبين الدولى والمحلى فى القضية يتناسبان تناسبا عكسيا. فكلما ضعفنا، ضعف الجانب المحلى وزاد عنصر الدولية فى القضية، وكلما زاد هذا الأخير فقدنا حرية الحركة وخرج زمام الأمر والمصير من أيدينا حتى ليمكن فى حده الأقصى أن يفرض علينا الحل من الخارج. وعلى هذا فان مستقبل الصراع كله يتوقف فى النهاية على تغليب هذا الجانب أو ذاك على الآخر.

وبالتالى فان كل شئ يتوقف فى نهاية النهاية على مدى قوتنا أو ضعفنا، فهذا هو العامل المحدد. فالملاحظ مثلا أننا فى مراحل قوتنا نسبيا نريد القضية محلية ولا نريد تدخل العالم، بينما فى مراحل ضعفنا، كما كان الحال بعد هزيمة يونيو،.نريدها قضية دولية حماية لنا من مخططات العدو الاسرائيلى الذى يحاول تثبيتا لأمره الواقع واستغلالا لنصره أن ينفرد بنا وبمصير الصراع وأن يقنع العالم أن القضية مجرد صراع محلى وليست قضية دولية تهدد السلام والأمن العالمى وأنه قد فرض الحل المحلى بنجاح ولا مبرر لحل أو تدخل دولى .

والعدو الاسرائيلى، وهو عدو حياة وجد فرصة عمر فى غفلة من زمن كانت أطماعه بعد يونيو قد اتخذت خطا تصاعديا بانتظام لاشك فيه.لقد ظفر بنصر، أيا كانت اسبابه أو

ملابساته، يتعدى أعرض أحلامه هو نفسه وأكثرها وحشية، حتى لقد كان على استعداد فيما يبدو بعد ذهول المعركة مباشرة لأن يقبل الحد الأدنى أو الأوسط من المكاسب، كالأمن مثلا مقابل الأرض، أى الاعتراف مقابل الانسحاب.

ولكن مع ترسخ الاحتلال، تورمت نفسيته ومعها أطماعه وغروره وأصبح يطلب الأمن والأرض معا، كل شئ - يعنى - مقابل لاشئ وبتعبير مباشر: أصبح يطلب الاستسلام الكامل علنا، وبغير قيد أو شرط تقريبا - «المفاوضات المباشرة» التى كان يطالب بها لم تكن الا غطاء مقنعا أو مقنعا لتوقيع صك الاستسلام. ولن نقتبس هنا أيا من تصريحات زعماء العدو، اذ لاحصر لها كما لاحاجة لنا بها. المهم أنه بدأ يضع موضع التنفيذ كل مشاريعه وخططه الاستيطانية لتحويل الأمر الواقع الجديد إلى حقيقة جغرافية وسياسية أبدية.

وفى الاتجاه التصاعدى (أم هو التنازلى؟) نفسه، جاء الخط البيانى لتحرك الولايات المتحدة السياسى. فبعد أن «مررت» قرار الأمم المتحدة بشأن التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، ركزت استراتيجيتها الدولية على تمزيقه وتعويقه حتى أصبحت فى النهاية تتجاهله تماما وتحاول ارغام العرب على التنازل الواقعى عنه والبدء من لا شئ، أى من حقيقة الأمر الواقع وثقل الهزيمة فقط. وبالمثل فعلت بمهمة يارنج حتى أصيبت بالشلل الزاحف فالنصفى فالكلى. وبالمثل أيضا جرت المناقصة السياسية على مبادرة روجرز: من «صفقة» حل شامل package deal، إلى حلول منفصلة منفردة، إلى حل جزئى، إلى حل ميكروسكوبىَ تقلص بل تقزم إلى عملية فتح القناة وبقاء كل شئ كما هو تقريبا!

من هنا تعثر الحل السلمى، الحل السياسى كما يوصف، بالسكتة القلبية مات، والأصح أن تقول ولد ميتا ولم يكن اعلاننا فى مرحلة ما أن «القتال هو قرارنا» الا تصريحا بالدفن. أما لقاء القمة فى موسكو بين نيكسون والزعماء السوفيت فلم يزد بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط عن «جلاسبره روسيه»، اتفق فيها الطرفان على انهما اختلفا أو على ألا يختلفا. وكل قيمته الحقيقية أنه قطع على أعلى مستوى كل شك باليقين فى صحة تصريح الدفن. والشئ نفسه يقال عن لقاء القمة الثانى فى واشنطون.

وعند هذا الحد، وبعد أن طاردت الولايات المتحدة دور الأمم المتحدة فى حل الأزمة حتى طردته، ثم دور الأربعة الكبار من بعده، ثم لم تنجح مع ذلك كله فى «أمركة» القضية

نهائيا، فان الخطر الذى بات يتهددها كان هو الوقوع فى مأزق الاستقطاب الثنائى لتصبح جزءا صغيرا وجزءا لا يتجزأ من لعبة الصراع الثنائى stalemat الذى اتجه عالميا إلى التعايش السلمى والتعاون السلمى على أساس من «الحالة الراهنة» والحلول السلمية والوسطى، التى قد لا تعنى فى حالة الشرق الأوسط إلا «الأمر الواقع».

واذا كان خطر أمركة القضية هو ضياعها فى النهاية، فقد كان الخطر فى حالة الاستقطاب الثنائى هو تجميدها، وضعها فى «التجميد أو التبريد العميق»، «على الرف» أو «تحت البساط» كما تعددت الأوصاف والتوصيفات وقتئذ. ولعل هذا هو بالتقريب ما كانت تمثله مرحلة اللاحرب واللاسلم التى سادت إلى ما قبل أكتوبر. وكما أن احدا فى العالم باستثناء العرب أنفسهم لا يريد ذهاب اسرائيل كدولة، فلم يكن فى العالم قبل أكتوبر باستثنائهم أيضا من يريد أو يجد مصلحة فى وضع نهاية لذلك الوضع المريح والملائم للجميع..

واذا كان لنا أن نلخص الموقف كله فى تلك المرحلة، فيمكن أن نضعه كالآتى. قضية الصراع العربى - الاسرائيلى، أو أزمة الشرق الأوسط كما تسمى تجاوزا أو تبسيطا، متعددة الأطراف والمستويات والأبعاد بطبيعتها، لكن يتجاذبها أساسا فى علاقة عكسية، رهيفة ولكنها رهيبة، محوران أو قطبان متنافران: الطرف المحلى والطرف الدولى. وبين قوتى الشد والجذب هاتين، فانها ظلت أزمة عالقة ومشكلة معلقة، وتتذبذب متأرجحة بين حالة من التميع وأخرى من الرهو الممض، لم تكن تمثلها كما مثلتها مرحلة اللاحرب واللاسلم. وتلك المرحلة بدورها لم تكن تعنى مثلما كانت تعنى تحويلها من قضية حية ملتهبة ومتفجرة فى قلب حلبة الصراع العالمى وفى عين اعصار السياسة الدولية، إلى مجرد مشكلة هامشية روتينية، راكدة راقدة، موضوعة «فى النفتالين» ومودعة فى ارشيف الدبلوماسية الدولية الرتيب.

ولأسباب معقدة جدا، أكبر بكثير وأقوى بكثير جدا من أبعاد القضية المحلية لأنها تتعلق بهيكل النظام العالمى برمته، الفوقى والتحتى، فقد كاد الحل الدولى يكون إما فاقداً وإما مفقوداً، إما لا حساب له واما على حسابنا . وفى النتيجة، وفى الظروف، فلم يكن ليفض ذلك الوضع المعلق الا الحل المحلى. من هنا فقط، من أرض المعركة، من المعركة المحلية، كان يمكن للامل أن ينبثق. لقد كان مصيرنا «معلقا»، ولكنه - للغرابة والدهشة! - كان «معلقا» بارادتنا..

العرب ، اسرائيل، والوفاق

اسرائيل هى آخر دولة خلقها الاستعمار القديم، وبعده عاشت فى حماية الاستعمار الجديد، لكنها أيضا أول دولة خلقت فى العصر النووى. هى اذن بنت ونبت الحرب الباردة منذ نهاية الحرب الثانية، بل لقد ولدت فى أوج القوة الأمريكية وذروتها حين كانت هذه تنفرد بالقنبلة النووية ومن ثم بالسيطرة العالمية شبه المطلقة. ومنذ ولدت اسرائيل على يد الاستعمار القديم إلى أن انتقلت مسئولية بقائها إلى الاستعمار الجديد وهى تعيش تحت ظل الحماية والرعاية الأمريكية، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تفره وتسمن على التناقضات والصراع بين المعسكرين وبين العملاقين. فقد أفادت اسرائيل افادة كبرى من مناخ الحرب الباردة وفى ظل الاستقطاب الثنائى وبفضل الشلل النووى، وذلك فى ضمان أمنها وفى تأمين بل وتعاظم قوتها. وتلك بالدقة كانت المشكلة الأسية والأساسية أمام العرب.

ولقد كان أمل اسرائيل أن تكسب أيضا، بل أن تكسب أكثر، فى ظل الوفاق الأخير بين الدولتين الأعظم. ولاشك أن الوفاق هو أهم وأخطر المتغيرات الدولية التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية، وضع نهاية للحرب الباردة، وبدأ حالة من الاسترخاء العسكرى والسلام السياسى بين الكتل، فغير المناخ السياسى الدولى، وفوق ذلك أحدث سلسلة كاملة من المتغيرات المترتبة تمثلت فى مجموعة من الوفاقات والتقاربات الأصغر بين أجزاء كثيرة من العالم.

ولقد تعرض الوفاق لكثير من التشكيك والحملات، سواء عن حق أو غير ذلك، وتساءل البعض، سواء عن حسن نية أو عن نية مغرضة، عما اذا لم يكن يتعارض مع أهداف ومصالح حركة التحرير الوطنية فى صراعها مع الامبريالية والاستعمار فى العالم عامة والعالم الثالث خاصة والعالم العربى بالأخص. وبعيدا تماما عن الاتهام غير الصحيح قطعا بأن الوفاق كان يعنى (التخلى) الجزئى من جانب الاتحاد السوفيتى عن حركات التحرير الوطنية فضلا عن الاتهام ، الظالم والخاطئ كلية «بالتواطؤ» مع الامبريالية الأمريكية، فالأرجح عند البعض أنه ألقى ظلالا معينة على امكانيات الصراع ضد الامبريالية والاستعمار، وربما وضع كذلك حدودا لها.

من المحقق أن الوفاق لا يعنى توقف الصراع بين القطبين أو الكتلتين، وانما هو قد قدم شكلا جديدا محكوما ومضبوطا من الصراع السلمى يتحاشى أساسا أن يصل إلى

حد الصدام أو المواجهة النووية التى تهدد سلام العالم أجمع. غير أن هذا بالدقة فتح الباب للولايات المتحدة لكى تمارس سياسة الابتزاز النووى ضد القوى الوطنية والتحررية فى العالم.

وبالنسبة للعالم العربى، فقد كان معنى هذا أن تنطلق اسرائيل بلا رادع لتطبق سياستها فى ابتلاع الأراضى العربية المحتلة منذ يونيو وتفرض سلام الأمر الواقع وسلام القوة.

وقد كانت قضية التسليح هى مدار الخلاف بين سياسة الوفاق وسياسة التحرير فى المنطقة. فبينما صعدت أمريكا سياسة تسليح اسرائيل حتى الأسنان بكميات لا حد لها وبنوعيات متطورة إلى أقصى حد، التزم الاتحاد السوفيتى فى تسليح الدول العربية بحدود معينة. ورغم أن مصر توجهت إلى الاتحاد السوفيتى بحديث خاص على لسان رئيسها «اننى انبه الأصدقاء السوفيت إلى أن محاولات الحل السلمى بغير القوة وهم وخداع، وأن استمرار وقف اطلاق النار لا يخدم فى النهاية الا اسرائيل وحليفتها امريكا»، فقد تحفظ الاتحاد أكثر من مرة على طلبات السلاح المصرية كما وكيفا وتوقيتا.

وبهذا استغلت أمريكا الوفاق لفرض الابقاء على الوضع الراهن فى المنطقة من خلال ما تسميه سياسة المحافظة على التوازن العسكرى فى المنطقة.وبدا، على الأقل على السطح، أن الوفاق بقدر ما أفاد اسرائيل عسكريا وسياسيا وزاد من تلاحمها وتقاربها مع أمريكا، قد ضاعف من صعوبات العرب التحريرية وألقى عليهم مزيدا من الأعباء النضالية، مثلما باعد بينهم وبين أصدقائهم الكبار إلى حد أو آخر. وبقدر ما خرجت اسرائيل وهى أكبر المنتفعين بالوفاق فى العالم، بدا العرب لحين وهم نسبيا الأخسرون منه فى العالم.

ولما كانت أزمة الشرق الأوسط هى كبرى ازمات العالم المستعصية والمتبقية وأشدها خطرا وتفجرا، فقد بدا للبعض أن حالة اللاحرب واللاسلم المفروضة عليها كانت تتفق تماما مع الوفاق، كما بدا هذا الأخير للبعض وفاقا على بقاء وأمن اسرائيل بالتحديد أساسا وفى الدرجة الأولى. والواقع كما أوضح الرئيس السادات فيما بعد «أن أمريكا تضمن أمن اسرائيل، وأن روسيا أيضا تضمن أمن أسرائيل،. وأن المجتمع الدولى كله حين لا يذهب إلى أبعد من قرار مجلس الأمن يضمن أيضا أمن اسرائيل».

كذلك فقد أشاع الوفاق الدولى، شأن كل مرحلة انتقال، حالة من الفوضى المربكة والاضطراب المقلق فى العلاقات الدولية المستقرة. فلبعض الوقت كانت التشكيلات السياسية والتوازنات والمحاور والاستقطابات الدولية قد اهتزت واضطربت وتداخلت كرد فعل للوفاق الأعظم. وبالتالى تغيرت كثير من المفاهيم التى كانت مستقرة وتعرض بعضها، عدم الانحياز مثلا، للتساؤل واعادة التقدير والتقييم أو التقويم. وبالنسبة للقضية العربية، فلقد كانت النتيجة الصافية هى قدر أو آخر من التميع والغموض فى مواقف الدول المختلفة من الصراع.

وفيما عدا هذا، فلقد خلق الوفاق روحا عامة من الاتجاه إلى التسويات وحل المشاكل بالتنازلات. وفى هذا المناخ وجدت حالة اللاحرب واللاسلم المخيمة على الشرق الأوسط بيئة ملائمة للتجمد وحده وغير ملائمة للتسخين على الإطلاق. ورغم تحول قطاع كبير مهم من الرأى العام العالمى إلى جانب الحق العربى بفضل الجهود الدبلوماسية والاعلامية التى بذلتها التحركات السياسية العربية المتتابعة بلا كلل، فقد بات واضحا أن أحدا لايريد الحرب عامة، حتى للتحرير الوطنى أو كانت حربا عادلة مشروعة. لا أحد يريد للعرب أن يحاربوا ليستردوا أرضهم، باختصار لا أحد يريدنا أن نحارب، الأصدقاء كالأعداء. الكل ينصح بالحل السياسى، والحل السياسى - الكل يعلم - ليس بمستطاع. والحقيقة أنه كما كان هناك استهتار اسرائيلى باد بنا وبقوتنا عسكريا، كان هناك إلى حد ما استهتار عالمى بحقنا سياسيا.

وفى وجه هذه المتغيرات الجديدة، كان الحل المنطقى هو اعادة تأكيد البعد المحلى للقضية بالنسبة للبعد الدولى، وذلك «باستراتيجية الاقتطاع» التى تقتطع القضية بقدر الامكان من دائرة الاستقطاب الثنائى. وهذا لايكون إلا «بالحل المحلى» الذى يعيد الحياة والحرارة إلى جبهة القتال. ولايعنى الاقتطاع هنا المقاطعة أو الانسلاخ أو الانعزالية عن العالم وقواه وضوابطه، فهذا مستحيل كما هو ضار، ولكنه يعنى التنسيق الدقيق الوثيق مع أصدقائنا الكبار على نحو ما فعلت الهند مثلا فى صراعها الناجح الأخير.

وعلى هذا الأساس لم يكن سوى «القوة الذاتية» العربية متغيرا مضادا تشرعه الدول العربية فى وجه المتغيرات الدولية، بمعنى الانتقال من الاعتماد على توازن القوى إلى الاعتماد على القوة الذاتية أساسا. إنها «الثابت» الحقيقى الوحيد فى التحليل الأخير

وعلى المدى الطويل وفى وسط كل المتـغـيـرات الكامنة أو الكائنة أو الممكنـــة. هى «الجيروسكوب» الوحيد المضمون لســفينة العرب فى بحر المتغيرات المتلاطم والبوصلة التى لا تضل ولاتضلل فى عصر الوفاق الضبابى الباهت.

وخامات القوة الذاتية العربية المباشرة فى المعركة أكبر وأوفر مما نظن وأشهر من أن تكرر: القوة البشرية (خاصة المصرية) كسلاح ووقود عسكرى معوض عن أى نقص تكنولوجى، البترول (خاصة فى المشرق) كسلاح سياسى قاطع فى عصر أزمة الطاقة، الأرصدة العربية (خاصة البترولية) فى عصر أزمة النقد الدولية. غير أن الارادة والوحدة، الارادة العربية الموحدة باختصار، هى وحدها الروح التى يمكن أن تمنح الحياة والحركة لهذه المادة الخام.

واذا كان الحل العسكرى وحده لايكفى نظرا للحقد الأمريكى الضارى الذى يتحول إلى حقن لاسرائيل لا حد له بالسلاح المتفوق، وكان الجهد المصرى وحده لايكفى لجسامة الموقف وتعقده، فان «الحل الذاتى» المثالى هو ذلك الذى يجمع فى اقتدار وتناغم بين الحلين العسكرى والسياسى: الأول ضد اسرائيل أساسا، والثانى ضد أمريكا أساسا، الأول بيد وسلاح مصر أساسا، والثانى بيد وبترول العرب أساسا. ان التحرير ان يكون «عبء الرجل المصرى» فى الدرجة الأولى وبالمعنى الميدانى المباشر، فانه أيضا «عبء الرجل العربى» بدرجة لاتقل خطرا وفاعلية وان كانت بمعنى أقل مباشرة. وهذا ما ينقل البؤرة فورا إلى وحدة العمل العربى.

ومن هنا كان «الوفاق العربى» هو الرد المنطقى والحتمى على «الوفاق الدولى». فلقد أثبتت سنوات ما بعد يونيو أن الخطر الاسرائيلى مسلط على العرب جميعا بلا استثناء، وأن العداء الأمريكى موجه للعرب جملة وتفصيلا. أنهم جميعا مهددون فى حاضرهم أو مستقبلهم. انهم جميعا شاءوا أو أبوا فى «مركب» واحدة، والعالم بالفعل ينظر اليهم كشئ واحد ويضعهم فى «سلة» واحدة. والحقيقة أنهم بغير الوحدة يمكن أن يكونوا فى عصر الوفاق أضيع منهم فى أى وقت مضى، ولا نقول أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. والوحدة وحدها هى العاصم والضمان وصمام الأمن والأمان.

والوحدة التى نقصد هنا ليست بالضرورة الوحدة الدستورية، فهذه عمل وقت السلم أكثر منها عمل وقت الحرب، المقصود الآن هو وحدة العمل التحريرى، وحدة الحرب، وحدة الجبهة والمجابهة ووحدة الموقف السياسى والعسكرى.

وهناك عوامل وقضايا عديدة وشائكة باعدت بين العرب وقسمتهم فى وقت ما إلى جبهات صراع مرير ومحاور استقطاب حاد. ومن المسلم به أن من أبرز تلك القضايا الجدل الايديولوجى والصراع المذهبى. وتلك كانت «الحرب الباردة» بين العرب. وكما قسمت الحرب الباردة الشرق والغرب إلى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى، فقد انقسم العالم العربى أيضا إلى معسكرين مماثلين.

وسواء كانت الحرب الباردة العربية انعكاسا محليا بدرجة أو بأخرى للحرب الباردة الكبرى أو لم تكن، وسواء صح ما يقال أحيانا من أن هذه الأخيرة انتهت كنتيجة لتغلب التكنولوجيا على الايديولوجية ، أو المصالح على المبادىء ، أو الاستهلاك على التسلح ، وسواء صح كذلك أو لم يصح ما ردده الغرب عن «نهاية الايديولوجية» وانتهاء عصرها أو عن التطورات الداخلية فى بنيات المذاهب الايديولوجية جميعا ، فالمحقق أن الوفاق الأعظم وضع نهاية مؤقتة للجدل المذهبى أو هو على الأقل قد خفف من حدته ووضعه فى الظل .

لهذا فلم يكن من المستكثر – أليس كذلك ؟ – أن يؤجل العرب بصفة مؤقتة هذه القضية إلى أن يتم التحرير على الأقل . ذلك لا يعنى التراجع عن المثل التقدمية والمبدأ الاشتراكى قط ، بل وذلك دون المساومة على مبدأ المزيد من الاشتراكية فى المستقبل ، ولكن أيضا دون أن تضيع قضية التحرير فى غمار الجدل المذهبى ، والأرض والمصير بسبب قضية الفكر والعقائديات .

وإذا كان الوفاق الأعظم يمثل تقارب الأضداد ، الولايات والاتحاد يتقاربان ، وكذلك الولايات والصين ، وكانت الكتل الدولية تنوب بالتدريج فأوربا الغربية والشرقية تتقاربان ببطء بينما يتحرر أعضاؤهما بحذر من قبضة القطبين الأعظم ، اذ كان ذلك كذلك ، فلماذا لايتقارب العرب فى وجه العالم ومتغيراته دون تفريط بالضرورة فى المواقع والمواقف المبدئية الأساسية ؟

لاسيما أن القطبين الأعظم قد أخذا ، أيضا ، يتباعدان عن أصدقائهما من العرب بقدر ماتقاربا من بضعهما البعض ، ففى فترة المساجلات والمساومات البترولية التى «سبقت حرب أكتوبر ، كان من الواضح مثلا أن أمريكا ابتعدت عن السعودية بمقدار ما ابتعد الاتحاد السوفييتى عن مصر منذ سحب الخبراء العسكريين ومشاكل التسليح ..

الخ . وكان من حسن الحظ أنه بالقدر نفسه تقاربت مصر والسعودية من الجهة الأخرى . وذلك هو النمط الذى أخذ يسود العلاقات العربية عامة بعد الوفاق الدولى بالتدرج . فاذا كان الاستقطاب الثنائى القديم بين الكتلتين قد شجع على تعرض العرب لحركة طاردة مركزية ، فقد وجب الآن - هكذا شعر العرب - أن يخضعهم الوفاق الثنائى لحركة جاذبة مركزية . كان المطلوب - يعنى - وفاق عربى ، ليس بأى شكل مضاد للوفاق الدولى فى ذاته ، ولكن كمصل مضاد لأعراضه وأمراضه . المطلوب ببساطة تجميد الخلافات العربية حتى يتم التحرير .

ولقد كان هذا بالفعل يتفق مع أولويات شعارنا القائد: حرية ، وحدة ، اشتراكية . فرغم أن هذه الثلاثية تؤلف مثلثا متساوى الاضلاع، بمعنى أن لكل بعد من أبعاده قيمة متكافئة ، فان المتغيرات الدولية الزلقة كانت تفرض علينا أن نضغط على الحرية - وهى هنا لاتعنى إلا حرية الأرض ، أى التحرير ، أى الأرض المحتلة وفلسطين - كهدفنا الأول والأعظم . ورغم أن قوميا عربيا واحدا ليس على استعداد لأن يعقد موازنة أو يجرى اختيارا بين الحرية والوحدة ، فكلتاهما أمل شاهق وعزيز ، فلا شك مع ذلك أن التحرير يأتى أولا ، قبل التوحيد وقبل المذهب . وتلك كانت الصيغة العملية التى قام عليها الوفاق العربى الجديد ، ومنها تقدم إلى المعركة فى أكتوبر .

أكتوبر آخر وأخطر المتغيرات

عند أول طلقة يوم السادس من أكتوبر اهتزت الأرضية السياسية العالمية ، تلك الأرضية الصعبة الوعرة غير المواتية للقضية العربية ، اهتزازا عنيفا ، وتغيرت تضاريسها ومعالمها كما لو أصابها زلزال . كذلك لم يلبث المناخ الدولى «الانقلابى» الملبد أن انقلب الى طقس «اعتدالى» موات . وكان «أروع مافى حرب رمضان هو قرار الحرب نفسه . كان قرارا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا » كما قال ياسر عرفات بحق وبلاغة معا . أو كما وضح الرئيس السادات نفسه بعد ذلك «كان قراراً القتال مصريا ١٠٠٪ وبإرادة حرة ١٠٠٪ .. كان قرارنا بأن نواجه قدرنا بأنفسنا قرار مصريا - سوريا خالصا» مثلما كان نصرنا فيما بعد «نصرا عربيا بكل الوضوح اللازم» . ويمكن على هذا الأساس أن نحدد ثلاث نتائج مباشرة للمعركة العسكرية فى مجال المعركة السياسية : أنها فرضت القضية على العالم فرضا ، حددت اتجاه الرأى العام العالمى ، وفرضت على دول العالم تحديد مواقفها من الصراع بوضوح ، ولنحلل هذه النتائج تباعا بشىء من التفصيل .

المعركة تفرض القضية

كانت أسرع نتيجة للمعركة أنها فرضت نفسها على العالم كله فرضا ، رفعت درجة حرارة القضية من نقطة الصفر وخط التجمد وبرودة الصقيع الى سخونة النار الملتهبة ، ونقلتها من زاويا النسيان وهوامش اللا مبـالاة فوضعتها فى قلب العالم وعلى رأسه . وبعد أن كان العالم قد اقتنع بأن أزمة الشرق الأوسط قد «استنقعت» ولم يعد للعرب إلا الاستسلام ، «وضعت حرب اكتوبر كل العواصم فى العالم فى حالة تعبئة عامة ، شعـر كل فرد فجـأة ، سـواء كان فى باريس أو فى ألاسكا، فى طـوكيو أو نيـروبى ، بأنه مستهدف ، وهذا يعنى أن دور المتفرجين قد انتهى» ، كما كتبت ـ ولو من موقف العداء ـ فرانسواز جيرو .

وبعد أن كانت الدول العربية تسعى عبثا وراء الرأى العام العالمى وتخطب ود الدول الكبرى وتستثير نفوذها ومساعيها الحميدة فى الأمم المتحدة وخارجها ، أصبح الكل هم الذين يسعون وراء الدول العربية ويخطبون صداقتها . وبعد أن كنا نكافح بلا جدوى فى سبيل تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وفى سبيل تفسير نصوصه وصيغه الملتوية، فرضت المعركة على الجميع وعلى رأسهم أمريكا الاعتراف بالقرار وتاكيده وتصحيح تفسير نصوصه .

لقد أثبتت المعركة للعالم أنه لايستطيع أن يتجاهل القضية ، وفرضت عليه الالتزام بمسئوليته الدولية عن المساهمة فى حلها ، بل وفرضت عليه الاعتراف بالشعب الفلسطينى ووجوده وحقوقه ووضعته وجها لوجه أمام هذه المسئولية بصورة جادة كما هى قاطعة ، وإذا كانت المعركة قد أثبتت بذلك صحة المبدأ الجوهرى الذى لم يغب لحظة عن العقيدة العربية وهو أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة» فقد كان من النتائج الهامشية بل الأساسية للمعركة أنها أعادت للشرعية الدولية معناها واحترامها بعد أن ضيعتها مرحلة اللاحرب واللاسلم ، وللأمم المتحدة وجودها الذى عبثت به اسرائيل وكادت تقضى عليه عمليا رغم أنها هى الدولة الوحيدة التى تدين لها بوجودها .

ومن المثير أن نلاحظ هنا مفارقة غريبة حقا ولكنها مفهومة جدا مع ذلك . لقد رأينا أن القضية صراع وعملية شد وجذب بين البعدين المحلى والعالمى . فور ابتداء المعركة وأثناءها أصبح البـعـد المحلى هو السـائد والمسـيطر ، اذ بات الحسم يتم على أرض

الصراع مباشرة ، بينما تراجع البعد العالمى الى حده الأدنى .. ومع ذلك لم تكن القضية عالمية ، بمعنى الاهتمام العالمى بها ، أكثر منها منذ تلك اللحظة . لكنما هى طبيعة الاشياء وحقيقة السياسة الدولية . فالعالم لا يحترم الا الأقوياء ولايعرف الا القوة ولا يعترف إلا بالأمر الواقع .

والواقع ان استراتيجية الحل السلمى التى تبنيناها بعد هزيمة يونيو كانت استمرارا بطريقة أخرى لاستراتيجيتنا ازاء استشراء وتوسع الخطر الصهيونى فى العالم وخاصة فى العالم الثالث كالقارة الأفريقية واللاتينية. فلقد كانت تلك الاستراتيجية تقوم على محاصرة أطراف الاخطبوط لا ضرب الرأس .. وقطع الاطراف ، على ضرورته ، لا يقتل الرأس ، بل لقد كانت الاطراف دائما تنمو ، كما فى أفريقيا ، من جديد، حيث كان العدو يواجهنا بحصـــار مضـاد . أما الاستراتيجية الفعالة فهى : اضرب الرأس ، تمت الاطراف ، اضرب النار ، تمت المحاولات العاجزة والشوهاء ، ابدأ المعركة العسكرية بنجاح ، تصحح المعركة السياسية نفسها بنفسها . وهذا بالدقة وماحققته اكتوبر من أول طلقة .

المعركة تحدد الرأى العالمى

انعكس تأثير المعركة مباشرة وبلا فاصل زمنى أو ساتر اصطناعى على الرأى العام العالمى ، وخلاصة التفاعل بين المعركة والرأى العام العالمى هى أنها باختصار كسبته بقدر ماكشفته ، وبلورته بقدر ماشكلته، كشفته ، لأنه كان الى حد معين علامة استفهام معلقة ، فتحيز الرأى العالمى الى جانب اسرائيل ، ذلك الذى وصل الى درجة هستيرية محمومة بل مجنونة حقا خلال حرب يونيو ، لم يكن مستبعدا تماما عند تفجر المعركة رغم التحولات المهمة والخطيرة التى حدثت مابين الحربين. فبعيدا تماما عن أن تكرر التجــربة الظـــالمة نفسهـا ، كان هناك كثير من النار تحت الرماد لم يزل . ولاشك أن اسرائيل كانت قد فقدت جزءا كبيــرا من تعاطف العالم الـــقديم معها ، وفقدت معه قطاعا أكبر من الرأى العالمى ، وتغيرت النظرة العامة كثيرا الى الحق العربى ومال الميزان العاطفى الى كفتهم بدرجة كبيرة ، ولكن ظل السؤال الأساسى هو : أجذرى landslide هو أم جـزئى هذا التحول؟ أهى عزلة دائمة أم مؤقتة ؟

كذلك فلا جدال أن الدول العربية أجادت بعد مرارة التجربة القديمة فن مخاطبة الجماهير العالمية وأحسنت إدارة تحركاتها السياسية مع الدول الأجنبية بحيث غيرت الكثير من المواقف والمفاهيم ، ومن المحتمل هنا أن الدول العربية أفادت قبل المعركة من تجربة الهند الناجحة فى حربها الأخيرة مع الباكستان حيث لجأت الى سياسة حملة السلام الدبلوماسية والاتصالات الهادئة مع دول العالم دون الحديث عن الحرب أو التلويح بها ، وفى الوقت نفسه وضعت الخصم فى موقف يحتم عليه هو التهديد وحديث الحرب غير الأثير لدى الرأى العالمى . وهكذا بالفعل صنعت الدول العربية ، حتى أحكمت عزلة اسرائيل فى العالم وعن الرأى العام الى حد غير مألوف .

ومع ذلك كله فقد كشفت المعركة عن عدة حقائق دالة . أولا ، حدوث نوع من «الردة» بقدر معلوم فى الرأى العام العالمى فور أنباء المعركة ، لاسيما أيام الانتصارات العربية الباهرة والكاسحة فى البداية . ولقد عكست الصحافة العالمية بلا مواربة كثيرا من الترقب وأكثر منه من القلق على اسرائيل فى تلك المرحلة ، كما عكسته الاستفتاءات العامة التى أظهرت انحيازا غالبا لإسرائيل وإن لم يكن على مثل درجته المحمومة أيام يونيو . بل لقد عسكته أيضا مواقف وتصرحيات بعض الحكومات الغربية التى ظلت محايدة نسبيا ، اذ سرعان ماكشرت فجأة عن أنيابها ولم تخفها إلا بعد أن اطمأنت فى النهاية على «بقاء ووجود» اسرائيل . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على وجود نواة صلبة دفينة من المتعصبين للعدو ، تمثل فى الواقع أحقادا دفينة - تاريخية ربما ؟ - لا سبيل الى اقتلاعها فى يوم وليلة فضلا عن تجاهلها أو التقليل من شأنها . والحقيقة أن العالم مازال بعضه يفكر ويتصرف عنصريا بوعى أو دون وعى، تحت الجلد أو فوق السطح .

ثانيا ، كشفت المعركة عن نوع من الازدواجية والانفصام فى الرأى العام فى دول العالم المختلفة مابين الحكومات ومابين الشعوب ، ففى أوربا بينما اتخذت بعض الحكومات الغربية مواقف محايدة أو شبه محايدة بدرجات متفاوتة من التحفظ أو الحذر ازاء الصراع المسلح فى الشرق الأوسط ، اخذت شعوبها كما أوضحت استفتاءات الرأى الجماهيرية درجات أكبر وأعنف من الميل الى العدو الاسرائيلى ، ويرجع هذا فى جزء منه الى أن الحكومات كأجهزة مسئولة ، أكثر ارتباطا بالمصالح وحساسية لها ،

بينما أن الشعوب أكثر ارتباطا بالعواطف وتعكس المشاعر والكوامن التلقائية بحرية أكثر غير أنه يرجع أيضا الى حرص الحكومات على أن تمسك العصا من الوسط .

وإذا كان هذا هو الوضع العام فى دول أوربا الغربية ، فقد يكون العكس صحيحا بدرجة أو بأخرى بالنسبة للدول الأفريقية . فرغم التقاربات المهمة والخطوات المتقدمة التى حققتها العلاقات العربية ـ الأفريقية بشأن صراع الشرق الأوسط عبر سنوات ماقبل المعركة ، فلقد كان لبعض الحكومات الأفريقية قدر من التحفظ والحذر والتردد فى حين كانت شعوبها نسبيا أكثر تعاطفا وتدفقا مع الحق العربى . لقد كانت الشعوب بعامة أقرب ميلا من حكوماتها الى القضية فى حالة أفريقيا ، بينما كانت الحكومات بعامة أقرب من شعوبها فى حالة أوربا .

المعركة تحدد مواقف الدول

أيا كانت اختلافات الميول الداخلية أو حدود المواقف الخارجية فى مجال الرأى العام العالمى ، فقد جاءت المعركة لتفرض على الجميع أن يقترب من الموقع العربى قدر ما أرغمته على الابتعاد عن موقع العدو الإسرائيلى . ثم جاء إعمال سلاح البترول ليؤكد هذا الاتجاه ويدعمه . وبذلك ازدادت التحولات الكمية فى موقف الرأى العام العالمى ، ثم تطورت التحولات الكمية الى تحولات كيفية لصالح العرب. ويمكن أن يقال إن المحصلة الصافية لمعركة الرأى العام هى كسب العرب لها على الجملة وبالقدر نفسه اكتمال واحكام عزلة اسرائيل . ذلك يصدق على أوربا الغربية كما يصدق على أفريقيا ، وعلى دول عدم الانحياز كما على العالم الثالث .

واذا كان لهذا التحول من معنى ، فهو أن معركة الرأى العام العالمى هى جزء من المعركة السياسية التى سبقت المعركة العسكرية ولحقتها . وكجزء من المعركة السياسية ، فانها تخرج فى التحليل الأخير وهى مثلها صراع قوة ، تحكمها مثلها حقائق القوة وحدها وأساسا . أنها معركة ضغوط متبادلة ومصالح مشرعة. واذا كان لهذا الموقف بدوره من درس عام يعلمه ، فهذا الدرس هو أن الرأى العام بطبيعته هلامى حول قلب ، لا ضمان له ، ونكاد نضيف : ولاضمير أيضا . فهو ـ كرأس المال ـ جبان الى حد ما ، يتبع الأقوى غالبا ، ويخضع للأمر الواقع ربما أكثر مما يقاومه ، وهو لايقود السياسة

بقدر ما يتبع السياسة ، الرأى العام العالمى لايعترف فى نهاية الأمر الا بمن يفرض نفسه عليه ، بالأمر الواقع ، بالقوة ، بالنصر ، يضعه ازاءها فجأة ووجها لوجه . أنك لاتكسب المعركة العسكرية فى الميدان بالرأى العام العالمى ، ولكنك تكسبه اذا كسبتها ، وهذا بالدقة مافعلنا فى اكتوبر .

ثالثا ، كانت النتيجة النهائية للمعركة «أو الفورية ، أو الاثنتان معا اذا شئت ، سيان» هى أنها بعد أن صهرت التجمد جمدت التميع ، اذ فرضت على الجميع أن يحدد موقفه بغير هلامية أو مواربة أو التواء ، وبالأفعال والوقائع يثبتها لا الأقوال والكلمات المتعاطفة أوا لمتقاطعة أو المعسولة أو المخادعة ، فليس خافيا أن كثيرا من المواقف المتعاطفة قبل المعركة كان ادعاء «نصف قلبى» والبعض تحركات شفاه وألفاظ ألسنة ، فاتر وفطير ، بينما كان البعض الآخر مشبوها بادى الانتهازية على وجه اليقين . أولئك هم من سماهم بهاء الدين ببلاغة «أصدقاء العطف» قلوبهم «فى أعماقها .. ليست مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى انتصارنا ! وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربى» .

والحقيقة أن فترة اللاحرب واللاسلم كانت قد وضعتنا لبعض الوقت - أو هكذا توهم البعض - تحت تكرم ، ولانقول رحمة ، كل ذى شأن وكل غير ذى شأن فى العالم ، يتبرع مهما كان وزنه أو عجزه بالتدخل والحكمة واقتراح انصاف الحلول وأشباه الحلول ، يبدى الصداقة وهو ألد الخصام ، والاهتمام وهو يبحث فقط عن دور عالمى يلعبه أو هيبة دولية يكتسبها على حساب القضية وتحت ظل استراتيجية الحل السلمى.

المعركة ، بضربة واحدة ، نسخت هذا كله ، ألزمت كل واحد أن يكشف أوراقه ، وفرضت على الكل أن يحدد موقفه بصراحة . وكان المعنى المباشر لهذا هو عملية «فرز» تحدد بها العدو من الصديق وأعادت تشكيل المعادلات العالمية وتوازن القوى الدولية . ومن المسلم به، حتى من الأعداء ، أن العرب قد أداروا هذه العملية بذكاء واقتدار ، تعلموا من أخطاء الماضى واستفادوا من تجارب الآخرين واستلهموا حقائق العالم الجديدة ومتغيراته. قال دايان بعد المعركة : «لقد وضعوا - يقصد العرب - فى حسابهم أيضا المناخ الدولى والدور الذى يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفييتى ، وأهمية الوفاق بين الأمريكيين والسوفييت . لقد أدرك العرب متغيرات العالم فى عام ١٩٧٣ . ويمكننا نحن أيضا أن ندركها» .

عملية الفرز الناجحة تلك ، يمكن القول بصيغة شاملة أن نتيجتها ، بعد عزل الاعداء الأصلاء ، هى حركة تصعيد أو ترقية عامة Up - grading فى مواقع ومراتب الآخرين : الأعداء الثانويون حيدوا ، والمحايدون صادقوا والأصدقاء صدقوا ، المواقف البازغة نميت ، والنامية طورت ، والمتطورة تبلورت . فممن حيدوا بعض دول أوربا الغربية المذبذبة لاسيما منها الدول الصغيرة والتى كانت شديدة الولاء لإسرائيل ، وممن صادقوا الدول الأفريقية التى اكتمل عدم انحيازها وانتقلت بصورة نهائية وجماعية من معكسر العدو أو من الأرض المشتركة الى معسكر العرب . وممن صادقوا أيضا بدرجات متفاوتة بعض دول أوربا الغربية الكبيرة ، خاصة فرنسا وبريطانيا التى أظهرت فى أعين اسرائيل «جانب حياد يتاخم العداء» أما الذين صدقوا فدول المعسكر الاشتراكى وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتى الذى اثبتت صداقته منذ أول طلقة فى المعركة بعد اختبار صداقة شاقة استمر قبلها لسنوات . ولقد كانت لنا «وقفة مع الصديق» فحولتها المعركة على الفور الى وقفة للصديق معنا . هذا كله بطبيعة الحال عدا الدول الصديقة تقليديا كدول عدم الانحياز والعالم الإسلامى ، فضلا عن قوى التقدم فى العالم الثالث والعالم أجمع . وحتى أمريكا اللاتينية اتجهت أثناء الحرب صوب موقف محايد .

وعلى الجانب الآخر من التل ، انعزل تماما معسكر الأعداء الأصلاء والضالعين معهم من توابع المعسكر ، اسرائيل وأمريكا وحولهما بعض الدول الرجعية والعنصرية فى أوربا وأفريقيا مثل هولندا والبرتغال وجنوب أفريقيا وروديسيا . لقد تحققت نبوءة ديجول فى ١٩٦٨ من أن الاسرائيليين «اذا استمروا فى تعنتهم هذا ، ولم يكتسبوا فضيلتى التواضع والقناعة ، فسينفض الجميع من حولهم» لقد اكتملت عزلة اسرائيل ، تلك التى عبرت عنها جولدا مائير بقولها «من المؤلم والمحزن حقا أن تكون صغيرا ووحيدا فى الوقت نفسه» ولو أنها أيضا لم تنس أن تضيف فى صرخة هيستيرية «ويل للعالم اذا توقف عن دعم اسرائيل» وردد ايبـــان المعنى نفسه «إن مايؤلمنا فى الأوضاع الدولية الراهنة هو هذا التخلى الكامـــل عنا » مضيفا على الفور «إننا أمام ميونيخ جديدة» ولكن اســـرائيل لم يجدها شيئا توابع المعسكر ، بل عبرت عن ذلك بنفســـها حين كتب كاتب فيها يقول «منظر الأصـــدقاء أحيانا أكثر مدعاة للاسف من منظر الأعداء» .» .

أما ديان فقد صور هذا الوضع بقوله «سياسات الدول المختلفة فى العالم تجاه

المسائل المتعلقة بمنطقتنا قد تغيرت .. لقد خسرنا كثيرا فى الحرب ، فضلا عن أن أفريقيا وأوربا باعتنا اسرائيل بثمن بخس» «كذا» ثم فسر هذا بأن «العالم فى ١٩٧٣ أصبح ساحة شديدة التعقيد ، فيها دول عربية أقوى وأكثر طموحا ، وفيها أزمة للطاقة ، وفيها سياسة بترولية عربية أكثر نسبيا عن ذى قبل ، وتدخل مباشر من جانب القوى الكبرى ، كما فيها مستقبل الوفاق السوفييتى الأمريكى» وفى مناسبة أخرى كرر نفسه قائلا : «يوجد عرب كثيرون ، ولديهم وفرة من البترول، وهناك أصدقاء كثيرون للعرب ، وأصدقاء للبترول» «حقا ، أن العالم بعد أكتوبر» كما تقول ورقة أكتوبر ، «غير العالم قبله» !

وغنى عن الذكر كم.هاجمت اسرائيل والصهيونية أصدقاء العرب ونعتتهم بأفحش ألوان القذف والسباب ، فأوربا ، التى وقفت «كما لو كانت اسرائيل على كوكب آخر .. قد أظهرتها الأزمة على حقيقتها.. انتهازية .، ضد سامية ، ولامستقبل لها ، وأشبه بالمعادلة التى تقول أن ٩ فى صفر تساوى صفرا . وأى قيمة لأوربا اذا كانت ترتجف أمام شيوخ الخليج» .. الخ .. الخ .! أما افريقيا «فمرتشية ، ومواقفها عاهرة»! «التعبيرات كلها لوولتر لاكير» وبطبيعة الحال فان ذلك لم يغير من الواقع ، ولكن بذلك كله اكتملت معالم الخريطة السياسية للعالم أثناء المعركة ، غير أن هذه الخريطة الخطيرة تستحق وحدها وقفة خاصة، ولهذا فلتكن هى موضوع بحثنا التالى . وهناك أربعة مواقف أساسية يهمنا أن نحللها ونحدد علاقتها بالمعركة : الوفاق الدولى ، أوربا الغربية، أفريقيا المدارية ، وأخيرا وفى الجانب المضاد الولايات المتحدة .

الوفاق والمعركة

فأما الوفاق بين الدولتين الأعظم ، فرغم أنه سياسة عالمية تغطى العلاقات المتعارضة والمتعايشة بينهما على امتداد الكرة الأرضية جميعا، فان مشكلة الشرق الأوسط تحتل منها موقعا مركزيا ، بؤريا ، محوريا، نظرا لخطورتها القصوى بما تمثل من مصالح حيوية للقطبين وبما تحمل من أخطار الصدام المباشر بينهما ، والحقيقة أننا اذا استعرضنا المشاكل المأزومة فى العالم بين القطبين لوجدنا الشرق الأوسط فى الصدارة المطلقة ، فهو الآن الوحيد الذى يمكن أن يؤدى ـ كما صرح نيكسون مرارا ـ الى صدام نووى . فحتى غرب أوربا توصلت الى مرحلة التسوية والتهدئة والوفاق . إن هنا فقط آخر بقايا الاستقطاب الثنائى وآخر مخلفات الحرب الباردة .

وحتى بعد انتهاء الحرب بشهور ، وفى مناسبة الحديث عن السلام ، كرر الرئيس الأمريكى أن «الشرق الأوسط أهم من فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى كما أنه ينطوى على احتمالات حدوث مواجهة بين الدولتين الأعظم أكثر مما كان عليه الموقف فى فيتنام ، وليس يمكننا أن نخاطر بمواجهة بين الدولتين الأعظم فى تلك المنطقة ، إن الشرق الأوسط من المناطق الساخنة فى العالم ، ومن مصلحة أمريكا وروسيا أن تعملا من أجل تحقيق السلام هناك ، وان كانت مصالحهما لاتتوافق دائما» الشرق الأوسط هو الاقليم الذى بآخر تعبير لنيكسون «يمكن أن يصبح بلقان السبعينات بغير الدور الذى قامت به الولايات المتحدة » .

ومشكلة الوفاق أن أحد الطرفين ظل يمارس سياسة عدوانية استفزازية وهجومية داخله ، هى سياسة «الابتزاز النووى» لصالح حليفه فى المنطقة . فالسياسة الأمريكية العلنية والعنيدة كانت وتظل هى اغراق اسرائيل بالسلاح المتفوق والمتطور ، لا لتضمن به التوازن فى المنطقة كما كانت تزعم بخبث ساخر ، ولكن لتؤمن به التفوق الإسرائيل الدائم على العرب وتفرض الأمر الواقع فى المنطقة الى الأبد ، وهو احتلال الأراضى العربية . فاذا ما تقدم الاتحاد السوفييتى لامداد العرب بسلاح مكافىء كما وكيفا ، أو حتى مقارب ، هددته أمريكا ولوحت فى وجهه بالصدام النووى ، فأحجم أو تردد قليلا أو كثيرا .

وفى النتيجة فلقد فرضت أمريكا كأمر واقع تصعيدا مستمرا كاللولب الصاعد فى حجم الصراع وأخطاره ، لا المحلية فقط بل والعالمية أكثر . وبهذا أيضا أصبح الصراع المحلى فى الوقت نفسه محكوما ومضبوطا بسياسة الوفاق . غير أن درجة الضبط والتحكم هذه تختلف بالنسبة للعرب عنها بالنسبة لاسرائيل .. فبينما تعربد هذه تسليحيا فى المنطقة بلا حدود ولا رادع مثلما تعربد أمريكا وفاقيا ، يجد العرب يدهم مغلولة أكثر أو قل أقل حرية وقدرة . ومن هنا بدا للبعض فى حين ما سواء خطأ أو صوابا أن الوفاق قد قيد حرية العرب وقدرتهم على الحركة ، وأنهم لذلك «محاصرون» بالوفاق ، دون أن نذكر الرأى المتطرف الذى كان يضيف أنهم هم «ضحيته» الوحيدة.

ولم يكن ذلك كله صحيحا تماما بطبيعة الحال ، كما لم يكن بعيدا كل البعد عن الصحة كذلك . فقد كان الوفاق كأكبر المتغيرات الدولية منذ الحرب الثانية هو مجرد

صيغة جديدة ومنضبطة للصراع العالمى ، قد يستحيل اختراق حاجزه اختراقا تاما مطلقا ، ان لم يكن الشيء فلمجرد أنه مصدر التسليح الأساسى والوحيد تقريبا فى كل صراع محلى وبالأخص الصراع العربى - الإسرائيلى - ولكنه بالتأكيد لايمنع فضلا عن أن يلغى الارادات المحلية تماما ولا الحروب المحلية أيضا . هناك داخل حدود الدائرة الواسعة للوفاق الأعظم ، مجال كبير للحركة وللعمل المحلى يمكن «اقتطاعه» منه دائما . الاختراق ، بعبارة أخرى ، مستحيل ، ولكن الاقتطاع ممكن . والسياسة الناجحة هى تلك الأقدر على الاستفادة من الوفاق ، والفاشلة هى وحدها التى تبرر عجزها بقيوده البعيدة ، وهذا ما عبر عنه بايجاز وزير خارجية مصر حين قال «إن الوفاق الدولى كان يمكن أن يضر بنا لو قبلنا الأمر الواقع ، ولكننا تحركنا فى جميع المجالات» .

ولكن خير من شخص الموقف وعبر عنه هو بلا شك الرئيس السادات نفسه الذى وضح فى سلسلة من الأحاديث الصحفية والخطب السياسية كيف كان قرار المعركة معركة فى حد ذاته ، فاشارة لقاء القمة الأول بين دولتى الوفاق الى «الاسترخاء العسكرى» فى المنطقة أمر «كان يعنى حينئذ أن حالة اللا حرب واللا سلم التى سادت المنطقة والتى سببت لنا الكثير من المتاعب والمآزق .. والتى كانت كفيلة بأن تحقق لاسرائيل على المدى الطويل كل ما تريد دون أن تطلق طلقة واحدة .. يراد لها أن تستمر» وفى اللقاء الثانى سارت القوتان الأعظم خطوة أخرى فى الاتجاه نفسه ، وتأكد أن المشكلة يراد لها أن تتجمد من جديد «لأن الدولتين الأعظم كلتيهما كانتا تريدان تجميد الوضع برمته» فالبيان الذى صدر «يؤكد بما لايدع مجالا لأى شك أو لبس على تجميد القضية ، انتظارا لحل سلمى» .

وهكذا كان مغزى اللقاءين «من الاتفاق على عدم الصدام فى أى جزء من العالم لايعنى الا الاتفاق على عدم الصدام فى الشرق الأوسط، لأن كل ماعداه قد تم تصفيته وانتهى» هذا فضلا عن أن «العملاقين الكبيرين ، روسيا وأمريكا ، يحرصان على وجود اسرائيل ويتصرفان كل بطريقته للحفاظ على ذلك، فأمريكا تعطى التفوق الكامل لاسرائيل على العرب مجتمعين تحت اسم نظرية توازن القوى ، والسوفييت من جانبهم يضعون قيودا على مايقدمون للعرب من السلاح والتكنولوجيا التى هى مباحة من جانب أمريكا لإسرائيل بالكامل» .

وعلى هذا الأساس يمضى الرئيس ملخصا موقف العملاقين .. «كان الموقف الأمريكى يعتبر العرب ، مصر والعرب ، جثة هامدة .. وكان الاتحاد السوفييتى على اصراره أن نستبعد المعركة العسكرية تماما وأن ننتظر القضية حلا سلميا .. كان العملاقان يعتقدان أن دخول مصر الحرب انتحار» . من هنا «كان قرار القتال مصريا ١٠٠٪ وضد ارادة العملاقين، وبـارادة حرة ١٠٠٪» وجاءت الحرب مفاجأة كاملة للاصدقاء كما كانت للاعداء .

بل أكثر من هذا كشف الرئيس أن أمريكا كما حاولت أن تفرض على العرب وقف القتال منذ ساعاته الأولى والعودة الى الخطوط السابقة رغم انتصارهم ، ثم كررت المحاولة عدة مرات خلال الأيام الأولى مع الوقوف على الخطوط الجديدة ، فكذلك أبلغ الاتحاد السوفييتى مصر بعد ست ساعات من بدء القتال والنصر أن سوريا طلبت وقف اطلاق النار ، ولكن سوريا نفت ذلك بشدة ، وتكرر هذا أيضا عدة مرات . «وهنا لا نجد اسخف ولا أكذب من ادعاء الصهيونية - وولتر لاكير مثلا - من «أن الروسيا كانت متورطة فى الحرب وأعدت لها وعلمت بها» وأنها كانت قبيل المعركة تناقش مع العرب تفاصيل الاستعدادات الأخيرة للهجوم وو...الخ!» وبالمثل تسقط الى الأبد «نظرية التمثيلية» تلك التى شاعت حينا وأشاعت أن المعركة لم تتم الا بترتيب وكاتفاق بين القوتين الأعظم بل وبينهما وبين طرفى الصراع المحليين «!» .

هكذا لم يكن الوفاق يريد الحرب ، وحين قامت حاول أن يوقفها وحين حاول تغلبت الارادة المحلية الحرة . أو كما خلص الرئيس «كان قرار ٦ أكتوبر قرارا حرا ، وكان ضد ارادة الدولتين الكبيرتين اللتين قررتا فى مؤتمرين متتاليين تجميد مشكلة الشرق **الأوسط ، ثم عادت الدولتان واحترمتا قرارنا وإرادتنا» وهكذا «بالتأكيدات أثرت حرب ٦ أكتوبر فى سياسة الوفاق الدولى ، ولكن فى أى اتجاه ، هذا مانريد أن نراه» .**

من هذا الموضع ، موضع الارادة المحلية الحرة والقدرة الوثيقة ، تفاعل العرب مع مركب الوفاق ، فبعد أن كانوا محاصرين «بالوفاق الأعظم» الى حد أو آخر ، فرضوا عليه «بالوفاق العربى» استراتيجية الاقتطاع . لقد فرضت الحرب نفسها على الوفاق ، ففرضت عليه أن يحدد أبعاده وأعماقه الحقيقية . وبذلك جاءت معركة أكتوبر أول «اختبار أحماض»

قاس لصيغة الوفاق الجديد الفضفاضة ، فكانت هى التى نقلت المعادلة الدولية الجديدة مما بدا للبعض حالة مقلقة من التميع الهلامى والغموض السديمى الى حالة من التبلور المعقول وتحديد الحجم الطبيعى والنسب الصحيحة .

أو كما قال الجنرال بوفر ، كان فى الحرب شىء «كشف عن الانطباعات الخادعة التى كانت تحجب المتناقضات السوفييتية ـ الأمريكية وعدم الاستقرار الذى يكتنف التقارب بينهما» وبالمثل قال اليك دجلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا «إن الاحداث التى تلت وقف اطلاق النار وبينها اعلان حالة التأهب بين القوات الأمريكية والسوفييتية قد أظهرت أن الطريق مازال طويلا أمام الوفاق قبل أن يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيقه ، وأن سياسة الوفاق لاتزال بحاجة الى مزيد من التدعيم قبل اعتبارها سياسة لارجوع فيها» وكذلك كتبت فرانس سوار أن «ماحدث يوضح الى أى مدى يعتبر الوفاق هشا» .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن المعركة قد حددت بدقة «زاوية الانفراج» فى الوفاق بعد أن بدت وكأنها قد تجاوزت الحد بدرجة أو بأخرى لقد «قننت» المعركة حدود الوفاق بأن انقذته من احتمالات ، ولانقول مزالق ، التطرف والاندفاع أو فقدان التوازن والاتجاه . إنها هى التى صححت مساره ومنحت سفينته «جيروسكوب» ثقيلا يحفظ توازنها وبوصلة هادية ترشد وترشد توجيهه فى بحر الصراع القطبى المتلاحم الخوان ، لقد أصبحت المعركة من المتغيرات الدولية المؤثرة ، آخر المتغيرات ، فرضت نفسها على أكبر المتغيرات منذ ربع قرن وهو الوفاق، فعدلته وغيرت من معطياته وأثرت فيه بقدر ماتأثرت هى به .

وبطبيعة الحال فان هذا لم يكن بالعملية السهلة ، بل تم من خلال صراعات قوى رهيبة وعاتية وصدامات ارادات غير تقليدية وفوق عادية ، أعنى بالتحديد نووية ، وفى البداية لم يكن هناك من رمز للصراع سوى ذينك الجسرين المتعامدين بحرا وجوا من التسليح الكثيف كأنهما سيفان متقاطعان فى مبارزة سلاح تاريخية عبر البحر المتوسط ، واحد عرضى من أمريكا الى إسرائيل ، والثانى طولى من الاتحاد السوفييتى الى العرب ، الأول يدور مع عقارب الساعة، كما قيل، والثانى عكسها .

لكن الأزمة بين القطبين إنما وصلت الى الذروة حين شرعت أمريكا سياسة الابتزاز النووى لما بدت هزيمة اسرائيل ماثلة على أفق سيناء . فقد أغرقتها على الفور بمدد جديد

وخطير من السلاح المتطور ، كما هددت بالتدخل العسكرى بطريقة سافرة . فقد أعلن نيكسون أن «موقف الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه الاعتبارات نفسها التى أملت الموقف الأمريكى تجاه أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمة الأردن سنة ١٩٧٠» . هذا بينما صرح كيسنجر فى ١٢ أكتوبر بأن «الشرق الأوسط قد يتحول الى منطقة تدفع بالقوى النووية العظمى الى المواجهة، إن الصعوبة التى يواجهها كل منا هو أن كلا من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ينظر الى أزمة الشرق الأوسط من خلال منظاره الخاص .. فالأمريكيون بنوا صداقة تقليدية مع اسرائيل ، بينما بنى الروس صداقة مع بعض الدول العربية» .

وقد دعا هذا كله الاتحاد السوفييتى الى الانذار بالتدخل المباشر لو لم تتوقف اسرائيل عن القتال بعد أن تقرر وقف طلاق النار .. وهدد هذه الأخيرة بأنها ستتعرض «للتدمير» . ورغم أن حدود هذا التدخل غير معروفة بالضبط ، فليس هناك شك فى جدية الاتحاد السوفييتى واهتمامه . وفى هذا قال دايان بوضوح «كانت موسكو جادة تماما فى تهديدها بالتدخل ضدنا اذا لم ننسحب» . وقال أيضا «لست أشك الآن فى استعداد السوفييت واصرارهم على التدخل العسكرى المباشر ضدنا اذا دعا الموقف الى ذلك» هذا بينما أعلنت مايير أن «التهديد السوفيتى هذه المرة لم يكن أقل فعالية من تهديد ١٩٥٦ ، وربما أشد» كما صرحت بعد تسوية الأزمة بأن «بلادها قد نجت من خطر كبير» .

كذلك اعترفت دافار بأن «الضغط الأمريكى علينا كان نتيجة للضغط السوفييتى على أمريكا» .

أما على الجانب الآخر ، فسواء كان «التشنج النووى» الأمريكى حقيقيا أو «تهويشا» ـ والأخير الأرجح ، وسواء كان خالصا لوجه الصراع أو تحويلا للأنظار عن مشاكل الحكم الداخلى «فضيحة ووترجيت» ـ والأخير الأرجح أيضا ـ سواء هذا أو ذاك فقد كان خطر التصعيد قائما وخطأ العزة بالاثم ماثلا كالشبح المخيم والمخيف .

فقد فاجأت أمريكا العالم باعلان حالة التأهب النووى القصوى فى كل قواعدها حول الكرة الأرضية بدعوى أن «الأمر بالتأهب صدر لنظهر للاتحاد السوفييتى أننا لانستطيع أن نقبل اجراء من جانب واحد ، من جانبهم ، لتحريك قوات عسكرية الى مسرح الصراع بين اسرائيل والدول العربية» . وكانت الاشارة فى هذا هى الى أن الاتحاد السوفييتى ـ

كما أدعت أمريكا ـ قد وضع ٧ فرق محمولة جوا على أهبة الاستعداد لارسالها فورا الى الشرق الأوسط . وفى وجه هذ الاستفزاز الحرج اتخذ الاتحاد السوفييتى موقفا يتسم بالحزم دون التهور . فأعلن «أن هذه الخطوة لاتساعد على الانفراج الدولى ، وأنها اتخذت بوضوح فى محاولة لارهاب الاتحاد السوفييتى ، وأن الذين اتخذوها عليهم ان يدركوا أنهم قد اخطئوا العنوان» .

فى تلك الساعات المصيرية توترت العلاقات بين القطبين الى حد منذر ، وبات العالم يخشى على الوفاق من حرب أكتوبر إما تصادما عسكريا نوويا والا فعودة الى الحرب الباردة ، ولكن «أمريكا وروسيا» كما قال إليك دجلاس هيوم ، «تمكنتا فى الوقت المناسب من الحيلولة دون تدخل عسكرى فى الشرق الأوسط وذلك لتجنب مواجهة نووية بينهما» ثم اضاف «عنصر الحظ كان له دور فى تمكين البذور الأولى لسياسة الوفاق بين أمريكا وروسيا من تحقيق وقف إطلاق نار فعال ولكنه متوتر فى الشرق الأوسط» .

أو كما قال نيكسون نفسه «أعتقد أنه بدون الانفراج ربما واجهنا نزاعا ضخما فى الشرق الأوسط ، غير أننا تجنبناه بمساعدة الانفراج» أو كذلك كما أعلن برجينف فيما بعد على منبر البرلمان الهندى «أن الأمور كانت ستختلف اذا لم يكن هناك عامل الانفراج فى العالم والذى ظهر خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة . ولو كان النزاع الحالى قد اندلع فى وضع التوتر الدولى الشامل وتفاقم العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فلربما صار الصدام فى الشرق الأوسط أكثر خطورة ولما كانت هناك امكانية لمبادرة مشتركة بين الاتحاد والولايات كتلك التى أدت الى قرارات مجلس الأمن المعروفة والتى جعلت ممكنا وقف اطلاق النار» .

هذا من ناحية ولكن من الناحية الأخرى تعرض الوفاق لكثير من الشك فى صلابته وحتى امكانية بقائه ، بل وصل البعض الى حد القول بأن الوفاق «ذهب مع الريح» وانتهى، أو كما قال الصحفى الأمريكى برنارد جيرتزمان «لقد أدى نشوب القتال فى ٦ أكتوبر الى تزايد النقد لسياسة الوفاق والى انتشار رأى فى واشنطن مؤداه أن الوفاق قد مات» ولاشك أن من أبرز أصحاب هذا الرأى أو المروجين له الصهيونيين الأمريكين الذين كانوا يعادون الوفاق منذ البداية لحساب اسرائيل ، فعلى سبيل المثال كان السناتور هنرى جاكسون ، من أصدق أصدقاء اسرائيل ، هو الذى اتهم نيكسون وكيسنجر

بأنهما «يبيعان اسرائيل من أجل الوفاق والمحافظة عليه» «كذا!» . وعلى العكس من هؤلاء ، أكد شلزينجر أن النتيجة النهائية كانت اعترافا بقوة الوفاق .

على أن الحرب ، فى الواقع الملموس لم تؤد الى انهيار الوفاق ، فقط أصابته بارتجاج واهتزاز عنيف أثبتا أنه ظاهرة تحت التكوين لم تزل ، لم تتحدد قسماتها وملامحها وأبعادها بعد بصفة نهائية .. ومن هذه الزاوية بالدقة لعبت هى دورها ذاك فى تشكيله وتحديده . وأهم من ذلك أنها أثبتت من خلال المواجهة بين العملاقين أن أحدا منهما ليس على استعداد للتراجع أمام الآخر بعامة أو التخلى عن أى من مواقعه فى العالم بخاصة أو عن صديقه فى الصراع المحلى بالشرق الأوسط بالأخص .

ففيما يختص بالجانب الأمريكى ـ الإسرائيلى فان أمريكا عمليا تكاد تعتبر اسرائيل جزءا منها . أما فيما يختص بالجانب العربى ـ السوفييتى فان البعض يرى إن صوابا أو خطأ أن أى تخل من السوفييت عن العرب يؤدى الى القضاء على مكانتهم وهيبتهم ومراكزهم المكتسبة فى الشرق الأوسط كله ، لصالح الصين خاصة ، وربما لصالح أمريكا نفسها أيضا ، بل أكثر ، ولكن تجربة المعركة والمواجهة أثبتت ، فعلا وعلى العكس ، أن الاتحاد السوفييتى ، وان كان يمكن أن يبذل أكثر ويزيد أكثر ، لم يتخل ، بل تدخل ، ولم يتراجع ، بل تماسك وتمسك ، بل لقد أعلن الاتحاد فى تلك الفترة أن محور الاستراتيجية السوفييتية الخارجية هو العالم الثالث ، ومحور العالم الثالث هو العالم العربى ، ومحور العالم العربى هو مصر ، أبعد من هذا ، أثبتت الأزمة أن الوفاق ليس «تواطؤا» بأى معنى ، ولا هو قيد على حرية الشعوب النامية والتحرير ، وأنه لا تعارض بين حركة التحرير الوطنية وبين الوفاق ، على العكس قد يكون الوفاق قيدا مفيدا وصحيا على سياسة التهديد والابتزاز الأمريكية وضابطا لاحتمالات تدخلها مباشرة ضد العرب ولصالح اسرائيل ، وأن مناخ التعايش السلمى هو الذى يخلق ظروفا أكثر ملاءمة لحل عادل للمشاكل الدولية المهمة .

تلك كانت ملحمة المواجهة الرهيبة والرهيفة ، واذا كان السلام العالمى قد خرج من أزمة الوفاق سليما بالكاد ، وخرج الوفاق من أزمته أكثر واقعية وتحديدا وبلا أوهام ، وخرجت أزمة الشرق الأوسط من الوفاق بضمان لحلها حلا حاسما ، فقد كان على العرب أن يستخرجوا النتائج الضرورية من التجربة برمتها، فما هو الدرس الأساسى الذى يعلو

فوق كل التفاصيل والدقائق ؟ لقد تمخضت المعركة عن تغيرات مهمة فى العلاقات بين كل من طرفى الصراع المحلى وبين كل من طرفى الوفاق ، نتيجة لما بدا من تحويلات أو تحفظات أو توترات فى مواقف أساسية ، وكذلك كرد فعل توازنى أو تعويضى للمتغيرات الدولية التى سبقت المعركة وتلتها .

فقبل المعركة كان الشرق الأوسط «مستقطبا بين اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية، ومصر والاتحاد السوفييتى من ناحية أخرى» «السادات» وكانت أمريكا واسرائيل قد نجحتا كذلك فى أن تصورا للعالم أن «كل من يقف مع اسرائيل فهو يقف مع الغرب ضد الخطر السوفييتى ، وكل من يقف مع العرب فهو يفتح الباب أمام هذا الخطر» «بهاء الدين» ولكن حرب اكتوبر انهت هذا الوضع وهذا التصور وفرضت تغيرات ومتغيرات جديدة أثارت كثيرا من التأزم والحساسية فى علاقات بعض تلك الأطراف من القوى المحلية والقوى الأعظم ، كما أثارت أكثر منها من التساؤل واللغط فى بعض الأوساط العربية بحيث تحتاج الى وقفة خاصة وتوضيح شامل .

فمن ناحية غيرت أمريكا موقفها من العداء المطلق للعرب والانحياز التام لإسرائيل الى قدر معقول من الحياد النسبى أو العملى ، على نحو ماسنرى فى دراستنا للموقف الأمريكى ، وبينما حدث هذا التقارب أو التفاهم النسبى مع أمريكا ، حدث على العكس بعض التوتر والتأزم والتباعد النسبى وسوء الفهم أو التفاهم مع الاتحاد السوفييتى . ولم يكن هذا لاحقا للمعركة فحسب بل سبقها بعدة سنوات ، ولكن فى كل الأحوال لم يكن غير مسألة السلاح محورا له وأساسا .

فقبل المعركة حجب الاتحاد عنا كما رأينا بعض أنواع الأسلحة خاصة الهجومية كما حدد من حجم الباقى ، واذا كان قد عاد أثناء المعركة فأرسل السلاح بلا توان ، فلم يكن ذلك بغير حدود وشروط ، كما تقاضى ثمن بعضه مقدما «دفعت الجزائر للاتحاد ١٠٠ مليون دولار للبدء فى شحن الأسلحة» . كذلك عادت القيود والتحديدات على السلاح بعد المعركة .

وقد دعا هذا البعض الى التساؤل عما اذا كان الاتحاد صديق العرب التقليدى قد «خاض الحرب معنا كمجرد تاجر أسلحة ، ولولا المال العربى لتوقف هذا السلاح» وعما اذا كان «قد أراد لنا نوعا من النصر يكون دعاية للسلاح الروسى، ولكنه خذلنا قبل

النصر النهائى» كذلك جرى التساؤل عما قيل من أن الماريشال جريتشكو صرح لأحد القادة العرب أنه «لو دخلتم تل أبيب لما عدتم بحاجة الينا ولأخرجتمونا من المنطقة» «من حديث الصحفية اللبنانية علياء الصلح الى الرئيس السادات ».

كذلك فلقد اعتبرت مصر أن مسألة الأسلحة أصبحت من أسف «أداة لممارسة سياسة النفوذ» للتأثير على تصرفات مصر والضغط عليها . وقد دعا هذا مصر الى اتخاذ قرار بالكف عن ، والتحلل من ، الاعتماد الكلى على الاتحاد للحصول على جميع حاجاتها من الأسلحة وتنويع مصادر تسليحها .

وفى هذا السبيل اتجهت مصر إلى أسواق السلاح فى أوربا الغربية، كما أعلن رئيسها للنيويورك تايمز أنه «سيكون سعيدا للغاية اذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تبيع لنا السلاح» مضيفا فى الوقت نفسه أنه «سيكون سعيدا أيضا اذا رغب الاتحاد السوفييتى فى التفاوض من أجل مبيعات جديدة» .

وإذا كان من الثابت المعلن أن العرب بدأت بالفعل تحصل على سلاح أوربى ، فان الأخبار التى وردت عن الحصول أو محاولة الحصول على سلاح أمريكى لم تزل فى مرحلة التكهنات ، غير أن شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى ألمح الى أن احتمال بيع الأسلحة الى مصر «سيبحث بعناية» وأن أمريكا ستنظر «بتعاطف» الى أى طلب من مصر لشراء أسلحة ، ولو أنه لم يجزم بأن أمريكا قد تلقت مثل هذا الطلب ، ومن جانبها ، فان الايماءات المصرية وان لم تكن قاطعة ، لم تستبعد الاحتمال كلية .

ومن ناحية أخرى وكخطوة أبعد ، تبحث مصر منح الأساطيل الغربية ومنها الأسطول الأمريكى تسهيلات مماثلة للتسهيلات التى يحصل عليها الاسطول السوفييتى فى موانيها ، على غرار ماتفعل يوجوسلافيا ، وذلك تحقيقا للتوازن الاستراتيجى فى البحر المتوسط .

وإذا كان السلاح هو محور الخلاف بين مصر والاتحاد ، والسلاح أهم عنصر منفرد فى مركب القوة والصراعات العسكرية، فان هناك عناصر خلاف أخرى على مايبدو ، وأن أتت كعوامل من الدرجة الثانية أو كنتائج مترتبة . فليس سرا أن توتر العلاقات قد تكرر حتى كان يزمن لعدة سنوات قبل المعركة ، كما كان واضحا أن سياسة تهجير اليهود السوفييت الى اسرائيل والسماح بها كانت قد أصبحت ورقة ضغط خافت ولكنه غير

خاف . وبعد المعركة اثار الاتحاد موضوع ماسـماه ابتعاد أو انحراف مصر عن الاشتراكية ، «وأيضـا الانفتاح الاقتصادى قيل عنه ماقيل» غير أن هذا كله موضوع داخلى ، فضلا عن أنه غير صحيح .

ولعل الأهم منه ومن الكل خشية الاتحاد من تزايد النفوذ والوجود الأمريكى فى المنطقة بعد أن تزايد التقارب أو الانفراج بينهما ، ومن ثم خشيته على وضعه فى المنطقة ومصالحه الاستراتيجية فيها ودورهم بها . وقد زاد هذا القلق بصفة خاصة بعد النشاط الدبلوماسى غير العادى لكسينجر ، الذى سرق كل الأضواء فى الشرق الأوسط ، والأمر بهذا جزء لايتجزأ مباشرة من صراع القوى العظمى والقوتين الأعظم داخل الوفاق .. ولم ينكر حقيقته ولاحاول اخفاء خطورته أى من الاطراف المعنية .

فأما الاتحاد السوفييتى نفسه فلم يخف من جانبه استياء الكرملين ازاء التقارب المتزايد بين مصر وأمريكا ونظرته القاتمة تجاه الخطوات الجزئية الأمريكية ونشاط كيسنجر ، كما لم يخف خشيته من تضاؤل نفوذه فى المنطقة .. وقد نقلت وكالات الأنباء على لسان «دبلوماسى شيوعى كبير فى لندن» أن الاتحاد سيطلب من أمريكا «الحد من السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» لأن غضب السوفييت من انحسار نفوذهم فى المنطقة قد تحول الى خوف على ماتبقى من مواقع أقدامهم ، وأن الكرملين مصمم على الاحتفاظ بمواقعه فى المنطقة ولو بثمن غال اذا اقتضى الأمر . وحذر المصدر من أن السوفييت جادون فى ذلك ، لأن المصالح الاستراتيجية الأساسية للاتحاد فى خطر ، وكذلك مراكز الشخصيات الرئيسية فى القيادة السوفييتية ، ثم أضاف المصدر نفسه أن اتفاق الفصل بين القوات فى سيناء وماترتب عليه من صداقة بين مصر وأمريكا قد أثار مخاوف السوفييت لما له من آثار مدمرة على مركزهم فى الشرق الأوسط .

وقد خلص المعلقون الغربيون من هذا الى أن المتشددين فى موسكو قد وجهوا انتقادات حادة لما يجرى فى الشرق الأوسط ودور أمريكا فيه ، ولكن الرغبة فى استمرار الوفاق حالت دون خروج السوفييت علنا ضد هذا القرار . غير أنهم أصبحوا الآن مصممين على العمل من أجل استعادة مراكزهم المفقودة . والمفهوم أن الاتحاد ، الذى كان يتوقع هذه الصعوبات مع مصر ، تحرك بسرعة لتقوية مركزه فى العالم العربى ، وذلك أساسا بالعمل الوثيق مع سوريا عن طريق تقديم شحنات أسلحة متطورة وسخية

إليها وحثها على اتخاذ موقف أكثر تشددا فى حل مشكلة الشرق الأوسط واتمام الفصل بين القوات على الجبهة السورية على غير نمط الفصل على الجبهة المصرية ثم الاصرار على اشراك موسكو فى كل خطوات الحل .

وأما الاعــلام الأمريكى فقد تساءل ، كما فعل فى حديث له مع الرئيس المصرى ، عما اذا كان نشـــاط الدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة قد أثار شعور السوفييت بالقلق .. فصرح الرئيس من جانبه بأنه فى الواقع يعانى من ذلك منذ أول زيارة لكيسنجر حيث «أصيب علاقاتى بالسوفييت بالتوتر الشديد بعد ذلك التاريخ» أو أصبحت «مشدودة بعض الشيء» ، فقد «تسبب نجاح كيسنجر فى حساسيات كبيرة بالنسبة للسوفييت ، وأصبح كيسنجر يسبب لهم نوعا من الحساسية» .

أما الصحافة العالمية ، ربما إثارة ومبالغة ، أو ربما محاولة لتوسيع الفجوة أو لدق اسفين نهائى أو للصــيد فى المـاء العكر ، فقد اعتبرت الموقف المصرى «ضربة للاتحاد الـــسوفييتى» «التايمز» «وإنهـاء للعلاقة الخاصة بين مصر والاتحاد الســوفييتى» «الهيرالدتريبيون» بينما اعتبرته الايمــانيتيه «نقطة تحــول ومرحلة جديدة من التدهور البطيء فى العلاقات الذى بدا ملموسا غداة حرب أكتوبر ، وآخر سلسلة الأزمات التى كانت دائما تصل الى ماقبل حافة الانهيار الكامل مباشرة» .

هكذا نرى أنه اذا كانت قد نشـأت للاسف فـجوة أو جـفوة بين الاتحـاد ومـصـر ، فالواضح أيضا أن هناك من له مصلحة فى نشوئها ومن يسعى الى تحويل الفجوة الى هوة والجفوة الى قطيعة وأكثر من هذا وأخطر ، حاول البعض أن يصور الموقف على أنه تغير استراتيجى وانقلاب أساسى فى التوجيه الخارجى لمصر ، بل وصلوا الى حد الزعم بأنه تبادل كامل فى المواقف والمواقع فيما بين مصر والقطبين ، بمعنى أن مصر انتقلت من صداقتها السابقة للاتحاد السوفييتى الى صداقة الولايات المتحدة ، فأصبح الصديق القديم عدوا والعدو القديم صديقا «كذا!»

وفى تـأويل آخـر أنه على الأقل تبـادل جـزئى فى المواقف والمواقع فـيـمـا بين مـصـر واسرائيل من ناحية والاتحاد والولايات من الناحية الأخرى ، بمعنى أنه اذا كانت علاقات مصر بالاتحاد قد شابها التوتر والتحفظ بدرجة أو بأخرى وتقاربت مع الولايات بدرجة أو بأخرى ، فقد شاب العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية هى الأخرى قدر من الحذر والتحفظ بينما قد تأخذ العلاقات السوفييتية ـ الإسرائيلية فى الانفراج بقدر ما بالمقابل .

غير أن هذا برمته ليس صحيحا على الاطلاق .. وكانت مصر حريصة جدا على أن توضح ذلك وأن تحاصر الخلاف مع الاتحاد وتحصره وألا تخرج به أو تسمح لأحد أن يخرج به عن حجمه الحقيقى أو يسيىء تصويره وتفسيره . ولهذا بادرت فى سلسلة من التصريحات والخطب على لسان رئيسها الى تصحيح الصورة وتحديد الموقف بدقة وحزم . وبالاستعانة بالاقتباسات الدالة من هذه الخطب يمكننا أن نلخص حقيقة الموقف فى النقاط الآتية :

فأولا : ليست الخلافات مع الاتحاد بجديدة ، فهى تسبق ٦ أكتوبر ، بل وتسبق ٥ يونيو ، فقد حدثت علنا فى ١٩٥٩ . وهى اذا كانت قد تجددت أثناء وبعد اكتوبر ، فلقد كانت مصر حريصة كل الحرص على ضبط النفس وعدم الاستجابة لأى استفزازات . أنها لاتريد أن توسع الفجوة، وتعمل جادة على رأب الصدع .

وثانيا : فان مصر التى أعلنت مرارا صداقتها مع الاتحاد السوفييتى ليست صداقة مرحلية بل هى استراتيجية وأساسية ، لاتزال حريصة على هذه الصداقة «إننا لا نريد أبدا أن نفرط فى صداقة الاتحاد السوفييتى ولا أن ننقص من رصيده لدينا ، ونحن قد نختلف من وجهة نظرنا لا لحساب أحد» .

ثالثا : إن بوصلة السياسة المصرية هى مصلحة مصر أولا وأخيرا ، فهى الثابت الأساسى بين كل المتغيرات «ومن مصلحة مصر ألا يكون لها أى صراع مع قوة كبرى أو أى قوى أخرى ، إلا اذا بادرتنا هذه القوى بالعداء أو بالصراع .. ولا مصلحة لنا فى أن نعادى أحدا .. علاقاتنا لابد أن تكون طيبة مع الكل لصالح مصر» .

رابعا : وعلى هذا الأساس ، وفى ضوء المتغيرات الدولية المعاصرة ، فان «الموقف هو أننا نمر الآن بنقطة تحول فى هذه المنطقة» فنحن «فعلا فى مرحلة اعادة تشكيل علاقاتنا على أساس مبادئنا وهى الحياد الايجابى الواضح الكامل بين المعسكرين فى هذا العالم .. ونحن نريد اتباع سياسة عدم انحياز متوازنة» واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لعدم الانحياز منذ كان ، فإنه الآن أصح مايكون فى عصر الوفاق الدولى .

خامسا : «نحن لانريد صداقة أحدا على حساب أحد . بصراحة نحن لانصادق أمريكا على حساب الاتحاد السوفييتى ، ولن نصادق الاتحاد السوفييتى على حساب أمريكا .. وتحسن العلاقات مع واشنطن لايستوجب أن يسفر عن توتر مع موسكو» .

وقد فصل الرئيس هذا التعميم فى حديث له الى محطة التليفزيون الأمريكى قائلا «إننى اعتمد على القوتين الأعظم وأنا أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتى معهما .. وقبل ذلك كانت لنا علاقات غير متوازنة ، فكانت علاقاتنا معهم أكثر ودا ، وكان هناك نوع من المواجهة بيننا وبينكم ، أما الآن حينما أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتنا يصاب السوفييت بالتوتر والحساسية ، هذا هو التفسير الحقيقى للموضوع برمته ، وأنا لا أغير موقفى ، فأنا لا أعتمد مثلا على السوفييت يوما ثم انتقل الى الاعتماد على الأمريكيين فى اليوم التالى. ليس الأمر كذلك اطلاقا .. ولكننى أحاول أن أحقق التوازن فى علاقاتى» .

نحو علاقات أفضل

تلك إذن هى قصة متغيرات الوفاق الذى أبرزتها معركة أكتوبر، ومعها قصة العلاقات المتغيرة بين مصر وطرفى الوفاق ، ولنا الآن أن نتساءل : مامغزاها ، مامداها ، والى أين ؟ لنقرر أولا ، اذا لم نكن ندرك جيدا ، أن علاقات الصداقة بين الدول هى فى جوهرها علاقات مصالح ، وبالتالى علاقات قوة تحت السطح ، ومن ثم وفى التحليل الأخير صراع قوة ، الا أنه صراع حميد . صداقة الدول ، باختصار ، ضغوط حميدة متبادلة ، وبغير هذا المفهوم فان الصداقة بين الدول ، لاسيما اذا كانت بين طرفين غير متكافئين كما بين الدول العظمى والصغيرة ، يمكن أن تحمل أو تتردى فى شبهة التبعية ومناطق النفوذ ، ومصر قد كافحت بمرارة وبطولة ضد الاستعمار والامبريالية لتخرج من مناطق النفوذ ، وهى منطقيا ليست على استعداد لأن تستبدل نفوذا بآخر .

واذا كانت علاقاتها بأصدقائها الكبار ، الاتحاد السوفييتى ، قد تعرضت لبعض التأزم والتوتر من أجل تصفية العدوان الإسرائيلىء قبل وبعد اكتوبر ، وفى ظل الوفاق وبسببه ، فإنها بعد النصر أقدر على «تقنين» علاقاتها معهم . وليس هناك شك فى أن موقفنا الصلب فى أزمتنا الأخيرة مع الاتحاد ، تلك التى لم نكن نريدها أو نسعى اليها ، هى تعبير عن بروز القوة العربية وعلى رأسها القوة المصرية بعد اكتوبر، ودليل على أنها قد دخلت دائرة القوة ولعبة الكبار وأصبحت طرفا موجبا فيها بعد أن كانت طرفا سالبا ، وبعد أن كانت مهددة بحصار الوفاق اذا بها تحتويه وتحيده وتوازنه. والأزمة التى نشأت مع الاتحاد السوفييتى هى رمز للضغوط الايجابية التى استطاعات مصر القوية أن تفرضها عليه .

ورغم كل الصعوبات والمتاعب التى ترتبت على هذ الأزمة ، ففى يقيننا أنها تطور صحى ومفيد ، كان لابد منه لمصلحة الطرفين ، وستخرج منها صداقتهما وهى أوضح أساسا وأكثر صحة كما هى أكثر واقعية وكرامة فمن الأكرم للاتحاد أن تكون علاقاته وصداقته مع مصر قوية عزيزة محررة لاضعيفة محتلة ومع مصر منفتحة على العالم الواسع المتغير لا منغلقة فى دائرة ضيقة مغلولة يدها .. وإذا كان على مصر أن تحرص كل الحرص على صداقة الاتحاد ، ليس فقط تقديرا للماضى ولكن كذلك تأهبا للمستقبل ، فإن على الاتحاد أيضا أن يدرك أنه لم يعد فى الامكان أن تظل علاقات الصداقة بين الكبار والصغار تابعة لعلاقات الكبار والكبار وخاضعة للعبة توازن القوى بينهم . والصداقة الخالصة المخلصة لاتحتمل تحفظات ولاشبهات أو شكوكا ، كما أنها لايمكن أن تكون فى اتجاه واحد أو من طـــرف واحد ، وإنما هى فى الاتجـــاهين ومن الطرفين تجىء .

وأخيرا فان هناك مؤشرات على أن هذه السياسة المصرية الصلبة سوف تنجح وأنها على وشك أن تعطى ثمارها ، فخشية أن يفقد الاتحاد هذه الصداقة المؤثرة ، ابدى مؤخرا دلائل على التفهم والرغبة فى التقارب وهناك حديث عن اتصالات لعقد مؤتمر قمة يبدأ صفحة جديدة مشرقة .

وبالنسبة للمستقبل ، يجدر بالعرب ، من ناحية ، أن يعيدوا توطيد علاقتهم مع أصدقائنا الكبار السوفييت على أســس جديدة وثيقة ، وألا يسمحوا لأحد مطلقا أن يــدق بيننـــا وبينهم اســـفينا لابعادنا عنهم . ليس ذلك فقط لأن الاتحاد هو المصدر الأساسى لتسليحنا المتطـــور ، ولكن أيضا للمســـاعدة فى اقامة صناعة ســـلاح متطورة متقدمة على الأرض العـــربية ، وكذلك لأغراض التنمية والتطوير الحضارى الضرورية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن ننفتح على أوسع جبهة ممكنة من الاصدقاء فى العالم ، لضمان مورد تكميلى واضافى للسلاح المتطور وللتكنولوجيا الحضارية والصناعية الحديثة، وكذلك لكسب أكبر قطاع من التأييد السياسى .

وهذا يعنى فى المقام الأول دول غرب أوربا ، وهو ماينقلنا أيضا الى موضوع أوربا الغربية والمعركة .

أوربا الغربية والمعركة

لم تنفصل أوربا الغربية قط عن صراع الشرق الأوسط منذ بدا ، ولكن طبيعة تلك العلاقة تغيرت مرتين على الأقل ، مرة تغيرا جذريا بعد نهاية العصر الأمبريالى وتصفية الامبــراطورية الأوربية فى العالم العربى، ومرة تغيرا تدريجيا ولكنه مطرد منذ حرب يونيو .. فى المرحلة الأولى كان انحياز أوربا الغربية لإسرائيل بديهية دبلوماسية ، فهى التى خلقتها أصلا تاريخيا وسياسيا بل ومنها استمدت هذه جسمها البشرى نفسه .. وفي المرحلة الثانية كانت قد زالت أسباب العداء الأوربى العربى التقليدى المتحكم بتصفية الاستعمار وخروجه من المنطقة، ولكن كانت أوربا بعيدة عن الحياد لم تزل فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ـ وقد انعكس هذا بصورة صارخة وأليمة فى موقف أوربا الحكومات والشعوب من حرب يونيو .

بين أوربا والعرب

ولكن بعد يونيو نتيجة للجهود العربية السياسية الصبورة والدوب ، ونتيجة أيضا للمتغيرات الدولية الشاملة ، بدأ البنــدول يتذبذب تدريجيا نحو قــدر أو نوع من الحياد ، المتحفظ أحيانا أو الجزئى أحيانا .. وأصبحت أوربا الغربية ميدانا لمعركة ســياسية حادة بين قوى الشد والجذب المضادة العــربية والإســرائيلية . وقبيل أكتوبر كان العرب قد نجحــوا فى جذب فرنسا خاصة ثم بريطانيا الى حد أقل نحو موقف أكثر ملاءمة وتوازنا من قضية مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة وتنفــيذ قرار ٢٤٢ كما اتسع نطاق هذا الموقف تدريجيا ليشمل دول الســوق الأوربية المشتركة ، ولو بدرجات متفاوتة .

وعموما فلقد تمت عزلة إسرائيل عن أوربا الغربية بدرجة دعتها كثيرا الى مهاجمة دولها وأحيانا الى اعتبــارها «معادية» ورمتها أحيانا أخرى «بعداء السامية» وأحيانا كذلك «بالجبن والخيانة .. الخ» وكانت فرنسا ، التى رادت الاتجــاه الجديد وقادته منذ ديجول ، هى مصب غضب وتهجم اســرائيل الأكبر، وبعبارة موجزة ، يمكن أن نلخص الموقف المتغير فى أنه بينما كانت أمريكا فى علاقاتها العربية قد تحولت بوضوح من نمط الاستعمار الجديد الى جوهر الاستعمار القديم ، كانت أوربا الغربية قد انتقلت من الاستعمار القديم الى الاستعمار الجديد .

وتتخلص استراتيجية المواقف الإزائية بين أوربا الغربية وكل من العرب واسرائيل فى مجموعة من قوى الشد والجذب المتبادلة والمتعارضة وفى سلسلة من الضغوط والاختبارات المتضادة التى من محصلة التفاعل والتوازن بينها خرجت النتيجة النهائية كما برزت فى معـــركة اكتوبر ، وأقطاب هذه القوى التى تقع موزعة بينها أوربا الغربية أربعة هى : أمريكا ، الوفاق ، العرب ، اسرائيل .

فمن ناحية كانت أوربا الغربية مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» مع أمريكا فى حلف الاطلنطى ووحدة الغرب فى وجه «الخطر الشيوعى» . ومن ناحية أخرى كانت مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» أخرى مع اسرائيل نتيجة لتــاريخ قديم معقد «وعقدة ذنب» حقيقية أو متوهمة . وعلى النقيض من هذه الارتباطات برز اتجاهان اوربيان حاسمان ، الاتجاه الأول سياسة أوربا الغربية المستقلة وسعيها نحو الوحدة الأوربية لتكون قوة عظمى فى وجه أخطار الحرب البادرة فى ظل الاستقطاب الثنائى سابقا ثم أخطار الوفاق الثنائى فى ظل تعدد المراكز أخيرا . لقد فرضت المتغيرات الدولية الجديدة على أوربا الغربية أن تبحث عن نفسها وعن شخصيتها المستقلة ، وأن تبحث لنفسها عن مكان جديد فى العالم تتخلص به من التبعية والوصـــاية الأمريكية الضاغطة التى تشل إرادتها ، كما تتخلص به من احتمالات الصدام أو التقارب بين القطبين النوويين العملاقين .

الاتجاه الثانى هو رغبة أوربا الغربية فى تأمين وتعميق مصالحها الحيــوية المتعــاظمة مع العالم العربى : اقتصادياً وبتروليا واستراتيجيا . ففوائض رؤس الأموال العربية والتجارة العربية الواسعة الامكانيات والنفوذ فى سوق المال الغربية وحضارتها أكثر من أى سلعة أخرى وأكثر من أى منطقة أخرى فى العالم تقريبا ، فضلا عن ارتباط الأمن الأوربى ارتباطا حتميا بالسلام فى الشرق الأوسط ، حيث لا ســـلام لأوربا بغير سلام البحر المتوسط ، ولا ســـلام فى البحر المتوسط بغير ســـلام الشرق الأوسط ، كل هذا وغيره جعل أوربـــا الغربية تتفتح على مصالحها الحقيقية وأين تكمن . فلم تعد تجد لها مصلحة فى معاداة العالم العربى لحساب اسرائيل ، ولا أن تتورط فى صراع يهددها بأخطار نووية .

عند هذا الحد حدث بالتدريج لقاء مصالح منطقى وحتمى بين أوربا الغربية والعالم العربى . وهو لقاء مزدوج فى الواقع من جانب كلا الطرفين : خروج كل منهما من مأزق

الاستقطاب الثنائى ثم الوفاق الأعظم من بعده ، وبناء كل منهما لقوته المادية والاقتصادية الذاتية . والواقع أن هذا اللقاء هو منطق الطبيعة وطبيعة الأشياء . فليس أقرب الى أوربا من العالم العربى جغرافيا وتاريخيا ، بل وحضاريا وبشريا ، فضلا عن التكامل الاقتصادى .

وقد انعكست آثار هذا النمط الجديد من التوازن على معركة أكتوبر بصورة مباشرة وبالغة الدلالة . فقد كان موقف دول أوربا الغربية موقفا «بتروليا» أساسا فاتخذت موقف الحياد من المعركة في الشرق الأوسط فى وجه الضغوط الأمريكية والهيستيريا الصهيونية المألوفة . أو كما عبر كاتب فرنسى «ان الشخص العادى فى العواصم الأوربية ، بعد أن تبنى النسخة الاسرائيلية عن حقيقة مايجرى فى الشرق الأوسط طوال ست سنوات ، بدأ يتململ ويطالب بالاطلاع على نسخة مختلفة . وواضح أنه لاتوجد فى الميدان الا نسخة بديلة واحدة ، هى تلك التى كشفت عنها حرب أكتوبر بصورة حاسمة» . وكانت الايمانيتيه أقطع حين كتبت تقول « المشكلة هى أن اسرائيل تحتل وتتوسع ، وعلى أوربا أن تغطى نفقات هذا الاحتلال والتوسع . بعبارة أخرى ، إنه لكى تزدهر اسرائيل ينبغى على أوربا أن تعود الى عصر الشموع والدراجات» . لقد تغيرت بوصلة أوربا .

فرنسا مثلا أعلنت على لسان وزير خارجيتها أن «هناك حاجة الى أن نقرر أولا ما اذا كان العائد الى بيته الذى طرد منه معتديا . اننا لا يمكننا أن نلوم أناسا يريدون استرجاع أراضيهم ، أو نحاول اتهامهم بالعدوان» . هذا بينما قال زعيم أحد أحزابها «يجب ألا ينسى أحد للحظة أن المصريين يحاربون فوق تراب مصرى ، وأن السوريين يحاربون فوق تراب سورى» .

أما بريطانيا فقد أعادت تأكيد اعلان هاروجيت الذى صرح به وزير خارجيتها فى ١٩٧٠ وجاء فيه بالنص : «يجب أن تنسحب اسرائيل من الأراضى المصرية والأردنية الى الخطوط التى كانت عليها قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن تتخلى عن احتلال هضبة الجولان فى سوريا » . وبذلك صححت تفسير قرار ٢٤٢ ، كما أعلنت حظر تصدير السلاح الى الشرق الأوسط . كذلك أعلن وزير خارجيتها أكثر من مرة أن «المناطق العازلة لا يمكنها أن تعطى اسرائيل أمنا دائما» ، و«أننا فى مباحثات السلام ، يجب ألا نهمل أمن العرب

أيضا» وأخيرا أنه «لايقوم سلام فى الشرق الأوسط على أساس استمرار احتلال القوات الاسرائيلية للأراضى العربية» .

ورغم تناقضات والتفافات معينة بل وانحرافات ناشزة فى مواقف بعض دول غرب أوربا تجعل حيادها غير مخلص وربما مشكوكا فيه ، ورغم أن الحياد السليم نفسه ليس عدلا حين يكون بين المعتدى والمعتدى عليه ، فقد كانت أوربا الغربية الرسمية على العموم بعيدة عن روح العداء للعرب أو الانحياز لاسرائيل . ولأول مرة منذ ربع قرن أصبحت أوربا تتحدث عن «أمن العرب» جنبا الى جنب مع «أمن اسرائيل» . أو كما يلخص كل من ميشيل جالليه وكريستوفر ميبهيو على حدة ولكن فى اتفاق واضح ، لقد غيرت حرب أكتوبر موقف الدول الغربية وأوربا الغربية من القضية العربية وأصبح هناك ميل أكثر الى تفهمها .

ومما يستحق التسجيل هنا أن حكومة العمال الجديدة فى بريطانيا - ولحزب العمال علاقات وميول صهيونية جامحة وتعهدات وثيقة ، وكثيرا ما أعلن زعماؤه بتحد سافر انحيازهم المطلق لاسرائيل برغم أنها «زميلة فى الاشتراكية» - هذه الحكومة سارعت فور وصولها الى الحكم فأكدت للدول العربية استمرار السياسة البريطانية السابقة والحياد تجاه الأزمة وعدم الانحياز الى اسرائيل . وذلك لاشك تحت ضغوط سلاح البترول المسلط حظره على عنقها .. بل لقد أعلنت حكومة العمال أن العلاقات مع العرب تعد أحد محاور رئيسية ثلاثة فى سياستها الخارجية - المحوران الآخران هما الصداقة مع الولايات المتحدة والتفاهم مع أوربا . كذلك صرح جيمس كالاهان وزير خارجيتها أن بريطانيا ترى أنه لن تكون هناك تسوية نهائية لأزمة الشرق الأوسط «إلا اذا نصت هذه التسوية على ايجاد شخصية للشعب الفلسطينى» ، كما أعلن أنها ترحب بالحوار بين دول السوق الأوربية والعرب حول مستقبل العلاقات الاقتصادية والتجارية بينهما .

غير أنه ليكون من تبسيط الأمور المخل أن نصور أو نتصور الموقف الأوربى حتى فى أحسن حالاته واحتمالاته ، مواتيا أو ملائما تماما وبلا تحفظات للقضية العربية . فعدا «الأغلبية الصامتة» التى لعلها أقرب الى اللامبالاة ، كانت هناك النواة الصلبة أو «الأقلية الصاخبة» من أصدقاء العدو فى كل الدول الأوربية وعلى جميع مستوياتها . وقليل من الاقتباسات الموجزة من الصحافة الأوربية اثناء المعركة يكفى لالقاء بعض الضوء عليها

«فى تاريخ أوربا» كتبت الأويزيرفاتير : «سيكون أكتوبر ١٩٧٣ بداية تاريخ الانهيار الكبير فى حضارة العرب» » أما الأكسبريس فقالت «تحقق الأوربيون الآن أنهم سيعلقون لسنوات عديدة الى الولايات المتحدة من الناحية العسكرية ، والى العرب من ناحية الطاقة» . هذا بينما أغلقت الفيجارو المثلث بقولها «أصبحنا (الأوربيون) مستعمرين لثلاثة أطراف : العرب ، السوفييت ، أمريكا» !

وفيما بين موقف الأغلبية والأقلية ، أثبتت دوائر الحكومات أنها عرضة ، بعد التحفظ والحذر ، للتذبذب والتلاعب الى حد أو آخر ، وهى على أية حال مرهونة بتغير الأحزاب الحاكمة . ومن هذه الزاوية نلاحظ أنه قد حدثت عدة تغييرات شبه متعاصرة فى الحكومات والأحزاب الحاكمة فى عدد من الدول الأوربية بعد أكتوبر كأنها على ميعاد : مجيء حزب العمال فى بريطانيا ، استقالة برانت فى ألمانيا الغربية ، مجيء ديستان فى فرنسا .. إلخ . ورغم أنه من المحقق أن المواقف الأساسية لأوربا الغربية لم ولن تتغير فى المدى القريب عما كانت عليه أثناء أكتوبر ، فلا ينبغى أن نغفل أن هناك احتمالات ببعض التحفظ ومحاولات للإمساك بالعصا من الوسط .. إلخ ، وعلى أية حال ، فعلى العرب ألا يكفوا عن الحوار والاقناع والضغط على أوربا الغربية ، حفاظا على موقفهم ان لم يكن تطويرا له .

بين أوربا وأمريكا

هذا من ناحية أوربا ، والعرب . أما مع أمريكا فقد اتسعت الفجوة الناشئة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة ووصلت الى حد الشرخ العميق حين رفضت الأولى أن تكون معبرا للسلاح الأمريكى الى اسرائيل أثناء المعركة مما عرض حيادها للخطر . ثم وصل الشرخ الى حد الصدع حين أعلنت أمريكا حالة التأهب النووى فى قواعدها الأوربية دون موافقة أو حتى علم الدول الأوربية ، مما عرضها هى نفسها لخطر الصدام النووى . وفى هذه الأزمة تبادلت أوربا وأمريكا الاتهامات المباشرة والقاسية . أوربا تحدثت عن «التأهب الزائف» و«الاجراءات المسرحية الخطرة» وعن تجاهل أمريكا لها تماما فى التأهب النووى «الى حد مهين» .

فرانس سوار ، مثلا كتبت عن قرار التأهب النووى الذى «بدا متطرفا ، أشبه بعملية تهويش يقوم بها لاعب قمار» . والصحف البريطانية كذلك هاجمت أمريكا قائلة إنها

عاملت بريطانيا «معاملة مهينة وكأن بريطانيا جمهورية للموز» (أى جمهورية تابعة لأمريكا) ، وردت سبب الخلاف الى عاملين : اهمال أمريكا التشاور مع لندن حول التأهب ، ثم الانتقادات العلنية من نيكسون وادارته للحلفاء .

وعموما فقد اتهمت الصحافة الأوربية بالاجماع الحكومة الأمريكية بأنها «أهملت اهمالا مشينا التشاور مع حلفائها قبل اعلان حالة التأهب بين قواتها داخل البلاد وفى قواعدها بالخارج» . وانتقد البعض قرار نيكسون بأنه «اجراء لم يكن له مايبرره ، وتجاوز فيه حدود ما كانت تقضى به الظروف أثناء الحرب بين العرب واسرائيل» . وقد لخص معلق أوربى الموقف كله فى أن «الولايات المتحدة ، فيما يبدو ، لاتستشير أوربا فى أوجه تعاونها مع الاتحاد السوفييتى ، وهى لاتستشيرها الآن فى تحركات مجابهتها أيضا . إن هناك شعورا متزايداً بأن الأمريكيين لن يتشاوروا - معنا حول أى شىء يفعلونه » .

ولم يكن الساسة الأوربيون أقل انتقادا أو صراحة وعنفا من الصحافة . ان الحرب - قال ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا - أكدت شكوك فرنسا عن سياسات الوفاق الأمريكية السوفييتية ، ولقد «أهانت» الدولتان الأعظم أوربا بتجاهلهما لها فى محاولاتهما لأنها القتال .. وهما «تتجاوزان حدودهما» فى سياسة توازن القوة والوفاق . أما هارولد ويلسون - فى المعارضة وقتئذ - فقد اعتبر التأهب بلا تشاور « اهانة تدعو الى أقصى درجات الغضب» .

أما الأمريكيون ، من جانبهم ، فقد ردوا بحدة كبيرة ومرارة أكبر ، فعلقوا على العلاقات «الهشة» التى كشفت عنها الحرب بين الأمريكيين والأوربيين «أصدقاء الرخاء» . وقالوا كذلك ان المسئولين الأوربيين يسعون الى أن يتنصلوا من السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل وأن «يطلقوا أنفسهم» عنها حفاظا على مصالحهم فى استمرار تدفق البترول . وفيما بعد وصفت الحكومة الأمريكية بيان السوق الأوربية المشتركة ازاء الأزمة والذى حدد موقفها بالحياد بأنه «ينم عن الجبن والتهيب» . هذا بينما شاع عن كيسنجر قوله المقتضب للمحيطين به أنه «مشمئز» من موقف الحلفاء الأوربيين ..

ومما لاشك فيه أن الخلاف تحول الى أزمة حقيقية حادة بين الأمريكيين والأوربيين . وفيما بين الاثنين ، كتب البعض أن العلاقات بين أمريكا وأوربا الغربية «لم تكن قط

أسوأ مما هى عليه الآن منذ حرب السويس قبل ١٧ عاما مضت . وقد بدا .. أن أنوار عام ١٩٥٦ قد قلبت رأسا على عقب . فالولايات المتحدة تبدى نفس الازدراء الغاضب تجاه حلفائها فى حلف الأطلنطى بسبب افتقارهم المزعوم الى التأييد فيما يتعلق بالشرق الأوسط على نحو ما أبداه كل من أنتونى ايدن وجى موليه تجاه الرئيس ايزنهاور أثناء حرب السويس» (روبرت ستيفنز) . مصدر آخر قال انها «أعمق خلافات خلال ٢٤ عاما من تاريخ حلف الاطلنطى» ، بينما صك بعضهم التعبير الساخر «المحيط المتجمد الأطلنطى» كناية عن صقيع البرودة الشديدة التى رانت على شاطىء المحيط ، فى حين قال دبلوماسى غربى «الآن بدأت الحرب الباردة بين أوربا الغربية وأمريكا»!

وقد حاول الجانبان فيما بعد تهدئة حدة الموقف بالتدريج وان يدفعنا الشجار بطريقة دبلوماسية . فاعتبره البعض نوعا من «النزاع العائلى» داخل الأسرة الواحدة ، وقيل ان امريكا عبرت عن شعورها بالندم فى النهاية على عنف وخشونة لهجتها أثناء المساجلة . وقد أمكن بالفعل تجاوز الأزمة ، غير ان جذورها ظلت بلا شك هناك وبقى فى النفوس كثير من المرارة وتحت الرماد بعض النار فى انتظار أول مناسبة جديدة لتندلع من جديد . وقد كانت أزمة الطاقة ومعركة البترول هى تلك المناسبة . فما أن هدأت أزمة التأهب النووى بالكاد ، حتى تفجرت أزمة البترول ، وفيها بدا التناقض بين أوربا الغربية وأمريكا أعمق وأخطر لأنه تناقض مصالح حيوية ومصيرية مباشرة . وبهذا أصبح التناقض فى الواقع مزدوجا : الوفاق والبترول . وبهذا أيضا كشف الخلاف بين القارتين عن طبيعته الحقيقية ، وهى أنه صراع قوة من أجل النفوذ وتصادم مصالح رأسمالية من أجل البقاء .

وقد عبر نيكولاس كارول عن هذا بأن الوفاق بين الولايات والاتحاد أنهى دور أوربا «كوسيط» بين الطرفين ، وقضى بذلك على مطامح فرنسا القديمة بالذات فى أن تكون جسرا للتفاهم بين الشرق والغرب . بينما أضاف وليم سافير أن خوف أوربا من الاتحاد السوفييتى دفعها فى الأصل الى الولايات المتحدة ، ولكن خوفها الآن من فقد البترول أخذ يدفعها بعيدا عنها . وبهذا وذاك لم يعد حلف الاطلنطى بعد أكتوبر كما كان قبله ، وتحول «عام أوربا» الاحتفالى الذى كان يخطط له نيكسون الى «عام الشرق الأوسط» المتأزم ، ومشروع «ميثاق الأطلنطى الجديد» المتلاحم الذى كان يرسمه كيسنجر الى مشروع «شخصية أوربية جديدة» أكثر استقلالا وتباعدا .

وواقع الأمر أن أوربا الغربية اذا كانت قد اخذت تخشى من ان تفقد دور الوساطة السياسية فى الوفاق بين العملاقين الذى يختزل بذلك وظيفتها ، فقد بدأت أمريكا كذلك تتوجس من أن تفقد من جانبها دور الوساطة الاقتصادية فى البترول بين أوربا والعرب وأن تحتل أوربا مكانها فى بترول العرب ، وباتت تعارض بكل قوة نمو العلاقات البترولية المباشرة بين حلفائها الأوربيين والعرب وتعمل بكل وسيلة للحيلولة دون أوربا الغربية والعرب . لقد بدأت الحرب الاقتصادية بعد السياسية . وهكذا رفضت أوربا الغربية الانصياع لدعوة أمريكا الى مواجهة بترولية مع العرب ، ورسمت على العكس سياسة للتقارب المباشر معهم.

وحين قرر مجلس السوق الأوربية المشتركة عقد مؤتمر عربى - أوربى للتعاون فى شئون الطاقة والتكنولوجيا ، كشف رد فعل أمريكا عن عمق الصدع وخطورة الصراع .فقيام تعاون مباشر بين السوق الأوربية والعرب - هكذا أعلنت المصادر الحكومية الأمريكية - «قد يؤدى الى مواجهة فى الشرق الأوسط بين أمريكا وحلفائها الأوربيين» . وبعد أن أعربت هذه المصادر عن أسفها لأن الأوربيين لم يستشيروا أمريكا قبل القرار ، الذى رأوا فيه رغبة من جانب فرنسا فى تنظيم الوحدة الأوربية ان لم يكن ضد أمريكا فعلى الأقل بعيدا عن السياسة الأمريكية ، قالت انها «تحتفظ بحق العمل كما يفعل الأوربيون» . ثم أضافوا «إننا لا نريد مواجهة مع أوربا . لكن اذا لزم الأمر فلن يتمكن الأوربيون من منافستنا فى الشرق الأوسط ، واذا حاربناهم فستكون الغلبة لنا» .

وعلى الفور رد بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بأنه «لا يمكن حل مشكلات الطاقة الا بالتعاون مع كل دول الشرق الأوسط وليس بالمواجهة بين الكتل المتصارعة واهتمام فرنسا بالعالم العربى لا يرجع تاريخه الى حرب أكتوبر أو أزمة البترول ، ولكنه اهتمام اتخذ طابع الاستمرار قبل ذلك بكثير . وفرنسا على استعداد لمعاونة الدول العربية المنتجة للبترول على استغلال امكانياتها المالية لتحقيق أهداف التنمية بها» .

ذلك كان آخر ما انتهى اليه التراشق عبر الأطلنطى ، ومن الواضح تماما أن الصراع قد وصل الى نقطة أخطر بكثير مما كان يتوقع الكثيرون . وقد عبر كيسنجر أخيرا عن هذه الحقيقة بصراحة تامة فقال ان «أصدقاء أمريكا الأوربيين يشكلون لها مشكلة فى

السياسة الخارجية أكثر من أعدائها . كذلك عاد فأكد أن «الخلافات القائمة بين أمريكا وأوربا حقيقية وخطيرة» ، وسوف تحتاج الى وقت وصبر لحلها . كذلك أعلن نيكسون نفسه أن أوربا لايمكن أن تجمع بين عـــداوتها البادية لأمريكا وبين الاعتـــماد عليها فى مسائل الأمن والاستراتيجية ، أو كما وصفها «ان أوربا لا تستطيع أن تتبع سياسة تعاون مع أمريكا فى الأمن ، وسياســـة مواجهة ضدها فى الاقتصاد .. ولايمكن اســـتمرار العلاقات الأوربيـــة الأمريكية على أساس التعاون العسكرى والمواجهـــة الاقتصادية» .

وعلى الفور بادر ميسمير فرد قائلا «على أوربا أن تتطور مستقلة عن شركائها» ، بينما كان جوبير أشد حسماً «على أوربا أن تستعد للاستغناء عن مظلة أمريكا الذرية اذا كانت هذه تتعارض مع كرامتها» . وعن تلويح أمريكا بسحب قواتها ومظلتها الذرية من أوربا ، كتبت الموند بلا مواربة «هذا ابتزاز» . والواقع أن صراع القوة كامن فى كل هذه المواقف ، أمريكا تريد ان توطد زعامتها وسيطرتها على أوربا «الآبقة» ، وأوربا تريد أن تسترد سيادتها واستقلالها عن «التبعية» الأمريكية . قال بومبيدو «ان أوربا يسيطر عليها الأمريكيون ليست أوربا على الاطلاق» ، بينما رفض رئيس وزرائه ميسمير صراحة محاولات أمريكا زعامة العالم الغربى مطالبا بأن تكون أوربا الغربية على قدم المساواة مع أمريكا .

وهنا عاد نيكسون فقال ان الأوربيين اتخذوا موقفا معاديا للولايات المتحدة فى بعض المسائل . ولكن سحب القوات الأمريكية من أوربا كاجراء انتقامى أمر ينطوى على تهديد للسلام ، ويبدو الآن أن تكتيك الولايات المتحدة هو دق اسفين بين فرنسا وزميلاتها الأوربيات لعزلها وتصفية زعامتها المتحدية ، وقيل فى هذا ان من المؤكد ان الدول الأوربية اذا ما خيرت بين أمريكا وفرنسا فستختار الأولى بلا تردد ، وهو ما أشار اليه جوبير بكلمة «الخيانة» .. ومن الناحية الأخرى فالمعتقد ان هذه الخلافات ستسوى بطريقة أو بأخرى تحت صيغة ما مقبولة للجميع فى وقت قريب أو بعيد ، وان كانت المناقشة لاتزال سجالا عبر المحيط وفوق رأس الحلف .

نتائج المعركة

والســؤال الآن هو : الى أين ؟ ما النتائج والاحتمالات والانعكاسات وما علاقتها

بالعرب والصراع العربى ضد اسرائيل ؟ ولعل أول رد هو ان هذه المواجهة الباردة (أم الساخنة؟) بين الحليفين كان من أبرز وأخطر نتائجها تعجيل اتجاهات الوحدة الأوربية واندفاع أوربا اليها بصورة حاسمة . كما قال الجنرال بوفر مثلا « .. يبقى على أوربا المنقسمة ، هذه التى استنامت الى وهم الوفاق ، أن تدرك موقفها الخطير بين الدولتين الأعظم . والنتيجة التى يجب عليها ان تستخلصها هى أن تسرع خطاها نحو الاتحاد» .

وهذا مايؤدى بنا الى حقيقة فائقة الأهمية ، هى أنّ الشرق الأوسط حتى منذ الخمسينات كان عاملا دقيقا لا فى السياسة الخارجية الأوربية فقط وانما فى سياسة الوحدة الأوربية نفسها ، فمنذ وقت مبكر ، أدركت أوربا (هالشتاين بصفة خاصة) أن السوق الأوربية المشتركة ماكانت لتتحقق لولا أزمة السويس ١٩٥٦ التى تعارضت فيها مصالح ومواقف الأوربيين والأمريكيين . ثم ازداد ادراك الأوربيين لضرورة الوحدة مع كل حرب لاحقة بين العرب واسرائيل ، حتى ليقال ان حرب ١٩٥٦ هى التى خلقت الوحدة الأوربية وحرب ١٩٧٣ هى التى عمقتها ودعمتها الى الأبد (أنتونى سامسون) .

ومن هذه الزاوية فالواقع أيضا أن حرب أكتوبر هى التى حررت أوربا أو ساعدت على تحريرها بصورة نهائية وحاسمة من الوصاية والتبعية الأمريكية ، لأن هذا هو المعنى الحقيقى للوحدة الأوربية . كذلك يمكن أن نضيف ان حرب أكتوبر قد حررت أوربا من نازية جديدة على ضلوعها الجنوبية (اسرائيل الصهيونية) ، مثلما حررتها الحرب العالمية الثانية من قبل من نازية قديمة فى قلبها (المانيا الهتلرية) . وفى المحصلة العامة ، نرى أن دفعة الحرب العربية المنتصرة هى التى وضعت حدا أو أخر «للعلاقة الخاصة» بين أوربا وكل من أمريكا فى جانب واسرائيل فى الجانب الآخر ، وأنها هى بذلك التى ساعدت أوربا الغربية على بلورة استقلالها الجديد ووحدتها الناشئة . لقد جاءت حرب أكتوبر بمثابة معجل أو مفاعل وحدوى لأوربا . واذا كان البعض ، مثل بيتر شور الزعيم العمالى البريطانى ، يرى على العكس أن «السياسة العربية البترولية قد قضت على أسطورة الوحدة الأوربية» فهذا لا يعبر الا عن اتجاه ثانوى ويكاد يمثل الاستثناء لا القاعدة .

وبقدر ما تباعد الموقف الأوربى عن الأمريكى فى ١٩٧٣ ، تقارب مع الموقف العربى . وبتعبير أخر ، بينما تباعد شاطئا الأطلنطى ، تقارب شاطئا المتوسط . وحتى منذ ما بعد يونيو ازداد التدخل المطرد فى العلاقات بين أوربا الغربية والعالم العربى الى حد زالت فيه كثير من الحساسيات والعقد القديمة وبدأت معه صفحة جديدة تنبىء بمستقبل كبير .

الرئيس بومبيدو ، مثلا تحدث عن العلاقات الجغرافية والتاريخية والمصالح الاقتصادية والثقافية بين أوربا والعرب . بينما اقترح ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا على السوق الأوربية عقد مؤتمر يضم دول السوق والدول العربية لدراسة امكانيات التعاون بين الدول «المتقاربة جغرافيا» . وعن وحدة البحر المتوسط وشعوب شاطئيه كذلك أسهب الكثير من الكتاب الأوربيين .

وبعض المفكرين الأوربيين دعوا بصورة محددة الى فكرة ارتباط وتعاون اوربى - عربى كوحدة متكاملة - أورابيا Eurabia كما صكوها - على غرار أورافريقيا ، وتشمل كل مجالات الحياة ..إلخ . أما السوق المشتركة فقد سبق أن طرحت إبان الأزمة فكرة الدعوة الى مؤتمر اقتصادى مع العرب يحقق ضمان تدفق البترول العربى إلى أوربا ، ويوفر الحاجات التكنولوجية والمالية الأوربية للعرب . ثم قرر مجلس السوق أخيرا عقد «مؤتمر أوربى - عربى على مستوى وزارى لتنظيم وسائل التعاون فى شئون الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والعلوم» .

وكتعبير استراتيجى جامع عن هذه العلاقات المطلوبة ، ذهب حتى فرانسوا ميتران ، زعيم الاشتراكيين الفرنسيين ذوى العلاقات التقليدية الوثيقة مع العدو الاسرائيلى ، الى أنه «اذا كان عليهم كاشتراكيين فرنسيين ان يحددوا محورين حول أوربا السياسية ، فانهما يتمثلان فى محاولة حل مسألة الأمن الجماعى مع الروسيا السوفييتية ، وتكوين حلف للبحر المتوسط مع البلاد الواقعة على شواطئه . ذلك لمحاولة ايجاد توازن مع قوى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، لا عن طريق انشاء حلف عسكرى ، وانما عن طريق خلق قوة جديدة تنبع من وحدة العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية والانسانية ، بحيث لاتصبح القرارات التى تتخذ فى المناطق الممتدة من السويد حتى السعودية ، أى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، تصدر مركزيا بمكالمة تليفونية بين نيكسون وبرجنيف ، وانما تصدر عن الشعوب والدول صاحبة حق السيادة فى تقرير مصير هذه المنطقة» .

تلك كلها وجهات نظر مختلفة ، تبدأ وتنتهى بزوايا ومستويات متباينة ، وقد لاتكون جميعا خالصة لوجه العرب أو مخلصة لقضيتهم ، لكنها تتجه دائما الى تصور عالم جديد من العلاقات بين أوربا والعرب . ولقد يكون من السابق لأوانه ان يتحدث أحد عن «وفاق صغير Little Entente» يربط بصورة ما نسبية ومخففة بين العرب وأوربا الغربية ، متعامدا على «الوفاق الأعظم» ومتوسطا بينه وموازيا له ، ولكن ليس من المستبعد أو المستكثر ان ينبثق مثل هذا المحور البازغ أو البرعم يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد.

افريقيا والمعركة

وقد يكون الوقت مبكرا كذلك لأن نتكلم عن وفاق أخر ، «الوفاق الأصفر» مثلا ، بين العرب وافريقيا كنتيجة للمعركة ، ولكن المعركة قد ألقت البذرة بالفعل . فلقد دشنت المعركة انقلابا كاملا فى العلاقات الافريقية – العربية والافريقية – الاسرائيلية فى آن واحد ، دعم الأولى بقدر ما هدم الثانية . وبذلك تحققت وحدة القارة الافريقية كما لم تتحقق من قبل ، وتلاحمت الوحدة العربية – الافريقية – مثلما لم تفعل قط .

هكذا ، وكما تقارب شاطئا البحر المتوسط فى الشمال ، تقارب أيضا ساحلا الصحراء الكبرى حتى التصقا وحتى اختفت الصحراء كفاصل أو عازل سياسى ، وبعبارة أخرى ، فكما «عبرت» العرب البحر نحو الشمال فتداخلت علاقاتها وصداقاتها مع أوربا ، عبرت أفريقيا بدورها الصحراء نحو الشمال لتتداخل هى الأخرى وتتلاحم مصيريا مع العرب . وبهذا وذاك يبرز نمط جيوبوليتيكى جديد مشترك يجمع بين الجميع له مغزاه الكبير وقد تكون له أهمية كبرى فى المستقبل . ولكن فلنفصل أولا قبل ان نصل الى هذا النمط .

منذ وضعت اسرائيل قدمها فى «حذاء» الاستعمار القديم الذى غادر افريقيا بعد الاستقلال ، ومنذ مدت أمريكا ذراعها لترث الدور الامبريالى فى القارة ، أصبحت الساحة الافريقية مسرحا ضخما للصراع السياسى والدبلوماسى بين العرب واسرائيل . ومنذ نفذت اسرائيل الى البحر الأحمر واكتمل التسلل الصهيونى الى افريقيا ، استطاعت اسرائيل ان توطد لنفسها موطىء أقدام راسخة فى بعض دولها ، اتخذت منها قواعد للمزيد من التوغل والتغلغل .

وعن طريق المساعدات المتنوعة وعدد من مشروعات التنمية والتطوير والتدريب سواء زراعيا وصناعيا أو تجاريا وعسكريا ، نجحت اسرائيل لبعض الوقت والى حد معين فى ان تنمى عــلاقاتها ومصالحها فى القارة . وأكثر من هذا استطاعت ان تخدع الافريقيين الى حين عن حقيقة دورها كمخلب قط للامبريالية وحصان طرواده للاستعمار وكعميل وسمسار له من الباطن ، فضلا عن كيانها الاستعمارى ذاته الذى يكرر بكل أمانة وبكل تفصيل صورة الاستعمار الاستيطانى الأبيض الذى يعد سرطان القارة وجذامها العنصرى وبطوقها من الجنوب بجبهة مثلثة فى جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا ثم موزمبيق وأنجولا .

وقد بذلت الدول العربية جهودا دبلوماسية وسياسية مستمرة بلا كلل من أجل كشف حقيقة اسرائيل وتعريتها أمام الافريقيين . وعبر سلسلة من الاتصالات المكثفة ، توجتها من حين الى آخر مؤتمرات الوحدة والقمة الافريقية ، نجحت الدول العربية فى تحويل المد بالتدريج وفى ان تحول دون استشراء الخطر الصهيونى فى القاهرة . وقد ظهرت آثار هذه الجهود بعد يونيو ، حين اخذت افريقيا تلعب دورا متناميا فى البحث عن حل للازمة . فكانت بعثة «حكماء افريقيا» وكان مؤتمر أديس أبابا الذى سجل أكبر تأييد أدبى ودبلوماسى للقضية العربية فى تاريخ العلاقات العربية - الأفريقية حيث أدان العدوان الاسرائيلى بحسم وطالب بحزم بالانسحاب .

غير أن معركة أكتوبر جاءت نقطة التحول الحاسمة بل العارمة . فقبيل المعركة كانت مجموعة من الدول الافريقية قد فطنت نهائيا الى الخطر الاسرائيلى على القارة وعلى السلام العالمى فقطعت العلاقات الدبلوماسية معها . ولكن تلك لم تكن سوى البداية التى تنتظر المعركة لتأخذ منها إشارة الانطلاق . فاذا بسلسلة متتابعة ، لن تلبث بعدوى صحية أن تحولت الى شلال منهمر ، من قطع العلاقات تترى وتتواتر من كل أركان القارة . واذا نحو ٢٩ دولة افريقية تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فى غضون شهر واحد تقريبا ، قل بمعدل دولة كل يوم ! بل لقد تصادف بالفعل أن أعلنت أكثر من دولة واحدة قطع العلاقات فى يوم واحد ! لقد كان ذلك بحق «شهر أفريقيا» ، مثلما كانت سنة ١٩٦٠ هى تحريرياً «سنة افريقيا» . كأنما القارة قد تخصصت فى المفاجآت السياسية بالجملة ، مركزة مكثفة فى فورة عنيفة بعد طول كمون !

ولقد فقدت اسرائيل فى هذه الموجة المدية الكاسحة مواقع لها كانت تحسبها لأسباب خاصة جدا منيعة وآمنة جدا ، سواء ذلك فى منطقة القرن الافريقى أو فى قلب القارة أو غربها . واذا كانت قد تبقت بضع دول لم تزل على علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فتلك وحدات صغرى أساساً تعانى من أوضاع جغرافية سياسية شاذة تضعها فى تضاعيف وتحت رحمة كتلة الاستعمار المتخلف فى أقصى جنوب القارة ، لقد تم ، عمليا ، «طرد» اسرائيل من القارة السوداء .

مامعنى هذا ، وماذا بعده ؟ لقد أدركت افريقيا نهائيا ان اسرائيل هى جنوب افريقيا العرب وروديسياهم ، أو موزمبيق الشرق الأوسط وأنجولاه . أدركت أنها عنصرية افريقيا السمراء ، حيث تلك الدول هى عنصرية افريقيا السوداء ، وهى مثلها عدوة افريقيا القاتلة . لقد رأت افريقيا أخيرا كيف أنها محاصرة بين مثلث ضخم من العنصرية البيضاء ترتكز رءوسه على أطراف القارة الثلاثة : جنوب افريقيا وروديسيا وموزمبيق وأنجولا فى جنوب القارة ، ثم البرتغال المتروبول الاستعمارية على ضلوعها فى الشمال الغربى ، ثم أخيراً اسرائيل الصهيونية الدخيلة على ضلوعها فى الشمال الشرقى . فكان حقا على افريقيا أن تلفظ اسرائيل من بيتها الى أن تلفظ من بوابتها .

مرة أخرى ، مامعنى هذا ، وما محمولاته ؟ لقد غيرت حرب أكتوبر المنتصرة موقف افريقيا ، الذى لم يكن يخلو من شىء من تحفظ هنا وبعض من تردد هناك . غيرته مرة واحدة والى الأبد ، فاكتمل عدم انحيازها تماما ، وأكملت وحدة القارة الحتمية . واذا كان رئيس زائير قد قال مرة «اذا كان للمرء أن يختار بين صديق وشقيق ، فإنه يختار الشقيق» . فقد عاد بعد المعركة ليقول ان هذا كان قبل أكتوبر ، أما الآن فاسرائيل ليست صديقا بل هى عدو .

لقد وجدت افريقيا فى النصر العربى نصرا لها ولكل العالم الثالث . انه أول نصر عسكرى حقيقى عصرى ضخم ومباشر تسجله افريقيا بل المتخلفون على الاستعمار «الأبيض» فى التاريخ الحديث . ولهذا بلا شك مغزاه الواضح فى الصراع ضد العنصرية العالمية . ولقد عبر رئيس زائير عن هذا بجلاء فى خطابه أمام مجلس الشعب المصرى حين قال «حين وضعتم النهاية لأسطورة التفوق العنصرى للصهيونيين ، فإنكم تكونون قد عاونتم فى التقدم بقضية الشعوب الافريقية التى تناضل والسلاح فى أيديها ضد

الاستعماريين والعنصريين» . كما أضاف فى مناسبة أخرى «لقد استطاعت مصر أن تفرض السلام على من يتحدث عن الحرب» .

بهذه الصفة ، وبغيرها كثير ، بدت مصر فى نظر القارة وكأنها «يابان افريقيا» ، أول دولة افريقية تهزم دولة «أوربية بيضاء» هزيمة عسكرية ايجابية داوية ، مثلما فعلت اليابان سنة ١٩٠٥ ، وبقدر ماشعرت افريقيا بالشرف والفخار لهذا النصر ، جاءت مبايعة للعرب ومصر بالقيادة فى القارة والزعامة فى العالم الثالث . فطرد اسرائيل على ذلك النحو ، الذى يكاد يرقى بشكل ما الى سحب اعتراف ، هو أيضا ترشيح بل تنصيب من جانب القارة لمصر والعرب كقلعة النضال المشترك ضد الأمبريالية وكدرع الحرية فيها .

ويعنى هذا أيضاً أن كل محاولات الاستعمار للدس والوقيعة ولدق اسفين بين العرب والافريقيين قد فشلت وتحطمت على صخرة الوحدة الطبيعية بينهم ، تلك التى تستمد مقوماتها من الوحدة الجغرافية المباشرة ثم من وحدة التحرير الوطنى والكفاح ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية («حلف المقهورين» كما دعاه البعض) . تبخرت أسطورة الصحراء كعازل بين شمال وجنوب ، بين عرب وزنوج ، بين افريقيا عربية وأخرى سوداء .. الخ . تحطمت كذلك أكذوبة تجارة الرقيق (لوحظ عودة الدعاية الأمريكية الى هذه النغمة القديمة بعد المعركة - لكن دون جدوى) .

ومن الناحية الأخرى ، فان لهذا الموقف الافريقى تبعاته الكبيرة على العرب . لقد ضحت افريقيا بمصالح ومكاسب مادية لاتخلو من قيمة فى سبيل الحق العربى . ولابد لنا أن نسدد هذه الخسائر بمعدل الربح المركب ، بل أضعافا مضاعفة ، ليس فقط تعويضا ولكن ليدرك الجميع أن صداقة العرب دائما أجدى وأنفع . اننا لابد ان نتحرك بسرعة وبلا أدنى تردد لنملأ «الفراغ» الجديد فى افريقيا ، حتى يكون «الخروج» الاسرائيلى منها نهائيا بلا عودة . والعرب يملكون بلا ريب كل مقومات المساعدة ماليا وتكنولوجيا وحضاريا . ومن حسن الحظ أن موتمر القمة العربى الأخير فى الجزائر قد قنن هذه السياسة بالفعل وخطط لبنك تنمية عربى - أفريقى برأسمال كاف ، كما بدأ التنفيذ على الفور .

تلك اذن صورة افريقيا الجديدة من خلال عدسة المعركة . غير أن من المستحسن فى نهاية هذا المسح أن نضعه فى اطار مشترك مع الموقف الأوربى ليكون المنظور أوسع

والرؤية أشمل . لقد تقاربت أفريقيا كثيرا من الحق العربى من الجنوب ، كما تقاربت أوربا الغربية من الشمال . وبذلك أصبحت هناك سلسلة متتابعة من ثلاث حلقات تتراص فى محور رأسى واحد من المواقف السياسية المتشابكة ولا نقول المتشابهة يحتل وسط العالم المهم ، بادئا من أوربا فى الشمال ومنتهيا بأفريقيا فى الجنوب وعقدته وحلقة الوصل فيه كما هو مبرر وجوده هو العالم العربى فى وسطه . وهذا المحور النسبى يتعامد - سنرى - على محور معسكر العدو الأفقى الذى يمتد بالعرض مابين اسرائيل وأمريكا والذى آن لنا أن ننتقل اليه .

الموقف الأمريكى

فاجأ العرب الولايات المتحدة مفاجأة صادمة بالحرب وبنتيجتها المفزعة ، ولكنهم لم يفاجئوا بموقف الولايات المتحدة وعدائها الرهيب .. فالولايات هى الى قريب العدو الأكبر والأصلى للقضية العربية . أما اسرائيل فمجرد يدها الضاربة فى المنطقة . وقد كان أكتوبر هزيمة وصفعة كبرى لأمريكا بالدرجة نفسها التى جاءت لاسرائيل . فلقد أثبتت فشلها فى كل خططها وادعاءاتها تقريبا : فشل مخابراتها وأجهزة تجسسها فى حساباتها وتنبؤاتها عن مدى اقدام العرب وقدرتهم على السرية وعلى المبادأة ، فشل أسلحتها فى ضمان النصر لحليفتها وصنيعتها ، فشل سياستها فى تمزيق الصف العربى وتفتيت وحدته .. إلخ .

وبوجه عام ، كان خطأ حسابات أمريكا مزدوجا مضاعفا ، فكما استبعدت - خطأ - امكان إقدام العرب على الحرب وقدرتهم على الهجوم ، استبعدت - خطأ أيضا - احتمال استخدامهم لسلاح البترول أو اجترائهم على رفعه فى وجهها . (عن الأولى أعلن كيسنجر شخصيا قبيل المعركة «أن القتال أمر غير محتمل الى درجة أنه ليس هناك فرصة تسمح به» ! وعن الثانية كان سيسكو قد أكد أمام الكونجرس فى الصيف الماضى «إن البلاد العربية المنتجة للبترول ، وخاصة المملكة السعودية ودول الخليج ، لن تستخدم سلاح البترول ، وأن مصالحها الوطنية تأتى قبل تأييدها للنزاع العربى الاسرائيلى»!)

لقد سقطت كل نظريات الحل الأمريكى مع كل أسلحتها حطاما على أرض الشرق الأوسط ، تماما مثلما سقطت نظرية الأمن الاسرائيلى . ان المد الرجعى العالمى الذى تقوده امريكا والذى وصل الى قمته فى يونيو ١٩٦٧ ومن بعدها زحف على العالم فى

موجة عاتية سواء فى الشرق الأوسط أو فى افريقيا أو بين دول عدم الانحياز والعالم الثالث ، هذا المد انقلب حسيرا وانحسر أخيرا الى جزر عميق على صخرة أكتوبر .

الاستراتيجية القديمة

فمنذ يونيو كانت الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة هى تصفية الأنظمة التقدمية والمقاومة الوطنية والقومية العربية بعد ان تم ضربها وحصارها بالنكسة . وكانت سياستها فى ذلك أن تفرض الاستسلام على العرب باسم السلام ، والعمل على «تركيعهم» بدعوى الحل السلمى . فلم يكن هذا الحل السلمى الا وسيلة لتسليم العرب كالثمرة الساقطة الى اسرائيل . وباختصار . كان «السلام الأمريكى» هو نفسه «السلام الاسرائيلى» وكان «الحل الأمريكى» هو بعينه «الحل الاسرائيلى» .

وفى هذا السبيل حاربت أمريكا كل الجهود الدولية لاقرار السلام القائم على العدل وتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ، ولأول مرة فى تاريخها تستعمل حق الفيتو عدة مرات ضد العرب . وطوال الوقت عملت على أن تحتكر وحدها حل الأزمة ، أو بالأصح حق الحل . أجهضت جهود مبعوث الأمم المتحدة يارنج ، وعوقت حتى عقمت تحركات حليفاتها الكبرى فى غرب أوربا ومحاولاتها للاسهام فى حل الأزمة ، وفوق الكل عارضت دور الاتحاد السوفييتى وسعت الى طرده من القضية «فهو اذا كان يملك ان يقدم السلاح للعرب فانها هى وحدها التى تملك أن تقدم السلام» ، بل وسعت الى «طرده» هو نفسه من الشرق الأوسط أصلا - هذا تعبير كيسنجر الذى تورط فيه قبيل الوفاق . وبهذا كله أوصلت أمريكا الحل السلمى الى طريق مسدود ، وعلقت الأزمة فى حالة مجمدة من السلام المتفجر والانفجار الكامن هى تلك التى اصطلح على تسميتها بحالة اللا حرب واللا سلم .

وخلال سنوات ست متصلة كان تكتيك الولايات المتحدة هو ان تدفع بالعرب الى «المفاوضات المباشرة» مع اسرائيل «بغير شروط مسبقة» أى بعد القبول باسقاط حتى قرار ٢٤٢ ، ثم من المفاوضات المباشرة الى الصلح النهائى ، أى الاعتراف والتنازل عن الاراضى المحتلة والوطن السليب ... الخ . وفى الوقت نفسه أمعنت فى سياستها الداعية من المحافظة على التوازن العسكرى فى المنطقة ، أى ضمان التفوق العسكرى المطلق لاسرائيلها على العرب مجتمعين . وقد وصلت أمريكا فى هذا المجال الى حد من التصعيد

لم يسبق له مثيل فى تاريخها أو تاريخ ربيبتها من قبل . فكما أعلن نيكسون بنفسه ، بلغ حجم السلاح الأمريكى الذى ندفق على اسرائيل فى ادارته وحده أكثر من كل مجموعه منذ نشأة اسرائيل وحتى بداية عهده .

وقد كان المعنى الوحيد لهذه الاستراتيجية ولهذا التكتيك هو أن أمريكا انما تخير العرب فى الحقيقة بين اختيارين : إما العبودية وإما الانتحار ، اما أن ينتحروا طواعية على مذبح اسرائيل بصما على صك التسليم ، واما أن تتولى اسرائيل بنفسها قتلهم بالسلام الأمريكى المسلط والرهيب . وكان اعتقاد امريكا الجازم والكامن وراء هذا المنطق أنه ما من اختيار ثالث أمام العرب . انها هى وحدها التى تملك أن تمنع أو تمنح – حتى حق البقاء والحياة .

بالمعركة ، وبالعبور ، بتدمير الخط ، اثبت العرب ان هناك – على العكس – ذلك الاختيار الثالث ، الاختيار العربى البحت النابع من الارادة الحرة والقوة القادرة ، أكثر من ذلك ، اثبتوا – بالبترول – انهم هم الذين يملكون أن يمنحوا أو أن يمنعوا . أبعد منه أيضا ، نجحت المعركة فى ان تعرى بصورة نهائية وحاسمة حقيقة العلاقة غير الشرعية المشروعة المشبوهة والشوهاء بين النجمة الخماسية والنجمة السداسية ، ونجحت فى تأزيمها ووضعها فى مأزق حقيقى لأول مرة ، بل ونجحت كذلك فى تأزيم موقف الولايات المتحدة فى العالم كله ، بما فى ذلك أقرب أصدقائها وحليفاتها .

فبعد مفاجأة المعركة الصادقة ثم الانتصارات العربية الباهرة ، أسفرت أمريكا عن وجهها القبيح بغير نقاب . فهددت على لسان رئيسها بامكانية التدخل العسكرى على غرار تدخلها فى لبنان والأردن من قبل . ثم على جسر من الحقد الضارى ، مدت جسرها الدموى الجوى والبحرى لتعوض وتدعم اسرائيل بالسلاح المتطور بلا حساب . دون أن يمنع هذا تدمير هذا السلاح المتطور على أرض سيناء والجولان بلا حساب أيضا . فصعدت علمية الامداد من جديد بكميات ونوعيات من مستوى جديد ،. سلمته فى حقل القتال نفسه ، ومن تلك الأسلحة ما لم يسبق استعماله قط فى ميدان وما لم تحظ به حتى كبرى حليفاتها فى أوربا الغربية وما هدد الترسانة الأمريكية نفسها بالنضوب .

ولقد رأينا كيف أن أمريكا حاربت فى الحقيقة معركتين لاسرائيل خلال الحرب: الأولى بالسلاح المكدس المختزن من قبل ، وهى التى كادت تفقدها اسرائيل ، والثانية بامداد

السلاح المباشر العاجل والمحمول جوا وبحرا ، وهى وحدها التى انقذت اسرائيل من هزيمة كاملة محققة . والفارق الوحيد بين الاثنتين ان احداهما أكثر أو أقل مباشرة من الأخرى . ولقد كان موقف أمريكا فى كل هذا شديد الوضوح كما كان بالغ الضراوة : ليس فقط ألا تسمح بهزيمة السلاح الأمريكى على ما اعتبرته السلاح «الروسى» ، الأمر الذى يدمر هيبتها الاستراتيجية فى العالم كله ، ولكن أيضا ألا تسمح بهزيمة حقيقية لعميلتها اسرائيل والا فقدت كل لعبة القوة العالمية والشرق الأوسط معها .

عزلة أكتوبر

من أجل هذه المحظورات ، كانت أمريكا على استعداد لأن تقع فى أقصى المحاذير مع اصدقائها كما مع أعدائها على حد سواء . فمع أقرب وأقوى حليفاتها فى غرب أوربا، كشرت عن أنيابها الأطلنطية لأنها أخفقت فى القبول بأن تحول وتحرف الحلف من هدفه الأصلى المشروع وهو الدفاع عن أوربا ضد الخطر الشيوعى الى قاعدة لعملياتها العدوانية ضد العرب ولحساب اسرائيل، وهى العمليات التى لا مصلحة لأوربا فيها. وفى هذه المواجهة تجاهلت امريكا تماما مصالح أوربا، وكذلك اليابان، البترولية التى تعتمد على العرب تماما، حيث لاتتأثر هى كثيرا بهذا العامل. وتضاعف الصدع بعد أن كشرت أمريكا عن أنيابها الذرية للاتحاد السوفيتى، الأمر الذى عرض أمن أوربا للخطر النووى المباشر من فوق رأسها ومن وراء ظهرها.

وقد كان مغزى هذا كله بارزا مثلما هو مروع بالنسبة للأوربيين : ان الولايات تضع أمن اسرائيل فوق أمن أوربا الغربية، وهى على استعداد لأن تعرض الأخيرة للخطر النووى لمصلحة وحساب الأولى. اسرائيل، فى كلمة أخرى، أهم عند أمريكا من أوربا. ولم يكن ذلك كشفا جديدا تماما لدى الأوربيين، فمن قبل مثلا شحنت أمريكا اسرائيل بأسلحة متطورة حجبتها عن أوربا نفسها وجحدتها اياها. ومن بعد كذلك أغدقت على اسرائيل بقرار واحد ٢٢٠٠ مليون دولار، ومن بعدها مباشرة ٣٠٠٠ مليون أخرى، تسليحا ومنحا أو كقروض، وذلك فى الوقت الذى تهدد أوربا فيه بسحب قواتها المرابطة بها لكى توفر بضع مئات من ملايين الدولارات لا أكثر. لهذا ولغيره لم تفاجأ أوربا تماما بالتحول الأمريكى، ولكن الجديد أن الصدمة الأوربية كانت مؤثرة، وبالمثل جاءت الافاقة.

هناك تحول الشرخ السياسى بين امريكا وحلفائها الى أخدود عميق ـ وكما تباعد شاطئا الأطلنطى بين أمريكا وأوربا الغربية، تباعد على الجانب الآخر شاطئا الهادى بينها وبين اليابان. فاذا أضفنا الموقف الافريقى الذى تباعد عن معسكر العدو، وكذلك دول عدم الانحياز، أمكننا أن نتصور العملية كلها كحركة تباعد وانفصال شبه عالمية عن النواة الأمريكية، قل مجازا عملية «زحزحة قارات Continental Drift » بالمعنى الجيوبوليتيكى بدل الجيولوجى. وهى عملية تترك أمريكا بالتدريج جزيرة سياسية مطردة العزلة حتى عن الأصدقاء فضلا عن الأعداء.

فاذا نحن تذكرنا أن المعسكر الغربى أو «العالم الحر» ـ كما سمى ـ كان بعد الحرب الثانية مباشرة كالكتلة الصلبة الصماء الواحدة المندمجة بشدة وتماسك حول نواتها الأم أمريكا كأنها معا قارة اليابس كله أو أغلبه سياسيا، قل قارة بانجيا Pangea السياسية على غرار مايسمى الجيولوجيون يابس الكرة الأرضية حين كان كتلة قارية واحدة ثم انفصلت بالزحزحة القارية الى القارات الحالية، نقول اذا تذكرنا هذا ثم قارنا ذاك لأدركنا كيف تعرضت الولايات المتحدة لزحزحة قارية حقيقية وكوكبية على المستوى السياسى جردتها بالتدريج من قاراتها الأطراف الى أن اكتملت العملية على يد حرب أكتوبر. لقد تمت عزلة الولايات.

واذا كان هناك من استثناء لهذه العزلة الباردة، فانما هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها . فمن بين الحليفات الأوربيات ، لم يكن هناك من تعاطف مع اسرائيل سوى هولندا ، ولم يكن هناك من قدم قاعدة للجسر الأمريكى سوى البرتغال . والواقع أن محور الولايات – البرتغال – اسرائيل كان هو كل ماتبقى لها أثناء المعركة . وبهذا كان محورا أحاديا مثلما هو معزول ، يترامى (أو يترنح) فى وحشة العراء بين كتلة أوربا المحيدة الى الشمال وكتلة العالم الثالث الى الجنوب .. والطريف ان الحلقة الوسطى فى المحور لم تلبث أن انهارت حين قام الانقلاب فى البرتغال ، ذلك الذى قد يكون ثمرة من ثمار النصر العربى فى أكتوبر بطريقة غير مباشرة ، والذى يعد نذير شؤم لمصير الاستعمار الاستيطانى العنصرى الصهيونى المماثل فى فلسطين .

هذا عن موقف أمريكا مع أصدقائها . أما مع الاتحاد السوفييتى فقد وصلت المواجهة الى حد التهديد بحرب نووية ، وقد كان هذا هو قمة الابتزاز النووى ، وهو أيضا ما أكد

النظرية القائلة بأن بقاء اسرائيل والوجود الاسرائيلى نفسه أصبحا الآن وظيفة لهذا الابتزاز الأمريكى النووى ، وبهذا الابتزاز غير المسئول ، وبعد أن تحطمت أسطورة اسرائيل التى لاتهزم ، كانت أمريكا تحاول فيما يبدو أن تفرض على الوفاق سياسة «لا غالب ولا مغلوب» فى الشرق الأوسط ، سياسة «اللا نصر واللا هزيمة» بدلا من ، وبعد ، سياسة «اللا حرب واللا سلم» التى انهارت الى غير رجعة قط . .

أما التهديد النووى فأدنى على الأرجح الى سياسة «التهويش» ، يعيد ذكرى سياسة «حافة الهاوية» التى هندسها دللز ، ويستغل الى أقصى حد وبلا خلق استراتيجية الرعب والترويع . انه ليس من المسموح به للعرب على الاطلاق – هكذا كانت تتوعد وترعد أمريكا – أن يحققوا نصــرا كاملا أو حاسما على اسرائيل ، وإلا فانها الحرب النووية . أما ضد من ، فـهذا أوضح من أن يذكر . وفى ظل هذا التـهـديد المخـادع ، تعـتـمد أمـريكا مع اسرائيل فى الواقع العملى سياسة «الفتنمة» ، صيغة منتهى الفتنمة ، بمعنى أن تغرقها بالسلاح المتفوق والكاسح كما وكيفا ، تاركة لها هى ادارة المعركة وضامنة فى تصورها ان تحقق النصر به . وهذا يفرض التصعيد المطرد والخطير على حجم الصراع وحجم القتــال ، ويستهدف تعجيز العرب أو أصدقائهم عن اللحاق بسياسة التسلح المسعور هذا . وقد أعلنت أمريكا أخيرا جدا أنها قد تمت بالفعل تعويض اسرائيل عن جميع خسائر أكتوبر فى السلاح ، وكان ذلك فى حدود صفقة الـ ٢٢٠٠ مليون دولار التى تقررت اثناء المعركة . ثم عادت أمريكا فأعلنت عن صفقة جديدة قيمتها ٣٠٠٠ مليون دولار ، تتضمن أحدث ما فى الترسانة الأمريكية بما فى ذلك حاملات الطائرات والهليكوبتر التى تدخل صراع الشرق الأوسط لأول ومرة ، بما فى ذلك أيضا مالم يزل تحت التصميم وماسيزيد عما تطلبه اسرائيل نفسها – «الى ان تقول كفى»! ..

وتلك جميعا كانت هى اللعبة الامريكية المزدوجة التى ينبغى أن يتنبه ويتصدى لها كل أعداء الامبريالية والاستعمار. إننا منذ بدأ الصراع وإلى ما قبل أكتوبر كنا من الخوف من أمريكا فى هزيمة لإسرائيل بانتظـام. والآن تريد أمريكا أن تجعلنا من خوف الحرب النـووية العالمية بلا نصر على إسرائيل. وبهذا تضمن أمريكا تمييع الصراع وامتداده إلى ما لا نهاية دون حسم قاطع ، ومعه تضمن بقاء إسرائيل إلى الأبد.

العلاقة الامريكية - الاسرائيلية
فى عالم متغير

غير أن أمريكا كانت تخطىء حسابات الزمن وقراءة «وردة» الرياح العالمية، رياح التغير ومتغيرات العصر، وتسير ضد التيار، تيار التاريخ والمستقبل، سواء على المدى القريب أو البعيد. انها كالقوة الأعظم الأولى فى العالم قد بدأت تعبر خط الزوال، أو على الأقل نقطة الأوج، بدرجة أو بأخرى. فهى من قبل قد فقدت الكثير من قوتها وسيطرتها النسبية فى العالم بالقياس إلى ما كانت عليه منذ ربع قرن بعد الحرب الثانية. فمنذ تلك القمة المطلقة على عرش القوة، أخذت الولايات تتلقى الضربات والهزائم فى أركان العالم. ومنذ هزيمة فيتنام بوجه خاص، ثم مع تغير موازين القوى فى العالم وتعدد المراكز ، ثم أخيرا بالوفاق ، وهى فى مرحلة انحدار قوة واضحة لاشك فيها.

إن ظل أمريكا - القاتم - على العالم قد أخذ ينحسر تدريجيا، وقبضتها عليه تتراخى باطراد. ثم جاءت معركة أكتوبر أخيرا ضربة قاصمة لكل من إسرائيل وأمريكا على السواء. ولعل مما له مغزاه أن كلا منهما فقد دور رجل البوليس فى وقت واحد تقريبا: أمريكا، دور رجل البوليس العالمى، وإسرائيل ، دور رجل البوليس المحلى فى الشرق الأوسط . وليس مصادفة كذلك أن عزلة الاثنتين معا فى العالم تتزايد بسرعة نادرة فى السنوات الأخيرة، حتى أصبحت أمريكا هى الحليف والصديق الوحيد تقريبا لإسرائيل. إن الحبل السرى بين إسرائيل وأمريكا أصبح الشريان الوحيد الذى يربطها بمصادر القوة المادية والمعنوية، العسكرية والسياسية والاقتصادية. وإذا كان هذا هو الذى أنقذ إسرائيل من هزيمة كاملة فى سيناء والجولان، فقد زاد من تبعيتها لأمريكا إلى حد يفقدها باطراد حرية الحركة والارادة المستقلة، ويجعلها أكثر من أى وقت مضى مستعمرة ورهينة أمريكية اسما وفعلا وشكلا وموضوعا، وأخطر من ذلك يربط مصيرها ووجودها بمصير أمريكا فى عالم القوة والمصالح المتغير أبدا .

إن العلاقة الخاصة، الحميمة والمحمومة، بين الاثنتين تتعرض الآن لضغوط متغيرات دولية طاغية، وتعيش فى عالم متغير وتحت مناخ غير موات لها. فإلى جانب شحوب صورتهما فى العالم، فان موازين القوة، عالميا واقليميا، تحولت وتتحول باطراد لغير صالحهما بل وضد مصالحهما المشتركة أو المنفردة، لقد بدأ مع أكتوبر وبفضله المد

التقدمي والتحرري في العالم، وارثا المد الرجعي الذي بدأ مع حرب يونيو. وقد جاء أكتوبر انتصارا لكل جبهة التحرر الوطني والتقدمية والمعسكر الاشتراكي وأعداء الامبريالية في العالم. ومن أبرز مؤشرات هذا التحول أن إسرائيل إنما ضربت أول ضربة حقيقية في وقت أصبحت فيها حاميتها أمريكا أقل قدرة من أي وقت مضى على فرض إرادتها على العالم.

وعند هذه النقطة بالذات أيضا يأتي سلاح البترول العربي بكل ثقله ليضع العلاقة الإسرائيلية - الأمريكية لأول مرة أيضا في مأزق حقيقي جدا وليضع أمريكا أمام اختيار رهيب: أما فطامها إسرائيل من المساندة الظالمة، وأما فطامها هي نفسها من البترول العربي. وفي هذا كتب اريك رولو يقول «إن الاسرائيليين قد أفاقوا أخيرا من أحلامهم بعد معارك ٦ أكتوبر، فقد اتضح لهم مدى انعزالهم دوليا. فحتى الحليفة الأولى - أمريكا - لم تتأخر في الوقوف ضد أطماعهم عندما هدد العرب المصالح الأمريكية تهديدا مباشرا بعد قطع البترول عنها».

هكذا أثبتت حرب أكتوبر أن إسرائيل هي أسوأ استثمار للغرب في المنطقة، بعد أن كانت تبدو أحسن استثمار، فبعيدا جدا - وهي التي فشلت في حماية نفسها - عن أن تكون حامية للمصالح الأمريكية أو حارسة عليها في المنطقة، أصبحت هي نفسها خطرا حقيقيا على المصالح الأمريكية البترولية وغير البترولية فيها. انها لم تعد تخدم مصالح أمريكا، بل هي الآن تهدمها . وبعد أن كانت أمريكا تعد العرب حاملة البترول وإسرائيل حاميته، فرض أكتوبر معادلة جديدة مؤداها أن العرب هم حارسو البترول الحقيقيون وإسرائيل هي حارقته. لقد أحدثت الحرب، نحن نخلص، انقلابا صامتا ولكنه مرئي في علاقة المصالح بين أمريكا وإسرائيل، وهذا هو مأزقهم التاريخي الذي سيكون له بالقطع ما بعده.

أمريكا وسلاح البترول

ونحتاج هنا إلى نظرة فاحصة إلى حقيقة موقف أمريكا البترولي ثم انعكاس الموقف العربي عليه. أمريكا تنفرد بوضع بترولي خاص، تحسبه نقطة قوة لها في وجه الضغط العربي، ولكنه في الحقيقة نقطة ضعف. فهي وحدها من بين الدول الصناعية الغربية الكبرى التي لا تعتمد على بترول العرب الا بنسبة محدودة نوعا. ومن هذه الحقيقة حاولت

دعائيا كما رأينا أن تثبط من همة العرب وتشيع أن سلاح البترول سلاح غير فعال أو مجد.

فعند بدء المقاطعة العربية المطلقة، أعلنت أمريكا أن نسبة اعتمادها على البترول العربى لا تزيد على ٣٪، عادت فرفعتها إلى ٧٪ ، من مجموع استهلاكها القومى ، وأن من الممكن تعويضه بوسائل ومن مصادر أخرى عديدة. ثم اتضح أن هذه النسبة تصل فى الحقيقة إلى نحو ٢٠٪ كما أعلن فردريك دينت وزير التجارة الأمريكى، بينما اعترف هنرى جاكسون رئيس لجنة الشئون الداخلية بمجلس الشيوخ الأمريكى أنه «قد اتضح أن أزمة الوقود فى الولايات المتحدة أسوأ مما كنا نتوقع جميعا» وستؤدى إلى أضرار «لم نكن نتصور مداها فى البداية». وبالفعل ، لم يلبث اقتصادها وصناعاتها، فضلا عن نظام حياتها اليومى وحضارتها التقليدية، أن اختلت وتخلخلت بشكل حاد وعنيف.

وإلى هذا فقد وقفت أمريكا فى ساحة المحكمة وقفص الاتهام أمام العالم كله، فهى المتهم الأول فى أزمة الطاقة وخفض البترول فى العالم أجمع. وعنادها ومعاداتها للحق العربى كان يطيل الأزمة ولا يعاقب إلا بقية المجتمع الدولى ولا يعنى فى النهاية إلا أنها تبيع مصالح العالم بأسره من أجل الفتوح والغزوات الاسرائيلية والاغتصاب العدوانى الصهيونى.

من هنا أصبحت أزمة الطاقة فى الولايات هى أزمة المجتمع الأمريكى من الداخل، بينما أصبحت أزمتها فى الخارج هى أزمة السياسة الأمريكية العالمية برمتها. وبذلك باتت الحكومة الأمريكية محاصرة ومتهمة ومدانة داخليا وخارجيا. لقد غزت أزمة الطاقة، ومعها لأول مرة أزمة الشرق الأوسط ، كل أركان وطبقات وبيوت المجتمع الأمريكى من الداخل. أصبحت أزمة الشرق الأوسط لأول مرة مشكلة أمريكية خاصة تعنى كل أمريكى بعد اللامبالاة والاستخفاف إن لم يكن الانحياز والتواطؤ ، تماما كما كانت أزمة حرب فيتنام.

وتماما كأزمة فيتنام، فإنها بدأت تشطر المجتمع الأمريكى وتقسمه من الداخل وتخلق تناقضا بين سياسة الحكومة الفعلية ومصالح الدولة الحقيقية. لقد عرت أزمة الوقود الحكومة أمام الشعب، وكشفت كيف تبيعه لصالح شعب أجنبى غريب، وأن

المصـالح الاستراتيجية الحقة لأمريكا لا تكمن كما تزعم الحكومة مع إسرائيل والدفاع الظالم الأعمى عن اغتصابها ، وإنما هى مع المصالح والحقوق العربية تكمن.

ومن هنا فان رأيا عاما بازغا، أو حتى جنينيا لايزال، بدأ يتكون ويتكتل ضد سياسة الحكومة: بعض كبرى شركات البترول ذات المصالح المحققة فى العالم العربى، بعض الأقليات كالزنوج، وقلة من العناصر الليبرالية والمثقفين.. إلخ. على سبيل المثال منشور مدير إحدى كبرى شركات البترول الأمريكية قبل المعركة، الذى حذر من ضياع المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، وأثار ثائرة الصهيونية. مثل آخر: أحد الشيوخ الأمريكيين يعلن بعد المعركة أن أمريكا قد أصبحت «رهينة إسرائيلية» .. إلخ. حتى بارى جولدووتر، داعية الحرب النووية فى فيتنام، صرح بأن «الشعب الأمريكى سئم حروب إسرائيل» ! وذلك كله ما باتت الحكومة تخشى أن ينتشر ويستشرى فيتحول إلى جماعة ضغط فرأى عام سائد يكرر فى النهاية قصة انشقاق المجتمع الأمريكى من الداخل أيام فيتنام. وهذا أيضا بعض السبب فى أن إدارة نيكسون حاولت باستماتة أن تتحاشى توزيع البترول بالبطاقات حتى آخر لحظة كى ما تعطى المواطن الضحية شعورا كاذبا بالرخاء وعدم خطورة الأزمة.

وهو كذلك بعض السبب فى تلويح أمريكا للعرب بالتدخل العسكرى المباشر لاحتلال مناطق البترول لصالح «العالم المتحضر» . مثلا أعلن وزير الدفاع شلزينجر أن التدخل العسكرى «احتمال، وإن كان بعيدا جدا» ، وحذر من أن «حقوق الدول فى الاستقلال والسيادة لا يجوز استخدامها بحيث تصيب العالم الصناعى فى قلبه.. فهذا خطر عليهم كما هو علينا». وحتى فولبرايت الليبرالى لم يتورع عن التهديد، حيث قال إن على العرب أن يعاملوا ثروتهم البترولية على أنها مسئولية دولية، وأن الدول الصناعية القوية قد ترد بشكل ما على سبيل الانتقام. غير أن هذه اللهجة العتيقة البالية، دبلوماسية الزوارق المسلحة أو بالأحرى دبلوماسية القراصنة، لم تفعل سوى أن أكدت الروح العنصرية أولا والعدوانية ثانيا الكامنة وراء كل السياسة الأمريكية الخارجية.

أما العرب كما رأينا فلم يرتعدوا أو يرتدعوا، أعلنوا ببساطة قبولهم للتحدى وحزموا بالفعل أبارهم بالديناميت. ومن الملاحظ بعد هذا الاصرار والصمود العربى أن أمريكا عادت فخففت من لهجتها. فقد أعلن شلزينجر بعد ذلك ما نفى به ما سبق التصريح به من

تهديدات واحتمالات التدخل العسكرى. كما عادت أمريكا فقبلت مرغمة حذف كلمة «الابتزاز» من حديثها عن البترول العربى !

ولما كانت أزمة الطاقة فى أمريكا قد ظلت فى مراحلها الأولية، فإنها لم تعكس قط ثقل العقاب والحرمان العربى بكامله. غير أن الوضع كان حريا بأن يختلف كثيرا وربما وصل إلى حد «الكارثة القومية» لو أن الأزمة طالت شهورا أخرى أو أكثر - وقد كان العرب أعلنوا استمرار الحظر حتى يبدأ الانسحاب الإسرائيلى أو على الأقل اعلان تعهد إسرائيل بالانسحاب الكامل مع ضمان أمريكى بالتنفيذ. وقد دأبت أمريكا على أن تروج من حين إلى حين أن العرب على وشك رفع الحظر. ولكن هذا لم يتحقق الا فى مارس ١٩٧٤ بشروط العرب، وهى إعادة النظر فى القرار فى يونيو، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة إعادة فرض الحظر إذا لم تنفذ أمريكا تعهداتها.

وفى هذا الصدد حذر فولبرايت فى دراسة أعدها وفد من لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس من أن العرب قد يعودون إلى استخدام بترولهم كسلاح حتى تجاب مطالبهم ضد إسرائيل. فقد وجد الوفد فى كل دولة عربية زارها إيمانا تاما فى صحة وقيمة استخدام البترول كسلاح لإرغام أمريكا على الضغط على إسرائيل. ذلك أن التوصل إلى الفصل بين القوات فى السويس أثبت للعرب أن البترول سلاح فعال. ومن ثم يبدو من المعقول - يمضى التقرير - توقع استخدامه مرة أخرى كوسيلة للضغط على أمريكا فى معالجة المشاكل السياسية الأكثر حيوية والمتعلقة بالفصل على الجبهة السورية ومستقبل القدس والشعب الفلسطينى.

ومن جانبهم ، فلقد أكد العرب حين أصدروا قرارهم شبه الاجماعى برفع الحظر أن «الذى يرفع يستطيع أن يحظر من جديد» وأن «استخدام البترول كسلاح سياسى سيكون دائما تحت تصرف العرب إذا لم يتم انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة». وهذا يفسر النص على إعادة النظر فى الموقف فى يونيو. وإذا كان العرب قد اعتمدوا صيغة تعميمية دون تحديد أو تسمية دولة بعينها، وكانت أمريكا على لسان رئيسها قد لجأت إلى التهديد بأنها لن تخضع لأى ضغط من جانب الدول العربية ولن تقبل رفع حظر مشروط ، وحذرت من أن الرفع المؤقت أو المشروط «ستكون له آثار عكسية للاهداف التى تسعى اليها الدول العربية» فلم يكن هذا وذاك فى الحقيقة إلا لحفظ ماء وجه

أمريكا. ومن هذا الموقف وحده نستطيع أن نتفهم ما أعلنه نيكسون من أنه «لايعتبر رفع الحظر العربى البترولى قرارا مشروطا»، كما أكد فى الوقت نفسه «أننا نسعى إلى تحقيق سلام دائم مهما حدث للحظر».

ذلك كان الموقف حتى قريب . فاذا ما استمر الشوط إلى نهايته المفترضة فقد ترغم أمريكا على أن تضغط جديا على إسرائيل للانسحاب . لكن هذا لن يكون الا بعد صراعات قوة طاحنة داخل المجتمع الأمريكى عامة وداخل الادارة الأمريكية نفسها ثم مع الحليف الإسرائيلى المعاكس. كما أن هذا الضغط ليس من المحتم أن يكون كاملا أو مؤثرا بالضرورة. غير أنه فى كل الأحوال سيؤدى إلى تخلخل فى التطابق التام السابق بين وجهتى نظر أمريكا وإسرائيل، وقد يتسع مع الوقت إلى شرخ أساسى فى العلاقات بينهما (؟). وكما أن إسرائيل قد تعلمت أن الأمن ليس بالقوة، فكذلك قد تتعلم أمريكا مستقبلا أن البترول ليس باسرائيل. بل الواقع أن هذا ما حدث بالفعل، وهناك مؤشرات حقيقية على تغير فى الموقف الأمريكى، الذى ينبغى أن يكون موضوعنا التالى.

وأثناء حرب أكتوبر، بالطبع، وإلى ما بعدها لبعض الوقت، لم يكن هناك أى دليل على أن أمريكا قد غيرت أو ستغير موقفها العدائى من العرب – الا أن يكون التغيير فى اتجاه التصاعد. غير أن المفاجأة الكبيرة هى أن تغيراً محسوسا ومهما قد حدث بعد ذلك بالفعل، لا شك بسبب الحرب نفسها ونتائجها غير المتوقعة. ولهذا يتعين علينا أن نميز فى دراستنا هذه للموقف الأمريكى بين مرحلتين، وهو تمييز كان مستحيلا وغير متصور على الاطلاق منذ عام فقط بل أقل من العام. وربما كانت دورة العام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٤ هى الخط الفاصل بين هاتين المرحلتين بالتقريب. فأما المرحلة الأولى فهى مرحلة التطابق التام أو شبه التام بين أمريكا واسرائيل ، وأما الثانية فهى مرحلة اهتزاز التطابق أو مرحلة الاختلاف البازغ التى ظهرت بالتدريج خلال الشهور القليلة الأخيرة.

مرحلة التطابق

فعندما قامت الحرب كان انحياز أمريكا لاسرائيل كاملا ومطلقا. فهى وإن لم تثر مسألة من الذى بدأ بالهجوم أى بالعدوان (ببساطة لأنها كانت أسخف من أن تثار)، فقد حاولت أن ترغم العرب على عدم مواصلة القتال منذ أول يوم، مرة بدعوى الخوف عليهم من هزيمة ساحقة قاضية تنتظرهم على يد اسرائيل كالمعهود (كذا)، ومرة

بدعـوى ضـبط النفس والحـرص على الســلام العــالمى.. إلخ . ولكن الأخطر من هذا أنهـا، رغم بعض الـتردد المؤقت، اتخذت القرار المعـادى باغراق اسـرائيل بالســلاح المتطـور والمتفوق حتى تقول هذه «كفى».

وكان الأمـر المؤكد أنها تريد أن تعيد التفـوق العسكرى للعدو وأن تطمس انتصـار العرب بأى ثمن واجـهاضـه إن أمكن لصـالح اسرائيل. ومن الثـابت أنها دخلت المعركـة بالفعل وإن يكن بصـورة غيـر مـباشـرة، إلى الحـد الذى دعـا الرئيس السـادات أن يكتب بنفسـه إلى الرئيس الأسد أثناء المعركة قائلا « .. فى الأيام العشرة الأخيرة فـاننى على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما لديها من أسلحة».

كذلك فلقد كـانت هناك عدة علامـات كمـا حـدثت بعض تطورات ومـواقف فى أعقـاب الحرب مباشـرة لم تكن تشجع كثيرا على التفاؤل بصدد الموقف الأمريكى. فثمة مـجموعة من الشيـوخ الأمريكيين حرضت إسرائيل علنا على عدم الانسـحـاب من شبـر واحد من الأراضى المحتلة(!)، بينمـا ذهب السناتور هنرى جاكسون الصـهيونى المتعصب إلى أنه «يجب عـدم مكافــأة العــرب والروس بتنــازلات لأنهم الذين بدأوا الحرب» (كذا!) . ولن نذكر هنا تلك النظــرية المفرطة فى التشـاؤم والتى كـانت تقول إن أمريكا قد تشــجع وتدفــع إسرائيل إلى الحرب من جـديد لتفـرض وضـعـا عسكريا جديدا أفـضل يسـاعد أمريكا على فرض تسوية سيـاسـيـة مـلائمة من وجـهة نظرهـمـا مـعـا. ولكن يكفى أن نذكر تصـريحات الرئيس نيكسون المتعددة، خاصة فى اتصالاته مع مايير، عن التزام الولايات بضمان قوة وأمن اسرائيل ورخائها ورفاهيتها.

وحتى البعض ممن يعدون أصدقـاء العرب أو غير المنحـازين من السـاسـة الأمـريكيين نصح العـرب بـألا يتـوقـعـوا أن يسـتـردوا كل أرضـهـم المفـقـودة فى يونيـو. فـمـثـلا صـرح فولبرايت بأن العرب لا يمكنهم أن يتوقعوا استعادة كل بوصة من الأرض التى خسروهـا عـام ١٩٦٧ فى التـسـوية النهـائيـة. وبعـد أن وضـح للاسـرائيليين أن عليـهم أن يروضـوا أنفسهم على حل وسط وأن الوقت لم يعد فى جانبهم، أضـاف أن التعديلات فى الأراضـى التى تطالب بها إسرائيل يجب ألا تكون جوهرية.

وعدا هذا فلقد كان البعض يرى فى المــوقف الأمريكى من أوربا أثناء الحرب مؤشـرا كافيا جدا لتحديد اتجاه أمريكا ونواياها فى الضـغط على إسرائيل من أجل سلام عـادل

ودائـم فى المنطقـة. فلقـد أشــار هــؤلاء المعـقـبـون إلى أن أمـريكا التى اصطدمت اصطداما خطيرا مع كبريات حليفاتها فى أوربا الغــربية لسبب ثانوى نسبيا وهو مجرد عدم المســاهمـة فى نقل السلاح الأمريكى إلى إســرائيل أثناء الحرب ، لا يتوقع منها منطقيا أن تصطدم مع إسرائيل نفسها لمصلحة العرب.

لكل هذا ولغيره كثير كان الرأى الغالب بين المراقبين حتى أواخر العام الماضى تقريبا هو أن تأثير الحرب على السياسة الأمريكية فى المنطقة كان لايزال ثانويا وطفيفا، وأن أهدافها الأساسية ظلت قائمة كما هى، وهى باختصار أن إسرائيل قبل وفوق الجميع. بل لقد كـان البعض لا يسـتبعد أن تتـفق أمريكا مع إسـرائيل فيمـا بعد على «جـولة حرب جديدة» تريان أنها أصبحت قادرة عليها، لاعادة «عقارب القوة» إلى الوراء».

التغير الأمريكى واهتزاز التطابق

غير أن هناك ، فيما بدا على وجه اليقين ، تغيرا طرأ على موقف أمريكا، وإن بقى أن نعرف حجمه ومداه وإلى أى حد. وإذا لم يكن هناك شك فى وقوع التغيير، فكذلك لا شك البتة فى سببه. «ما الذى غير موقف أمريكا؟.. نحن الذين غيرنا موقف أمريكا» - كما تساءل ثم أجاب الرئيس السادات. فـلا جدال أن حرب أكتوبر هى المسئولة عن هذا التغيير، ولا مجال للشك أو التشكيك فى هذا. بل لقد اعترف الرئيس الأمريكى نيكسون شخصيا بذلك حين قال «لقد كان على الولايات المتحدة - بعد حرب أكتوبر - أن تقوم بدور ايجابى بهدف التوصل إلى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط». فلقد كان هناك دائما خطران مسلطان ومعلقان على رأس أمريكا (ومعها اسرائيل) ما لم يتم التحرك بسرعة نحو تسوية سياسية مقبولة عربيا .

الخطر الأول عودة العرب إلى الميدان ، وهذا أمر مفهوم ولا يحتاج إلى تعليق، لأن توقف القتال نفسه كان ملعقاً بشرط تحقيق تلك التسوية. وفى هذا كانت أمريكا تخشى دائما تصاعد الصدام المحلى إلى مواجهة نووية مع الاتحاد السوفيتى. أما الخطر الثانى فسلاح البترول الذى ظل يعمل بلا توقف عدة شهور بعد المعركة وكان له أثره الخطير فى الحياة الأمريكية والاقتصاد الأمريكى، فضلا عن الحرج السياسى البـالغ والعزلة اللذين استشعرتهما الولايات من جراء الضغوط السياسية والمـادية والمعنـوية التى كـانت تتـعرض لها (وتبذل مثلها أيضا) كل دول العالم التى أضيرت من خفض انتاج البترول العربى.

وقد تبدى تحرك أمريكا والتحول الجنيني في موقفها في الاتصالات الدبلوماسية المكثفة التي قام بها كيسنجر بوجه خاص مع العرب وبالأخص مع مصر . ثم تأكد الاتجاه في الفصل بين القوات على الجبهتين المصرية ثم السورية ودور كيسنجر فيه. ثم استمر هذا الاتجاه البازغ أو النامي الذي كشف عنه أساسا الرئيس السادات شخصيا وبنفسه في سلسلة من الأحاديث الصحفية العالمية والخطب الجماهيرية ، نقتبس منها هنا بحسب تسلسلها الزمني.

فأولا أوضح الرئيس أن «تغييرا جوهريا قد طرأ على السياسة الأمريكية.. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أمدت إسرائيل على نطاق واسع بأكثر الأسلحة والمعدات العسكرية تعقيدا وتقدما، الا أنها أدركت بسرعة خطورة العواقب الناجمة عن حرب ٦ أكتوبر . وكانت هذه هي نقطة التحول التي أفضت بالولايات المتحدة إلى نظرة جديدة تجاه الشرق الأوسط، وإلى أن تشرع تبعا لذلك في انتهاج سياسة تعمل من أجل السلام القائم على العدل في المنطقة».. ثم وضح سيادته، موجها حديثه إلى أرنو دي بورجريف مندوب النيوزويك الأمريكية، كيف أن «محادثاتي مع الدكتور كيسنجر قد أقنعتني بأنه يرفض الفكرة الساذجة التي يذهب إليها بعض الاستراتيجيين عندكم ممن ينظرون – أو كانوا ينظرون – إلى إسرائيل باعتبارها رجل البوليس الأمريكي في هذا الجزء من العالم».

وفي مناسبة أخرى صرح الرئيس بأننا «لا نريد من الولايات المتحدة أن تكون إلى جانبنا، وانما أن تكون إلى جانب العدل. وأعتقد أنهم يتغيرون، وأن كل شيء سوف يسير على ما يرام». وفي مؤتمر لاهور كان في استطاعة الرئيس أن يعلن «الآن يمكن القول إن الأمل كبير في أن تؤدي المحادثات التي تجرى حاليا حول الشرق الأوسط إلى سلام دائم». وفي مناسبة تالية انتهى الرئيس على هذا الأساس وغيره مما «لا أستطيع اليوم أن اكشف عنه» إلى أن «أمريكا اتخذت موقف المؤيد للسلام القائم على العدل والتزمت به بواسطة الدكتور كيسنجر في كل تصرفاتها حتى هذا اللحظة». ولهذا « يجب ألا تؤخذ الأمور بنفس أسلوب ما قبل ٦ أكتوبر». ثم تساءل «هل من مصلحتنا أن نأخذ عداوة الشعب الأمريكي بعد هذا الموقف؟» «وحيث أنه لم تكن هناك مشاكل بيننا (وبين أمريكا) سوى هذا الانحياز الأمريكي لاسرائيل، وإذا استطعنا أن نصل إلى تفاهم .. فلن يكون هناك ما يعكر صفو العلاقات».

وفى حديث إلى مجلة شتيرن الألمانية أكد الرئيس مرة أخرى «أن الموقف فى أمريكا تغير تغيرا حاسما.. ولابد أن أقول إن تغيرا كاملا قد حدث. ويقتضينى واجبى نحو أمتى أن استغل هذا الموقف الجديد. ما الذى كان عليه الحال قبلها؟ مواجهة مع أمريكا، ولم يفدنا هذا اطلاقا. وكنت دائما أقول : لابد لنا قبل إزالة التوتر مع إسرائيل، من إزالة التوتر مع الولايات المتحدة». وأخيرا وفى خطابه إلى الأمة بمناسبة ورقة أكتوبر، أعلن الرئيس أن «أمريكا ليست معنا، ولكنها لم تعد ضدنا الآن .. أمريكا واقفة فى الوسط بيننا وبين اسرائيل .. لقد استطعنا تحييد أمريكا التى كانت منحازة لاسرائيل وتتبنى وجهة نظرها بالكامل».

أما من ناحية أمريكا نفسها ، فقد تتابعت، أو بالدقة تصاعدت، من جانبها التصريحات والمواقف التى تشير إلى التغير عقب أكتوبر. نعم، كما عبرت التايمز بحق، «لقد جاءت لحظة الصدق بالنسبة لأمريكا فى الشرق الأوسط». ولقد كان كيسنجر يردد دائما أن «أمريكا ملتزمة بالدفاع عن أمن إسرائيل وبقائها، لكنها غير ملتزمة بالدفاع عن فتوحاتها». وبعد الحرب فلقد أضاف أن أمريكا ستحجب تأييدها عن أى طرف يبدأ القتال مرة أخرى فى المنطقة. وفى خطوة تالية أوضحت الولايات المتحدة أنها تشعر أنه يجب التوصل إلى بعض الحلول الوسطى لتجنب اندلاع حرب جديدة فى الشرق الأوسط، وكذلك خطر مواجهة بين أمريكا وروسيا فى المنطقة.

وأخيرا ، وليس آخرا ، صرح الرئيس نيكسون بنفسه بعد رفع حظر البترول العربى عن أمريكا أن الولايات المتحدة سوف تواصل مساعيها لاقامة علاقات أفضل مع مصر والدول العربية. وكان مما قاله إن من مصلحة إسرائيل فى المدى البعيد أن تكون أمريكا صديقة للدول العربية، ولو أن اقامة الصداقة بين أمريكا واحدى جارات اسرائيل لن تجعل من أمريكا عدوا لاسرائيل، التى أكد أن واشنطن مستمرة فى تأييد استقلالها وسلامة أراضيها. ثم أضاف الرئيس الأمريكى أنه لن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط ما لم يساند الاتحاد السوفيتى جهود الولايات المتحدة. أو كما قال بالتفصيل «لا يمكن أن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط الا إذا كانت الولايات المتحدة تعمل من أجله ، ولا يمكن أن يكون هناك دور تقوم به الولايات المتحدة الا إذا كان الاتحاد السوفيتى معها». ثم أكد فى النهاية أن النزاع العربى - الاسرائيلى سيكون كما كان دائما أحد أهم الموضوعات فى محادثات القمة المرتقبة فى موسكو خلال يونيو ١٩٧٤.

هكذا نرى بالفعل أن هناك علامات ومؤشرات على تغير الموقف الأمريكي، وإن كان من السابق لأوانه كثيرا، كما هو من المستحيل بالطبع، أن يجزم أحد بمدى وحجم ذلك التغير، وإلى أى حد يتناسب هذا مع ، أو يقصر دون ، المطلوب لفرض التسوية على الطرف الرافض. وإذا كان البعض أو الكثير منا ومن غيرنا قد تساءلوا بحق عن السبب فى هذا التغير الذى يبدو غريبا نوعا مثلما هو فجائى جدا، حيث أن «أمريكا، عدوتنا التقليدية وصديقة اسرائيل، أصبحت فجأة ولية أمر سلامنا» كما سألت الرئيس السادات الصحفية اللبنانية علياء الصلح ، فان هناك على ما يبدو مجموعة معقدة ومتشابكة من الأسباب والدوافع الاستراتيجية والتكتيكية.

بالأولى نقصد خشية أمريكا من عواقب التصاعد والتصادم النووى، وربما كذلك ضغوط الوفاق، ثم خطر البترول المسلط، وأخيرا خوفها من أن تفقد المنطقة العربية أو أصدقاءها أو مصالحها فيها نهائيا ، ورغبتها كذلك فى استعادتها بل وإن أمكن «طرد» منافسيها بها سواء من الشرق أو الغرب.

أما الأسباب التكتيكية، التى قد تبدو دخيلة وعارضة ولكنها فاعلة ومؤثرة مع ذلك، فتتمثل فى مشكلة الادارة الأمريكية الداخلية، أى أزمة ووترجيت. فالمقول إن تلهف الرئيس الأمريكى على تحقيق نصر سياسى عالمى داو فى الشرق الأوسط، على غرار ما فعل مع السوفييت ثم الصين، يمكن أن يبعد به أنظار وانتباه الأمة عن الأزمة ويغرقها به ويعوض عنها، قد يكون من دوافع أمريكا إلى البحث الجاد عن حل لأزمة الشرق الأوسط..

فإن صح هذا، ولعله لا يخلو من صحة، لكان معناه أن العوامل التى حدت بالقيادة الأمريكية إلى موقفها «النووى» المتطرف غير المعقول أثناء المعركة، هى نفسها التى تدفعها الآن إلى الاصرار على دور رجل المطافىء. ولئن بدا فى هذا قدر أو آخر من التناقض، ولا نقول الانتهازية، مما يجعل الدور الأمريكى فى المرحلة الأخيرة سلاحا ذا حدين بدرجة أو بأخرى، فذلك أمر مفهوم فى السياسة، حيث تسيطر المصالح لا الاخلاقيات وتسود.

على أن المهم أن هذا بالدقة ما يجعل البعض يتخوف من الاعتماد أكثر مما ينبغى على الدور الأمريكى، حيث قد يعجز أو يسقط فجأة داخليا لذلك السبب نفسه. ولكن كما وضح الرئيس المصرى لمجلة شتيرن ، فانه لا يعتمد على «الاله الجالس فى واشنطن»،

وانما على الشعب والجيش والامة العربية يعتمد. ومن جهة أخرى فان الدوافع المحلية التكتيكية الأمريكية تعد نقطة ضعف أخرى لها ازاء الضغوط الاسرائيلية المضادة المتمثلة فى ضغوط الصهيونية الأمريكية القوية النفوذ واستغلالها أزمة ووترجيت الداخلية لابتزاز الرياسة وفرض حدود معينة على مرونتها فى السياسة الخارجية المتعلقة بمشكلة الشرق الأوسط. والملاحظ فعلا تزايد الحصار المضروب حول الرئيس الأمريكى فى قضية ووترجيت، كما يلاحظ سقوط فولبرايت فى انتخابات الكونجرس، وقد تكشف الأيام عن أصابع الصهيونية وراء هذه التطورات. غير أن هذه وأمثالها مشكلة أمريكا مع اسرائيل أو اسرائيل مع أمريكا أكثر مما هى مشكلتنا مع أمريكا.

الباب الثالث

بعد أكتوبر

الفصل العاشر

احتمالات المستقبل

فى الحديث عن المستقبل واختياراته المحتملة أو احتمالاته المحتمة، لابد لنا من ناحية الدراسة الاكاديمية البحتة ان نفرق ابتداء بين بعدين وهدفين اثنين وأن نميز بينهما تمييزا واضحا، المدى القريب والمدى البعيد. الأول هو «ازالة آثار العدوان»، أى العودة إلى ما قبل يونيو كهدف مباشر لا يقبل تأويلا أو تأجيلا ولا مساومة أو تنازلا أو انصاف حلول. والثانى هو قضية فلسطين الأساسية، قضية الحق التاريخى والوطن السليب والشعب الطريد، كيف يعود، ومتى، ولا نقول هل؟.. الخ. وهذا يعنى على الفور أيضا قضية الوجود الاسرائيلى والاغتصاب الصهيونى الجاثم على أرض فلسطين المحتلة.

واذا كانت الرؤية واضحة نوعا واختيارات الحلول، واختباراتها أيضا، سهلة الحصر والتحديد والتحليل نسبيا فى حالة الهدف الأول، فانها فى الثانى معقدة حرجة وشائكة إلى أقصى حد. والمشكلة إلى هذا أن الفصل التام الصارم بين المرحلتين أو الهدفين غير ممكن نظريا وشبه مستحيل عمليا. العدو على الأقل يربط بينهما ربطا مباشرا ويرتب أحدهما على الأخر، وسنرى لماذا . كما أننا من جانبنا نربط بينهما ولكن لأسباب أخرى مناقضة تماما.

والنتيجة أن الصورة المترتبة تخرج كلها وهى أشبه بالأحاجى أو الألغاز الصينية Chinese puzzles أو تلك المجموعة من الأشكال والقوالب والقطع الهندسية التى يراد لها ان تؤلف نمطا معقولا ولكنه يكاد يكون مستحيلا jig -saw puzzle على أننا فى الاثناء يمكننا أن ننظر إلى البعدين القريب والبعيد كما لو خلال منظار تلسكوبى، أول البعيدين هو عدسته القريبة وثانيهما البعيدة. ولهذا فلنبدأ بمشكلة الوضع الراهن والأهداف المباشرة مركزين عليها بقدر الامكان، دون أن نتجاهل خلفيتها ووراءها الذى ينفتح رأسا على جذور وأعماق المشكلة الأصلية الأم.

إزالة آثار العدوان

حين قبلت مصر وسوريا وقف اطلاق النار، استجابة لطلب مجلس الأمن فى ٢٢ اكتوبر، فانما قبلتاه من موقف القوة. وكان هذا أول مرة منذ ١٩٤٨ تقبل فيها الدول العربية وقف الاطلاق من هذا الموقف، موقف المنتصر، وليس من موقف الضعف والهزيمة كما حدث فى ١٩٤٨، ١٩٦٧، كذلك فلقد قبلت الدولتان القرار على أساس أنه يؤمن – بضمان الدولتين الأعظم – تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى يتضمن أول ما

يتضمن النص على انسحاب العدو الاسرائيلي من جميع الأراضى التى احتلها فى عدوان ١٩٦٧.

وحين قبلت اسرائيل وقف الاطلاق فى لهفة بادية، فانما كان لتفلت من احتمال هزيمة كاملة. وعندما خرقته بعد ذلك مباشرة غيلة وغدرا، فانما بهدف ان تقلب هزيمتها نصرا، ولكن عبثا. اما عندما عاد مجلس الأمن فأصدر قراره بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، وقدمت الولايات المتحدة نقاطها الست لتنفيذه، فانما قبلت اسرائيل بهدف أن تمتص طاقة الضغط الدولى وتكسب وقتا ثمينا ثم لتراوغ وتعوق حتى تجمد الموقف على ما هو عليه. وقد تم لها هذا بالفعل، ولكن إلى حين، من خلال مباحثات الكيلو ١٠١ التى تحولت إلى حلقة مفرغة من التلاعب والتسويف والمماطلة حتى رفضت مصر الاستمرار فيها وانسحبت منها.

وبذلك لم يبق الا مؤتمر السلام المنعقد فى جنيف الذى كان اقتراحا مصريا اصلا، أى مبادرة عربية من مركز القوة، والذى تدور مباحثاته تحت اشراف مشترك للقوتين الأعظم ولكن فى نطاق الأمم المتحدة. وبذلك أيضا انتقلت، تأجلت، مهمة محادثات الكيلو ١٠١ بالضرورة إلى جدول أعمال مؤتمر جنيف . وعندما ناورت اسرائيل من اجل هذه النتيجة، فقد كان ذلك بهدف ان تدخل المؤتمر من موقف عسكرى أقوى مما لو كانت قد انسحبت إلى خطوط ٢٢ أكتوبر.

ولكن مصر كانت يقظى لهذه المناورة وغيرها، وعرفت كيف ترد عليها عمليا وبلا ضجيج. فقد راحت تدعم موقفها على الجبهة وتحسن مواقعها القتالية كل يوم وسلطت على العدو حرب استنزاف جديدة كما دعاها هو نفسه فى شكاواه التى لم تنقطع. وأخيرا فانها أخذت تتقدم بقواتها وخطوطها الأمامية وئيدا ولكن أكيدا، محددة رقعة وجوده ومحكمة عليه الحصار أكثر وأكثر.

لقد بدأت المعركة السياسية بعد أن توقفت المعركة العسكرية، وانتقل الصراع من الميدان إلى المائدة، وخرجت القضية من البعد المحلى إلى البعد الدولى. والواقع كما رأينا أن البعد المحلى خلال المعركة نفسها كان على أشده وهو السائد مباشرة، بينما تراجع البعد الدولى نسبيا إلى الهوامش رغم كل خطره وأخطاره . أما منذ بدأت المعركة السياسية فقد انعكس الوضع وعاد البعد الدولى وهو المسيطر والغالب. ومعه يمكن أن

تبدأ بل بدأت بالفعل، معركة حقيقية وضارية من اجل تحقيق أو تمييع نتائج المعركة العسكرية وتثبيت أو تضييع النصر الذى حققه العرب فى القتال ثم فى النهاية لمنعهم من قطف ثماره السياسية الطبيعية.

وموقف العدو (ومعسكره) مفهوم تماما - من وجهة نظره - منطقيا كما أن موقفنا نحن مفهوم تماما منطقيا وموضوعيا ونضاليا. فهو مثلنا يريد أن يخرج من المعركة بالحد الأقصى من المكاسب والأدنى من الخسائر، وذلك بعد أن لم يحسم القتال الموقف لصالح أحد الطرفين حسما مطلقا بحيث يملى ارادته الساحقة على الاخر. والحد الأدنى المعلن الذى نقبل به نحن كعرب هو عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ٥ يونيو ، أى الحالة القائمة قبل الحرب status qua ante bellum، وعودة حقوق الشعب الفلسطينى . أما العدو من جانبه فليس لديه حد أدنى واضح، وانما هو - هذا الحد - يتذبذب بين المراوغة والاغراء والغرور والتغرير ثم الحقد والطمع، حتى ليتطابق احيانا مع الحد الاقصى المطلق وهو بقاء الحالة الراهنة بعد الحرب ان أمكن status quo. انها اهداف متضادة وعلى طرفى نقيض تماما.

والسؤال الآن: ما هى احتمالات المستقبل ؟ مافرص نجاح المؤتمر؟ ما هى أهداف العدو وخططه فيه، الاستراتيجية والتكتيكية؟ هل تنوى امريكا حقيقة أن تضغط على اسرائيل لتنسحب وهل تقدر وتملك؟ واسرائيل، أترضخ؟ ؟ هل تنسحب اسرائيل أم تعود إلى القتال ؟ أينجح الحل السياسى أم يفرض الحل العسكرى نفسه كالبديل الوحيد والمرجع الاخير؟ هل تتحول لعبة الصراع إلى جرعات متبادلة وجولات متداخلة من الحل السياسى والحل العسكرى ؟ باختصار ما هى صورة المستقبل العريضة على الأقل فى بروفيلها الجانبى؟

الفصل على الجبهة المصرية

لنبدأ بمواقف العدو الفعلية وتصريحاته المعلنة من خلال أعماله وأقواله منذ المعركة. ولعل من المفيد أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاث مراحل، الفصل بين القوات على الجبهة المصرية، ثم الفصل على الجبهة السورية، ثم اخيرا مؤتمر جنيف.

فأما عن الفصل على الجبهة المصرية، فان اسرائيل حين أعلنت مرغمة قبولها للانسحاب إلى خطوط ٢٢ أكتوبر التى كانت قد تجاوزتها خلسة وخرقا لقرار وقف اطلاق

النار، لم تكن تعنى ما تعلن، بل تضمر المناورة والمراوغة. فلولا ثارت معارضة هيستيرية داخلها ضد الانسحاب بدعوى أنه «انتحار وطنى»، لن يمنع قيام حرب أخرى، ولكنه سيجعل اسرائيل اضعف عندما تنشب حرب أخرى. وقامت المعارضة وقطاع كبير من الاسرائيليين فاتهموا الحكومة بأنها تورطت فى تدهور مربك خطير.

ولكن الحكومة من جانبها لم تكن فى الواقع أقل معارضة، إلا أنها فقط كانت أكثر خبثا والتواء. فأعلنت أولا على لسان رئيسة وزرائها ان خطوط ٢٢ أكتوبر هذه من أكثر الاشياء غموضا فى العالم وما من أحد يعرف بالضبط أين كانت ! ولم يكن هذا الا تمهيدا للخطوة المنطقية التالية وهى رفض الانسحاب تماما . اذ لم تلبث مايير أن صرحت أن «أحدا لا يستطيع أن يحدد مواقع الجانبين يوم ٢٢ أكتوبر . اذ لم يكن هناك مراقبون بالمنطقة» ! ولم يكن ذلك صحيحا قط ، فهناك خرائط الميدان وصور الأقمار الصناعية، يوما بيوم ، بل ساعة بساعة. ولكن المطلوب اثباته كان ببساطة هو أن تلك خطوط «وهمية» وان تلك المواقع «لم يكن لها وجود» كما انتهت مايير بالفعل دونما حياء أو خجل.

فلما سيقت اسرائيل بعد ذلك كارهة إلى محادثات الكيلو ١٠١ لترتيب فض الاشتباك والانسحاب، حولت المباحثات إلى مباراة من طرف واحد فى المراوغة والتسويف. فمن الناحية الاجرائية، تعدد طلب الوقت للبحث وتكررت العودة إلى طرح اقتراحات سبق رفضها أو سحب اقتراحات سبق طرحها. كما تواتر التعلل بعدم التفويض لمناقشة الخطوط النهائية وبانتظار نتائج الانتخابات العامة.. الخ. ومن الناحية الموضوعية دارت استراتيجية العدو حول اللعب على، والخلط بين، بندى أو مبدأى الفصل بين القوات المتحاربة والانسحاب نفسه، فأخذت تطرح اقتراحات مخادعة ومراوغة لتعطيل تنفيذ الاثنين على السواء. ومن هذه الزاوية يمكن أن نحصر الضوابط الأساسية مقحمة الاسرائيلى كما تبدت فى المحادثات فى ثلاثة.

أولا: الخلط العامد بين العملية كعملية عسكرية بحت وكعملية سياسية مقحمة، بحيث تختلط عملية الفصل بين القوات بعملية انسحاب الاحتلال وفكرة المناطق العازلة بمسألة حقوق السيادة الى أثارتها اسرائيل فعلا أثناء المحادثات والهدف من ذلك كله هو الخروج من مأزق جيب الدفرسوار بأقل ثمن ممكن أو خسارة.

ثانيا: أن تكون العملية عملية مقايضة ومساومة من الجانبين مع توازن فى التزاماتهما. وقد كان هذا تمهيدا للمطالبة بأن يكون الانسحاب من جانب الطرفين وبقدر

متساو، وإن عاد العدو فعرض أنه ليس من الضرورى أن يكون الانسحاب من جانب الطرفين بالقدر نفسه.

ثالثا: وأخيرا، أن يكون الفض «معبرا عن نتائج المعركة العسكرية» وثقلها، بحيث لايبدو – هكذا منطق العدو – كهزيمة لأى من الطرفين، وأن يكون الانسحاب فى مدى الحد الأدنى الممكن ، وليكن – هكذا اقتراح العدو – مدى رؤية القوات بعضها البعض بالعين المجردة أى فى حدود ٢ – ٣ كيلو مترات.

وعلى الفور رد الجانب المصرى (راجع كتاب حرب رمضان) بثلاثة مبادئ وضوابط مضادة التزم بها فى كل المحادثات ونقض بها كل مناقشات العدو .

أولا: أن العملية برمتها عملية عسكرية بحتة كأيما محادثات تحدث بين القوات المتحاربة فى أى ميدان قتال، وليس لها أدنى صيغة أو مدلول سياسى ، فهذا متروك لمؤتمر جنيف، والعملية أساسا هى فض الاشتباك والفصل بين القوات على اساس حد أدنى معين هو العودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر الرسمية أو القانونية.

ثانيا: الانسحاب اساسا من جانب طرف واحد فقط، هو الطرف الاسرائيلى، ليس فقط لأنه المعتدى والأرض كلها مصرية شرق وغرب القناة، ولكن أيضا وأساسا لأنه الخارق لقوانين القتال بتوسعه غدرا بعد اعلان وقف اطلاق النار. أما مصر فلن تنسحب من شبر واحد من أرض مصرية حررتها بالقوة والحق معا، وهذا مبدأ بديهى غير قابل للمناقشة أو اللجاج.

ثالثا: وأخيرا . الفصل يجب أن يحقق مبدأ فض الاشتباك والغرض الحقيقى منه وهو منع الاحتكاك بين القوات واستبعاد احتمالات تجدد القتال مرة أخرى . على هذا فان الانسحاب ينبغى أن يكون إلى مدى واسع يضمن تباعد القوات عن اقصى مدى للنيران المباشرة، كما يؤمن مدن القناة باعتبارها مناطق مدنية واقعة داخل منطقة تداخل القوات. ولما كان هذا المدى هو مرمى المدفعية البعيدة المدى (نحو ٣٥ كم) فليكن هذا هو الحد الأدنى للانسحاب.

هذا عن خطة المناقشات العامة أما عن خطواتها التفصيلية، فبدلا من أن نتتبع المساجلات والأخذ والرد بين الجانبين، والتى تكررت عناصرها أحيانا، قد يكون من الافضل ان نحصر فقط الجدل والاقتراحات الأساسية لكل جانب على حدة. فبهذا

التصنيف الموضوعى والحصر المنطقى تتضح المواقف الأساسية أكثر منها بالترتيب الزمنى أو التعاقب الحوارى. فعلى الجانب الاسرائيلى، طرح العدو أربعة اقتراحات مختلفة كان كلها خليقا بالرفض منذ اللحظة الأولى.

الأول: الانسحاب المتبادل على الجانبين والضفتين، أى أن تنسحب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية إلى سيناء والمصرية من سيناء إلى الضفة الغربية. وهكذا ببساطة يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل ٦ أكتوبر تماما، كان شيئا لم يكن، لا حرب وقعت ، ولا نصر حققه العرب ، ولا أرض حررت!

وحين رفض هذا السخف المتغابى بطبيعة الحال، كان الاقتراح الثانى للعدو هو أيضا الانسحاب المتبادل للطرفين وعلى الضفتين ولكن مع احتلال قوات الامم المتحدة للمناطق المخلاة، التى تصبح بذلك منطقة عازلة بين الطرفين. ومن السهل أن نرى أن هذا الاقتراح هو «مقلوب» الاقتراح الأول، وانما بالسالب لا الموجب ، فهو تبادل الاخلاء حيث الاول تبادل الاستيلاء. وهو بهذا لايختلف كثيرا عن ذلك الاقتراح الا ان يكون أكثر سوءا، من حيث انه لايعيد عقارب الساعة إلى الوراء فقط ولكنه يوقفها نهائيا من وجهة النظر المصرية.

هنا تقدم العدو (بالأصح تراجع) باقتراحه الثالث: انسحابه من الضفة الغربية مقابل انسحاب الجيش الثالث من الضفة الشرقية. والواضح أن العدو كان يحاول ان يستغل ما اعتبره ورقة «ازمة حصار الجيش الثالث» التى ملأ الدنيا بها ضجيجا ، غير مدرك جيدا أنها لم تكن الا من صنع وهمه وامانيه ودعايته. ولكن الأوضح منه ان اقتراح العدو كان فى الحقيقة «اسقاطا» منه على هذا الجيش لأزمته هو الحقيقية والمستحكمة جدا فى جيبه المحاصر والمهدد على الضفة الغربية. على ان الاوضح من الكل ان الاقتراح يساوى فى الواقع «نصف» اقتراح العدو الاول، اقليميا وعسكريا . وهذا وحده يكفى ليوضح اتجاه مساومة العدو التنازلى خطوة بخطوة كلما حوصر بالرفض والتفنيد.

وهنا ابرز العدو عرضا آخر: أن ينسحب هو من الضفة الغربية كذلك لمسافة ١٠ كم شرق القناة من الضفة الشرقية ، يكون للقوات المصرية فيها وجود رمزى فقط بينما ينسحب جسمها الاساسى إلى الضفة الغربية . ويكاد هذا الاقتراح أن يكون خليطا مشوشا من الاقتراحين الأول والثانى، وربما الثالث أيضا، مع قشرة جديدة من التمويه

وشكل جغرافى جديد من التوزيع. اما مؤداه الحقيقى فانسحاب مصر من سيناء مقابل انسحاب اسرائيل من الضفة الغربية. ولعله بهذا أقرب إلى الاقتراح الأول منه إلى أى من الاقتراحات الأخرى، كما أنه بالتأكيد أسوأ من الاقتراح الثالث والأخير الذى يبقى مهما كان على الوجود الحقيقى المصرى فى سيناء وان يكن بنصف قوته وأرضه.

على هذه الاقتراحات المرفوضة، ردت مصر باقتراحين مضادين الأول انسحاب القوات الاسرائيلية إلى ما وراء خط العريش - رأس محمد ، أى إلى الشرق من القناة بنحو ١٣٠ كم. وهذا يعنى الانسحاب من نحو نصف مساحة سيناء ، فضلا عن جيب الضفة الغربية. أما الاقتراح الثانى فيقضى بأن يكون خط المضايق هو الحد الفاصل بين الطرفين، تنسحب اسرائيل إلى ما وراء المضايق وتتقدم القوات المصرية لتقف أمامها، مع وجود رمزى لقوات الجانبين على مسافات متساوية على جانبى المضايق تبدأ بعدها القوات الأساسية لكلا الطرفين.

وعلى الفور سنلاحظ أن الاقتراحات الاسرائيلية بدأت بالمزايدة المفرطة ثم اتجهت تنازليا نحو المناقصة. وهذا وحده كان دليلا كافيا على أن خطة المباحثات الاسرائيلية كانت أساسا خطة مناورات أولا، غير عملية ثانيا، وغير منطقية على الاطلاق . فهى لا تعترف بحقائق الموقف العسكرى وتتجاهل نتائجه الميدانية، كما لا تحقق الغرض المقصود من فض الاشتباك ولا تتبنى المقاييس العلمية اللازمة له. أما الخطة المصرية فكانت على العكس علمية وعملية وواقعية فى آن واحد، لأنها كانت تأخذ هذه الاعتبارات جميعا فى حسابها.

كذلك لايقال إن المقترحات المصرية كانت تزايد على المزايدة الاسرائيلية، أو أنها اضطرت مثلها فى النهاية إلى المناقصة . والدليل على هذا أن العدو منذ أن طلب منه الانسحاب أولا إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، طرح منذ البداية فكرة القيام «بخطوة كبيرة» على زعم أن مثلها يحل تلقائيا هذه النقطة. ومن هذا المنطلق قدم اقتراحاته المتعاقبة. ولكن الواقع ان العدو كان يهرب ويتهرب اساسا وبالتحديد من تلك الخطوط التى أعلن أكثر من مرة أنه غير مفوض بالانسحاب اليها، إلى أن اعترف صراحة بأن من الأفضل له أن ينسحب من الضفة الغربية كلها خيرا من أن ينسحب إلى خطوط ٢٢.

ومن الناحية الأخرى فقد كان الجانب المصرى كلما وجد العدو يراوغ او يعيد تقديم اقتراحاته القديمة أو يسحب اقتراحاته القائمة، جابهه بالعودة إلى خطوط ٢٢ فلا يحرى

جوابا. إلى أن وصلت المباحثات، منطقيا ، إلى الطريق المسدود ولم ينقذها إلا التدخل الخارجى ممثلا فى الدور الأمريكى ودبلوماسية كيسنجر المباشرة.

ولقد رأينا ردود فعل العدو ازاء اتفاقية الفصل، تلك التى تراوحت بين القول بأنها نذير كارثة» (بيجين) وبين القول بأن «اسرائيل ربما تكون قد خسرت عسكريا من هذه الاتفاقية ولكنها كسبت سياسيا اظهار رغبتها فى السلام» (آلون). فى كل الأحوال ، فلا شك أنه قبلها راغما وكارها .

ومن الناحية الأخرى فقد وضح الجانب المصرى موقفه تماما من أن الفصل، الذى هو عملية عسكرية صرفة كأى من تلك الاتفاقيات العسكرية التى تبرم بين قوات الدول المتحاربة والتى تدخل فى عداد اتفاقات الهدنة دون ايقاف حالة الحرب، ليس جزءا من الحل السياسى ولا هو حل جزئى وهو اذا كان يعد خطوة اولى صوب السلم، فهو ليس باتفاقية سلام نهائى أو غير ذلك.

أو كما قال الرئيس تيو «مجرد خطوات أولى فى الطريق المؤدى إلى الحل الكامل لمشكلة الشرق الأوسط». أو كذلك كما قال الرئيس الراحل بومبيدو حينذاك انه «يخشى أن يكون هذا الاتفاق مجرد تمهيد للهدنة. وليس سلاما حقيقيا». ويكمل الصحفى الأمريكى ارنو دى بورجريف الصورة ويختتمها فيقول بحق «اذا لم تفتح اتفاقية فصل القوات الطريق إلى اتفاقات أوسع، فان هذه الاتفاقية قد تؤدى إلى حرب أخرى».

أما من الجانب المصرى، فقد أوضحت مصر بجلاء أنها لا تقبل الانسحاب من بقية سيناء على مراحل، وانما على مرحلة واحدة وفى غضون شهور لا أكثر. كذلك ردد الرئيس السادات أكثر من مرة مؤخرا أنه ليست هناك مشكلة بشأن الانسحاب الاسرائيلى من سيناء وأنه لا مفر من هذا الانسحاب وأنه يعتبره أمرا واقعا بالفعل.

وبغض النظر عن كل تصريحات العدو القديمة والحديثة عن أطماعه الاقليمية فى سيناء سواء منها الحد الأعلى أو الأدنى، فقد نقلت الأخبار أن الوزارة الاسرائيلية قبلت مبدأ الانسحاب الشامل ولكن فى ظل اتفاقية سلام لم تشأ أن تعلن شروطها. ومن ناحية أخرى فقد تضاربت الأنباء كذلك عما يفعله العدو بالفعل فى سيناء، فعلى حين تؤكد انباء أنه مستمر فى بناء مستعمرات فى رفح، تقول أخرى انه أوقف كل مشاريعه وانشاءاته فى سيناء وتوقف عن العمل فى تمهيد طريق ايلات – شرم الشيخ وبناء الميناء السياحية فى شرم الشيخ ... الخ.

وفيما عدا قضية الانسحاب ، يرفض الجانب المصرى كذلك نزع سلاح سيناء الا لعشرة! أو عشرين كيلو مترا أو ميلا، بشرط المثل على الجانب الآخر. أما المطالبة بنزع سلاحها كلها فليس عليه الا رد واحد وهو المطالبة بنزع سلاح اسرائيل برمتها (السادات).

معركة الفصل السورية

ومعركة هى بالتأكيد، حقيقة ومجازا، عسكريا وسياسيا. فلأمر ما، لسنا نفهمه، تأخر الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة الجولان طويلا. ولم تبدأ المحادثات الجدية حوله بالكاد بينما كان قد تم تنفيذ الفصل على جبهة سيناء نهائيا منذ بضعة أشهر، بل وتم رفع الحظر عن البترول إلى أمريكا وعن خفضه بالنسبة للدول الأخرى. وكان الظن أن يترابط الفصل على الجبهتين فى اقتران وتزامن شرطى، وأن ينتظر رفع الحظر كليهما.

ولابد هنا ان ننفى فكرة خاطئة شاعت بعض الوقت فى هذا الصدد مؤداها أن هذا كان تخليا بشكل ما من مصر عن سوريا الشقيقة. وقد عبرت عن تلك الفكرة، غير المعقولة بداهة، محطة التليفزيون الأمريكية على سبيل المثال، حين سألت الرئيس السادات فى حديث له اليها «يتصور البعض أنكم قد تخليتم عن سوريا بعض الشئ لقبولكم الفصل بين القوات فى سيناء، وأن ذلك خفف من الضغط على الاسرائيليين، وأن السوريين يشعرون بأنهم قد تركوا وحيدين هنا دون أن تمارسوا أنتم ضغطا على الاسرائيليين. فهل هذا صحيح؟». فأجاب الرئيس قائلا «لا يدور ذلك فى بعض الدوائر فى سوريا فقط. بل انه ليدور أيضا فى بعض الدوائر العربية. ولكن هذا ليس صحيحا». ثم أضاف «لقد كنت أفضل أن يكون الفصل بين القوات على الجبهة السورية قد تم منذ وقت طويل. ولو قد تم ذلك لكنا الآن فى جنيف نبحث السلام الحقيقى».

أما حقيقة الأمر فهى أنه منذ اللحظة الأولى أخذ العدو يضع العراقيل فى سبيل الفصل على الجبهة السورية ويثير المشاكل الثانوية ويضخمها بصورة مفتعلة، مثال ذلك مسألة الأسرى الاسرائيليين فى سوريا، تلك التى ملأ بها الدنيا أيضا صياحا وأكاذيب. ورغم تذرع سوريا بالصبر والمرونة، ورغم دبلوماسية كيسنجر «الطائرة» أو «دبلوماسية المكوك» كما سميت والتى وصلت هنا إلى ذروتها ممثلة فى عشرات الرحلات ذهابا وايابا وعشرات الاجتماعات على امتداد شهر بأكمله، ظل موقف العدو إما جامدا أو مراوغا

مسوفا، وظل الموقف كله لفترة طويلة كما كان غداة وقف اطلاق النار. وكل ما طرأ على موقف العدو نتيجة لحرب أكتوبر أنه أعلن استعداده للانسحاب من الجيب الذى احتله فى تلك الحرب، ولكن دون التخلى عن بوصة من القطاع الذى احتله فى ١٩٦٧.

وقد نقل عن كيسنجر أنه صرح أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة ان مشكلة الجولان هى أصعب مشكلة تعرض لمعالجتها وانه حتى آخر لحظة لم يستطع أن يقدم تكهنات قاطعة. كما أعلن الرئيس الأمريكى نفسه أن محادثات الفصل السورية «ستكون اصعب من محادثات الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية» . واذا كان هناك هكذا اجماع او شبه اجماع على ان عملية الفصل على جبهة الجولان أشق وأعقد بكثير منها على جبهة سيناء، بل وكان ثمة احتمال ليس بالضئيل أن يتفجر القتال هناك فى النتيجة، فليس هناك خلاف على أن أطماع العدو المبيتة والمعلنة هى السبب فى كل ذلك.

فمنذ حرب يونيو ، بل وحتى بعد أكتوبر ، يضع العدو الجولان فى المرتبة نفسها التى يضع فيها القدس فى قائمة أطماعه ومن حيث عدم استعداده للتخلى عنها تحت أى ظرف أو ضغط ، حتى ولو ذهب إلى حد القتال من جديد. وبتحديد مباشر وبصورة سافرة، أعلنت مايير فى فبراير ١٩٧٤ أن «كل مستعمرة يهودية فى مرتفعات الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل».

وفى مناسبة تالية أضافت أنه «ما من ضمانات فى العالم نوعد بها بالنسبة لأمن اسرائيل يمكن أن تصل فى قيمتها إلى وجودنا فى الجولان»، وأن اسرائيل لن تقبل أن يكون «السوريون فوق وهى تحت».

وفى المعنى نفسه أعلن اسرائيل جاليلى أن اسرائيل لن تعود إلى أوضاع ما قبل ١٩٦٧ عندما كان السوريون يستخدمون الجولان «كمنصة لمدفعيتهم» لقصف المستعمرات الاسرائيلية تحتها فى وادى الأردن. أما دايان فقد قال ان المشكلة فى الجولان هى أن السوريين يطالبون بالانسحاب الكامل مع الاستمرار فى الاشتباكات، وأنه لذلك «يرى الصورة قاتمة»، ولم يزد على أن كرر استعداد اسرائيل للانسحاب من الجيب المحتل أثناء أكتوبر. وأما ايبان فقد قال ببساطة «لن يمكن احراز السلام ما لم نبق فى مرتفعات الجولان»، كما ردد أن «المشكلة هى تحقيق فصل بين القوات يتفق وأمن اسرائيل ومصالحها الحيوية».

وقد علق الرئيس السورى على هذه التصريحات المكشوفة بأنها «تحمل رغبة اسرائيل الحقيقية فى اقرار السلام موضع تساؤل»، كما أكد مرارا أنه «لا سلام بدون الانسحاب الكامل والاعتراف بحقوق الفلسطينيين».

هذا بينما سارع مسئول أمريكى فصرح تعقيبا على تصريحات مايير بأن «الولايات المتحدة لا توافق على تصريحات السيدة مايير حول مصير الجولان من انها جزء لا يتجزء من اسرائيل ، وأن هذه ليست المرة الأولى التى تختلف فيها مع الموقف الاسرائيلى».

حرب الاستنزاف

فى وجه هذه النوايا الجشعة، كان طبيعيا أن تفرض سوريا على العدو ثمنا باهظا لوجوده فى المنطقة. فمارست «حرب استنزاف» مكثفة وثقيلة، لم يخف العدو ذعره منها، مماثلة لما شنته القوات المصرية من قبل فى جبهة السويس. وقد بدأت الحرب بعد انتهاء موسم الثلوج والأمطار ، وامتدت ثلاثة شهور تقريبا (أكثر من ٨٠ يوما) وهذه الحرب، التى دارت بعض معاركها الشرسة والبالغة الضراوة حول احتلال قمم جبل الشيخ ، تماما مثلما حدث فى أول وآخر معركة أكتوبر، قد كبدت اسرائيل خسائر فادحة ورفعت درجة التوتر فى المنطقة إلى حد يهدد بتفجر الموقف كله.

ولقد عبر مستشار النمسا برونو كرايسكى عن ذلك وقت زيارته للمنطقة بأن هناك «شعورا بالتوتر وحالة حرب تقريبا فى دمشق ، وأن أصوات تبادل النيران تسمع هناك بوضوح» . هذا بينما أعربت وزارة الدفاع الأمريكية عن خشيتها من أنه لايمكن تجنب احتمال حدوث مواجهة عسكرية أخرى بين سوريا واسرائيل . وبالمثل قال اليعازر انه لا يستبعد اندلاع صراع جديد مالم يتم التوصل إلى اتفاق للفصل بين القوات السورية والاسرائيلية.

وقد أعلن بعض المسئولين الاسرائيليين بعد ذلك أن سوريا قد حشدت على الجبهة نحو ٢٠٠٠ دبابة (فى رواية أخرى أن لدى سوريا الآن ٣٠٠٠ دبابة)، عدا المدفعية الكثيفة ، مما يوحى باعتزامها الهجوم . ثم حدد البعض هدف هذا الهجوم بتحرير الجيب المحتل أثناء أكتوبر أو جيب آخر مماثل من الجولان بدلا منه. وبعد حوالى الشهرين من حرب الاستنزاف كان الموقف قد بلغ درجة التشبع، كما قالت الجيروزالم بوست ، حيث وضع السوريون حول الجيب الاسرائيلى فى الجولان المئات من قطع المدفعية التى يبدو أنه قد تم

تحديد هدف معين لكل بطارية منها بحيث تنهال مئات القذائف يوميا على الهدف الواحد فلا ينجو قط من الخسائر الحتمية.

هذا من جهة . ومن جهة أخرى أعلنت مصر رسميا أن اسرائيل وحدها هى المسئولة عن تصعيد العمليات العسكرية فى الجولان. كما أعلن القائد العام للقوات المصرية، على اساس وحدة المعركة العربية، أن حرب الاستنزاف التى تجرى حاليا على الجبهة السورية اذا تحولت إلى قتال جدى أو أصبح الموقف حرجا، فان مصر سوف تشارك فى القتال بلا شك . ويأتى هذا فى الوقت الذى يبدو أن اسرائيل حريصة كما يفهم من الجيروزالم بوست على استبعاد شن حرب واسعة النطاق قد تؤدى إلى استئناف القتال فى سيناء وتدهور العلاقات الاسرائيلية الأمريكية.

وعلى الجانب الآخر، رد دايان وردد أكثر من مرة ، ولكن بطريقته المذبذبة بانتظام، مهددا بالحرب. ففى مرة قال «اذا استمر السوريون فى تصعيد القتال على جبهة الجولان، فقد يجد كيسنجر حربا مستعرة فى انتظاره حين يصل» . ثم فى مرة تالية عاد يقول «ان المحاولات السورية المستمرة للاستيلاء على جبل الشيخ الاستراتيجى فى المرتفعات يمكن أن تؤدى إلى حرب شاملة قبل أن يستطيع كيسنجر اجراء مفاوضات للتوصل إلى اتفاق اسرائيلى – سورى بشأن الفصل بين القوات». وأردف مضيفا واسرائيل مازالت تعمل على التوصل إلى تسوية مع دمشق حول الفصل بين القوات». ثم اختتم بقوله «اننا لا نرغب فى حرب شاملة حتى لو عادت علينا بمكاسب عسكرية ، لأننا نتوقع ان تسفر المرحلة الثانية للمفاوضات عن شئ».

فى ظل هذا الموقف المشحون دارت الاتصالات بين اسرائيل وأمريكا من جانب، وبين سوريا وأمريكا، وكذلك بين أمريكا والاتحاد السوفيتى وكذلك بين سوريا والاتحاد، بشأن فض الاشتباك وفصل القوات . وقد اعترف كيسنجر بأن المحادثات والمحاولات تدور ببطء شديد عما كان متوقعا، وان هناك صعوبات بالغة التعقيد. ولكن المناورات الاسرائيلية ظلت بلا انقطاع ، هذا فى الوقت الذى وضع فيه العرب ان نجاح الفصل على الجولان سيكون وحده الدليل على أن «هناك نظرة جديدة فى اسرائيل» (السادات)، وأن الحظر البترولى سيعود فى خلال شهرين (أى فى يونيو) اذا لم يتم الفصل بين القوات على الجبهة السورية، وكذلك فى الوقت الذى أعلنت مصر أنها لن تذهب إلى مؤتمر جنيف الا ومعها

سوريا، ضمن آخرين، بل وإنها سوف تشارك فى القتال إذا تطور هناك، كذلك أعلنت مصر أنه مالم تكف اسرائيل عن عرقلة الفك السريع للاشتباك فستكون مسئولة عن القضاء على مناخ السلام القائم، وكذلك على مؤتمر جنيف.

وبهذا أصبح الفصل على جبهة الجولان فى رأى البعض هو المفجر المحتمل أو الممكن للجولة القادمة أو الخامسة، مثلما هو المدخل الشرطى والبوابة الحتمية إلى مؤتمر جنيف. ومن هنا بات جليا أن اسرائيل، التى تخشى دخول المؤتمر ولا تريد ان تلج الطريق اليه وتود أن تغلق بابه إلى الأبد، تلعب لعبة الفصل على جبهة الجولان عن عمد لكى تعوق الاجتماع فى جنيف وتعطله إلى اقصى حد ممكن.

خلفية الصراع

ومن ناحية أخرى ينبغى أيضا أن نسجل أن المحادثات قد دخلت كذلك دائرة الشد والجذب بين القوتين الأعظم، وذلك بعد أن انفردت الولايات المتحدة بحل مشكلة الفصل على الجبهة المصرية ثم اصرار الاتحاد السوفيتى من قبيل التوازن على دور أساسى فى حلها على الجبهة السورية. وفى هذا الصدد لوحظ تعدد زيارات جروميكو لسوريا فى نفس وقت زيارة كيسنجر لها أو حوله، لاشك اثباتا للوجود السوفيتى على المسرح وحدا لانفراد أمريكا بالعمل. كما لوحظ عدم التقاء الرجلين بها مع ذلك إلا فى النهاية، وان اجتمعا خارجها كما حدث فى جنيف ثم قبرص، دليلا آخر لاشك على المنافسة.

وفى ذلك الاطار نفسه قيل ان موقف السوفيت هو تشجيع السوريين على اتخاذ موقف متشدد فى محادثات الفصل مع امدادهم بالسلاح الحديث تدعيما لذلك الموقف. ولقد عقدت بالفعل صفقة سلاح كبيرة بين الطرفين (١٨٠٠ مليون دولار) ، تشمل أنواعا جديدة ومتطورة إلى أقصى حد ولكن من المؤكد أنه زعم خاطئ؛ ذلك الذى يذهب إلى أنهم يعرقلون التوصل إلى اتفاقية. وقد رفض كيسنجر مؤخرا رأيا بأن السوفيت لا يؤيدون جهود الفصل على الجولان، ونفى أن يكون لامدادهم بالأسلحة علاقة بذلك، ولو أنه عاد فى مناسبة تالية فقال انه يأمل أن يكون الاتحاد السوفيتى «مصمما مثلنا على خفض التوتر فى الشرق الأوسط».

ومن الجهة الأخرى صرح جروميكو بأن الاتحاد السوفيتى ساهم فى محاولات التوصل إلى الفصل بترحيب من سوريا، وأن هناك عناصر ايجابية ومشجعة فى الموقف.

ثم أعلن الاثنان، جروميكو وكيسنجر، فى بيان مشترك صدر فى جنيف أن الاتحاد والولايات سيعملان معا لحل أزمة الشرق الأوسط ويؤيدان التعجيل باستئناف مؤتمر جنيف، وأنهما وافقا على استخدام نفوذهما من أجل ايجاد نتائج ايجابية، بما فى ذلك مشكلة الفصل على الجولان .

وفيما عدا هذا فلقد قيل أيضا ان الموقف السوفيتى يستهدف ألا يتم الفصل على الجبهة السورية على غرار نمط الفصل على الجبهة المصرية، وانما بشروط أفضل وأقوى . بل قيل أكثر، قيل ان المقصود بهذا الموقف هو بالدقة «احراج» مصر (برجنيف يريد احراج السادات، كما نقلت وكالات الأنباء وعبرت الصحف) ، وذلك بعد الاختلافات التى ثارت مؤخرا بينهما. وفى وجه هذا التعقيد، الذى ينبغى عدم المبالغة فى تقديره، كان الموقف المصرى هو أن «واجبنا الآن أن نحافظ على الموقف السورى» (السادات).

ومن المؤكد أن مصر ، بينما تحرص على وحدة الموقف العربى ووحدة المعركة، ترحب بكل ما من شأنه أن يحقق مصلحة سوريا الشقيقة، وبأقصى درجة عند ذلك. كما لاشك أن بعضا من عنصر المنافسة بين العملاقين فى الموقف من شأنه أن يدعم قدرتنا التفاوضية وفرض شروطنا عموما. ووجود الثقل السوفيتى - أعلن جروميكو مثلا فى ذروة المباحثات أن الاتحاد السوفيتى يعتبر «الدفاع عن الجولان كالدفاع عن ستالينجراد» لاريب دعم للموقف السورى. بل لعلنا نقول ان اجتماع الدورين الأمريكى والسوفيتى فى مشكلة الجولان كان ضرورة حتمية لابد منها منذ البداية نظرا لطبيعة أطماع العدو هناك. فاذا كان الدور الأمريكى المنفرد كافيا فى حالة الجبهة المصرية، فهو على الأرجح لا يكفى وحده فى حالة الجبهة السورية.

لهذا كله فليس ثمة تعارض او تباعد بين موقفى الشقيقتين العربيتين، ولن ينجح أحد قط فى عزلهما عن بعضهما البعض. والمهم دائما من وجهة النظر العربية هو وحدة الموقف القومى والنضالى من ناحية مع توازن الموقف الدولى توازنا صحيا من الناحية الأخرى. ولقد كان موقف سوريا بالفعل قوميا وقويا معا، حرص على علاقاته العربية والعالمية على حد سواء، وجمع بين الصلابة والانفتاح . فإلى جانب التنسيق الدائم مع رفيقة المعركة مصر، أوضحت لكيسنجر أنها تود قيام علاقات جديدة مع أمريكا وأنها ترحب بمبادرتها للحل، مؤكدة فى الوقت نفسه التطابق التام بين موقف سوريا والاتحاد السوفيتى، على

اساس ان الدولتين الأعظم تتحملان مسئولية خاصة. وفى النتيجة، وفى النهاية ، خرجت سوريا من معركة الفصل بتوكيد رفقة السلاح مع مصر وتدعيم صداقتها مع الاتحاد وبصداقة جديدة مع الولايات إلى جانب اتفاقية مشرفة ناجحة وراجحة.

فاذا ما عدنا إلى تتبع «سيناريو» المحادثات، فلاشك أن صعوبة المشكلة وتعقدها كانت تزداد وضوحا كل يوم، مثلما يزداد اكتشاف الهوة الحقيقية فى الموقف رغم محاولات التقريب بين طرفى عملية الفصل ولهذا ظلت الأنباء تحمل يوما نبرة التفاؤل الشديد أو الحذر وتبشر بأن الحل ممكن وربما وشيك غدا، ثم تعود فى اليوم التالى وتستبعد الأمل تماما او تؤجله إلى جولة أخرى. يوما يتحدثون عن تقدم كبير ، ويوما آخر تفاهم فيه ضئيل .. الخ..

ولاشك أن كيسينجر كان يمارس ضغطا خفيفا ولكنه حازم على اسرائيل لكى ينجح فى مهمته، ولكن اسرائيل كانت تقاوم بعناد واصرار ولكن فى دبلوماسية محسوبة، مصممة ومصممة. فهى لا تريد أن تتصادم مع أمريكا بأى ثمن، كما تريد أن تتحاشى أى شق داخلى فيها. ولكن من الواضح أن مشكلة الفصل على الجبهة السورية ، كمشكلة الفصل على الجبهة المصرية من قبل وربما أكثر، كانت تحدث انقسامات عنيفة داخل اسرائيل، كما تسبب توترات عميقة مع أمريكا وتترك مزيدا من المرارة نحوها. ولقد عبرت مايير عن هذا بقولها ان اعتماد اسرائيل على دبلوماسية كيسنجر سيكون أقل من اعتمادها على «نضالها من أجل البقاء ، وأنه اذا اعتقد العرب وأصدقاؤنا أننا نريد السلام إلى حد أنه لم تعد لدينا ثقة بالقتال فلن تكون هناك حدود لمطالب الطرفين».

ومن جهة أخرى فان المعارضة، التى أثارت فى الكنيست ضجة كبرى حول المباحثات، تضغط على الحكومة لرفض الانسحاب من الجولان وبخاصة من القنيطرة. كذلك فقد هاجم بيجين كيسنجر واتهمه بأنه «يبيع الوهم لاسرائيل». ولكن الحكومة تضع عينا على أمريكا كما تضع الأخرى على الجولان . قال ايبان «إذا خيبنا أمل كيسنجر، فان ذلك قد يتسبب فى شقاق مع الولايات المتحدة . لذلك فنحن نتحدث اليه ، ولابد لنا من أن نبحث محادثات الفصل فى خلفية اقليمية عامة». بينما قالت مايير للمزايدين، حتى من حزبها، «لاتستعرضوا وطنيتكم. ان خوفكم على مستقبل الجولان لايساوى شيئا اذا ما قيس بالمخاوف التى تمزق نفسى عندما أفكر فى احتمال فشل المباحثات» (تقصد تصدع العلاقات مع امريكا).

مراحل المباحثات

هذا عن خلفية الصراعات المحلية والخارجية حول المباحثات. أما عن محادثات أو محاولات الفصل نفسها فقد مرت فى عدة مراحل، تطورت فى الحقيقة تحت ضغط صلابة الموقف السورى على الجبهة من خلال حرب الاستنزاف من ناحية وتحت ضغط الجهود الأمريكية والدولية من الناحية الأخرى. ونحن هنا سوف نتتبع ذبذبات الموقف ما بين ارتفاع وانخفاض وفى شكل المقترحات والمقترحات المضادة والمشاريع وشائعات المشاريع قبل أن ننتهى إلى الاتفاق الرسمى النهائى. وليس ذلك من قبيل التسجيل او التوثيق ، ولكن أساسا تتبعا لخط العدو وخططه وعقله الباطن.

فالموقف الاسرائيلى كان يصر ابتداء على رفض الانسحاب من الجولان فيما عدا جيب أكتوبر، ثم عاد يتحدث عن «خط يمكن الدفاع عنه».

وبين هذا وذاك استخدمت اسرائيل تكتيك المراوغة وتمييع المواقف والعودة من جديد لاقتراحاتها ومشروعاتها القديمة، أحيانا مع قليل من التعديل وأحيانا أكثر مع مزيد من التشدد، تماما مثلما فعلت فى محادثات الكيلو ١٠١ على الجبهة المصرية. هذا بينما ظلت سوريا تصر على شرطين اساسيين، الأول أن يتسع الفصل بحيث لاتكون المواقع والقوات فى مرمى الضرب والنار من الجانبين، والثانى أن يكون الفصل مقدمة للانسحاب الكلى الكامل بحيث يتضمن أى اتفاق للفصل بين القوات تعهدا اسرائيليا بالانسحاب من كل الأراضى المحتلة.

ولكن تحت الضغط الأمريكى المتزايد (جولة كيسنجر الخامسة)، تراجع الموقف الاسرائيلى قليلا . وقد ذكرت هاآرتس أن مشروع كيسنجر فى هذا الصدد هو الانسحاب الجزئى من الجولان على أساس انسحاب اسرائيل من جيب أكتوبر ، ثم من منطقة جبل الشيخ ، ثم من جزء صغير من الجولان . ثم عادت الصحيفة نفسها ففصلت الأفكار الأمريكية على النحو التالى: أولا، الانسحاب التام من جيب أكتوبر ومن مواقع جبل الشيخ ومن قطاع القنيطرة. ثانيا، نزع سلاح المناطق التى يجلو عنها الاسرائيليون. ثالثا، الخفض المتبادل لقوات الطرفين على جانبى المناطق المنزوعة السلاح.

وبغض النظر عن أى شئ آخر ، فواضح أن الاقتراح يعنى أن تفقد سوريا مزيدا من أرضها تتراجع عنه تحت اسم نزع السلاح! ولما كان الكل مرفوضا ، فقد نقلت معاريف

عن بعض المصـــادر أن «الفـصل بين القـوات لن يحل المشكلة الأسـاسـيـة لمرتفـعـات الجولان».

غـيـر أنه علم بعـد ذلك أن اسرائيل تقـدمت إلى أمـريكا بمشـروع «وسط» يتـضـمن انسحابا جزئيا من المرتفعات المحتلة قبل أكتوبر، وأنها ستقبل وجودا محدودا للقوات الدولية فى منطقة عازلة، لكنها تصر على الاحتفاظ بالمواقع الاستراتيجية الرئيسية وترفض المشروع الأمريكى بأن تصبح كل الأراضى السورية المحتلة منطقة عازلة على مراحل وخطوات.

وبالمقابل، تقدمت سوريا ، التى ترفض مبدأ المنطقة العازلة أيضا، اقتراحا مضادا يتـضـمن ثلاث نقـاط. أولا، انسـحـاب اسـرائيل من مـدينة القنيطرة والمواقع والتـلال الاستراتيجية الثلاثة المشرفة عليها (وهى تل الفرس، تل أبو الندا وتل العزيزيات) حتى لا تكون فى مرمى العدو. ثانيا، الانسحاب من الجيب المحتل فى أكتوبر . ثالثا، التعهد بالانسحاب الكامل من جميع الأراضى المحتلة حسب جدول زمنى محدد. وقد علق أبا ايبان على هذا وقتها بأن الفجوة مازالت واسعة بين المقترحات السورية والاسرائيلية، وأعاد بلا مواربة تأكيد مبدأ اسرائيل الأساسى من عدم الانسحاب من أكثر من جيب أكتوبر وحده.

وعند هذا الحد بدأت المرحلة الثانية مع جولة كيسنجر الأخيره فى المنطقة . وقد ذكرت الأنباء أن كيسنجر يحمل مشروعا وسطا يجمع بين الأفكار السورية والاسرائيلية على النحو الآتى . أولا، انسحاب اسرائيل من منطقة مساحتها ٣٢٥ ميلا مربعا (أى ٥٢٥ كيلو مترا مربعا) هى جيب أكتوبر ، مع انسحابها عن ميل واحد آخر (١.٦ كم) من الأراضى التى احتلتها قبل أكتوبر . بما فى ذلك القنيطرة . ثانيا، خفض عدد القوات من الجانبين السورى والاسرائيلى ، ورسم خط جديد يفصل بين القوات. ثالثا، ترابط قوات الأمم المتحدة فى المنطقة الفاصلة. رابعا . عودة الأسرى الاسرائيليين (٦٥ أسيرا) ، وعودة ١٥ – ١٧ ألف لاجئ سورى إلى أراضيهم.

غير أن هذا المشروع فيما يبدو لم يجد قبولا لدى أى من الطرفين المعنيين، سوريا والعدو. فأما عن سوريا فقد أكد الرئيس الأسد لكيسنجر الأسس والمبادئ السورية للحل. ومن هذه المبادئ انسحاب اسرائيل من القنيطرة وتلالها الثلاثة، فضلا عن الأراضى

المحيطة بها، ومنها ١٧ مستعمرة اسرائيلية. كذلك ترفض هذه المبادئ وجود قوات دولية بين خطوط الجانبين وترى الاكتفاء بمراقبين دوليين.

وأما اسرائيل فقد طلبت من كيسنجر أولا وقف الأعمال القتالية.

وثانيا تهربت من تحديد موقفها النهائى من القنيطرة، وقيل انها على استعداد للانسحاب من أحد التلال الثلاثة حولها ولكنها تصر على الاحتفاظ بالاثنين الآخرين. على أنها فى الغالب تريد تأجيل موضوع القنيطرة وتلالها بأكمله إلى مؤتمر جنيف وعلى هذا فان العنصر الأساسى فى المحادثات، وهو تحديد الخط الفاصل جغرافيا، ارجئ بحثه. أما فيما عدا هذا فيبدو أن الاسرائيليين متمسكون مازالوا بعدم الانسحاب إلى ما وراء خط ١٩٦٧، ومصرون على الاحتفاظ بالسيطرة على الجولان. وكذلك أوضحت اسرائيل أنها مصممة على عدم التخلى عن أى من المستعمرات السبع عشرة، التى تعتبر رمزا لإرادة اسرائيل فى البقاء والتى يجرى الآن وتحت نار حرب الاستنزاف انشاء آخر واحدة منها (!).

وقد علق الكثيرون على هذا بأن اسرائيل ان لم تقدم تنازلات جدية فسيكون الأمل فى الفصل ضئيلا. والواضح أن اسرائيل كانت تتهرب من الفصل بتحويله إلى مؤتمر جنيف، وتتهرب من مؤتمر جنيف بعرقلة الفصل، وتتهرب من الاثنين عمليا بدعوى أوضاعها السياسية الداخلية غير المستقرة.

واذا كان التحديد الجغرافى لخط الفصل، الذى ينبغى ان يحقق أمن سوريا، قد أصبح هو مدار البحث والمساومة، فقد أصبح موقعه خلف أو أمام خط ١٩٦٧ هو مدار الخلاف والمصادمات . وقد أوضح كيسنجر للاسرائيليين فى هذا الصدد أنه لا فصل بلا انسحاب من القنيطرة وتلالها، وأن الفصل أهم لاسرائيل من القنيطرة وتلالها. ولكن اسرائيل كانت ترى أن انسحابا منها لنحو ٥ أو ٧ كم نحو الشرق من خط ١٩٦٧ كفيل بأن يخلى القنيطره ولكنه لاشك يضعف موقف اسرائيل العسكرى فى المرتفعات ووضع المستعمرات فى المنطقة.

ويبدو أن اسرائيل كانت تحاول الخروج من المأزق بالمناورة بمبدأ جديد ابتدعته لتساوم به هو مبدأ التبادل، وبالتحديد التبادل الجزئى، بمعنى جزء وراء خط ١٩٦٧ مقابل جزء أمامه. فإذا كان عليها أن تنسحب وراء قطاع من خط ١٩٦٧ ، فانها تصر على الاحتفاظ

بقطاع من جيب أكتوبر. وفى هذه الحالة فلابد أن يضمن الخط الجديد لها السيطرة على جبل الشيخ أولا، وعدم نقل أى مستعمرة لها فى الجولان من مكانها ثانيا، وأن تكون المستعمرات بعيدة عن مرمى المدفعية السورية ثالثا.

وعلى هذا الأساس قدمت اسرائيل مشروعا يتضمن النقاط والشروط الآتية: أولا، استعداد اسرائيل للانسحاب من قمم جبل الشيخ لتكون تحت ادارة قوات الأمم المتحدة، مع احتفاظها هى بحق الرقابة العسكرية على السفح الغربى للجبل. ثانيا عدم استعدادها للانسحاب من القنيطرة الا مقابل الاحتفاظ ببعض المرتفعات ذات الأهمية الاستراتيجية الواقعة فى نطاق جيب أكتوبر.. ثالثا عدم استعدادها للانسحاب عن المرتفعات التلية الثلاثة التى تحيط بالقنيطرة أو وضعها تحت اشراف الأمم المتحدة بدعوى أن الانسحاب منها سوف يهدد أمن المستعمرات السبع عشرة. وعموما فان اسرائيل ترفض التخلى عن أكثر من ٤٥٠ كم٢ هى من جيب أكتوبر ، وتريد خفض الأسلحة فى منطقة عازلة واسعة بحيث لا تقع الأراضى الاسرائيلية وبقية الأراضى السورية المحتلة فى مرمى المدفعية السورية.

ومن الجهة المضادة أصرت سوريا بالمقابل على انسحاب اسرائيل من القنيطرة وتلالها أولا، ومن المستعمرات بما فيها المستعمرات الثلاث الجدد فى جيب أكتوبر ثانيا، ومن جيب أكتوبر كله ثالثا . هذا عدا رفضها لأكثر من مراقبين دوليين، وعدا المبدأ الجوهرى بالطبع وهو النص على قبول اسرائيل بالانسحاب التام من كل الأراضى السورية المحتلة قديما وحديثا واعتبار الفصل مرحلة أولى من ذلك. وقد أعلن الون أن اسرائيل ترفض شروط سوريا للانسحاب من الجولان زاعما أنها ستبقى جزءا لايتجزء من الأمن الاستراتيجى «لحيويتها للدفاع عن الشمال الاسرائيلى كله، ولضمان موارد المياه التى تروى الجنوب» . وعلى حين لم يقطع آلون برفض انسحاب جزئى ، الا أنه أوضح ان اسرائيل سوف تسلم أى أرض تتخلى عنها إلى الأمم المتحدة لا إلى سوريا . «أما بيريز فقد ذكر أن اسرائيل على استعداد لتبادل قليل من الأرض فى مقابل قليل من السلام».

وازاء هذا الرفض المتبادل والمزدوج بدا الطريق مسدودا إلى حد بعيد، رغم الحديث الدبلوماسى التقليدى عن دلائل التقدم. فمثلا ذكر بعض أعضاء الوفد الأمريكى أكثر من مرة أن هناك علامات على تحقيق بعض التقدم. ولكنه عاد كل مرة فاستبعد التوصل إلى

اتفاق كامل فى هذه الجولة، أو على الأكثر فان فرص التوصل إلى اتفاق «أكثر قليلا من متساوية» . وبالمثل قال شيمون بيريز انه متفائل بشأن امكانية الفصل وان لديه انطباعا بأن بعض التقدم قد تحقق، غير أنه كذلك اردف أن من السابق لأوانه التنبؤ بالنتائج «واننا مازلنا فى بداية الطريق».

كذلك صرح آلون بأن الحكومة الاسرائيلية «قالت كلمتها الأخيرة فيما يتعلق بالمشكلات الجغرافية» فى الموضوع «وحددت خطا هى على استعداد لأن تقف وراءه فى اطار الفصل بين القوات، ولا أعتقد أن أية تغييرات أخرى فى هذا الخط ممكنة» . ثم انتهى إلى أنه «لن يدهش اذا تحقق اتفاق الفصل» ، ولذا فهو «متفائل، ولكن ليس إلى الحد الذى يجعلنى أتوقع أن اتفاقا سيعقد عما قريب»!

أما كيسنجر نفسه فقد صرح عدة مرات «بأننا قد حققنا بعض التقدم، ولكننا لم نتوصل إلى اتفاق». غير أن كيسنجر، كما قيل، مصمم على الوصول إلى اتفاق فى جولته الحالية، وأنه يسعى على الأقل إلى الحصول على «اعلان نوايا» من الطرفين تتعهد فيه كل من الدولتين بأن اتفاقية الفصل ليست الا مرحلة من مراحل تنفيذ قرار ٢٤٢، اسرائيل تعلن عن موقفها الخاص بربط الانسحاب بالحل النهائى، وسوريا عن استعدادها لوقف القتال مقابل التوصل إلى اتفاقية الفصل.

وعند هذا الحد كان آخر موقف لاسرائيل من تفاصيل الفصل كما لخصته أو استخلصته وكالات الأنباء، وهو الذى رفضته سوريا، كالآتى القنيطرة: يكون القطاع الشرقى منها ضمن المنطقة العازلة التى ستشرف عليها قوات الأمم المتحدة . ويمكن السماح للمواطنين السوريين المدنيين بالعودة للعيش فى المدينة . جيب أكتوبر : يعود منه جزء للسيادة السورية، والباقى يدخل فى المنطقة العازلة. ويمكن السماح للمزارعين السوريين بالعودة للسكنى والمعيشة فى الجيب. تلال القنيطرة الثلاثة: تحتفظ بها اسرائيل، لأنها اذ تقع إلى الشمال والغرب والجنوب الغربى من المدينة تطل وتسيطر على مستعمرات ميروم هاولان الروم وعين زيفان الاسرائيلية. منطقة الرفيد: تسلم اسرائيل قرية بوميية السورية الواقعة غرب الرفيد للادارة المدنية السورية داخل نطاق المنطقة العازلة، ويسمح للفلاحين بالعودة إلى المنطقة. جبل الشيخ : قمة الجبل والنقط المرتفعة الأخرى التى احتلتها اسرائيل فى أكتوبر تسلم لقوات الأمم المتحدة ، لكن تحتفظ اسرائيل بالمناطق الاستراتيجية الأخرى على السفح الغربى للجبل .

ومن الغريب أن هذا المشروع ، المرفوض عربيا، قد رفضته الصحافة الاسرائيلية. معاريف ، مثلا ، قالت «نحن هنا بازاء تخل واضح عن المبدأ القائل بأن الجولان تشكل جزءا لا يتجزأ من اسرائيل ، وأنه لا ينبغى أن يكون هناك تفكير فى أى انسحاب إلى وراء الخطوط التى كانت اسرائيل تحتلها قبل الحرب. هذا فضلا عن أن فكرة تقسيم القنيطرة تبدو بالنسبة لنا أمرا غير عملى، بل وخطيرا فى الوقت نفسه. فبسبب القدس، يجب أن تعارض السياسة الاسرائيلية صراحة أى تقسيم للمدن». أما ايديعوت أحرونوت فقد كانت أصرح، وذهبت أبعد . فاذا كانت الحرب حتمية مع سوريا، قالت الصحيفة، خاصة وأننا لا نعتزم رد الجولان بأية حال من الأحوال، فانه من الأفضل أن تندلع هذه الحرب بينما القوات الاسرائيلية فى الجيب الذى احتلته أثناء حرب أكتوبر، والذى يقع على بعد ٤٠ كم من دمشق ، على ان تندلع بعد الجلاء عن هذا الجيب!

مهما يكن، والمعنى لا يحتاج إلى تعليق، فقد كانت خلاصة الموقف النهائية هى ما الآتى: المشروع الاسرائيلى يعرض الانسحاب من جميع الأراضى التى احتلت فى أكتوبر ، ومن نصف مدينة القنيطرة ، ثم تسليم ثلاث قمم فى جبل الشيخ إلى قوات الأمم المتحدة. ولكن العرض موفوض لأن سوريا تريد استرداد القنيطرة كلها وتلالها الثلاثة معها، كما ترى أن الخط الفاصل بين القوات ليس أهم شئ فى الأمر، وانما الأهم والمبدأ الأساسى هو أن تلتزم اسرائيل بالانسحاب من جميع الأراضى السورية التى احتلتها فى الحربين وأن تضمن الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى وهذه الالتزامات يجب أن تضمنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مقابل أن تقبل سوريا ضمان الدولتين لأمن اسرائيل.

الاتفاقية النهائية

من خلال تلك المساجلات والمناورات التى كادت تصل بالمباحثات إلى طريق مسدود تماما حتى توقع الكل تقريبا اعلان فشل محاولة كيسنجر أو تأجيلها، أمكن فى النهاية تضييق الفجوة بين الطرفين. ولم يتم هذا إلا بعد أن أخذ كيسنجر دورا أكثر ايجابية بتقديم اقتراحات امريكية مباشرة إلى الطرفين تتضمن تنازلات محددة من كليهما . كما لم يتم ذلك الا فى جو من التوتر والهيستريا الاسرائيلية الحادة فى الشارع كما فى الحكم انعكست فى المظاهرات والكتابات العدائية لكيسنجر وضد الحكومة .. الخ.

وقد كانت نقاط الخلاف الأساسية بعد أن تم الاتفاق على المسار العريض للخط الفاصل جغرافيا ثلاث هى: عمق المنطقة العازلة وقضية العمل الفدائى وربط الفصل بالانسحاب الشامل . فعن الأولى كانت سوريا ترى ضرورة تضييقها حتى تظل دفاعات دمشق ، التى لا تبعد عن الجبهة أكثر من ٤٠ كم، خارج اطار منطقة تخفيف القوات وتخفيضها. فبينما اقترح العدو الا يقل عمق المنطقة العازلة عن ١٠ - ١٥ كم ، أصرت سوريا إلا يزيد على ٢ - ٣ كم . (يلاحظ هنا أن موقف العدو عكس موقفه على الجبهة المصرية، حيث كان يطالب بالحد الأدنى من عمق المنطقة العازلة!) وقد جاءت الاتفاقية النهائية أقرب إلى الشرط السورى، واضطر العدو إلى التنازل والتراجع.

وبالمثل تغلبت المطالب السورية فى النقطتين الأخريين. فبصدد العمل الفدائى. كانت اسرائيل تريد ان تنص الاتفاقية على منع العمل الفدائى الفلسطينى من الأراضى السورية. ولكن سوريا رفضت مجرد مناقشة القضية كجزء من الاتفاقية، باعتبار أنها مشكلة الفلسطينيين أساسا ولا علاقة لها باتفاقية الفصل ولا علاقة للاتفاقية بالمنظمات الفدائية. وبالفعل لم تتضمن الاتفاقية أية اشارة إلى هذه المسألة ، كما لم تتعهد سوريا سرا أو شفويا بأى التزام فى هذا الموضوع. أما عن شروط الربط بين الاتفاقية وبين الانسحاب الشامل، فقد اشار الاتفاق النهائى إلى قرار مجلس الأمن كاطار يحمل معنى هذا الربط. وهكذا جاءت معظم التنازلات من الجانب الاسرائيلى فى كل النقاط الثلاث المختلف عليها.

أما بنود الاتفاقية الأساسية نفسها فهى كما يلى . أولا ، انسحاب القوات الاسرائيلية من ٣٢٤ ميلا مربعا فى جيب أكتوبر وفى شرق الجولان بما فى ذلك مدينة القنيطرة ، مع احتفاظ اسرائيل بثلاثة من التلال الاستراتيجية ، ثانيا، عرض المنطقة العازلة يتراوح ما بين ١.٢ - ٢.٦ ميل، يتمركز فيها أكثر قليلا من ألف من قوات مراقبة للامم المتحدة. ثالثا، يعود المدنيون السوريون إلى مدينة القنيطرة والقرى الأخرى فى المنطقة العازلة التى ستكون تحت الادارة المدنية السورية . رابعا، تكون هناك منطقة خفض قوات على جانبى المنطقة العازلة تتألف من نطاقين:

الأول بعمق ٦ أميال تقتصر فيه قوات كل من الطرفين على ٦٠٠٠ جندى، ٧٥ دبابة، ٣٦ مدفعا، والثانى بعمق ٦ أميال أخرى تحدد فيه القوة بعدد ٤٥٠ دبابة ولكن بقوات غير محدودة.

من هذا نرى اقليميا ان الاتفاقية تحقق الآتى: اولا ، تحرر ٦٦٣ كيلو مترا مربعا من الأراضى المحتلة، منها ١١٢ كيلو مترا مربعا من الأرض التى احتلت فى أكتوبر . ثانيا ، تحقيق جلاء اسرائيل عن ٢١ موقعا محصنا لها أهميتها الخاصة للدفاع والهجوم بالاضافة إلى مواقع العدو فى جبل الشيخ . ثالثا تعيد عدة قرى أخرى بالجولان بعضها داخل المنطقة العازلة وبعضها ضمن نطاق خفض القوات. رابعا وأخيرا، تعنى فى مجموعها تحرير نحو ثلث المساحة الكلية للاراضى السورية المحتلة قبل وبعد اكتوبر معا (تبلغ مساحة الأراضى السورية المحتلة قبل أكتوبر ١١٥٠ كم٢، وتلك المحتلة بعدها نحو ٨٠٠ كم٢ ، بمجموع قدره نحو ١٩٥٠ كم٢) . وهذه المنطقة المحرره تقع أساسا فى الشمال والشرق، أو هى إجمالا الشمال الشرقى من الجولان.

والخلاصة النهائية الواضحة بلا شك هى أن الاتفاقية نصر للارادة السورية على ارادة العدو. وهذا بالتأكيد تعبير عن النصر الحقيقى الذى حققته سوريا فى معركة أكتوبر وعن موازين القوى الجديدة بعدها . فاذا ما تذكرنا أطماع العدو فى المنطقة كاستعمار استيطانى بالذات، ثم تصريحاته المغلظة بعدم الانسحاب منها تحت أية ظروف ، لتأكد لنا أن الاتفاقية أيضا لم تكن تنازلا أو مجموعة تنازلات من قبل العدو فقط، وانما أيضا وأساسا هزيمة سياسية جديدة له. ان اتفاقية الفصل اذا كانت نجاحا لكيسنجر فهى نصر لسوريا .

ويعكس هذا كله ردود فعل العدو للاتفاقية، تلك التى تذكرنا بسابقتها ضد اتفاقية الفصل على الجبهة المصرية فقد اتهم شارون الحكومة بأنها سمحت لسوريا بالتهرب من مسئوليتها عن تسلل الفدائيين، وأخطر من ذلك أن «اسرائيل طلبت لأول مرة فى تاريخها السماح لها بالدفاع عن نفسها» (!). ثم قال انها لاهانة خطيرة أن تسعى اسرائيل للحصول على ضمانات أمريكية ، وان هذا القرار سينال من اسرائيل بشدة. أما مايير فقد قالت إنها ليست متأكده من أن سوريا ستحتفظ بوقف اطلاق النار، كما حملت بطريقة ملفوفة على الموقف الأمريكى.

نحو مؤتمر جنيف

باقتراح مصرى مدو ، ثم بنص اتفاقية وقف اطلاق النار، تقرر المؤتمر ليبحث اقامة سلام عادل ودائم فى المنطقة. وحين أعلنت مصر اقتراحها على العالم ، كان ذلك دليلا

على أن العرب لم تعد تخشى محادثات السلام كما كانت تفعل من قبل وهى مهزومة ، بل تقبل عليها وتطلبها لأول مرة من موقع القوة. ولاشك ان نصر أكتوبر هو وحده الذى جعل ذلك ممكنا، الدعوة، والقبول ، والاقبال . وعلى الفور أدركت اسرائيل أن العرب قد أخذوا جانب الهجوم الكاسح فى السياسة كما فعلوا فى الحرب ، وأنهم «يشنون» معركة السلام عليها وهى التى احترفت التلاعب بمطلب السلام، وشعرت بأنها لأول مرة محاصرة حصارا خانقا ومحكما وان لعبتها القديمة المفضلة قد ترتد إلى صدرها فتودى بها.

ولهذا كان رد الفعل الاسرائيلى المباشر هو القلق فالخوف فالتردد فالمعارضة فالرفض . وقد عبر عن هذا فيما بعد شاؤول فريد لاندر الأستاذ بالجامعة العبرية حيث قال «نحن كشعب لانعرف بالضبط نوع التسوية التى نريدها مع العرب. ولسنا متأكدين مما اذا كانت التسوية ستعزلنا فى النهاية عن العالم وخاصة عن الولايات المتحدة». غير ان اسرائيل حين تعرضت للضغط الأمريكى، وأدركت أن الأمر جد وخطير ولا مهرب لها، ثم سيقت مرغمة إلى المؤتمر، وضعت استراتيجيتها على اساس اما استثماره لتحقيق اطماعها وأهدافها المضمرة كاملة والا فتخريبه من الداخل حتى يفشل وينهار وعلى أية حال، «فلا بأس بالذهاب إلى مؤتمر جنيف» كما قال مناحم بيجين، «لنجلس على مائدة المفاوضات مباشرة مع العرب الذين ظلوا يرفضون هذه المواجهة طوال تاريخهم معنا»...

ومن هذا المنطلق الأخير أخذت اسرائيل تقيم العراقيل فى سبيل اجتماع المؤتمر، بادئه بالشكليات والترتيبات والمراسم وما أشبه. فأصرت أولا على «تقليص» دور الأمم المتحدة ، بحيث يكون حضورها شكليا ودور سكرتيرها العام شرفيا بحتا. كذلك صممت على استبعاد دول اوربا الغربية، خاصة فرنسا وبريطانيا ، بحيث يكون الاشراف الحقيقى على المؤتمر للقوتين الأعظم فقط. ثم عارضت بعد ذلك فى حضور سوريا مالم تسو مشكلة الأسرى الاسرائيليين لديها وتسلم قائمة بهم . وأخيرا رفضت كلية حضور ممثلين عن الفلسطينيين بل والاشارة اليهم بالاسم فى الدعوة، مرة لأنها ليست على استعداد لأن تجلس إلى «الإرهابيين» (كذا!)، ومرة بزعم أنها انما تتفاوض مع دول لا مع منظمات ، ومرة ثالثة لأنهم على أية حال «ليس لديهم مايمكن التوصل إلى اتفاق بشأنه مع اسرائيل» كما عبرت مايير. وعدا هذا تذرعت اسرائيل بانتخاباتها الوشيكة وقتئذ وبأوضاعها الداخلية المعلقة لتعلق المؤتمر وتعوق اجتماعه لطول مدة ممكنة.

أما من منطلق أهدافها الاستراتيجية من المؤتمر ، فقد بدأت اسرائيل «تصادر على المطلوب» مقدما، بمعنى انها أخذت ترسم حدود المؤتمر وأبعاده على أغراضها وبما يلائم أطماعها. فأعلنت أنها لن تذهب إلى جنيف الا اذا كان المؤتمر مؤتمر سلام بالفعل وليس اجتماعا لتنفيذ قرار مجلس الأمن. وكان المعنى الخبئ لهذا، بل الواضح كل الوضوح، هو أنها تتحلل وتتنصل مسبقا ومن جديد من قرار ٢٤٢، وانها تكرر حديثها القديم عن «المفاوضات بدون شروط مسبقة» . وقد عبرت عن هذا الوثيقة التى أصدرها حزب العمل الحاكم «حول القضايا الخارجية والأمنية» المعروفة باسم وثيقة النقط الأربع عشرة حيث قالت «ان اسرائيل سوف تسعى فى مؤتمر السلام، وفى كل شبكة علاقاتها الدولية، الى اتفاق سلام يتم تحقيقه فى مفاوضات دون شروط مسبقة».

أما عن مغزى المؤتمر خطورته بالنسبة لكيان اسرائيل ومستقبلها، فقد ذكرت تلك الوثيقة أن المؤتمر «حدث مهم جدا فى تاريخ المنطقة. يحمل فى طياته امكانية تغير كبير فى علاقات اسرائيل بالدول العربية». كذلك أوضح دايان «أن مؤتمر جنيف سيقرر الحدود النهائية والدائمة لاسرائيل، وأن نوع المحادثات التى تواجهنا هو أننا لا نطالب بأى شئ سوى حسن نية الطرف الآخر، وأن الشئ الوحيد الذى نريد منهم أن يقبلوه هو أن يعيشوا معنا فى سلام والتوصل إلى اتفاق» . ولكنه أضاف على الفور أنه «يحذر الشعب من ترك مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط لأن يؤدى باسرائيل إلى الانسحاب والاستسلام» وأن يتحول مؤتمر السلام إلى مؤتمر استسلام هذا بينما قال ايبان ان دولة اسرائيل التى سيسفر عنها المؤتمر لن تكون هى دولة اسرائيل اليوم، وكل شئ يتوقف على الشكل الذى تتخذه محادثات جنيف فيما يتعلق بالأرض والمناطق المنزوعة السلاح. لقد بدأت اسرائيل «هجومها المضاد» عن هجوم السلام العربى..

الخريطة السياسية

وعلى هذا الأساس تقدمت الكتل والأحزاب السياسية داخل اسرائيل ببرامجها الانتخابية التى يمكن اعتبارها فى الوقت نفسه برامجها لمؤتمر السلام. وضع حزب العمل وقائد المعراخ وثيقته السابقة الذكر ، التى لايكاد يختلف عنها برنامج حزب الأحرار المستقلين وعضو المعراخ ، فيما عدا أنه زاد فطالب بتجسيم البرنامج فى خريطة أولية محددة . أما أهم ما فى الوثيقة ، فى اطار مبدأ السعى إلى السلام «دون شروط مسبقة»

وبدون النص على الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة ، فهى «الشروط» الآتية . أولا، «حدود يمكن الدفاع عنها»، ولكن مع النص على عدم العودة إلى حدود ما قبل يونيو . ثانيا ، المحافظة على الطابع اليهودى لاسرائيل، واستمرار الدولة فى بناء المستعمرات وتدعيم الاستيطان فيها.

ثالثا، «علاقات طبيعية» وكاملة مع الدول المجاورة (العربية) سياسيا واقتصاديا وثقافيا.. الخ . رابعا ، رفض قيام دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية، والنص على وجود دولتين مستقلتين فقط بين النهر والبحر، هما اسرائيل التى ستظل عاصمتها القدس «مدينة موحدة» ودولة عربية إلى الشرق منها تضم الأردنيين والفلسطينيين تتحقق فيها الشخصية الذاتية للفلسطينيين وترتبط بعلاقات سلام وجوار طيبة مع اسرائيل.

وعلى النقيض من هذا ، وقفت كتلة ليكود المعارضة ، مؤكدة الحق التاريخى والدينى «للشعب اليهودى» فى «أرض اسرائيل» «كحق غير قابل للمناقشة». وزاد على ذلك الحزب الدينى القومى (المفدال) وعضو الكتلة رفض أى مشروع للسلام يتضمن أى تنازل عن أى جزء من أرض اسرائيل التاريخية، «ميراث آبائنا» بما فى ذلك وعلى وجه التحديد يهودا والسامرة» أى الضفة الغربية للاردن ، والنص على مواصلة الكفاح من أجل كل شبر فيها، كذلك فى زاد حزب آخر شريك فى الكتلة، وهو حزب المركز الحر، التحديد برفض أى تنازلات اقليمية فى سيناء والجولان . اما حزب حيروت اليمينى فقد هاجم وثيقة حزب العمل بعنف باعتبارها وثيقة «انهزامية» تعرض للخطر أمن اسرائيل.

وأخيرا وعلى النقيض من كل من المعراخ وليكود ، ومن موقف الانتقاد المرير لسياسة حزب العمل العدوانية التوسعية منذ يونيو فضلا عن السياسات والدعوات الانتقامية للاحزاب اليمينية المتطرفة ، طالب حزب المابام الاسرائيليين بالاستعداد الجاد للمعركة السياسية والسعى الملح إلى السلام الحقيقى على اساس حل اقليمى وسط ، يضمن حدودا آمنة لاسرائيل كما يتضمن الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره. ورغم أن الحزب لم ينص على قيام دولة فلسطينية مستقلة ، فيبدو أنه لا يعارض قيامها ويدعو إلى التعايش السلمى معها . وبهذا يكاد المابام يكون الحزب الاسرائيلى الوحيد، وذلك فيما عدا الطوائف والتجمعات التقدمية الضئيلة والقليلة الأهمية كالما سبن والفهود السوداء، الذى يقترب نوعا من فكرة الدولة الفلسطينية بصورة أو بأخرى.

تلك هى خريطة المواقف السياسية داخل اسرائيل ازاء السلام. ولئن اختلفت الخطوط فيها بعض الشئ ، فالملاحظ أن القاسم المشترك بينها أكبر من معامل الاختلاف ويرسم على الأقل الحد الأدنى لمفهوم السلام الجديد عند الاسرائيليين. ويمكن القول أن هذا المفهوم يجعل «السلام» مرادفا «للصلح» (لا فارق فى اللغات الأوربية بين الكلمتين). فشروط اسرائيل للسلام هى شروط للصلح، بمعنى أن الهدف ليس مجرد انهاء حالة الحرب أو العداء فى المنطقة ، وانما هو أساسا الاعتراف المتبادل والتمثيل المتبادل والتعامل المتبادل بكل معانيها، ثم ان الحدود الجديدة، التى تستبدل تعبير «الحدود التى يمكن الدفاع عنها» بتعبير «الحدود الآمنة» السابق، لن تنطوى على «ازالة آثار العدوان» بالمفهوم العربى أى العودة إلى ما قبل ٥ يونيو، وإنما تحقق هدف التوسع الصهيونى المبدئى، وان لم تصل إلى الحد الأقصى من الأطماع السابقة. كذلك فان الحدود، وليست الضمانات الدولية، وهى الضمان الأساسى، اذ الأخيرة مجرد عنصر اضافى لا عنصر بديل. وبعد هذا أو قبله فان القدس خارج كل مناقشة ، كما أنه لا قبول ولا اعتراف بالفلسطينيين كثورة أو كدولة أو كشعب.

وربما كان أقرب تعبير عن هذا المفهوم وشروطه، والمشروع الذى عرضته مايير لحل الأزمة اثناء رحلتها إلى لندن للاشتراك فى مؤتمر الدولية الاشتراكية . وتتلخص النقط الأساسية فى المشروع فيما يلى: أولا، انسحاب اسرائيل من سيناء على أن تبقى منزوعة السلاح. ثانيا، تظل شرم الشيخ تحت سيطرة اسرائيل . ثالثا، تحتفظ اسرائيل بسيطرتها على الجولان . رابعا . ضم غزة للاردن . خامسا ، تبقى القدس اسرائيلية . سادسا، لاتقوم دولة فلسطينية جديدة غرب أو شرق الأردن . ويلاحظ أن بعض النقط تتعارض أو يلغى بعضها بعضا، كالانسحاب من سيناء وبقاء شرم الشيخ تحت اسرائيل، أو تترك موضوعات غامضة كالضفة الغربية للاردن .. الخ..

ردود الفعل

داخل هذا الاطار العريض ، يمكننا الآن ان نتتبع رد فعل العدو السياسى منذ المعركة وبعدها. فعدا موجات الذهول والكمد والحقد بلا حدود. سادت انفعالات مضطربة مشوشة ومتناقضة تتأرجح بين الصرخات الانتقامية المحمومة ورنات اليأس والأسى الخفيضة. واشتد الجدل السياسى العنيف والصراع المذهبى الحاد بين الصقور والحمائم، انعكس

كله على البناء الحزبى وعلى القيادات العسكرية والحاكمة كما على رجل الشارع. وأول حقيقة يمكن استنتاجها من هذا أن المعركة أو الهزيمة قد مزقت اسرائيل من الداخل ولم تعد موحدة سياسيا فى موقفها من الصراع أو من العرب.

ولكن فى خضم هذا الموج المدى الجزرى الصاخب والغاضب، قد نستطيع ان نلمح ثلاثة اتجاهات متباينة من الرأى، ربما لاتكون محددة الفواصل أو قاطعة الوضوح ، لكنها مع ذلك غالبة على الاتجاه العام.

تلك هى : صرخة الصقور، ورنة الحمائم، ودعوة الحلول الوسطى ، أو ان شئت فقل: الحد الأقصى ، والأدنى ، والأوسط ، على الترتيب. ويلاحظ تذبذب الآراء والمواقف بين هذه الاتجاهات، حيث قد يغير الشخص الواحد موقفه من موقع إلى آخر أو يمكن أن يصنف فى هذا الموقع أو ذاك بلا فارق واضح ... الخ.

فأولا ، يمكن القول بصفة عامة ان دعوة الصقور هى التى سادت فى البداية فلا تنازلات ولا مساومات ولابد من الاحتفاظ بالأراضى المحتلة كاملة ولو ادى هذا إلى العودة إلى القتال من جديد ، ويرز من جديد شعار «ولا بوصة واحدة» . كذلك قال بعضهم فى اسرائيل «ان وقف اطلاق النار يعقبه انسحاب من الأراضى العربية المحرره (أى المحتلة) لهو بمثابة خيانة لقتلى حرب يونيو ١٩٦٧ وحرب اكتوبر ١٩٧٣. وكان منطق الصقور فى هذا أن الأراضى المحتلة قد أثبتت فائدتها وضرورتها الحيوية لأمن اسرائيل كدرع وضمان، فلولاها لكانت الضربة العربية الرمضانية (أو الغفرانية!) قد تمت الآن فى قلب اسرائيل نفسها ولكانت الكارثة نهائية وساحقة. وقد عبرت مايير عن هذا بقولها «لسنا بحاجة إلى مخيلة واسعة لكى نتصور ماذا كانت ستكون عليه حال دولة اسرائيل لو أننا كنا على حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧» ، وعليه، فان درس أكتوبر الوحيد الذى يمكن أن تستنتجه اسرائيل انما هو الابقاء على وجودها فى الاراضى المحتلة بأى ثمن ، بما فى ذلك المزيد من الدماء.

ثانيا ، وعلى العكس من هذا ، ظاهريا على الأقل، فلسفة الحمائم. قالوا إن ما أصاب اسرائيل فى أكتوبر ليس له من سبب الا احتفاظها بالأراضى المحتلة بعد يونيو. ولو كانت قد تنازلت عنها أو عن بعضها لأصحابها العرب لما حدثت مأساة اكتوبر وكارثة الهزيمة. وعلى هذا فان الدرس الوحيد الذى على اسرائيل أن تتعلمه من معركة أكتوبر الخاسرة –

هكذا جادلوا – هو أن تقبل بمبادلة الأمن بالأرض ، وأن تشترى السلام بالتنازل، وأن تتعلم أن تتعايش مع العرب على اسس جديدة غير القوة العسكرية أو التفوق الحربى الموهوم. ومن الممكن أن نقول بالتقريب أن نغمة الحمائم هذه هى التى وضحت نسبيا فى المرحلة الوسطى بعد أن أنفقت موجة المزايدة نفسها وارتطم رأسها بالحقائق الجديدة الصخرية والقاسية.

ثالثا، وأخيرا ، برزت ، وليس بالضرورة سادت ، لهجة الحلول الوسطى التى تقف نسبيا فى منتصف الطريق بين المتطرفين والمعتدلين ولكن الملاحظ أن هذا الموقف هو أكثر المواقف غموضا وتميعا وتبدلا. ولعل الأغرب أن كلا من بن جوريون ودايان نعم هما بعينهما ، صقر الصقور، الأستاذ والتلميذ، كانا ممن عبروا عن هذا الاتجاه فتحت شعاره القديم «السلام الردئ خير من الحرب الجيدة» ، نطق بن جوريون فقال «اذا كان علينا فى مقابل السلام أن نتخلى عن السيادة السياسية على جزء من أرض اسرائيل ، فاننى أنصح مواطنى بالجلاء عن معظم الأراضى المحتلة باستثناء القدس والجولان. أما دايان فقد قال «على اسرائيل أن تكون مستعدة للحلول الوسطى ان كانت تريد ان تحتفظ بمكان لها فى المجتمع الدولى، وان موقف اسرائيل فى محادثات السلام ينبغى أن يكون فى سياق حرب اكتوبر . ومثل هذا الرأى عبر عنه ايبان وغيره أكثر من مرة.

تلك بايجاز هى الخطوط والاتجاهات الثلاثة السائدة على مزاج العدو، بعضها يتداخل وبعضها يتناقض وبعضها توفيقى أو تلفيقى. على أنه غير واضح تماما حتى الآن هل زادت حرب أكتوبر من قوة الصقور أم الحمائم فى اسرائيل . فالحرب قد هزت كلتا النظريتين وهزأت بهما . فكما قالت دافار ، لقد اتضح أن خطوط وقف اطلاق النار ١٩٦٧ لا تؤمن لنا السلام، وكذلك لا تؤمن لنا تلقائيا نصرا سهلا أو سريعا بسبب امكانية التعرض لهجوم مفاجئ بأسلحة حديثة. ومن هنا – تمضى الصحيفة الاسرائيلية– فان الرأى القائل بأنه لا حاجة بنا إلى الاسراع والوصول الى تفاهم مع العرب ، على اساس أن حدود يونيو حدود مثالية، هذا الرأى قد اهتز وسقط . كذلك اهتز رأى الحمائم القائل بأنه لا داعى لأن تكون اسرائيل متطرفة فى مطالبها الأرضية لأنها «على أية حال دولة عسكرية أقوى من جيرانها».

على أن أغلب المراقبين يرون أن الحرب قد أدت كما يقول بول بالتا إلى زيادة قوة الصقور واليمين ، وليس العكس بل يرى البعض أن الجميع فى اسـرائيل قد تحـولوا فيما يبدو إلى صقور بعد أكتوبر وقد جاءت الانتخابات الاسرائيلية فى نهاية العام الماضى مصداقا لهذا التحليل إلى حد كبير . فقد اضعفت بوضـوح من مركز الحكومة والائتلاف الحاكم (المعراخ) وخاصة حزبه المسيطر (العمل) وبالأخص نواته الصلبة (المابای) ،ذلك بقدر ما قوت من مركز المعارض وائتلافه (هاليكود) وبخاصة طليعته المتعصبة (جحل).

وكما يقول الجنرال بوفر فان الانتخابات الاسرائيلية اثبتت أن الحمائم لم يفوزوا بالفعل ، وأن عملية شارون غرب القناة قد حجبت الحقيقة العسكرية عن الرأى العام الاسرائيلى . فالعسكريون الاسرائيليون مازالوا يعتقدون ان بقاء اسرائيل يعتمد على قوة جيشها ، وأن هذه القوة مازالت كبيرة».

بين الأطماع القديمة والجديدة

وأيا ما كان ، ومهما يكن الأمر ، فلقد سقط حتى الآن برنامج حزب العمل الحاكم الذى كان قد وضع قبل المعركة والمعروف «بوثيقة جاليلى» ، وهى التى كانت تمهد لابتلاع الجزء الأكبر من الأراضى المحتلة ولا تترك بقيتها الا بشروط وقيود تجعلها من الوجهة العملية اما رهينة أو أسيرة لاسرائيل واما «أرضا بورا» من الناحية السياسية الدولية «ومنطقة معقمة» من الناحية الاستراتيجية العسكرية. غير أن سقوط هذه الوثيقة الاستعمارية الضاربة لا يجلو الأمور أو المواقف كثيرا، اذ أن البرنامج البديل ، برنامج النقط الأربع عشرة ، اذا كان أقل تطرفا وتشددا فهو أكثر غموضا وأشد التفافا . انهم فقط يستبدلون الختل بالضراوة ، والتحاليل بالتوحش . فهم ما زالوا فى اسرائيل يتكلمون عن الحدود الآمنة وان يكن بصياغة لفظية جديدة . وعن الاستيطان وعما سيتركونه ومالا يتركونه من أراضى العرب . ولئن تضاربت تأويلاتهم وتصريحاتهم فى هذه المجالات أكثر مما تضاربت فى أى وقت مضى ، ففى كل الأحوال لا عودة الى أوضاع أو حدود ما قبل يونيو ولا استجابة لمطالب العرب .

فعن الحدود الآمنة ، اذا كان لنا أن نفصل قليلا هذا الذى قررنا على التو اجمالا ، ظل دايان يردد أنه ما زال يعتقد بالرغم من وجود الطائرات والصواريخ أن حيازة الأرض

عامل مهم من عوامل الأمن القومى . وأثناء حملاته الانتخابية تساءل فى احدى خطبة «لقد أبلغنا الأمريكيون أن فى استطاعتنا ، بل من واجبنا أن نعتمد على ضمانات الأمن . ولكن لماذا نحتاج الى ضمانات امن ؟ لأن حدودنا عندئذ تصبح وهى لا تساوى شيئا» .

ثم أضاف «واذا حصلت أمريكا على التنازلات الاسرائيلية التى تسعى للحصول عليها فى مؤتمر السلام ، كان علينا فيما بعد أن نتطلع الى ممرات متلا والجدى فى سيناء ومرتفعات الجولان فى سوريا . ان فى استطاعتنا الاستيلاء عليها مرة واحدة فقط . ولن نستطيع الصعود اليها اذا ما هبطنا منها » . وفى مناسبة أخرى أضاف دايان أن «اسرائيل لن تهتم بالضمانات الا بعد تسوية سلمية تضمن لها حدودا يمكن الدفاع عنها و توازنا فى الأسلحة» .

ومن ناحية أخرى ، ولكن فى الاتجاه نفسه ، عبر شارون عن اعتقاده بأن الجيش لم يستفد بالسرعة الكافية من دروس حرب أكتوبر ، بينما كان ايتزاك هوفى أكثر تحديدا فقد صرح بأن على الجيش الاسرائيلى أن يستخلص الدروس المستفادة من حرب أكتوبر واعادة تنظيم وحداته وتطوير الدفاع المدنى فى مواجهة المخاطر الجديدة الناجمة عن وجود صواريخ أرض - أرض فى وسعها أن تصيب بعض مدن اسرائيل عند بعض دول المواجهة العربية .

هذا عن الحدود الآمنة ومتطلباتها . أما عن الاستيطان ، فحتى آخر لحظة قبل سقوطه ظل دايان يقول ان لاسرائيل الحق فى اقامة مستعمرات فى الضفة الغربية للاردن ، كما أنه يأمل أن تتمكن اسرائيل من توطين مهجرين جدد فى شرق سيناء . ويبدو أنه لم يتخل حقيقة أو تماما عن فكرته التى تبناها قبل أكتوبر عن مدينة ميناء ضخمة فى منطقة رفح .. الخ .

بالمثل عن الأطماع الاقليمية . فيمكننا اذا استعرضنا تصريحات العدو ما بعد أكتوبر بالنسبة لكل منطقة من الأراضى المحتلة على حدة أن نرى كيف أن واحدة منها لا تخلو من أطماعه حتى الآن ، والى أى حد تخلى أو لم يتخل عن ادعاءاته فيها . فحتى سيناء، اذا بدأنا بأضعف الحلقات أو أضعف الايمان ، محل مختار للاطماع لا تزال . واذا كان دايان قد صرح بأن حكومته ليست على استعداد للدخول فى حرب جديدة من أجل آبار أبو رديس ، وأن حكومته مستعدة للانسحاب من «جزء من سيناء» ، فان هذا - أقليميا

– لا يعنى الا قليلا ولا يغير شيئا من المواقف والأطماع السابقة . ولقد رأينا توا أنه ما برح يتكلم عن التوطين فى «شرق سيناء» بينما ذكرت ها أرتس فى منتصف مارس ١٩٧٤ فقط أنهم يقيمون ٤ مستعمرات جديدة على مشارف رفح .

واذا كانت حرب أكتوبر قد هبطت قليلا «بسقف» الأطماع الصهيونية فى سيناء ، فيبدو أن هذا الحد الأعلى الجديد هو ما عبر عنه اليعازر حين قال «يمكن ايجاد خط بين قناة السويس وخطوط ١٩٦٧ يرضى مصر (!) ويضمن أمن اسرائيل» . أما الحد الأدنى، وهو يقينا القاسم المشترك الأصغر بين الجميع ، فيبدو أنه شرم الشيخ الذى يدخل فى مشروع مايير كما يرد فى تصريحات ايبان ودايان واليعازر وبيريز .. الخ . ويبدو أن الكل ما زال على رأى دايان القديم من أنه «يفضل شرم الشيخ بدون سلام على سلام بدون شرم الشيخ» ..

هذا عن سيناء . ولقد رأينا من قبل موقفهم من الجولان ، التى يكاد يضعها معظمهم كالأولوية الثانية بعد القدس نفسها وقبل الضفة الغربية «يهوداهم والسامرة» . أما عن هذه الأخيرة ، فالانسحاب منها لا يمكن الا أن يكون جزئيا ، وشكليا عند ذلك . فعند دايان ان لاسرائيل الحق فى اقامة المستعمرات والمستوطنات بها . وعند مايير أن «استيعاب اللاجئين العرب يعنى استيعاب طابور خامس» وأن اعادة اللاجئين هى ادخال «حصان طراوده» فيها .

وأما عن مشروع الدولة الفلسطينية بالضفة ، فان «اسرائيل لن تقبل قيام دولة فلسطينية جديدة» (دايان ورابين) ، وأراضى فلسطين الانتداب التى تمتد من البحر الى الصحراء وحدود العراق يوجد بها متسع لدولة يهودية وأخرى عربية فقط ، ولكنها لا تتسع لدولة ثالثة ، دولة فلسطينية جديدة ، لأنها تكون «رأس جسر ضد اسرائيل» (مايير) . ولا يبقى أخيرا الا القدس التى قال عنها بن جوريون من قديم انه لا معنى لاسرائيل بدونها . بعد أكتوبر لم يزد بيجين أو ينقص عن أن قال «نحن لن نتخلى عن بوصة واحدة من القدس ولو وقف العالم كله بجانب العرب» .

ذلك كله عن الأراضى المحتلة بعد يونيو . أما حين نصل الى الأراضى المحتلة قبله، الى فلسطين المحتلة ، فالأمر مختلف تماما : انه موضوع مغلق وغير قابل للمناقشة

فقد أعلن العدو بلا مواربة أن الاشارة الى «استعادة حقوق الشعب الفلسطينى» لا يمكن أن تتم الا على حساب اسرائيل ووجودها . بينما حدد دايان بوضوح أكثر قائلا ان اقامة دولة فلسطينية معناه «بداية الدمار لاسرائيل» ، ثم زاد تحديدا بقوله «لن نتحرك من الأرض التى نعيش عليها الآن» ، ولقد سبق لجولدا مايير أن قالت انه لا يوجد شىء اسمه الشعب الفلسطينى ، وبالتالى فلا وطن لهم «لأنه ليس هناك مكان لهم ، وليست هناك ضرورة لذلك».

فاذا ما جمعنا محصلة هذه الحسابات والمساومات، خرجنا بالشروط العامة للصفقة المعروضة، وهى «التنازل» عن «جزء» فقط من الأراضى المحتلة ولكن بالقطع ليس عنها كلها، ودعك تماما من «حقوق الشعب الفلسطينى»، وذلك فى مقابل السلام الذى يرادف عندهم الصلح. وقد ضغط على هذا المعنى كل قادة العدو بصيغة أو بأخرى. فايبان، الذى سبق قبل أكتوبر ان وصف مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة بأنها «دعوة إلى الانتحار»، يقول الآن «ان اسرائيل مستعدة للتنازل عن مناطق كثيرة من سيناء ضمن التسوية السلمية، لكن ليس للعودة إلى حدود ما قبل الحرب».

ويقول دايان ما مؤداه «أننا لو قبلنا كل طلبات الانسحاب، فسوف لا نكون دولة وانما كاريكاتير دولة» أى دولة مسخا. ومرة أخرى يؤكد أن حكومته مستعدة للانسحاب من جزء من سيناء وأماكن أخرى فى مقابل اتفاق سلام مع العرب: «اننا نريد أن نعطيهم» أرضا، وفى مقابل ذلك نطلب السلام. لكن اسرائيل سوف تصر على الاحتفاظ بأقل قدر ممكن من الأرض ضرورى لأمنها حتى لو اضطررنا إلى القتال من أجله.. أننا سنذهب إلى أبعد من منتصف الطريق لنضمن لاسرائيل دولة آمنة وقوية. أنه كان على اسرائيل أن تطالب بكل شئ منذ ٢٥ سنة، ولكننا اليوم لسنا مضطرين لأن نطلب من العرب فدانا واحدا».

وفى النهاية ، وبالقياس إلى ايبان ودايان، كان شارون الأكثر صراحة أو بالأحرى وقاحة: «اذا أراد العرب استرجاع أراضيهم كلها» ، قال هو عن مؤتمر السلام، «فلن تكون جنيف هى المكان المناسب لذلك ، وانما عليهم أن يستردوها عند جبهة القتال» .

ثم جاء بيان حكومة رابين الجديدة جامعا لهذه المواقف كلها معبرا عن خط العدو فى المستقبل . فقد حدد البيان ثلاث نقط كمحاور لمباحثات جنيف وكشروط للسلام: لا عودة إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ ، ورفض قيام دولة عربية مستقلة فى الضفة الغربية، لا تفاوض مع «الارهابيين» (بقصد الفلسطينيين).

هل تغير العدو؟

والاستنتاج المنطقى الذى يمكن، فى الخلاصة، أن نخرج به من هذه الاتجاهات والمؤشرات والتصريحات هو أن حرب أكتوبر كما هزت مجتمع العدو وزلزلت كيانه السياسى قد بلبلت أفكاره وخططه التوسيعية لكن دون أن تستأصلها أو حتى تخفف من غلوائها. لقد قذفت به الكارثة التى لحقته بين قطبى المزايدة والمناقصة الى حين، ولكنه استقرتدريجيا على صيغة سماها الحلول الوسطى، وما هى بحلول وما هى بوسطى . ان هى الا تكتيك جديد مرن لاستراتيجية قديمة ثابتة، وما هى الا غطاء وكاموفلاج لفظى ذكى لاطماعه التوسعية المعلنه من قبل. وعلى أكثر تقدير، فان العدو ما استدار عن موقفه القديم فى الحقيقة الا بضع أو عدة درجات فقط من بين ١٨٠ درجة يتطلبها الحل السلمى العادل الدائم.

واذا جاز لنا عند هذا الحد أن نحدس نوايا اسرائيل الحقيقية فى معركة السلام الناشبة حاليا، فلعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان استراتيجية السلام الاسرائيلية هى باختصار تكتيك الحل الجزئى لا أكثر ولا أقل. فالذى يبدو حتى الان من مناورات العدو أنه تقبل راغما وعلى مضض عملية الفصل بين القوات كثمن لأكتوبر، يمتص به وقع الهزيمة ويعبر الأزمة ثم يقف عند هذا الحد معاندا مكابرا حتى يتجمد الوضع الجديد إلى مالا نهاية، فيكون الحل الجزئى كما يتوهم . والدليل على ذلك أن العدو يرفض بكل اصرار التعهد بالانسحاب الكلى فى اتفاقيات الفصل بين القوات، كما يرفضه فى أى اتفاقية أخرى.

وأهم من ذلك أنه يواجه كل ما يطالب به العرب من أصغر صغيرة إلى أكبر كبيرة بخطة اعتراضية موضوعية يرددها دائما وهى أن شروط العرب مهما كانت هى «مراحل لابادة اسرائيل» . تلك وهى «عقدة» العدو التى يتعمد دائما أن يضعها «فى المنشار» ليضمن بها بانتظام تدمير كل محاولة للحل. خذ مثلا ما قالته مايير فى الكنيسيت يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ : «ان الحكام العرب يدعون أن هدفهم محدد بالوصول إلى خطوط ٤ يونيو

١٩٦٧، ولكننا نعرف هدفهم الحقيقى وهو القضاء قضاء كاملا على دولة اسرائيل». وعادت إلى النغمة نفسها فى مؤتمر اتحاد الحاخامات بعد شهور قائلة «ان هناك من يريد تدمير اسرائيل».

أما رابين ، وكان وزير العمل وقتئذ ، وفقد قال لمعاريف أن «السادات يريد أن يحصل بالوسائل السلمية على كل شئ ، فى الوقت الذى يترك الباب مفتوحا أمام الاقدام على عملية عسكرية جديدة» . ثم أضاف أنه «اذا ما تم التوصل إلى اتفاق مع سوريا، فان الرئيس السادات سوف يطالب بانسحاب اسرائيلى آخر، وربما أقدم لا على التلويح بحرب جديدة فقط وانما كذلك على شن مثل هذه الحرب بالفعل، سواء بدفع قواته داخل سيناء أو بضرب مراكز داخل اسرائيل».

والواقع أنهم فى اسرائيل، كما تقول النيوزويك ، يعتبرون تمسك العرب بالسلام تمثيلية فقط، وأنهم سيسعون فى النهاية إلى سحق اسرائيل كلية. من هنا جميعا فان اسرائيل تخشى السلام الحقيقى أكثر مما تخشى الحرب، وتفضل حربا دموية حتى غير مضمونة على سلام دائم قائم على العدل، ولا تقترب من السلام الا كمناورة سياسية مضادة وكلعبة دولية ومحلية كبرى لا مفر منها. وهكذا فعلى حين تعلن مصر أن على اسرائيل أن تختار بين السلم والحرب ، فإن اسرائيل لا تقدم الا لعبة السلام المراوغ والمراوغة السياسية المطوطة ولاتملك الا استراتيجية السلام الكاذب.

وحقيقة الأمر أن إسرائيل ، فى قرارة نفسها ، تتبنى فى الشرق الأوسط «نظرية الدومينو» التى كانت أمريكا تتبناها فى الشرق الأقصى ، والتى تقول أن فقد قطعة من الأرض للخطر الشيوعى فى جنوب شرق آسيا يؤدى إلى فقد قطعة أخرى ثم ثالثة وهكذا حتى تسقط المنطقة جميعا . بالمثل تعتقد إسرائيل أن تنازلها عن الأراضى المحتلة اليوم سيعقبه حتما تنازل عن جزء من فلسطين المحتلة غدا ثم عنها كلها بعد غد .. الخ . أول تنازل يعنى فى تصورها أ ن رقعتها ثم وجودها سوف يتآكلان بالتدريج حتى التلاشى . أول تراجع منها يرادف عندها التصفية النهائية لها . لقد تبادلت أمريكا واسرائيل استعارة النظريات فى الشرقين الأقصى والأوسط : فطبقت أمريكا سياسة «الفتنمة» لحرب اسرائيل فى الشرق الأوسط ، وأخذت اسرائيل فلسفة الدومينو من أمريكا فى صراعها فى الشرق الأقصى .

ختاما ، يحق لنا ويصح أن نسأل أنفسنا : هل تغير العدو ؟ هل غيرته حرب أكتوبر ؟ أم ليس بعد أو إلى أى حد ؟ تكتيكيا أو استراتيجيا ؟ والسؤال لا شك جوهرى ، بل مصيرى ، لأن عليه سيتوقف سلوك العدو والموقف العملى الذى قد يتخذه عسكريا أو غير ذلك . لا جدال أن الحرب قد أحدثت رجة عميقة وهزة عنيفة صادمة فى اسرائيل ، العقلية، الايديولوجية ، المستقبل ، الأمن والطمأنينة القومية، كما زلزلت كثيرا جدا من المعتقدات المكتسبة والموروثة ، الحقيقية والموهومة . ولكن السؤال هو ، ويظل ، إلى أى حد ، وفى أى مدى ، القريب أم البعيد ؟ وهل وصلت إلى حد التغيير النوعى والتحولات الكيفية ؟ هل تغيرت الفلسفة الصهيونية والعقلية العسكرية والنظرية التوسعية والنظرة العنصرية ؟

المؤكد أن الانتخابات الاسرائيلية ، كأول بارومتر متاح ودال على التغير بعد أكتوبر ، لم تعكس وقع الهزيمة بكل ثقلها ، بمعنى أن المجتمع الاسرائيلى لم يستوعب بعد مغزى التجربة وأنه لم يدرك أو يقبل الحقائق الجديدة ومحمولاتها ودلالاتها ونتائجها . وكان تقدير البعض من المحللين السياسيين أن الوقت لم ينضج بعد للتغير ، وأن هذا سيأتى فى المستقبل زاحفا ومزلزلا . واذا عد الموقف من محادثات الفصل بين القوات فى الجولان مقياسا للتغير ، كما اشار الرئيس السادات ، فان العدو لم يتغير جديا ، أو هو تغير بالكاد .

ثم منذ الانتخابات وبعدها جاء سقوط حكومة مايير ، أى سقوط وزارة الحرب مهندسة النكسة وبطلة الهزيمة وصانعة الكارثة ، جاء فكان أول ظهور كامل لنتائج أكتوبر التى حاولت طويلا أن تتجاهلها ولا تعترف بها . فلقد تحول التوتر إلى ضغط ، والضغط إلى صراع . ثم انتهت التقلصات العضوية والتشنجات الحيوية فى داخل الجسم الاسرائيلى وعقله الباطن ، والتى حاول عقله الواعى أو السلطة الحاكمة أن تخفيها وتخفف منها بالتكتم والكبت وبالمهدئات والمسكنات ، انتهت بالانهيار العصبى والجسدى .

غير أن انهيار الكائن الحى ، كما قد يكون خطوة نحو السقوط ، قد يكون علامة مقاومة للسقوط كما هو معروف فى علم النفس . وهذا بالدقة تشخيص المرحلة الحالية فى اسرائيل . فالكيان الاسرائيلى كله فى حالة حمى يرتج ويرتجف بالانقباضات الحادة والذبذبات العنيفة الداخلية ، لا لأنه يسلم الروح أو يسلم بالهزيمة ، ولكن لأنه يقاوم التغيرات الخارجية ويرفض التسليم بها لكى ينهض فيتحداها . والصراع من أجل

السلطة ، باعتباره صراعا من أجل القوة فى الداخل ، هو فى واقعه صراع من أجل القوة فى الخارج ، أى صراع من أجل اعادة ترتيب البيت من الداخل ثم الصمود والتماسك فى المحنة ثم الانتفاض واستعادة السيطرة فى الخارج . لقد كانت اسرائيل المهزومة تبحث عن قائد لم يهزم ، واسرائيل الضعيفة عن رجل قوى .

العدو اذن لم يتغير ، ويرفض أن يتغير أو أن يعترف بالحقائق الجديدة والواقع الجديد . وهذا بالفعل ما أشار إليه الرئيس السادات فى حديث له إلى مجلة تايم حيث قال «إن السادس من أكتوبر كان لزاما أن يغير نظره الناس فى اسرائيل نفسها ، إلا أننى مازلت غير موقن من ذلك حتى هذه اللحظة» . وهو أيضا ما انتهى إليه والرئيس تيتو فى محادثتهما الأخيرة فى بريونى فى نهاية مارس ١٩٧٤ . ففى كلمته الرسمية قال السادات مشيرا إلى ضرورة التوصل إلى اتفاقية فك الاشتباك على الجبهة السورية «.. وإلى أن يتحقق هذا ، فاننا نعتبر أن الظروف التى تضمن تحقيق مزيد من التقدم فى طريق السلام لم تتحقق بعد ، وأن القيادات الاسرائيلية مازالت تخدرها أوهام الماضى ، أو أنها قد عجزت عن استيعاب الواقع الجديد بكل أبعاده ومعانيه» . وفى رده أمن تيتو بدوره على قول ضيفه وأكده قائلا «يبدو أن المسئولين الاسرائيليين لم يتحرروا بعد من الأطماع المعروفة والأهداف العدوانية تجاه البلاد العربية المجاورة . وهذا يظهر تماما من التصريحات التى أدلت بها الشخصيات الاسرائيلية الرئيسية فى الآونة الأخيرة ، والضغوط والاستفزازات التى تقوم بها اسرائيل دون انقطاع ضد سوريا» .

الضغط الأمريكى

هنا يصبح السؤال الفورى هو : فماذا اذن عن موقف أمريكا ، ضامنة الحل السلمى بالمشاركة وولية أمر العدو وولية نعمته وقوته بل ووجوده بالأصالة ؟ ماذا ستفعل أمريكا خاصة بعد أن تغير موقفها تجاه العرب نسبيا ؟ المفهوم أن الدول العربية لم تقبل بايقاف القتال الا على عهد مشترك من أمريكا والاتحاد السوفيتى بضمان فرض الحل السلمى على أساس تنفيذ قرار الانسحاب وملحقاته . ولكن هنا أيضا ، بل هنا أكثر ، كانت حيرتنا تصل إلى القمة . فكل يوم ، ومن كلا الطرفين ، كانت الأنباء تحمل لنا خبرا متناقضا : أمريكا تضغط على اسرائيل ، أمريكا لاتضغط .. الخ .. وظلت تصريحات

ساسة وقادة الطرفين تنفى علنا أى ضغط ، بينما كانت التصريحات الأمريكية قاطعة فى أنها لن تفرض على اسرائيل حلا من الخارج لا تقبل به .

على أن الأمر اختلف بعد ما رأيناه من تغير الموقف الأمريكى ، وأن ظلت أمريكا بطبيعة الحال موزعة بين تبنيها الكامل لاسرائيل ورغبتها فى التقارب مع العرب . فحين بدأت ارهاصات هذا التغير أوضحت الولايات المتحدة أنها تشعر أنه يجب التوصل إلى بعض الحلول الوسطى ووضع نهاية للصراع المزمن فى هذه المنطقة التى شهدت حروبا عديدة وافتقرت طويلا إلى السلام والطمأنينة . وفى بداية محاولات التسوية السلمية التى تلت وقف اطلاق النار صرح كيسنجر بأنه إذا نجحت مفاوضات السلام فسوف تنشأ مشكلة خطيرة جدا ، خاصة لاسرائيل وهى كيفية تأكيد أمنها فى ظل الظروف التى ستكون فيها الحدود النهائية مختلفة بالتأكيد عن خطوط وقف النار . ثم أوضح ان اسرائيل قد وافقت دائما على أن الحدود النهائية لن تكون هى خطوط وقف النار ولا خطوط ١٩٦٧ أو ١٩٧٣ . وأخيرا أضاف أن أمريكا تؤيد المفهوم القائل بأنه «لاينبغى أن تزال الأمم بمجرد التفوق العددى أو بأية وسيلة من جانب جيرانها» .

واستمرارا للاتجاه نفسه صدر عن الولايات بيان قالت فيه بوضوح «نحن على استعداد للضغط على اسرائيل للتوصل إلى السلام المعقول فى الشرق الأوسط» . غير أنها لم تحدد إلى أى مدى هذا «الضغط» ولا ما هو معنى «المعقول» فى هذا الصدد . ولكن البعض فسر هذا بأنه خطة لعودة جميع الأراضى المحتلة «تقريبا» ، مع انشاء مناطق منزوعة السلاح فى سيناء والضفة الغربية للاردن ، إلى جانب تسوية «معقدة» للقدس ، ثم ضمان دولى للاتفاق برمته . وفى مناسبة أخرى صرح كيسنجر للصحافة بأن السلام فى الشرق الأوسط تجرى متابعته حسب أسرع جدول زمنى ممكن ، لأن ذلك «يمثل مصلحة قومية أمريكية» .

لذلك حين أعلنت مايير أن الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل ، تصدى مسئول أمريكى فى الشرق الأوسط للرد عليها ، فأعلن بالتحديد كما رأينا أن الولايات المتحدة لا توافق على هذا التصريح ، وأن هذه «ليست المرة الأولى التى نختلف فيها مع الموقف الاسرائيلى» . ثم أكد المتحدث أنه «يتعين على اسرائيل الانسحاب إذا كانت تريد السلام ، وإذا كانت تريد أن تصبح جزءا من واقع المنطقة» ، كما أضاف فى النهاية أن «على

الفلسطينيين أن يقبلوا انشاء دولة جديدة فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، لأن رفضهم لها سوف يثير بلا شك صعوبات بالنسبة لأية تسوية فى الشرق الأوسط» .

ومن الناحية الأخرى ، فان الولايات المتحدة ، حتى بعد الحرب ، ظلت ومازالت ماضية فى سياستها التقليدية والأثيرة وهى تسليح اسرائيل حتى الأسنان . عوضتها أولا بالكامل ، كما رأينا ، عن كل خسائرها فى المعركة حتى عادت قوتها العسكرية إلى أكثر مما كانت قبلها (٢٢٠٠ مليون دولار) . ثم عادت ثانيا فتعاقدت معها على صفقة سلاح أضخم وأحدث وأخطر (٣٠٠٠ مليون دولار) ، حتى لا يتكرر ما حدث أثناء أكتوبر من نفاد رصيدها ، أى لتضمن لها التخزين «والتشوين» على أرضها تسحب منه «من على الرف» دون انتظار أو حاجة إلى الاعتماد على الإمداد الحرج أثناء القتال (المجموع ٥٢٠٠ مليون دولار) .

وإذا كان المقدر أن اسرائيل حصلت فى إدارة نيكسون حتى ما قبل أكتوبر على كميات من الأسلحة أكثر من مجموع ما حصلت عليه منها طوال تاريخها السابق ، فالمقدر الآن أن ما حصلت عليه منها أثناء وبعد أكتوبر يفوق مرة أخرى كل ما أخذته منها قبل ذلك جملة وتفصيلا . وقد كان آخر ما أعلن عنه فى هذا الصدد صفقة ضخمة من صواريخ شرايك جو - أرض فى ابريل ١٩٧٤ ، صرح الجنرال موردخاى هود بمناسبتها بأن الحكومة الأمريكية «أظهرت كثيرا من التفهم فيما يتعلق باحتياجات اسرائيل من السلاح .. لقد وعدنا الأمريكيون بكل ما كنا نطلبه تقريبا ، وكنا نطلب الكثير ، سواء فيما يتعلق بالتسليح الجوى أو البرى أو البحرى» .

هذا عن الاتجاهات الأمريكية القديمة والجديدة ، فماذا عن رد الفعل الاسرائيلى ؟ ما من شك أن اسرائيل تدرك تماما «معنى» الولايات المتحدة بالنسبة لها : ليست هى فقط خط الدفاع الأخير وضمان الأمن الحقيقى وصمام الأمان وصنبور الحياة ، وأنما أولا وأخيرا ورغم التكرار «الاله» والصديق الوحيد بنص تعبير مايير . وما من شك بعد ذلك أن اسرائيل تدرك خطر ابتعاد الولايات المتحدة عن موقفها ولو بزاوية انفراج قدرها درجة واحدة . وهى من ثم تحاول مسبقا أن تحاصر الولايات ، وتبذل الضغوط عليها قبل أن تتعرض هى لضغوطها ، فإذا ما تعرضت لها رغم كل جهودها ردت عليها بضغوط مضادة عنيفة أو مستترة ، داخلية أو خارجية .

ويبدو أن اسرائيل قد استشعرت بالقلق والخوف كله بداية التغير والضغط الأمريكى ، على ضآلته ، منذ وقت مبكر فى أيام المعركة ، ولكنها كتكتيك أصيل بل كاستراتيجية واعية كانت تحاول أن تتكتم الاختلاف ريثما تسوى الخلاف . ولكن حتما كان لابد أن يبرز عدم التطابق إلى السطح أن عاجلا أو آجلا .

وفى الأيام الأخيرة من القتال ، يوم ٢٠ أكتوبر بالتقريب ، كتب المعلق الأمريكى جيمس ريستون مقالا كاشفا وخطيرا يبدو أن الأحداث تالية قد أيدت بعض ما فيه من نبوءة إلى حد أو آخر ، مما يبرر لنا الاقتباس منه بافاضة . «رغم الجسر الجوى الأمريكى الحاشد من الطائرات والذخيرة لاسرائيل» ، قال ريستون ، «فان من الخطأ الافتراض بأن هدف حكومة نيكسون هو ضمان نصر اسرائيلى مثير آخر فى حرب الشرق الأوسط ، فواشنطن لاتحاول اعادة الموقف العسكرى الذى كان قائما قبل الهجوم العربى والذى أدى إلى وضع دبلوماسى متأزم . انها تحاول تحقيق وقف اطلاق النار بشكل وسط يفتح الطريق إلى تسوية تجرى بالمفاوضات . ولذلك فان هناك فارقا بين أهداف إسرائيل وأهداف حكومة نيكسون» . وذلك ، فيما يبدو ، كان بداية الاختلاف بين الموقفين وبداية زاوية الانفراج فى التطابق التقليدى القديم.

ويقول ريستون بعد ذلك ان واشنطن وموسكو «على اختلافهما، لهما هدف مشترك ، هو ايجاد موقف عسكرى يؤدى إلى حل دبلوماسى وسط» . ثم يضيف أن «واشنطن تحاول اقناع إسرائيل بأنه حتى لو كسبت معركة فى سيناء، فان الحرب قد غيرت تغييرا أساسيا من المشكلة الاستراتيجية التى تواجهها . والرأى الرسمى فى واشنطن ، صوابا كان أو خطأ ، هو أن موسكو عقدت العزم على تزويد العرب بأحدث الأسلحة، أن العرب لديهم قوى بشرية ومهارات تكفل استخدام الأسلحة السوفيتية، وان الأفضل لإسرائيل قبول حل وسط بدل مواجهة حرب استنزاف ضد ملايين من العرب ، تساندهم أسلحة سوفيتية حديثة».

ويخلص ريستون أخيرا إلى هذا الانتهاء القاطع والكاشف معا: «ان الدولتين الكبيرتين تختلفان بشأن أمور كثيرة ، ولكنهما تتفقان على أنه لابد لإسرائيل أن تنسحب من السويس وأن تبدأ فى التفاوض والتوصل إلى حل وسط والتخلى عن معظم الأراضى التى احتلتها فى الحرب عام ١٩٦٧ . ان نيكسون وكيسنجر لايقولان ذلك علنا، ولكنهما

يضغطان سرا، لا من أجل تحقيق نصر إسرائيلى ، بل من أجل قبول الإسرائيليين لحل وسط» .

ومنذ انتهى القتال ، ورغم كل ما أعلنه الطرفان من عدم ضغط أمريكا على إسرائيل ، فان هناك شواهد وأدلة متزايدة على العكس . فمن ناحية كانت إسرائيل تتوقع الضغط وتتأهب له . مثلا كتبت دافار تقول ان الضغط علينا من أجل حل سوف يزداد كثيرا، ليس فقط من أعدائنا ولكن من أصدقائنا كذلك. ولا يجب أن ننسى أن مشروع روجرز قدمته أمريكا بعد أن تعرضنا لحرب الاستنزاف وبدا التدخل السوفيتى عميقا جدا مع اصرار العرب على الاسترجاع بالقوة . وأكد دايان الحقيقة نفسها حين قال «أما أمريكا فانها الآن متلهفة على الحل خوفا على مصالحها فى الشرق الأوسط» . واذا شئنا رأيا محايدا أو على الأقل من خارج معسكر العدو المباشر ، فقد تنبأت الجارديان بأن «من المنتظر بعد حرب أكتوبر أن يضعف اهتمام أمريكا بإسرائيل».

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان تحقيق الفصل بين القوات على الجبهة المصرية، ثم على الجبهة السورية أكثر، ما كان ليتم على الأرجح دون ضغط أمريكى حاد . وبالنسبة للجبهة الأخيرة ، فلقد قيل ان كيسنجر لوح لإسرائيل بأن البديل للفصل هو الحرب الشاملة، وفى هذه الحالة فليس لإسرائيل أن تنتظر جسرا من السلاح كذلك الذى أنقذها فى أكتوبر .. إلخ.

وفيما عدا هذا فان تصريحات إسرائيل المتخوفة والمريرة من الضغط أو التغيير الأمريكى أو احتمالاتها ليست بالقلة. «لقد حدثت فى الأيام الماضية» ، قالت مايير بعد وقف اطلاق النار، «أشياء قليلة تحملنى على القلق» . هذا بينما كان دايان أكثر وضوحا : «إن قطرات من المرارة توجد الآن بين إسرائيل والولايات المتحدة» . هذا فى حين وصل قنصل إسرائيل فى نيويورك ، المدعو ريفلان ، إلى حد العصبية المفلوتة ، فقال أن الولايات المتحدة قد لحقت الآن بالاتحاد السوفيتى وتبنت معه سياسة معينة فيها الكثير من الضرر لإسرائيل ولمستقبلها» (كذا!).

كذلك ففى تصريحه الهيستيرى الهيولى عن استعداد إسرائيل لمحاربة العالم كله اذا اقتضى الأمر، أضاف شلومو هيليل قوله «واذا حاولت أمريكا الضغط علينا لفرض تسوية، فان هناك حدودا لما يمكن أن نقبله يعرفها الأمريكيون ولايمكن أن نتخطاها» . ولا

يختلف عن ذلك غير تصريح دايان بالاستعداد لمحاربة الجميع بما فى ذلك الولايات المتحدة اذا دعت الضرورة . وفى دعاياته الانتخابية حذر دايان الإسرائيليين قائلا «على إسرائيل أن تحتفظ بقوتها وارادتها لمقاومة الضغط العربى والأمريكى عليها من أجل أن تقدم تنازلات تتعلق بالأراضى».

وثمة أخيرا تحذير مايير الحذر «اذا استخدم الأمريكيون الضغط واضطررنا إلى أن نقول لا، فاننا سوف نقول لا، وان كنت أتمنى ألا يحدث ذلك» . غير أنها فقدت حذرها أيام محادثات الفصل على الجولان حين أنذرت أن إسرائيل «ستبتر اليد التى تمتد إليها » كما أنها لم تملك الا أن تتأوه بأسى بعد أن تم اتفاق الفصل قائلة «سامح الله أى إسرائيلى يعتقد أن أمريكا ملزمة بمساعدتنا».

وقد بلغت مرارة إسرائيل تجاه أمريكا الذروة، وبلغ قلقها وتوجسها من أى تغير فى موقفها ازاءها القمة، حين بدأ التفاهم أو التقارب بين العرب وأمريكا. والواقع أن أحداً فى العالم لايخشى هذا التقارب أكثر من إسرائيل، ولا أحد يحاربه ويعمل ضده مثلها . وقد انعكس هذا بجلاء حين زيارة نيكسون لمصر وسوريا، وعبر عنه رابين رئيس وزراء إسرائيل الجديد بلا خفاء . «من المؤكد» ، قال هو حينذاك ، «أن يؤدى التقارب بين الولايات المتحدة والدول العربية إلى خلق مشاكل لإسرائيل واثارة مناقشات حادة بل واثارة خلافات فى وجهات النظر بين الأمريكيين والإسرائيليين . ولكنى أفضل هذه الخلافات فى وجهات النظر على اندلاع حرب» . ثم أضاف «غير أن من الواجب ألا يثير هذا التطور فى العلاقات الأمريكية العربية أى قلق مبالغ فيه فى إسرائيل ، خاصة أننا نعلم أن الولايات المتحدة تريد لإسرائيل أن تكون قوية».

واذا كان لهذا كله من معنى ، فهو أن أمريكا ان حاولت ، فرضا وجدلا، أن ترغم إسرائيل ارغاما على «التعقل» ، فليس من المستبعد أن «تتمرد» هذه عليها وأن تأخذ مصيرها «فى يدها» وتضعها والعدو والعالم أمام الأمر الواقع . ليس من المستبعد ، يعنى، أن تقوم «المستعمرة» ، كما قد نقول ، «بحرب استقلال» عن «المتروبول» ، مثلما فعلت الوكالة اليهودية من قبل ضد بريطانيا الانتداب أو فرنسيو الجزائر ضد فرنسا الأم أو روديسيا المستوطنين ضد بريطانيا الكومونولث من بعد، فشن الحرب على «الوطنيين» - الدول العربية فى هذه الحالة..

خلاصة القول إن هناك مقاومة إسرائيلية عنيدة ومصرة وضغوطا مضادة للضغوط الأمريكية، تماما كما أن هذه الأخيرة ضغوط حقيقية وليست مكنوية . ولكن هذه المقاومة الإسرائيلية، مثلها مثل الادعاءات والمطالب الاقليمية الإسرائيلية، تحتاج أولا وقبل التسليم بها كمنطلق لموقف عملى إلى تقييم وإعادة تقدير : إلى أى حد هى جازمة ونهائية لارجعة فيها؟

الواقع أن هناك ملاحظة عامة مهمة للغاية ينبغى الا نغفل عنها فى كل ما يتعلق بإسرائيل وبسلوكها المتوقع. فهناك دائما تناقضات وتحولات كثيرة فى تصريحات قادتها ومسئوليها تتراوح عادة بين المزايدة والتشدد التام وبين التراجع والمساومة الحادة. وكثير من هؤلاء القادة غيروا أقوالهم ومواقفهم مرارا وإلى حد التناقض الذاتى بصورة أربكت حتى مواطنيهم بل ودعتهم إلى اتهامهم بالتلون وعدم الثبات والمرونة المفرطة حتى أصبحوا بلا رأى حقيقى أو أصبح رأيهم بلا قيمة حقيقة. ويحتل الصدارة هنا لاشك دايان ، صاحب الرد المشهور «إن الحمار وحده هو الذى لايغير رأيه»!

وغالبا ما ترجع هذه التغييرات المتناقضة أما إلى اعتبارات حزبية أو انتخابية داخلية، وإما بقصد رفع معنويات الشعب والجيش ، وإما للضغط المعنوى على العدو العربى أو الضغط المضاد على الأصدقاء الأمريكين تحسبا أو تحشدا لمقاومة ضغوطهم.. الخ . ولهذا فليس ينبغى لنا أن نأخذ العدو على أنه دائما يعنى ما يقول ولا أن تؤخذ تصريحاته على علاتها وعواهنها وبحذافيرها كمقياس قاطع لنواياه أو لقراراته النهائية – والا فأين مثلا تصريحاته المغلظة عن عدم الانسحاب شبرا من الجولان التى هى «جزء لايتجزأ من اسرائيل» ؟ وفى حالة قضية الانسحاب الشامل المطروحة الآن ، فلقد رأينا أيضا كيف يتأرجح العدو بين شعار «ولا بوصة واحدة» وبين اعلانه عن القبول بالانسحاب من جزء وليس من كل الأراضى المحتلة.. الخ . إن الإسرائيليين ، نحن نخلص ، يقولون لحسن الحظ ما لايفعلون ، ويفعلون كثيرا عكس ما يقولون.

والآن ، مع هذا التحفظ وسائر الاعتبارات والتعقيدات ، ما هى اذن خلاصة تفاعل كل تلك الضوابط والضغوط المتوازية أو المتعارضة التى تعمل الآن على مسرح الحل السلمى للازمة ؟ فى تقدير جمهرة المحللين، هى معادلة أساسية محددة، لكنها ليست جذرية بل وسطية . ان أمريكا، تقول تلك المعادلة، تتعرض لضغوط شديدة متضادة ، من العرب ومن

إسرائيل، من العالم الخارجي كما من داخل أمريكا نفسها، ومن عوامل خارجية وأخرى داخلية . ومن ثم فهي ستنقل هذه الضغوط إلى إسرائيل، أي ستضغط عليها ا يوما ما بالضرورة . وإسرائيل ستقاوم وتتصادم بالقطع، ولكنها في النهاية سترضخ بالحتم . وهذا هو الحد الأول من المعادلة والذي بدأ ونلمسه اليوم بالفعل .

وعند هذا الحد نلاحظ ، عابرين ، أن الموقف يختلف كثيرا ، الموقف العام وموقف أمريكا بالذات، عنه بعد يونيو ١٩٦٧ ، حين كانت تتخابث فتدعي مرة أنها لاتتدخل لمصلحة إسرائيل ومرة لأنها ليست طرفا في النزاع .. الخ ، وهي في كل الحالات تتواطأ مع إسرائيل في موقفها القائل «ذرني ومن هزمت وحيدا وجعلت له عارا ممدودا» . ولكن أمريكا أيضا في موقفها هذا الجديد تختلف اختلاف جذريا عن موقفها ١٩٥٦ حين تعاونت على ارغام إسرائيل، كمخلب قط العدوان الثلاثي وذنبه، على الانسحاب من سيناء . فلقد كانت أبعاد الموقف وظروفه الموضوعية مختلفة كل الاختلاف عنها الآن. والخلاصة الصافية هي أن أمريكا مرغمة هذه المرة على أن تضغط ايجابيا على إسرائيل، ولكن ليس ضغطا كليا شاملا ، وانما ضغطا وسطا، قل نصف ضغط . وهذا هو الحد الثاني من المعادلة .

والنتيجة النهائية لهذا الضغط المحدود هي أن ما ستفرضه أمريكا على إسرائيل وتقبل هذه به سوف يكون دون الحد الأدنى الذي يقبل به العرب بالتأكيد. ولاينبغي أن ننسى أن على العرب بدورهم ستضغط أمريكا بالجزم، بل وقد تهدد «وتهوش» ، ولكنهم سوف يرفضون على وجه اليقين. وبعبارة موجزة ، أمريكا لاشك ستضغط على إسرائيل ، دون أن تلوى ذراعها مع ذلك أو تصل إلى حد الارغام قط، وستتململ إسرائيل وتقاوم وقد تصرخ وتتصايح دون أن تحتاج غالبا إلى الوصول إلى حد التمرد أو الرفض ، ولكن العرب على الأرجح سيجدون أنفسهم في النهاية مضطرين إلى عدم القبول بالطالب والمطلوب.

ان هناك مساحة واسعة نسبيا من الخلاف بين إسرائيل وأمريكا قد يمكن عبورها جزئيا ، وهناك مساحة من الخلاف أوسع بين أمريكا والعرب لايمكن تضييقها الا بالكاد ، ولكن هناك مساحة من الخلاف بين العرب وإسرائيل يستحيل تقريبها أو القفز عليها على الاطلاق.

وهذا هو الحل الوسط الذى تقدر عليه أمريكا : إنه الحل الأمريكى ، وهو لانقول بعد الآن الحل الإسرائيلى ، ولكن للانصاف والدقة ربما نصف الإسرائيلى. وفى وجه هذا الاحتمال ، سألت مجلة شتيرن الرئيس السادات «ولكن ماذا سيحدث لو عجز الأمريكيون عن حمل الإسرائيليين على الانسحاب من الأراضى المحتلة؟» ، فأجاب قائلا «أننى أتوقع حينئذ على أى الأحوال أن يعترف الامريكيون بذلك علانية» .

حسنا ، فماذا اذن ؟ أهو الحل السّياسى يتعثر مرة أخرى وعاشرة ؟

هل هذا هو الطريق المسدود ؟ أهى عودة من جديد إلى أوضاع وتوازنات ما قبل أكتوبر ، موقف مجمد ومتوتر يبحث عن الحل فلا يجده ، أى حالة اللاحرب واللاسلم ، مضافا إليه فقط نوع من الحل الجزئى بعد فصل القوات ؟ وإلى أى مدى من الوقت يمكن أن يستمر مثل هذا الموقف الجديد أو المجدد ؟ بل كم يستطيع العرب ، بل العدو نفسه ، فضلا عن العالم ، أن ينتظروا جهود التسوية السياسية نفسها حتى قبل أن تصل إلى فجوة الافتراق ونقطة اللاعودة ؟ شهورا أم سنين ؟ سنة أم خمسا ؟ .. الخ .. الخ . تلك وغيرها أسئلة حرجة وحساسة تثيرها الأحداث والتوقعات وتبحث عن الاجابات المرضية ، فهل يمكن العثور عليها؟

أن أحدا لا يود بالطبع أن يصادر أدنى أمل فى احتمالات المستقبل : إنه عمل غير ثاقب ، أنه ليس من المصلحة الدعائية أو الإعلامية . غير أنه ليس من الحكمة السياسية كذلك أن نقفز فوق الواقع ونتجاهل الجوهر الكامن والدفين لطبيعة الصراع برمته ، ذلك الذى ينعكس على كل جزئية ومرحلية وآنية من تطوره والذى يحكم كل خطوة يخطوها العدو بوجه خاص أو خطة يضعها . ولهذا فإن من الضرورى ألا نفكر فى احتمالات المستقبل القريب بصورة تجريدية أو تبسيطية أو من وجهة نظرنا وحدنا . بل لابد أن نخطط على أساس ما يفكر العدو باطنيا وما يتبنى فعلا من مواقف وقناعات ، حتى نتحصن له بالمصل المضاد نفسيا وماديا . سياسيا وعسكريا ، على المدى القريب والبعيد، وغير ذلك .

فعلى هذا الأساس . ماذا نجد ؟ لنتفق أولا على حقيقة أساسية هى مفتاح للخطر كما هى مدخل إلى المستقبل : حالة الجمود أو التجميد القديمة فى الموقف الصراعى عموما والتى سادت قبل أكتوبر قد انتهت تماما بفضل المعركة ، وهذا حسن جدا ، ولا يمكن لها

تاريخيا أن تعود على الإطلاق ، وهذا هو الأحسن . ولكن من الناحية الأخرى ، حلت محل «الجمود» حالة من السيولة بل «التميع» قلقة ومربكة ، دون أن تظهر بعد حالة «تبلور» واضحة . وفى ظل هذا التميع فإن كل شئ أصبح الآن ممكنا إما الحل أو اللاحل ، إما الحل أو الحرب .

ومن المفهوم بعد هذا أن مؤتمر السلام سيمتد إلى شهور على الأقل ، وقد يصبح التمييز بالسنة ، هذا إذا استمر دون قطع أو تعثر . سيكون المؤتمر ممطوطا مطولا بقدر ما سيكون العدو الاسرائيلى مراوغا مفلاتا ومعوقا . هذا بينما أعلن الرئيس السادات بحزم أن تصوره هو أن التسوية السلمية يمكن ويجب أن تتم كلها فى غضون بضعة أو عدة شهور . ومن المسلم به لدى الجميع أن العدو سوف يتفنن فى اختلاق المشاكل والعقبات وتمييع المناقشات وتمديدها إلى أقصى حد ممكن بل متصور . بل لعله قد بدأ ذلك من قبل بالفعل ، كما رأينا فى موقفه من مباحثات الفصل بين القوات على الجبهة السورية ، بوابة المؤتمر .

وهكذا تبدو اللعبة الاسرائيلية أساسا وهى لعبة المراوغة والتسويف ، غير أن هذه اللعبة خطرة بقدر ما هى مكشوفة ، لأن الموقف العسكرى على الجبهة أولا ، والموقف السياسى والبترولى فى العالم ثانيا ، لن يسمحا لها بأن تطول أو تمضى إلى مالا نهاية وستفجرانها يوما ما أن لم تفجرهما هى قبل ذلك .

وعدا هذا وأخطر منه ، هناك تناقض جذرى بين تصور العدو وتصور العرب للمؤتمر طبيعة وهدفا . فبينما أعلن العدو مسبقا ومكررا أنه لن يذهب إلى المؤتمر إلا إذا كان مؤتمر سلام بالفعل وليس اجتماعا لتنفيذ قرار ٢٤٢ ، أعلن الرئيس المصرى فى حديثه إلى مجلة شتيرن «أننى لن أذهب إلى محادثات جنيف لاتفاوض حول انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة . ذلك موضوع محسوم بالنسبة لى . إن الانسحاب واقع لا محالة» . فالانسحاب الشامل الكامل بالنسبة للعرب أمر مفروغ منه ولا نقاش فيه ولا يمثل وظيفة المؤتمر ، ولكنه فى خطة العدو موضوع المساومة والجدل وهو جل وظيفة المؤتمر .

كذلك بينما يعنى السلام فى مفهوم العدو الصلح ، أى الاعتراف والتمثيل .. الخ، وانهاء النزاع أو تصفية الصراع إلى الأبد ، يقصد العرب منه انهاء حالة الحرب فقط كما وضح الرئيس المصرى مرارا ، فذلك هو الممكن الوحيد الآن وبعد ربع قرن من

الكراهية والعداوة ، أما ما دون ذلك أو ما بعده فمتروك بالطبع للأجيال القادمة . أو كما قال بالتفصيل فى حديثه الى شتيرن «إننى أستطيع أن أتحدث بالنسبة لجيلى فقط .. هل تستطيع حقا أن تتصور أن بالامكان بعد ٢٦ عاما من العنف والكراهية والمرارة أن يهبط السلام فجأة على المنطقة ؟ .. دعونا أولا ننهى حالة الحرب . وسوف يكون على الجيل القادم أن يقرر ماذا يحدث بعد ذلك » .

ومرة أخرى أكد الرئيس موقفه فى رده على سؤال مجلة تايم عما إذا كان يتصور «اقامة علاقات دبلوماسية عادية مع اسرائيل ذات يوم» ، أو حتى «الأشكال الأخرى من العلاقات أو الاتصالات كتبادل الزيارات السياحية والمعاملات التجارية وما إلى ذلك»، وذلك إذا سارت المحادثات سيرا طيبا . فقد رد سيادته بقوله «كيف تتصورون هذا بعد ستة وعشرين عاما من المرارة والقتال والكراهية والعنف ؟ هذا لا يستقيم ، فطوال ستة وعشرين عاما قامت بيننا حالة حرب . فليكن هدفنا هو إنهاء حالة الحرب هذه بصفة رسمية ودون مواربة . إن هذا سيكون انجازا كبيرا .. أعتقد أنه يكون انجازا كبيرا إذا اتفقنا على مرأى من العالم كله على انهاء حالة الحرب. هذا لو تم لكان نقطة بداية طيبة جدا .. وبعدها يسود المنطقة مناخ جديد .. ولا نستطيع أن نتنبأ بما سيحدث فيما بعد ».

على هذا ، وحتى نحسن تقدير الموقف كما يمكن أن يحتمل أن يكون ، فإن علينا أن نحلل تحليلا موضوعيا حسابات وأهداف كلا الطرفين العربى والاسرائيلى فى المواجهة الراهنة . فاذا بدأنا بالعدو فسنجد هذه الاعتبارات الحاكمة الأربعة ، وأربعتها – سيلاحظ – تتفق فى تحديدها لاتجاه العدو فى المستقبل ، فتجعله غير جاد ولا راغب فى الوصول إلى تسوية سلمية حقيقية جادة ودائمة وتدفع به بالضرورة إلى التفكير فى تغيير الوضع الراهن بالقوة .

أولا ، سواء صح أو لم يصح ما تدعيه وتعلنه اسرائيل من أنها انتصرت ، وانتصرت انتصارا ضخما ، وسواء كان هذا الادعاء أو الاعلان يرجع إلى دوافع الاستهلاك المحلى وتغطية هزيمتها أو إلى الاستهلاك الخارجي والقدرة على المساومة السياسية الأفضل ، فإنها فى النهاية لن تخدع نفسها .. فاما أنها حقيقة انتصرت أو حقيقة انكسرت – وهى تعرف . فإن كانت الأولى فليس من المنطقى أن تقبل بالتنازل الشامل والانسحاب الكلى ، وستصر على أن تطلب أرباح النصر كاملة وعلى قطف ثماره . وأن كانت الثانية ، فإنها

لن تقبل بنتيجتها وتستسلم لها كأمر واقع بهذه السهولة وتلك البساطة لأنها تهدد صميم فكرة وجودها . لقد عاشت فى المنطقة على أساس واحد ووحيد هو القوة ، القوة المطلقة المتفوقة الرادعة ، فإذا فقدت هذا الردع فستفقد وجودها فى نهاية المطاف مهما نأت هذه النهاية .

ثانيا ، انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ يعنى من وجهة نظرها عودة الجيوش العربية لتتمركز على أجنابها وضلوعها مباشرة بقوة وقدرة لم تعرفهما من قبل كما وكيفا . فلقد خرجت الجيوش العربية من معركة أكتوبر محتفظة بسلامة قواتها تماما، وعوضت بل وضاعفت أسلحتها المتطورة كذلك . ولقد كانت استراتيجية إسرائيل العظمى دائما الا تترك القوات العربية مهما كانت الظروف بغير تدمير أى إلا وهى منزوعة السلاح عمليا ، ودع عنك تماما أن تتركها وهى فى أوج القوة وبصورة تهددها كما لم يحدث من قبل . لقد كان هدف العدو الاسرائيلى ومعسكره هو دائما وأساسا تدمير قوة مصر الذاتية بوجه خاص وتحطيم مكانتها عالميا وعربيا وتقليص دورها إلى داخل حدودها . ولا يكون هذا بأن نتركها الآن مسلحة بأقوى وأخطر مما كانت فى أى وقت مضى .

وقد أضافت أوضاع أكتوبر إلى هذا تطورا جديدا ، هو خطورة الصواريخ العربية أرض – أرض البعيدة المدى سواء السوفيتية الصنع من طراز فروج وسكود أو المصرية من طراز القاهر والظافر ، ولقد كشف الرئيس السادات أخيرا كيف كانت صواريخنا هذه مصوبة إلى المدن الرئيسية الثلاث فى عمق إسرائيل أثناء المعركة استعدادا للعمل بمبدأ «العمق بالعمق» . وتدرك إسرائيل كم يتضاعف هذا الخطر حين تنسحب إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ .

فكما وضح وحذر الجنرال هيرتزوج ، المعلق العسكرى الإسرائيلى حاليا ورئيس المخابرات سابقا ، فإن هذه الصواريخ ، إذا ما تقدمت شبكتها وبطارياتها إلى خطوط ١٩٦٧، فسوف تشكل تهديدا دائما وبالغا لقلب اسرائيل بأعماقها ومدنها الداخلية من الشمال والجنوب على السواء . ومن أجل هذا نصح حكومته بالإصرار على إقامة مناطق عميقة منزوعة السلاح لتكون عازلا وفاصلا فى حالة ما إذا قررت قبول الانسحاب الكامل.

ثالثا ، فى ظل مواجهة الجيوش المحتشدة على الجبهة بكل طولها وامتدادها وبأقصى درجات الاستعداد والتأهب ، تقف إسرائيل فى حالة من التعبئة شبه العامة المستمرة . وعدا أخطار التصاعد بالاحتكاك والاشتعال الذاتى نتيجة لضحالة الفصل بينها ، فإن إسرائيل لا تطيق هذا الوضع ولا تستطيع أن تقبل به طويلا أو إلى أجل غير محدود . فذلك يحتبس نحو ثلث قواها الانتاجية العاملة فى خطوط الدفاع ، وبالتالى يكاد يخرب اقتصادها المثخن بالجراح والكسور . هذا رغم كل محاولات التحايل على الوضع بتحويل مرن وسريع للقوى العاملة من قطاع انتاجى إلى آخر وباستجلاب اليهود المرتزقة من خزان الصهيونية العالمية ، دون أن نذكر سوقها أو تسويقها لقوة العمل العربية المحاصرة فى الأراضى المحتلة بل وأخيرا تجنيدها لطلبة المدارس للعمل الزراعى والصناعى لأول مرة فى تاريخ اسرائيل .

واستمرار التعبئة العامة فى إسرائيل هو قتل بطئ لها . تعرف هى ذلك، كما تعرف أن العرب يعرفونه . ولقد صدرت بالفعل تصريحات من قادة العدو تحذر الدول العربية من وضعه بالارغام فى تلك الحالة التى تضعه كما زعموا بين اختيارين لا ثالث لهما: الانهيار من الداخل أو الانفجار إلى الخارج . وحديثا وضح الرئيس السادات أنه ليست هناك الآن فى اسرائيل حكومة تجرؤ أو تستطيع أن تعلن التعبئة العامة.

رابعا، وأخيرا ينبغى أن نضيف اعتبارا حادثا قد يبدو عارضا أو عرضيا ولكنه ضاغط وفاعل إلى أقصى حد من وجهة نظر العدو. ذلك هو الانهيار السياسى الذى لحق باسرائيل على مدى الشهور الأخيرة، والذى وصل اخيرا إلى قمته (أو حضيضه) بسقوط حكومة مايير وتمزق حزب العمل الحاكم، وما اقترن بذلك كله من اضطراب طاحن وضياع شامل فى جبهة العدو الداخلية وتهديد جدى لوحدته الوطنية المهيضة من الأصل والأساس. لقد كانت الأخطار الخارجية ، حقيقية أو مفتعلة و هى دائما عامل التلاحم الداخلى فى المجتمع الاسرائيلى المتنافر والمفكك جنسيا ولغويا طبقيا وحضاريا وثقافيا، وحتى طائفيا. وكان الجيش بالذات بوتقة انصهار اسرائيل والمفاعل الوحدوى لسكانها الأخلاط . والآن فلقد ضربت كل هذه المؤسسات والاعتبارات بما يهدد الدولة فى الصميم من كيانها.

واذا كانت سياسة العدو ، حتى فى أوقات انتصاره، وهى التلويح لمجتمعه دائما بالخطر الخارجى المزعون وباعتبارات الأمن الغلابة ليصرف أنظاره عن مشاكله الداخلية

ويحشده وراء هدف طاغ وأكثر الحاحا، فما أحراه ان يلجأ إلى هذه السياسة فى اشد مراحل حياته تأزما وتهديدا. وبعبارة أخرى، فقد لا يجد قادة العدو ومؤسسته العسكرية بديلا عن حرب جديدة تلم بها شعث وحدته الممزقة ويشغل بها السكان عن الصراعات الداخلية. لاسيما أن مثلها هى الفرصة الوحيدة والأخيرة لكى يسترد هؤلاء القادة بعض ما فقدوه من مكانة وهيبة، بل من مبرر ووجود وربما رءوسهم ذاتها. تلك لعبة قديمة فى السياسة، وهى فى صميم نسيج الدولة الصهيونية. ان القيد موجود، والاغراء شديد، والاحتمال وارد وليس للعرب أن يغفلوا عنه اليوم أو يستهينوا به.

تلك هى الاعتبارات الملحة والقاهرة التى تحكم فكر العدو وسلوكه المحتمل . فماذا عن الجانب العربى ؟ هنا نجد اعتبارا أساسيا واحدا ولكنه طاغ .والعرب لايريدون أساسا إلا استرداد أراضيهم المحتلة واسترجاع حقوق الشعب الفلسطيني. ولقد حقق العرب فى معركة أكتوبر نصرا عسكريا لا يشكون فيه رغم كل حملات التشكيك . ولقد كان من الممكن لهذا النصر أن يكون من حجم اضخم ومقياس أعظم وأن يؤدى إلى تحقيق نتائجة السياسية والاقليمية كاملة وبلا تأخير لولا التدخل الأجنبى.

ولهذا السبب جاءت المفارقة الغريبة وهى أن نتائج هذا النصر متعددة جدا وثورية للغاية على كل المستويات ، ولكن ذلك بالقوة لا بالفعل، أى باعتبار ما يمكن أن يتدفق عنها مستقبلا أكثر مما فاض منها فعلا وعلى الأقل من وجهة نظر هذا العدو ومن وراءه، فان حجم النصر العربى الصافى لا يكفى لاستسلامه ولايبرر عنده أن يتنازل بلا قيد ولا شرط عما اغتصب من أراض عربية وحقوق فلسطينية. مثلا يقول اريك مارسون ان النجاح الذى حققه العرب على ساحة القتال «محدود»، غير أنه سيدفعهم إلى المطالبة بمطالب يعدها الاسرائيليون لا مبرر لها، ومن ثم فان اطلاق النار لن يتوقف طويلا ، أما احتمال العودة إلى جولة جديدة من المواجهة فمسألة وقت فقط.

وفضلا عن هذا فان العدو يعتمد على عامل الزمن كعامل من عوامل التعرية السياسية حتى تشحب هزيمته هو ويسترد معنوياته وقواه، بينما ينطفئ بريق نصرنا نحن ويتآكل بالتدريج . والعدو الآن يعمل كالمحموم من أجل تعقيم انتصارنا العسكرى سياسيا بعد أن حاول أن يشوه صورته حربيا. ومثل هذه الأوضاع المعلقة والمتميعة اذا ما ترك لها أن تستمر بلا نهاية ، فان من الممكن أن تكرر معركة أكتوبر النتائج النهائية لمعركة يونيو

ولكن بصورة معكوسة . فاذا كانت اسرائيل قد حققت نصرا عسكريا ضخما فى يونيو، ولكنها فشلت فى انتزاع نتيجته المنطقية وهى النصر السياسى، فان من الممكن على هذا الفرض أن يجد العرب أنفسهم بعد نصرهم العسكرى المهم فى أكتوبر وهم بغير ثمرته السياسية الطبيعية ، أى بلا نصر سياسى .

وفى مثل هذه الحالة - الافتراضية بالطبع - يمكن لحالة اللاحرب واللاسلم القديمة ان تعود بصورة ما وانما فى نمط اقليمى جديد نوعا : فبعد أن كانت قناة السويس فاصلا بين الاحتلال الاسرائيلى والمواقع العربية فى مصر، هذه شرق القناة وهذه غربها، سيكون الطرفان موزعين على جانبى خط الفصل بين القوات على بعد ٣٠ كم من القناة. وبالمثل على الجبهة السورية.

وبديهى ان كل هذه الافتراضات والاحتمالات لا تغيب البتة عن مصر وسوريا، وهما غير مستعدتين قط لمجرد التفكير فيها فضلا عن القبول بها. بل لقد اعلنتا للعالم بوضوح مطلق أنه ما لم تتم التسوية السلمية المرضية تماما ومبكرا فانهما ستعودان إلى الاحتكام إلى القتال لتفرضا ارادتهما وتستكملا انتزاع حقوقهما وحقوق الشعب الفلسطينى. والحقيقة أن كل العرب يشعرون بأنهم حققوا نصرا - أول نصر لهم - لا يملكون الآن ترف التفريط فيه أو أن يدعوه يفلت من بين أصابعهم ليصبح آخر نصر لهم أيضا انها لتكون مأساة فاجعة ، بل جريمة حقيقية.

غير أنهم أيضا يشعرون أن هذا النصر، الذى جاء منقوصا لأسباب خارجة عن ارادتهم، يحتاج لانقول إلى انقاذ ولكن إلى تعزيز، إلى تلميع وتجديد شباب . اننا اذا كنا قد ثأرنا فى أكتوبر لهزيمتنا فى ٥ يونيو ، فان علينا الآن أن «نثأر» لنصرنا فى أكتوبر ان جاز التعبير . ان الكثيرين يشعرون اننا بحاجة إلى نصر عسكرى جديد يؤدى إلى «اخصاب» نصر اكتوبر سياسيا، بحيث يغل ثمراته الطبيعية ويفيض بها تلقائيا بعد أن انكشفت نوايا العدو الذى يريد أن يحجب عنا هذه الثمرات ويحرمنا منها بعناده ومماطلته ومراوغته . ولئن كان الاستمرار هو النصر اثناء معركة أكتوبر، وكان هذا قد استحال لأسباب غير منظورة أو منتظرة، فان الاستئناف الآن هو النصر كما يرى الكثيرون.

وعند هذا الحد نصل إلى نتيجة مثيرة ودالة إلى أبعد حد، وهى أن هناك توازيا بل وتقابلا قويا بين نظرة كل من العرب واسرائيل إلى أبعاد الموقف فى أكتوبر وما بعد

اكتوبر. فالموقف الآن ان كلا الطرفين يشعران بأن المعركة الأخيرة بأن المعركة الأخيرة لم تحسم الوضع المعلق بصورة قاطعة، أن ثقلها العسكرى لم يكن بالقدر الكافى ليعكس كل نتائجها السياسية، وأنهما مدفوعان بالضرورة ان اجلا أو عاجلا إلى استكمال المعركة، وأن الاستئناف لن يكون فى الحقيقة الا استكمالا: العرب لاستكمال نصرهم المنقوص واسترداد أراضيهم وحقوقهم التى مازالت محتلة ومغتصبة ، واسرائيل لتصحيح وضعها المهزوم وأسترداد مكانتها واسطورتها التى تعيش عليها.

وحتى لايكون شك فى صحة هذا التشخيص ، فان لدينا تصريحات قادة المعسكرين واضحة قاطعة على أن المعركة لم تنته وان احتمالات العودة اليها قائمة فى أى وقت وأن الاستعداد لها لم ينقطع قط . كل الأسماء المألوفة ، على جانب العدو ، ابتداء من مابير ودايان الى رؤساء الأركان وحتى محترف الدبلوماسية ايبان ، رددت تلك التأكيدات .

دايان ، على سبيل المثال ، قال اثناء الانتخابات «ان حرب أكتوبر لم تنته ، بل هى فى بدايتها» ، وحث الشعب على ثبات الأعصاب اذا ما تجددت المعارك . ومرة أخرى قال «الآن فقط بدأت المعركة» . وبالمثل رددت مابير مرارا أن احتمالات تجدد الحرب واردة وغير بعيدة وغير مستبعدة .. الخ . بل كان من آخر تصريحاتها قبل سقوطها قولها انه على الرغم من تحسن الموقف فى الشرق الأوسط نسبيا فانه ينبغى عدم استبعاد الحرب وأن على اسرائيل أن تكون على استعداد لذلك .

ولقد كان من آخر ما صدر من هذه التصريحات والتكهنات أو التهديدات ما قاله ايتزاك هوفى ، الذى كان رئيسا للاركان بالنيابة لبعض الوقت ثم طرد ، من أنه يتوقع حربا جديدة فى الشرق الأوسط تمتد على الجبهات الثلاث المصرية والسورية والأردنية ، وأن العدو (أى نحن) قد يستخدم فى هذه الحرب الصواريخ أرض - أرض البعيدة المدى من طراز سكود وفروج ، وأنهم فى هذه الحالة سيردون بقسوة بسلاحهم الجوى .

وأحدث من ذلك وأخطر ما قاله شيمون بيريز وزير الدفاع فى حكومة اسرائيل الجديدة ، فيما يبدو محاولة لنسف مساعى السلام الأمريكية فى المنطقة . فقد زعم أن الدول العربية تعتزم شراء أسلحة تصل قيمتها الى ٣٠ ألف مليون دولار قبل عام ١٩٨٠ ، وتجنيد جيش من ١,٥ مليون جندى فى مواجهة اسرائيل . وعلى هذا الأساس بدأت اسرائيل فى تخصيص قوات جوية لتكون مظلات جوية مستمرة فوق المدن الاسرائيلية ،

وكذلك فى تدعيم المطارات الحالية ، وبناء وسائل دفاع حديثة على طول الحدود ، فضلا عن الدفاع المدنى .

وبالمثل أعلن شارون أنه اذا حدث فى بضع سنين أن أصبحت مصر على وشك الحصول على أسلحة ذرية ، فلن يكون أمام اسرائيل من خيار الا «شن حرب فظيعة غير ضرورية» . ثم قال انه متشائم بشأن فرص السلام فى الشرق الأوسط، وأن الاسرائيليين يخدعون أنفسهم اذا ظنوا أنهم على طريق التسوية مع العرب . كما انتقد اتفاقيتى الفصل بين القوات مع سوريا ومصر ، وقال إن اسرائيل تواجه مأزقا فى سيناء لأن المصريين سيطالبون بمزيد من الانسحاب الاسرائيلى «واذا لم نوافق فلن يكون هناك ما يحول بينهم وبين تحريك ٥ فرق ، ٢٠٠٠ دبابة الى الضفة الشرقية للقناة وتحطيم اتفاقية الفصل» ، والأمر لن يستغرق منهم سوى ساعات قلائل . أما عن الجولان فقد قال ان اسرائيل غالت فى الانسحاب ، وأن عودة القنيطرة الى السيطرة المدنية السورية أمر خطير يخلق موقفا متفجرا لا يحتمل حيث أن آلافا من السوريين سيقيمون أمام الخط الفاصل.

وهم يشاهدون الاسرائيليين يعملون فيما كان حقولا سورية .. وهكذا الى آخره..

أما على الجانب العربى فلدينا ثلاثة تصريحات للرئيس السادات . لمجلة نيوزويك قال «اننى لا أهدد أحدا ، ولكن على الجانب الآخر أن يدرك أنه لن يستطيع البقاء فى بلادى ، الا اذا كان يفكر فى حرب أخرى بالطبع» ، ولمجلة تايم قال «اذا كانت اسرائيل لا تنوى التوصل الى حل ، فمعنى هذا أنها تسعى الى حرب جديدة . فاذا كانوا يريدون الحرب فقد ثبت للعالم كله أننى مستعد لكل النتائج . ولست أهدد أحدا بعد أن بدأنا السير فى طريق السلام ، ولكن اذا توقفت العجلة فلست أرى بديلا للحرب . وسيحدث هذا ، إن حدث ، على مرأى ومسمع من العالم» . وأخيرا قال الرئيس لمجلة شتيرن «اذا رفضت اسرائيل الانسحاب ، فمعناه أن إسرائيل تريد حربا جديدة» .

أما فى الداخل فما أكثر ما ردد الرئيس كلمته «لم تنته بعد المعركة» فى كل خطبه وتصريحاته . وعدا هذا هناك تصريحات القادة العسكريين العرب والمصريين التى تدور كلها حول أن المعركة لم تنته وأن مهمتهم لا تنتهى الا بعد تحرير آخر شبر من التراب العربى ، وأن واجبهم الاستعداد لكل الاحتمالات بما فى ذلك العودة الى القتال وأنهم على

استعداد دائما لذلك فى أية لحظة («اما أن تحل قضيتنا سلما ، واما أن نستأنف القتال فورا» - القائد العام المصرى) .

كل مقومات الصدام ومكوناته ومبررات العودة الى القتال كامنة اذن فى الموقف الراهن ، والتناقض ما زال جذريا وأساسيا بين أهداف الطرفين رغم كل المحاولات الدولية السياسية . والجانبان يدركان هذا تمام الادراك ويستعدان له بالتسليح الكثيف بل المخيف . وقد أثبتت تجارب العالم كله ، وتجاربنا مع اسرائيل أكثر ، أنه ما من سلاح محشود الا وحتما يستعمل يوما ، وكل مخزون ترسانة لابد أن يفتح ان آجلا أو عاجلا . السلاح المكدس كالشحنة الحبيسة فى الطبيعة أو فى الانسان ، لابد لها من تفريغ يوما ما .

من هنا يحذر البعض أننا أن لم نفترض المعركة فقد تفرض علينا . ويرون أيضا أن العدو دائما انما يسعى بكل وسيلة وحيلة لكسب الوقت وريثما يعيد ترتيب بيته من الداخل بعد أن حطمته ونفسيته معركة اكتوبر ، وريثما يستكمل استلامه للسلاح الأمريكى الجديد كاملا ويطمئن الى وصول آخر قطعة منه الى يده ثم الى استيعابه له تكنولوجيا . وبعدها فلسوف يستميت فى ان تكون له مبادأة الهجوم ومباغتة المفاجأة ، ومن بعدهما النصر .

والعدو من جانبه لم يخف أنه يبحث عن استراتيجيات جديدة وأساليب عسكرية بالغة الخطر والمغامرة ولم يسبق استخدامها بحيث كما قال يعجز العرب عن الرد عليها تماما . وقد فسر البعض هذا بالاشارة الى الأسلحة الذرية التكتيكية ، أى الميدانية الصغيرة . بل لقد تواتر الحديث من جديد عن قنبلة العدو الذرية ، التى قد يملكها وقد لا يملكها ، والتى ان ملكها فقد لا يجرؤ حقا على استعمالها لأسباب تخرج تماما عن سيطرته وحساباته على أن شيئا واحدا مؤكد، وهو أنه اذا صحت هذه الحسابات والتحذيرات فان مجال المفاجأة الآن اصبح بحكم طبيعة المواجهة وتقارب مواقع القوات محدودا للغاية ، ليس بالنسبة للعدو فقط ولكن بالنسبة للجانبين على السواء .

وفوق هذا كله فان الدول العربية متيقظة تماما لكل ما يراود العدو الانتقامى من أحلام جنونية ، وكما فى أكتوبر لن تترك له زمام المبادرة قط بعد الآن . فكما صرح وزير الخارجية المصرية أخيرا ، فإن «الذى لاشك فيه أن اسرائيل سوف تحاول أن تنتقم من ٦ أكتوبر ، وأن المنافسة ستكون فى مجال التكنولوجيا شديدة جدا بيننا وبين اسرائيل ولابد لإسرائيل أن تفكر فى سلاح رادع ضد الطوفان البشرى فى مصر والعالم العربى

مستقبلا . ولذلك بدأت تفكر في السلاح الذرى . واذا حدث هذا فلن يكون أمامنا بديل عن الحصول أيضا على السلاح الذرى» .

لكل هذه الاعتبارات والاحتمالات ، أصبح السؤال الذى يطارد الكثيرين هو : هل نحن نخطو نحو السلام حقا ، أم نعيش هدنة مسلحة دون الاسم أو الشكل القانونى ؟ هل تكون الدراما الحالية من فصلين بينهما «انترميتزو» أو تتخللهما استراحة قلقة قصيرة ؟ أتكون الحرب الرابعة فى واقعها معركة من جولتين متعاقبتين . أم تتباعد الجولة الثانية بما فيه الكفاية لتصبح حربا خامسة مستقلة ؟ بعبارة أخرى ، أتثبت تطورات المستقبل أن الحرب الرابعة حرب ١٩٧٣ تشبه الحرب الأولى حرب ١٩٤٨ وتختلف عن الثانية والثالثة من حيث أنها تتألف من معركتين بينهما فاصل قصير من السلام المسلح ؟ اذا كانت الأولى ، فلن يزيد الفرق بين ١٩٤٨ ، ١٩٧٣ عن أن اسرائيل فى ١٩٤٨ استغلت الهدنة الأولى لتستعيد تسليحها فبدأت به الجولة الثانية ، أما فى ١٩٧٣ فقد استعادت تسليحها أثناء الجولة الأولى ففرضت به الهدنة .

ان بعض المتفائلين من العرب يرى أن اسرائيل قد تلقت ضربة لن تستطيع بعدها العودة الى القتال الا بعد ١٠ سنوات . ولكن الواقع لا يمنح أى سند لهذه النظرية الجامحة ، فلقد عوضت أمريكا اسرائيل عن كل خسائرها من قبل ثم زادت عليها ترسانة أكبر وأخطر . ومن جهة أخرى فان معطيات ووضعيات الموقف العسكرى والسياسى ، الميدانى والدولى ، لا تسمح اطلاقا بالاستمرار أو الانتظار طويلا دون انفجار محتوم أو تسوية لا تبدو ممكنة .

ولهذا يعتقد البعض أنها قد تكون ١٠ أشهر لا أعوام ، وأن المواجهة القادمة ستكون لذلك الجولة الثانية مباشرة من الحرب الرابعة ، أكثر منها الحرب الخامسة ، بعيدة منفصلة وقائمة بذاتها . وعلى أقل تقدير ، فان الفاصل الزمنى بين الحربين الرابعة والخامسة مهما طال سيكون أقصر فاصل بين أى حربين سبقتا فى تاريخ الصراع . أما نحن ، مهما يكن ، فان علينا أن نعمل للتسوية السلمية كأنها لا تأتى أبدا ، وأن نستعد للجولة الثانية كأنها تجىء غدا .

وسواء كان هذا أوذاك ، فان شيئا واحدا مؤكد . الجولة التالية ، اذا وقعت ، ستكون أعنف لقاء والأشد ضراوة خارج كل حدود وخارج كل مقارنة بالقياس الى كل ما سبق من

مجابهات . وبالقدر نفسه ستكون حاسمة وفاصلة . انها معا قمة الخطر وقطب الخطورة في الصراع جميعا حتى الآن والى وقت طويل بعدها . لماذا ؟ أولا لحجم ونوعية الحشود والأسلحة المكدسة التى ينتظر أن يقذف بها فى المعركة . ولربما تكشف لنا الأيام مستقبلا أنها قد تأتى فى النهاية وهى نحو ضعف ما قذف به فى أكتوبر وليس فى هذا رجم ولا مبالغة ، فقد ثبت أن حجم كل معركة لاحقة يفوق حجم كل معركة سابقة ، وأن كل طرف فيها يعد دائما مفاجأة حجمية للطرف الآخر .

ثانيا ، لفداحة الرهان الذى تنتظمه المعركة المنتظرة من حيث أنها ستؤكد أو تفكك نتائج أكتوبر الانقلابية . العدو سوف يستميت لاعادة عقارب القوة الى الوراء ، سوف يحاول أن ينسخ أكتوبر ، يسترجع انتصارات الماضى ويستعيد آمال المستقبل . وعلينا نحن أن نؤكد أكتوبر من جديد ونضاعفه بلا حدود وأن نثبت ونبرهن للعدو أن الماضى القديم غير قابل للعودة وأنه دفن وانتهى الى الأبد وأن لا أمل له هو فى المستقبل قط .

ثالثا ، لأن العدو يدخل المعركة لأول مرة بلا غرور ولا تكبر أو استخفاف ، وانما بدلا منها سيدخلها برصيد هائل من الحقد والغل وروح الثأر والانتقام أو كما يقول المحرر العسكرى الاسرائيلى ايتان هيفر «فى اسرائيل لا يتكلمون الآن بتعجرف ، بل يخططون للحرب كأنها ستقع صباح غد» .

ولئن كان هذا يعنى أنه سيدخل برصيد من الثقة الذاتية أقل وبأعصاب مهزوزة بقدر أو بآخر فإن هذا يعنى أيضاً أنه سوف يحارب هذه المرة وظهره إلى الحائط ، ولا نقول البحر . ومن ثم سيكون شرسا بقدر ما سيكون حقودا ، ومستيئسا بقدر ما سيكون مستميتا . وعلينا نحن أن نواجهه بالفدائية المطلقة والاستبسال الضارى والاصرار الرهيب على النصر .

رابعا ، وأخيرا ، لأن كثيرا من عوامل مفاجآتنا للعدو فى أكتوبر سواء فى الخطط أو فى الأسلحة أو فى استعمالها أو فى حجمها فقدت بالضرورة عنصر المفاجأة فيها بعد أن أصبحت معروفة للعدو ، وتحسب واستعد لها بأسلحة وتكتيكات مضادة . فلكل حرب وخطة حرب وسلاح حرب ، وهذا أمر طبيعى تماما، مفاجـأة واحدة فقط تزول بعد أول مرة من حدوثها أو استخدامها ، ويتعين فى المرة الثانيـة تعديلها وتطويرهـا أو تجديدها حتى تصبح مفاجأة من جديد . مثال ذلك استخدامنا الثورى الرائد للمشاة والمشاة

الميكانيكية والصواريخ والقواذف المضادة للدبابات وللطائرات بكثافة وفاعلية وطرق غير تقليدية .

وليس مما لا مغزى له بالتأكيد أن العدو قد ركز تسليحه الجديد على مثل هذه الصواريخ والأسلحة بالذات . كما يعيد النظر فى اعتماده المطلق على الطائرة والدبابة ، ويحاول التعويض بالاهتمام بالمدفعية وتنسيق القوات المشتركة وبالعمليات الخاصة «التى نسوها .. والتى امتاز بها الجيش الاسرائيلى فى السنوات السابقة .. الخ» . ولهذا ولغيره فان علينا أن نبتكر ونطور أساليب وتكتيكات جديدة للمعركة القادمة وأن نعد مفاجآت بكرا جديدة بل وأسلحة جديدة للعدو ، وفى الوقت نفسه أن نتحسب لمفاجآت مضادة جديدة من جانبه فى كل هذه المجالات . ان أية حرب ، باختصار ، لا تشبه سابقتها . وكل هذا يجعل عبء المعركة القادمة وخطرها أشد وأكبر بلا جدال من معركة أكتوبر .

الى هذا المدى اذن ستكون المعركة الخامسة فاصلة وحاسمة وحرب حياة أو موت أكثر من أى وقت مضى أو معركة سبقت . وما دام الأمر كذلك ، فلابد من مواجهة شجاعة وأمينة مع النفس ، فلا نكرر أخطاء الماضى بل نستفيد منها ، ونستفيد منها بأن نواجهها بغير خداع للنفس .

وإذا كان من المعلن والمعلوم أن كل دول العالم الآن عاكفة على دراسة حرب أكتوبر وتحليل أحداثها ونتائجها ، فلا ريب أن العدو الاسرائيلى هو اكثر من يفعل ذلك كما لاشك أنه سيكون أكثر المستفيدين من دروسها والمتعلمين من أخطائها ، أخطائنا نحن ولكن أخطاءه هو أكثر غير أننا بالدرجة نفسها ، بل بقوة أكثر ، ينبغى أن نكون الأكثر افادة من نجاحاتنا وأخطاء العدو فيها ، ولكن أكثر منها نجاحاته هو واخطائنا نحن فيها . كل أولئك بتواضع وتجرد وتصميم وانفتاح وبعيدا عن أى محاولة لخداع النفس .

و على هذا الأساس فاذا كان ثمة درس أساسى واحد ووحيد يمكن ويجب أن نتعلمه من تجارب الماضى ومعاركه ، وخاصة معركة أكتوبر ، فهذا الدرس هو بالدقة ألا نتجاهل الدروس الحقيقية لتلك المعارك لأى غرض سياسى أو دعائى أو معنوى مهما بدا وجيها أو ملحا أو غلابا . لقد كان جزء كبير من السبب فى هزيمتنا فى ١٩٦٧ أننا تجاهلنا ، عن عمد ربما ، وبقصد الدعاية المعنوية غالبا ، أننا هزمنا عسكريا فى مواجهة اسرائيل فى ١٩٥٦ قبل التدخل البريطانى - الفرنسى . ولو أننا كنا قد واجهنا الحقيقة بدون حرج أو

اخفاء أو ادعاء ، ولم نقلبها دعائيا قلبا تاما ، وبدلا من ذلك عملنا فى صمت على الافادة من درسها عسكريا ، لكانت هزيمتنا فى ١٩٦٧ أقل حجما بالتأكيد على أقل تقدير .

والآن فلقد انتصرنا فى ١٩٧٣ بلا شك ، ولكن بلا شك أيضا فان نصرنا كان محدودا ، وكان الجزء الأخير من المعركة فى غير صالحنا الى حد أو آخر ، وكما ينبهنا الاستاذ هيكل فى إلماعة عابرة ولكنها ثاقبة ولماحة ، فليس من مصلحتنا قط، مهما كانت دواعى ودوافع الحرب النفسية والمعركة المعنوية والاعتبارات الدعائية ، أن نخدع أنفسنا أو ندفن رءوسنا فى الرمال . وليس لنا ان نكرر بصورة عكسية خطأ العدو بعد ١٩٦٧ حين اعماه الغرور وزهو النصر فعمى عن اخطائه وتعلمنا نحن من أخطائنا .

فهناك أخطاء وعيوب وقعت فى أكتوبر ، كما تكشف أن هناك جوانب تفوق للعدو لم تزل قائمة لم تسحق . والعلامات على ذلك واضحة لمن يريد أن يراها . فمثلا اذا كانت خسائر اكتوبر لجميع الاطراف - كما اعلنها الرئيس السادات بنفسه وهى ٣٠٠٠ دبابة وكان الإجماع ان خسائر العدو هى ١٠٠٠ دبابة ، فإن معنى ذلك ان خسائر العرب هى ٢٠٠٠ دبابة ، أى ضعف العدو . كذلك فلنذكر ما كتبه الرئيس حين قرر قبول وقف اطلاق النار الى زميله الرئيس السورى من أنه «لايستطيع أن يتحمل المسئولية التاريخية لتدمير قواتنا المسلحة مرة أخرى» .

وهكذا وهكذا الى آخره . وليس فى هذا كله اساءة الى ، أو انتقاصة من ، انجازتنا وانتصارنا اطلاقا ، ولا هو انهزامية بالتأكيد ، لكنما نحن نقول ان العدو ضار ما يزال ، ولن يسلم بسهولة وسوف يبادر الى القتال بالمبادأة والمفاجأة والخداع ، وعلينا أن نرتب أنفسنا على ذلك وعلى ضوء ما كشفته سلبيات ١٩٧٣ من جانبنا قبل جانبه .

ومن حسن الحظ لاشك أن قيادتنا على وعى تام وعلى مستوى المسئولية ، فلقد أعلن الرئيس بنفسه ومبكرا أن هناك أخطاء حدثت بالفعل ، وخاصة فى عملية الثغرة . وبالمثل فعل القائد العام من بعده ، مؤكدا أكثر من مرة أن المعركة لم تنته بالنسبة لنا على الاطلاق ما دام هناك جنود العدو فى سيناء ، وأن فى حساباتنا قيام العدو بمفاجأة غدر لنا ، وأننا نستعد على أساس الدروس المستفادة من حرب أكتوبر . «لقد قمنا بعمل عظيم وضربنا المثل فى الفداء والبطولة ، ولم يتملكنا الغرور . ونحن الآن ندرس ونتدارس الأخطاء ونضع الدروس المستفادة ونتعلمها ونعلمها حتى لا نقع فيها مرة أخرى» .

هذا بينما أكد رئيس الأركان أننا «لن نسمح لأنفسنا أن نصاب بسيكولوجية غرور النصر ، لأن هذا الدرس تعلمناه منذ ١٩٦٧ عن الجانب الاسرائيلى كما أن أرضنا لم يتم تحريرها بعد بالكامل» (ذكره كتاب حرب الساعات الست ، تأليف عبد الكريم درويش وليلى تكلا ، القاهرة ، ١٩٧٤) . وفوق هذا كله أعلن الرئيس مؤخرا أن «اسرائيل لن تترك هذه الهزيمة التى لحقتها» . وهذا جميعا ضمان بأن شيئا لن يترك للمصادفات أو المفاجآت .

ومن حسن الحظ أكثر أن قيادتنا أيضا قد أعدت نفسها لكل الاحتمالات واستعدت لأشرس لقاء . فكما أعلن الرئيس ، مرة أخرى ، «اننا مستعدون الآن لأية احتمالات ، وان رقم الدبابات الموجودة فى غرب القناة والمستعدة للعبور فورا اذا اقتضت الضرورة رقم مذهل» . هذا بينما أكد القائد العام «أننا أقوى الآن مما كنا عليه يوم بدء الهجوم فى ٦ أكتوبر واننا قادرون على العودة الى الضفة الشرقية اذا استدعى الموقف ذلك» .. «وان لدينا الآن الخبرة التى تضاف الى قوتنا» .

حل سياسى أم عسكرى ؟

يبقى علينا الآن فى ختام هذا الفصل أن نتساءل عن التكييف أو التشخيص الاستراتيجى العام للموقف الراهن واحتمالاته . ما هى طبيعة الموقف وما طبيعة الحل الممكن ؟ أهو الحل السياسى أم العسكرى ؟ وما هى حقيقة كل ؟ هل يتعارضان أم يمكن أن يتزاوجا ، والى أى مدى ؟ هل المقابلة بين الحلين هى – أصلا – مجرد مقابلة سطحية لفظية أم هى استقطاب جذرى لاحتمالات أى صراع ؟ وما هى احتمالات الحل السياسى وامكانياته قبل أن تلجئنا الوقائع الى حتمية الحل العسكرى ؟

اذا بدأنا بالسؤال الأخير ، فان من الممكن أن نصنف الحل السياسى ابتداء ونظريا الى خمسة احتمالات أو أنواع ، نستطيع أن نختزلها أو نستبعد بعضها تباعا حتى نحصر أكثرها احتمالا أو امكانية . تلك الاحتمالات هى : الحل الاسرائيلى ، الحل العربى ، الحل الدولى ، الحل الأمريكى – السوفيتى ، الحل الأمريكى .

فالأول أسوأ الحلول جميعا ، والثانى أسماها . و لذا فهما الى أقصى حد على طرفى نقيض ، ولكنهما أيضا كما ثبت حتى الآن مستحيلان . فالحل الاسرائيلى ، الذى بدأ بعد يونيو قريب المنال وكان العدو يحارب كل الحلول الأخرى ليفرضه علينا ، قد أصبح الآن

فى ذمة التاريخ بل فى سلة مهملاته والى الأبد . أما الحل العربى الذى بعث أكتوبر الأمل فيه فما زال أيضا بعيد المنال لأنه يستدعى أن نكون فى مركز قوة وتفوق مطلق ، ولذا فهو غير وارد فى المرحلة الحالية على الأرجح ويحتاج لفرضه الى إعمال القوة العسكرية المنتصرة من جديد .

أما الحل الدولى ، فى ظل الأمم المتحدة ومجلس الأمن وبرعايتهما نظريا ، فلا يمكن واقعيا الا أن يكون بإرادة وتعاون القوتين الأعظم . وهذا يعنى أساسا استبعاد أو تحديد دور دول أوربا الغربية ، وخاصة فرنسا وبريطانيا والواقع أن هناك معركة خاصة حول هذا الدور . فكل من أمريكا واسرائيل لأسباب مختلفة تحاربه ، بينما تريده وترحب به الدول العربية وكذلك الاتحاد السوفيتى . ولهذا فان الحل الدولى ليس عمليا الا الحل الأمريكى – السوفيتى . ولايعدو أن يكون تسمية رقيقة ولكنها غير دقيقة له .. وعلى هذا يحسن بنا استبعاده هو الآخر ، أو اختزاله فى الثانى كأمر واقع ، أما هذا الأخيرالحل الأمريكى – السوفيتى ، فالأغلب أنه لا يمكن أن يتجاوز حدود الحلول الوسطى ، ولذا لا ينتظر أن يحقق كل مطالبنا تماما .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن الحل الأمريكى ، الذى كان حتى وقت قريب يكاد يرادف الحل الاسرائيلى ، ولكنه الآن ابتعد عنه بقدر أو بآخر ، دون ان يتطابق تماما على الأرجح مع الأهداف العربية . وهناك الآن صراع حاد بين الحلين الأخيرين وشد وجذب بين طرفيهما . فأمريكا تحاول أن تحتكر امكانية الحل ويبدو أنها حققت فى ذلك نجاحا كبيرا ، بينما يحاول الاتحاد السوفيتى ألا تنفرد أمريكا بالعمل وأن يترك الحل الأمريكى مكانه لحل أمريكى – سوفيتى مشترك (أعلن برجنيف مؤخرا بتصميم واضح أن «الاتحاد السوفيتى يعتزم المساهمة الايجابية فى كل مراحل التسوية السلمية فى الشرق الأوسط» .

وعلى أية حال ، وأيا كان التصنيف الذى سيسود ، فالخلاصة الواضحة من هذا التحليل هي أن احتمالات الحل السياسى ليست مشجعة جدا ، أو هى على الأقل لا تحقق الحد الأدنى ، ودعك من الأقصى ، من الحقوق والمطالب العربية . وهذا ما ينقل البؤرة الى الحل العسكرى وامكانياته أو احتمالاته . غير اننا قبل أن نفعل نحتاج الى تحديد للعلاقة بين الحلين السياسى والعسكرى ومدى صحة المقابلة أو التداخل بينهما .

لابد من البداية أن نقرر بوضوح أن المقابلة بين الحلين ليست مسألة تصنيف نظرى أو شكلى ، وليس أبعد منها عن السطحية أو اللفظية كذلك ، رغم ما حاوله البعض من تمييع للتفرقة بل ورفض لمبدأ المقابلة بينهما وانما الحل السياسى والعسكرى هو التعبير المركز عن المعالجة النهائية لأى صراع دولى أو مصيرى ، تبناه العالم فى أكثر من مشكلة وردده كل قادته فضلا عن الصحافة العالمية ووكالات الأنباء حتى اصبح من مفردات قاموس السياسة المقررة . وانما يقع الخطأ حين يقع الخلط بينهما دون تمييز علمى أو تحديد موضوعى . فالبعض يميز بين حل دبلوماسى وحل سياسى ، والبعض الآخر يجعل الحل السياسى مزيجا من السياسة والحرب ، فى حين يعتبر الحل العسكرى حربيا صرفا . وبذلك تخرج كل التعريفات متميعة غير جامعة ولا مانعة .

فأولا ، ليس ثمة شيء يسمى أو يمكن أن يسمى الحل الدبلوماسى . فانما الدبلوماسية مرحلة أولية من السياسة ، وان هى إلا الأداة التنفيذية للسياسة ، وهى بالنسبة لها خارجيا كالادارة داخليا . أما مفهوم الحل السياسى كخليط عام من الضغوط السياسية والاقتصادية والدعائية والعسكرية فمفهوم يستدعى التحفظ لأن أساس التصنيف فيه مخلط لا صرف ، فى حين أنه يعود فيفسر الحل العسكرى على أساس تصنيف صرف بأنه استخدام القوة العسكرية لتحقيق الهدف السياسى من البداية الى النهاية ولفرض الارادة على العدو حتى يستسلم بلا قيد ولا شرط . وبهذا فان أساس التصنيف غير موحد فى التعريفين ، يغير قواعد اللعبة أثناء اللعب اذ لماذا لا نفترض على نفس الأساس المنطقى واللغوى أن الحل السياسى هو بالسياسة وحدها من البداية الى النهاية كذلك ؟ والحل السياسى بذلك المفهوم هو حل خلاسى أكثر مما هو حل سياسى .

هذا من الناحية المنطقية . أما عمليا فان فكرة الحل السياسى سواء بالمفهوم الصرف أو المخلط تتجاهل تماما طبيعة الصراع المطروح اولا وطبيعة العدو الاسرائيلى ثانيا . وفى مرحلة ما بعد يونيو كان من الواضح أن هناك اما حلا سياسيا، واما حلا عسكريا ، أو لا حل على الاطلاق . وكان الأول يعنى – بشروط العدو – الاستسلام الكامل أو شبه الكامل ، وهذا مستحيل . وكان اللا حل يعنى سنة ١٩٤٨ أخرى ، بينما كنا نريدها نحن سنة ١٩٥٦ أخرى ، وكان الكل مستحيلا . ولقد كانت الفكرة السائدة عن الحل السياسى المختلط فى ذلك الوقت هى أننا يمكننا أن نبدأ معركة عسكرية محدودة لنكبد العدو أكبر

قدر من الخسارة الموجعة والمؤثرة ، ترهقه وتستنزفه ، وتنتزع منه موطىء قدم أو رقعة محدودة من سيناء أو الأراضى المحتلة عموما بحيث يضطر العدو ازاء ضغط العالم سياسيا الى القبول بمبدأ الانسحاب الشامل عن بقية الأراضى المحتلة جميعا . ولكن كان من المتصور جدا أن يرفض العدو الانسحاب رغم القرار الدولى ، تماما كما هو الموقف اليوم .

فرغم أن انجازات أكتوبر العسكرية المجيدة تتعدى أعرض أحلام ما بعد يونيو عند البعض من أصحاب الحل السياسى المختلط ودعاته ، فمن الواضح أنها على ضخامتها وخطرها لم تصل بعد الى حد ارغام العدو على القبول بالانسحاب الكامل . والواقع أن ما حدث هو كما شخصنا سابقا نصف معركة ونصف نصر وقد أثبتت التجربة حتى الآن انه ليس ثمة حل سياسى ولا نصف حل سياسى وإذا كان ثمة شىء فلقد أثبتت التجربة فشل الحل السياسى بالمعنى المختلط فضلا عن المعنى الصرف أو إذا كان قد نجح فإنما قد نجح فى أن يثبت أن الحل السياسى يعنى حتى الآن الحل الجزئى. أما أن يسمى أحد معركة أكتوبر وما بعدها من موقف مغلق بأنه حل سياسى أو محاولة للحل السياسى فامر غير مستساغ وغير مبرر ، لا منطقيا ولا فيلولوجيا ، لا واقعيا ولا تاكسونوميا (أى تصنيفا) . فمعركة عسكرية ضخمة بكل هذا المقياس - ٢٠٠٠ دبابة مدمرة ، كمجرد مؤشر فقط - لا يمكن ولا يجوز أن تعتبر مجرد «عملية عسكرية» .

ولا يعنى هذا كله نفى دور العمل السياسى اطلاقا . ولكن العمل السياسى شىء ، والحل السياسى شىء آخر تماما . فالعمل السياسى ضرورة شرطية وحتمية من البداية الى النهاية لتحريك القضية دوليا والاحتفاظ بسخونتها . على أن العمل السياسى لم يكن ليتعدى وظيفتين اثنتين لا ثالثة لهما : كسب الوقت لاعادة البناء العسكرى ، وكسب الرأى العام العالمى لخلق المناخ الملائم للمعركة . أى أن العمل السياسى هو أساسا خدمة للحل العسكرى ، وليس خطوة الى الحل السياسى . ولقد كان من الواضح تماما منذ البداية أن ما أخذ بالقوة ، بالقوة وحدها يسترد ، وأن الحل هو فى الدرجة الأولى مسئولية وزارة الحربية لا وزارة الخارجية ان صح التعبير .

فالعدو ، حتى بعد انتصارنا الجزئى ، يرفض أن يعترف بحقائق القوة الجديدة وخريطة القوة الجديدة ، ولا يريد أن ينسحب الا من جزء فقط من الأراضى المحتلة .

وليس هذا حلا ، وانما - فرضا - مساومة والقبول به تسليم . وعلى هذا فسوف يتعين علينا أن نبدأ الضغوط العسكرية من جديد لتؤتى ثمارها السياسية بالمزيد .

فما هو بالضبط معنى هذا ؟ معناه بالدقة ، ومعناه الوحيد ، أننا لسنا إزاء حل سياسى حقا ، وانما فى الواقع ازاء حل عسكرى ولكنه مجزأ على دفعات بالقطاعى الطويل الأجل أو التقسيط المريح ولكن ربما غير المربح . وهذه هى الترجمة الواقعية والعلمية لمفهوم الحل السياسى المختلط المفترض : مجرد جرعات متباعدة من الحل العسكرى تفصل (أو تصل) بينها نوبات من العمل السياسى لا تحل من القضية أكثر مما يقدم العمل العسكرى نفسه .

ولكن لأننا ننظر الى كل مرحلة أو جولة من الصراع أو معركة فيه على حدة نظرة جزئية ضيقة مباشرة ومقتطعة ، يبدو لنا الموقف وكأنه قطعة من الحل السياسى سواء بالمعنى الصرف أو المختلط ، وما هو فى حقيقته حل عسكرى مجزأ بالقطاعى وعلى مراحل يبدو وكأنه سلسلة من حلقات حل سياسى موهوم . والحقيقة أن تحرير الأرض المحتلة والأرض السليبة فى فلسطين وعودة حقوق الشعب الفلسطينى كهدف أساسى ونهائى ، اذا كان حتما أن يتحقق عن طريق سلسلة متداخلة من العمل العسكرى والعمل السياسى على امتداد عقود قادمة ، فهذا ليس معناه حل سياسى على مراحل وانما بالأحرى والأصح حل عسكرى على مراحل . وغير هذا هو ، كخداع أرسطو ، خداع فى الرؤية ، ولا نقول فى الرأى .

ومعنى هذا فى النهاية أنك لن تنتزع أرضا من العدو الا بمقدار ما تنزعه منها وتخلعه عنها . العدو لن ينسحب الا بمقدار ما تزحزحه أنت شبرا ؛ بمقدار ما تسترد من أرض ستجمد الوضع ، ولن تسترد كل سيناء أو الجولان فضلا عن القطاع والضفة والقدس اذا أنت حررت بالقوة نصفها مثلا . انه ليس ثمة نصف حرب ، وكذلك ليس ثمة نصف حل عسكرى .

لماذا ؟ - لأن الأمم المتحدة التى أصدرت قرار ٢٤٢ ، الذى يشمل الانسحاب ، ثم عجزت عن تحريكه بوصة واحدة لن تنجح فى تنفيذ قرار جديد مشابه ،ان قلت رقعة النزاع الأرضية وضمن التنفيذ العملاقان . وليس من المتصور أن ترغم أمريكا على حدة أو مع الاتحاد السوفيتى اسرائيل على الانسحاب الشامل عن كل الأراضى المحتلة . وبعد

ذلك فليس هناك قوة عظمى على استعداد وحدها لأن تأخذ القانون فى يدها لتنفيذ القرار. عليك وحدك – علينا – أن نتم الشوط الى نهايته ، أو تقنع – وهذا غير وارد – بما أمكننا استرداده . ولهذا فليس لنا أن نبدأ المعركة الا ونحن قادرون ومصممون معا على انهائها تماما . انه لا بديل ، مع العدو الاسرائيلى أكثر منه مع أى عدو آخر ، عن الحل العسكرى الكامل من البداية الى النهاية أو على أحسن تقدير حتى قرب النهاية .

أليس هناك اذن من مجال للتكامل بين الحلين السياسى والعسكرى ؟ بلى ، وانما فى مجال وبمفهوم آخرين . بل هذا التكامل حتمى وضرورى الى اقصى حد وصولا الى الأهداف العربية المصيرية العليا ، فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد – البعيد أكثر . فليس صراعنا مع اسرائيل وحدها ، ولكن أيضا ورغم التحولات الأخيرة مع أمريكا من خلفها . فاذا كان الحل العسكرى هو الممكن الوحيد مع اسرائيل ، فان الممكن الوحيد مع امريكا هو الحل السياسى . وبه تقصد تحييدها ، لا سياسيا فقط كما بدأ يتحقق أخيرا ، ولكن أيضا وأساسا سلاحيا وتمويليا ، بل وان أمكن اخراجها من الصراع كله كحد أقصى ، وان كان هذا الأخير متروكا للمستقبل البعيد وغير واردس فى المرحلة الراهنة . وهذا ما ينقلنا الى قضية مستقبل الصراع ككل .

الفصل الحادى عشر

مستقبل الصراع

لكى نتصور مسار الصراع فى المستقبل ، يحسن بنا رغم خطر التكرار ، وأكثر منه خطر الايجاز المخل ، أن نعود إلى الحقائق الأساسية فى القضية وأولياتها الأولية ، تلك التى لا ينبغى أن تغيب عن الأنظار لحظة حتى لا نفقد وضوح الرؤية تحت ثقل اللحظة العاجلة مهما بلغت كثافتها أو ضغوطها .

مبادىء الصراع الأولية

فالصراع ، الذى هو مفروض علينا لم نسع إليه ، هو إلى أقصى حد صراع مركب معقد لا بسيط أو مباشر ، إذ أنه متعدد الأبعاد والمستويات و الأهداف . فهو أولا صراع بقاء وقوة معا ، أى صراع وجود ومصير فى الوقت نفسه ، ثم هو بدرجات متفاوتات ومن جانب أحد الطرفين على الأقل صراع حضارات كما هو صراع أجناس ، وصراع قوميات مثلما هو صراع أديان ، وميدانه جغرافيا يبدأ من المجال المحلى ليمتد إلى أطراف الأرض تقريبا ، أما تاريخيا فامتداده يشمل الماضى والحاضر ليستمر طويلا فى المستقبل البعيد .

كذلك اطرافه تتعدد ، ما بين الفلسطينيين والعرب فى جانب ، وجبهة الصهيونية العالمية - الامبريالية العالمية وبخاصة محور اسرائيل - الولايات المتحدة فى جانب آخر . بل فوق هذا كله فلقد تشابك صراعنا - أردنا أم لم نرد - فى خيوط الصراع العالمى بين كتل الاستقطاب ومعسكرات الايديولوجيات وأقطاب القوى العظمى .

لكل هذا فلسنا نغالى إذا قلنا إنه صراع فريد . وقضية فلسطين - اسرائيل أو العرب - الصهيونية لا مثيل لها على وجه الأرض فى الوقت الحالى . حتى قضية جنوب افريقيا لا تشبهها . أما مثيله ففى العصور القديمة الغابرة التاريخية أو قبل التاريخية وحدها نجده ، بل حتى - بأبعاده المركبة تلك - لا نجده . وللسبب نفسه فإنه بسهولة أعقد صراع فى عالم اليوم ، مشحون بأخطر الاحتمالات المتفجرة ، وسيكون أطولها عمرا وآخرها حلا ، والجزء الأكبر منه مؤجل بالضرورة إلى المستقبل البعيد أو غير المرئى .

نحن وإسرائيل

ما بيننا وبين اسرائيل هو اذن «صراع بقاء» من أجل البقاء بالمعنى الخام ، بمعنى أن نكون أو لا نكون حرفيا . فهو ليس نزاع حدود بل صراع وجود ، صراع بين الحق والحقد لا بين حق وحق كما يزيف الصهيونيون ، ومداره النهائى أن نبقى على هذه

الأرض أو لا نبقى . أنها ليست أقدارا متصادمة كما تردد الصهيونية (كتاب كيمش مثلا) بقدر ما هى أقطاب متنافرة كما يقول المفكر القومى والكاتب السياسى الكبير الاستاذ كامل زهيرى فى إحدى دراساته الرائدة عن القضية الفلسطينية .

ذلك أن أحلام العدو القديمة وخططه المعلنة فى امبراطورية النيل - الفرات معناها بالضرورة تفريغ المنطقة من سكانها وأصحابها الشرعيين بالتدريج ، أى هى الابادة فى النهاية وان لم تبد كذلك فى مراحلها الأولى المباشرة . ومن ثم فإن التعايش السلمى بين الطرفين مستحيل بالطبع ، لأن هذه الأرض لا تتسع لهما معا .

ولأن التعايش السلمى بين اللص وصاحب البيت مستحيل ، إلا أن يتحولا إلى قاتل ومقتول ، فلكى يبقى أحدهما لابد للآخر أن يذهب . وكل اسرائيلى فهو - بالتعريف - صهيونى ، وكل صهيونى فهو - بالضرورة - من الصقور ، ليس هناك حمائم حقا إلا أن تكون من أبناء آوى تقبل بما تلقى إليها به الصقور من بقايا ورمم . وليس هناك بالتالى «صقور يرتدون ثياب الحمائم ، وحمائم يرتدون ثياب الصقور كما يزعم أبا إيبان ، ليس هناك صقور يمكن لكيسنجر أن يكسر مناقيرها أو حمائم يرجو أن يضع مخالب فى أرجلها .

والعدو من جانبه على بينة تماما من مغزى هذا التناقض الوجودى ، وكان يرتب عليه نواياه بكل وعى ، بل ولم يتورع عن إعلانه بصورة سافرة مثلما هى كاشفة . فاكثر من قائد من قادة اسرائيل - شيمون بيريز مثلا - حدد الصراع الحتمى فى بعض كتاباته بأنه «صراع بيولوجى» «كذا» أى أنه تصفية جسدية : ابادة جنس يعنى genocide ! ان الصهيونية ، كما يقول الكاتب العربى السورى الواعى صفوان قدسى ، هى أعلى مراحل الاستعمار .

وهذا بالفعل كان أسلوب اسرائيل ومفهومها الذى تكشف بالتدريج بمذابح ما بعد ١٩٤٨ ، ثم يونيو ١٩٦٧ خاصة فى غزة . أما منطقها الكامن فهو أن الصراع صراع أجناس Rassenkampf ، ليس حتى بالمعنى العنصرى النازى ، ولكن بالمعنى البدائى المكابى (المكابيون طائفة من أشد طوائف يهود فلسطين الرومانية دموية وسفكا للدماء) .

كل أولئك مع العلم بأن عدونا ليس جنسا أكثر مما هو قومية ، مهما توهم أو أدعى فى الحالين ، فان هو أنثروبولوجيا إلا اشتات وأخلاط من كل أجناس العالم تقريبا . أما

قوميا فليس له من مقومات الأمة أو شبه الأمة أدنى نصيب . إنما هو طائفة دينية بحت ، تعيش بعقلية وقبلية وبدائية العصور القديمة المتحجرة ، وتتصرف بنفسية وأساليب العصور الوسطى الصليبية .

نحن وأمريكا

ما بيننا وبين أمريكا ، بعد هذا ، هو (أو كان؟) «صراع قوة تاريخى» ، وما بين أمريكا واسرائيل هو «لقاء مصالح تاريخى» . فأمريكا ، كقمة الرأسمالية وكوريثة الاستعمار القديم وزعيمة الاستعمار الجديد والامبريالية العالمية منذ الحرب الثانية ، كان حتما أن تتصادم مع القومية العربية فى صراعها التاريخى من أجل التحرر والخروج من التبعية ومناطق النفوذ ثم من أجل الوحدة والتنمية والتحول إلى الاشتراكية ، فليس من مصلحة الامبريالية الامريكية كقوة عظمى عالمية أن تظهر فى أى منطقة ، فى هذه المنطقة الحيوية بالأخص ، قوة جديدة كبيرة .

ومن الناحية الأخرى فقد كان التقاء الولايات مع اسرائيل أكثر من قدر محتوم ، فهو لقاء مصالح تاريخى ينبع من وحدة النشأة ووحدة الايديولوجية ووحدة العدو . . فأما وحدة النشأة فان اسرائيل إنما نشأت بالهجرة والاستطيان والاحلال واغتصاب وطن من أصحابه الشرعيين التاريخيين بالقوة وبدعاوى التفوق العنصرى والحضارى .. الخ ، تماما مثلما نشأت الولايات المتحدة من قبل كأمة من المهاجرين وانتزعت وطنا – قارة برمته من سكانه الأصليين بالإبادة والاحلال على أساس من تفوق القوة والحضارة والعرق .. الخ . فالنموذج واحد ، واسرائيل ليست إلا تصغيرا للولايات المتحدة من حيث النشأة فضلا عن وحدة الجنس وتجانس الأصل الأوربى .

وبأوهام الرجل الأبيض وبعقلية الهنود الحمر ، فان الولايات تنظر إلى اسرائيل فى العالم العربى كما لو كانت أمريكا جديدة فى قلب العالم القديم وقلب القرن العشرين ، بينما تنظر اسرائيل بدورها إلى العرب كأنهم الهنود الحمر الجدد وبعقلية الاستطيان الأمريكى . ولقد قيل ان أمريكا هى اسرائيل الكبرى بينما أن اسرائيل هى أمريكا الصغرى ، وهو تشبيه صحيح جدا فى أكثر من معنى .

أما عن وحدة الايديولوجية فيكفى الاشتراك فى تركيب المجتمع الرأسمالى والانتماء إلى «العالم الحر» المزعوم ونظام الحياة الواحد . وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير إلى

الكليشيهات المأثورة عن اسرائيل «كالموقع المتقدم» «ورأس الحربة» للحضارة الغربية ، «وحدودها الريادية» على ضلوع الشرق ، «وكواحة التقدم» «ومنارة الحرية» فى بحر التخلف والاقطاع .. الخ .

أما وحدة العدو فإن العداء للقومية العربية هو بوضوح القاسم المشترك الأعظم ، فى حين كان يضيف الصراع الأمريكى - السوفيتى إلى هذه العلاقة بعدا آخر لم يكن يقل أهمية وخطرا . لهذا فقد وجدت الولايات منذ البداية فى اسرائيل حليفا طبيعيا متلهفا بقدر ما هو مقتدر نسبيا . وبقدر ما كانت اسرائيل تتهافت على وضع نفسها فى خدمة الولايات كعميل ووكيل وأداة فى المنطقة لأغراضها الأقليمية والعالمية ، فان الولايات كرجل بوليس العالم وجدت فى اسرائيل رجل البوليس المحلى - الخفير الصغير - الجاهز والفعال الذى «يؤمن» لها المنطقة بالتهديد والعربدة ويضمن لها فيها قاعدة راسخة إلى الأبد ، ولهذا لم تتوان منذ البداية إلى النهاية عن تجنيدة لحسابها كقوة ضاربة مرتزقة ، «كدولة مرتزقة» ، فأمدته بكل أسباب التأييد المعنوى والسياسى والمادى والاقتصادى ، ثم دججته مباشرة وغير مباشرة بكل سلاح حتى جعلت منه ترسانة مسلحة حقيقية وقلعة عسكرية مكثفة وبؤرة عدوان مزمنة .

من هنا وهناك جميعا ذلك التطابق التام والوحدة شبه المطلقة ، رغم بعض الاختلافات الثانوية بل والخلافات السطحية ، بين السياسة الأمريكية والاسرائيلية فى استراتيجية السياسة العالمية . وهى وحدة عضوية حميمة كما هى محمومة ، ولا انفصام لها - كما ثبت عمليا - فى ظل هذه الاستراتيجية وما لم تتغير هذه الاستراتيجية . وكل التعبيرات الشائعة عن اسرائيل من أنها «الولاية الحادية والخمسون» ، أو «الولايات عبر البحار» ، أو «أعظم رقعة أرض تمتلكها الولايات كسفارة لها فى الخارج» ، أو «أكبر فرقة ضاربة للجيش الأمريكى خارج الحدود» ، أو «حاملة الطائرات الامريكية غير القابلة للغرق» ، هى أكثر من مجرد مقولات مجازية براقة أو مبالغات لفظية مثيرة . اسرائيل ، باختصار ، ان لم يكن امتدادا سياسا للولايات المتحدة فانها على الأقل امتداد سياسى ليهودية الولايات المتحدة هم الدولة الأم وهى مستعمرة ما وراء البحار .

ومن الجهة الأخرى فان امريكا كانت تكاد تبدو أحيانا فى سلوكها ومزاجها وسياستها صهيونية أكثر من اسرائيل ، ان لم نقل اسرائيلية أكثر منها أمريكية. ولقد

قيل بحق كبير ان هناك «اسرائيليين» : واحدة فى وسط الشرق الأوسط ، وأخرى أكبر فى شمال شرق الولايات المتحدة . هذا بينما وصف الاسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط مرة بأنه «الاحتياطى الاستراتيجى لاسرائيل» . ومرة بأنه «اسرائيل العائمة» .. الخ .

لهذا كله فان مصير صراعنا يتوقف على مدى نجاحنا فى فك وخلخلة هذه العلاقة أن لم يكن تحطيمها تماما . وهذا كان يستدعى حتما المواجهة السياسية مع أمريكا . وإذا كنا قد ألفنا أحيانا أن نقول : على أمريكا أن تختار بيننا وبين اسرائيل ، فان الصحيح هو أن نقول : علينا نحن أن نختار بين أمريكا وبين فلسطين . ولقد كان هذا بالدقة ما حدث فى أكتوبر . لقد تمت ، فى أكتوبر ، مواجهة حقيقية بيننا وبين أمريكا ، نجحنا فيها فى ارغامها على تغيير استراتيجيتها والسعى إلى صداقتنا . والبقية سوف تأتى .

بين أمريكا واسرائيل

إن المجال هنا لا يتسع لتحليل هذه العلاقة باستفاضة وتفصيل ، ولكن حسبنا أن نتحسس اتجاهات العصر وتيار التاريخ ومتغيرات العالم لنعرف وضعها وموضعها المحتملين فى المستقبل . فيماذا تشى هذه الاتجاهات والتيارات والمتغيرات ؟ بثلاث ، نوجزها مقدما فى رءوس موضوعات : أولا ، هز كيان اسرائيل هزا عنيفا مزلزلا . ثانيا ، هز مكانة وقوة الولايات المتحدة هزا حرجا مؤثرا . ثالثا . هز العلاقة العضوية بين الاثنتين هزا مقلقا ومنذرا .

فأما اسرائيل فقد أثبتت المعركة أكثر من أى شىء آخر وأكثر من أى وقت مضى تبعيتها الكاملة لأمريكا وأنها حقيقة إحدى ولاياتها عبر البحار . لقد نجت اسرائيل هذه المرة بمعجزة أمريكية ، ولكنها بالدرجة نفسها كشفت حقيقتها كدولة غير مستقلة وعالة ، كل مصادر حياتها ابتداء من خبزها اليومى حتى أمنها القومى أو من رغيف الخبز إلى القنبلة التليفزيونية ، مستوردة من الخارج وليست مستمدة من عند نفسها .

واعتماد اسرائيل المطلق كدولة دخيلة على الولايات المتحدة كدولة أجنبية حامية ليس ظاهرة جديدة بالطبع ، ولكنه يكشف عن ظاهرة قديمة جدا وأصيلة فى الوجود اليهودى أو الصهيونى عبر التاريخ . تلك هى أن هذا الوجود ، كالطفيليات فى عالم الحيوان والمتسلقات فى عالم النبات ، كان لابد له دائما من قوة حامية يعيش فى كنفها ويعتمد

عليها ، يضع رقبته تحت أقدامها لتضع هى أقدامه فوق رقاب الآخرين . فى العصر الحديث ، إذا بدأنا بالصورة القريبة ، تنقلت الصهيونية فى تبعيتها وعمالتها لمركز القوة الأعظم السائد أو أى مركز مسيطر يمكن أن تبيع خدماتها له : من تركيا العثمانية إلى ألمانيا القيصرية إلى بريطانيا ثم أخيرا إلى أمريكا .

غير أن هذا لم يكن إلا الترجمة العصرية لظاهرة «يهود البلاط» القديمة . ففى مجتمع العصور الوسطى كان اليهود يضعون أنفسهم فى خدمة أمير المدينة أو ملك الدولة كجماعة عميلة لحسابه الخاص ، تقع تحت رحمته التامة وفى مقابل ذلك يتمتعون بحمايته ليمارسوا النفوذ والتسلط على طبقات المجتمع العاملة . وإذا كان هذا الوضع يعطيهم ميزات عديدة يحولونها إلى ابتزاز واساءة استغلال للغير والأغيار ، فقد كانوا من الناحية الأخرى معرضين لقهر الحاكم أو استغنائه فى أية لحظة ، بالطرد والنفى ، بالقتل ، بالمصادرة ، بالاغتصاب .. الخ .

واليوم فان اسرائيل ليست بالدقة إلا يهود البلاط الجديد فى العالم المعاصر الذى تمثله أمريكا . أمريكا هى بلاط العالم ، واسرائيل هى يهود بلاط امريكا : عميل تابع مطلق لأمريكا يخضع لتبعيتها وسيادتها فى مقابل أن تؤمن له اخضاع العرب لقهره هو وتسلطه وابتزازه . لقد باعت اسرائيل نفسها كعبيد خصوصيين لأمريكا فى مقابل أن تقدم لها العرب بدورهم كعبيد خصوصيين ..

وكدولة استعمارية مزروعة ومصطنعة تماما ، يستحيل على الباحث العلمى أن يطبق على اسرائيل دورة فالكنبرج الجيوبوليتيكية الشهيرة فى نشأة وانحدار الدول على نحو ما طبقنا مثلا على الدول العربية . أنها تعيش فى حالة حقن صناعى منتظم ، وتحت خيمة أو كسجين دائمة ، وفى ظل صوبة زجاجية باستمرار . انها ليست كائنا عضويا بقدر ما هى كيان ميكانيكى ، فلا دورة حياة لها من طفولة فشباب فنضج ثم شيخوخة كما تنقضى بذلك نظرية فالكنبرج . وإنما هى ستتحطم وتنهارفجأة وبلا مقدمات وفى ضربة واحدة فقط ، فقط حين تتوفر مثل هذه الضربة . ولقد عبرت اسرائيل فى أكتوبر خط الزوال كما رأينا ، ولم يبق لها من صديق سوى أمريكا .

غير أن أمريكا بدورها ليست أسعد حظا بكثير فى عالم القوة المتغير ، ولعلها هى الأخرى قد أوشكت أن تعبر خط الزوال ، أو أننا نشهد دورة كاملة من قيام واضمحلال

القوة الأمريكية الهائلة . بل ان كثيرا من الباحثين يتنبأون بأن أعظم امبراطوريات التاريخ سوف تكون هى أقصرها عمرا ، فلن تعمر أمريكا على قمة القوة العالمية إلا لبضعة عقود أخرى على الأكثر. ومن المسلم به اجماعيا أن أمريكا هى أكثر الخاسرين فى العالم بسبب ظهور تعدد مراكز القوة فى عالمنا المعاصر . ويقدر هرمان كان Kahn مثلا أن احتكارها للسيطرة العالمية مع القطب الأعظم المضاد سينتهى فى ١٩٩٠ بالتحديد أو بالتقريب .

ومن وجهة نظر دورة حياة الدولة الجيوبوليتيكية فان الولايات ، التى دخلت مرحلة أوج الشباب أى التوسع والانطلاق منذ الحرب العالمية الثانية ، ربما شارفت بداية نهاية هذه المرحلة مع حرب فيتنام التى ضعضعتها وهزت مكانتها الدولية حتى خرجت منها مكسورة منكسة الرأس . والآن إذا كانت ملحمة فيتنام هى الصخرة التى تصدع عليها شباب أمريكا المتفجر فى الستينات ، فإن من المحتمل أن تصبح دراما الشرق الأوسط هى الصخرة التى قد يتفتت عليها نهائيا فى السبعينات . ان تكن حرب فيتنام ، بعبارة أخرى، هى بداية نهاية مرحلة الشباب فى التاريخ الطبيعى للدولة الامريكية ، فقد تثبت الأيام أن حرب أكتوبر أو تكملتها هى نهاية النهاية .

فإذا صح هذا التشخيص ، فسيكون معناه بدء دخول الولايات المتحدة ما يسمى مرحلة النضج من عمرها السياسى ، أى فترة الاستقرار ، أى تلك التى تتميز بالكف عن التورط فى المشاكل الدولية بلا تحرج ولا تحفظ ولا رادع ، وكذلك بالكف عن السعى إلى احتكار الصدارة والقوة المطلقة ، وأخيرا بالاكتفاء بما فى يدها والمحافظة عليه دون اللجوء إلى الحروب وسياسة القوة . باختصار ، ستكون المرحلة مرحلة انكماش سياسى وتقليص لدورها الخارجى ، فهل يتحقق ذلك ، وكيف ؟ .

لقد بدأت أمريكا تخسر حرب فيتنام حين انتقلت المعركة إلى قلبها هى نفسها فى الوطن ، ففرضت على المواطنين أن يتساءلوا ، لماذا نحارب هناك ؟ ولعل من المذهل أن نذكر أنهم من خلال الهزيمة اكتشفوا أنهم يحاربون هناك لغير سبب حقيقى! ساعتئذ كان الانسحاب قد أصبح أمرا مقضيا .

بالمثل فى الشرق الأوسط مع اسرائيل . بالبترول بدأت المعركة الممتدة فى الشرق الأوط تنتقل لأول مرة إلى قلب الولايات المتحدة وإلى داخل قلب وعقل كل مواطن أمريكى .

وإذا كان الصرا ع الداخلى ما زال بالكاد فى بداياته الأولى فقط ، جنينيا وعلى استحياء ، ولم يتعد مرحلة المونلوج الداخلى ، فان خط التطور يمكن من قبل التنبؤ به .

فحين تكتمل الملحمة وتشتد وطأتها ، ستكتشف أمريكا تدريجيا وبألم من هو «عبء الرجل الأمريكى» الممض الثقيل ، وأن اسرائيل «ترف سياسى» لا مبرر له من قبل ولا طاقة لها به من بعد . حينذاك ستبدأ فى رأى البعض معركة تحرير أمريكا من الوصاية الصهيونية مثلما حدث فى أوربا سابقا ، وتكتمل بذلك معركة تحرير العالم كله من خطر وخطط الصهيونية العالمية المبيتة للمستقبل البعيد . حينئذاك سيتخلى الأمير عن يهود بلاطه ويلفظهم ويطردهم من رحمته وحمايته لتعود اسرائيل اليهودى التائه من جديد . وحين يحدث هذا ، فسيكون للعرب فضل كبير فى الجزء الأكبر منه ، وهم كلما شددوا النكير بنجاح على التجسيم الصهيونى فإنهم يعجلون بهذا اليوم التاريخى الحاسم والموعود .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أصبحت اسرائيل منذ وقت طويل عالة تقليدية ، ولكنها أثيرة ومدللة ، على أمريكا . غير أنها الآن بعد الهزيمة الأولى تتحول باطراد إلى عبء ثقيل عليها ، وسوف يأتى اليوم - متى لا ندرى ، ولكنها فقط مسألة وقت - الذى قد تجدها أمريكا مشروعا استثماريات خاسرا . عندئذ تتخلخل هذه العلاقة المشبوهة ، لتقف اسرائيل وحدها تقريبا : عارية فى العراء .

ولقد ارتفعت فى اسرائيل أثناء حرب اكتوبر أصوات تقول : نحن بحاجة إلى مساعدة الجيش الأمريكى ، واعتبر البعض أن هذا هو نهاية شعار «ولا جندى أمريكى لحماية اسرائيل» ، بينما اعتبرت مايير أن «أسود يوم فى حياتها» هو إذا جاء اليوم الذى يتعين فيه على اسرائيل أن تطلب قوات أمريكية لمساعدتها . وقد يكون بعيدا هذا اليوم ، وقد يكون قريبا ، ولكن الأسود منه بالتأكيد هو يوم تطلب اسرائيل تلك القوات فلا تجدها ..

وإذا كان التوازن الدولى الراهن بين القوى الأعظم هو سياج أمن اسرائيل الذى يضمن بقاءها ويجمد الأمل العربى ، فيجب أن نتذكر أن التوازن الدولى ، أى توازن دولى، ليس فى حالة ثبات دائم وليس مخلدا ولا مؤبدا ، وإنما هو نمط مرحلى عابر بالضرورة مهما دام . ولن تبقى القوى الأعظم إلى ما لا نهاية على قمة العالم أو

فـــى موضع الحكم والتحكم فى صراع الشرق الأوسط . ونبوءة هيرمان كان عن نهــاية احتكار القوة عام ١٩٩٠ لا تنسحب على أمريكا وحدها وإنما على القـوتين الأعظم معا . يومـها ، أو يوما ما بعدها ، ستتـحرر القضية من قبضـتهمـا ، ونستطيع أن نضع اسرائيل فى مكانها الطبيعى - خارج المنطقة .

وعند هذا المدى من السياق المنطقى نصل إلى نقطة غاية فى الأهمية والدلالة . لقد بدأت مأساة فلسطين وقضية المشرق العربى أو الشرق الأوسط فى أواخر القرن الماضى منذ مؤتمر بازل بل وقبله وهى أساسا مشكلة دولية أو مدولة إلى أقصى حد . فى تلك المرحلة كان البعد الدولى يفوق البعد المحلى أضعافا . وكان هذا هو سبب وأساس نجاح العدو فى الاستقرار على أرضنا العربية السليبة . وبالتدريج ، ومع وعى العرب المتزايد ويقظتهم ثم مقاومتهم ونهضتهم ، أخذت الدول الغربية الكبرى تستبعد واحدة بعد واحدة من التدخل لحساب اسرائيل ، وأخذ البعد المحلى فى الصراع يزداد أهمية ونسبة ، بحيث بدأ يعادل البعد الدولى أو يفوقه ويتفوق عليه كضابط لمصير الصراع .

والآن إذا ما نجح العرب مستقبلا ورويدا رويدا فى ابعاد امريكا عن اسرائيل حتى يتم الفصل النهائى بينهما وتصبح اسرائيل وحيدة فى الميدان ، فحينذاك سيكون البعد الدولى لا شىء تقريبا والبعد المحلى هو كل شىء تقريبا . حينذاك تصبح اسرائيل والعرب وحدهما وجها لوجه ، وينتهى كل شىء . ان خط سير الصراع من البداية إلى النهاية وظيفة مباشرة للعلاقة العكسية بين البعدين الدولى والمحلى . فى البداية كان الأول ١٠٠٪ والثانى صفرا ، أو هكذا بالتقريب ، وحين يصبح الأول صفرا والثانى ١٠٠٪ ، أو هكذا نسبيا ، فسوف تكون تلك هى النهاية ، نهاية العدو .

إن الصهيونية مجرد «غزوة» ، كما أن اسرائيل مجرد «تجربة» ، مهما طالت وأزمنت ومهما كانت دموية متصلبة فيوما ما سوف تفشل وتنتهى . الوجود الصهيونى الدخيل على الأرض العربية قلب صناعى مزروع ، لا يمكن للكائن العضوى الصحى أن يقبله وسيلفظه الجسم الحى يوما ما ، ككل استعمار استيطانى فى العالم . غير أن واجبنا نحن أن نحاصره ونشدد النكير عليه حتى نعجل بعملية اللفظ الحتمية . والمطلوب منا أن نحيل اسرائيل إلى بيئة طرد بشرى ، بلا جاذبية وبلا مرفهات ، بل صعوبات حياة مطردة وخفض مستمر فى مستوى المعيشة . ضرورى ، يعنى ، أن نجعل الحياة فيها كريهة ،

وينبغى ألا نتركها قط تشعر بالراحة أو الأمان أو الاسترخاء والرخاء . ولهذا فإن من الخطأ أن نترك اسرائيل فى سلام لمدد طويلة . وهذا لا يكون إلا بحروب متقاربة ، الفواصل الزمنية بينها أقصر وأقصر ، حتى لا تسمح لها بفرص التقاط الأنفاس وحتى تبلغ حد الانهاك والارهاق المزمن - فالسقوط الأخير ..

معادلات الصراع

مما سبق نرى أن مصير اسرائيل مرتبط ارتباطا وثيقا ورهن تماما بمصير الامبريالية الأمريكية بالتحديد ، ولكن الموقف بذلك يأخذ أيضا صورة صراع بين العالم الثالث والغرب الاستعمارى الذى تتزعمه أمريكا ، بل أنه ليعد قمة الصراع والتناقض بين هذين العالمين ، وقطباه هما قطباهما ، ونعنى بذلك مصر وأمريكا على وجه التحديد . ولعل الكثير جدا فى عالمنا المعاصر يتوقف على مصاير هذه الصراعات وتلك الأقطاب . فمن المرجح أن مصير اسرائيل الصهيونية سيحدد فى نهاية المطاف مصير الامبريالية العالمية مثلما سيتحدد هو به . فما دامت اسرائيل باقية فان الامبريالية ستظل مقيمة فى العالم الثالث ومخيمة عليه ، والعكس صحيح . ولكن يوم تزول اسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للامبريالية ، والعكس أيضا صحيح إلى أقصى حد .

ومن المنطقى بعد هذا أن نقول انه لما كان مصير الصراع العربى - الاسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة بين العرب ، بمثل ما أن مصير الامبريالية العالمية سيتوقف كثيرا على مصير اسرائيل ، فان مصير العالم الثالث برمته وعدم الانحياز سيتوقف فى التحليل الأخير على مصير مصر بالدقة . وليس فى هذا غرابة ولا جديد ، إذ من المسلم به أن مصر كانت منذ البداية القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك الخط . ويوم تنجح مصر والعرب فى ازالة الاستعمار الاسرائيلى ، فلسوف يكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحياز ، وفى الوقت نفسه صك زعامتهم فيهما .

ويترتب على ذلك أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الامبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد أيضا ولا غرابة فى هذا ، فكل منهما إنما يلخص زعامة مجموعته ، إلى جانب أنه يفسر تركيز العدوانية الأمريكية حتى الأمس على مصر بالذات . وهذا العداء إذ يقوم بين أقدم دولة مهمة فى التاريخ وبين أحدث دولة مهمة فى التاريخ ، كان من الممكن أن يعد أمرا مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير

متكافىء» لولا أن قد فرضته الأخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل ، وإذا كانت أمريكا قد اضطرت اخيرا إلى تغيير موقفها وتصحيحه ، فليس ذلك إلا اعترافا كاملا بصحة هذا التشخيص كما هو بنجاح وقوة موقفنا .

وأخيرا فلقد نعبر عن هذا كله فى النهاية فى صيغة معادلة عامة تتألف من عدة متتاليات اقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل . وفى هذه الخماسية سيلاحظ أن المتتاليتين الأخيرتين بالذات مقلوبتان ، ولا يدل هذا كما يدل على عمق العلاقة المصيرية بين طرفيها .

مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .

مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين / اسرائيل .

مصير فلسطين / اسرائيل يتوقف على مصير مصر .

مصير مصر يتوقف على مصير فلسطين / اسرائيل .

المستقبل كتاريخ

وعند هذا الحد من المناقشة يحسن بنا أن ندع جانبا التفاصيل والأحداث الجارية لكى ننظر إلى الموقف بعامة نظرة ماكروسكوبية لا ميكروسكوبية ، أو قل نظرة تلسكوبية شاملة تستلهم العمق التاريخى ، حتى نرى - بتعبير هايلبرونر Heilbronner - «المستقبل كتاريخ» . ولقد ألفنا بصورة تلقائية تقريبا كما هى تقليدية أن نشبه الغزوة الصهيونية العدوانية بصليبيات العصور الوسطى . والتشبيه فى جملته صحيح تاريخيا وجغرافيا ، سياسيا ودينيا ، بل وحتى جنسيا وثقافيا (وكذلك مصيريا فيما نأمل ونثق) . وما نريد أن نضيفه هنا هو جانب الاستراتيجية العظمى للصراع .

فلعل من أبرز المواقف الاستراتيجية فى الصليبيات ، التى أتت من الغرب ، أنها حاولت بالحاح فى أكثر من مرحلة أن تعقد تحالفا غير مقدس مع قوى التتار والمغول الوثنية القادمة من الشرق ، وذلك حتى تضع العرب بين فكى كماشة استراتيجية وبين شقى رحى الغرب والشرق . وفيما عدا الفروق المبدئية واختلافات العصر ، فان خطة أمريكا حتى قريب كانت دائما أن تنحرف بالوفاق الدولى إلى حصار للعرب يعزلهم عن صداقة الشرق ويحرمهم من معونته الحيوية والفائقة الأهمية لصراعهم مع الصهيونيات .

ولكن كما فشلت محاولات الصليبية قديما ، فشلت مناورة أمريكا أخيرا ، حيث جاءت حرب أكتوبر لتعيد تأكيد الصداقة بين العرب والشرق وتزيدها تدعيما .

وعلى ذكر الصليبيات والعصور الوسطى ، فأن المنظور نفسه يعطينا كذلك رؤية تاريخية متكاملة لموقف الصراع الراهن فى المنطقة وأخطاره المحتملة . فالغزوة الصهيونية الغشوم ، التى تنبع من أوهام وخرافات الماضى السحيق وتضع عقارب الساعة إلى الوراء عشرات القرون ، تقترب بنا بالفعل أو كثيرا من استراتيجيات الصراع التاريخى فى المنطقة أثناء العصور الوسطى .

ففيما عدا الفارق الدينى ونوع الاستعمار ، يكرر العدوان الاسرائيلى - خاصة منذ يونيو - الغزو العثمانى للمنطقة العربية فى معنى ما وبصورة ما . فكما أخضعت العثمانية كل المنطقة لنفوذها ، كان المخطط الصهيونى التوسعى يهدف بلا خفاء ولا مواربة إلى أن يضع يده على المشرق العربى برمته وأن يفرض فيه «نظاما اسرائيليا» «كالنظام العثمانى» الذى ساد المنطقة أربعة قرون كاملة والذى ورثه فيما بعد «النظام الاستعمارى» الأوربى الحديث .

وكما دمرت العثمانية بحمقها طريق التجارة البرى ما بين الشرق والغرب فساعدت على تحولها من المنطقة إلى الرأس ، جاءت اسرائيل بحقدها ومساعدة امريكا فعطلت ولا نقول عقمت طريق السويس البحرى ، حامل شرايين البترول حتى تحولت التجارة وناقلات البترول إلى طريق الرأس بالفعل . وفى الحالين تحول البحر المتوسط إلى بحيرة مغلقة آسنة راكدة موانيها . بل وكما انتقل النشاط البحرى الملاحى والاستراتيجى على يد البرتغال فى الحالة الأولى إلى المحيط الهندى والخليج العربى (الفارسى) ومضيق هرمز .. الخ ، ها هو صراع البحريات والبترول والقوى العظمى ينتقل من البحر المتوسط إلى الهندى والخليج .

حتى على المستوى التفصيلى الدقيق يصدق التشبيه . فحتى نحن فى مصر اضطررنا بصفة مؤقتة إلى تمهيد طريق برى للنقل بالسيارات ما بين البحر الأحمر والمتوسط ، كما وضعنا مشروع أنبوب بترول السويس - المتوسط «سوميد» ، وكل ليس إلا ترجمة معاصرة لطريق ««الأوفر لاندروت» الذى تأرجحت إليه عبر الصعيد طرق القوافل والتجارة أثناء الأخطار الصليبية التى هددت الشمال المصرى .

واضح تماما أن التشابه التاريخى - الجغرافى يكاد يكون كاملا حتى التفاصيل وإلى حد الاثارة فعلا . ومنذ يونيو ونحن نعيش بالفعل ، ولكن مؤقتا بالطبع ، فى نمط جغرافية العصور الوسطى التاريخية وذلك بفعل الخطر الاسرائيلى ومن هم وراءه . ولا يبقى إلا أن نضيف أن النتيجة النهائية كانت تتوقف هى الأخرى على ارادتنا نحن وعلى مدى قبولنا بالتحدى . فكان إما أن نصمد ونقاتل فنطرد الخطر الاسرائيلى كما طردت مصر وسورية المماليك الأول الخطر الصليبى فأصبحتا من سادة العصور الوسطى وتسنم الوطن العربى أوج مجده فى العالم ودخل قمة عصره الذهبى ، و إما أن نتقاعس كما عجز المماليك المتأخرون أمام الخطر العثمانى فيتوسع الخطر الاسرائيلى كما توسع ولتصبح اسرائيل الكبرى هى فى معنى ما المكافىء التاريخى للامبراطورية العثمانية . كان أمامنا اما أن نصمد وننتصر فنكون ولايات القرن الحادى والعشرين المتحدة ، واما أن نتخاذل وننكسر فنكون هنوده الحمر . ولقد قررت معركة أكتوبر - مرة أخرى - الاختيار الأول . لقد انتهت أحلام الصهيونيين كما انهارت أحلام الصليبيين .

حقيقة الخطر الصهيونى

وفيما عدا هذا ، فلا سبيل إلى الشك فى أن الخطر الصهيونى الذى كان يواجه العرب قبل اكتوبر كان تحديا مصيريا وخطرا حقيقيا وليس وهما من صنع مبالغة وتهويل المنذرين أو المحذرين أو المنظرين العرب . فما كان بالأمس أحلام العدو كان يصبح غدا حقائق صادمة بل صاعقة . فحين أعلن هرتزل بعد مؤتمر بازل منذ ٧٥ عاما أن «الدولة اليهودية قد ولدت» كان من الممكن أن يبدو قوله وهما من شطحات الخيال ، إلا أنه تحقق بعد ٥٠ عاما . وقبل يونيو كان الكثيرون منا يظنون مشروع اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات حلما فاوستيا شريرا بما فيه الكفاية ، ولكنه غير جاد حقا ولا هو ممكن أبدا . غير أن قفزة واحدة (فى ستة أيام) وصلت اسرائيل الصغرى إلى النهر والقناة - ثلاثة أمثال مساحة قاعدة الأساس ، ونحو ثلث مساحة اسرائيل الكبرى (!) . ولا ننسى كذلك كيف أعلن قادة العدو بعد يونيو أن ما كان يرفضه العرب بالأمس سوف يصبح منتهى مطلبهم اليوم ، وما سيرفضونه اليوم سوف يكون قصارى أملهم غدا . وكما يقول بول بالتا بحق ، فلقد كانت كل معركة جديدة يخسرها العرب فى الصراع تبعدهم أكثر وأكثر عن مناقشة وطلب المشكلة الأم الأصل وهى فلسطين .

والواقع أنه لولا أكتوبر لكان من الممكن أن تستمر هذه الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية على الجانب العربي . ففي قفزتين أخريين أو ثلاث ، في غضون عقدين أو ثلاثة، أو جيل أو اثنين ، كان يمكن – وهكذا كان تقدير العدو بالفعل – أن تتحول خرافة «امبراطورية صهيون» إلى خريطة «أرض اسرائيل Erets Israel » . لولا اكتوبر ، يعني ، لما كان هناك ما يمنع – نظريا – من أن نفقد أرضنا ثم وجودنا بالتدريج الوئيد ككثير من الشعوب التي بادت . لم يكن هناك ما يمنع أن يصبح العرب هنود القرن العشرين الحمر ، أو زنوج القرن الحادي والعشرين . ولقد كان هناك ، بل و ما زال ، أكثر من مليون عربي القى بهم العدو في البحر ، بحر الرمال ، أي الصحراء . ومن قبل لم يعد الفلسطينيون وحدهم هم اللاجئون ، فانما «مهجرو» الدول العربية الأخرى هم لاجئوها . وكما يقول المفكر العربي السوري الثاقب محيي الدين صبحي فلقد كان صميم «السؤال الذي طرحه العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ هو : هل العرب يقيمون عى أرضهم اقامة مؤقتة تحددها احتياجات الهجرة الصهيونية المتوسعة أم أنهم أمة تقيم على أرضها ولها حقوق تاريخية فيها تجعل اقامتها أمرا فوق الجدال الدولي أو الاقليمي ووراء كل المنازعات المحلية والدولية ؟» .

وفي وجه هذا الخطر المريد ، كان من الغفلة وحدها أن يظن أحد أن الزمن قد يكون خير علاج أو أن العدو قد يتمزق من الداخل بالاحتراق الداخلي . صحيح أن الكيان المغتصب غير شرعي غير قانوني ، والمجتمع المحشود داخله مجتمع خلاسي متنافر كقوس قزح أو كطيف الضوء ، يغلي بانتظام بالتناقضات والصراعات الداخلية . ولكن التناقض الأكبر مع العدو – معنا – يجبها ، يؤجلها ، يخدرها ، وهي على أية حال لن تفجره من الداخل يوما . أما أن الكيان برمته يفتقر إلى الشرعية الدولية ، فيكفي أن نقول : كل حق فقد بدأ قوة ، وكل قوة مضروبة في البعد الزمني ستتحول إلى حق .

وإذا كان هناك من درس من تجربة الماضي وبخاصة معركة أكتوبر ، فهذا الدرس يتلخص في أنه ليس هناك مقتل ذاتي لاسرائيل أولا ، وليس هناك مقتل غير مباشر ثانيا ، وليس هناك مقتل أحادي ثالثا . لا مفر ، يعني ، من الصدام المباشر الطويل المطوط القاسي بكل الأسلحة والوسائل وفي كل الميادين والجبهات . ليس هناك حل مباشر سريع أو وحيد ينتظرنا عند أول منعطف .

وبصورة عامة يمكن استراتيجيا أن نعتبر الصراع بيننا وبين اسرائيل فى مجموعة منذ ١٩٤٨ أو قبلها نوعا من «الاقتراب غير المباشر indirect approach» . فنحن نواجه العدو مواجهات مباشرة فى المعارك نفسها مرة فى بضع سنين ، ثم نحاصره طول الوقت بطريق غير مباشر ، وهكذا . وهذا هو الذى يجعل حربنا مع العدو مؤلفة من عدد من المعارك المتباعدة التى تنقط منحنى الصراع بفواصل تتراوح بين ٧ ، ١٠ سنوات فى المتوسط . وقد قدر البعض عدد أيام القتال العسكرى الفعلى بالجيوش النظامية طوال الصراع بنحو الشهرين ، أو بمتوسط يومين كل عام تقريبا . غير أن العبرة هنا ليست بالتصادم المباشر دائما ، فان الاقتراب غير المباشر قد يكون هو الاستراتيجية المثلى بحكم طبيعة الصراع نفسه . وعموما فانها ليست أربع حروب تلك التى دارت بيننا وبين العدو، بل أربع معارك فى حرب طويلة واحدة .

على أن هذا يعنى أيضا ، وهو ما يسلم به الجميع ، أن الصراع سوف يكون طويلا بقدر ما هو مرير . انه صراع اجيال ، ولقد نؤرخ لبدايته بالفعل منذ مؤتمر بازل أى منذ ثلاثة ارباع القرن ، بينما أن هذه اسرائيل على التراب الفلسطينى قد شارفت ربع القرن عمرا . لكن الذى نود أن نصر عليه هنا هو أن الصراع سيكون أقصر مما يقدر البعض ، أقصر على أية حال من الحروب الصليبية التى تطاولت على مدى قرنين متكاملين . ذلك أن ايقاع العصر قد اختلف تماما وتسارع جدا ، وحروب اليوم أقصر للغاية من حروب الماضى لأن الأسلحة أفتك وأمضى بلا حدود ، كما أن العالم لن يصبر طويلا على حرب ممدودة ممطوطة لا تبدو لها نهاية . وإذا ارتفع العرب حقا إلى مستوى التحدى بنجاح على غرار اكتوبر ، فقد لا تأتى على اسرائيل – نقول هذا بهدوء مرة أخرى – سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو زد عليها عقدين أو ثلاثة ربما .

ومن الناحية الأخرى ، فان التصور العام – والصحيح – للصراع على أنه سوف يستمر أجيالا ، يعطى تصورا غامضا – ولكنه خاطىء بقدر ما هو خطر – بأن هناك على طريق المستقبل عشرات قادمة من الجولات والمعارك العسكرية قبل أن يحسم الصراع نهائيا . ولكننا بكل قناعة نفشل فى أن نرى بعد المعركة التى قد تكمل اكتوبر احتمالا لأكثر من جولتين أو ثلاث فى غضون الخمسين سنة القادمة ، إلا أن تكون موجات من الحرب الشعبية وحروب العصابات غير النظامية .

من هنا فلم يكن أخطأ (أم نقول أخبث؟) من خرافة أن العرب يمكن - كما كان البعض يردد قبل أكتوبر - أن يمتصوا ويتحملوا مزيدا من الهزائم ، بينما أن اسرائيل تزول عند أول هزيمة . لسنا نريد ، ولم يعد هناك الآن داع ، أن نقول انه يكاد يكون العكس ، ولكنا نشير فقط إلى درس اكتوبر : لقد انتصرنا وانهزمت اسرائيل ، ومع ذلك لم تذهب . وهى لن تذهب إلا بعد معركتين أخريين أو ثلاث على الأقل بعدها . أما على الجانب العربى فلابد أن نكف نهائيا ، حتى بعد أكتوبر ، بل بالذات بعد أكتوبر ، عن تعاطى ذلك المخدر المريح الذى يمكن مع ذلك أن يكون مهلكا قاتلا ، وهو أننا قد يمكن أن نسمح لأنفسنا بأن نهزم مؤقتا لأننا لا يمكن أن نزول ابدا ! أنه وهم عابث وسلاح ذو حدين .

وعند هذا الحد يتبدى لنا عامل الزمن وهو بطبيعته عامل مذبذب ، أثره مركب ومعقد ، لا يعمل فى اتجاه واحد ولكن فى اتجاهات متعددة ومتعارضة ، وذلك لأسباب كثيرة ، محلية ودولية ، نفسية وطبيعية .. الخ . فهو جزئيا ومرحليا يعمل فى صفنا ، وجزئيا ومرحليا يعمل فى صف العدو . وفى وسط هذه المتغيرات ، فإن الثابت الوحيد هى أن المحصلة النهائية ستكون فى صف من يحسن استخدامه وتسخيره أكثر . أى أن العامل البشرى أهم دائما من عامل الزمن ، تماما مثلما هو أهم من العوامل المادية كالطبيعة أو التكنولوجيا .. الخ .

وقد جاءت معركة اكتوبر لتثبت صحة هذا القانون تماما . فلقد حقق العرب نصرهم بفضل العامل البشرى أساسا ، كما وكيفا ، ماديا ومعنويا . ولكنهم أيضا سيطروا على التكنولوجيا الحديثة أولا ، كما سخروا عامل الوقت لصالحهم ثانيا . غير أن أبرز ما أثبتته معركة اكتوبر فى هذا الصدد هو أنها قلبت عنصر الوقت لصالح العرب مرة واحدة وإلى الأبد .إن العالم كله متفق اليوم على أن الزمن لم يعد يعمل لصالح اسرائيل ، وأنه أصبح يحارب فى صف العرب . وواجبنا نحن الا نسمح بأى تغيير فى هذا الاتجاه مستقبلا وأن نضاعف من تسخيره لصالح قضيتنا ومصيرنا .

وفى كل الأحوال فان الصراع مثلث الأبعاد ، سياسى وعسكرى وحضارى . وكلما تقادم العهد به سيكتسب البعد الأخير (الحضارى) أهمية أكبر وأفعل إلى أن يصبح وهو العامل المرجح أو الفيصل . هذا على حين يبدو البعد الأول (السياسى) أهم دورا فى

المراحل الأولى ، كما كانت الحال مثلا قبل اكتوبر . ولكن في الحالين سيظل البعد الثاني (العسكرى) هو القوة الضاربة المباشرة ، ومن ثم عامل التصفية الفاصل كما أثبتت بجلاء معركة اكتوبر المجيدة .

غير أن الأبعاد الثلاثة تتداخل إلى أقصى حد وتترابط ترابطا لا انفصام له . فالبعد العسكرى للصراع رهن فى دوره ونتيجته بالعاملين الآخرين . والواقع أن الحرب إذا كانت - كما يقال منذ وضعها كلاوسفيتز - امتدادا بطريقة أخرى للسياسة ، فانها أيضا امتداد بطريقة أخرى كذلك للحضارة والفرق أن الحرب (أى التفوق العسكرى) هى عادة التى تحدد مصير السياسة هزيمة أو نصر ، بينما أن الحضارة (أى التفوق الحضارى) هى التى تحدد مصير الحرب هزيمة أو نصرا . الحرب ، بعبارة أخرى ، امتداد لاحق للحضارة ، وسابق أو لاحق للسياسة .

فمن ناحية نجد صراعنا الحضارى مع اسرائيل هو فى حقيقته صراع مع حضارة الغرب التى استعارتها ولا تزال تعيش متطفلة عليها . وما كان يسميه البعض تفوق العدو التكنولوجى لم يكن إلا تفوق الغرب التكنولوجى منحولا مستعارا ، بل ان ذلك التفوق التكنولوجى المقول ليس إلا تفوقا تسليحيا فى جوهره وحقيقته . بل ، فى معنى ، ليس ثمة شيء اسمه التفوق التكنولوجى ، ثمة فى الحقيقة تفوق تسليحى فقط . والصراع حضارى بمعناه العريض جدا والفلسفى البعيد أساسا ، كما أنه ليس صراعا تكنولوجيا إلا بالمعنى غير المباشر أما فى معناه وشكله المباشر فهو صراع تسليح . وقد عبر رابين عن هذا بصورة سافرة كما هى فجة بقوله «فى استطاعة اسرائيل أن تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربى مجتمعة لأى فترة ممكنة - خمسا وعشرين أو خمسين سنة - مادمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا» .

ولهذا فان معركتنا الحضارية تعنى فى النهاية ، وينبغى أن تعنى ، معركة تسليحية وإذا كان تسليحنا من أسف محكوما حتى الآن بإرادة قوى خارجية لها سياساتها وحساباتها الخاصة ، فان هذا يفرض على العرب أن تحقق الاستقلال فى السلاح المتطور الحديث بالحصول ليس فقط على القدرة التكنولوجية بل على استخدامه وليس حتى على مجرد الحصول عليه ولكن أساسا على انتاجه . أن معركة انتاج السلاح هى التى ستحسم الصراع فى نهاية المطاف .

ولكن معركة انتاج السلاح هى معركة سياسية من ناحية ومعركة حضارية من الناحية الأخرى . معركة سياسية ، لأنها تتوقف أولا على كسبنا لصداقة مصادر السلاح وتنويعها خارجيا ، وابعادها كذلك عن العدو وحرمانه منها . ومعركة حضارية ، لأنها تتوقف أخيرا على كسب الخبرة والمقدرة التكنولوجية على انتاجه وتطويره داخليا . وبهذا تعود أبعاد الصراع الثلاثة فتتشابك وتتفاعل ويؤثر كل واحد منها فى الآخر . ان المعركة الحضارية هى قاعدة الصراع ومنطلقه ، والمعركة السياسية اطاره ومناخه ، أما المعركة العسكرية فهى اليد الضاربة ، العليا والطولى .

ومصداقا لهذا كله ، قال الرئيس السادات عن معركة اكتوبر «إذا خرجنا من هذه المعركة دون أن نبنى البناء الجديد سياسيا واقتصاديا وعلميا ، وإذا لم نبن قوتنا الذاتية ، يكون محكوما علينا بالفناء ، لأن اسرائيل لن تترك هذه الهزيمة التى لحقتها . ومن أجل هذا نحن نركز الآن على بناء قوتنا الذاتية عسكريا واقتصاديا وسياسيا وعلميا وتنظيميا لضمان مواجهة العدو .. وسيكون لدينا صناعات استراتيجية محلية . وسياستنا أننا سوف ننوع فى مصادر السلاح حتى نبنى قدرتنا الذاتية . ولقد دخلت أوربا الغربية سوق توريد السلاح لنا» .

وأخيرا ، فإذا كانت تلك هى طبيعة التحدى الذى فرض علينا ، فانه بعد ليس شرا مطلقا كما يبدو لأول وهلة . فالتحديات الكبيرة هى التى تصنع الأمم الكبيرة، وما من أمة كبيرة وصلت إلى الصدارة والسيادة ودخلت دائرة القوة إلا من خلال الحرب وعبر الدم . (حرب الهند - الباكستان الأخيرة - مثلا - تكاد تجعل من الهند دولة شبه كبرى) .

ولعلها حكمة بالغة من القدر أن يدخر الخطر الصهيونى لهذه الأمة التى تدهورت طويلا وكثيرا . لقد فقد العرب بعد يونيو كما رأينا الكثير من هيبتهم ومكانتهم ووزنهم العالمى ورصيدهم الدولى ، دعك من الخسائر المادية والآلام النفسية الرهيبة . ولكن الاستجابة الناجحة للتحدى فى أكتوبر أثبتت أنها جديرة بأن تكون «الرافعة» العظمى لهم فى الميزان الدولى ، تنقلهم من جديد إلى قلب الدنيا وتضعهم فى بؤرة العصر . ولسوف يكون النصر خير دواء شاف لكل أمراضنا القديمة والجديدة ، الداخلية والخارجية ، والعبرة دائما بالخواتيم .

إن لقاء الصهيونية هو كلقاء الصليبية معكوسا : فلقد بدأت أوربا نهضتها بعد درس الصليبيات الحضارى وتحديه الخطير . بالمثل يمكن أن يبدأ العرب نهضتهم الكبرى -

«عصر النهضة» العربية – بعد درس الصهيونيات وتحديه المصيرى . ولقد يكون صراعنا المرير مع الخطر الاسرائيلى هو آلام المخاض لميلاد دولة كبرى فى الوطن العربى الكبير تلحق بعمالقة العصر وحضارته .

متغيرات أكتوبر

وها هنا نستطيع أن نحدد أثر ودور أكتوبر فى مسار الصراع الطويل فى أنه أساسا فتح باب الأمل على مصراعيه وأغلق باب اليأس إلى الأبد . فليس خافيا أن ثمة سؤالا كان ، منذ يونيو وإلى ما قبل أكتوبر ، يطوف أحيانا بأذهاننا جميعا كالهاجس المتوجس دون أن نجرؤ حتى على التفكير فيه فضلا عن التصريح به : أضاعت فلسطين من قبل ، وهل حقا تذهب اسرائيل يوما مهما بعد ؟ أو ان شئت السؤال بالعكس : ألا تعود فلسطين يوما ، وهل ضاع الأمل فى زوال العدو ؟ الآن لم يعد شك ، لقد رجح معامل الأمل معامل اليأس رجحانا مطلقا فى معادلة المستقبل ، المسألة فقط مسألة وقت، ولسوف يعود للعرب فردوسهم المفقود يوما ما مهما نأى وطال وشق الطريق إليه . أن التاريخ لا ينتهى غدا .

وعند هذه النقطة قد يبدو للقارىء تناقض خطير بين ما بدأنا بالاشارة إليه وهو خطر الضياع أما الغزوة الصهيونية وما انتهينا إليه توا من التبشير بزوال العدو يوما . لا تناقض هناك فى الحقيقة ، وإنما هذا بالدقة ما نود أن نضغط عليه : ان صراعنا «حدى»، صراعنا متعلق بالحدود القصوى المتطرفة ، لا توسط فيه ولا حدود أو حلول وسطى. فالمنتصر فيه سيكسب كل شىء ، والمهزوم يخسر كل شىء . ونحن ومن ثم أمة «حدية» مصيريا ؛ بمعنى أننا كنا دائما أمة مرشحة لأن تحتل مكانا بارزا حقا فى هذا العالم إذا نحن كسبنا الصراع ، مهددة بالانزلاق إذا خسرناه . ولقد قررت معركة اكتوبر الاختيار الأول إلى الأبد .

ولنا بعد هذا أن نتساءل ، إذا صح أن صراعنا الكبير هو فى التحليل الأخير صراع حضارى كما نردد دائما ، وهو صحيح بكل تأكيد ، فما هو المعنى الحضارى لأكتوبر ؟ اننا نعتقد أن عبور قناة السويس هو فى جوهره عبور للبحر المتوسط ، وأن الزحف شرقا فى سيناء هو فى صميمه زحف نحو الشمال تجاه أوربا . نعم ، زحف حضارى نحو

طليعة المدنية المعاصرة وعبور للحاجز الحضارى الذى يفصلنا عن الغرب وعن العصر . كيف ؟ لنفصل .

اننا جميعا متفقون - نحن نأمل - على أن الاستعمار القديم والجديد والامبريالية العالمية لم تزرع اسرائيل فى قلب الوطن العربى إلا لكى تستبقيه إلى الأبد فى اطار الضعف والعجز ووراء أسوار العزلة والتخلف الحضارى ماديا وغير مادى ، وبهذا يظل منطقة بلا خطر ولا قيمة ، مجرد فراغ حضارى شاسع لا يهدد أحدا ولا يقوى على شىء، جسمه الضخم تمزقه اسرائيل وتدميه ، وموارده الثرى - الآن الخرافية - يستنزفها الصراع المزمن معها . اسرائيل ، بالأساس والتأسيس ، «بوليصة تأمين» للاستعمار فى المنطقة ، ونزيف مستمر يمتص حيويتها ويعقم مستقبلها ويشغلها عن التطور والتحضر وعن التنمية والتقدم ويشدها دائما إلى اسفل ، إلى الجنوب ، باختصار ، هى عائق سياسى يمنعها فى النهاية من عبور «خط الاستواء الحضارى» ، ذلك الذى يمتد من البحر الكاريبى إلى البحر المتوسط إلى بحر الصين والذى يفصل بين العالم الثالث والعالم المتقدم ، بين الجنوب الفقير والشمال الغنى ، أو بين أفريقيا واسيا فى جانب وأوربا وأمريكا فى الجانب المقابل .

الآن فان هذا النمط يهتز بشدة ، العائق المانع يتصدع ، والعرب تنطلق . لقد بدأ الزحف الحضارى الكبير . وليس مصادفة بالتأكيد أن فترة المعركة ، ما قبلها وما بعدها ، تشهد تحولات جذرية فى العلاقات التاريخية مع أوربا . هناك تلاحم وتلاق جديد على أسس جديدة من التقدير والاحترام المتبادل ستفرض يوما ما الاعتراف المتبادل بالندية والأصالة . ولقد رأينا أن ليس فى العالم منطقتان متقاربتان ومتداخلتان تاريخيا وحضاريا ، فضلا عن التقارب الجغرافى الشديد ، كأوربا والعالم العربى .

فتش فى خريطة الدنيا أو ركب خريطة التاريخ ، لن تجد أقرب منهما إلى بعضهما البعض . كان التاريخ القديم والوسيط قسمة بينهما وبولة ، أحيانا كشركة تعاونية وأحيانا شركة تنافسية ، وهما وحدهما اللذان تقاسما وتنازعا السيادة العالمية عبر التاريخ على التناوب أو التعاقب فى ندية نادرة . وهما فيما بينهما اللذان صنعا أو وضعا أسس الحضارة العالمية المعاصرة مباشرة أو غير مباشرة . حتى الجوانب الروحية مشتركة ، أما فى الوحدانية أو بالاستعارة الدينية . حتى من الناحية الجنسية ، ورغم عنصرية أوربا

حينا وبون عنصرية منا الآن ، فان الشرق الأوسط الكبير هو المنطقة القوقازية البيضاء الوحيدة فى العالم القديم خارج أوربا .

واليوم ، على المستوى السياسى وسياسة القوة ، فليس أقرب منهما إلى بعضهما البعض . فقد لا نتطرف كثيرا إذا قلنا ان أوربا ، التى فقدت الكثير من وزنها وثقلها فى العالم لقوى جديدة أضخم وأقوى ، تعد الآن أضعف حلقة أو منطقة فى نطاق القوى العظمى . أنها نسبيا «قاع» الشمال المتقدم فى الوقت الحالى . على النقيض من ذلك العالم العربى قد يكون أخف وزنا بكثير وأضعف ناصرا وأقل تطورا للغاية من أوربا رغم تقدمه النسبى أخيرا . ولكنه فى الوقت نفسه أكثر العالم الثالث تطورا وتقدما وامكانيات وأكثر من ذلك مستقبلا ، انه طليعة المتخلفين وقمة الجنوب ورأس عدم الانحياز .

من ثم فمن بين كل الأخدود العميق بين الشمال والجنوب العالميين ، تعد الهوة الحضارية والمادية والسياسية بين أوربا والعرب الأضيق والأصغر ، وبالتالى فان التقارب بينهما أسهل وأيسر . أن نصر اكتوبر اختزل المسافة الحضارية والنفسية والتاريخية والسياسية بين العرب وأوربا ، وبدأ زحف العرب خارج دائرة التخلف والانحطاط لتعبر البحر إلى الشمال اختراقا لحاجز العلم والتكنولوجيا ولحاقا بنادى الأقوياء والمتقدمين وبحثا لها عن مكان تحت الشمس .

هنالك ولتجد أوربا بدورها لا تقل تلهفا على اللقاء التاريخى وسعيا إليه بحثا عن صداقات جديدة وتوازنات ومصالح ، باختصار بحثا عن مكان لها جديد هى الأخرى فى عالم متغير حتى الأعماق . وتلك جميعا خمائر ومؤهلات وفاق أو تقارب جديد -rap prochement ينبغى أن يسارع العرب بحس تاريخى واسع وبلا حساسيات ولا عقد إلى ادراكه وهندسته والافادة منه سياسا وحضاريا فى صراعها مع العدو ومع العصر جميعا .

ليس هذا فحسب ، ليست العرب وحدها التى عبرت بالمعركة البحر إلى أوربا ، وأنما كذلك افريقيا عبرت - أو بدأت - الصحراء إلى العرب . لقد أعادت المعركة الناجحة والمشرفة أفريقيا إلى التطلع إلى مقدمتها العربية التى عادت من جديد قطب الجاذبية ومركز الثقل وقمة القوة فى القارة . افريقيا إذن زحفت هى الأخرى شمالا ، ليلتحم نصف القارة الجنوبى بنصفها الشمالى . وعلى طريق الزحف سقطت كل العقد المفتعلة والعوائق التى نماها الاستعمار .

وواجب العرب هنا أيضا هو ان يتحركوا بسرعة واقتدار ليمارسوا دورهم الطليعى فى القارة ، يملأون الفراغ الذى تركه طرد اسرائيل ، ويضمنون عدم عودتها من الباب الخلفى . أن العالم الثالث هو المجال الاساسى ليلعب العالم العربى دوره الجديد كقوة شبه عظمى . وينبغى ألا يتوانوا عن الانطلاق إليه بسرعة ، والأسرع الأفضل . والأفضل منه أن يضعوا استراتيجية عظمى لتخطيط هذا الدور على المستوى العالمى جميعا . انه نداء ٦ اكتوبر الذى يجب أن يبدأ فورا ، هنا والآن .

احتمالات المستقبل

حسنا ، فالى أين المصير ؟ ما هى صورة اسرائيل اليوم ومستقبلها غدا وبعد غد ؟ ما رد فعلها المنتظر لنتائج أكتوبر الانقلابية ؟ أن مشكلة الأمن الاسرائيلى هى كما رأينا مشكلة اسرائيل وحدها ، هى التى خلقتها أو اختلقتها لأهدافها التوسعية الصهيونية والامبريالية ، وعليها وحدها أن تحلها . فهل تستطيع ؟ هل تقبل ؟ هذا هو السؤال ، وذلك بالدقة هو مدار الصراع الداخلى الحزبى والشعبى الذى بدأ فى اسرائيل على المستوى الفكرى والايديولوجى وكذلك السياسى والعسكرى . ولم يعد خافيا أن صراع القوة المستتر وغير المستتر الذى استمر هناك أساسا صراع بين ما يسمونهم الصقور والحمائم أو بين دعاة الحرب وأنصار التفاهم .

لقد وضعت الضربة العربية الموفقة فلسفة الأمن الاسرائيلى فى مأزق خطير وأثبتت أنه طريق مسدود . لكن الأسوأ من ذلك ، من وجهة نظر العدو ، أنها على المدى البعيد تهدد جوهر الفكرة الصهيونية وتفضى إلى اثبات فشل الحل الصهيونى للمشكلة اليهودية. لماذا ؟ – لأن المعركة أتت أول نكسة وهزيمة حقيقية للصهيونية منذ بداية القرن كفكرة وكتجسيم ، وهى لأول مرة تثير التساؤل ليس فقط عن حقيقة اسرائيل ولكن أيضا عن مصيرها ، ليس فقط فى شرعيتها ولكن كذلك فى بقائها . وعلى سبيل المثال ، فبدون الأمن اليوم ، فلا هجرة غدا ، وبغير الهجرة غدا فلا أمن بعد الغد . أنها حلقة مفرغة ، أنها مأساة الفلسفة والايديولوجية الأساسية للكيان ذاته .

من هنا فان الاختيار أمام اسرائيل يتحدد الآن – نظريا – فى طريقين : اما طريق القوة والحرب من جديد ، واما طريق السلم لأول مرة كخط جديد . وطريق القوة ، إذا استمرت موازين القوة الجديدة الاقليمية والعالمية ، قد يعنى أن اسرائيل وليس العرب هى التى ستدمر نفسها بنفسها ، لأنه بالتجربة الصادمة أصبح طريقا مسدودا .

فكما يقول موريس ديفيرجيه «ان التقدم العسكرى الذى حققته مصر وسوريا منذ ١٩٦٧ يوضح أن قدرتهما على محو الهزيمة هى أسرع مما كان يتصور المرء. لذا فان بقاء اسرائيل يرتكز قبل كل شيء على قدرتها على أن تكون مقبولة من جيرانها ، لا على قدرتها على أن تهزمهم عسكريا . فإذا استمرت فى الاعتماد كليا على هذه القدرة الأخيرة، فلن تتمكن من تقوية الأولى ، التى ينبغى أن تحل محل الأخرى أن عاجلا أو آجلا» .

أو حتى كما قالت الموند أثناء المعركة «هناك عبرة على العالم أن يستخلصها من الأحداث : حتى لو انتهت هذه الحرب بهزيمة جديدة للعرب (والعكس هو الذى حدث بالفعل) ، فان الأعمال الحربية ستستأنف بعد ٤ أو ٥ أو ٦ سنوات ، وستكون بفضل التكنولوجيا أصعب وأفتك . وعلى هذا فليست الأراضى وحدها هى التى يمكن أن تتعرض للخطر يوما ما ، بل بقاء اسرائيل نفسه» .

ولقد كان قادة اسرائيل أنفسهم هم الذين وضعوها قاعدة قائدة أن اسرائيل لا تتحمل هزيمة عسكرية واحدة ، لأنها وان لم تكن بالتأكيد النهاية فإنها تمثل بداية النهاية ، وأنه إذا بدأ التنازل والتسليم مرة فانه يؤذن بزوال الكيان كله فى النهاية مهما طال الأمد . وهذا هو السبب بل السر الدفين فى أن اسرائيل تربط فورا أصغر تنازل يطلب منها أو يفرض عليها بقضية بقائها ووجودها كله ، وتجعل أدنى خطر يمس أقل جزئية فى حياتها كأنه نهاية الدنيا جميعا . وهى بهذا – نظرية الدومينو – تضمن فيما تتصور أن تصادر مسبقا على المطلوب وعلى غير المطلوب ، وتفترض مبدئيا أنها غير قابلة لأدنى انكماش أو تقلص ، غير قابلة اصلا إلا التوسع والنمو أو التمدد وحده . لهذا كله فلابد فى رأى العدو وقادته من التمسك «بالقلعة المسلحة أعلى التل» رغم الحصار والهزيمة وحتى الموت أو ربما حتى الانتحار إذا لزم . ان الاندحار عندهم يعنى الانتحار ، أنها «عقدة ماسادا» دائما ، وهم اليوم فى اسرائيل يرددون جميعا أن الحرب لم تنته وأن المعركة مستمرة .. الخ .

هذا عن طريق الحرب . أما طريق السلم ، فإذا كانت اسرائيل قد أنفقت عمرها تبحث عن «الحرب التى تنهى كل الحروب» ، فان أمامها الآن الفرصة لكى تصبح «الحرب الرابعة هى آخر الحروب» . وقد دعت إلى هذا الطريق أقلية من اليهود وأقل منهم من الاسرائيليين.

وعلى رأس هذا الاتجاه لابد أن يأتى ناحوم جولدمان ، داعية السلام اليهودى والصهيونى المنفرد تقريبا قبل أكتوبر والذى شدد حملته السلامية بعدها بقوة ، ولكن كما سنرى من زوايته الخاصة . فكرئيس للمؤتمر اليهودى ، أعلن بعد المعركة أن «الاتجاه نحو انعزالية جديدة فى اليهودية كارثة تعرضها للخطر» ، إذ تحولها إلى ما يشبه جيتو محاصرا فى الشرق الأوسط . ولكنه لم ينس أن يتلمس منطق تبرير لهذا فى الآخرين ، فقال ان موقف حكومات وهيئات الدول الأخرى أى غير اليهودية التى تتخذ موقفا مواليا للعرب بدلا من موقف موال لاسرائيل لأسباب ذاتية خاصة كالمصالح البترولية مثلا ، هذا الموقف «يزيد من اتجاه اليهود إلى تجاهل مصالح الآخرين» .

ومهما يكن فقد انتهى جولدمان إلى أن «اسرائيل مادامت لا تحاول إلا الاهتمام بنفسها فقط فلن تتمكن مع الزمن من البقاء كجزيرة فى محيط عربى حتى ولو كان لها أفضل الجيوش وتميز شعبها بأكبر قدر من الشجاعة» . وفى مناسبة أخرى وضح الفكرة نفسها أكثر فصرح بأنه «ليس هناك مستقبل ممكن لاسرائيل فى الشرق الأوسط دون الوفاق التام مع العرب ، ، وأنه لا يمكن اجبار العرب على قبول اسرائيل عن طريق كسب الحروب» .

وفيما عدا جولدمان ، يمكن أن نذكر أيضا من دعاة السلام الاسرائيليين أورى أفنيرى عضو الكنيسيت وصاحب ورئيس تحرير هاعولام هازى . ودعوته ليست بالجديدة ، وقد عرضها مرارا فى عشرات الخطب والمقالات كما بسطها فى عدة كتب . ومؤدى فكرته هو التعايش بين العرب واليهود فيما يسميه «اتحادا كونفيديرالا ساميا» ، لا يقتصر على فلسطين وحدها بل يتسع لأيمادول فى الشرق الأوسط أو المشرق العربى تقبل الدخول فيه، خاصة الأردن ولبنان ، ومحور النظرية - وهو علميا خطأ فاحش بقدر ما شائع - أن العرب واليهود كليهما من الساميين ، أى أخوة فى الأصل بمعنى ما ، وأن الصراع بينهما على أرض فلسطين ليس بين حق وباطل بل بين حق وحق (كذا) . والحقيقة أن ليس أخطأ ولا أخبث من هذه الدعوة ، فاليهود الغربيون أوربيون آريون لحما ودما ، ودخلاء غزاة وأجانب مغتصبون تاريخيا وسياسيا ، والاتحاد المزعوم ما هو إلا صيغة خبيثة للاستعمار الصهيونى موسعا ولكنه مزوق مزخرف .

وتبقى أخيرا صيغة «الاستشراق» التى قدمها المفكر اليهودى الفرنسى المعروف مكسيم رودينسون كحل لمشكلة اسرائيل .. فرودينسون يرى أن اسرائيل إذا أريد لها البقاء فان عليها أن تتحول إلى دولة «لفانتية» شرقية تندمج فى مجتمع الشرق الأوسط ولا تنعزل عنه أو فيه كأقلية أوربية غربية وافدة بالهجرة ومستعمرة بالقوة . وعلى السطح ، فان الاقتراح لا يحدد شيئا ، لا يحدد شكل الدولة السياسى أو الدستورى ، لا يحدد موقع العرب فيها ولا موقعها هى بين العرب .. الخ . أما فى الحقيقة فهو لا يعدو صيغة أخرى مبهمة وفضفاضة تغلف واقع الاستعمار الصهيونى لفلسطين بطبقة من السكر أو تبطنه بغلالة من الحرير. وقد كشف رودينسون ، الذى كان يفترض أنه غير صهيونى ايديولوجيا ، عن حقيقة اقتراحه حين كشف عن حقيقة هويته أثناء حرب أكتوبر ، فقد اتخذ موقفا عدائيا مطلقا للعرب وحارب معركة دعائية ضارية لحساب اسرائيل .

وهكذا نجد فى جميع الحالات تقريبا أن الاتجاهات السلامية اليهودية أو الاسرائيلية المزعومة أو المزجاة ، فضلا عن أنها دعوات ضعيفة هشة خفيضة الصوت ، هى غير واضحة ولا محددة ولا تخلو من غموض ، لعله مقصود ، كما تقع تماما على أية حال دون الحد الأدنى الذى يمكن أن يفترضه أو يقبله العرب . يصدق هذا على تلك الأصوات المنفردة أو الواهية التى ترتفع (أو بالأصح لا تكاد ترتفع) داخل اسرائيل لأسباب ودوافع طائفية أو طبقية أو ايديولوجية كحركات الماتسبن والفهود السوداء وجماعات الشيوعيين ... الخ ، كما يصدق على أغلب الكتابات الشخصية والمقترحات الفردية التى تصدر فى الغرب عن كتاب يهود أو غير يهود .. الخ .

هذا عن الجانب العدو . من الجانب العربى أيضا قدمت بعض التصورات . فطرحت المنظمات الفدائية الفلسطينية صيغة تقدمية متسامحة للتعايش السلمى ، التعايش البشرى ، فى دولة علمانية ديمقراطية متعددة القوميات والأجناس والأديان ، يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود فى سلام وتكافؤ وعلى قدم المساواة . ويستلهم البعض فى هذه الدعوة نمط التجربة اليوجوسلافية بالذات ، تلك التى تقوم فى ظل الاشتراكية التى تجب الخلافات العنصرية والدينية والطبقية معا وعلى حد سواء . هذا على حين يشير البعض الآخر فى هذا إلى دولة «شرق أوسطية» أو «شرق متوسطية» على غرار النمط اللبنانى ، متعدد الأديان كما هو مفتوح على العالم ومثل العالمية (الكوزموبوليتانية) .

وقد تبنت الثورة الفلسطينية بالفعل ، ممثلة فى قيادتها الفدائية منظمة التحرير الفلسطينية ، مبدأ الدولة العلمانية الديمقراطية التقدمية على كامل التراب الفلسطينى كبرنامج عمل واقعى من أجل السلام العربى ، لا يتجاهل الواقع ولا يقفز فوق الحقيقة القائمة فى فلسطين المحتلة ، ولكن لا يفرط فى الوقت نفسه فى الحق التاريخى والطبيعى الأساسى فى الوطن القومى .

كذلك فلقد أعلنت القيادة السياسية العربية العليا أننا «لسنا دعاة إبادة» . وفى الوقت نفسه ثبت أن اتهام الابادة الهستيرى الذى أشاعه العدو فى العالم ضد العرب كان أكذوبه ملفقة بعناية وخدعة كبرى مخططة . فلقد اعترف قادة العدو صراحة بأن ما قالوه عشية حرب يونيو لم يكن له أى نصيب من الصحة أو الحقيقة ولا كان يمثل أدنى احتمال واقعى .

كل هذه الاقتراحات والحلول وغيرها ، مع ذلك ، مرفوضة تماما من الأساس فى نظر الصقور ودعاة القوة فى اسرائيل لأنها تعنى عندهم اهدار وفك الصبغة الصهيونية الأساسية للدولة dezionization ، التى لن تصبح حتى دولة يهودية فضلا عن أن تكون دول كل اليهودية العالمية . أنها تعنى حل الدولة القائمة ونزع سلاحها وايقاف الهجرة الداخلة إليها . وهذا كله يرادف فى رأيهم ليس فقط الانكماش بدل التوسع ، وإنما كذلك زوال اسرائيل تلقائيا واختياريا وتحولها إلى كيان «لا اقليمى-non - terri torial » بعد كل أحلام التوسع الاقليمى . والكل فى النهاية انكار لفكرة الصهيونية ذاتها من حيث هى مبدأ .

وبصيغة أخرى فان مثل هذا الحل يعنى حرفيا أو مجازيا أن «تنزل» اسرائيل من قلعة أعلى التل إلى السهل ، ومن جيتو المدينة إلى الريف المحيط ، لتضيع فيهما بالاندماج والذوبان ، وهو ما رفضته أصلا فى الشتات ومن أجله أقامت الدنيا لتقيم اسرائيل . وذلك بدوره يعنى «تبشير humaniser » اسرائيل ، أى تحولهم من شعب مختار فوق مستوى البشر إلى بشر عاديين متكافئين مع سائر البشر ..

لعله قد اتضح من هذا كله أن الصهيونيين الحقيقيين يؤمنون أساسا بأن الصهيونية غير قابلة بطبيعتها للتعايش مع أحد ، فى هذه الحالة مع العرب ، وأنه ليس ثمة شىء «كنصف صهيونية» . ومن الواضح كذلك أن طريق السلام الحقيقى يتطلب من اسرائيل

مفهـوما جديدا تماما للأمن ، مفهوما يستدعى تغييرا كاملا لا فى الجلد فحسب ولكن فى الدم وحتى النخاع ، فضلا عن عملية غسيل مخ شاملة ، أى باختصار عملية تحول كامل metamorphosis فى الكائن العضوى وإعادة تكيف جذرى مع البيئة المحيطة . والأوضح منه أن السواد الأعظم من الاسرئيليين أبعد ما يكونون عن مثل هذا المفهوم وهذا التغيير .

فهم يقولون - كما نقول نحن أيضا - ان الصراع العربى - الاسرائيلى ليس مشكلة حدود بل وجود ، وفلسطين لا يمكن أن تكون عربية واسرائيلية فى وقت واحد ، ولا اسرائيل لهم من غير قدس كما لا فلسطين لنا من غير قدس . أن التناقض جذرى وكلى ، والتكيف المتبادل مستحيل . وقد عبرّ الجنرال هاركابى عن هذا تعبيرا مكشوفا ولكنه كاشف جدا حين قال «ان التسليم بأن القومية العربية ستكيف نفسها مع بقاء اسرائيل يمكن مقارنته بتسليم الصهيونية بالتخلى عن دولة اسرائيل» . هذا بينما سيقول موشيه ماعوز «أن هناك خوفا وقلقا عميقين لدى العرب من أن اسرائيل قاعدة استعمارية تهدد سلامة الدول العربية . وهذا خوف حقيقى . فاسرائيل مجتمع دينامى ، ولا ينظر إليها على أنها استولت على أراض عربية فحسب ، بل أنها مستمرة فى جلب مهاجرين جدد وتهديد مستقبل الاقتصاد العربى» .

لقد تغيرت خريطة القوة فى الصراع وتغيرت الخريطة السياسية للشرق الأوسط وتغيرت بالتأكيد «حقيقة» الأمن الاسرائيلى ، كل أولئك بفضل اكتوبر ، ولكن «مفهوم» العدو للأمن ونظريته فيه لم تتغير حتى الآن فيما يبدو ، بل فى الواقع ، عما كانا عليه قبل أكتوبر ، أن العدو الذى سار دائما ضد التاريخ ينكر الآن تغير التاريخ ، والذى عاش دائما على فرض الأمر الواقع يرفض الآن أن يعترف بتغير الواقع . أم نقول مع المثل الانجليزى إن النمر لا يغير جلده ؟

من هنا يبدو السلام الحقيقى للبعض بعيدا جدا ، بعد أكتوبر كما كان قبله ، وأن كان البعض الآخر يعتقد أو يعلن أن السلام أصبح ممكنا فى الشرق الأوسط لأول مرة منذ ربع قرن . والواقع أنه يمكن ، وينبغى ، موضوعيا أن نصنف الرأى فى قضية السلام إلى مدرستين : المتفائلين والمتشائمين . فالكثيرون يرون أن حرب أكتوبر خلقت وضعا جديدا يسمح لأول مرة بالأمل فى قيام سلام حقيقى فى المنطقة .

من الكتاب والمفكرين ، مثلا ، كتب ميلانكوفيتش في مجلة الفكر الاشتراكي اليوجوسلافية «لأول مرة منذ وجدت اسرائيل عام ١٩٤٨ تقع تغييرات فى ميزان القوى بين اطراف المواجهة فى منطقة الشرق الأوسط ، مما يضع أمامنا اطارا واقعيا لسلام دائم فى المنطقة .. وقد وقعت هذه التغييرات بين أهم الأطراف المتصارعة ، رغم أن الحديث عن مثل هذه التغيرات قبل شهر من الحرب لم يكن يخطر ببال أحد كشىء ممكن فى وقت قريب» .

وبالمثل كتب ناداف سافران فى الفورين أفيرز أن دروس حرب ١٩٧٣ توضح أن تسوية النزاع العربى – الاسرائيلى قد أصبحت فى النهاية احتمالا واقعيا بالنسبة للأطراف المعنية مباشرة ، وضرورة حتمية بالنسبة لجميع الأطراف الخارجية التى تشترك فى هذا النزاع . ويضاعف من هذا الاحتمال أن التضامن العربى الشامل قد جعل من المستحيل على الولايات المتحدة أن تحاول فى المستقبل احتواء هذا النزاع ، إذا لم تتم تسويته ، وذلك عن طريق «توازن القوة» بين أطرافه .

أما من السياسيين ، فيأتى فى المقدمة قادة الولايات المتحدة . منذ أكتوبر كرر شلزينجر أكثر من مرة أن «لدينا الآن من أسباب التوصل إلى تسوية فى الشرق الأوسط أكثر مما كان لدينا خلال ٢٥ سنة» ، ولو أنه أضاف أن تزويد اسرائيل بأسلحة أمريكية غزيرة لتعويض خسائرها واستعادة التوازى العسكرى مع العرب «يمكن أن يكون عاملا فى حث اسرائيل على تقديم تنازلات لاقرار السلام» .

وأكثر من شلزينجر ، ولكن أيضا أكثر حذرا ، ردد كيسنجر الفكرة نفسها . «الولايات المتحدة ملتزمة باقرار سلام دائم فى الشرق الأوسط ، وأن ما تم تحقيقه حتى الآن لا تعتبره أكثر من خطوة أولى تجاه هذا الهدف الذى سنعمل من أجله معا وبكل ثقة» . وهناك فى رأى كيسنجر ٣ عقبات أساسية تعترض اقرار السلام فى الشرق الأوسط : تعديل الحدود ، اللاجئون الفلسطينيون ، القدس . ومن هنا «فما زال هناك طريق طويل للتوصل إلى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط ، والخطوة الأولى كانت أكثر الخطوات صعوبة» .

وعلى قمة المتتالية ذهب الرئيس الأمريكى نفسه إلى أن السلام الآن أقرب منه منذ ٢٥ سنة مضت ، بل وفيما بعد وصل إلى حد أن أعلن «أننا نعيش فى عصر أصبح فيه اقرار

السـلام فى الشـرق الأوسط ممكنا لأول مـرة خـلال جـيل كـامل» . وبهـذا جـعل الرئيس الأمريكى هذه الإمكانية علامة من علامات العصر أو شاهدا على عصر ، ثم عاد فأكد هذه النظرة حين اعتبر زيارته لمصر وسوريا نقطة تحول فى تاريخ البشرية لقرون عديدة قادمة» .

ويأخذ سكرتير عام الأمم المتحدة فالدهايم موقفا مقاربا ، لكنه أكثر حذرا . فهناك أمل حقيقى فى ايجاد تسوية لمشكلة الشرق الأوسط بفضل «الدبلوماسية الثنائية» التى يمارسها كيسنجر تعزيزا للجهود الدولية المتعددة الأطراف داخل اطار الأمم المتحدة . والدبلوماسية الثنائية هذه لا تغنى عن جهود الأمم المتحدة ، وإنما هما يتواكبان ، وأى منهما وحده لا يكفى لتسوية مشكلة فشلت جميع الجهود السابقة فى حلها . ولكنه يضيف فى مناسبة أخرى «الطريق نحو تسوية أزمة الشرق الأوسط طويل وصعب ، غير أن هناك الآن الأمل والاحسـاس الجاد بضرورة حل الأزمة» . ويكرر التحـذير بعد ذلك أيضا بأن «عملية المفاوضات ستكون طويلة وشاقة ، ويجب ألا نتوقع تسوية عامة وشاملة سريعة» ، ثم يضغط على نقطة مهمة قائلا «ان النجاح يتوقف إلى حد كبير على مقدرتنا على ايجاد حل مقبول للمشكلة الفلسطينية» .

ذلك موقف المتفائلين . ولكن من الجهة الأخرى ظهر الرأى المناقض منذ البداية، وعلى لسان مـايير بالذات ظهر ، فقد علقت على كلام نيكسون السابق بأنها «تخشى ألا تشارك الرئيس نيكسـون تفـاؤله» ، مـؤكـدة أن فـرص السـلام بعـد الحـرب الرابعـة ضـئيلة جـدا بالقياس إلى مـا كانت عليه قبلها ! ومـعظم قـادة اسرائيل يشـاركون مـايير هذا الرأى . وهذا كله أمر مفهوم جدا .

فاسرائيل لا تريد السـلام ، ولم تكن تتصايح به من قبل ، إلا بشروطها وبمفهومها ، أى بمعنى السـلام الاسرائيلى . أما الآن «فـأن سلمـا يفرضـه العرب» ، كمـا كتبت الموند ، «حتى ولو لم يؤد إلى القضاء على اسرائيل – وهذا ما ستعارضه الدول الكبرى على أية حال – ستكون نتيجته «حق» فلسطينى فى الدولة اليهودية من شأنه أن يتسبب فى تدمير بطىء لهيكلها» . والملاحظ كذلك فى هذا الصدد أن مشروع الدولة الفلسطينية الذى كانت تقبله وتعمل له اسرائيل من موقع القوة والتحكم بعد يونيو ، ليكون دولة مسخـا ومـحمية اسرائيلية «وبانتوستانا» فلسطينيا، أصبحت الآن بعد اكتوبر ترفضه وتحاربه بضراوة .

أما خارج معسكر العدو ، فهناك كثيرون يرون موضوعيا أننا لم نكن أبعد عن السلام، السلام الحقيقى القائم على العدل والحق ، مما نحن الآن ، وأن الرأى الذى يرى غير ذلك هو أما دعاية أو ادعاء أو دعوة مغرضة ، وإلا فانه على أحسن الفروض تفاؤل مسرف لا مبرر له . فعند بول بالتا مثلا أن كل الحلول والمحاولات السياسية التى بذلها الغرب وغيره لحل الصراع فشلت وستظل تفشل إلى أن يواجه الجميع المشكلة المزدوجة وهى قيام دولة اسرائيل واختفاء فلسطين . ولهذا ولكل الأسباب المعروفة والواقعية ، ينتهى إلى أن من الخطأ تركيز الأمل على السلام اليوم .

كذلك يعتقد الجنرال بوفر أن التوصل إلى حل وسط يبدو الآن ممكنا ، ولكنه قد يصبح غير ممكن فى المستقبل . من ناحية لأن اسرائيل ترفض وتكابر ، ومن ناحية أخرى لأن العرب ماضون فى طريق تفوق غير منازع فيه ، وهو أمر يعتبر ولا شك احتمالا سيئاً جداً بالنسبة لاسرائيل . أى أن جمود وعناد الموقف الاسرائيلى مع تطور العالم العربى من شأنه أن يخلق لاسرائيل وضعا متزايد الاضطراب والخطر .

أما من بين الدول ، إذا كان لنا أن نستكمل الصورة ، فإن هناك موقف الصين الثابت. فهى ترى من قديم ، وأكدت أخيراً بعد اتفاقية الفصل بين القوات على الجولان ، أن التنافس بين العملاقين سيجعل الشرق الأوسط فى حالة اضطراب مستمر ، وأن المشكلة الأساسية لم تسو بعد ولن تسوى لأن أسبابها الجذرية تكمن فى تنافس العملاقين . ومن ثم فإن «ما يسمى بالسلام العادل هو فى الواقع لا شىء» .

ومن هنا فإن السلام الحقيقى يبدو علامة استفهام محيرة . ومهما يكن من أمر ، فلئن كانت اسرائيل قد أدمنت فى الماضى «مخدر الأمن» ، فليس للعرب الآن ولا فى المستقبل أن يدمنوا «مخدر السلام» . وسواء صح أو لم يصح أن عدوانا انتحارى المزاج ، وسواء كان هكذا بالوراثة أو بالبيئة ، أى بالطبع أو بالظروف غير المعقولة التى وضع نفسه فيها ، فليس أمامنا نحن إلا أن نكون أمة فدائية وليس يفل الحرب الانتحارية الا حرب فدائية. إن الصراع مازال فى بدايته، ولا يزال الخطر على أشده ، ولازال أمامنا شوط بعيد جدا قبل أن نسترد الحق العربى كاملا ، أرضا وشعبا ، استقلالا وأمنا ، وانطلاقا وتطورا .

لكل هذا يبدو للبعض من السابق لأوانه كثيرا فى المرحلة الراهنة أن نتحدث عن تفاصيل التسوية السياسية والشكل الدستورى والخريطة التخطيطية للأراضى العربية المحتلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وما إذا كان يمكن أو لا يمكن أن تقوم فيها دولة فلسطينية ، أو ما إذا كانت هذه ترتبط أو لا ترتبط بشكل أو بآخر بالأردن أو بشرق الأردن وكذلك عن احتمال المطالبة بالعودة إلى حدود تقسيم ١٩٤٧ أو غيرها ، وما الذى ينبغى أن يفعله عرب اسرائيل القديمة : يبقون داخلها أو ينتقلون إلى الدولة الفلسطينية الجديدة ، إلى آخر تلك الأسئلة التى أثيرت وتثار مؤخرا . أن التفكير فى مثل هذه القضايا ضرورة تخطيطية دائمة بلا شك وأمر مطلوب باستمرار ، لكننا نخشى أن التطبيق والتنفيذ سوف يحتاج على ما يبدو إلى أن يمر أولا بمعركة أخرى ، الموقعة المكملة والمتوجة لأكتوبر . ولكن هذا على أية حال ينقلنا إلى مؤتمر جنيف واحتمالاته أولا .

حول المؤتمر

كان حتما بعد أكتوبر أن يتحرك العرب بكل شجاعة وثقة وبكل سرعة وقوة . وكان حتما كذلك أن يتخذ الفلسطينيون الخطوة نفسها ، بعد أن فرضت المعركة على العالم الاعتراف بالوجود الفلسطينى ككيان قومى لابد له من دولة مستقلة ، على اسرائيل أن تقبل بقيامها . وبعد أن قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن تذهب مع سوريا والأردن ومصر إلى جنيف للتسوية السلمية بشروطها الخاصة ومن مواقعها الثورية ، توحد الموقف العربى العام ، على الأقل على الحد الأدنى اللازم .

وبالمثل ، فبعد صراع داخلى مرير وحدت اسرائيل موقفها تقريبا على الحد الأدنى الضرورى كذلك لتدخل المؤتمر الذى سيقت اليه كارهة مرغمة . غير أن أحدا من الطرفين لا يذهب إلى المؤتمر ليصفى نفسه أو وجوده أو يتنازل عن حقوقه للآخر . كذلك فإن واحدة من القوى العظمى لا تذهب إلى المؤتمر لتصفية اسرائيل . ولهذا يدرك الجميع صعوبة المؤتمر والأخطار التى تحف به .

وابتداء ، يكاد يأخذ كلا الجانبين العربى والاسرائيلى موقفا اساسيا متشابها: التسوية السلمية بشروطه أو العودة إلى السلاح . فإذا بدأنا بالعدو ، فقد عبرت عن ذلك اخيرا وهى فى لندن شخصية اسرائيلية كبيرة - قيل انها غالبا آلون ، الذى يبدو أنه سيرأس وفد اسرائيل إلى المؤتمر - بأن «على اسرائيل أن تأمل فى أفضل الاحتمالات ، بينما تتهيأ لتقبل أسوأ الاحتمالات».

ولهذا فرغم أن آخر ما أعلنته اسرائيل على لسان رئيس وزرائها الجديد رابين هو أنه لا عودة إلى خطوط ما قبل يونيو ، فإن هناك ما يشير إلى امكان ارغامها على ابتلاع هذا الشرط . فلأول مرة فى تاريخها يدعو أحد اعضاء الوزارة الاسرائيلية – شولاميت آلونى – إلى الانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية التى احتلت فى ١٩٦٧ «حتى لا تصبح اسرائيل ايرلندا الشمالية أو جنوب افريقيا أخرى» . ولذلك فإن «اسرائيل يجب أن تذهب إلى جنيف وهى مستعدة للانسحاب من الأراضى العربية وخاصة الضفة الغربية للأردن».

ولا ندرى إذا كان هذا الموقف ينسحب على ، أو يمتد إلى . القدس . ولكنه ان لم يكن فسوف تكون القدس هى الصخرة التى قد تتحطم عليها التسوية بالنسبة للأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ . ولن يحل اقتراح تدويل القدس العربية هذه المشكلة ، لأن العرب ترفضه فى أى صورة . ولكن قد يكون المخرج من مأزق القدس هو تدويل القدس برمتها بقطاعيها الشرقى والغربى ، العربى والاسرائيلى ، ولو أن من المشكوك فيه جدا أن تقبل اسرائيل . ولكن حتى إذا لم تصبح القدس هى الصخرة التى تتحطم عليها التسوية ، فإن هذه الأخيرة قد ترقد فى مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة أو فى مفهوم التسوية ، سلام هى أم صلح؟ .

أما على الجانب العربى ، فكما لخص ياسر عرفات «أمامنا الآن احتمالان : اما الحرب ونحن معها ، واما التسوية وهى لن تكون أبداً على حساب الفلسطينيين» . ولهذا فإن الاستراتيجية العربية فى جنيف هى استرداد الأراضى العربية المحتلة فى يونيو كاملة واسترجاع حقوق الشعب الفلسطينى دون التفريط أو التنازل عن حقه التاريخى فى كامل أرضه والعودة إليه وحقه فى تقرير مصيره فوق ترابه الوطنى الكامل .

ولهذا فبالنسبة للفلسطينيين ، إذا كانت الدولة العلمانية الديموقراطية هى الحل الأمثل، ولكنه فى الظروف والحقائق الراهنة مثالى أو تجريدى ، فليبق هذا هو الهدف النهائى للنضال العربى على المدى الطويل ، ولتكن «السلطة الوطنية» على الأراضى الفلسطينية التى تنسحب منها اسرائيل هى الحد الأدنى الذى يقبلون به مرحليا لتكون فى المستقبل القاعدة الأرضية الأمامية الوثيقة للزحف المصيرى واسترداد بقية الوطن المقدس . المهم الآن ألا نصادر قط على المستقبل أو على الأمل أو على الحق التاريخى ، وأن ننتزع فى الوقت نفسه أقصى ما يمكن انتزاعه من بين براثن العدو .

وعند هذا الحد يصبح المستقبل ، كما يصبح المؤتمر ، علامة استفهام كبرى . فاحتمالات النجاح واحتمالات الفشل تكاد تكون متساوية ككفتى الميزان ، واحتمالات السلام أو الحرب تبدو مرهفة كحد الموسى . والتنبؤ السياسى بعد ذلك أصعب مما كان فى أى وقت مضى من تاريخ الصراع . ولكن الاجابة عند اسرائيل وحدها : هل تستمع للمرة الأولى والأخيرة إلى صوت العقل ، أن تفجر المؤتمر وتنسف السلام ؟

يقول سيروس سولزبيرجر حين بدأت فكرة مؤتمر جنيف «قد يبدو للوهلة الأولى أن العرب يملكون عددا وافرا من الأوراق الرابحة . ولكن هناك شيئاً ينبغى الا ينساه العالم ، هو أن الاسرائيليين جاءوا من «الجيتو» الأوربى بكل روح التحدى والمقاومة التى اكتسبوها ابان حكم النازى . ومن ثم فلا أحد يتوقع منهم ، بعد كل ما حققوه من مكاسب وثقة بالنفس ، أن يتخلوا عما بين أيديهم مقابل تأكيدات غامضة . وهذا عامل مهم جدا فى سير المفاوضات التى ستبدأ . فإذا أحس الاسرائيليون بأنهم يواجهون مغامرة حياة أو موت بالنسبة لهم ، وبأن كل الظروف تتكاتف ضدهم ، فسوف يبقى أمامهم برغم ذلك بديلان نهائيا ، فأما الأول فهو أن يقدر الاسرائيليون – سواء عن ادراك واقعى أو بسبب عقد «الجيتو» المترسبة فى أعماقهم – أن وجودهم بات معلقا على خيط رفيع ، وحينئذ فلابد أن تثور فى نفوسهم ذكريات «الماسدا» القديمة ، حين تجمع أجدادهم فى تلك القلعة الجبلية وقاوموا حتى آخر رجل فيهم . وهناك البديل الآخر ، إذا بلغت الضغوط عليهم حافة الهاوية ، أن يفكروا فى الالتجاء إلى مخزونهم الصغير من الأسلحة الذرية بدلا من أن يستسلموا . وفى أية لعبة دبلوماسية ، فان هذه الأوراق اليائسة ليست هى كل شىء».

أما العرب ، فإن «مصر وسوريا على استعداد لخوض مائة حرب جديدة دون التفريط فى حقوق الفلسطينيين» كما أعلن المناضل ياسر عرفات . أما مؤتمر جنيف فلسوف تكون له على الأقل ميزة تحديد الموقف وقطع الشك باليقين ، فإما أن يبدد «أسطورة» السلام وإما أن يبعد خطر الحرب . والمعركة السياسية الناشبة الآن والتى ستصل إلى ذروتها فى جنيف إما أن تحدد مصير نصرنا العسكرى فى أكتوبر ولو إلى حين وإلى حد ما ، واما أن تكشف عن حتمية معركة عسكرية جديدة تقرر مصير ذلك النصر نفسه . وفى كلتا الحالين فإن الحذر المطلق والدائم من الغدر والمباغتة هو الضمان الوحيد بالنصر .

ومع ذلك فيكاد الجدل القائم الآن حول امكانيات المؤتمر واحتمالاته يذكرنا إلى حد أو آخر بذلك الجدل الطويل المضنى بعد يونيو عن الحل السياسى والحل العسكرى . وفى الحالين فإن الواقع ، لا التنظير ولا الأمانى ، هو الذى سيفرض نفسه . بمعنى أنه كما فرضت المعركة نفسها على الجميع فى أكتوبر ، فإن المعركة التالية - إذا كان لابد ولا مفر منها - ستفرض نفسها على الجميع ، على أكتوبر وما بعد أكتوبر ، على أنصار أكتوبر كما على أعداء أكتوبر . بل يكاد المرء يقول انها لا تزال المعادلة القديمة : فإنها هى إما الحرب من جديد ، وإما تجميد الأمر الواقع الجديد . بل ونكاد كذلك نضيف : الآن فقط بدأ الصراع المسلح الحقيقى مع اسرائيل ، فقبل اكتوبر كانت الحرب شيئا ميئوسا منه ، ولكنها بعده أصبحت أملا وامكانية . تلك طبيعة الصراع ، وذلك قدرنا . ومع ذلك فلنستبق الأمل ولا نستبق الأحداث .

الفهرس

رقم الايداع: ١٥٣٢٢/ ٢٠٠٠
I. S. B. N
977-07-0921-2



الطباعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة

«كتاب المعركة» كما ينبغى ان يكون. وكما ينتظره المواطن الذكى والقارئ العصرى المثقف، هو عمل فكرى اساسا وبناء علمى محقق ومحلق، يستوعب كل التفاصيل الفنية وادق الدقائق الميدانية، دون ان يضيع مع ذلك فى جزئياتها أو يفقد الرؤية الشمولية والرؤيا المستقبلية أو حرارة الحماس والقدرة على تفجير الخيال.

هكذا، وبهذا، تتحدد فصول الكتاب:

- ارض المعركة: سيناء: خريطتها العسكرية، شبكتها الاستراتيجية، ثلاثية محاور الهجوم، وثلاثية خطوط الدفاع..
- مقدمات المعركة: إرهاصاتها ومناخها السياسى، خططها، توقيتاتها، عنصر المفاجأة..
- معركة التحرير الوطنية الكبرى: سيناريو الملحمة، احداثها، تطوراتها، ومراحلها..
- العبور.
- اقتحام الخط.
- رأس الجسر.
- القاعدة الأرضية وتطوير الهجوم.
- المعركة السورية الكبرى: ملحمة الجولان: الأرض، الاستراتيجية، الصراع الميدانى، المد والجزر..
- لمن النصر؟ - نتيجة المعركة والضربة التى زلزلت اسرائيل.
- اكتوبر وانقلاب الفكر العسكرى والاستراتيجية العالمية.
- اكتوبر واستراتيجية السياسة العالمية.
- العرب والمعركة.
- العدو والمعركة.
- العالم والمعركة.
- بعد أكتوبر: آفاق المستقبل واحتمالاته ومستقبل الصراع..